

القديس يوحنا كاسيان

حياته، كتاباته، أفكاره

١٩٩٨

طبعة منقحة ومزودة

القمص تادرس يعقوب ملطي

القديس يوحنا كاسيان

حياته

نشأته^١

يعتبر القديس يوحنا كاسيان أحد مشاهير الكُتّاب الروحيين في القرن الخامس في جنوب بلاد الغال (فرنسا)، خاصة في الفكر الرهباني. نجح في تطوير الحياة الرهبانية هناك. كان سفيراً للتراث الأبائي النسكي القبطي في الغرب. وهو أحد أعمدة التقليد الكنسي النسكي فيما يختص بالطقس الرهباني الحي، يربط بين نواحيه الخارجية والداخلية، وبين الطقس والروحانية بطريقة حية. كان ملماً به بكل دقة، عاشه إلى سنوات في مصر وخارجها، لذا نقله بكتاباته وحواراته كما بكل حياته.

يرى جيناديوس Gennadius of Marseilles أنه ولد في سكيثيا^٢ Scythia أي (Dobruja)، تدعى حالياً رومانيا Romania. ويرفض الدارسون المحدثون نسبته إلى سكيثيا، يرى البعض أن تعبير "Scythia" ربما لا يعني انه سكيثي، بل تشير إلى صحراء الإسقيط Scete أو Scetis في مصر، حيث قضى كاسيان عدة سنوات في هذه المنطقة، وأنه بسبب التصاقه بها وبأبائها نال شهرته، فحسبت كأنها موطنه.

يرى البعض الدارسين الحديثين أنه من Provence^٣.

يلقبه المؤرخون القدامى مثل جيناديوس وكاسيودورس Cassiodorus و غريغوريوس أسقف تور Gregory of Tours "كاسيانوس"، ودعي في بستان الرهبان "قسيانوس الرومي".

وُلد ما بين ٣٥٠، ٣٦٠م وتتيح ما بين ٤٥٠، ٤٤٠م، إذ عاش حوالي تسعين عاماً. ينتمي كاسيان إلى عائلة مسيحية صالحة، وكان مسيحياً بالحق، دُعي يوحنا في العماد.

تمتع في صباه بالتعليم الكلاسيكي الصالح^٤، وتحدث اليونانية بطلاقة، متدرباً عليها أثناء وجوده في الشرق. في المناظرة ١٢:١٤ يعلن عن حزنه الشديد أن ما تعلمه في صباه من أدب وما تلقنه من معلمه وخلال جهده الخاص شحن ذهنه بالشعر، حتى أنه كان يفكر فيه أثناء الصلاة، ويتذكر الأمور التافهة وقصص المعارك التي سمعها في طفولته المبكرة. كانت الخيالات ترقص أمامه أثناء تلاوة المزامير، وتثيره فتفقده نقاوة التأمل في الإلهيات. أشار في كتابه "عن التجسد ضد نسطور" إلى معرفته ليس فقط لأعمال آباء الكنيسة الأولين، بل وإلى أعمال الكتاب المشهورين مثل شيشرون Cicero وبيرسوس Persius^٥.

حياته الرهبانية

حوالي سنة ٣٨٠م ما أن اجتاز مرحلة المراهقة حتى انطلق إلى فلسطين مع صديقه من نفس بلده

^١ Quasten: Patrology, vol. ٤, p. ٥١٢ ff.

^٢ De Vir Illus. ٦٢.

^٣ N& PN Frs. Series ٢, vol. ١١, p. ١٨٣.

^٤ Conf. ١٤:٥.

^٥ De Incarn., ٦:٩:١٠.

جرمانوس^٦، وقد ارتبطا معًا برباط روحي عميق. هناك استقرا في دير ببيت لحم^٧.

بعد عامين انطلق إلى مصر حيث قام بزيارة الرهبان هناك. زار بعض الأديرة التي تمارس نظام الشركة في طيبة، ثم انطلق إلى بركة الإسقيط حيث بقي سبع سنوات يلتقي فيها بمشاهير الآباء الرهبان، وقد جاءت أغلب مناظراته ثمرة لهذه الزيارات.

عاد كاسيان بعد سنوات إلى بيت لحم، لكنه لم يبق فيها إلا لمدة قصيرة ثم عاد إلى الإسقيط في عام ٣٨٦ أو ٣٨٧م. كان صديقًا حميمًا للقديس أوغريس وأتباع أوريجينوس. وبسبب ارتباطك الرهبان بمشكلة "الأوريجانية" ودخولهم في صراع مع البابا ثاوفيلس السكندري اضطر إلى مغادرة مصر نهائيًا عام ٣٩٩^٨.

ذهب كاسيان إلى القسطنطينية حيث تأثر بالقديس يوحنا الذهبي الفم الذي سامه شماسًا، وسام صديقه جرمانوس كاهنًا، لكن كاسيان تراجع عن الالتزام بأية مسئولية كنسية^٩. في نهاية حياته أشار إلى القديس يوحنا الذهبي الفم بكل وقار، قائلاً: "ما أكتبه علمني إياه يوحنا، واعتبر ما أكتبه يُنسب إليه أكثر من أن يُنسب إليّ. فإن المجري يصدر عن الينبوع، وما يُنسب للتلميذ يلزم أن يُنسب بالكامل لكرامة المعلم."^{١٠}

في عام ٤٠٤ ذهب إلى Patria مع صديقه يحملان رسالة موجهة من كهنة القسطنطينية أصدقاء القديس يوحنا ذهبي الفم المضطهد، إذ وثقوا فيهما، لكي يقدموا رسالتهم إلى أسقف روما إنوسنت الأول Innocent I، ويطلبون التدخل من أجل أسقفهم المنفي^{١١}. وفي روما دخل في صداقة مع الشماس لاون الذي صار فيما بعد بابا روما (أول من نادى بالبابوية الرومانية). وقد قدم له كتابًا "عن التجسد الإلهي". في هذه الفترة فقد صديقه العزيز لديه جدًا جرمانوس، ربما بانتقاله من العالم.

في عام ٤١٥ أو ٤١٦م أقام كاسيان في مرسيليا ككاهن، وأسس ديرًا للرجال باسم القديس فيكتور أو بقطر، حيث صار الأب الروحي ورئيسًا للدير، وآخر للنساء باسم القديس سالفاتور. سرعان ما انتشرت الحركة الرهبانية هناك وضمت الأديرة الآلاف من الرهبان والراهبات^{١٢}.

حقًا لقد سبقه أونراتس أو هونوراتس Honoratus في التهيئة لتأسيس دير في جزيرة الليران Lérins وذلك في سنة ٤١٠م، وقد تولى كاسيان تكملة تأسيسه، وظل يحمل اسمه حتى اليوم. وقد نال شهرة عظيمة، لكن كاسيان قدم لأول مرة نظامًا محكمًا للحياة الرهبانية يحمل الفكر الرهباني الشرقي، خاصة مصر، خلال كتابيه المشهورين^{١٣}. يقول فرند أن كاسيان أمد الولايات الغربية بالنظام الرهباني الذي يمكنهم أن يقلوه، والذي أعد الطريق للنظام البندكتي^{١٤}.

^٦ Conf. ١:١٠.

^٧ Conf. ١٤:١.

^٨ راجع كتابنا: القديس يوحنا الذهبي الفم ١٩٨١.

^٩ De incarn. ٨:٣١:١.

^{١٠} Instit. ٢:١٨.

^{١١} De Incarn. ٧:٣٠.

^{١٢} Palladius: dialogue ٣:٣.

^{١٣} K.S. Latourette: A History of Christianity, ١٩٥٣, p. ١٣٣.

^{١٤} cf. J.W.C. Wand: A History of the Early Church to A.D. , ١٩٧٩, p. ١٩٧.

^{١٥} W.H.C. Frend: The Early Church, ١٩٨٩, p. ١٩٧.

ويقول Montolembert إنه سرعان ما صار هذا الدير مدرسة للإلهيات والفلسفة المسيحية، وقلعة منيعة ضد أمواج البربرية، وملجأ للعلوم والآداب عندما غزا الغوطيون إيطاليا. وبالاختصار صار هذا الدير مربياً للأساقفة والقديسين.

قدم كاسيان إرشادات لكاستور أسقف Apt بخصوص الأديرة الحديثة، وطلب إعادة تنظيم الرهبة في الغرب، متأثراً بخبراته الرهبانية في الشرق، مطالباً بمزج حياة الشركة ببعض أساسيات لحياة الوحدة.

إذ تأثر المسيحيون في الغرب بترجمة "حياة أنطونيوس بقلم القديس أنبا أثناسيوس" إلى اللاتينية وكتابات روفينوس عن آباء البرية في مصر، جاءت حركة القديس كاسيان الرهبانية في جنوب بلاد الغال في الوقت المناسب ليحقق ما اشتهاه البعض. وكما يقول Montalembert في كتابه "رهبان الغرب" إن كاسيان فتح ذراعي الحب إلى أبناء كل الشعوب الذين يرغبون في حب المسيح، فانضم إليه جمع من التلاميذ من كافة الشعوب. فلم يعد الغرب يحسد الشرق. غير أن تشكك البعض في أرثوذكسية كاسيان بسبب هجوم أتباع أغسطينوس عليه كما سنرى، إذ اتهموه بالميل البيلاجية، حد من دوره.

إن كان بندكت منشئ أعظم رهبانيات الغرب ويفوق كاسيان في شهرته مدين لكاسيان، فمعظم قوانين الرهبة في النظام البندكتي مأخوذة عن القديس كاسيان مباشرة.

القديس يوحنا كاسيان كتابات

في مارسيليا بناء على طلب الأسقف كاستور وضع كاسيان العملين التاليين:
أولاً: المؤسسات لنظام الشركة.
ثانياً: المناظرات.

وضع كاسيان "المؤسسات لنظام الشركة" يحوي الجوانب الخارجية التنظيمية والطقسية للحياة الرهبانية والمماريات الروحية التي يتعرض لها الراهب في نظام الشركة، وجاء عمله الثاني "المناظرات" ليكمل هذا العمل ويدخل بنا إلى عمق الفكر الرهباني الحي، كحياة شركة داخلية مع مخلص البشرية. وكأن العملين مرتبطان معاً بمنطق روحي وهدف واحد. الأول اهتم بالجانب الجماعي العملي والتنظيمي بمنظار روحي، والثاني اهتم بالجانب الشخصي الروحي، دون فصل بينهما، فالعملان ركزا على الحياة الرهبانية وتقاليدها وروحها.

أولاً: المؤسسات (الساير) لنظام الشركة *De institutis caenoborum*

وجه القديس كاسيان أول عمل كتابي إلى الأسقف كاستور (٤١٩-٤٢٦)، يحوي ١٢ كتاباً في جزئين، وصف فيهما حياة الراهب الخارجية وصراعاته ونصراته على الثمانية خطايا العظمى.

الجزء الأول ١-٤

بعد المقدمة الموجهة للأسقف كاستور، يعرفنا القديس يوحنا كاسيان في هذه الكتب على المبادئ والحياة الرهبانية، مقدماً لنا خبرته المصرية للرهبنة.

الكتاب الأول : ملابس الراهب

إن كان قد اهتم القديس كاسيان حتى بملابس الراهب لكنه كقائد روحي حي يركز على أعماق النفس الداخلية بفكر إنجيلي. ففي مقدمة حديثه عن ملابس الرهبان يقول: [عندئذ يمكننا أن نشرح في الوقت المناسب حياتهم الداخلية عندما نضع أمام أعينكم إنسانهم الخارجي. فإن الراهب كجندي للمسيح مستعد دائماً للمعركة يلزمه أن يسير على الدوام بمنطقاً حقيقياً].^١

١. غطاء الرأس أو كوكوللا *cuculla*: يرتديه الرهبان المصريون ليلاً ونهاراً. يرى فيه القديس كاسيان تمثلاً بالأطفال ليعيش الرهبان في بساطة واتضاع، ولكي يعودوا إلى الطفولة في المسيح يسوع، مترنمين في كل الساعات بالقلب والنفس: "يا رب لم أسلك في العظام، ولا في العجائب التي هي أعلى مني، فإن كنت لم أتضع، لكن رفعت صوتي مثل الفطيم من اللبن على أمه" (مز ١٣١: ١، ٢).^٢

٢. ثوب الراهب: يجب ألا يكون فاخراً، بل يكون ثوباً ليغطي به جسده.^٣

^١ فصل ١.

^٢ فصل ٣.

^٣ فصل ٢.

٣. قميص *tunic* من الكتان يصل إلى الركبة وبلا أكمام، ليدرك الراهب المصري أنه قطع كل أعمال هذا العالم، وأنه قد مات عن كل أحاديث أرضية (كو ٣: ٥؛ غلا ٢: ٢٠؛ ١٤: ٦).^٤

٤. اسكيم من الصوف، يمر خلف الرقبة ثم ينقسم أمامها ليعبر كل منهما تحت الإبط ويدور حول الوسط. غايته أن يضم ملابس الراهب حتى لا تعوقه عن العمل، بل يكون دائماً مستعداً لكل عمل، ساعياً بكل قوته أن يحقق وصية الرسول: "حاجاتي وحاجات الذين معي خدمتهما هاتان اليدان" (أع ٢٠ : ٣٤)، "ولا أكلنا خبزاً مجانياً من أحد بل كنا نشغل بتعب وكد ليلاً ونهاراً لكي لا ننقل على أحدٍ منكم" (٢ تس ٣ : ٨)، "إن كان أحد لا يريد أن يشتغل فلا يأكل أيضاً" (٢ تس ٣ : ١٠).^٥

٥. ثوب من جلد الماعز يُدعى *melotes* أو *pera*، يرتديه الراهب متمثلاً بالذين عاشوا في العهد القديم كظل للحياة الرهبانية، وكما يقول الرسول: "طافوا في جلود غنم وجلود معزى، معتازين مكرويين مُذلين، وهم لم يكن العالم مستحقاً لهم، تائهين في براري وجبال ومغايير وشقوق الأرض" (عب ١١ : ٣٨، ٣٧). يشير هذا الثوب الجلدي إلى تحطيم كل ملذات الجسد لكي ينطلقوا على الدوام في سمو الفضيلة، فلا يبقى في أجسادهم شيء من شهوات الشباب والتفكير القديم التافه.^٦

٦. العصا: يستخدمونها متشبهين باليشع النبي (٢ مل ٤ : ٢٩)، أما مفهومها الروحي فهو أنه لا يليق بالراهب أن يسير غير مسلح بين كلاب الخطايا التي تتبحر والوحوش الروحية في الشر غير المنظورة، هذه التي أراد داود الطوباوي أن يتخلص منها، قائلاً: "لا تسلم يا رب للوحش النفس التي اتكلت عليك" (مز ٧٤ : ١٩). عندما تهاجمه يلزمه أن يضربها بعلامة الصليب ويطردها بعيداً. وعندما تنثور بعنف ضده يبددها بمصالحته الدائمة التي لآلام الرب وإتباعه مثال حياة الإماتة.^٧

٧. لا يلبسون النعال (ربما لأنهم يشعرون دائماً أنهم على أرض مقدسة خر ٣ : ٥؛ يش ٥ : ١٦). لكن يمكنهم ارتدائه في حالة ضعف الجسد أو صقيع الأرض صباحاً في الشتاء أو حرارة الظهيرة، فهو للحماية فقط، متذكّرين أنه يلزم للنفس أن تكون دائماً مستعدة للسباق الروحي والكراسة بإنجيل السلام، حيث تجري أقدامنا نحو رائحة المسيح الذكية. وكما يقول داود "أجري في عطش" (مز ٦٢ : ٣) وإرميا: "اتبعك بغير اضطراب" (إر ١٧ : ١٦ LXX). يلزمنا ألا نترك أقدامنا باهتمامات العالم القاتلة.

٨. يختم القديس كاسيان حديثه عن ملابس الراهب المصري بتأكيد ارتداء المنطقة الروحية، فيكون الذهن مستعداً لكل عمل للدير دون عائق بشيابه، وبأكثر غيرة نحو نقاوة القلب فينمو روحياً ويتمتع بمعرفة الإلهيات، ويمارس الإماتة عن الشهوات والملذات، متذكراً على الدوام وصية الإنجيل: "لتكن أحقاؤكم منطقة" (لو ١٢ : ٣٥).^٨

الكتاب الثاني: الخدمة الليلية حسب الطقس المصري

يتحدث فيه عن صلوات السواعي (الأجبية) والسهر، جاء فيها:

^٤ فصل ٤.

^٥ فصل ٥.

^٦ فصل ٧.

^٧ فصل ٨.

^٨ فصل ١١.

[إذ يتمنطق جندي المسيح بهذه المنطقة المزدوجة... يليق به أن يتعلم صلوات السواعي ونظام المزامير التي رتبها الآباء القديسون في الشرق. أما عن سماتها وطريقة الصلاة فكما يوجهنا الرسول: "صلوا بلا انقطاع" (١ تس ٥ : ١٧)، سنعالجها كما يعطينا الرب في المكان المناسب، عندما نبتدئ نسردها المناظرات مع شيوخ إسقيط مصر^٩.]

[أعتقد أنه من الأفضل أن أتبع أقدم نظام للآباء هذا الذي لا يزال يحتفظ به خدام الله في مصر كلها، حتى يتعلم ديركم الجديد، الذي لا زال في طفولته في المسيح والذي بلا خبرة، أقدم الأنظمة للآباء الأوائل^{١٠}.]

[في كل مصر وطيبة حيث تأسست الأديرة يزهد كل شخص العالم، ليس حسب هواه، وإنما خلال التمثل بالآباء الذين لا تزال تقاليدهم باقية حتى اليوم، والتي وُضعت لكي تدوم. لقد لاحظنا في هذه الأديرة نظامًا للصلوات موضوعًا، يُراعى في اجتماعاتهم المسائية وسهراتهم الليلية. فإنه لا يُسمح لشخص ما أن يرأس اجتماعًا للإخوة أو حتى يدبر أمور نفسه ما لم يتخلص أولاً من كل ممتلكاته وأن يتعلم أيضًا الحقيقة أنه ليس مدبرًا لنفسه، وليس له سلطان على تصرفاته. لأن من يزهد العالم، مهما كانت ممتلكاته أو غناه الذي يملكه، يلزمه أن يسعى ليحيا نظام الشركة، فلا يفتخر بأية وسيلة بما قد تركه أو بما أحضره إلى الدير. يلزمه أيضًا أن يكون مطيعًا للكل، لكي يتعلم أن يعود ليكون طفلًا صغيرًا (مت ١٨ : ٣) كقول الرب، فلا يُعجب بنفسه، ولا بعمره، ولا بعدد السنوات التي يحسبها الآن مفقودة حيث قضّاها في العالم بلا هدف، ويدرك إنه مجرد مبتدئ، وبسبب حداثة تدريبه إذ يعرف أنه يخدم المسيح، لا يتردد عن أن يخضع حتى للأصغر منه.

علاوة على هذا يلتزم أن يدرّب نفسه على العمل والتعب، لكي يعد بيديه طعامه اليومي سواء لنفسه أو لاحتياجات الغرباء، كوصية الرسول (١ تس ٩ : ١١)، وأن ينسى كبرياء حياته السابقة وترفّه، مقتنيًا اتضاع القلب بالتعب بانسحاق.

هكذا لا يُختار أحد ليقام على جماعة إخوة قبل أن يتعلم ذلك الذي يوضع في مركز سلطة الطاعة وما يجب أن يأمر به الخاضعين له، ويكتشف من أنظمة الشيوخ ما يعلم به الحديثين التابعين له. إذ قبل أن تحكم أو تكون تحت الحكم بطريقة حسنة يحتاج الأمر إلى إنسان حكيم، ويُحسب هذا أعظم هبة ونعمة للروح القدس. فإنه لا يقدر أحد أن يأمر الخاضعين له بوصايا نافعة إلا ذاك الذي سبق فتدرب على كل أنظمة الفضائل. ولا يقدر أحد أن يطيع شيخًا إلا ذاك الذي يمتلئ بمحبة الله ويتكمل في فضيلة الاتضاع^{١١}.]

في الفصل الرابع يوضح عادة تحديد المزامير باثني عشر مزمورًا في صلوات الغروب والخدمة الليلية، وختم الصلاة بفصل من العهد القديم وآخر من العهد الجديد. وأن هذا النظام قديم جدًا، ظل معمولًا به دون أن يُكسر، ويُقال أنه ليس من اختراع إنسان، بل نزل إلى الآباء من السماء بخدمة ملاك.

وفي الفصل الخامس أوضح كاسيان أن كنيسة الإسكندرية ابتدأت بالإنجيلي الطوباوي مرقس كأسقف عليها، وأن جماهير المؤمنين كانوا يبيعون كل شيء ويقدمونها للكنيسة، وينسحبون إلى خارج المدن ليمارسوا حياة الوحدة في زهد وتقوى. وقد نظموا العبادة تجنبًا للشقاق. وإذا اختلفوا في عدد المزامير التي تُصلى، حدث إذ اجتمعوا لممارسة صلاة الغروب قام واحد في الوسط (ملاك) وابتدأ يسبح بالمزامير وهم جلوس ينصتون

^٩ فصل ١.

^{١٠} فصل ٢.

^{١١} فصل ٣.

إلى المرتل الذي تلى اثني عشر مزموراً، ثم أنهى الأخير بالليلويا، ثم اختفي فجأة، بهذا وضع حدًا للمناقشة في هذا الأمر. هكذا يرى القديس يوحنا كاسيان أن الصلاة بالمزامير وتحديد عددهم ١٢ مزموراً يرجع إلى القرن الأول الميلادي.

في الفصل السابع تحدث عن ممارسة المطانيات أثناء المزامير.

يقول بأن المصري لا يتسرع بالسجود قبل نهاية المزمور كما يحدث في أديرة جنوب فرنسا كمن يريد أن ينهي صلاته سريعاً^{١٢}.

إذ يحني المصري ركبتيه يمضي بعض الوقت في الصلاة، لكنه سرعان ما يقوم منتصباً ويبسط يديه حتى لا تتشتت أفكاره بالسجود لفترة طويلة^{١٣}.

لا يجرؤ أحد أن يحني ركبتيه قبل أن ينحني الرئيس، ولا يتمادى أحد في سجوده بعد أن يقوم الرئيس، وإلا يكون قد فصل نفسه عن الجماعة^{١٤}.

في الفصل الثامن أوضح توزيع المزامير حيث يرسم المزمور الشخص الذي يقف في المنتصف. ولا تُقال المجذلة "المجد للآب والابن والروح القدس" إلا في نهاية التسبحة. وأوضح أن المزامير لم تكن تتلى بل تُرسم كتسبحة أو أغنية للرب^{١٥}.

في الفصل التاسع أوضح أن المصريين لا يهتمون بإنهاء المزامير التي يسبحونها بتلاوتها مرة واحدة دون توقف، لكنهم يقسمونها إلى قسمين أو ثلاثة حسب عدد الآيات... انهم لا يهتمون بالعدد بل بانتباه الذهن والفهم، حاسبين أنه من الأفضل أن يصلى الشخص عشرة أبيات بتسبيح مفهوم وفكر يقظ عن أن يتلو المزمور كله بفكر طائش. هذا غالباً ما يحدث حينما يهتم المرتل بالأعداد، ولا يضع في حسابه توضيح الألفاظ والمعاني، انه كمن يُسرع لينهي الخدمة.

بسبب عدم الدراية يطيل الراهب المبتدئ في التسبيح أكثر من المعتاد، بينما يهتم المتقدم صاحب الخبرة ألا يسبب مللاً للحاضرين أثناء التسبيح بسبب التطويل^{١٦}.

وفي الفصل العاشر يوضح كيف يمتاز المصريون في صلواتهم بالسكون، فمع كثرة عدد الحاضرين يترنم واحد بمزمور ولا تسمع صوتاً كأنه لا يوجد أحد غير المرتل وحده الذي يقف في المنتصف. ليس من يبصق ولا من يتأعب أو يفتح فاه ولا من يتنهد... حتى لا يشتت فكر غيره.

كما تتسم الصلوات بأنها مختصرة حتى لا يتخللها تشويش يقطع الصلاة فجأة في أوج حرارتها حتى لا يخطف الشيطان الفكر ويطيش به بعيداً ولكي لا تفتقر الصلاة أو تبرد^{١٧}.

[يعتقد (الآباء) أنه من الأفضل أن تكون الصلوات قصيرة وتقدم بطريقة متكررة على الدوام، حتى من

^{١٢} فصل ٧.

^{١٣} فصل ٧.

^{١٤} فصل ٧.

^{١٥} فصل ٨.

^{١٦} فصل ٩.

^{١٧} فصل ١٠.

جانب نستطيع أن نلتصق بالله باستمرار، ومن الجانب الآخر باختصارها نتجنب السهام التي يريد العدو أن يجرحنا بها خاصة أثناء ممارسة صلواتنا^{١٨}. جاء في الرسالة ١٣٠: ٢٠ للقديس أغسطينوس: [جاء عن الإخوة في مصر انهم يمارسون صلوات متنوعة جداً وقصيرة للغاية. إنها تتطلق فجأة وبسرعة حتى لا يتشتت الذهن اليقظ والمنتبه، والذي يُعتبر أثمن ما في الصلاة...]

وفي الفصل الحادي عشر ذكر أن المصريين لم يكونوا يهتمون بكمية الآيات التي تُرَنَّم في الصلاة بل بضبط الفكر هادفين نحو: "أرَنَّم بالروح وأرَنَّم بالفهم" (١ كو ١٤: ١٥)، كما أكد اهتمام المرتل أن يكون النطق واضحاً ومفهوماً.

يعمل في الفصل الثاني عشر سرّ جلوسهم بينما كان المرتل وحده يقف ليسبح أنهم كانوا يعملون طول النهار بكل غيرة صائمين فلا يستطيعون الوقوف وقتاً طويلاً.

وفي الفصل الثالث عشر أوضح أنه لم يكن يسمح للراهب أن ينام بعد الخدمة المسائية مباشرة حتى لا يثير عدو الخير في أحلامه خيالات تسقطه. يليق بالراهب أن يسهر في قلايته حتى لا يفقد بركة المزامير والصلوات.

وفي الفصل الرابع عشر يقول أن الراهب يكرس حياته في قلايته للعمل اليدوي والصلاة بالتساوي.

وفي الفصل الخامس عشر يوضح أنه لا يجوز للرهبان بعد الصلوات أن يتباطئوا في الذهاب إلى قلايتهم والالتقاء مع بعضهم البعض، كما ليس لهم أن يتركوا أعمالهم وقلايتهم خلال اليوم إلا إذا كان هناك استدعاء لواجب هام.

في الفصل السادس عشر يعلن أنه لا يجوز للراهب أن يشترك في الصلاة مع راهب ممنوع من الصلاة الجماعية، حتى يقدم الشخص توبته وتقبله الجماعة.

في الفصل السابع عشر يقول بأن المسئول عن تنبيه الرهبان للصلاة يجب أن يلتزم بالمواعيد المحددة ولا يسلك حسب هواه.

أخيراً في الفصل الثامن عشر يوضح أنه لا يجوز عمل المطانيات من السبت عشية حتى الأحد عشية.

الكتاب الثالث: الخدمة النهارية حسب طقس فلسطين وما بين النهرين.

١. بعد أن تحدث كاسيان عن نظام الصلوات المسائية (السهر) والمزامير في مصر في الحياة الرهبانية، قدم نظام الصلوات في فلسطين وما بين النهرين (الميصبة Mesopotamia)، حاسباً إياه أكثر اعتدالاً. ففي مصر الصلوات لا تنقطع، وrehبان مصر يقدمون الصلاة الدائمة أكثر من تلك التي في أوقات محددة، مع التزام بالعمل اليدوي في القلاية وقراءة الكتاب المقدس^{١٩}. أما في أديرة فلسطين وما بين النهرين فخدمة السواحي النهارية هي الثالثة والسادسة والتاسعة، مكتفين بثلاثة مزامير في نهاية كل صلاة^{٢٠}.

^{١٨} فصل ١٠.

^{١٩} فصل ٢.

^{٢٠} فصل ٣.

ففي الساعة الثالثة حلّ الروح القدس على التلاميذ، وفي السادسة تمت ذبيحة ربنا يسوع التي بلا لوم غالبًا قوات الظلمة، وفي التاسعة بدد السيد المسيح ببهاء مجده ظلمة الجحيم وكسر مصاريحه الحديدية وحرر القديسين من السبي ورفعهم معه إلى السماء^{٢١}.

تُقدم هذه الصلوات بجانب الخدمة المسائية (مز ١٤١: ٢) وخدمة الصباح (مز ٦٣).

٢. في الفصل الرابع أوضح كاسيان أن صلاة باكر كانت قبلاً ملتصقة بصلوات السهر، لكن بسبب كسل بعض الإخوة الذين كانوا ينامون حتى شروق الشمس تقرر فصل صلاة الصباح لكي يجتمع الكل لهذه الخدمة ويسبحوا ثلاثة مزامير تمجيدًا للثالوث القدوس.

٣. في الشرق لم تسمح الأديرة القديمة الثابتة بهذا التغيير، فبقيت صلاة باكر ملتصقة بصلاة السحر.

٤. في الفصل الخامس ذكر كاسيان أنه في فرنسا إذ لم يعرف البعض سبب فصل صلاة باكر عن صلاة السحر كانوا يعودون بعدها إلى فراشهم ليستأنفوا نومهم. وقد هاجم كاسيان هذه العادة بشدة، مادحًا الرهبان المصريين، قائلاً:

[لكي يتجنب المصريون ذلك اعتادوا على القيام في أوقات محددة قبل صياح الديك لممارسة خدمة السواعي ويستمرّون في سهرهم بالتسبيح حتى طلوع نور النهار. وإذ يشرق عليهم نور الصباح يجدهم قائمين في حرارة الروح، التي تحفظهم أكثر حرصًا وانتقادًا طول النهار، إذ تجدهم في حالة استعداد للصراع، متشددين بالقوة في حريهم اليومية ضد إبليس بممارسة أسهار الليل وهذيق الروح^{٢٢}.

٥. المزامير التي كانت تسبح في السحر هي ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، أما صلاة باكر الجديدة فيسبح فيها مز ٥٠ (٥١)، ٦٢ (٦٣)، ٨٩ (٩٠)^{٢٣}.

٦. لا يجوز لمن يأتي قبل نهاية المزمور الأول أن يشترك مع جماعة الرهبان في الترنم بالتسبيح، ولا يُسمح له بالدخول، بل يبقى خارجًا، وعند نهاية الصلاة يلقي بنفسه على الأرض أمام الإخوة مقدمًا توبة، سائلًا الحل على إهماله وتأخره، حتى يمكنه أن يشترك بعد ذلك في الساعة التالية. أما بالنسبة للصلوات المسائية فيُسمح للراهب أن يتأخر حتى نهاية المزمور الثاني^{٢٤}.

٧. سهرات الصلاة في السبت عشيه أكثر طولاً^{٢٥}، وخدمة يوم الأحد تختلف عن بقية أيام الأسبوع^{٢٦}.

الكتاب الرابع: عن جاحدي العالم (الحياة العامة والفضائل اللائقة بها)

يقدم لنا هذا الكتاب في فصوله الثلاثة وأربعين أشبه بدستور عملي للإنسان الذي يريد أن ينبذ محبة العالم ويرتبط بجماعة رهبانية تكرر حياتها لله، وقد جاء كثير مما ورد في هذا الكتاب مطابقاً للقوانين الباخومية.

فيما يلي ملخص مبسط لما ورد في هذه الفصول:

^{٢١} فصل ٣.

^{٢٢} فصل ٥.

^{٢٣} فصل ٦.

^{٢٤} فصل ٧.

^{٢٥} فصل ٨.

^{٢٦} فصل ١١.

ف١: يروي أن منطقة طيبة (حيث توجد الأديرة الباخومية) تضم عددًا أكبر من الرهبان، وتتبع نظامًا حازمًا دقيقًا أكثر من غيرها. يوجد أكثر من ٥٠٠٠ راهب تحت قيادة أب واحد، يخضع الكل لشيخ واحد في طاعة كاملة.

ف٢: يبدأ الرهبان بنبذ محبة العالم منذ بداية الطريق حتى يبلغوا مرتفعات الكمال.

ف٣: كانت أبواب الدير مغلقة أمام طالبي الرهينة، ليدركوا أنهم إنما يطلبون الطريق الضيق، لا طريق الراحة والمجد الزمني. يبقى طالب الرهينة عشرة أيام أو أكثر خارج الأبواب، لا يجد كلمة لطيفة من الإخوة الرهبان الذين يعبرون به، بل تُختبر مدي مثابرتة للتأكد من صدق نيته ولكي يختبر حياة الاتضاع وطول الأناة. وكان يصنع مطانيات أمام الإخوة الذين يعبرون عليه.

متي قبل في الدير يصير تحت مراقبة شديدة، وخاصة من جهة اتضاعه وصبره وطاعته. وإن وجدت معه قطعة نقود واحدة مما كان يملكه قبلاً يُطرد من الدير ويلقى خارجاً كما يُدفع بحجر من مقلاع (القوانين الباخومية ٢٦).

ف٤: يرفض الدير قبول أية مقدمة مما كان لدى طالب الرهينة، معللاً ذلك بثلاثة أسباب:

١. حتى لا يفخر على إخوته الفقراء.
٢. لئلا يحرم نفسه من اتضاع المسيح.
٣. حتى يسهل طرده من الدير إن لم يصلح للرهينة دون أن يشعر الدير بالحاجة إلى ما قدمه الشخص من تقدمات مادية.

ف٥: متي قُبِلَ إنسان في الدير يخلع ملابسه، ويقدم له الأب ملابس الدير ليدرك أنه قد تخلص عن كل شئ حتى ملابسه ليلتحف بفقر المسيح. وأن ما يأكله وما يرتديه هو عطية من الدير له. بهذا لا يخجل من أن يُحصي بين الفقراء بلا تمييز، كما لم يخجل السيد المسيح من أن يُحصي معهم، ويدعو نفسه أخاهم، بل يفخر أنه صار له نصيب شركة مع عبيده (القوانين الباخومية ٢٦).

ف٦: تودع الملابس التي يخلعها المقبول حديثاً في الرهينة لدى وكيل الدير، إلى أن يمتحن الشخص في نموه الروحي وقدرته علي الاحتمال، فإذا نجح تُسلم ملابسه للفقراء. أما إن ظهرت عليه بوادر التذمر أو عدم الطاعة فتتزع عنه ثياب الدير ويرتدي ثيابه ويُطرد في عارٍ وخزي أمام جميع الإخوة.

ف٧: إذ يرتدي الإنسان ثياب الدير لا يُسمح له بالاختلاط مع مجمع الإخوة في الحال، بل يودع تحت رعاية شيخ يسكن ليس بعيداً عن مدخل الدير، ويهتم بالغرباء والضيوف، يبذل كل الجهد في استقبالهم بكل لطف.

يبقى يخدم الغرباء لمدة عام في اتضاع وطول أناة، فإن ثبت يدخل مجمع الإخوة ويُسلم إلى شيخ آخر يهتم بعشرة من الرهبان الحديثين، يقوم بتعليمهم وتدريبهم وذلك كالتدبير الذي ورد في سفر الخروج (٢٥:١٣).

ف٨: يبذل الشيخ كل جهده ويقدم أغلب تعليماته كي يجعل الحديثين قادرين أن يصعدوا في الوقت المناسب علي مرتفعات الكمال العظيمة.

يدريهم أولاً أن يقهروا رغباتهم فيعطيهام أوامر تخالف إرادتهم، لأنه لا يقدر الإنسان أن يغلب الشهوات ما لم يمت أولاً عن رغباته بالطاعة. بهذا يمكنه أن يغلب الغضب وروح الزنا ويحفظ اتضاع القلب والاتحاد مع

الإخوة ليكون في اتفاق معهم، بهذا يبقى زماناً طويلاً في الدير .

ف٩: يلزم على الحديثين في الرهبة ألا يعتمدوا علي تمييزهم الشخصي، ولا يخفون شيئاً من أفكارهم عن الشيخ الذي يتعهدهم. بهذا لا يقدر الشيطان أن يدمر الشخص الحديث اللهم إلا إذ أغواه بالكبرياء وإخفاء أفكاره. فإنه واضح أن الفكر الذي نخجل من كشفه علي الرئيس هو من الشيطان.

ف١٠: طاعة الرهبان الحديثين الكاملة، حتى أنهم لا يستطيعوا مغادرة قلايهم ولا الذهاب لقضاء احتياجاتهم الطبيعية بدون إذن. يطيعون بثقة ويقين وبلا تردد كما لو كان الأمر صادراً من السماء.

ف١١: يُقدم في الدير أطعمة غير شهية.

ف١٢: متى سمع الشخص من يقرع على باب قلايته يدعوه للصلاة، فإنه يقوم فوراً ويترك ما في يده. فإن كان يكتب وقد بدأ في كتابة حرف لا يكمل كتابة الحرف، متمماً فضيلة الطاعة بغيرة قوية لمن قرع بابه عن تكلمة الحرف أو الكلمة.

ف١٣: باستثناء الملابس الخاصة والحصيرة المهلهلة لا ينسب أحد لنفسه شيئاً. فإنه من فلتت من شفثيه عفواً أو في جهالة كلمات مثل: "كتابي" أو "قلمي" أو "معطفي" أو "حذائي"، ناسباً أي شيء إلى نفسه يُحسب ذلك معصية عظمي يقدم عنها توبة.

ف١٤: إن قدم راهب عملاً بيديه وصار مورداً كبيراً للدير، ليس من حقه أن يزيد من طلباته، وإنما يقدم هذا لسد عوز الكثيرين، دون أن يفتخر أو يتباهي بقدرته علي العمل. يُسمح له بكسرتي خبز. يقول القديس كاسيان إنه يكتب هذا وهو في خجل لأن هذا لا يحدث في أديرته بجنوب بلاد الغال.

يتمم الراهب هذا كله لأنه يحسب نفسه غريباً عن العالم، وأنه تلميذ في الدير يتعلم، وخادم، وليس سيدياً على أي شيء.

ف١٥: يتحدث في خجل بمقارنته أديرة مصر وما يحدث في أديرته بجنوب بلاد الغال، حيث يلبس بعض الرهبان خواتم في أصابعهم يختمون بها، ولديهم دواليب يجمعون فيها ما تركوه في العالم، وأنهم يغضبون لأسباب تافهة.

ف١٦: يقدم لنا صورة حية لحياة التدقيق في نظام الشركة معطياً أمثلة لذلك.

يقوم الشخص بالسجود حتى الأرض أمام جميع الإخوة طالباً الحل منهم، ولا يقوم حتى يأذن له أب الدير بذلك وذلك في الحالات التالية:

١. إن حدث خطأ كسر جرة، فيُحسب مهماً.
٢. إن دُعي لعمل ما أو جاء إلى عمله العادي وتأخر.
٣. إذا تردد في التسبيح بالمزمور.
٤. إذا أجاب إنساناً بكلام غير ضروري، أو يحمل جفافاً أو بغير تأدب.
٥. إذا أهمل في عمل أوكل إليه.
٦. إذا أظهر شيئاً من الشكوى.
٧. إذا فضل القراءة عن العمل والطاعة، فتباطأ في إتمام واجبه الملتزم به.
٨. إذا أنهى عمله ولم يسرع إلي قلايته.

٩. إذا وقف مع شخص ما في طريق عودته إلى قلايته إلى فترة قليلة.
١٠. إن ذهب إلى موضع آخر ولو إلى لحظة.
١١. إن أمسك بيد شخص (ليس بقصد المعونة).
١٢. إن تجاسر وناقش أمرًا مع شخص غير زميله الساكن معه في ذات القلاية. [حسب النظام الباخومي يسكن اثنان أو أكثر في القلاية].
١٣. إن صلي مع شخص ممنوع مؤقتًا من الصلاة الجماعية.
١٤. إن رأي أحد أقربائه أو أصدقائه وتحدث معه دون استئذان رئيسه.
١٥. إن استلم رسالة أو كتب إجابة علي رسالة دون إذن رئيسه.

أما الأخطاء الأخرى التي يسقط فيها الرهبان في أديرة جنوب فرنسا مثل احتقار الآخرين وترك الدير بلا إذن والخلافات والجلوس مع النساء والحسد والطمع والادعاء بملكية شيء والأكل بين الوجبات وما إلى ذلك، فإن هذه الأمور لا يعالجونها بالتوبيخ الروحي كما قلنا وإنما بالضرب والطرده من الدير.

ف١٧: بخصوص القراءات المقدسة أثناء الطعام، فإن هذا النظام لم يكن قائمًا في نظام الشركة في مصر بل في كبادوكية. وتعليل ذلك أن المصريين يفضلون الصمت الكامل. فمع وجود عدد ضخم جدًا يأكلون معًا لا يجسر أحد أن يتفوه ولو بصوت خافت. فلا يُقرأ شيء حتى لا تثار أية تساؤلات.

كل راهب ينزل من رأسه غطاء الرأس حتى لا يرى شيئًا أو أحدًا سوى المائدة والطعام الموضوع أمامه، ولا يرى أحد ماذا يأكل الشخص الملاصق له.

ف١٨: بين الوجبات العادية يحرص الراهب ألا يشتهي شيئًا. فإنه إذ يسير بين الحقائق وتصطدم الفاكهة بصدرة، بل قد تكون ملقاة على الأرض ويطأها بقدميه، فإنه يشعر بالخطأ إن حاول تذوق أحد الفواكه أو لمسها بيده، ماعدا ما يُقدم له على المائدة وما يوزعه الوكيل في خدمة الإخوة على الجميع لراحتهم.

ف١٩: لكي لا يظهر القديس يوحنا كاسيان أنه حذف شيئًا عن مؤسسات الشركة أشار باختصار عما يحدث في بلاد أخرى بخصوص الخدمات اليومية للإخوة، وذلك في الميصة (ما بين النهرين) وفلسطين وكبادوكية وكل الشرق. يقومون بتوزيع المسؤوليات على جميع الرهبان كل أسبوع. ويسرع الكل إلى تنفيذ ما يلتزم به في غيرة وابتضاع. لا يكتفي كل واحد بالخدمات الموكولة إليه، بل يقوم ليلاً ويساعد الآخرين في إتمام التزاماتهم بغيرة.

ف٢٠: يحسب الرهبان كل ما يدخل الدير (حتى الطعام) مقدسًا، فيتعاملون معه بوقار، ويدبرون كل شيء في وقار عظيم، حاسبين كل عمل مهما بدا تافهًا له أجرته عند الرب، حتى إن ملأ الراهب الزجاج ماء، أو قدم كوب ماء لشخص ما، أو قام بتنظيف المنصة التي يعظ عليها الأب أو تنظيف قلايتهم.

روى القديس كاسيان ما رآه بعينه عن راهب سقطت منه ٣ حبات عدس وأهملها، كيف حُسب مهملاً، وقدم توبة، لا من أجل قيمة العدس، وإنما من أجل عدم اكتراثه وإهماله.

لهذا الفصل أهميته الخاصة فهو لا يكشف عن نظرة الراهب إلى الحياة الرهبانية والنسكية فقط كعمل مقدس، وإنما أيضًا كل عمل تمتد إليه يد المؤمن يتطلع إليه بنظرة مقدسة... هذا ما سأحدث عنه بمشيئة الله في الفصل التالي تحت عنوان "قدسية الحياة اليومية".

ف٢١: قدم مثلاً للعمل الاختياري بغيره، أنه سمح أب الدير أن يُقدّم طعاماً جافاً غير مطبوخ لعدم وجود حطب حول الدير، لكن بعض الإخوة بذلوا جهداً فائقاً بمحض اختيارهم لجلب الحطب من أجل اخوتهم، حتى يُقدّم لهم طعام مطبوخ.

ف٢٢: ما سبق ذكره بخصوص توزيع الخدمات وتبادلها بين الإخوة كل أسبوع لا نجد هذا النظام بين المصريين، بل كل شخص يتعهد بعمل يلتزم به دوماً بلا تغيير ما دام قادراً على هذا العمل صحياً ويسمح سنه بذلك.

ف٢٣: إذ يكتب هذا لتدريب الذين يجحدون هذا العالم، يقول أن الراهب يبدأ بالاتضاع الحقيقي والطاعة الكاملة حتى يصعد إلى مرتفعات الفضائل الأخرى أيضاً، وقد وجد من اللازم تقديم عينات قليلة لتصرفات بعض الشيوخ الذين سمو في هذه الفضيلة.

المثل الأول الأب يوحنا الذي عاش بجوار ليكوبوليس (أسبوط) في منطقة طيبة والذي بلغ إلى درجة النبوة من أجل طاعته العجيبة، وصارت له شهرة حتى بين ملوك هذا العالم، فإن الإمبراطور ثيودوسيوس لم يكن يجسر أن يعلن الحرب ضد الطغاة الأقوياء جداً دون تشجيع كلمات هذا الأب، واثقاً أنها صادرة كما من السماء فينال نصرات على أعدائه في المعارك التي تبدو لا رجاء فيها.

ف٢٤: يروي لنا قصة هذا الأب الطوباوي يوحنا المتسم منذ صباه بالاتضاع والطاعة حتى كان معلمه يدهش من طاعته. وإذ أراد أن يختبر فضيلته هذه إن كانت عن إيمان أصيل وقلب بسيط مخلص أصدر إليه عدة أوامر لا لزوم لها وغير ضرورية بل ومستحيلة، من بين هذه الأوامر اختار القديس يوحنا كاسيان ثلاثة ليكتشف عن كمال طاعة الطوباوي يوحنا.

قطع الشيخ عصا جافة من بين الحطب المقطوع الجاف ليستخدم كنار للطبخ. لم تكن العصا جافة فحسب، بل يظهر عليها أنها مقطوعة منذ زمن بعيد. غرس الشيخ العصا وطلب من الطوباوي أن يرويها ماء مرتين كل يوم. وبالفعل أطاع التلميذ بكل وقار حاسباً أنه ليس شيء غير مستطاع لدى الطاعة. وكان يسير حوالي ميلين ليسقي هذا الفرع الجاف لمدة عام كامل حتى حين كان مرهقاً جسدياً وفي أيام الأعياد وعندما كان مشغولاً بأمر هام. لم يمنعه البرد القارص في الشتاء من الطاعة. تطلع الشيخ فرأى تلميذه يطيعه، وكأن الأمر قد صدر إليه من السماء، ولم تظهر على ملامح وجهه أية علامات من الضيق. وبعد عام سحب الشيخ العصا وطلب من تلميذه أن يتوقف عن ربيها.

[روى Sulpitius Severus قصة مشابهة عن راهب مصري، لكنه يروي أنها في السنة الثالثة صار للفرع جذراً والفرع أفرخ.]

ف٢٥: يقول القديس يوحنا كاسيان إذ فاحت رائحة الطاعة الذكية التي للطوباوي يوحنا في كل الأديرة جاء بعض الإخوة إلى الشيخ لكي يختبروا طاعته أو بالأحرى ليتعلموا منه، وإذ سمعوا في الدير عن طاعته دُهِشوا للغاية. دعاه الشيخ وسأله أن يحضر زجاجة زيت ويلقيها من الشباك، وهي الزجاجة الوحيدة التي كانت في البرية يُستخدم زيتها لإضافة الغراء. أطاع التلميذ دون تردد وبدون تفكير بأن الأمر الصادر إليه سخيف، ولا فكر في حاجة الدير إلى الزيت، وصعوبة الحصول عليه في البرية.

ف٢٦: أراد القادمون أن يروا مثلاً آخر، فأمر الشيخ التلميذ أن يجري ويدحرج حجراً بأقصى سرعة، لا

يستطيع عدد كبير من الرجال أن يحركوه. في طاعة وثقة أن معلمه لا يمكن أن يصدر له أمرًا مستحيلًا وبلا نفع قام بالتنفيذ.

ف٢٨، ٢٧: تحدث عن طاعة الأب باترموكيوس Paternucius.

ف٢٩: طاعة أخ من عائلة شريفة غنية وعلى درجة عالية من الثقافة لم يخجل من أن يحمل عشرة مقاطف على كتفه ويسير في طرق المدينة يبيعها طاعة لرئيسه.

ف٣٠: طاعة الأب بينوفوس Pinufius، الذي كان كاهنًا في مجمع شركة في دلتا مصر في Panephyssis له شهرته، وقد نال كرامة عظيمة بسبب حياته الفاضلة وسنه، وإذ اشتاق إلى ممارسة الطاعة بروح الاتضاع انسحب إلى منطقة طيبة وتخفى كأحد أفراد الشعب، وكان يتوسل بلجاجة وانسحاق إلى فترة طويلة لكي يقبلوه في أحد الأديرة هناك. وإذ ظنوا أنه جاء إلى الدير في هذا السن لأنه محتاج قبلوه أن يعمل في حديقة الدير كطالب رهبنة تحت إشراف شاب، فكان مع اهتمامه الشديد بالحديقة يهتم بغرس الفضائل ونموها في أعماقه خاصة الاتضاع والطاعة. وكان متى حل الظلام يقوم بممارسة الأعمال الصعبة التي يحتقرها الآخرون دون أن يعلم أحد بذلك. بقي على هذا الحال ثلاث سنوات يبحث عنه مجمعه في كل أنحاء مصر، وبالكاد عرفه أحد الأشخاص القادمين لأنه كان يلبس ثيابًا رثة ويسلك بروح متضعة في أعمال الحديقة. اقترب إليه الشخص وكلن متشككًا في شخصه لكنه لاحظ نظراته وصوته وفي الحال سقط عند قدميه، فتعجب كل الحاضرين. لكن إذ انكشف أمره سأله الجميع أن يسامحهم عن أي تصرف صدر عنهم. أعيد إلى مجمع الشركة بغير إرادته، وكان يبكي بدموع مشتاقًا أن يكمل أيام غربته خاضعًا مطيعًا، وكان كثيرون يراقبونه لئلا يهرب مرة أخرى من المجمع.

ف٢١: تكملة قصة الأب بينوفوس الذي لم يبق في دير سوى وقتًا قصيرًا، وإذ بجله الكثيرون تخفى وأبحر إلى مقاطعة فلسطينية بسوريا، وانضم إلى الدير الذي كان القديس يوحنا كاسيان يعيش فيه. التحق به كمبتدئ في الرهبنة ولم تمض فترة قصيرة حتى انكشفت فضائله وعُرفت شخصيته. فقد جاء بعض الإخوة إلى الأماكن المقدسة وتعرفوا عليه ويتوسلات حارة أعادوه إلى المجمع مكرمًا.

روى لنا القديس يوحنا كاسيان ذات القصة في شيء من التفصيل في المناظرة ٢٠ مع نفس الأب بينوفوس. وكما يقول القديس كاسيان أنه "حسب تعبير الرب صار كمدينة موضوعة على تل لم يستطع أن يخفي نفسه طويلاً".

ف٣٢: نصيحة قدمها الأب بينوفوس إلى أخ التحق بالدير في حضور القديس يوحنا كاسيان وقد بقي عدة أيام على مدخل الدير ثم قبله وقال له "أنت تعرف بعدد انتظارك هذه الأيام العديدة عند المدخل ها أنت تنضم اليوم إلى الدير. ولكي نبدأ معك يلزمك أن تعرف صعوبة طريقك..."

ف٣٣: (تكملة النصيحة) كما أن الذين يخدمون الله بأمانة ويلتصقون به حسب هذا النظام ينالون مجداً عظيماً، هكذا تحل عقوبات قاسية على الذين يسلكون فيه بغير مبالاة وبيروود ويفشلون في أن يظهروا ثمر القداسة، لهذا كما يقول الكتاب حسن أن الإنسان لا ينذر عن أن ينذر ولا يفني (جا٤: LXX٤). هذا هو السبب لعدم ضم الإنسان إلى الدير بسهولة. فإنهم إذ يقبلون الشخص في الدير يتسرع يصيرون مذنبين في عيني الله.

ف٣٤: يكمل الأب بينوفوس نصيحته مقدماً مفهوماً لنبذ العالم:

[نبذ العالم ليس إلا شهادة للصليب والإماتة. لهذا يجب عليك أن تدرك أنك اليوم قد مت عن هذا]

العالم وأعماله ورغباته، وكما يقول الرسول: قد صُلبت عن العالم، وصُلب العالم عنك (غلا ٦: ١٤).
 ضع في اعتبارك متطلبات الصليب تحت العلامة التي يليق بك من الآن أن تعيش فيها. لأنك لا تعود
 تحيا، بل يحيا فيك ذاك الذي صُلب لأجلك (غلا ٢: ٢٠).
 يليق بنا أن نعبر زماننا في هذه الحياة في هذا النمط والشكل الذي فيه قد صُلب لأجلنا على
 الصليب، حتى إذ (كما يقول داود) يسمّر جسدنا بخوف الرب (مز ١١٩: ١٢٠) لا تعود كل رغباتنا واشتياقاتنا
 تخضع لشهواتنا الذاتية بل لإماتته. هكذا نتمم وصية الرب القائل: "من لا يحمل صليبه ويتبعني فلا يستحقني"
 (مت ١٠: ٣٨). لكن ربما تقول: كيف يمكن لإنسان أن يحمل صليبه على الدوام؟ أو كيف يمكن لأحد وهو حي
 أن يُصلب؟ استمع كيف يكون ذلك باختصار].

ف٣٥: يكمل الأب بينوفوس حديثه موضحاً أن خوف الرب هو صليبهنا.

[خوف الرب هو صليبهنا.

كما أن الشخص المصلوب ليس لديه بعد قوة على الحركة أو توجيه أطرافه نحو أي اتجاه حسب
 مسرته، هكذا نحن يجب علينا أن نسمّر رغباتنا واشتياقاتنا، ليس حسب ما يسرنا وبهيجنا الآن بل حسب
 ناموس الرب، الذي يقيدنا.

وكما أن الذي يُسمّر على خشبة الصليب لا يبالي بعد بالأمور الحاضرة، ولا يفكر في اشتياقاته، ولا
 يضطرب بالقلق، ولا يهتم بالغد، ولا يرتبك بأية رغبة لامتلاك، ولا يلتهب بأي كبرياء أو خداع أو منافسة، ولا
 يحزن على أضرار حاضرة، ولا يتذكر أمور ماضية، وبينما يأخذ أنفاسه في الجسد يحسب نفسه ميتاً عن كل
 الأمور الأرضية، باعاً أفكار قلبه قدامه إلى الموضوع الذي لا يشك أنه ذاهب إليه قريباً، هكذا نحن أيضاً إذ
 نُصلب بمخافة الرب يلق بنا أن نموت حقاً عن كل هذه الأشياء، أي ليس فقط عن الرذائل الجسدية، بل أيضاً
 عن كل الأمور الأرضية. وتتركز عيون أذهاننا على ذاك الموضوع الذي نترجى كل لحظة أن نعبر إليه. فإننا
 بهذا نميت كل رغباتنا وعواطفنا الجسدية (الشريرة)].

ف٣٦: يحذرنا الأب بينوفوس لنلا يصير جسدنا للعالم بلا نفع، وذلك إن عدنا نرتبك بهذه الأمور التي
 سبق لنا أن نبذناها.

[لذلك فلتحذر لنلا تعود فتقتني الأمور التي سبق أن نبذتها وهجرتها، وخلاًفاً لوصية الرب ترجع عن
 حقل العمل الإنجيلي وتوجد مرتدياً الثوب الذي سبق أن خلعتَه (مت ٢٤: ١٨).

لا تغطس مرة أخرى في الشهوات الدنيئة الأرضية ورغبات هذا العالم، فإنك إذ تستخف بكلمة المسيح
 تنزل عن سطح الكمال وتخسر، إذ تقتني مرة أخرى شيئاً مما جحدته ورفضته...

احذر لنلا في أي وقت عندما تبدأ تدخل إلى عمق معرفة المزامير ومعرفة هذه الحياة، تنتفخ قليلاً
 قليلاً وتنشع الكبرياء الذي وطأت عليه بقدميك الآن في البداية في اتقاد الإيمان وكمال الاتضاع. وهكذا (كما
 يقول الرسول) إذ تبني مرة أخرى ما قد هدمته تجعل نفسك مرتداً (غلا ٢: ١٨) ... فإنه ليس من يبدأ بهذه
 الأمور بل ذاك الذي يصبر إلى المنتهى يخلص (مت ٢٤: ١٣)].

ف٣٧: يكمل الأب بينوفوس حديثه بأن الشيطان دائماً يرقد منتظراً أن يصطادنا في نهاية أيامنا، لذا
 يلزمنا دوماً أن نحذر رأسه، التي هي بداية الأفكار التي تثور فينا فنسحقها تحت أقدامنا...

ف٣٨: يتحدث عن استعداد جاحد العالم لمقاومة التجربة. فإنه كما قيل "عندما تريد أن تخدم الرب خفه

وأعد نفسك للتجربة" (ابن سيراخ ١: ٢)، فإنه بضيقات كثيرة ندخل ملكوت السموات. الباب كرب والطريق ضيق الذي يقود إلى الحياة، وقليلون هم الذين يجدونه (أع ١٤: ٢٢، مت ١٤: ٧).

[ضع في اعتبارك أنك تنتمي إلى القلة المختارة، ولا تكن باردًا على مثال الكثيرين الفاترين، بل عش كالبقية القليلة، فتستحق ملكوت الله معهم، لأن كثيرين يدعون وقليلون يختارون. وأيضًا تذكر أنه القطيع الصغير هو الذي يُسر الآب أن يعطيه الملكوت ميرًا له (مت ٢٠: ١٦؛ الو ١٢: ٣٢). لهذا يجب أن تتحقق من أنه ليس بخطية هينة أن الشخص الذي سلك الكمال يسير بعد ذلك في عدم الكمال. لبلوغ حالة الكمال لتتصعد الخطوات في الطريق التالي.]

ف ٣٩: طريق الخلاص الممتد نحو الحب:

[بدء خلاصنا وحصنه كما قلت هو مخافة الرب (أم ٩: ١٠). فإنه خلال هذا يمكن لأولئك الذين يتدربون في طريق الكمال أن يبدأوا فيه بالتحول وأيضًا بالتطهر من الرذائل والنمو في الفضيلة. وعندما يقتني هذا مدخلًا في قلب إنسان يُنتج استخفافًا بكل الأشياء، ويلد نسيانًا للأقرباء ورعبًا من العالم نفسه. وبالاستخفاف من فقدان كل الممتلكات يُقتنى الاتضاع. يتأكد الاتضاع بالعلامات التالية:

أول كل شيء: إن كان الإنسان قد أمات كل رغباته.

ثانيًا: إن كان لا يخفي شيئًا من أعماله أو حتى من أفكاره عن رئيسه.

ثالثًا: إن كان لا يثق في رأيه الخاص، بل في حكم رئيسه، ويصغي بغيرة وشوق إلى توجيهاته.

رابعًا: إن كان في كل شيء يستخدم الطاعة واللفظ والصبر الدائم.

خامسًا: إن كان ليس فقط لا يؤدي أحدًا بل ولا يتضايق أو يثور إذا حلت به أضرار.

سادسًا: إن كان لا يفعل شيئًا ولا يجرؤ على عمل شيء لا يحثه عليه النظام العام أو الاقتداء

بشيوخنا.

سابعًا: إن كان مكتفيًا بأقل المراكز الممكنة ويحسب نفسه عاملاً بطلاً وغير مستحق لكل ما أُعطي

له.

ثامنًا: إن كان لا يعترف فقط خارجيًا بشفتيه أنه أقل من الكل، بل حقيقة يؤمن في أفكاره العميقة

لقلبه بذلك.

تاسعًا: إن كان يضبط لسانه ولا يتكلم كثيرًا.

عاشرًا: إن كان لا يتأثر بسرعة ولا بكونه دومًا مستعدًا للضحك.

بمثل هذه العلامات وما أشبهها يُعرف الاتضاع الحقيقي. وعندما يكون بحق هذا في أمان، للحال يفقدك إلى درجة أعلى للحب الذي لا يعرف الخوف (يو ١٨: ٤). بهذا تبدأ بطريقة كما لو كانت طبيعية، دون مجهود، أن تحفظ كل ما سبق أن راعيته قبلاً دون خوف من العقوبة، ولا تعود بعد تفعل ذلك بسبب العقوبة أو الخوف منها، بل خلال حب الصلاح نفسه والابتهاج بالفضيلة.]

ف ٤٠: يطلب الأب بينوفوريوس ألا يقتدي الراهب بأمثلة كثيرة من الكمال، بل من شخص واحد أو عدد

قليل منهم.

ف ٤١: يقدم الأب بينوفوريوس وصية هامة للراهب السالك في حياة الشركة، وهي أن يكون كالأصم

الذي لا يسمع والأخرس الذي لا يفتح فمه كقول المرتل (مز ٣٨: ١٤، ١٥)، وأعمى، ويحسب نفسه غيبًا.

ف٤٢: الصبر ليس ثمرة تصرفات الغير معنا، بل ثمرة طول أناتنا الداخلية.
[لذلك يجب عليك ألا تتطلع إلى الصبر في حياتك كثمرة لتصرفات الغير، ظاناً أنه بهذا فقط يمكنك أن تضمن الصبر متى لم يثيرونك بشيء، (فإنه ليس في سلطتك أن تمنع حدوث هذا)، بل بالأحرى يلزمك أن تتطلع إليه كثمرة اتضاعك وطول أناتك، الأمر الذي يعتمد على إرادتك أنت.]

ف٤٣: يختتم هذا الكتاب بتأكيد أن الراهب يصعد نحو كمال الحب الرسولي بواسطة مخافة الرب التي هي بدء خلاصنا.

[مخافة الرب تلد الندامة.

ومن الندامة ينبع النبذ، أي التعري عن كل الممتلكات والاستخفاف بها.

والتعري يلد اتضاعاً،

والاتضاع إماتة عن الشهوات.

وخلال الإماتة عن الشهوات تبطل كل الأخطاء وتُستأصل.

وبانتزاع الأخطاء تبرز الفضائل وتنمو.

وإذ تبرز الفضائل تُقننى نقاوة القلب.

وبنقاوة القلب يُكتسب كمال الحب الرسولي].

الجزء الثاني ١٢-٥

ينظر البعض إلى هذا الجزء *De octo principalium remeditiis* كعمل مستقل، ربما لأنه يبدأ بمقدمة جديدة موجهة إلى الأسقف كاستور، بعد ذلك يعالج الثماني خطايا التي بالنصرة عليها يبلغ المؤمن كمال نقاوة القلب. وهي نفس قائمة الخطايا أو الرذائل التي سبق أن عالجها صديقه القديس أوغريس البنطي *Evgruis Ponticus*.^{٢٧}

الكتاب الخامس: النهم^{٢٨}

يحتوي ٤١ فصلاً.

النهم هو بداية الأوجاع الروحية كما أن عماليق هو أول الأمم التي قاومت الشعب القديم. في معالجة خطية الشراهة يفضل الكتاب المسيحيون تقديم أمثلة واقعية من الكتاب المقدس مثل حواء وعيسو وأليفانا *Holophernes* الذي قطعت يهوديت رأسه وهو مخمور للغاية (يهوديت ١٣) .

ويميز القديس إكليمنضس السكندري ثلاثة مظاهر لهذه الخطية:

• المبالغة في استخدام المشتهيات *opsophagia*.

• النهم أو جنون البطن *gstrimargia*.

• جنون الحنجرة *laimar*.

أما القديس كاسيان فيميز بين نوعين من النهم:

• النهم الذي يسحب الراهب ليأكل قبل المواعيد المحددة ويثيره ليبالغ في الأكل.

• النهم الذي يقود الراهب ليشتهي المأكولات الشهية^{٢٩}.

وأما القديس أوغريس فيرى في النهم دعوة للتخلي عن النسك والصوم من أجل صحته، إذ يقول:

[يوحى فكر الشراهة للراهب أن يتخلى بسرعة عن حياته النسكية، موهماً إياه أنه مصاب بمرض المعدة والكبد والصفراء أو أي مرض آخر من الأمراض المزمنة، وأنه يحتاج إلى علاج مع عدم وجود أدوية طبية أو

^{٢٧} PG ٤٠:١٢٧٢-١٢٧٦.

^{٢٨} Tomas Spidlik, *The Spirituality of the Christian East*, Michigan, ١٩٨٦, p. ٢٤٩-٢٥٠.

^{٢٩} Conf. ٥:١١.

أطباء لعلاج. فضلاً عن هذا فإنه يورد إلى ذاكرته الإخوة الذين يعانون من مثل هذه الأمراض فعلاً. بل وأحياناً يحرك العدو (الشيطان) بعض الإخوة الذين يعانون من هذه الأمراض لكي يزوروا الرهبان الصائمين ويقصون عليهم ما حدث معهم، ويختمون أحاديثهم بأن ما أصابهم لم يكن إلا بسبب حياة النسك الصارمة^{٣٢}.

من الخطايا التي كثيراً ما يشار إليها هو شعور الراهب بالخل من النهم فيحارب بالأكل سرّاً حتى لا يُعثر أحداً. أما علاج النهم فكما يقول القديس يوحنا كاسيان هو تمتع العقل بلذة التأمل في الإلهيات، فتنشغل النفس بالسماويات فتذهب الجسد نوعاً من الشبع؛ [لا نستطيع أن نستخف باللذة التي يقدمها لنا الطعام ما لم يجد العقل فرحاً بالتأمل في الإلهيات].^{٣١}

الكتاب السادس: الشهوات (الزنا)^{٣٢}

غالباً ما يربط الآباء بين خطيتي النهم والزنا، وعلى العكس لا تتفق مع خطية المجد الباطل يُعرّف القديس أوغريس الزنا بأنه "اشتهاؤ الأجساد".

يرى الآباء أن حركة الزنا تتبع عن المصادر الثلاثة:

- الحركة الطبيعية للجسد.
- كثرة الأكل والشرب.
- حرب الشيطان.

يتحدث القديس أوغريس عن ارتباط الفكر بالشهوات فيقول:

[جدير بالاعتبار أن نفهم إذا كان الفكر هو الذي يجلب الشهوات ويحركها، أم الشهوات هي التي تجلب الفكر. فالبعض ينادون بالرأي الأول، والبعض ينادون بالرأي الثاني. لكن الشهوات عادةً تثار وتعمل عن طريق الحواس، فإذا كان الإنسان محباً وضابطاً لنفسه لا تنور فيه الشهوات، وإذا لم يقتتها تنور فيه.

الغضب أكثر احتياجاً إلى أدوية فعالة عن الشهوة. ويُدعى الحب عظيماً لأنه يلجم الغضب^{٣٣}.]

وفي مقاله عن الحياة العاملة يجيب عن السؤال: كيف نعرف أننا غير شهوانيين؟

[لبيتنا نميز علامات اللاهوى عن طريق الأفكار نهائياً، والأحلام ليلاً.

ولنسمى حالة "عدم الشهوة (اللاهوى)" أنها "صحة النفس"، و"المعرفة" هي غذاؤها. لأنه بالمعرفة وحدها نصير متحدين مع القوات المقدسة، إذ أن اتحادنا مع الكائنات غير الجسدية لا يتم إلا إذا كانت حالتنا تطابق حالتهم^{٣٤}.]

الكتاب السابع: الطمع^{٣٥}

يتحدث القديس يوحنا كاسيان إلى الرهبان في نظام الشركة عن خطية "الطمع"، فقد يبيع الإنسان كل

^{٣٠} إلى أناتوليس "الأفكار الثمانية ٢.

^{٣١} Institutes ٥:١٤.

^{٣٢} Tomas Spidlik, p. ٢٥٠.

^{٣٣} توجيهات إلى أناتوليس عن الحياة العاملة ٢٦.

^{٣٤} مقال عن الحياة العاملة ٥٦.

^{٣٥} Tomas Spidlik, p. ٢٥٠.

ما يملكه ويتجرد عن كل شيء، لكن تدخل هذه الخطية خلسة، بأن يقتني الراهب أقل القليل، مقدماً التبريرات الكثيرة لذلك، فيتسلل الطمع إلى قلبه، ويُفسد كل كيانه.

يقدم لنا كاسيان أمثلة خطيرة للطمع ومحبة المال:

- بسبب الطمع سقط جيحزي تلميذ إيشع النبي في الكذب والإصرار عليه، ففقد روح النبوة، والتصق به البرص كل أيام حياته.
 - دفع الطمع حنانيا وسفيرة إلى الكذب على الروح القدس فسقطا ميتين.
 - دفع الطمع يهوذا المختار بين التلاميذ إلى خيانة سيده، ففقد التلمذة للسيد المسيح والرسولية بل وانتحر.
- يولد الطمع سلسلة من الخطايا، أما أحد وسائل علاجه فهو الاتضاع والطاعة لقوانين الدير من كل القلب.

أخيراً ما يؤكد كاسيان أن الطمع لا يتوقف على إمكانيات الإنسان المادية بل على أعماقه الداخلية، فهو خطية تفسد القلب والفكر. إذ يقول:

"ينبغي علينا ليس فقط أن نأخذ حذرنا من حيازة المال، بل ننتزع أيضاً من نفوسنا تلهفنا عليه، إذ من واجبنا لا أن نتحاشى نتائج الطمع إنما بالأكثر أن نستأصل جذور كل نزوع إليه، إذ أن عدم امتلاكنا للمال لا يفيدنا ما دامت فينا شهوة الحصول عليه".^{٣٦}

"من المحتمل أن إنساناً لا يملك شيئاً يكون مستعبداً لعله الطمع، ولا تنفعه نعمة الفقر المدقع، لأنه لم يستطع أن يستأصل من نفسه جذور خطية الشرهية، متقبلاً مزايا الفقر لا لحسن فضائله، وراضياً بثقل الحاجة إنما في فتور القلب. ذلك لأنه كما تعلن كلمة الإنجيل أن الذين لا يتدنسون بالجسد قد يزنون في القلب، وأن من المحتمل أن الذين لا يثقل كاهلهم عبء المال تلحقهم لعنة نزعة الطمع والاشتياق إليه لأن ما كان يعوزهم هي "فرصة" الامتلاك وليست "إرادته"، لأن الثانية هي التي يتوجها الله دون جبر، لهذا يلزمنا أن نستخدم كل حصانة، لئلا تتبدد ثمار جهودنا في غير ما يجدي. لأنه من المحزن أن يتحمل المرء آثار الفقر أو العوز، ولكنه يفقد ثماره، بسبب سقوط الإرادة المزعجة".^{٣٧}

"لقد نبذ جميع مقتنيات هذا العالم من استأصل تماماً من قلبه الرغبة في حيازتها وامتلاكها".^{٣٨}

يقول الأب مكسيموس المعترف [توجد ثلاثة أسباب لمحبة المال: محبة الميزات، المجد الباطل، عدم الإيمان والثقة. عدم الإيمان أشر من السببين الأولين].

يقول القديس أوغريوس: [يتصور المجربون بمحبة المال طول بقائهم على الأرض، وعدم القدرة على العمل، والجوع، والمرض، ومصاعب الاحتياج والاستجداء من الآخرين لإشباع احتياجات الجسد^{٣٩}]. بينما إذ يتعرض المتوحدون لهذه الحرب يشير عليهم العدو أنه يلزمهم توزيع الصدقات وعمل الخير للغير^{٤٠}. مع أنه يستحيل ممارسة عمل الرحمة لمن يرتبط بمحبة المال^{٤١}.

^{٣٦} فصل ٢١.

^{٣٧} فصل ٢٢.

^{٣٨} فصل ٢٧.

^{٣٩} إلى أناتوليس "الأفكار الثمانية ٤.

^{٤٠} St. John Climacus, Ladder of Paradise, ١٦.

^{٤١} Evagrius: Praktikos, ١٨.

الكتاب الثامن: الغضب

عالج القديس يوحنا كاسيان خطية الغضب بفكر كتابي حيّ وعملي. الغضب أشبه بسحابة قاتمة تحل على القلب فتفقد القدرة على البصر. **يفقد الإنسان الحكمة والفهم** حتى إن تطلع إليه الكل كإنسان حكيم، ويفقد كرامته حتى إن بجّله الجميع. **بالغضب تفقد النفس استنارة الروح القدس**، فيفقد علاقته بالله، ويخسر إخوته حتى الأعزاء لديه جدًّا، بل ويفقد نفسه.

كثيرًا ما نبرر الغضب بالظروف المحيطة بنا وأخطاء الغير، بينما جرثومة الغضب تكمن في أعماق النفس الداخلية، **لذا لاق بنا أن نلوم أنفسنا لا إخواننا**. يظن البعض أن الهروب من الناس أو العزلة هي علاج للغضب... إنه هروب، بينما يبقى الغضب كامنًا في الأعماق حتى يجد الفرصة لكي يعبر عن نفسه في الوقت المناسب. يرى القديس أوغريسي أن أثر الغضب هو أن يلهب الغضب بالأكثر الذي يقودنا إلى حالة شيطانية^{٤٢}، ويرى أن للغضب أربع علامات:

- يهيج النفس طوال اليوم، خاصة أثناء الصلاة.
- يقدم أمام عيني الشخص صورة المعتدي عليه.
- تنير فيه مخاوف أثناء الليل وفي الأحلام. ٤٣
- أهم علامة هي أنه يربك عمل العقل الذي هو التأمل ٤٤. وهذا هو السبب في أن الغضب يقف عائقًا عن ممارسة الصلاة^{٤٥}.

أما علاجه فكما يقول القديس أوغريسي [تهذّب ثورة الغضب بالترنم بالمزامير والصبر والعطاء^{٤٦}].

❖ يجب قلع سم الغضب القاتل من جذوره في أعماق النفس، لأنه إذا بقي روح الغضب واستقر في قلوبنا أظلمت عقولنا وفقدت قدرتها على الرؤية، لأن الغضب يصيب بالعمى وبظلمة ضارة تجعل الرؤية الروحية مستحيلة. فلا تقدر على الحكم الصائب في أمرٍ من الأمور، بل يتعذر علينا التأمل الصالح الذي ينمي الحكمة فينا، بل لا نقدر أن نثبت في الصلاح، أو نقبل النور الحقيقي الروحي، لأنه مكتوب: "عيني قد تعكرت من الغضب" (مز ٣١: ٢٩).

وقد يمدحنا الناس كحكماء، ولكننا لن نكون حكماء إذا لازمنا الغضب، لأنه مكتوب: "الغضب يسكن مستريحًا في صدر الأحمق" (جا ٧: ١٠ LXX). وهو ما يعرضنا لفقدان ميراث الحياة الأبدية. وقد يظهر لنا أننا نفهم الطبيعة الإنسانية ونذكر أسرارها، ولكن إذا ظل الغضب فينا، تم فينا ما هو مكتوب: "الغضب يدمر الحكماء" (أم ١٥: ١ LXX). ويحرمنا الغضب من إدراك "بِرّ الله"، لأننا بسبب الغضب نفقد الإفراز، ومع أن الناس قد يقولوا عنا أننا قديسون وكاملون إلا أنه مكتوب "غضب الإنسان لا يصنع برّ الله". (يع ١: ٢٠)^{٤٧}.

^{٤٢} Letter, ٥٩.

^{٤٣} Praktikos ١١.

^{٤٤} Ibid ٦٣.

^{٤٥} Ibid ٢٦.

^{٤٦} Ibid ١٥.

^{٤٧} De institutis caenoborum, Book ٨: ١.

❖ يحاول البعض تبرير الغضب، هذا المرض القاتل للنفس، بأدلة من الأسفار الإلهية التي يفسرونها تفسيراً غير لائق. يقول هؤلاء أن الغضب ليس ضاراً حتى إذا غضبنا على الإخوة الذين يخطئون، لأن الله نفسه يسخط ويغضب على الذين لا يريدون أن يعرفوه، أو يعرفونه ومع ذلك يرفضونه. ومن الأمثلة التي يقدمونها كلمات الأسفار: "غضب الرب واشتعل سخطه على شعبه" (مز ١٠٦: ٤٠). أو عندما يصلي النبي ويقول: "يا رب لا توبخني بغضبك، ولا تؤدبني بسخطك" (مز ٦: ١). ولا يفهم هؤلاء أنهم عندما يحاولون بهذا الإصرار على تأكيد وتبرير الغضب إنما يقودون غيرهم إلى التمسك برذيلة ضارة وفي نفس الوقت يمزجون ضلال شهوة جسدانية بنقاء الله غير المحدود والذي هو مصدر كل نقاء^{٤٨}.

❖ عندما نقرأ أن الله غضب وسخط فأنا لا يجب أن نفكر في أن هذه انفعالات بشرية. بل يجب أن نفكر فيما يليق بالله الحر من كل هذه الانفعالات، أو بكلمات أخرى يجب أن نراه مثل القاضي الذي يحاكم وينتقم من الأعمال الشريرة ويرد الشر على فاعليه. هنا يُوصف بمفردات خاصة تولد فينا الخوف من الله الذي سوف يحاكم على كل عمل ضد إرادته. ولكن يجب أن نتذكر أن الطبيعة الإنسانية تعودت على الخوف من الذين يغضبون ولذلك السبب تتراجع عن الشر خوفاً من غضب هؤلاء. وفي حالات القضاة المشهورين بالعدل الصارم، يخاف منهم الأشرار، لأنهم يعرفون أنهم سوف يوقعون بهم عقوبة صارمة وهذا وحده يزرع الخوف والشعور بالندم في قلوب الأشرار. ولكن القضاة العادلون لا يحكمون ولا يصدرن أحكاماً تحت تأثير انفعالات الغضب. بل هذه الانفعالات إذا وجدت فيهم تجعلهم يعجزون عن إصدار الأحكام العادلة. ومع أن القضاة لا يعرفون الغضب، إلا أن الأشرار بسبب ذنوبهم وخوفهم من الحكم، يتوقعون الغضب عندما يحكمون ويسبب شعورهم بالذنب يخافون حتى من القضاة الودعاء المعتدلين، لأن صدور أي حكم على إنسان شرير يجعل المذنب يشعر بسخط وغضب الحكم ولا يصف قرار القاضي الذي يعاقبه إلا بأنه قرار غضب وسخط^{٤٩}.

الكتاب التاسع: الاكتئاب (الإحباط).

بعد معالجته للخطايا الأربع: "النهم والشهوات والطمع والغضب"، عالج القديس يوحنا كاسيان خطية "الكآبة" أو الاكتئاب.

يلاحظ أن من بين الخطايا الرئيسية التي يجب على الراهب أن يقاومها هي الاكتئاب أو حالة الإحباط، فإن الحياة الرهبانية مع ما فيها من نكس وزهد هي حياة فرح داخلي، وتذوق للبهجة السماوية. فلا يليق بالراهب أن يحطم إيمانه وحياته بالكآبة أو الإحباط، بل ينمو دائماً بروح الرجاء والانفتاح على السماء بكل مجدها وبهجتها. فالمؤمن. من الرهبان أو الشعب. مدعو للتمتع بالتأمل في الإلهيات ونوال عربون السماء، لهذا فإن الفرح الروحي سمة لازمة تكشف عن تمتع المؤمن بالحياة الجديدة في المسيح المقام من الأموات .

لقد أوضح القديس يوحنا كاسيان خطورة "الكآبة" أو الحزن الخاطئ، على أعماقنا الداخلية، وعلى علاقتنا بالله كما بإخوتنا.

ويحذرنا كاسيان من تبرير ما يحل بنا من كآبة، بإلقاء اللوم على الظروف المحيطة بنا أو أخطاء الغير، مؤكداً أن الكآبة هي ثمرة فساد داخلي في النفس، وأنها لا تحل بنا فجأة، بل هي نتاج أخطاء متراكمة في

^{٤٨} De institutis caenoborum, Book ٨:٢.

^{٤٩} De institutis caenoborum, Book ٨:٤.

الأعماق. لهذا فإن علاج الكآبة ليس الهروب من الناس، بل التوبة عن خطايانا. هذا ويميز كاسيان بين الحزن الشرير الذي يحطم النفس بروح الكآبة ويفقدها رجاءها، وبين الحزن الذي حسب الله وهو النابع عن التوبة الواهبة سلاماً داخلياً، حيث تنفتح أمامنا أبواب الرجاء.

يقول القديس يوحنا الذهبي الفم: [أنها تهاجم ليس فقط الجسد بل النفس ذاتها..]^{٥٠}

يقول الأب إشعياء: [أن روح الكآبة يستخدم كل وسائل الصيد لكي تعمل حتى يفقدك كل طاقتك^{٥١}]. يقول القديس أوغريوس: [الإنسان الذي يهرب من كل الملذات العالمية هو برج يصد كل هجمات شيطان الكآبة^{٥٢}]. كما يقول: [عندما يهاجمنا شيطان الكآبة يلزمنا أن نقسم النفس إلى قسمين: قسم يقدم تعزية، والآخر يتلقاها، باذرين فيها بذار الرجاء الحسن، مرتلين بمزامير داود القائل: "لماذا أنت منحنية فيّ يا نفسي. ولماذا تنتنين فيّ؟! ترجى الله لأنني بعد أحمده لأنه هو خلاص وجهي" مز ٤٢: ٥].

الكتاب العاشر: الضجر (أو شيطان الظهيرة)

يقول القديس يوحنا كاسيان: [أما سادس صراع لنا فهو موجه ضد ما يسميه اليونانيون بالضجر، أو ما يصح لنا أن ندعوه بالملل أو تعب القلب، وهو وثيق الصلة بالاكنتاب. يلاحق الناسكين بوجه خاص، وهو عدو خطر كثير التردد على سكان الصحراء. لا يزعم الراهب عادة إلا في الساعة السادسة، مثل الحمى التي يقع المرء فريسة لنوباتها. وما تسببه من ارتفاع شديد في حرارة المريض، خلال ساعات معينة منتظمة. وأخيراً فئمة شيوخ يعلنون أن هذه الروح هي "شيطان الظهيرة" الذي ورد ذكره في المزمور التسعين (مز ٦: ٩٠)].

يكشف لنا القديس يوحنا كاسيان كيف يتسلل روح الضجر إلى الإنسان:

١. بث روح الكسل والتراخي.
٢. الشكوى المستمرة والتذمر، حاسباً إنه قائم في موضع لا يتناسب مع قدراته الفائقة ومواهبه العظيمة، فإن كان راهباً يشترك في الخدمة في العالم، أو يترك الدير ليذهب إلى دير أفضل، فيحب التردد على الأديرة.
٣. إحساس بعدم اهتمام إخوته به.
٤. إن كان راهباً يشعر بأن من واجبه ترك القلاية وافتقاد إخوته في الدير بالود، فلا يستقر في قلايته.
٥. فقدان الهدف من تكريس حياته لله أو نذره الرهباني.
٦. انشغال الراهب بالطعام والملذات كنوع من الفراغ الداخلي.
٧. يريد أن ينشغل بالآخرين ويكون في صحبتهم، لإضاعة وقته.

يقول القديس يوحنا كاسيان أن من أهم وسائل العلاج للضجر اهتمام الراهب بعمل اليدين كما فعل الرسول بولس (٢تس ٣: ٨، أع ١٨: ٣-١٨)، مطالباً السارق لا أن يكف عن السرقة فحسب، بل وأن يعمل بيديه ليعطي من له احتياج (أف ٤: ٢٨). لقد ركّز كثيراً على هذا العلاج بكونه جزء لا ينفصل عن الحياة التعبدية والنمو الروحي.

^{٥٠} To Olympias, ١٣: ٤.

^{٥١} Logos ١٦.

^{٥٢} Praktikos ١٥.

^{٥٣} توجيهات إلى أناتوليس عن الحياة العاملة ١٨.

ويحدثنا القديس أوغريس عن الضجر، قائلاً:

لشيطان الضجر، الذي يقال له أيضاً "شيطان الظهيرة" مز ٦:٩١، هو أخطر الشياطين. إذ يهجم على الراهب حوالي الساعة الرابعة من النهار (١٠ صباحاً)، ويجعل النفس تدور كما في دوامة حتى الساعة الثامنة من النهار (الساعة ٢ بعد الظهر).

يبتدئ أولاً بأن يجعل الإنسان يترقب الشمس وهو في غم وضيق صدر، فيراها تتحرك ببطء كأنها لا تتحرك قط، ويبدو كأن ساعات النهار قد صارت خمسين ساعة. وعندما يتراكم عليه الضجر، يحثه الشيطان لكي ينظر من نافذته، أو يخرج من قلايته يترقب الشمس، وكيف أن الوقت لا يزال الساعة التاسعة. ثم يجعله يحملق هنا وهناك لعله يجد أحد الإخوة القريبين منه خارج (قلايته)، ويثير في داخله الغيظ من المكان الذي يقطن فيه، ومن نمط حياته وعمله، ويضيف إليه هذا الفكر أنه لا توجد محبة بين الإخوة ولا يوجد هنا من يعزيه.

وإذا حدث في أحد الأيام أن أساء إليه أحد، فإن الشيطان يذكره بذلك لكي يزيد من حنقه وغيظه. بعد ذلك يثير فيه الاشتياق للسكنى في أماكن أخرى، حيث يكون من السهل أن يمارس عملاً آخر أكثر نفعاً لسد حاجاته وأقل قسوة.

ويضيف إليه الشيطان أن إرضاء الإنسان لله لا يتوقف على مكان معين، وأنه يمكننا أن نعبد الله في كل مكان. ثم يربط هذه الأفكار بأفكار أخرى، كأن يذكره بأقاربه والحياة الهادئة الهنيئة الأولى، ثم يتنبأ له بحياة طويلة مملوءة بمصاعب الجهاد النسكي. وهكذا يستخدم كل حيلة وحيلة لكي يخدع الراهب، فيجعله ينهي هذه الحياة ويترك قلايته. هذا الشيطان يلحق به شيطان آخر ولكن ليس في الحال.

أما إذا قاوم الراهب هذه الحروب وانتصر، تستقر النفس في سلام وتمتلئ بفرح لا ينطق به^{٥٤}.

الكتاب الحادي عشر: المجد الباطل.

يصير المجد باطلاً حينما تُطلب المكافأة عن الفضيلة من أجل إعجاب الناس. ويزداد المجد الباطل مع التقدم في الفضائل،^{٥٥} لكنه يحتقرها^{٥٦}.

حديث القديس يوحنا كاسيان عن المجد الباطل عملي، يقدم لنا خبرات آباء محنكين، جاهدوا في الطريق الملوكي بروح الحق، يدركون هدفهم بكل حرص.

تتسلل خطية "المجد الباطل" إلى قلوب المؤمنين، لتستخدم كل نصرة لهم عليها كسلاح جديد تحطم به قلوبهم، حيث يفخر المؤمنون بنصرتهم وغلبتهم! كل الخطايا الأخرى إذا ما هاجمت مؤمناً وانهمزت هربت من أمامه لتترك المجال لغيرها للهجوم، وإن عادت الخطايا الأولى للهجوم تكون في ضعف شديد. أما خطية "المجد الباطل" فإذا ما انهزمت تعود لتحارب بأكثر قوة وعنف. علة ذلك هو أن نصرة المؤمن يمكن أن تسند هذه الخطية في الهجوم.

كل الخطايا تحت المؤمنين على الانحراف عن الطريق الملوكي شمالاً ليصيروا خطاة أشراراً، أما خطية محبة المجد الباطل أو الرياء فتحتهم على الانحراف يميناً حيث يظن المؤمن في نفسه أن أبر من غيره، وأفضل

^{٥٤} إلى أناتوليس "الأفكار الثمانية ٧.

^{٥٥} Evagrius: Praktikos ٣١.

^{٥٦} John Climacus: Scala paradisi, ٢٢.

من الكل. خطية المجد الباطل تتحالف مع "الرياء"، بل هما خطية واحدة تتسلل إلى القيادات الدينية كما إلى الكارزين وإلى الرهبان حتى المتوحدين... لكي تُفقد كل إكليل لهم.

وبحدثنا القديس أوغريس عن المجد الباطل، قائلاً:

[يصعب عليك الهروب من فكر المجد الباطل، لأن كل ما تصنعه لطرده يمكن أن يكون عاملاً مساعداً لإنشاء دافع جديد نحو المجد الباطل.

هذا والشياطين لا تقاوم دائماً كل فكر سليم، بل أنها أحياناً تشجع فينا بعض الأفكار السليمة على رجاء أنها تقدر بعد ذلك أن تخدمنا^{٥٧}].

وبحدثنا عن عذوبة المعرفة لعلاج المجد الباطل:

[من يتلامس مع المعرفة ويختبر حلاوتها، لا يعود بعد يثق في شيطان المجد الباطل ولو قدم له كل ما في العالم من إغراءات! لأنه هل يقدر أن يعده بشيء أعظم من التأمل الروحي؟! ولكن إن لم نكن بعد قد تذوقنا المعرفة، فليتنا نحيا حياة الجهاد (العمل) بكل غيرة، ونعلن هدفنا أمام الله، وهو أن كل ما نعمله إنما لكي (نختبر) معرفة الله^{٥٨}].

الكتاب الثاني عشر: الكبرياء.

الكبرياء هي خطية الأمم المقاومين لله الحقيقي. عبّر أليفاً عنها بقوله: "من هو الله إلا نبوخذنصر؟!" (يهوديت ٢:٦).

يدعو أوريجينوس خطية الكبرياء أعظم خطايا الشيطان^{٥٩}. ويدعوها القديس يوحنا الذهبي الفم: ومصدر وأم الخطية^{٦٠}. ويقول الأب مكسيموس المعترف: [الشيطان الكبرياء شران: إما أنه يحث الراهب لكي يصف نفسه بأعماله الفاضلة... أو يقترح السخرية بنقص الإخوة وعدم كمالهم].

قام أوخيريوس Eucherius بعمل ملخص للمعاهد والمناظرات وقد فقد هذا العمل، غير أن C.Honselmann يعتقد أنه قد اكتشف بعض فقرات من هذا الملخص بـ Paderborn. ترجم كتاب المعاهد إلى اليونانية في القرن الخامس، وقد عمل ملخص في كتابين من هذه الترجمة تختلف عما فعله أوخيريوس، تعرف عليه فوتس والمدعو نيلس^{٦١}.

^{٥٧} توجيهات إلى أناتوليس عن الحياة العاملة ٢٠.
^{٥٨} توجيهات إلى أناتوليس عن الحياة العاملة ٢١.

^{٥٩} In Ezechielem ٩:٢.

^{٦٠} In Joannem ٩:٢.

^{٦١} PG ٧٩:١٤٣٥ - ١٤٧٢.

ثانيًا: المناظرات

Collationes Patrum (Conferences)

مجموعة من المناظرات قام بها القديس كاسيان وصديقه جرمانوس مع أعظم آباء البرية في مصر خلال وجودهما هناك لمدة سبع سنوات. المناظرات في مجموعها تمثل حوارات مع آباء نساك مصريين قام القديس كاسيان بإعادة صياغتها^{٥٩}.

ينقسم كتاب المناظرات إلى ثلاثة أجزاء:

الجزء الأول: المناظرات ١-١٠. مستقي من رحلته إلى الإسقيط، كُتب بناء على طلب الأسقف كاستور الذي تتيح في ذلك الوقت (٤٢٥ أو ٤٢٦)، لذلك وجه العمل إلى أخيه ليونتيوس Leontius of Fréjus وإلى المتوحد هيلاديوس.

الجزء الثاني: المناظرات ١١-١٧؛ موجهة إلى الأخوين هونوراتيوس ويوخيروس. أكمل في عام ٤٢٧م، ووضع في Panephysis في بدء رحلته إلى مصر، وقد جاءت المناظرات هنا مرتبة حسب الترتيب التاريخي (الزمني).

الجزء الثالث: المناظرات ١٨-٢٤؛ موجهة إلى أربعة آباء رهبان في Lérins، هم جوفنيان ومنيرفيس وليونتيوس وثيودور.

المناظرات ١٨-٢٠ كتبت ما بين ٤٢٨ - ٤٢٩م، وضعت في Dioclos. والمناظرات ٢١-٢٤ وضعت في Panephysis، ويبدو أنها تخص فترة الإسقيط.

ملاحظات حول المناظرات

١. هذا العمل مع العمل السابق قدما للغرب للانتفاع بالخبرة الرهبانية المصرية، ولا يزال الكتاب الرهباني المتأخرون يستخدمونها ويمدحونها مثل بندكت، ويحسبان من المستندات الهامة في اللاهوت السلوكي (الأخلاقي) والتكريس المسيحي والحياة الباطنية^{٦٠} mysticism.

٢. انتشرت الأجزاء الثلاثة من هذا العمل في مناطق كثيرة، كل جزء مستقل عن الآخر، ولأول مرة نجد الثلاثة أجزاء معًا في مخطوط باريس^{٦١} الذي يرجع إلى القرن التاسع.

٣. لم تسجل هذه المناظرات كمقالات دراسية، لكنها هي لقاءات مع قادة روحيين للمساندة في التمتع بالنمو الروحي. لهذا لا نجد المناظرات موضوعة بترتيب منطقي دراسي، إنما كل مناظرة تمثل وحدة مستقلة.

٤. عدد المناظرات ٢٤ يذكرنا بالأربعة وعشرين قسيسًا السمايين المذكورين في سفر الرؤيا، وكأنها تكريمًا للحمل مخلص العالم.

٥. إن كان كتاب المعاهد يهتم بالتنظيم الرهباني في حياة الشركة، فإن المناظرات تقدم الجهاد الروحي الشخصي للتمتع بالاتحاد مع الله في صورة كاملة. إنها تقدم حياة المسيحي، خاصة الراهب، كجندي ومصارع

^{٥٩} Everett Ferguson: Encyclopedia of Early Christianity, ١٩٩٠, p. ١٨٠.

^{٦٠} Mysticism J. Brouer: The Westminster Dictionary of Church History, ١٩٦٩, p. ١٦٥.

^{٦١} Nouv. acq. lat. ٢١٧٠.

يحتاج في معركته الروحية إلى قيادة مع التمييز والإفراز. وهي تعالج مواضيع روحية هامة مثل جدد العالم، حياة الإماتة، الصراع مع الخطية والشياطين، الصداقة، مواجهة الضيقات، الصلاة وأنواعها الأربعة.

٦. تعالج المناظرة ٩ أربعة أنواع من الصلاة، وتقدم انعكاسات على الصلاة الربانية.

٧. تمدنا المناظرة ١٠ بوصف حي لممارسة الصلاة الدائمة.

٨. مناظرة ١٦ تمتدح دور الصداقة في النمو الروحي، فمع الاهتمام بالعلاقة الشخصية مع الله، لكنها

ليست بروح الانعزالية عن الغير.

ثالثاً: التجسد الإلهي ضد نسطور

De incarnation Domini contra Nestorius libri VII

في عام ٤٣٠م كتب القديس كاسيان سبعة كتب بناء على طلب لاون رئيس شمامسة روما، لكي يحطم الهرطقة النسطورية، وهي لا تحمل شهرة كالعلمين السابقين.

بدأ كاسيان بتنفيذ البيلاجية كمصدر لكل الشرور، معلناً أن البيلاجية هي مصدر انحراف نسطور المعلن في عظاته: "يسوع المسيح الذي ولد من العذراء رجل عادي، وبسبب حياته الفاضلة استحق الاتحاد باللاهوت"^{٦٢}.

لاحظ القديس أغسطينوس الارتباط بين طبيعة المسيح عند النساطرة والبيلاجية، كما وُجد هذا الارتباط عند تلميذه بروسبر Prosper.

أكد كاسيان الوحدة بين الطبيعتين، بجوهر واحد^{٦٣}، وأكد أن استخدام تعبير "ثيوتوكوس" كلقب للقديسة مريم ترجع جذوره إلى العهدين الجديد والقديم، مقدماً نصوصاً من كتابات الآباء تؤكد ذلك^{٦٤}. أخيراً وجه التماساً حياً من مسيحي القسطنطينية أن يبقوا مخلصين لأسقفهم يوحنا.

هذا العمل ضعيف وغامض، والفكر اللاهوتي غير ثابت، أحياناً يستخدم عبارات نسطورية. فإن كاسيان، في الواقع ليس رجل لاهوت بالطبيعة، لكنه إنسان روحي، يهتم بالجانب العملي لتطبيق اللاهوتيات. كمثال يقول إن كان السيد المسيح ليس هو ابن الله وابن الإنسان تصير كل جهود الراهب للتمتع بالتأله الموعود به باطلة.

^{٦٢}De incarn., ٥:١

^{٦٣}Ibid ٣:٧.

^{٦٤}Ibid ٧: ٢٤ - ٤٣.

القديس يوحنا كاسيان لاهوتياته

القديس يوحنا كاسيان وبدعة تشبيه الله بالإنسان

Anthropomorphism

بخصوص مناظرة ١٠ عن "الصلاة" تسأل البعض عن بدعة تشبيه الله بالإنسان، وهي بدعة مادية ترى أن اللاهوت شبيه بالإنسان له جسد وأذرع ويدان ورجلان... وقد استنقت هذه البدعة مبادئها من تفسيرها بعض نصوص العهد القديم تفسيراً حرفياً مادياً خاطئاً مثل: "هل لك ذراع كما لله.." أي ٩:٤٠؛ "شمر الرب عن ذراع قدسه" إش ٥٢:١٠.

تحدث القديس أغسطينوس عن هذه البدعة في عظاته على فصول منتخبة من العهد الجديد، إذ قال إن البعض يتصورون اللاهوت بصورة جسدانية حتى يُضخّموا من شكله الجسدي.

هذه البدعة تختلف تمام الاختلاف عن تجسد الابن، الذي أخذ جسداً فاتحد اللاهوت بالناسوت بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير.

• يطالبنا الأب إسحق ألا تكون لنا النظرة اليهودية المادية التي حجت عنهم معرفة شخص ربنا يسوع رغم رؤيتهم له بالجسد، فلم يدركوا أسرار لاهوته.

• سيأتي الرب يسوع في يوم الدينونة، فيراه الأشرار من جهة الجسد. "وستنظره كل عين والذين طعنوه وينوح عليه..." رؤ ١:٧، لكنهم لا يستطيعون معاينة مجد لاهوته. أما الأبرار فهم وحدهم الذين يعاينون أمجاد اللاهوت المتحد بالناسوت اتحاداً أبدياً.

القديس يوحنا كاسيان وشبه البيلاجية^١

أثارت المناظرة ١٣ للأب شيريمون عن "حماية الله" ضجة حول أرثوذكسية كاسيان، بسببها هوجم كاسيان من الأغسطينوسيين المتطرفين في بلاد الغال، خاصة بروسبر^٢ Prosper of Aquitanus في كتابه *Contra Collatorem*^٣، متهماً إياه بالبيلاجية. فقد بدأ الصراع مع فكرة "الاختيار" كضد لحرية الإرادة بالقديس يوحنا كاسيان. إذ ركزت المناظرة ١٣ للأب شيريمون على حرية الإرادة البشرية حيث يبدو أنه يعطيها أولوية على نعمة الله.

يقول فيليب شاف: "على رأس جماعة شبه البيلاجية يقف يوحنا كاسيان مؤسس وأب الدير الذي في ماسيليا *Massilia*،... إنسان غني في الخبرة، ولا يُشك في أرثوذكسيته^٤".

يمكننا معرفة سبب ذلك، إن عرفنا الظروف التي عاش فيها القديس يوحنا كاسيان. فقد قام الصراع بين القديس أغسطينوس وأتباع بيلاجيوس الذي قلل من أهمية النعمة الإلهية، مركزاً على حرية إرادة الإنسان

^١ K.S. Latourette: *A History of Christianity*, ١٩٥٣ p. ١٨١-١٨٢.

^٢ لاهوتي شاعر يتبع الأغسطينوسيين ترك بلده *Acquitania* وذهب إلى جنوب الغال.

^٣ Bruce, p. ١٦٦.

^٤ Philip Schaff: *History of Christian Church*, vol. ٣, p. ٨٦٠.

وإمكانية خلاصه بجهاذه الذاتي. وقد أدانت الكنيسة البيلاجية، هذا سبب حساسية مرهفة من جهة كل من يتكلم عن الأعمال، خشية أن يكون في طريق الانزلاق نحو البيلاجية، أو لئلا يقتطف البيلاجيون أية فقرة من حديثه ويعتمدون عليها في تأكيد بدعتهم.

ويمكننا أن نضرب لذلك مثلاً. إذا كتب إنسان في مقال عن الرب يسوع تعبير "الإنسان"، يُعتبر هذا اللفظ غير لائق ليس لأننا ننكر ناسوته، لكن لظهور البدع التي تنادي بعدم ألوهية ربنا يسوع، لهذا نردف مع كلمة "يسوع" لفظ "الرب" أو "إلهنا ومخلصنا"، حتى لا ينزلق أحد في عدم معرفة حقيقة شخص ربنا يسوع. هذا على خلاف ما كان حادثاً في القرون الأولى حيث كانت البدع، وخاصة المتسمة بسمات الفارسية أو الهندية، تنظر إلى المادة كعنصر ظلمة فلا يقبلون أن يكون للرب يسوع جسداً لئلا يكون فيه عنصر ظلمة. لهذا نادى بدع كثيرة قائلة بأن السيد المسيح لم يأخذ جسداً حقيقياً، بل كأنه يحمل جسداً وكأنه ينام وكأنه يتألم وكأنه يُصلب... وهذه البدع رفضتها الكنيسة الأولى مؤكدة ناسوت الرب يسوع.

هاجم القديس أغسطينوس البيلاجيين في كتاباته متحدثاً عن نعمة الله باستفاضة، لكن لم يكن الكل مستريحاً للقديس أغسطينوس، إذ في مقاومته للبيلاجية بالغ في الاتجاه المضاد حتى كاد يعتقد بتحديد المصير والاختيار الإلهي للإنسان متجاهلاً دور الحرية الإنسانية. اعتقد كثيرون أن أقوال القديس أغسطينوس في هذا الشأن تحطم كل رغبة في الجهاد الروحي والسلوكي، قائلين: إن كانت نعمة الله تعمل في المختارين دون أن يبداً بخطوة جادة نحو التوبة، فما هي الحاجة لمحاولة الإنسان أن يسير في الطريق الحق؟

أما موقف كاسيان في هذا الشأن فيتلخص في الآتي:

- رفض كاسيان تماماً فكرة أن النعمة الإلهية لا تُقاوم ولا تُفقد، مؤكداً حرية إرادة الإنسان الدائمة.
- أكد أن حرية إرادة الإنسان قد ضعفت بسبب السقوط في الخطية لكنها لم تنتزع تماماً. الإنسان مريض روحياً لكنه ليس ميئاً. فهو بالحق لا يقدر أن يعين نفسه، لكنه يستطيع أن يشتهي ويطلب معونة الطبيب، وله أن يقبل المعونة ويمكنه أن يرفضها متى قدمت إليه. أيضاً علي أي الأحوال بينما يمكن للإنسان في بعض الأوقات أن يكون له الفكر والرغبة للصالح بنفسه، ويمكنه بنفسه أن يجيب على الدعوة الإلهية، إلا أنه لا يقدر أن يتم الصلاح الذي يدرکه ويرغبه ولا أن يفعل ما يدعو إليه الله بدون النعمة^٥.
- إن أراد يلتزم أن يتعاون مع نعمة الله التي لا تعمل فينا قسراً. فالابن الضال وزكا العشار واللص اليمين وكرنيليوس قرروا التوبة.
- يريد الله أن جميع الناس يخلصون، وليس مجرد مجموعة منهم. من ينكر هذا - في نظره - تجديف مرعب. لم يُخلق الإنسان لكي يعيش بلا إرادة، ولا لكي يكون عاجزاً عن ممارسة الخير. فإن رأى الله فينا مجرد شرارة صغيرة جداً للرغبة أو الإرادة نحو الخير يقويها ويسندنا بنعمته. إنه يرفض مطلقاً حتمية "المصير"، ويعتقد أن النعمة توهب لكل على الحياء، لكن حسن أو إساءة استخدامها يحدد خلاصنا أو دينونتنا^٦.

^٥ Conf. ١٣: ٩.

^٦ Conf. ١٣: ٧، ١٧؛ ١٧: ٢٥.

- إن الإنسان دون معونة من أية عطية خاصة بالنعمة يمكنه أن يمارس الخطوة الأولى في طريق خلاصه^٧، أي يمكننا نحن أنفسنا أن نكون لنا على الأقل بداية صالحة^٨.
 - يطلب الله ويتوقع منا جهودًا سابقة قبل مساهمة نعمته^٩.
 - يُدعى البشر بواسطة بطرق متنوعة، فالبعض مثل أندراوس وبطرس يدعون قبل أن يفكروا في ذلك، وآخرون مثل زكا يدعون بعد أن يكونوا قد تحولوا فعلاً نحو الله، وآخرون أيضاً مثل بولس يبدو كمن يُسحبون ملزمين^{١٠}.
 - إما أن يُدعى الإنسان بواسطة الله ويستتير بنوره، أو يستطيع بنفسه أن يؤمن ويكون له الإيمان^{١١}، إذ يقدر بكامل حريته أن يرفض أو يتبع النعمة الإلهية^{١٢}. النعمة عند القديس يوحنا كاسيان هي كما كانت بالنسبة للإنسان الأول وهو في حالة البراءة عند أغسطينوس: فهي تدعونا وتسأل عنا وتحثنا ولكنها لا تلزم إرادتنا.
 - المعونة الفائقة للطبيعة لازمة حتماً لصنع الصلاح والمثابرة عليه. هنا كاسيان يخلص إلى أنه يجب ألا نقول بأن النعمة ليست مجانية، ولا أنها على قدم المساواة مع المجهودات التي لا تقدم شيئاً بالمقارنة لعمل النعمة وعظم المكافأة^{١٣}. ليتنا لا نقول مع البيلاجيين أن النعمة تمنح للإنسان لأنه مستحق لها، وحسب استحقاقه، وإنما على خلافهم يلزمنا ألا ننسب عمل الخلاص كله لحرية الإرادة، التي تقدم أقل مساهمة في هذا العمل، وأحياناً لا تساهم نهائياً^{١٤}.
 - مع ما قاله مخالفًا البيلاجيين فإن في ذهنه الكلمة الأخيرة في مشكلة الخلاص تعتمد على حرية الإرادة تماماً. الحرية العاجزة عن أن يكون للإنسان إرادة أو أن يعمل ما هو صالح لنفسه لا تكون حرية أصيلة^{١٥}.
- تبع كاسيان تلميذه Vincent، راهب في ليرن Lérins الذي أعلن أن تعاليم أغسطينوس جديدة.
- يبدو أن كاسيان بدأ المناظرة ١٣ أولاً بما يتفق مع القديس أغسطينوس، وقد أضاف عبارة فريدة نزع فيها كل دعوانا من جهة الاتكال على جهاد الإنسان الذاتي، مضيفاً أنه وإن جاهد الإنسان بكل طاقته من أجل الثمرة الصالحة، لكنه لا يقدر أن يسيطر على ما هو صالح ما لم يطلبه ببساطة من جود الله وكرمه، وليس بجهاده الذاتي^{١٦}، لكنه عاد ليقدم بكل دقة تعاليمه.

يمكن إدراك تطور فكر كاسيان في دير القديس بقطر بمرسيليا وغيره من الأديرة في Lérins بدراسة

^٧Wand, p. ٢٣٣.

^٨Conf. ١٣:٩.

^٩Conf. ١٣:١٣.

^{١٠} Conf. ١٣: ١٥، ١٧، ١٨.

^{١١} Conf. ١٣: ١٤.

^{١٢} Conf. ١٣: ١٢، ١٣؛ ٣: ١٩.

^{١٣} Conf. ١٣: ١٣.

^{١٤} Conf. ١٣: ١٦.

^{١٥}Conf. ١٣: ١٢.

^{١٦}Conf. ١٣: ١.

الرسالتين اللتين كتبتا عام ٤٢٩ بواسطة بروسبر وهيلاري إلى أغسطينوس، فقد سمعا من الرهبان أسئلة تحمل عداوة لأفكار أغسطينوس في موضوع الخلاص، فجمعا هذه الأسئلة وقدمها لأسقف هيبو ليجيب عليها ويفندها. وردت هاتان الرسالتان مع مجموعة رسائل القديس أغسطينوس (رسالتا ٢٢٥، ٢٢٦). جاء فيهما:

- تمنح النعمة للطبيعة التي هي بحق ساقطة وضعيفة، لكنها ليست عاجزة تمامًا عن أن تفعل صلاحًا^{١٧}.
 - نقول بدقة أن النعمة لا تسبق بل مجرد ترافق تصميم الإرادة وإتمام العمل المستحق المديح^{١٨}.
 - دائماً يُفهم أن النعمة ضرورية لتعين الإنسان لكي يعمل ويتم الأعمال الصالحة التي يدركها ويريدها^{١٩}.
 - النعمة مقدمة لكل البشر. الكل مدعوون بالقانون الطبيعي أو المكتوب أو الإنجيلي، لأن الله يريد خلاص الكل لذلك فإن هذا يعتمد على الإنسان ان كان يريد أن يخلص أم لا، إذ يستطيع دائماً أن يتجاوب مع الدعوة الإلهية^{٢٠}.
 - كل البشر يمكنهم أن يكونوا قد سبق تعيينهم حيث كل واحد في استطاعته أن يتأهل للاختيار أو عدم التأهل لذلك^{٢١}.
 - إن هذه النظرية لا يوجد فيها قط ما يدعو إلى اليأس ولا إلى التراخي، وأنها تحل المشاكل التي سببها الاعتقاد بحتمية "المصير".
- هذا هو مختصر للآراء التي سادت في الأديرة التي بجنوب بلاد الغال عام ٤٢٩ حسب ما ورد في رسالتي بروسبر وهيلاري. أعتبرت هذه الآراء فيما بعد في نظر اللاهوتيين شبه بيلاجية - Semi Pelagianism، ويمكن اختصارها في ثلاث نقاط^{٢٢}.
- أ - الإنسان قادر بدون النعمة أن يرغب ويريد لكنه عاجز عن ان يتم الأعمال الصالحة الفاتكة للطبيعة. يمكنه أن يبدأ أن يؤمن لكنه لا يقدر أن يقدم لنفسه إيماناً كاملاً.
- ب - الله يريد أن الجميع يخلصون، مقدماً لكل نعمة الخلاص. يمكن لكل أن يتعاونوا مع نعمته ويثبتوا فيها إن أرادوا.
- ج - لا يوجد تحديد مصير مطلق، فتحديد المصير أو الرفض يُعتبر بالنسبة لله أنها نتيجة لسبق معرفته عن استحقاق أو عدم استحقاق لكل فرد، وتحسب بالنسبة للإنسان أنها نتيجة لسلوك البشر.
- بين هذه النقاط الثلاث يبدو أن النقطة الأولى وحدها التي واجهها أتباع أغسطينوس بالرفض والردل التام. أما النقطتان الثانية والثالثة فطلبوا مزيداً من الإيضاح وصار من الصعب تفنيدهما^{٢٣}.

^{١٧} Epistle ٢٢٦:٦.

^{١٨} Epistle ٢٢٥:٥.

^{١٩} Epistle ٢٢٦:٢،٤.

^{٢٠} Epistle ٢٢٥:٣،٤،٦.

^{٢١} Epistle ٢٢٥:٢،٦؛ ٢٢٦:٤،٥،٧.

^{٢٢} Tixorent, History of Dogmas, vol. ٣, p. ٢٧١.

^{٢٣} Tixorent, History of Dogmas, vol. ٣, p. ٢٧١-٢٧٢.

بناء على طلب تلميذه أجاب أغسطينوس على الاعتراضات التي أثّرت على آرائه في هذا الشأن، جمعها من مصادر مختلفة ووضعها في مقالين: *De dono perseverantiae*. وقد سندت إجابته تلميذه وثبتت فكرهما، لكنها لم تقنع معارضيه، فنشأ صراع بين الأغسطينوسيين وشبه البيلاجيين في جنوب الغال. لم يعيش القديس أغسطينوس ليرى نتيجة الصراع بل تتيح في ٢٨ أغسطس ٤٣٠م، واهتم تلميذه بروسير بالدفاع عن آرائه^{٢٤}.

هل كان كاسيان بيلاجياً؟

لا يمكن اتهام كاسيان بالبيلاجية، فقد أعلن في كتابه "عن التجسد الإلهي ضد نسطور" أن البيلاجية هي أصل كل الشرور، وهي وراء بدعة نسطور. يبرر البعض موقفه بأنه تأثر بالقديس يوحنا الذهبي الفم أكثر من القديس أغسطينوس^{٢٥}، فهو لن ينسى قط حث الذهبي الفم شعبه للاستمرار على الجهاد الشخصي والعمل. يقول القديس يوحنا الذهبي الفم إنه ليس الله ولا نعمة الله تمنع حريتنا في الاختيار^{٢٦}.

أيضاً تشجيع كاسيان اليومي لرهبانه على السلوك في طريق بذل الذات والتضحية جعله غير قادر على قبول نظرة القديس أغسطينوس السلبية الذي يبدو كمن يقلل من شأن الإرادة البشرية متأثراً بنظرته الخاصة نحو النعمة الإلهية. إن كان الله حقاً يفعل كل شيء لنا، فمن أين يأتي الاستحقاق للمكافأة؟ وإن كنا لن نقدر أن نفعل شيئاً بدون النعمة، فما هو موقف حريتنا؟^{٢٧}

^{٢٤} Tixorent, *History of Dogmas*, vol. ٣, p. ٢٧٢.

^{٢٥} Ferguson, p. ١٨٠.

^{٢٦} Comm. in Math., hom ١٥:١, PG ٥٨:٤٧١.

^{٢٧} Tixeront: *History of Dogmas*, vol. ٣, p. ٢٦٦.

القديس يوحنا كاسيان منهجه وأفكاره

مصادر فكره

يرى Quasten أن تعاليم كاسيان الروحية تعتمد على الكتاب المقدس بجانب ارتباطه بالفكر اللاهوتي السكندري، خاصة في تفسيره الروحي لنصوص الكتاب المقدس. إنه هو الصوت الذي نقل ما في الشرق، خاصة ما في مصر، إلى الغرب^١. اعتمد على القديس إكليمنضس السكندري وأوريجينوس في نظريته عن الأهواء أو الشهوات، واستوحى تعليمه عن نقاوة القلب من أوريجينوس وعن الخطايا الثمانية من القديس أوغريس. في كاسيان نجد مفاهيم "المعرفة الروحية" والصلاة التأملية مقتبسة من أوريجينوس وأوغريس إما مباشرة أو أخذ الكل من مصدر مشترك. أيضًا كان كاسيان معجبًا بشخص القديس يوحنا ذهبي الفم ويدين له ببعض التعاليم.



منهجه الروحي

الحاجة إلى النمو الروحي

جاءت كتابات القديس يوحنا كاسيان سواء في "المؤسسات لنظام الشركة" أو "المناظرات" تتفق مع كلمات الرسول بولس القائل: "صادقين في المحبة ننمو في كل شيء إلى ذاك هو رأس المسيح" (أف ٤: ١٦)، "إلى أن يتصور المسيح فيكم" (غلا ٤: ١٩). وقد جاءت الكلمة "يتصور" *morphosis* في اليونانية تحمل معنى النمو واجتياز مراحل الكمال التي لا تنتهي^٢.

يرى كاسيان أنه يوجد نظام محكم ودرجات متمايزة، بها يرتفع المتضع إلى الأعالي. يتحقق هذا بالتقدم في فضائل الاتضاع مع المحبة والصلاة وجدد الذات الخ^٣. هذا التقدم هو صراع لا ينقطع، إذ يليق بالمؤمن أن يصعد على الدوام على السلم المتجه نحو الله^٤.

الحياة الروحية في خبرة كاسيان هي تمتع بنعمة الله كبدار تلقى في القلب، تنمو خلال الجهاد الروحي السليم، فتصعد النفس خلال الاتضاع والطاعة من الخوف إلى كمال الحب الإلهي. وكما جاء في الفصل ٤٣ من الكتاب الثاني للمؤسسات أن السلم الذي تصعد نفس المؤمن درجاته هي:

- **مخافة الرب** التي تولد الندامة.
- **والندامة** تقيض بجدد الأمور الزمنية والاستخفاف بها.
- وهذه تهب **اتضاعًا**.
- والاتضاع يلد **إماتة عن الشهوات**.

^١ Quasten: *Patrology*, vol. ٤, p. ٥٢٢.

^٢ Tomas Spidlik: *The Spirituality of the Christian East*, Michigan ١٩٨٦, p. ٦٨.

^٣ Conference ١٠:٧.

^٤ Conference ٦:١٣ff.

- وهذه تستأصل الأخطاء.
- بذلك تيزغ الفضائل كنبئة جديدة في الغصن.
- هذه الفضائل تهب نقاوة القلب.
- والنقاوة تكسب النفس كمال الحب الإلهي.

هذه الصور تتكرر بشكل أو بآخر في كتاباته لكي تبعث في المؤمن روح الجهاد المستمر بغنى نعمة الله حتى يبلغ الكمال الروحي.

وكما جاء في المناظرة ١٣:٦-١٥ أن التقدم مستمر بلا انقطاع حيث يرتفع بنا السلم نحو الله، وأما التوقف فهو تقهقر ونكوص.

الإنسان الداخلي

الإنسان الداخلي عند كاسيان: "هو ذاك الذي يكرس نفسه بالتمام للعمل الداخلي للجهاد ضد الأفكار"^٥ الشريرة لينعم بالفكر السماوي.

قدسية الحياة اليومية

كشف لنا القديس يوحنا كاسيان في كتابه "المؤسسات لنظام الشريعة" الكتاب الرابع، الفصل العشرين، عن نظرة المؤمن إلى حياته المقدسة. فالراهب - كما أوضحه هذا الفصل - لا يرى القدسية في الترنم بالمزامير أو ممارسة الصلوات والمطانيات والاصوام والخدمة فحسب، لكنه يتطلع إلى كل ما يدخل الدير كأمر مقدس، حتى بعض حبات من العدس الساقط سهوًا على الأرض، أو تقديم كوب ماء، أو غسل إناء، أو تنظيف قلايته... إنه يمارس هذا العمل في حضرة الله. كل شيء في عينيه مقدس.

نظرة إيمانية رائعة تحول المؤمن إلى ملاك سماوي، يرى يد الله تبارك أكله وشربه ونومه وخدمته ودراسته وعمله اليومي. إنه إنسان الله الذي يتحرك كوكيل الله العامل باسمه ولحسابه، والمتقرب مكافأته السماوية له.

الكتاب المقدس والصلاة النارية

يربط كاسيان بين الكتاب المقدس والصلاة النارية، كل منهما يسند الآخر بعمل الروح القدس. نلاحظ أن العاملين: "المؤسسات" و"المناظرات" يضمنان اقتباسات كثيرة من الكتاب المقدس. إن كان ملكوت الله هو الغاية النهائية للحياة الروحية، فإن قراءة الكتاب المقدس والتأمل فيه يحققان ذلك. لقد كرس كاسيان المناظرتين ٩،١٠ والفصلين ٢،٣ من "المؤسسات" للحديث عن الصلاة.

صلوات السواعي إلزامية، وعمل الراهب هو أن يحول تلاوة المزامير إلى صلوات شخصية تمس علاقته الخاصة بالله إلهه. وأيضًا في دراسة الكتاب المقدس لا يقف الراهب عند القراءة أو التلاوة، بل يحول النصوص إلى تأمل صادر عن أعماقه، فتصير كلمات الكتاب المقدس كأنها صادرة منه كصلاة شخصية^٦.

^٥ Julien Lerory: *Le cénobitisme chez Cassien, Revue d'Ascétique et de Mystique*, Toulouse, ٤٣ (١٩٦٧)

١٥٥.

^٦ Conference ١٤: ١٠.

في دراسة الكتاب يكتشف الراهب "ذاك الذي أعلن عن كلمته" وراء النص. هذا يقوده إلى حوار شخصي بينه وبين الله، فيتحول النص الكتابي إلى صلاة دائمة.

يتحدث كاسيان عن الصلاة النارية الواهبة استنارة سمائية، بالتطلع الدائم على الله وحده، نار الحب ونوره!^٧

الحرب الروحية

تحتل الحرب الروحية مركزاً هاماً في روحانية كاسيان^٨. فالصراع هو الوسيلة التي تمدنا بالكمال الروحي^٩، وشهادة على ثبات النفس^{١٠}، تجعل حرية الإنسان كاملة^{١١}.

الصراع ضد الشياطين الذي عبرت عنه سيرة الأنبا أنطونيوس بقلم القديس أثناسيوس صار أمراً رئيسياً في كتابات كاسيان كجزء أساسي في تقليد حياة البرية. لكن ما يؤكد كاسيان أن الشياطين لن تقدر أن تهزم المؤمنين الحقيقيين^{١٢}، فالنفس قادرة على التمتع بروح النصر إن أرادت ذلك ورفضت الاستعباد له.

الخطايا الثمانية

يقدم لنا القديس يوحنا كاسيان ثمانية كتب تعالج الثمانية أفكار الشر، وقد جاءت في عمله "المؤسسات لنظام الشركة" ك٨-١٢. جاء هذا العمل على نمط كتاب مار أوغريس البنطي: "أفكار الشر الثمانية"، الذي أخذه عن فكر آباء برية مصر^{١٣}. في نهاية القرن الخامس تساءل جيناديوس من مرسيليا Gennadius of Marseilles إن كان أوغريس هو أول من قدم هذا التعليم^{١٤}. أخذ كل من القديسين أوغريس وكاسيان بنظرية الخطايا الثمانية التي تحارب الإنسان نقلاً عن الفكر السكندري. فقد رأى أوريجينوس^{١٥} في الأمم السبع التي حاربتها إسرائيل في كنعان تحت قيادة يشوع رمزاً للخطايا السبع بجانب مصر التي خرج منها الشعب^{١٦}.

صار لهذه النظرية أهميتها في التقليد النسكي الشرقي كما في الغربي. الاختلاف بين القائمتين في الشرق والغرب هو إنه في الغرب احتل فكر "الحسد" عوض "الكآبة" في الشرق، ربما لأن الحسد هو عامل رئيسي في كآبة النفس. وعوض "الضجر" في الشرق يستخدم "الكسل" في الغرب. أخيراً في الغرب يضمون "المجد الباطل" إلى "الكبرياء" بكونهما خطية واحدة.^{١٧}

^٧ Conference ٩:٢٥.

^٨ Owen Chadwick: John Cassian: A Study in Primitive Monasticism, Cambridge, ١٩٤٠, p. ٩٥ff.

^٩ Conference ١٨:٣.

^{١٠} Conference ٤:٦-٧.

^{١١} The Institutes ١٢:١٤.

^{١٢} Conference ٧:١٩ff.

^{١٣} القصص تادرس يعقوب ملطي: الفيلوكاليا ج١٩٩٢، ١، ص ١٣٠.

^{١٤} De Viris Illustribus ٢.

^{١٥} In Josh. Hom. ١٥:٥.

^{١٦} Conference ٥:١٧-١٨.

^{١٧} Cf. Tomas Spidlik: The Spirituality of the Christian East, Michigan ١٩٨٦, p. ٢٤٨-٩.

النهم

يُميز كاسيان بين النهم الذي يدفع الراهب ليأكل قبل المواعيد المحددة وذاك الذي يقوده ليأكل بلذة وشهوة^{١٨}. ويؤكد أننا لا نستطيع أن نستهيئ بملذات الطعام المقدم لنا ما لم يجد الذهن فرحاً أعظم في التأمل في الإلهيات^{١٩}.

الكبرياء

هو أن ينكر الإنسان أن الله هو معينه^{٢٠}.

الحياة الفاضلة

الفضيلة - عند كاسيان - هي تلك التي من خلالها نُعطي ملكوت قلوبنا... للمسيح^{٢١}. الفضيلة الأولى هي نقاوة القلب ومن أجلها نطلب الوحدة ونلتزم بالخضوع للأصوام والسهرة^{٢٢}.

حياة التأمل

التأمل هو أن "يعتني الإنسان بملكوت الله خلال معرفة أمور الروح"^{٢٣}. غاية التأمل في نظر كاسيان هو الاقتداء بالملائكة^{٢٤}، لكي ننعم برؤية الله، وتتحول بريتنا إلى فردوس، وننال عربون الأبدية.

الموت

بموت السيد المسيح تحولت نظرتنا إلى الموت من العقوبة بسبب الخطية إلى تمتع بالشركة مع السيد المسيح، شركة الحب البازل. لهذا يرى كاسيان أن الراهب هو ذاك [الذي يضبط عواطف النفس وينسى الأضرار ويكره الكآبة ويحتقر الأحزان والخسائر كما لو كان في كل يوم على حافة الموت]^{٢٥}.

الشعور بالوقوف على حافة الموت عند المؤمن لا يدخل به إلى نظرة تشاؤمية تحطم نفسه، بل تفتح بصيرته على أبواب السماء فتتهلل أعماقه وينسى كل ما يحل من أضرار وخسائر ويبغض روح الكآبة والقنوط ليشترك السمايين فرحهم.

^{١٨} Conference ٥:١١.

^{١٩} Institutes ٥:١٤.

^{٢٠} Institutes ١٢:٩-١١.

^{٢١} Conference ١:١٣.

^{٢٢} Conf. ١:٧.

^{٢٣} Conference ١:١٤.

^{٢٤} Conference ١٠:٧.

^{٢٥} Instit. ٥:٤١.

الكمال الرهباني

تُعتبر أسس النظم الرهبانية التي وضعها القديس يوحنا كاسيان من أكمل النظم في أيامه^{٢٢}. وقد سبق لنا الحديث عنها أثناء عرضنا لكتابات، سواء من الجانب الروحي أو الطقسي أو التنظيمي.

الرهبنة حياة مسيحية مثلى

يتطلع القديس يوحنا كاسيان إلى الحياة الرهبانية بكونها ممارسة للحياة المسيحية، ترجع أصولها إلى العصر الرسولي^{٢٤}، وأن المجتمع الرسولي المبكر كان المثل الأعلى لهذه الحياة^{٢٥}، إذ يقول: [الأديرة هي امتداد للحياة الكنسية الأولى في أورشليم مجتمعة حول الرسل. المؤمنون الذين يحتفظون في داخلهم بغيره الرسل يتركون المدن لكي يمارسوا الحياة الرسولية المثالية بعيداً عن دنس العالم^{٢٦}].

لا يقدم الرهبان شيئاً جديداً للمسيحية، إنما يجدون جذور حياتهم الرهبانية في تقليد العصر الرسولي، الذي من أساسياته جدد الرغبة في الامتلاك، مع صلب الإرادة خلال الطاعة، وتكريس الإنسان كل كيانه بالكامل لله بعبادة الجسد ونقاوة القلب.

الراهب هو ذاك الذي يعيش على حافة الموت كل يوم^{٢٧}، مجاهداً بجدية بالنعمة الإلهية، ومرتقياً أبديته بفرح.

نظاما الشركة والتوحد

خلال الخبرة التي عاشها القديس يوحنا كاسيان في أديرة مصر وبين آباء البرية، خاصة في طيبة حيث النظام الباخومي للشركة مع نظام التوحد، والإسقيط حيث نظام الجماعات مع نظام التوحد، يميز كاسيان بين نوعين من الحياة الرهبانية: حياة الشركة Cenobites وحياة التوحد Eremitic life لهما مميزتهما، لكن الطريق الأخير أكثر كمالاً^{٢٨}، ولا يجوز لأحد أن يختاره. بل يتدرب على الإفراز والطاعة قبل أن يقود نفسه دون السقوط في خطر الأوهام^{٢٩}.

يسلك السالكون في حياة الشركة تحت قيادة الجماعة الرسولية، متشبهين بهم. أما السالكون في حياة التوحد فيتشبهوا بالقديسين الأنبا بولا والأنبا أنطونيوس ويتبعون تعاليم السكندريين، الذين يرون في النبي إيليا في العهد القديم والقديس يوحنا المعمدان في العهد الجديد مثالين لهم.

حياة الراهب هي تلاقٍ بين الكلمة الإلهية الموحى بها بالروح القدس وخبرته اليومية التي تتحقق بقيادات ذات الروح. في كتاب المناظرات قدم كاسيان الحياة الروحية الرهبانية لا بطريقة نظامية رتيبة، لكنه قدم تساؤلات مع إجابات تعتمد على نصوص الكتاب المقدس وتقليد الآباء مع الخبرة الشخصية اليومية العملية.

^{٢٢} J.C. Guy: Jean Cassien: Vie et doctrine spirituelle, Paris, ١٩٦١.

^{٢٤} Lossky: The Mystical Theology of the Eastern Church, London, ١٩٥٧, p. ٢٣٦.

^{٢٥} Lossky: In the Image and Likeness of God, N.Y., ١٩٦٧, p. ١٩٦.

^{٢٦} Confer. ١٨:٥.

^{٢٧} The Institutes ٥:٤١.

^{٢٨} Institutes ٥:٣٦.

^{٢٩} Conference, ١٩.

الروح القدس الذي أوحى بالكتاب المقدس هو نفسه سيد الحياة الداخلية، ولا يناقض نفسه.

الحياة الرهبانية تبدأ بالخروج بناء على دعوة من الله^{٢٠}. أما شريعة الخروج فهي دعوة إلى الزهد مع التبعية لله. فالرهبان هم قبل كل شيء أولئك الذين يجدون أنفسهم. "فلكي يعلنوا عن رغبتهم في التحول إلى الله يلزمهم أن يبدأوا بجهد العالم"^{٢١}.

يصحب جسد العالم الخارجي المادي جسد للعادات الشريرة والرذائل أيضًا. حياة الراهب هي معركة روحية ضد أعمال الإنسان الجسداني وضد هجمات الشيطان وحيله، لكي يبلغ إلى الكمال الإنجيلي. التطهر من الرذائل يتحقق جنباً إلى جنب مع نوال الفضائل التي تهرب من أمامها الرذائل وتهب نمواً وانتعاشاً للطهارة. هذا يدفع الراهب إلى التأمل في الإلهيات والتمتع بنقاوة القلب والسلام والهدوء الداخلي.

هذه هي علامات الطريق الكامل في حياة الشركة والتي تهين الراهب لينطلق في رحلة طريق الوحدة، حيث ينعم بالصلاة الدائمة والدهش مع الفرح الذي لا ينطق به. فالنفس تمتلئ بالثمار الروحية وتلتصق بالله خلال الصلاة الدائمة^{٢٢}.

يرتبط الفرح الروحي بطهارة الروح إيجابياً، ويحرر النفس من كل رباطات لكي تنطلق إلى العرس السماوي^{٢٣}.

الحاجة إلى مرشد مختبر

تحدث القديس كاسيان في الكتاب الرابع الفصلين ٩ و ١٠ عن التزام الحديثين في الرهبة ألا يعتمدوا على تمييزهم الشخصي، ولا يخفون شيئاً من أفكارهم عن الشيخ المختبر الذي يتعهدهم. بهذا لا يقدر الشيطان أن يدمر الشخص الحديث اللهم إلا إذ أغواه بالكبرياء وإخفاء أفكاره. وأن تكون طاعة الرهبان الحديثين كاملة، حتى أنهم لا يستطيعوا مغادرة قلايتهم ولا الذهاب لقضاء احتياجاتهم الطبيعية بدون إذن. يطيعون بثقة ويقين وبلا تردد كما لو كان الأمر صادراً من السماء.

جاء في بستان الرهبان^{٢٤}:

[قال أنبا قسيانوس:

إن أنبا موسى أوصانا بأن لا نكتم أفكارنا، بل نكشف لمشاخ روحانيين لهم معرفة وتمييز وليس لمن طال عمره وشاب شعره، لأن كثيرين قصدوا أهل كبر السن، وكشفوا لهم عن أفكارهم، وحيث أنه لم يكن عندهم معرفة فعوض العلاج طرحهم في اليأس. هذا ما حدث لأخ من البارزين في الجهاد، إذ أنه لما تأذى بالزنى نتيجة كثرة القتال الواقع عليه، ذهب إلى أحد الشيوخ، وكشف له أفكاره، وكان الشيخ غير مختبر، فضجر منه، وقال: "أيها الشقي إذ تدنس حواسك بهذه الأفكار فعلي أي شيء تتكل؟" فلما سمع الأخ قوله، حزن جداً ويئس من خلاصه، وترك قلايته، ومضى قاصداً العالم. لكن حدث بتدبير من الله أن التقى به شيخ آخر، فلما رآه عابساً مضطرباً سأله عن حاله قائلاً: "ماذا بك يا ولدي؟" فقال له الأخ: "يا أبي إني تأذيت بأفكار الزنا، فمضيت

^{٢٠} Conferences, ٣:٣-٥.

^{٢١} Institutes ٤:١.

^{٢٢} Conferences, ٤:٢.

^{٢٣} Conferences, ١٠:٧.

^{٢٤} بستان الرهبان.

إلى الشيخ فلان، وكشفت له أمري، فبحسب جوابه ليس لي رجاء في الخلاص".

فلما سمع الشيخ قوله، أخذ يسكن من روعه ويشجعه وابتدأ يعيد إلى نفسه الرجاء في التوبة، قائلاً: "لا يهكم هذا الكلام. ولا تيأس نفسك من الخلاص، فما أنا بالرغم مما بلغت من هذا السن وهذه الشبهة كثيراً ما أتأذى من هذه الأفكار، فلا تحزن من أن جهادنا في الأمر لم يبلغ مقدار ما يأتينا من رحمة الله ومعونته، لكن هب لي يومك هذا وأرجع إلى قلايتك". فأطاع الأخ كلام الشيخ ورجع إلى قلايته، أما الشيخ الذي رده إلى قلايته فأتى إلى ذلك الشيخ الذي قاده إلى اليأس ووقف خارجها وسأل الله بدموع كثيرة قائلاً:

"أنا أطلب إليك يا ربي وإلهي أن تصرف هذا القتال عن هذا الأخ، وتسلمه على الشيخ الذي قاده إلى اليأس، ليحرب في شيخوخته ويتعلم في كبر سنه ما لم يتعلمه في طول زمانه، ليشعر بالآلام المجاهدين المقاتلين فينالهم لآلامهم، وبذلك يحصل على منفعة نفسه".

فلما أتم الشيخ صلاته، نظر إذ بجيش واقف قرب قلاية الشيخ وهو يصوب نحوه سهماً ويجرحه، وإذا بالشيخ يقوم لساعته سكراناً، وخرج من قلايته، واندفع من قلايته يجول، فسلك الطريق التي سلكها الشاب الذي قطع منه رجاء التوبة مريداً أن يعود إلى العالم، فلما علم الشيخ المختبر بما عزم عليه الشيخ الآخر استقبله وقال له: "إلى أين أنت ذاهب أيها الأب، وما سبب هذا الاضطراب الذي اضطررت للخروج من قلايتك؟" أما هو فتوهم أن الشيخ قد عرف بحاله، ومن الخجل لم يرد عليه جواباً، فقال له ذاك: "ارجع إلى قلايتك، ومن الآن كن عارفاً بضغفك، واعلم بأنك إلى هذه الغاية لم تجرب بعد، إما لأن الشيطان كان غافلاً عنك، أو لاستهانته بك، لم يتجرّد لقتالك، ولذلك نجوت، وها قد ظهر الآن أنك غير أهل لأن تُعد من المجاهدين، لأنك لم تقدر أن تصارع يوماً واحداً. فما أصابك كان نتيجة لتصرفك مع ذلك الشاب الذي أتاك، وقد أذاه عدونا كلنا، فبدلاً من أن تعينه وتشجعه، ألقته في اليأس، ولم تفكر فيما قاله الكتاب: "خلصوا المسوقين إلى الموت، شجعوا صغييري النفوس".

سبق لنا الحديث عن التزام الراهب بعمل اليدين لأجل بنيانه الروحي. جاء في بستان الرهبان:

[قال قاسيانوس الرومي^{٢٥}:

إنه أمر فطيع وقبيح بنا أن العلمانيين يتعبون ويعملون ويعولون أولاداً ونساءً ويدفعون خراجاً وضريبة ويحسبون إلى فقراء ومحتاجين حسب طاقتهم ويحملون إلى بيت الله باكورات وقرابين، أما نحن فلا نقتني من أتعابنا حتى ولا حاجتنا اللازمة لنا، بل نحبس أيدينا داخل ثيابنا، ونستجدي أتعاب غيرنا، ولا نصغي إلى الرسول القائل: "إن هاتين اليدين قد خدمتا حاجاتي وحاجات الذين هم معي"، وقوله: "إن الرب أعطى الطوبى للمعطي أكثر من الأخذ". وقوله أيضاً: "نحن نوصيكم يا إخوتنا باسم ربنا أن تتجنبوا كل أخ عديم النظام، لا يسلك حسب التقليد الذي سلمناه لكم، بل لنعطيك أنفسنا مثلاً. لأني وقت أن كنت عندكم، قد أوصيتكم بهذا. أن من لا يشاء أن يعمل فلا يأكل، فقد سمعنا الآن أن فيكم قومًا يسبسون بعدم نظام ولا يمارسون عملاً. فنحن نوصي هؤلاء ونسألهم باسم يسوع المسيح أن يعملوا عملهم بسكون، ويأكلوا خبزهم".

قيل عن أنبا قاسيانوس أنه أخذ مرة تليسا، ومضى إلى البيدر مع الحاصدين، وقال لصاحب البيدر: "اعطني قمحاً". فقال له: "لماذا لم تأت لتحصّد، فكنت تستحق أن تأخذ؟" فقال له الشيخ: "هل إذا لم يحصد الإنسان لا يأخذ أجره؟" فأجابه: "لا يأخذ". فما كان من الشيخ إلا أن انصرف، فقال له الإخوة الذين عاينوا ما

^{٢٥} بستان الرهبان.

حدث: "لماذا فعلت هكذا يا أبانا؟" فقال لهم: "سُنة وضعتها لنفسي وهي إن لم يعمل الإنسان ويتعب، فلن يأخذ أجره من الله".

مناظرات يوحنا كاسيان

مع مشاهير آباء البرية

١٩٩٨

طبعة منقحة ومزودة

مقدمة الطبعة الأولى

بين يديك أيها العزيز مجموعة من اختبارات الكنيسة الأولى في شركتها مع ربنا يسوع.

هذه المجموعة، خاصة الجزء الأول والثاني من "مناظرات كاسيان"، اتسمت بالطابع الروحي الذي يمكن لكل مؤمن أن يختبره ويتذوقه ويحيا به.

وإذ سجل لنا البعض مقتطفات مختصرة من كتابات الآباء الرهبان أو كتبوا بعض التصرفات الخاصة بهم وهم في أواخر حياتهم بعدما بلغوا شوطاً طويلاً في عبادتهم ونسكهم، تشوهت صورة الرهبنة في أذهان الكثيرين، فحسبوا سباقاً في الزهد والحرمان والتخلي والانفراد والاعتزال عن كل أحد. لكن هذه المناظرات التي هي لمشاهير القادة الرهبان، وغيرها من الكتابات التي جاءت بصورة مستفيضة إلى حد ما، كشفت لنا بحق عن مفهوم الرهبنة أنها ليست إلا سباق في الارتقاء في أحضان ربنا يسوع المسيح بعمل روحه القدوس، واغتصاب لنعمة الله الواهبة عشقاً له، وشبعاً بالرب إلهنا، وهم في هذا:

❖ يمارسون الزهد كوسيلة لغاية أسمى هي التأمل الإلهي والانشغال بالله والانطلاق بالنفس نحو مخلصها.

❖ يمارسون الزهد في اعتدال، كل حسب قامته الروحية واحتياجاته حتى لا يُصابوا بضربة شمالية (الشهوات) أو ضربة يمينية (الكبرياء أو الرياء).

❖ الهروب إلى البراري ليس كراهية نحو الناس، ولا فتوراً في محبة الآخرين. فلا يخرج إلى الدير إلا من نجح أولاً في محبة الغير. ولا يخرج إلى الوحدة إلا من نجح في حياة الحب والطاعة والخضوع في نظام الشركة.

❖ الحياة الرهبانية هي في حقيقتها اختبار يلزم أن يمارسه كل مؤمن حسب قامته الروحية. فهي دعوة لاختبار الحياة المسيحية الحقيقية من حب وعفة وطاعة وصلاة الخ.. الأمور التي يتقبلها جميع المؤمنين الحقيقيين من يدئ الله، ويجاهدون من أجلها. فالمتزوجون يهتمون كيف يرضي كل واحد امرأته، أما غير المتزوج فيهتم بما للرب (كيف يرضي الرب)... إذ تهبه البتولية فرصة أكبر لتذوق الحب الإلهي ومشاركة السمائيين في الصلاة الدائمة وعدم الانشغال بالأرضيات.

قصة هذه المناظرات كما سبق فرأينا هي أن القديس يوحنا كاسيان جاء مع صديقه جرمانوس من الدير في بيت لحم بسوريا، ليسجلا بعض تعاليم آباء مصر وتدريبهم ليعودا بها إلى رهبان الدير. وقد تعهدا أمام الآباء أن يعودا سريعاً، لكن الحياة الرهبانية جذبتهم فلم يستطعا العودة، إذ رأيا أنه لا يمكن أن تسجل على ورق، بل يتشربانها بالحياة العملية. لذا اضطرا إلى البقاء سبع سنوات يتتلمذان في أديرة مصر، رغم الرسائل التي أرسلها إليهما رهبان بيت لحم يستعجلانها بالراح للعودة.

هذه المناظرات وغيرها من كتابات القديس يوحنا كاسيان التي استوحاها من برية مصر كانت دستوراً لمدرسة جنوب فرنسا الرهبانية وقد تخرج فيها عدد وفير من قادة الروح والفكر.

الجزء الثالث من هذا الكتاب يخص حياة الشركة والتوحد، ويتحدث عن تداريب خاصة بالرهبان وحدهم. فلا يجوز تطبيق شيء مما ورد فيه إلا بعد استشارة أب الاعتراف.

الرب قادر أن يترجم هذه الكلمات إلى بركات روحية في حياتنا جميعاً بشفاعات أم النور الطاهرة مريم

وطلبات الآباء القديسين.

القمص تادرس يعقوب ملطي

الطبعة الأولى: الإسكندرية في ١٩٦٨.

ظهور السيدة العذراء بالزيتون.

وإعادة جسد القديس مارمرقس إلى بلاده.

مناظرات يوحنا كاسيان

مع مشاهير آباء البرية

الجزء الأول

مناظرات ١ - ١٠

مقدمة

إنني الآن أوفي، قدر ما يسمح به ضعفي، بالوعد الذي تعهدت به للطوباوي البابا^١ Castor في مقدمة تلك المجلدات التي جمعتها بعون الله في اثني عشر كتابًا عن أنظمة الشركة (المؤسسات) وعلاج الأخطاء الثمانية الكبرى^٢. ولقد كنت أود أن أسمع رأيه ورأيكما في هذا العمل...

والآن تتيح الأسقف المذكور ورحل إلى السيد المسيح، وقد أمرني أن أكتب بنفس الطريقة المناظرات العشر التي لعظماء الآباء، أي النساك القاطنين في بركة الإسقيط، إذ كان يحترق شوقًا نحو القداصة... لذلك أرى أنه من الأفضل أن أهديها إليكما أنتما على وجه الخصوص أيها الأب المبارك ليونتيوس^٣ Leontius والأخ المبارك هيلاديوس^٤ Helladus.

فأحدكما (ليونتيوس) ارتبط به برباط الأخوة والكهنوت (وبالأكثر) بالغيرة والدراسات المقدسة، وبهذا فإن له حق موروث في المطالبة بدين أخيه (الأسقف كاستور Castor). والآخر (هيلاديوس) وقد خاطر متنبعًا عادات وتقاليد الآباء النساك السامية، لا كالبعض الذين يعتمدون على ذواتهم، بل بإلهام الروح القدس يسلك في الطريق الحقيقي للتعالم.

حينما بدأت أقلع من ميناء الصمت، ظهر أمامي بحر واسع ولزم بي أن أخطر وأتناول بعض الأنظمة والتعاليم التي لهؤلاء الآباء العظماء. وكانت جهودي الضعيفة بمثابة مركب شرعي في رحلة طويلة. وهكذا وبفلس النسبة سمت حياة النساك عن حياة الشركة، إذ كرسوا حياتهم للتأمل في الله وسموا بحياتهم فوق الحياة الزمنية...

والآن لتجاوز عن المرئيات (نظام الرهبنة من جهة مظهرها) وعن ما يزاوله الرهبان يوميًا، الأمور التي سبق أن عالجتها في الكتب السابقة، ونعيش في الإنسان الداخلي غير المنظور... لنصعد من نظام الصلاة القانونية إلى الصلاة الدائمة بلا انقطاع التي يوصي بها الرسول...

ليقبل الله صلواتكما عني، هذا الذي أهلني أن أرى هؤلاء الآباء وأتعلم منهم وأعيش معهم، يتفضل أن يمنحني تذكرًا دائمًا لتعاليمهم وليلهج لساني بسيرتهم. بهذا يمكنني أن أظهر الجمال والوضوح للذين تسلمناهما منهم، وأقدم لكما باللغة اللاتينية صورة حياة هؤلاء الرجال كما هي في مؤسساتهم.

اشتياقنا في هذا أن نعلم قارئ هذه المناظرات... أنه إذا ما بدت له هذه الأمور مستحيلة بسبب طبيعة عمله أو بسبب عاداته وطريقة معيشته التي سلك بها، ألا يقيسها حسب قوته هو، بل حسب قامة كمال المتكلمين، واضعًا في اعتباره غيرتهم وهدفهم، فإنهم بالحقيقة ماتوا عن هذه الحياة الزمنية ولم تعثرهم رباطات القرابة، أو أي رباط مهني.

كما نقدم للقارئ وصفًا لمكان سكنهم، كيف عاشوا في صحراء واسعة، وانعزلوا عن الحديث مع أصدقائهم، واحتفظوا بنقاء ذهنهم بالتأمل الإلهي. وتخلوا عن هذه الأمور التي ربما تبدو مستحيلة بالنسبة لغير الثابتين وغير الناضجين... ولكن إن أراد إنسان ما أن يعطي رأيًا حقيقيًا في هذا الموضوع، وكان مهتمًا بمعرفة إن كان ما قد وصلوا إليه من كمال ممكنًا أم لا، عليه أولاً أن يسعى ليكون هدفه مثل هدفهم، وتكون له نفس الغيرة وذات السلوك، وفي النهاية سيجد أن ما كان يظنه فوق استطاعة الإنسان، ليس فقط ممكنًا، بل وبالحقيقة ممتعًا.

والآن لندخل إلى مناظراتهم وأنظمتهم.

✚ ✚ ✚

غاية هذا العمل هو نشر المفاهيم الروحية كما عاشتها الكنيسة الأولى، لهذا قدمته بطريقة يمكن أن ينتفع بها كل مؤمن.

مناظرات يوحنا كاسيان مع مشاهير آباء البرية

١

نقاوة القلب طريق الملكوت

للأب موسى

١ - إقامتنا بالإسقيط

في صحراء الإسقيط حيث يوجد أعظم الآباء الرهبان، ويتزعرع الكمال، كنت مصطحبًا الأب جرمانئوس هذا الذي كان ملازمًا لي منذ الأيام الأولى، ومنذ بداية الخدمة الروحية، سواء ونحن في نظام الشركة أو في البرية. وتستطيع أن تلتمس مقدار وفاق صداقتنا ووحدة هدفنا مما يقوله الكل عنا إننا قلب واحد وروح واحد في جسدين.

وإذ كنا في البرية بحثنا عن الأب موسى الذي يعتبر من أسمى تلك الزهور الرائعة في البرية، متفوقًا لا في حياة العمل فحسب بل وفي حياة التأمل أيضًا.

لقد كنت شغوفًا لسماع تعاليمه، فطلبنا إليه سويًا بدموع أن يحدثنا لأجل بنياننا وذلك لمعرفة ما كنا عليه جيدًا أنه لا يفتح باب الحديث عن الكمال إلا مع الذين يبحثون عنه بإيمان بقلوب تائبة. فهو يخشى الحديث عن تلك الأمور الهامة، ولا يكشفها إلا للساعين نحو الكمال، غير متحدثٍ بها لغير المباليين أو الذين يتقبلون الكلام بغير إيمان كامل مستخفين بها وهم غير مستحقين لها، وذلك لكي لا يكون في حديثه عرضة للزهو الباطل أو بهذا يكون خائنًا لما قد أُوتِن عليه. أخيرًا غلب بطلبتنا فبدأ يتحدث.

٢ - سؤال عن هدف المؤمن وغايته؟

قال: لكل العلوم والفنون أهداف وغايات يتطلع إليها المجاهدون في كل فن صابرين، محتملين كل أنواع المتاعب والأخطار والخسائر بفرح ورباطة جأش.

فالفلاح لا يعبأ بحرارة الشمس أو بالصقيع وبرودة الجو... فيقوم بتقسيم الأرض وحرارتها مرة فآخرى، متطلعًا إلى هدفه بلا ضجر. إنه يجاهد لتفتيت الأرض حتى تصبح كالرمل الناعم منقياً إيّاها من العليق والأعشاب، مؤمنًا بأنه ليس هناك طريق آخر يبلغ به هدفه اللامحدود إلا بحصوله على أفضل إنتاج وأكبر محصول، بهذا يمكنه أن يعيش وتتزايد ممتلكاته. فإذا يمتلئ مخزنه يستعد ليفرغه ويلقي البذار في الأرض المحروثة مرة أخرى... هذا كله من أجل المحصول المنتظر!

كذلك المنشغلون بالتجارة لا يباليون بعدم ضمان تحقيق الربح أو بمخاطر المحيطات، إنما تحفزهم

أمانيتهم نحو تحقيق الريح.

والطامحون في الحياة العسكرية يتطلعون إلى هدفهم، أي نحو الشرف أو القوة، غير مباليين بالأخطار والهلاك الذي يلاحقهم خلال عملهم... من أجل رغبتهم في نوال الشرف.

ونحن أيضاً لعلنا هدف أو غاية بسببه نحتمل كل صنوف الجهاد ليس بدون ضرر فحسب بل ويفرح. فحرماننا من الطعام أثناء الصوم لا نعتبره ضيقاً، وأتعاب السهر تتحول إلى بهجة، والقراءة والتأمل في الكتاب المقدس ليس فرضاً ثقیلاً. فلا يخيفنا الجهاد المتواصل وإنكار الذات والحرمان من أمور العالم ومتاعب هذه البرية القاحلة.

وأنتم أيضاً إذ تستخفوا بمحبة الأقرباء، أي بالعاطفة تجاههم بتركهم سالكين طريق الرهينة، تاركين مسقط رأسيكما ومباهج العالم، عابرين كل هذه المناطق لكي تأتيا إلينا نحن البسطاء العائشين في حالة مضنية في البرية، ما هو هدفكما من هذا؟ وما هي غايتكما التي دفعتمكما لتحتملا كل هذه الأمور بفرح؟

٣- وإذ أصر على كشف الفكرة من إجابتنا على سؤاله، أجبناه قائلين: لقد تحملنا هذا كله من أجل ملكوت السموات.

٤- أجب حسناً! لقد تحدثنا عن الهدف غير المحدود. لكن ما هو الهدف القريب، الذي إذا ما عرفناه ووضعناه دائماً نصب أعيننا نقدر أن نبلغ غايتنا؟

وإذ اعترفنا بجهلنا بصراحة أكمل حديثه قائلاً:

كما قلت أولاً أن لكل فن أو علم هدف يوضع أمام الذهن... فإذا لم يتمسك الإنسان به بجهاد ثابت لا يصل إلى الغاية النهائية.

فكما قلت أن الفلاح يهدف إلى الحياة السعيدة والرخاء وتحقيق محصول وفير، وأما هدفه الحالي فهو حفظ الحقل نظيفاً من الأحجار والأعشاب...

ونحن أيضاً نهاية طريقنا في الحياة هو بلوغ ملكوت الله، ولكن ما هو الهدف الحالي الذي يلزم أن نتساعل عنه؟ فإننا إن لم نعرفه نتعب أنفسنا دون جدوى، لأن من يسافر في اتجاه خاطئ تضعيف أتعابه سدى ولا ينتفع شيئاً من سفره.

وإذ دهشنا من هذا الحديث أكمل الشيخ قائلاً: إن هدف عملنا كما قلت هو "ملكوت الله" أو "ملكوت السموات". وأما الهدف الحالي فهو "نقاوة القلب"، الذي بدونه لا نقدر أن نحقق الهدف النهائي.

لنوجه أنظارنا بثبات نحو هذا الهدف كعلامة ثابتة. ولنوجه سلوكنا نحوه مباشرة حتى إذا ما انحرفت أفكارنا بعيداً عنه نعيدها إليه ونضبطها نحوه بإتقان كما لو كان مقياساً دقيقاً. وبهذا تتحول جهودنا إليه، وبالتالي نستطيع أن نكتشف عما إذا كان عقلاً قد انحرف ولو قليلاً عن الاتجاه المحدد له.

٥ - هدفنا الحالي: نقاوة القلب

قبل الحرب يختبر الجنود مهارتهم بإطلاقهم السهام والرمح تجاه أهداف صغيرة محددة... وهم يعلمون أنه بغير هذه الوسيلة لا يمكنهم نوال الجعالة التي يترجونها... وبغير هذا لا يوجد ما يكشف لهم عن قدرة مهارتهم أو ضعفها...

وبهذا فإن الهدف النهائي الموضوع أمامنا هو "الحياة الأبدية"، إذ يقول الرسول: "فلکم ثمرکم للقداسة والنهائية حياة أبدية" رو٦:٢٢. وأما الهدف الحالي فهو "نقاوة القلب" التي يعبر عنها الرسول بقوله: "ثمرکم للقداسة" والتي بدونها لا يتحقق الهدف النهائي (والنهائية حياة أبدية)...

ويعلمنا الرسول عن نفس الهدف قائلاً: "أنسى ما هو وراء وأمتد إلى ما هو قدام، أسعى نحو الغرض لأجل جعالة دعوة الله العليا..." (في ١٤:٣، ١٣). بمعنى أنه بهذا الهدف الذي به ينسى ما هو وراء، أي خطايا الحياة الأولى (عدم نقاوة القلب)، يجتهد لبلوغ جعالة السماء.

إذن فلنهتم بالكشف عن هذه الفضيلة أي "نقاوة القلب" متجنبين كل معوقاتنا، لأنها خطيرة وضارة. فمن أجل نقاوة القلب ينبغي أن نفعل كل شيء، ونصبر على كل شيء، ولا نتعلق بأقربائنا وأرضنا (ممتلكاتنا) وكرامتنا (الأرضية) وجاهنا ومباهج العالم وكل أنواع الملذات...

٦ - زهد بغير نقاوة قلب

إننا نرى بعضاً ممن زهدوا أمور هذا العالم، ليس فقط الذهب والفضة، بل والممتلكات الضخمة، يتضايقون ويضطربون من أجل سكين أو قلم أو دبوس أو ريشة، بينما لو وجهوا أنظارهم نحو نقاوة القلب بلا شك ما كانوا يضطربون من أجل الأمور التافهة، فكما لا يباليون بالغنى العظيم يتركون أيضاً كل شيء.

ويخاف البعض على كتبهم حتى أنهم لا يسمحون لأحد أن يحركها أو يلمسها... وهذا يكشف عن حاجتهم إلى الصبر والحب العميق. فإذا تركوا كل غناهم من أجل محبتهم للسيد المسيح إلا أنهم يحتفظون بطبيعتهم الأولى بالنسبة للأمور التافهة، فسرعان ما ينشغلون بها. وبهذا يصيرون عقيمين بلا ثمر كمن هم بلا حب. هؤلاء يتحدث عنهم الرسول الطوباوي متنبئاً بالروح قائلاً: "وإن أطعمت كل أموالي وإن سلمت جسدي حتى احترق، ولكن ليس لي محبة، فلا أنتفع شيئاً" (كو ١٣:٣).

من هذا يظهر بوضوح أن الكمال لا يتأتى لمجرد إنكار الذات أو ترك كل شيء أو الهروب من الكرامة ما لم يصحبها المحبة التي وصفها الرسول بالتفصيل مظهرًا أنها ليست إلا "نقاوة القلب" وحدها. لأنه إذ المحبة "لا تحسد"، "لا تتفاخر"، "لا تُفح (تغضب)"، "لا تطلب ما لنفسها"، "لا تحتد"، "لا تظن السوء" (١ كو ١٣:٥)، هذا كله ماذا يعني سوى أن نقدم قلباً نقيًا كاملاً محفوظاً من كل اضطراب؟!

٧ - أعمال صالحة بغير نقاوة قلب

ينبغي أن نصنع كل شيء أو نبحت عن أي شيء من أجل نقاوة القلب. فمن أجلها نطلب التوحد... ومن أجلها نصوم ونسهر ونحتمل الأتعاب والعري والدراسة ونقتني كل الفضائل الأخرى، لكي ما نهئ قلوبنا ونحفظها من كل السموم الشريرة، وبهذا نصعد إلى كمال المحبة...

فالأمر الذي تأتي في المرتبة الثانية في أهميتها كالصوم والسهرة والزهد في العالم والتأمل في الكتاب المقدس، هذه يلزمنا أن نفعلها ناظرين إلى الهدف الرئيسي وهو "نقاوة القلب" التي هي "المحبة". فعلى ألا نفقد هذه الفضيلة الرئيسية بسبب تحقيق فضيلة أخرى.

فإذا لم ننفذ إحدى هذه الفضائل الأخرى لسبب قهري لا يصيبنا أذى، طالما وجدت الفضيلة الرئيسية. فلا يسوغ لنا أن ننفذ عملاً يكون من شأنه أن نفقد هذا الهدف موضوع حديثنا، بل نجاهد من أجله مهما كلفنا الأمر.

يشغف الإنسان بالحصول على أدوات العمل، لا لأجل امتلاكها بلا غاية لأن هذا في ذاته لا يحقق نفعاً... إنما باستخدامها يستطيع أن يضمن المعرفة العملية ويحقق هدفه المحدد، أي نوال الغنى الذي يريه. هكذا الصوم والسهر والتأمل في الكتاب المقدس وإنكار الذات وترك الممتلكات، هذه جميعها ليست كمالات في ذاتها إنما تقود إلى الكمال. لأن هدف العلم (الروحاني) لا ينحصر في اقتناء هذه الأمور، إنما بها نبلغ إلى الغاية. فمن يكتفي بهذه الأمور على أنها الخير الأعظم يتممها بغير هدف، جاعلاً أمنية قلبه تحقيق هذه الأمور، دون أن تمتد جهوده لبلوغ الهدف الذي لأجله يمارس هذه الفضائل. وهذا يكون مثله مثل من يمتلك أدوات ويجهل هدف فنه الذي يستخدمها فيه...

٨- مثال من الكتاب المقدس

نقاوة القلب هي موضوع جهادنا الرئيسي وغاية قلبنا الدائم، وهي تعني التصاق الروح بالله وبالأمر السماوية. أما ما خلاف هذا، فإنه مهما بلغت قيمته يحتل المرتبة الثانية، بل ويصير بلا قيمة وأحياناً يكون ضاراً. وقد أوضح الإنجيل تفسيراً رائعاً لهذا الأمر في حالة مريم ومرثا. لقد كانت مرثا تخدم مقدمة عملاً مقدساً بلا شك، وفيما هي تخدم الرب وتلاميذه كانت مريم تهتم بتعاليمه الروحية فقط، جالسة عند قدمي السيد المسيح اللتين قبلتهما ودهنتهما بطيب الاعتراف الحسن. لقد التصقت بالرب الذي شهد لها أنها اختارت النصيب الصالح الذي لا يُنزع منها. لأنه بينما كانت مرثا تعمل مجتهدة وقد ارتبكت في الخدمة حتى شعرت بعجزها عن القيام بالخدمة بمفردها طلبت من السيد المسيح أن تساعد أختها قائلة: "يا ربّ أما تبالي بأن اختي قد تركتني أخدم وحدي. فقلّ لها أن تعينني" (لو ١٠: ٤٠). لقد استدعت أختها لتعمل عملاً ليس نافهاً بل يستحق الثناء، ومع هذا بماذا أجابها الرب؟ "مرثا مرثا أنت تهتمين وتضطربين لأجل أمور كثيرة. ولكن الحاجة إلى واحد. فاختارت مريم النصيب الصالح الذي لن يُنزع منها" (لو ١٠: ٤٢، ٤١).

لقد رأيت كيف جعل الرب الخير الرئيسي ينصب في التأمل الإلهي...

لقد رأيت كيف احتلت جميع الفضائل الأخرى المركز الثاني رغم تسليمنا بأهميتها وفائدتها وسموها، لأن هذه جميعها إنما تُصنع لأجل هدف واحد. فعندما قال الرب: "أنت تهتمين وتضطربين لأجل أمور كثيرة. ولكن الحاجة إلى واحد" جعل الخير الرئيسي لا يكون في الأعمال في ذاتها مهما بلغ شأنها، بل في التأمل في الرب، الذي هو بالحقيقة الأمر الأول.

هذا القول يجب أن يكون موضع اهتمامنا جداً، فقد قال لمريم إنها اختارت النصيب الصالح من غير أن يلّم مرثا. فإن مدح الواحدة أظهر أن الأخرى أقل منها فحسب. وقوله "الذي لن يُنزع منها" كشف أن نصيب الأخرى يمكن أن ينزع منها، لأن الخدمات الجسدية لا يمكن أن تبقى مع الإنسان إلى الأبد، أما اشتياق مريم فلن يكون له نهاية.

٩- سؤال: كيف تزول الأعمال الصالحة؟

... ما هذا ؟ هل الاجتهاد في الصوم والمثابرة في القراءة وأعمال الرحمة والبر والشفقة والسخاء تنزع منا ولا تبقى مع فاعليها؟ مع أن الرب نفسه وعد بملكوت السموات لأجل هذه الأعمال، إذ يقول: "تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملكوت المعدّ لكم منذ تأسيس العالم. لأنني جُعتُ فأطعمتموني، عطشتُ فسقيتموني..." (مت ٢٥: ٣٤). فكيف تنزع الأعمال التي بها ينال صانعوها ملكوت السموات؟!

١٠- موسى: إنني لم أقل بأن جزاء العمل الصالح يزول، فالرب نفسه يقول: "من سقى أحد هؤلاء الصغار

كأس ماء بارد فقط باسم تلميذ، فالحق أقول لكم انه لا يُضَيِّع اجزءه" (مت ١٠: ٤٢)، بل يؤكد أن فعل أي عمل سواء كان من ضروريات الجسد أو لضبطه... كل هذه الأعمال رغم ضرورتها والالتزام بها لكنها ستنتهي.

فالمثابرة على القراءة والزهد في الصوم لهما أهميتهما في تنقية القلب وقمع الجسد في هذه الحياة وحدها، طالما أن الجسد يشتهي ضد الروح (غل ٥: ١٧)، بل وأحياناً تنتهي في هذه الحياة وذلك كما في حالة إنهاك القوة بسبب التعب الشديد أو المرض الجسدي أو كبر السن حيث لا يقدر الإنسان على تنفيذها، وبالأكثر تنتهي هذه الأعمال عندما يلبس هذا الفاسد عدم فساد (١كو ١٥: ٥٣)، ويُقام الجسد الحيواني جسداً روحياً (١كو ١٥: ٤٤)، ولا يعود الجسد يشتهي ضد الروح.

ويوضح الرسول بولس ذلك بجلاء بقوله "لأن الرياضة الجسدية نافعة لقليل، ولكن التقوى (وبالتأكيد يقصد بها المحبة) نافعة لكل شيء، إذ لها موعد الحياة الحاضرة والعتيدة" (١تي ٤: ٨). فما قيل عنه إنه نافع لقليل هو ما لا نفعه كل حين والذي لا يمكن به في ذاته الوصول إلى الكمال الأسمى، ففي قوله لقليل يقصد به أحد معنيين:

الأول: من جهة قصر الوقت، فالرياضة الجسدية لا يمكن القيام بها في هذه الحياة الأرضية والحياة العتيدة.

الثاني: قد يكون ذلك إشارة إلى أن الفائدة أقل من الثانية، فالرياضة الجسدية تؤدي بنوع ما إلى بداية التقدم، ولكنها ليست مثل كمال المحبة التي وعد بها في هذه الحياة والحياة العتيدة.

إذن الأعمال السابق ذكرها هامة، إذ بها نصعد إلى مرتفعات المحبة. فتكون الأعمال التي ندعوها أعمال عبادة ورحمة ضرورية في هذه الحياة، حيث يوجد الظلم والجور بين البشر... لكن لا وجود لها في الحياة العتيدة حيث يسود العدل، فيتحول البشر عن الأعمال الصالحة إلى حب الله، والتأمل في السماويات في نقاء قلب دائم. وهذا الأمر اختاره الذين كرسوا حياتهم للمعرفة ونقاوة القلب، باذلين كل جهدهم لكي يخضعوا له وهم بعد في الجسد، وتكمل نقاوة قلبهم حينما ينزع عنهم الفساد وينالون وعد الرب المخلص القائل: "طوبى للأتقياء القلب، لأنهم يعاينون الله".

١١ - خلود المحبة أو نقاوة القلب

لماذا نندهش من أن هذه الأعمال السابق ذكرها ستبطل بينما يخبرنا الرسول الطوباوي أنه حتى عطايا الروح القدس ستنتهي، مشيراً إلى أن المحبة وحدها هي التي تبقى إلى الأبد، إذ يقول "وَأَمَّا النِّبَوَاتُ فستبطل والألسنة فستنتهي والعلم فسيبطل" (١كو ١٣: ٨). أما عن المحبة فيقول "المحبة لا تسقط أبداً..".

فالعطايا توهب إلى حين من أجل الحاجة إليها لاستخدامها، فإذا ما انتهى عملها زالت، أما المحبة فلا تسقط أبداً، لأن المحبة لا يتوقف نفعها عند هذه الحياة بل يتعداها إلى الحياة العتيدة، إذ تزول أُنْقَال احتياجات الجسد تستمر المحبة في نشاط أعظم وسعادة أوفر، فلا تعود بعد تضعف بتأثير ماء، بل بعدم فسادها الدائم تلتصق بالله بأكثر نشاط وغيره.

١٢ - أسئلة حول التأمل الدائم في الله

جرمانئوس: ومن يستطيع أن يبقى على الدوام في هذا التأمل وهو مثقل بالجسد الضعيف، دون أن يفكر قط في وصول أخ أو زيارة مريض أو في عمل يدوي، على الأقل يهتم بالغرياء والزائرين؟! ومن الذي لا يتعطل بإعالتة جسده واعتائه به؟ وبأي وسيلة يمكن للعقل أن يلتصق بالله غير المنظور وغير المدرك؟ هذا ما

نود أن نتعلمه.

-
- ^١ يعلق Rev. Edgar C.S. Gibson M.A. في مقدمة كتاب "المؤسسات" أن كلمة "بابا" كانت معروفة بالنسبة لأساقفة الشرق، ولم تستخدم في الغرب إلا في وقت متأخر (مجموعة آباء نيقية). وقد عرف التاريخ أن أول من لقب "بابا" في العالم هو الأنبا ياروكلاس بابا وبطريك الكرازة المرقسية. هذا ونلاحظ أنه دعى الأب Castor "أسقف" في المقدمة الخاصة بالجزء الثاني.
- ^٢ هذا الكتاب مشهور باسم "المعاهد Institutes".
- ^٣ في مقدمة الجزء الثاني نجد يلقبه هو وهيلاديوس أسقفان.
- ^٤ يبدو أنه لم يكن قد رسم أسقفًا، بينما في مقدمة الجزء الثاني لقبه أسقفًا.

١٣- يستحيل على الإنسان وهو مازال في هذا الجسد الضعيف أن يلتصق بالله تمامًا ويلزم التأمل فيه على الدوام (بلا انقطاع). لكن يلزمنا أن نعرف الهدف المائل أمام أعيننا والغرض الذي تسعى إليه نفوسنا، فنفرح قدر ما يتحقق، ونحزن وننتهد عندما ننحرف عنه.

فإذا ما اكتشفت النفس فشلها في التأمل في الله، تكون بذلك قد سقطت عن الخير الأعظم، آخذة في اعتبارها أن ابتعادها عن التأمل في الرب يسوع ولو إلى حين يعتبر زنا، فإذا ما انحرف نظرنا عنه ولو قليلاً نعيد إليه أنظار أرواحنا ثانية، متذكرين موضوع تأملنا وشغلنا الشاغل.

كل شيء يتوقف على عقلنا الداخلي، فإذا ما طُرد منه الشيطان لا يصير للخطية سلطان علينا ويكون ملكوت السماوات فينا، إذ يقول الإنجيلي: "...لا يأتي ملكوت الله بمراقبة. ولا يقولون هوذا ههنا أو هوذا هناك لان ها ملكوت الله داخلكم" (لو ١٧: ٢٠، ٢١).

ففي "داخلكم" إما معرفة الحق أو جهله، الابتهاج بالفضيلة أو الرذيلة، وبهذا نُعد قلوبنا لملكوت المسيح أو ملكوت الشيطان.

ويعرف الرسول الملكوت قائلاً: "لان ليس ملكوت الله أكلاً وشرّاً. بل هو برّ وسلام وفرح في الروح القدس" (رو ١٤: ١٧)، فإن كان ملكوت الله داخلنا وهو بر وسلام وفرح، فإن من يتم هذه يكون في ملكوت الله. وعلى العكس من يعيش في الشر والنزاع والحزن الذي للموت يكون في ملكوت الشيطان وفي الجحيم والموت، بهذا يتميز ملكوت الله عن ملكوت الشيطان.

فإذا ارتفعنا بعقولنا إلى فوق لتأمل القوات السمائية التي هي بالحقيقة في ملكوت السماوات، ماذا نتصورهم سوى أنهم في فرح دائم أبدي؟! فأى شيء يليق بالسعادة الحقيقية مثل الهدوء الدائم والفرح الأبدي؟!!

ينبغي علينا أن نؤكد أن ما قلته ليس من ذاتي، بل حسب حكم الله الذي كشف بوضوح عن ذلك بالقول: "لاني هانذا خالق سموات جديدة وأرضاً جديدة فلا تُذكر الأولى ولا تخطر على بالٍ. بل افرحوا وابتهجوا إلى الابد في ما أنا خالق.." (إش ١٨، ٦٥: ١٧). مرة أخرى يقول: "...الفرح والابتهاج يوجدان فيها. الحمد وصوت الترنم" (إش ٥١: ٣). ويقول: "...ابتهاج وفرح يدركانهم . ويهرب الحزن والتنهّد" (إش ٣٥: ١٠).

وإن أردت أن تعرف بأكثر وضوح عن الحياة التي في مدينة القديسين، أنصت إلى ما يعلنه صوت الله عن أورشليم السمائية قائلاً: "...واجعل وكلاءك سلاماً وولاتك برّاً. لا يُسمع بعد ظلم في أرضك ولا خراب أو سحق في تخومك بل تسمين أسوارك خلاصاً وأبوابك تسبيحاً. لا تكون لك بعد الشمس نوراً في النهار ولا القمر ينير لك مضيئاً بل الرب يكون لك نوراً أبدياً وإلهك زينتك" (إش ٦٠: ١٧-١٩).

ولا يتحدث الرسول عن الفرّح بغير تمييز... بل يوضح مؤكداً نوعه أنه "...في الروح القدس" (رو ١٤: ١٧)، إذ يعرف تماماً الفرّح الممقوت الذي نسمع عنه "...العالم يفرّح.." يو ١٦: ٢٠، "...ويل لكم أيها الضاحكون الآن لانكم ستحزنون وتبكون" (لو ٢٥: ٢٠).

يلزمنا بالحق أن ننظر إلى ملكوت السموات من جوانب ثلاث:

١ - إما أنه سيملكه القديسون حيث تخضع لهم الأمور، وذلك كالقول: "...فليكن لك سلطان على عشر مدن... وكُن أنت على خمس مدن" (لو ١٩: ١٧، ١٩)، وما قيل للتلاميذ "...تجلسون أنتم أيضاً على اثني

عشر كُرسياً تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر" (مت ٢٨: ١٩).

ب - أو أن السموات تملك بالسيد المسيح حيث كل الأشياء تخضع له ".يكون الله الكل في الكل" (١كو ١٥: ٢٨).

ج - أو أن القديسين سيملكون مع الله في السموات.

١٤ - أبناء الملكوت أحياء يتأملون ويسبحون الله حتى وإن ماتوا

من ثم ليأخذ كل إنسان في اعتباره أنه سيكون له نصيب في ذلك، فلا يشك في أنه سيشارك في الحياة الأبدية (الرب) الذي يخدمه... إذ يقول: "إن كان أحد يخدمني فليتبعني. وحيث أكون أنا هناك أيضاً يكون خادمي.." (يو ١٢: ٢٦).

وكما أن ملكوت الشيطان يكون بقبول الخطية، فإن ملكوت الله يُنال بعمل الفضيلة في نقاوة قلب وبمعرفة روحية، وأينما وجد ملكوت السماوات فبالتأكيد تكون الحياة الأبدية بفرح، وحيثما وجد ملكوت الشيطان فبلا شك يوجد الموت والقبر. ومن يكون في ملكوت الشيطان لن يقدر أن يحمد الله، إذ يخبرنا النبي قائلاً: "ليس الأموات يسبحون الرب ولا من ينحدر إلى أرض السكوت. أما نحن (الأحياء الذين نعيش لله وليس للخطية أو للعالم) فنبارك الرب من الآن وإلى الدهر، هلولياً" (مز ١١٥: ١٧، ١٨). "لأنه ليس في الموت ذكر. في الهاوية (الخطية) من يحمذك" (مز ٥: ٦). فالإنسان ليس كيفما كان، بل ولو دعي نفسه مسيحياً آلاف المرات أو راهباً لا يقدر أن يعترف بالله إن كان يخطئ متمسكاً بخطيته.

من يسمح لنفسه أن يصنع ما يكرهه الله لا يقدر أن يعترف بالله، أو يدعي نفسه أنه خادم الله. لأن من يحقر وصايا الله بحماقة وطياشة يسقط في الموت الذي تسقط فيه الأرملة المتتعة الذي يقول عنها الرسول: "وأما المتتعة فقد ماتت وهي حية" (١تي ٦: ٥).

على هذا يوجد كثيرون أحياء بالجسد لكنهم أموات ولا يقدر أن يسبحوا الله... وهناك كثيرون قد ماتوا بالجسد لكنهم يسبحون الله بأرواحهم. إذ يقال: "باركوا الرب يا أرواح ونفوس الصديقين.." (راجع دا ٨٦: ٣ - الأسفار القانونية الثانية)، "كل نسمة فلتسبح الرب" (مز ٦: ١٥٠)، وفي سفر الرؤيا نجد نفوس الذين قُتلوا ليس فقط تسبح الله بل وتطلب منه (رؤ ٩: ٦، ١٠). وفي الإنجيل يقول الرب للصديقين في وضوح تام: "...أفما قرأتم ما قيل لكم من قبل الله القائل أنا إله إبراهيم وإله اسحق وإله يعقوب، ليس الله إله أموات بل إله أحياء (لأن الكل يحيا فيه)" (مت ٣١: ٢٢-٣٢). وعن يتحدث الرسول قائلاً: "...لذلك لا يستحي بهم الله أن يُدعى إلههم لأنه أعد لهم مدينة" (عب ١٦: ١١)؟! فانفصالهم عن الجسد لا يجعلهم بلا عمل ولا يفقدون الإحساس والشعور...

وإذا تفهمنا بدقة الكلمات التي قيلت للص: "...اليوم تكون معي في الفردوس" (لو ٢٣: ٤٣)، لظهر بوضوح أن صفات النفس لا تلازمها فحسب بل ويصير للنفس في حالتها الجديدة (بعد انفصالها عن الجسد) صفات تتناسب مع عملها واستحقاقها. فما كان الرب يعد للص بذلك لو أنه يعلم بأن نفسه تفقد تمييزها وإدراكها أو تتحلل بسبب انفصالها عن الجسد. فالداخل إلى الفردوس نفسه وليس جسده. لذا يلزمنا على الأقل أن نتجنب الأقوال التي توقف تمتع النفس بالميراث... ولقد كشف السيد المسيح أن النفوس المنفصلة عن الجسد ليس فقط تزول عنها متاعب الجسد، بل تشعر بالأمل والفرح ولا يصير بعد حزن أو خوف. إنها للحال تبتدئ تتذوق مما قد حفظ لها في يوم الدينونة العظيم، إنها لا تتحلل إلى العدم عند انفصالها من الجسد كما يظن غير المؤمنين،

بل تحي الحياة الحقيقية ويزداد شغفها نحو التسييح لله.

لنترك البراهين الكتابية قليلاً ولننظر بقدر المستطاع إلى طبيعة النفس ذاتها. فإننا لا نكون جهلاء بل متهورين ومملوعين حماقة إن كان لدينا شك في أن ذلك الجزء النبيل في الإنسان، والذي يقول عنه الرسول الطوباوي، أنه على صورة الله ومثاله^١ يصير عديماً للحس عندما يُلقى عنه الجسد ويترك هذا العالم.

النفس التي تهب الجسد العديم الحس أن يكون عاقلاً بمشاركته لها، خاصة إن اتبعها. والأمر عينه من جهة العقل، الذي متى تأثر بنقل الجسد يهبط عمله، لكن النفس تُعيد إليه قواه أحسن مما كان عليه...

وقد نادى الرسول الطوباوي بذلك معلناً صدق قولنا مشتاقاً إلى الانفصال عن الجسد حتى يتمكن من أن يفرح بالله بأكثر غيره، قائلاً: "لي اشتهاء أن انطلق وأكون مع المسيح، ذاك أفضل جداً" (في ١: ٢٣). "ونحن مستوطنون في الجسد فنحن متغريون عن الرب... فنثق ونسرُّ بالأولى أن نتغرب عن الجسد ونستوطن عند الرب. لذلك نحترس أيضاً مستوطنين كنا أو متغربين أن نكون مرضيين عنده" (٢كو ٥: ٦-٩). إنه يعلن أن بقاء النفس في الجسد هو تغرب عن الله وابتعاد عن المسيح، ويؤمن إيماناً كاملاً أن الابتعاد والانفصال عن الجسد فيه وجود في حضرة المسيح (وجهاً لوجه).

مرة أخرى يكشف الرسول بوضوح أن هذه الأرواح أكثر حيوية بقوله: "بل قد أتيتم إلى جبل صهيون وإلى مدينة الله الحيّ أورشليم السماوية وإلى ربواتهم محفل ملائكة وكنيسة أبكار مكتوبين في السموات... وإلى أرواح أبرار مكملين" (عب ١٢، ٢٣). ويقول أيضاً عن هذه الأرواح: "ثم قد كان لنا آباء أجسادنا مؤدبين وكُنَّا نهابهم، أفلا نخضع بالأولى جداً لأبي الأرواح فنحيا" (عب ١٢: ٩).

١٥ - كيف نتأمل في الله؟

يمكننا التأمل في الله بطرق عدة. فلا نعرف الله فقط عن طريق اندهاشنا من جوهره المخفي غير المدرك... لكن يمكننا أن نراه أيضاً في عظمة أعماله في الخليقة، وفي التطلع إلى عدالته، والتأمل في معونة نعمته اليومية، وعندما نتأمل بعقل نقي في أعمال الله في قديسيه عبر كل الأجيال، ونتأمل بقلوب مرتجفة لقوته التي بها يحكم كل الأشياء ويوجهها وينظمها، أو نعجب من علو معرفته وعلمه لكل خفايا القلب. إن أخذنا في اعتبارنا معرفته لعدد رمال البحر وموجات البحر، وقطرات الأمطار، وأيام أعمارنا وساعاتها، وكل الأمور الماضية والمستقبلية هي حاضرة قدامه.

إننا نتطلع في دهش أمام محبته التي بلا حدود ولا يُنطق بها، وطول أناته اللانهائية، وغفرانه في كل لحظة لخطايانا التي نعترف له بها بلا حساب، ودعوته لنا رغم عدم استحقاقنا السالف بل بنعمته ورحمته. كذلك فرص الخلاص التي يقدمها لنا بغير حدود، واهباً لنا التبني، متعهداً إيانا منذ الطفولة بالنعمة ومعرفة نواميسه. ووهب لنا أن نغلب به العدو (الشیطان) خلال إرادته الصالحة فينا، مقدماً لنا السعادة الأبدية والأكاليل الدائمة. كذلك تعهده بتدبير التجسد من أجل خلاصنا واتساع عجائب أسرار الله التي يقدمها للأمم جميعاً.

وهكذا تكون رؤيتنا للأمور العلوية بحسب صلاح حياتنا ونقاوة قلبنا، إذ يصير هذا القلب الذي كعينين نقيتين نعاين به الله ونحتضنه. هذه الرؤيا بالتأكيد لا يمكن لأحد أن يحتفظ بها ما دامت ميوله الجسدية قائمة، إذ يقول الرب: "...لا تقدر أن ترى وجهي، لأن الإنسان لا يراني ويعيش" (خر ٣٣: ٢٠)، أي من له ميول زمنية

^١ راجع ١كو ١١: ٧، ٣كو ١٠: ١٠

أو أرضية يفقد البصيرة الداخلية.

١٦ - سؤال: هل يمكن للإنسان أن يمنع الأفكار التي تشوش نقاء ذهنه، لينعم بالتأملات الإلهية؟

جرمانئوس: كيف تتسلل إلينا أفكار الكسل خفية رغم إرادتنا وعدم معرفتنا، حتى يصعب جدًا ليس فقط طردها بل أيضًا مجرد معرفتها؟ هل يستطيع العقل أن يتحرر منها ولا يحارب قط بمثل هذه الخداعات؟

١٧ - موسى: يستحيل على العقل أن يمنع اقتراب الأفكار إليه، لكن في استطاعة الإنسان المجتهد أن يقبلها أو يرفضها. فظهور الفكر لا يعتمد على إرادتنا، لكن قبوله أو رفضه في مقدورنا.

إن كنا قد قلنا بأننا لا نستطيع منع الأفكار من الاقتراب نحو العقل، فإنه ينبغي علينا ألا نحتج بهجومها... متجاهلين حرية إرادتنا، وإلا لا يكون إصلاحنا في أيدينا. لكنني أقول إلى حد كبير أنه في قدرتنا تمييز الأفكار التي تطرح علينا، هل هي أفكار مقدسة روحية أو أفكار أرضية، هل نقبلها لتنمو في داخل قلوبنا أم ننزعها سريعًا لئلا تفسدنا.

لهذا الغرض نستخدم القراءة المستمرة، والتأمل الدائم في الكتاب المقدس كفرصة لتهيئة القلب وانشغاله بالروحيات. وأيضًا التسبيح بالمزامير يقودنا للشعور بالندامة باستمرار. كما أنه بحياة السهر والصوم والصلاة باجتهاد نسمو بالعقل عن الأمور الأرضية متأملين في الأمور السماوية.

فإذا ما أهملت هذه الأمور وثُركت، بالتأكيد ينحرف العقل نحو الميول الجسدية، ويسقط في دنس الخطية...

١٨ - تشبيه العقل بطاحونة الهواء

يليق بنا مقارنة حركة القلب بعجلة طاحونة الهواء. فالمياه تندفع بسرعة... ولا يمكن إيقافها مادامت العجلة تعمل... لكن في استطاعة الإنسان أن يواجه المياه في زراعة الحنطة أو الشعير أو الزوان، وهذا يتوقف على اختيار الإنسان الموكل إليه العمل.

بالرغم من قوة تأثير تيارات الإغراءات في هذا العالم، التي تضغط على العقل من كل جانب، حتى أنه لا يقدر أن يكون متحررًا من تدفق الأفكار، إلا أن نوع الأفكار التي تتسلل إليه وتأثيره تتوقف على جهاده. فمتى كنا دائمي التأمل في الكتب المقدسة، موجهين أذهاننا إلى الأمور الروحية، راغبين في بلوغ الكمال، مترجين السعادة العتيدة، ترتفع أفكارنا الروحية، ويحي عقلنا فيما نتأمل فيه.

لكننا إن غلبنا بالكسل والإهمال وأضعنا وقتنا في فلسفة الكلام أو عاقتنا اهتمامات هذا العالم ومباهجه الزائلة وغير النافعة، تظهر بعض أنواع الزوان وتضرّ قلوبنا، وكما يقول إلهنا ومخلصنا بأنه حيث يوجد كنز أعمالنا أو هدفنا هناك بالتأكيد تكون قلوبنا (مت ٦: ٢١).

١٩ - مصادر الفكر

يلزمنا قبل كل شيء أن نعرف على الأقل أن هناك ثلاثة مصادر للفكر: الله، والشيطان، وذواتنا.

يأتي الفكر من الله عندما يهبنا الله أن يفقدنا بإشارة الروح القدس، رافعًا إيانا إلى تقدم عظيم... ويقوم الله بتأديبنا تأديبًا نافعًا متى تباطأنا في النمو أو غلبنا بالكسل. إنه يكشف لنا أسرار السماوات، ويحوّل أهدافنا إلى

الأعمال الفضلى، وذلك كما فعل بأحشويرش الذي أدبه الله، والذي حثه أن يسترجع ما قد كتب في الأخبار بخصوص أعمال مردخاي العظيمة... كذلك يقول النبي: "أني اسمع ما يتكلم به الله الرب.." (مز ٨٥: ٨). ويخبرنا آخر: "فقال لي الملاك الذي كلمني.." (زك ١٤: ١). ويقول الرب: "لأن لستم أنتم المتكلمين بل روح أبيكم الذي يتكلم فيكم" (مت ٢٠: ١٠). ويقول الإناء المختار: "إذ أنتم تطلبون برهان المسيح المتكلم في.." (٢ كو ١٣: ٣).

كذلك تتبع سلسلة أفكار من الشيطان وذلك بسبب حسده لنا، رغباً تدميرنا إما بمباهج الخطية أو بهجمات السرية فهو يخدعنا بحيله الخبيثة، مظهرًا الشر كما لو كان خيرًا، ومعلنًا ذاته في صورة ملاك نوراني (كو ١٤: ١١). ويخبرنا الإنجيلي: "فحين كان العشاء وقد ألقى الشيطان في قلب يهوذا سمعان الإسخريوطي أن يسلمه" (يو ١٣: ٢). ويقول بطرس لحنايا: "لمأذا ملأ الشيطان قلبك لتكذب على الروح القدس.." (أع ٣: ٥). وجاء في سفر الجامعة "إن صعدت عليك روح المتسلط فلا تترك مكانك.." (جا ٤: ١٠). وهذا أيضًا ما قيل ضد آخاب في الكتاب الثالث للملوك عن الروح غير المنظور "أخرج وأكون روح كذب في أفواه جميع أنبيائه.." (١ مل ٢٢: ٢٢).

وتصدر الأفكار من ذواتنا إذ بطبيعتنا نتذكر ما فعلناه أو فعلناه أو سمعناه. ويقول عن ذلك الطوباوي داود: "تفكرت في أيام القدم السنين الدهرية. اذكر ترنمي في الليل. مع قلبي أناجي وروحي تبحث" (مز ٧٧: ٥، ٦). مرة أخرى يقول: "الرب يعرف أفكار الإنسان أنها باطلة" (مز ٩٤: ١١)، "أفكار الصديقين عدل.." (أم ٥: ١٢). وفي الإنجيل يقول الرب للفريسيين: "لماذا تفكرون بالشر في قلوبكم؟!" (مت ٤: ٩).

٢٠ - تمييز الأفكار

يلزمنا أن نراعى بكل حرص هذا الأمر المثلث الجوانب، فلنختبر الأفكار التي تهاجمنا ببصيرة وحكمة، لنذكر ما هو مصدر الفكر وأسبابه منذ بدايته. وبهذا يمكننا أن نأخذ في اعتبارنا هل نخضع له وذلك حسب نوع مقترحه، فنكون كالصيرفة الحكماء كما يعلمنا بذلك الرب. إذ هم بمهارتهم وخبرتهم يميزون الذهب النقي الخالص الذي تتقى بالنار كما ينبغي، وبمهارتهم لا يندفعون بقطع النحاس المغشاة بطبقة خفيفة من الذهب والتي تبدو ذات قيمة عظيمة... إنهم بذكائهم ومهارتهم يدركون تمامًا العملات المزيفة التي يصكها كبار المخادعون...

هكذا يلزمنا أولاً أن نختبر بكل حرص كل فكر يدخل إلى قلوبنا وكل تعليم نتلقاه لنرى ما إذا كان قد تتقى بنار الروح القدس الإلهي السماوي، أو ينتمي إلى ضلال الهرطقة، أو هو ثمرة كبرياء الفلسفة البشرية التي ليس لها إلا سطحيات التدنيس.

نستطيع أن نعمل هذا إن سلكنا بنصيحة الرسول القائل "أيها الأحباء لا تصدقوا كل روح بل امتحنوا الأرواح هل هي من الله..." (١ يو ٤: ١). يندفع البعض بهذا النوع، فيغويهم حسن التنسيق، والتعليم الفلسفية التي تخدم لأول وهلة بما فيها من بعض المعاني الورعة التي تتفق مع الدين، وذلك كما يخدم بريق الذهب ناظره. هؤلاء تجذبهم المظاهر، لكن سرعان ما يشعرون أنهم في الواقع قد خرجوا فارغي اليد، ويسقطون في اليأس ويكونون كمن قد اندفعوا بالنقود النحاسية المغشوشة.

هذه الأفكار أو التعاليم، إما أن تجذبهم إلى الانهماك في العالم، أو تسقطهم في أخطاء الهرطقة، وتتحدر بهم إلى الكبرياء الباطل...

ومن جهة أخرى يلزمنا أن نحرص لئلا يوضع أمامنا تفسير خاطئ للذهب النقي الذي هو الكتاب المقدس فنخدع... وقد استخدم الشيطان هذه الوسيلة لكي يخدع بها سيدنا ومخلصنا الذي بدا ربنا كأنه إنسان عادي، إذ بتفسيره (الشيطان) المضلل حاول أن يفسد ما يفهمه الصالحون (مت ٤). لقد حاول أن يثبت تفسيره... فلفت أنظارنا إلى الأقوال القيّمة التي للكتاب المقدس محرفاً تفسيرها لفهمها فهماً خاطئاً يختلف كليةً عن المعنى الحقيقي...

كذلك يحاول أن يخدعنا بالترفيف، كأن يحثنا على الانشغال ببعض أعمال الرحمة (بطريقة غير سليمة). وهو بهذا يظهر كأنه يتكلم بفكر الآباء الحقيقي، فيقودنا إلى الرذيلة في شكل الفضيلة، فيخدعنا بالأصوام أو الأسهار الطويلة، أو الصلوات الزائدة عن الحد، أو القراءات الغير مناسبة، وبهذا يجذبنا إلى نهاية سيئة.

وأيضاً يغويننا بأن نسلم أنفسنا إلى الاعتناء بالآخرين والافتقاد الروحي، وهو بهذا ينتزعنا عن وجودنا الروحي في الدير، ولينزع عنا سر الهدوء الملازم لنا، ويقترح علينا أن نأخذ على عاتقنا الاهتمام بضيقات النساء المتدينات اللواتي في عوز وإشباع احتياجاتهن. فإذا ما ارتبك الراهب وسقط في أمر كهذا يجعله قلقاً بهذه الأعمال والاهتمامات الضارة.

كذلك عندما يحرص الراهب أن يشترك إلى وظيفة كهنوتية مقدسة، بحجة تعليم الناس وحبه لربح النفوس، وهو بهذا يجذبنا بعيداً عن التواضع والتدقيق في حياتنا.

هكذا يقدم لنا كل الأمور التي تعترض خلاصنا ولا تتناسب مع عملنا، غير أنه يخفيها بغطاء، أو يحجبها بحجاب من الشفقة والدين، لكي يخدع بسهولة من تنقصهم المهارة والحرص.

إنهم يقلدون عُملة الملك الحقيقي، إذ يظهرون هذه الأعمال مملوءة شفقة، لكن لم يصكها الذين لهم هذا الحق، أي لا تتفق مع فكر آباء الكنيسة الجامعة، ولا يحصلون عليها من المكتب العام المخصص بتسليمها، إنما تصك خلسة بخداع شيطاني ويدسونها لغير الماهرين والجهلاء...

وإذ تبدو في البداية نافعة ولازمة، إلا أنه بعد ذلك تبدأ تتغلغل داخل سلامة عملنا وتضعف كل كيان هدفنا بعدة أساليب. لذلك حسن أن تقطع هذه الأفكار وتبعد عنا، وذلك كما لو كانت عضواً فاسداً، الذي وإن بدا لازماً لكنه مضر لنا. فإنه من الأفضل أن نكون بدون هذا العضو من وصية ما، أي أننا لا ننفذها ونبقى في سلام وأمان وندخل ملكوت السماوات هكذا عن أن نخطئ في كل الوصايا عن طريق خداع الشيطان الذي يقدم لنا أن ننفذ وصية ما، وبواسطتها يحرمننا من نظامنا الدقيق وترتيبنا، وهكذا تصير لنا خسارة تفوق في أهميتها أي ضرر لاحق، وتدفع بكل جهادنا السابق وكل جسد أعمالنا إلى الحرق في نار جهنم (مت ١٨: ٨).

قيل عن هذه الأنواع من الخداع "تُوجد طريق تظهر للإنسان مستقيمة وعاقبتها طرق الموت" (أم ١٦: ٢٥). وأيضاً "ضرراً يُضُرُّ من يضمن غريباً.." (أم ١١: ١٥). فالشيطان يخدعنا بأخذه مظهر القداسة...

٢١ - مثال: انخداع الأب يوحنا

لقد سمعنا عن الأب يوحنا الذي كان يقطن في ^٢Lycon، وقد انخدع منذ فترة قصيرة. فقد أنهك جسده وأعياءه، وإذ صام يومين وفي اليوم الثالث بينما كان ذاهباً ليأخذ بعض القوت ظهر له الشيطان في صورة سوداء

^٢ Lycon أو Lycopolis ليكوبوليس وتدعى حالياً أسيوط في الجنوب الشرقي لهرموبوليس (المنيا).

قذرة وسقط تحت قدميه قائلاً: "عفوًا. فإني سأقوم لك بهذا العمل". فانخدع الرجل العظيم بمكر الشيطان وحسب أن هذا العمل لا يتناسب معه بسبب زهده. فازداد في الصوم متظاهراً بإنهناك قوى جسده وصار في حالة ملل كان في غنى عنها، وهكذا أضر الرجل روحه وانخدع بالعمل المزيفة...

كما سبق أن أشرنا أنه يلزم على الصراف الحكيم أن يختبر وزن العملة فيتحقق الفكر الذي يخطر علينا، ويضعه على ميزان قلبه ويزنه بميزان دقيق. فقد يكون العمل (الذي يبثه الفكر) مملوء بالخير للجميع أو متقللاً بمخافة الله ونقيًا وكاملاً في ظاهره، لكن في باطنه تفاخر وزهو بشري أو غرور... يلزم وزن الفكر بالميزان العام أي اختباره بأعمال وبراهين الرسل الأنبياء النقية كاملة الوزن، نابذين بكل تدقيق وجهاد الأعمال غير الكاملة المزيفة ناقصة الوزن.

٢٢ - طرد الأفكار المزيفة

قوة التمييز هذه هامة لنا من جوانب أربعة من جهة موضوع حديثنا:
أولاً: أن ندرك إن كان معدنها ذهباً نقياً أم مجرد مغطاة بالذهب.

ثانياً: يلزمنا أن نستبعد الأفكار التي تعهد إلينا بأعمال مزيفة خاصة بالدين، كما لو كانت عملة مزيفة، صكت بغير حق، وتحمل صورة مزيفة للملك.

ثالثاً: بنفس الطريقة يلزمنا أن تكون لدينا القدرة على تمييز تلك الأفكار التي تشرح ذهب الكتاب المقدس الخالص، شرحاً خاطئاً وهرطوقياً، فنظهر صورة مخادعة لا صورة الملك الحقيقي.

رابعاً: يجب علينا أن نرفض أيضاً الأفكار التي استنفذت وزنها وفقدت قيمتها بسبب الغرور، فلم تعد بعد تصلح في ميزان الآباء بكونها عملات خفيفة جداً وزائفة... لذلك يلزمنا أن نتجنب ما قد حذرتنا منه الشريعة الإلهية بكل قوتنا حتى لا نخسر جزء كل أعمالنا. "لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ، وحيث ينقب السارقون ويسرقون" (مت ٦: ١٩). فإن قمنا بعمل ما ناظرين إلى المجد البشري، فإننا نعلم أنه كما يقول الرب نكنز لأنفسنا كنزاً على الأرض، وبالتالي نخفيه في الأرض وندفنه فيها، فيهلكه الشيطان، ويتلف بصدأ المجد الباطل أو يفسد بسوس الكبرياء فلا ننفع منه بشيء.

يلزمنا أن نفتش باستمرار كل عُرفنا الداخلية في القلب، ونقتفي آثار كل ما يدخل فيها، وندقق في بحثها لئلا تدخل إحدى الحيوانات المفترسة. إنني أنطق بهذا خشية أن يدخل أسد أو تنين خلسة تاركاً آثاراً خطيرة وتكشف لغيرها طريق الدخول إلى مخابئ قلبنا، وذلك بسبب إهمالنا في تمييز أفكارنا.

لذا يجب أن نقلب أرض قلبنا بمحراث الإنجيل يومياً، بل كل ساعة، أي أن نتذكر صليب المسيح على الدوام، فنحطم في قلوبنا كل عرين للحيوانات المفترسة المهلكة ونزيل موضع اختباء الثعابين السامة.

٢٣ - وعده بأن يحدثنا عن "التمييز"

وإذ رأى الشيخ اندهاشنا والتهاب قلبنا بكلمات حديثه، وشوقنا المتزايد، توقف قليلاً عن الكلام... ثم أضاف قائلاً: "يا أولادي. أنه من أجل غيرتكم في سماع النقاش الطويل وبسبب شغفكم كانت تلك النار تمدكم باللذة والاشتياق نحو مناظرتنا. ومن هذا أتبين بوضوح تعطشكم نحو التعلم عن الكمال. إنني أود أن أحدثكم شيئاً عن عظمة "التمييز"، والنعمة التي تحكم الإنسان وتجعله يقتني كل الفضائل، غير مبرهن عليها بالأدلة اليومية إنما بتأملات الآباء وفكرهم.

وإنني أتذكر أنه عندما كان يسألني أحد بتتهد ودموع للحديث عن هذا الأمر، كنت أنا نفسي أجد شوقاً للحديث معه عن بعض التعاليم التي لم يكن في استطاعتي أن أنظمها... وبهذا رأينا بوضوح أن نعمة الله تلهم المتحدث بالكلام حسب احتياج السامعين وغيرتهم. والآن لا أستطيع إلا أن أنهى حديثي لأن الليل كاد ينتهي، تاركاً الحديث من أجل أن تستريح أجسادكم... ولنترك تكملة ترتيب المناظرة إلى النهار أو الليل المقبل...

ترجمت في عيد الرسل ١٦٧٦ ش

١٩٦٠ م



ملخص المبادئ

✠ نقاوة القلب تعني ملكية القلب لله وحده، أي حبنا لله وانشغالنا به وتأملنا فيه على الدوام. وهو الترمومتر الدقيق لقياس مدى إخلاص العبادة وتزييفها.

✠ العبادة من صوم وصلاة وصدقة ونسك... غايتها نقاء القلب الذي هو طريق الملكوت. وكل وسيلة من وسائل العبادة - مهما بلغ قدرها - تفقد كيانها بل وتضل الإنسان وتخدعه إذا لم يكن هدفها نقاوة القلب.

✠ الإنسان في هذا الجسد الضعيف يبغي كمال النقاوة، يفرح روحياً قدر ما يقترب منها، ويلزمه أن يحذر لئلا ينحرف عنها، وذلك بفضل عمل الروح القدس الساكن فيه والذي يهبه روح الحكمة أو التمييز (الإفراس) مع الجهاد في خطوات عملية منها:

أ- الاهتمام بحياة التسبيح لله والشكر لأن هذا هو عمل أبناء الملكوت.

ب- التأمل في عظمة الخالق ومحبه وعنايته بنا.

ج- التأمل في الصليب كينبوع لا ينضب نرى فيه حب الله اللانهائي واهتمامه بنا.

د- القراءة المستمرة والتأمل الدائم في الكتاب المقدس.

هـ- السهر والصوم والصلاة بقصد رفع العقل عن الأرضيات.

و- التمييز بين مصادر كل فكر، لأن أفكاراً كثيرة تبدو مقدسة وهي مضللة، مثال ذلك: أفكار تحث الراهب على الخدمة في العالم وخاصة أثناء الصلاة، وتشوق الكاهن المتزوج للرهبنة، انشغال الإنسان بخطيته بصورة تفقده سلامه الداخلي وتجعله قانطاً كنيئاً مدفوعاً نحو اليأس، والتفكير في مراحم الله وحنانه أثناء استهتارنا وجعل ذلك ستاراً لعدم التوبة...



مناظرات يوحنا كاسيان مع مشاهير آباء البرية

٢

التمييز أو الإفراز

للأب موسى

١ - مقدمة

إذ تمتعنا بنوم الصباح وأشرق النور علينا بدأنا نسأله أن يحدثنا بما وعدنا به. فبدأ الطوباوي موسى يقول: إذ أرى شوقكم الملتهب هذا، فإنني لست أظن بأن ما كنت أرغبه في أن أترككم فترة هدوء قصيرة جدًا بعد المناظرة الروحية، لأجل راحتكم الجسدية، يهبكم راحة لأجسادكم، إنما إذ أطلع إلى غيرتكم أشعر بالضرورة تلح عليّ لكي ما أفي بما قد وعدتكم به بكل عناية وإخلاص...

إنني سأتكلم عن "التمييز الحسن وخصائصه"، الموضوع الذي تطرقنا إليه في مناقشتنا الليلة الماضية. وإنني أحسب أنكم تريدون أن أكشف لكم عن بركات "التمييز" حسب فكر الآباء... وأن أحدثكم عن هلاك بعض السابقين والمحدثين وسقوطهم في اليأس بسبب عدم اهتمامهم بالتمييز، ثم أتحدث عن بركات التمييز... هذا كله بعدما نناقش كيف يلزمنا أن نعرف جيدًا كيفية البحث عن التمييز وطريقة الانتفاع به عمليًا، آخذين في اعتبارنا أهميته وبركاته.

التمييز نعمة إلهية

لا توجد فضيلة واحدة يمكننا أن نحصل عليها بمجهودنا البشري ما لم تعيننا النعمة الإلهية. ونحن نرى في الكتاب المقدس أن التمييز حُسب ضمن مواهب الروح، إذ يقول الرسول: "فإنه لواحد يعطى بالروح كلام حكمة ولآخر كلام بحسب الروح الواحد، ولآخر إيمان بالروح الواحد، ولآخر مواهب شفاء بالروح الواحد... ولآخر تمييز الأرواح..."

لقد رأيتم إذن كيف أن موهبة التمييز ليست موهبة أرضية، ولا هي بالأمر الهين، إنما هي عطية عظيمة تهبها النعمة الإلهية. إن لم يسعى الإنسان^١ بكل حماس نحو التمييز... حتمًا يخطئ ويصير كمن هو في ظلمة الليل وحلقة الظلام، ولا يسقط فقط في الأشرار والأهواء بل ويخطئ حتى في الأمور السهلة.

^١ الحديث في المناظرات عن الرهبان وقد استبدلت كلمة "راهب" بـ "إنسان".

٢ - أهميته

أذكر لما كنت في منطقة طيبة Thebaid حيث يقطن الطوباوي أنطونيوس وأنا صبي جاءه جماعة من الآباء يسألونه عن "الكمال". واستمرت المناقشة من المساء حتى الصباح، وأخذ هذا السؤال النصيب الأكبر من الليل. وقد نوقش: أي الفضائل أكمل وأقدر على حفظ الإنسان من مصاد الشيطان وحيله، وتحمله إلى الطريق الآمن الحقيقي، وترتفع به بدرجات ثابتة على قمم الكمال؟

تحدث كل واحد على حسب ميول عقله، فقال البعض بأن الجهاد في الصوم والسهرة يقوّم الفكر وينقي القلب ويسهل للإنسان التقرب إلى الله. ومنهم من قال بأن المسكنة والزهد في الأمور الأرضية يُمكننا العقل أن يكون هادئاً صافياً خالياً من هموم العالم، متجهاً بالكمال نحو الله، ولا تقتنصه أشراك العدو. وظن البعض أنه بالضرورة الانسحاب من العالم، أيضاً الوحدة والانعزال في حياة التوحد، حتى يُمكن للإنسان بالأكثر أن يتحدث مع الله ويلتصق به. وذكر البعض أعمال المحبة أيضاً فعل الرحمة، لأن الرب يقول لفاعليها كما وعدهم في الإنجيل: "تعالوا إليّ يا مباركي أبي رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم، لأنني جُعتُ فأطعمتموني، عطشتُ فسقيتموني..." (مت ٢٥: ٣٤-٣٥).

بهذا أعلنوا أنه خلال فضائل متنوعة يمكن الاقتراب إلى الله. وهكذا انقضى النصيب الأكبر من الليل في هذه المناقشة، وأخيراً تكلم الطوباوي أنطونيوس قائلاً:

[حقاً إن كل هذه الأمور التي ذكرتموها نافعة وضرورية، وتعين المتعطشين إلى الله والراغبين في الاقتراب منه. لكن هناك حوادث لا حصر لها واختبارات للبعض تؤكد لنا بأن هذه في ذاتها لا تهينا العطايا العظمى.

فالبعض مارسوا الصوم والسهرة، وانسحبوا بشجاعة إلى الوحدة بقصد ترك كل شيء تركاً كاملاً، حتى أنهم لم يسمحوا لأنفسهم بأن يكون لديهم أكلة يوم واحد، أو يكون في جيبهم فلس واحد مكرسين حياتهم لأعمال الرحمة، ومع هذا وجدناهم يسقطون فجأة ولا يستطيعون القيام بما كانوا يصنعون من قبل... بل تتحول غيرتهم وأعمالهم المُطوّبة إلى نهاية مؤسفة.

ويمكننا إذا ما تتبعنا بدقة أسباب انهيارهم وسقوطهم نعرف الأمر الرئيسي الذي يقودنا إلى الله فإذا تزايد فيهم أعمال الفضائل المذكورة ينقصهم "التمييز"، وهذا يمنعهم من الاستمرار في الجهاد. وسبب سقوطهم الواضح هو عدم أخذهم بتعاليم آبائهم^٢ الكافية التي بها يحصلون على الحكمة والتمييز، فنتطرقوا في جانب من جوانب الفضيلة.]

يعلم التمييز أن يسير الإنسان في الطريق الملوكي، من غير أن يسمح له بالتطرف اليميني في الفضيلة، أي المغالاة وتجاوز حدود الاعتدال في جسارة ووقاحة، كما لا يسمح له بالكسل...

هذا هو التمييز الذي يعبر عنه الكتاب المقدس بـ "العين" أو "تور الجسد"، وذلك كقول المخلص: "سراج الجسد هو العين. فإن كانت عينك بسيطة فجسدك كله يكون نيراً. وإن كانت عينك شريرة فجسدك كله يكون مظلماً.." (مت ٦: ٢٢، ٢٣). لأنها هي التي تميز كل الأفكار والأعمال، وترى كل شيء وتراقب ما سيحدث.

فإذا كانت عين الإنسان "شريرة" أي غير محصنة بصوت الحكمة والمعرفة، مخدوعة ببعض الأخطاء

^٢ الآباء الشيوخ Elders.

والعجرفة (في العبادة)، فإنها تجعل جسدنا "كله يكون مظلماً". تنظلم عقولنا وتصير أعمالنا في ظلام الرذيلة ودجى الاضطرابات، وإذ يقول: "إن كان النور الذي فيك ظلاماً فالظلام كم يكون؟! (مت ٦: ٢٣).

فلا يستطيع أحد أن يشك في أنه متى كان "الحكم في الأمور" في القلب خاطئاً، أي كان القلب مملوء جهلاً، تكون أفكارنا وأعمالنا، التي هي ثمرة التمييز والتأمل، في ظلام الخطية العظمى...

٣ - أمثلة من الكتاب المقدس

(أ) شاؤل الرجل الذي كان في نظر الله مستحقاً أن يكون ملكاً على شعبه سقط من ملكه بسبب افتقاره إلى "عين التمييز"، وبذلك صار الجسد كله مظلماً... فظن أن تقدمته مقبولة أمام الله أكثر من طاعته لأوامر صموئيل، حاسباً أنه بهذا يستعطف العظمة الإلهية... (أنظر ١ صم ١٥).

(ب) انقاد آخاب الملك لعدم التمييز بعد النصر الرائع الذي وهب له بغيرة الله، إذ ظن أن عمل الرحمة من جانبه أفضل من تنفيذ وصية الله التي بدت أمراً قاسياً فلم ينفذها. بينما رغب في التلطيف من الانتصار الجسدي بصنع الرحمة...

٤ - التمييز كما جاء في الكتاب المقدس

هذا هو التمييز الذي لا يدعى فقط "نور الجسد"، بل و"الشمس"، إذ يقول الرسول: "لا تغرب الشمس على غيظكم" (أف ٤: ٢٦). ويدعى أيضاً "سلطاناً"، إذ لا يسمح لنا الكتاب المقدس أن نصنع شيئاً بدونه. "مدينة منهدمة بلا سور، الرجل الذي ليس له سلطان على روحه" (أم ٢٥: ٢٨).

وبه تسكن الحكمة ويقطن الفهم والمعرفة، وبدونه لا يُبنى بيتنا الداخلي، ولا نستطيع أن نجتمع الغنى الروحي الذي لنا، فقد قيل: "بالحكمة يُبنى البيت، وبالفهم يثبت. بالمعرفة تمتلئ المخادع من كل ثروة كريمة ونفيسة" (أم ٣: ٢٤، ٤).

وهو "الغذاء الكامل" الذي يقات به الكاملون في النمو والصحة، إذ قيل: "وأما الطعام القوي للبالغين الذين بسبب الثمرن قد صارت لهم الحواس مدربة على التمييز بين الخير والشر" (عب ٥: ١٤).

وتظهر أهميته وضرورته بالنسبة لنا بمقدار ما لكلمة الله وقوتها من أهمية، إذ قيل: "لأن كلمة الله حيّة وفعالة وأمضى من كل سيف ذي حدين وخارقة إلى مفرق النفس والروح والمفاصل والمخاخ ومميزة أفكار القلب ونياته" (عب ٤: ١٢).

من هذا يظهر بوضوح أنه لا يمكن أن تكون لفضيلة ما كمالها المطلوب، أو تدوم، بدون نعمة التمييز. وكما يقول الطوباوي أنطونيوس كغيره أيضاً من الآباء، بأن التمييز هو الذي يقود الإنسان الشجاع بخطوات ثابتة نحو الله، ويحفظ له دوام سلامة الفضائل المشار إليها بغير سأم، حتى تبلغ أقصى ذروة الكمال. وبدونه لا يمكن الوصول إلى مرتفعات الكمال مهما كان الجهاد بكل رغبة. فالتمييز هو أهم كل الفضائل، وحارسها، ومنظمها.

٥ - أمثلة: (١) موت الشيخ هيرون Heron

إنني أعضد ما قاله الطوباوي أنطونيوس وغيره من الآباء بمثال حديث... تذكروا ما قد حدث عن قريب أمام أعينكم، أقصد ما حدث مع الشيخ هيرون الذي منذ أيام قليلة سقط بخدعة شيطانية من العلو إلى

الهاوية. ذلك الرجل الذي نذكر أنه عاش خمسين عامًا في هذه البرية محتفظًا بزهده بكل دقة، راغبًا في حياة التوحد الخفية بغيرة عجيبة تفوق كل الساكنين هنا. بعد كل هذا الجهاد انظروا كيف خدعه الماكر مسقطًا إياه سقطة محزنة مهلكة، جعلت كل الساكنين في هذه البرية يكونون بمرارة! أليس هذا بسبب عدم اقتنائه فضيلة التمييز كما ينبغي، مفضلًا أن يسير حسب حكمته الخاصة دون أن يطيع قوانين الإخوة وأقوال الآباء ونظمهم؟! لقد استمر في زهده، عنيفًا في صومه، مثابرًا في وحدته الخفية وخلوته الرهبانية، حتى أنه لم يحضر مع الإخوة ليحتفل معهم عيد القيامة... خائفًا لئلا يأكل بعض البقول يدفع به إلى التكاسل عن هدفه شيئًا ما.

لقد خُدع بهذه الجسارة، إذ أَسْتَقْبَل ملاكًا بخدعة شيطانية بإكرام جزيل على أنه ملاك نوراني، وأطاع أمره في عبودية عمياء، ملقيًا بنفسه في بئر عميقة للغاية. وهو لم يشك في وعد الملاك له، الذي أكد أنه لا يمكن أن يلحق به أي ضرر، وفي منتصف الليل خُدع، فألقى بنفسه في البئر المذكورة ليتحقق عظمة استحقاقه وفضائله... وفي اليوم الثالث مات، وكانت حالته رديئة، إذ كان ممسكًا بغروره العنيد حتى أن تجربة الموت لم تستطع أن تجذبه إلى معرفة أنه كان مخدوعًا بحيل شيطانية. فبالرغم من جهاده العظيم والسنوات الكثيرة التي قضاه في هذه البرية إلا أن الأب بفنوتيوس اعتبره ضمن المنتحرين الذين لا يستحقون أي ذكرى ولا تُقدَّم أية تقدمه لراحتهم.

٦ - (ب) هلاك أخوين

وماذا أقول عن هذين الأخوين اللذين كانا يعيشان في صحراء طيبة Thebaid التي كان يسكن فيها الطوباوي أنطونيوس، ولم يكن لهما روح التمييز الدقيق. فقد قررا ألا يأخذا معهما أي طعام عندما كانا يسيران في منطقة صحراوية بعيدة وواسعة، متكلان أن الله يمدهما بالقوت. وإذ تاهوا في الصحراء صاروا على وشك الإغماء بسبب الجوع. ولما وجدتهما المازيعة^٣ قدموا لهما طعامًا، على خلاف طبيعتهم الوحشية، فأخذ أحدهما الخبز بفرح وشكر كما لو أنه مرسل من الله، إذ رأى أنه من قبل السماء أن يقدم لهما سافكو الدم خبرًا وهما في حالة إغماء وعلى وشك الموت. أما الثاني فرفض الطعام لأنه مقدم من بشر، فمات جوعًا. عرف الأول خطأه، وفهم ما كان قبلاً يفهمه فهمًا خاطئًا، أما الثاني فصمم على جهله بعناد، جالبًا الموت لنفسه، وذلك بسبب نقص التمييز.

٧ - (ج) سقوط آخر

أتحدث عن آخر^٤ تقبل شيطانًا ظهر له في صورة ملاك نوراني، فانخدع بإعلانات لا حصر لها، معتقدًا أنه رسول للبر. وإذ كان يتقبل هذه الإعلانات كانت قلايته تضيء بغير مصباح، وأخيرًا أمره الشيطان أن يقدم ابنه الذي يعيش معه في الدير ذبيحة لله، حتى يستحق ما استحقه إبراهيم. وقد انخدع حتى كاد أن يرتكب الجريمة، إلا أن ابنه لما رأى والده ومعه السكينة يسنها بطريقة غير عادية ورأى السلاسل التي يعدها لتقييده، شعر بالجريمة المتوقعة وهرب مرتعبًا.

٨ - (د) سقوط راهب من دير الميصة Mesopotamia

يطول بنا الحديث إن تكلمنا عن ذلك الراهب الذي من دير الميصة (ما بين النهرين)، هذا الذي كان متسكًا بصورة لا نجد لها مثيل إلا بين القليلين من أهل تلك المنطقة. لقد عمل سنوات طويلة مختبئًا في قلايته،

^٣ قبائل متوحشة وسافكة للدم.

^٤ لم يذكر اسمه لأنه كان لا يزال حيًا.

وأخيرًا خُذع بإعلانات وأحلام شيطانية. فبعد عمل كثير وجهاد حسن متخطيًا الكثيرين في هذا الأمر... ارتدَّ يائسًا إلى اليهودية وختان الجسد. إذ كان الشيطان الذي عوّده على الرؤى لكي ما يجذبه إلى الضلال والتهيه يظهر له في النهاية لمدد طويلة في صورة رسول الحق، أخيرًا أظهر له منظرًا وهو أن جماعة المسيحيين مجتمعين معًا مع قادة ديننا وعقيدتنا مثل الرسل والشهداء في الظلمة والأوساخ والنجاسة والقبح في صراخ وعويل. وفي الجانب الآخر أظهر له الشعب اليهودي مع موسى والآباء والأنبياء يرقصون طربًا منيرين بنور يُبهر العين، مقنعًا إياه بضرورة الاختتان، إن كان يرغب في أن يكون له نصيب في هذه الجعالة. وهكذا لو أنه سعى للحصول على قوة التمييز ما كان قد سقط في ذلك الخداع البائس. هذه المصائب والحيل التي سقط فيها الكثيرون، كشفت عن خطورة عدم وجود نعمة التمييز.

٩ - سؤال: كيف نفتني التمييز؟

جرمانبوس: لقد ظهر بوضوح وبطريقة قاطعة بالأمثلة الحديثة وأقوال الأولين كيف أن التمييز ينبوع للفهم وحارس لكل الفضائل. والآن نرغب في معرفة كيفية اقتنائه، وكيف نميز إن كان حقيقيًا من الله، أو كاذبًا من الشيطان؟! أو لو استخدمت التشبيه الوارد في الكتاب المقدس والذي ذكرته في مناقشاتك لنا في المرة الماضية وهو كيف نصير صرّافين حكماء نعرف إن كانت صورة الملك المختومة على العملة حقيقية أو مزيفة... لأنه ماذا ننتفع إن عرفنا قيمة هذه الفضيلة أو العطية ولا نعرف كيف نفتنيها؟!

١٠ - موسى: التمييز الحقيقي لا يأتي إلا بالاتضاع الحقيقي. فالاتضاع هو البرهان الأول لصيانة كل شيء (ليس فقط كل ما تصنعه بل أيضًا كل ما تفكر فيه) ويكون ذلك بالاعتماد على الآباء. فلا تثق في حكمك على كل شيء، بل تدعن لقراراتهم في كل نقطة، وتتعرف على تمييز الصالح من الطالح بواسطة تقاليدهم. وهذه الطريقة تُعين الشاب لا لكي يسير في الجانب الأيمن من طريق التمييز الحقيقي فحسب، بل وتحفظه سالمًا من كل مكائد العدو وحيله. فإنه لا يمكن أن يُخدع من كان يسير لا حسب حكمه الخاص، بل مقتفيًا آثار الآباء. ويحاول عدونا الماكر أن ينتصر علينا حين نكتم أفكار الخطية في داخلنا، وذلك بحسب تعاليم الآباء القويمة. **فالفكر الخاطي يَضَعِف بمجرد اكتشافه كالأفعوان الدنس الذي ينسحب من كهفه المظلم المخفي ويهرب مفتضحًا...** فالأفكار الشيطانية يكون لها تسلط علينا بمقدار ما تختبئ في قلوبنا.

ولكي تدرك تأثير قوة هذا الحكم (بأن الاعتراف يكسر سلطان الفكر الشرير) أخبرك بما حدث مع الأب سيرابيون Serapion، وما قد اعتاد أن يقوله للإخوة الحديثين لأجل بنيانهم وهو:

١١ - مثال: بينما كنت رقيقًا للأب ثيونا Abbot Theonas كانت هذه العادة تلازمي بهجوم من العدو، وهي أنه بعدما كنت ألتحق بالشيخ في الساعة التاسعة، كنت أخبئ يوميًا قطعة من الخبز الجاف في الخفاء حتى أكلها في وقت متأخر دون أن يعلم بها أحد. وعلى هذا كنت أخطئ دائمًا بجريمة السرقة بإرادتي مع عجزتي عن المقاومة. ولكنني كنت عندما أشبع رغبتني غير المشروعة أعود إلى نفسي لائمًا إياها على السرقة التي ارتكبتها بطريقة تبدد اللذة التي أحصل عليها من الأكل. وإذا كنت مجبرًا يومًا فيومًا، رغم حزني، أن أقوم بهذا العمل المضني كما لو كنت مأمورًا من فرعون أن أصنع الطوب دون القدرة على الهروب من استبداده القاسي، فإنني كنت أخجل من أن أكشف تلك السرقة الخفية للشيخ (أب اعترافه).

ولقد شاعت العناية الإلهية أن تسمح لي بالعق من عبودية هذا الأسر الاختياري عندما بحث بعض الإخوة عن قلاية الشيخ ليسترشدوا به. وبعد العشاء بدأ الحديث الروحي، فكان يجيب على أسئلتهم التي طرحوها

قدمه، محدثاً إياهم عن شيطان النهم (الشراهة) وسلطان الأفكار الخبيثة، مُظهرًا لهم طبيعتها وقوة ضررها كلما كُتبت. فغلبت من قوة المناظرة حتى تألم ضميري وارتجف وحسبت أن هذه الأمور أعلنها الشيخ لأن الرب قد كشف له أسرار صدري. فبدأت أنتهد في الخفاء، لكن تأنيب القلب ازداد، فانفجرت بالدموع ثم أخرجت من ردائي قطعة الخبز التي حملتها كعادتي الرديئة حتى آكلها في الخفاء، وألقيتها في وسطهم، ثم سقطت على الأرض متوسلاً العفو، معترفاً كيف كنت آكل كل يوم في الخفاء. ودموع غزيرة طلبت منهم أن يطلبوا من الله حتى يحررني من هذه العبودية المميتة.

عند ذلك أجاب الشيخ: "ليكن لك إيمان بذلك يا ابني. فإنه بدون أي إرشاد (كلام) مني إليك، إنما بمجرد اعترافك قد تحررت من هذه العبودية. لقد انتصرت اليوم على عدوك. باعترافك أسقطته أكثر من غلبته لك بسكوتك السابق... ولذلك فإن بعد افتضاحه هذا لن يستطيع ذلك الروح الشيطاني أن يدركك، ولا يستطيع ذلك الأفعوان النجس أن يجد له فيك مكاناً مظلماً، فباعترافك قد انتقلت من الظلمة إلى النور..."

وقال أيضاً: "إذ كشفتُ للشيخ... زال عني الاستبداد الشيطاني بقوة هذا الاعتراف، وبقيت هكذا... حتى أنه لم يعد يحاول الشيطان أن يقاومني حتى ولا بتذكر هذه الرغبة، ولم أعد بعد أشعر بضغط سم تلك السرقة التي استعبدتني طويلاً. ويعبرُ سفر الجامعة عن هذا المعنى تعبيراً دقيقاً بمثال قائلاً: "إن لدغت الحية بلا رقية فلا منفعة للراقي" (جا ١٠: ١١)، مظهرًا أن لدغة الحية بدون وجود راقٍ خطيرة، أي أن الخطورة في ألا يكشف أي اقتراح أو تفكير نابع عن الشيطان أمام الراقي بالاعتراف.

إنني أقصد بالراقي جماعة الروحانيين الذين يعرفون كيف يُعالجون الجراحات بتعويدة الكتاب المقدس، ويجذبون سم الأفعى المميت من القلب...

بهذه الطريقة يمكننا أن نتوصل بسهولة إلى معرفة التمييز الحقيقي، وذلك باقتفاننا آثار آبائنا، وعدم صنع أي شيء أو تقرير أي أمر من عنديتنا، بل كما تعلمنا به تقليدهم واستقامة حياتهم...

والإنسان الذي يتقوى بهذه النظم، لا يصل فقط إلى إدراك الوسيلة الكاملة للتمييز، بل يبقى دائماً في أمان من مكائد العدو. فليس هناك وسيلة أخرى يسقط بها الشيطان الإنسان بتهور ويقوده إلى الموت إلا عن طريق الاستخفاف بأقوال الآباء واعتماده على أفكاره الخاصة وأحكامه.

إن كانت كل الفنون والاختراعات المكتشفة ببراعة الإنسان، التي نفعها يخص حياتنا الزمنية فقط، لا نستطيع فهمها ما لم يعلمنا إياهم معلم، فكم غباوة نكون عليها إذا تخيلنا أننا لسنا محتاجين إلى معلم في تلك الأمور التي لا تراها العين بل القلب النقي، والخطأ فيها لا يؤدي إلى خسارة وقتية يمكن إصلاحها بسهولة بل تدفع إلى انهيار الروح والموت الأبدي؟! هذه التي نخوض فيها معارك نهائية وليلية، ليس أمام أعداء منظورين بل غير مرئيين وقاسين، معارك روحية ليس أمام واحد أو اثنين، بل أمام صنوف بلا حصر!

وللفشل في هذه المعارك خطورته الكبرى، لسبب كثرة العدو (إبليس وجنوده) وسرية الحرب. لهذا يلزمنا أن نفتقي آثار آبائنا وننزع حجاب الخجل كاشفين لآبائنا كل ما يخطر لفكرنا.

١٢ - سؤال: أما يحتقر أب الاعتراف من يكشف له خطاياه؟

جرمانويس: أساس العفة الضارة التي فيها نسعى إلى إخفاء أفكارنا الشريرة، يرجع إلى ما سمعناه عن بعض الآباء الحداثيين في سوريا إذ يسود الاعتقاد بأنه إذا كشف أخ أفكاره بوضوح إلى أبيه في اعتراف صريح،

يسخط الأب عليه ويوبخه بصرامة. لذلك نحن نحفظ الأفكار في داخل نفوسنا ونخجل من الاعتراف بها ولا نتمكن من الحصول على الأدوية اللازمة لعلاج هذه الأفكار.

١٣- الأنبا موسى: كما أنه ليس كل الشباب متشابهين من جهة غيرتهم في الروح أو متساوين في تعلمهم التعاليم والآداب القويمية، كذلك أيضًا ليس كل الشيوخ متشابهين في الكمال والفضيلة. فالغنى (الروحي) الحقيقي لا يقاس بشيعة الرأس بل بالجهاد منذ الصغر وحسب أكاليل أعمالهم السابقة... لأن الشيوخوة المكرمة ليست هي القديمة الأيام ولا هي تقدر بعدد السنين. "ولكن شيب الإنسان هو الفطنة وسن الشيوخوة هي الحياة المنزهة عن العيب" (حك ٩:٤)... وعلى ذلك فليس لنا أن نقندي بأي شيخ غطى الشيب رأسه.. بل نتبع آثار أولئك الذين امتازوا منذ صباهم بالحياة اللائقة المستحقة كل ثناء، الذين تدرّبوا حسب تقاليد الآباء وليس حسب ذواتهم.

عبر البعض إلى الشيوخوة بالفتور والكسل، هؤلاء يوبخهم الله بالنبي قائلاً: "أكل الغرباء ثروته وهو لا يعرف وقد رُش على الشيب وهو لا يعرف" (هو ٩:٧)... هؤلاء يستخدم الشيطان شبيتهم لخداع الشبان، عن طريق مظهر وقارهم الخاطيء، خادعاً من كان يلزم أن يجتهدوا في طريق الكمال بواسطة نصائحهم... مسقطاً إياهم (الشبان) في عدم الاكتراث أو اليأس المميت وذلك عن طريق تعاليم أمثال هؤلاء الشيوخ وأعمالهم.

مثال: إذ أود أن أضرب لكم مثلاً عن هذا أذكر لكم واقعة تمدّنا ببعض التعاليم من غير ذكر اسم الفاعل حتى لا أسقط في خطية التشهير بخطايا الآخرين. هذا الشخص الذي لم يكن متكاسلاً في صباه ذهب إلى أحد الشيوخ المعروفين لنا جيداً واعترف له بصراحة باضطرابه بشهوات جسدية وبروح الزنا. لقد ظن أنه سيجد في كلمات هذا الشيخ تعزيات تُعينه وشفاء جرحه، لكن الشيخ هاجمه بتعبيرات مرّة ودعاه بانساً وأنه لا يستحق أن يُدعى راهباً، مع أن الشيخ نفسه يمكن أن يسقط في هذه الخطية والشهوة. وهكذا أضّر بدلاً من مساعدته، إذ طرده من قلايته وهو في حالة يأس وقنوط مميت.

وإذ كان متضايقاً كثيراً، غارقاً في فكر عميق: كيف يعالج آلامه بل كيف يرضي شهوته، إذ بالأب أبولس - وهو من أكثر الآباء حنكة - يراه مضطرباً فأدرك ما يدور في قلبه واستفسر منه عن سبب ذلك. وإذ لم يستطع أن يجيبه أدرك الشيخ الوديع في هدوء أنه ليس بغير سبب يخفي حزنه فلم يقدر أن يصمت بل بدأ يستفسر منه بأكثر حذاقة عن سبب الحزن الخفي. وإذ غلب على أمره اعترف بأنه في طريقه إلى العالم ليأخذ له زوجة تاركاً الدير، إذ كما قيل له أنه لا يستطيع أن يكون راهباً ما دام يعجز عن التحكم في شهوات جسده وشفاء آلامه.

هذه الأب بتعزيات رقيقة، مخبراً إياه أنه هو أيضاً يجاهد يومياً بسبب بعض أشواق الشهوة، وعليه ألا ييأس ولا يتعجب من قسوة الهجوم لأن هذا لخيره، معتمداً بالأكثر على رحمة الله ونعمته كما على جهاده الغيور. ثم التمس منه أن يترك الاهتمام والقلق لمدة يوم ورجاه أن يرجع إلى قلايته.

ذهب الأب أبولس إلى الدير الذي به الشيخ المذكور، ثم بسط يديه مصلياً بدموع قائلاً: "يا الله، أنت وحدك الديان البار والطبيب غير المنظور تعالج ضعف البشر. فلتحوّل الهجوم من هذا الشاب إلى الشيخ ليتعلم أن يترفق بضعاف المجاهدين، وفي شيخوخته يشفق من أجل ضعف إرادة الشباب".

ولما انتهى من صلاته بدموع إذ به يرى عبداً أسوداً واقفاً أمام قلاية الشيخ يصوّب رمحاً نارياً أصابه للحال، فخرج الشيخ من قلايته وأخذ يجري من هنا وهناك كأنسان معتوه أو سكران يدخل ويخرج من القلاية بغير

توقف، وأخيرًا بدأ يسير في الطريق الذي سار فيه الشاب.

وإذ رآه أبولس كرجل مجنون... أدرك أن السهم الناري الشيطاني قد انغرس في قلبه، وأنه بفعله هذا (عنه في الحكم، ذاق من ذات الكأس) فانحرف عن الحق وتبلبل فهمه، فذهب إليه يسأله: إلى أين تسرع؟ وما الذي جعلك تنسى هيبة شيخوختك حتى تضطرب بهذه الصورة الطفولية وتتحرك بسرعة؟

وبسبب شعوره بالذنب وارتيابه... حسب أن شهوة قلبه قد انكشفت، وأن الأب أبولس قد عرف خبايا قلبه، لهذا لم يتردد في الإجابة على أسئلته.

أجابه الأب أبولس: "عُد إلى قلايتك واعرف أن الشيطان يتجاهلك ويزدري بك، ولا تنتظر هكذا إلى أولئك الذين يستنزهم العدو يوميًا ويناضلهم بسبب جهادهم ومهارتهم. ها أنت لم تحتل سهمًا واحدًا وجهه إليك بعدما قضيت أعوامًا طويلة في هذا العمل... وقد سمح الله لك بالجرح حتى تعلم أنه يلزمك في شيخوختك أن تترفق بالضعفاء... ولكي تعرف وتختبر أن تشفق لضعف إرادة الحديثين. لأنه عندما لجأ إليك حدثًا مضطربًا بحرب شيطانية لم تشجعه بأية تعزية، بل دفعت به إلى اليأس المحزن المهلك، وألقيت به في أيدي العدو، وكنت كمن لا تبالي بالهلاك المحزن الذي يلحقه. مع أن (الشيطان) لم يهاجمك بنفس القوة التي هاجمه بها، لأنه يزدري أن يحاربك... وقد ناضل ضده لعلّه يجرده من محاسن الفضيلة التي وجدها في طبيعته، وأراد أن يخربها بسهامه النارية، إذ يعلم بلا شك أن هذا (الشاب) أقوى منك، لذلك جدّ في محاربته بلا هوادة، حاسبًا أن غلبته على هذا الشاب شرفًا عظيمًا.

يلزمك إذن أن تتعلم العطف على الذين هم في ضيقة، ولا تُرعب المعرضين لخطر اليأس المهلك، ولا تثقل عليهم بالكلام القاسي، إنما أصلحهم بكلمات التعزية الهادئة العميقة. فإن سليمان الحكيم يقول: "أنقذ المنقادين إلى الموت والممدودين للقتل. لا تمتنع" (أم ١١: ٢٤). ولتكن على مثال مخلصنا: "قصة مرضوضة لا يقصف، وفتيلة مدخنة لا يطفئ..." (مت ٢٠: ١٢).

والآن فإن ما قد حدث هو للخير، إذ تحرر الشاب من شهواته المهلكة وأعلمك الله شيئًا عن قوة تلك الحرب وعن ضرورة الترفق، لهذا فلننوسل معًا إلى الله لكي ينزع عنك ذلك التأديب الذي سمح لك به لأجل نفعك، "لأنه هو يجرح ويعصب. يسحق ويداه تشفيان" (أي ١٨: ٥). "الرب يُميت ويُحيي. يهبط إلى الهاوية ويصعد" (١ صم ٦: ٢). وهو يبدي بروحه السهام النارية التي للشيطان التي سمح بها ليحركك كطليبي.

وإذ سمح الله برفع هذه التجربة من أول صلاة للشيخ بنفس السرعة التي بها سمح بمجيئها، فقد أوضح الله ببرهان جلي أنه حين يكشف إنسان أخطاءه ويعزيها يلزم (لأب اعترافه) ليس فقط ألا يزجره، بل ولا يستهين بحزنه (من أجلها).

لذلك يلزمك ألا تترك الطريق الذي تكلمنا عنه سابقًا أو ترتد عن تقاليد الآباء لمجرد غلاظة شيخ ما أو بعض الشيوخ وسطحياتهم، لأن العدو المحتال يستخدم شببتهم استخدامًا شرييرًا.

فيجب عليك بدون أي خجل أن تكشف كل شيء للآباء، وتتسلم منهم علاج الجراحات بإيمان وتفقدتي بحياتهم وأقوالهم. فإذا ما حاولنا ألا نفعل شيئًا حسب حكمنا الخاص (بل نستشيرهم) فإننا سننال بحق عونًا مثلهم ونبلغ إلى ما وصلوا إليه.

١٤- مثال (أ) صموئيل

أخيراً فإن هذا الأمر واضح بأنه مقبول عند الله، حتى أنه ليس باطلاً وُجد له مكان في الكتاب المقدس. فإله لم يكلم صموئيل الصبي بالحديث المباشر ولا بالحوار الإلهي، بل سمح له بالذهاب مرة أخرى إلى الشيخ (عالي الكاهن). لقد شاء أن يتدرب ذاك الذي استحق سماع صوت الله على يدي (عالي) رغم أنه أغضب الله في شيخوخته... حتى يختبر ذاك الذي دُعي لوظيفة إلهية حياة الإتضاع، ويكون قدوة للشباب في ذلك.

١٥- (ب) بولس الرسول

عندما نادى السيد المسيح بولس ودعاه فتح له طريق الكمال، لكنه استحسن أن يوجهه إلى حنانيا، طالباً منه أن يتعلم الحق عن طريقه، قائلاً: "...قم وادخل المدينة فيقال لك ماذا ينبغي أن تفعل" (أع ٩: ٦).

لقد أرسله إلى رجل شيخ، معتبراً أن ذلك أفضل من أن يتسلم تعاليمه منه مباشرة. لئلا يصير بولس مثلاً سيئاً في الاعتماد على ذاته في التعليم، إذ يقتنع كل أحد نفسه أنه هو أيضاً يتعلم أحكام الله وتعاليمه بنفسه دون حاجة إلى طريق تعاليم الآباء.

بل ويعلمنا الرسول نفسه عن عدم الاكتفاء الذاتي في التعليم قدر المستطاع، وذلك ليس بالكلام بل بالعمل، فيقول أنه ذهب بمفرده إلى أورشليم لهذا الهدف، أي ذهب إلى مجمع غير رسمي يعرض فيه على زملائه الرسل والسابقين عنه الإنجيل الذي يبشر به بين الأمم، ونعمة الروح القدس المصاحبة له بعلامات قوية وعجائب، إذ يقول "...وعرضت عليهم الإنجيل الذي أكرز به بين الأمم ولكن بالانفراد على المعتبرين لئلا أكون أسعى أو قد سعيت باطلاً" (غلا ٢: ٢).

فمن هو هذا المكثفي بذاته، الأعمى الذي يتجاسر فيثيق في أحكامه الخاصة وتمييزه الشخصي، بينما الإناء المختار يعترف باحتياجه للاجتماع والتشاور مع زملائه الرسل؟!!

إذن رأينا أن الله لم يكشف لأحد طريق الكمال، طالما كانت له فرص للتعلم من الآباء واختباراتهم، غير مكرثين بمشورة الآباء لذلك يقول: "اسأل أباك فيخبرك وشيوخك فيقولوا لك" (تث ٣٢: ٧).

١٦- أهمية التمييز في اقتناء الفضائل

يلزمنا أن نطلب فضيلة "التمييز" بكل طاقاتنا عن طريق الإتضاع، هذا الذي يحفظنا بدون أي ضرر في أي جانب من الجانبين... فالمغالة في الصوم والنهم كلاهما يؤديان إلى نهاية واحدة. والمغالة في السهر في الفضائل يوازي التراخي في نوم عميق من جهة ضررها للراهب. وحينما يضعف الراهب بسبب التقشف الزائد يعود إلى الحالة التي يكون فيها الراهب مهملاً ومقصراً.

لذلك نرى أن أولئك الذين لم يندفعوا بالنهم كثيراً ما يهلكوا بالصوم الزائد. وتؤدي الفضائل غير المعتدلة والسهر ليلاً الزائد إلى نفس الهلاك الذي يسببه النوم. وفي ذلك يقول الرسول "...بسلاح البر لليمين والليسار" ٢كو ٦: ٧.

فلنتقدم باعتدال سليم، ونسير في الطريق الوسطى بروح التمييز.

١٧- التمييز والاعتدال

فإنني أتذكر إنني كنت أقاوم شهوة الطعام حتى كنت امتنع عن أخذ أي شيء لمدة يومين أو ثلاثة أيام،

ولم يكن ذهني يضطرب حتى بتذكر أي طعام ما. وأما عن النوم فإنه بخداع شيطاني نزع النوم من عيني لمدة عدة أيام وليالي، حتى أنني توسلت إلى الله أن يمنحني قليلاً من النوم. لقد شعرت أنني في خطر عظيم بسبب نقص الطعام والنوم أكثر مما في الجهاد ضد الاسترخاء والنهم.

فيلزمنا أن نحذر لئلا نسقط في التدليل عن طريق التمتع الجسدي والتساهل مع أنفسنا بالأكل قبل الميعاد المناسب، أو الأكل بشراهة، وفي نفس الوقت يلزمنا أن نفتات بالطعام والنوم كما يتناسب معنا حتى ولو لم نحب ذلك... لأن الزهد المغالى فيه أكثر ضرراً من الشبع بغير حرص، لأن الأخير يتدخل فيه تأنيب الضمير فيفيدنا ويدفعنا إلى المستوى الحقيقي بدقة، أما المغالاة فلا يحدث فيه تأنيب ضمير...

١٨ - سؤال

جرمانيوس: إذن ما هو القياس الذي نحتفظ به في الزهد حتى ننجح في حياتنا سالمين معتدلين بين الحدين؟

١٩ - موسى:

بالنسبة لهذا الأمر نحن نعلم أن هناك أحاديث كثيرة لأبائنا بشأنه. من جهة التقشف فبالنسبة لبعض (الرهبان) الذين يعتمدون في حياتهم على البقول أو الخضر والفاكهة فقط، فإن القياس المعتدل هو خبزتين يزنان بالكاد رطلاً.

٢٠ - اعتراض

لقد قبلنا حديثه بسرور، وأجبناه أنه يصعب علينا أن نعتبر هذا القياس تقشفاً كما أنه ليس من الصعب الوصول إليه بالمرّة.

٢١ - موسى:

إن كنت ترغب في تذوق قوة هذه الحكمة فلتحتفظ بهذا القياس باستمرار ولا تكسره...

٢٢ - بل هذا هو الحد الطبيعي للتقشف، وهو أن يسمح كل شخص لنفسه بالطعام قدر احتياجات قوته أو حجم جسده وعمره، فنسمح بالكمية التي يحتاجها الجسد دون أن يشعر بامتلاء...

فإنه إذا لم يتحدد للإنسان قانون، فإنه تارة يضيق على معدته بقلّة الطعام وكثرة الأصوام، وأخرى يملأها بالأكل الزائد.

فالعقل الذي يتعب بسبب قلّة الطعام يخسر نشاطه في الصلاة فينهك العقل بسبب الضعف الزائد للجسد ويرغم على التراخي، ثم يعود ليتضايق بكثرة الطعام، وبالتالي لا يقدر أن ينسكب في الصلوات بانطلاق ونقاوة أمام الله، ولا ينجح في حفظ نقاوة عفته على الدوام. فإنه وإن أبدى أنه يطهر الجسد بتقشفه العنيف إلا أنه يغذي شهوات الجسد بوقود الطعام الذي يأخذه.

٢٤ - وهذا الأمر يصعب جداً تنظيمه، حتى أن أولئك الذين لم يدركوا بعد "التمييز الكامل" يفضلون امتداد صومهم إلى يومين محتفظين بطعام اليوم الأول إلى الغد، حتى إذا ما فطروا يقدر أن يتمتعوا بطعام كثير حسب طلب شهوتهم.

وأنتم تعلمون ما حدث مع صديقكم بنيامين، الذي تمسك بعناد بخصوص هذا الأمر. فإنه لم يكن يأخذ

الخبزيّين ولا كميات الأكل القليلة الخاصة به، بل كان يفضل أن يمد صومه إلى يومين حتى إذا ما فطر يملأ معدته الشرهة بضعف الكمية المخصصة. فكان يتلذذ بالأربع خبزات بشهوة. ولعلكم تتذكرون بلا شك أي نهاية كانت لذلك الرجل الذي اعتمد على اختباراتهِ الذاتية بعناد أكثر من اتكاله على تقاليد الآباء. فقد ترك الدير وعاد إلى الفلسفة الباطلة والغرور الأرضي.

ها هو بسقوطه يؤكد ضرورة التمسك بتعاليم الآباء السابق ذكرها، وبهلاكه يعطينا درسًا من جهة أنه لا يستطيع أحد أن يتسلق مرتفعات الكمال، ولا أن يبني خداع الشيطان الخطيرة ما دام يتكل على تعاليمه وخبرته الخاصة.

٢٥ - سؤال: أما نكسر قانون الطعام بسبب مجيء زائر؟

جرمانيوس: وكيف يمكننا أن نحفظ هذا القياس دون أن نخالفه؟ فقد يحدث أحيانًا بعد الساعة التاسعة^٥ حيث تنتهي فترة الصوم حضور بعض الإخوة لرؤيتنا، وعندئذ يلزمنا أن نأكل معهم فنزيد كمية طعامنا المحددة التي اعتدنا عليها وإلا لا نقدم هذا الإكرام الواجب.

٢٦ - موسى: يلزمنا أن نراعى كل الواجبات بنفس العناية، فعلينا بتأنيب داخلي نحفظ الكمية المناسبة المسموح لنا بها... وب نفس الطريقة يلزمنا أن نقدم الإكرام ونهتم بالأخ الذي يصل إلينا من أجل المحبة.

فإذا قدمت طعامًا لأخ لك أو حتى للسيد المسيح، بالضرورة يكون موجبًا للسخرية إن لم تشترك معه فيه، ممتنعًا عن الأكل. ويمكننا أن نحفظ أنفسنا دون أن نخطئ في الأمرين، فنأخذ قطعة واحدة من الخبز المسموح لنا بهما في الساعة التاسعة، ونحتفظ بالأخرى إلى المساء، محتاطين لئلا يأتي أحد. فإذا افتقدنا أحد الإخوة يمكننا أن نشترك معه بأن نأكلها وبهذا لا نكون قد زدنا عما اعتدنا عليه. ويكون حضور الأخ مبهجًا لنا وليس مصدر قلق، مظهرين له الإكرام واللفظ من غير أن نتهاون في نسكنا. وإذا لم يحضر أحد يمكننا أن نأكل "الخبزة" الثانية في المساء حسب ما يسمح به لنا قانوننا.

وبحسن التدبير هذا إذ تأكل "خبزة" واحدة في الساعة التاسعة لا تتضخم المعدة بالمساء. وهذا غالبًا ما يتبعه المدققين في التقشف، مفضلين ذلك عن تأجيل كل غذائهم إلى المساء. لأنه بالحقيقة من يأكل طعامه (كله) بالليل متأخرًا، يمنع فكره من الاستنارة ويضايقه في الصلوات المسائية.

وأيضًا فإن الساعة التاسعة مناسبة للأكل ومريحة، حيث يتقوّت فيها الراهب، فيساعده في أن تكون معدته غير مثقلة خلال السهر الليلي، بل يصير مستعدًا بالتمام للصلوات المسائية إذ يكون الأكل قد هُضم^٦...

ترجمت في عيد القديس أباهور ١٢ أبيب ١٦٧٦

٦٠/٨/١٩



ملخص المبادئ

✠ "التمييز" هو عين القلب التي تفرز الأفكار والأعمال مميزة إياها. هو عطية إلهية يلزمنا أن نثابر في طلبها

^٥ أي الساعة ٣ بعد الظهر.

^٦ وصف كاسيان بعد ذلك كيف أن الأب موسى قد طبق هذا عمليًا إذ قدم المائدة مرتين في اليوم (الساعة التاسعة والمساء)...

بلجاجة من الله "الحكمة" ذاته.

✠ التمييز يحفظ الإنسان من الضربات اليمينية كالمغالاة في السهر أو الصوم أو الزهد مما يسقط الإنسان في الكبرياء، كما يحفظه من الانحراف اليساري فلا يقبل التراخي والكسل وأفكار الشر.

✠ أولاد الله المتضعون في تمييزهم:

١- لا يعتمدون على فكرهم الذاتي بل يتمسكون بفكر الآباء الأولين وروحهم مقتدين بهم في الرب.

٢- لا يخفون شيئاً من أفكارهم وأعمالهم عن أب اعترافهم، لأن الفكر الشرير ينكسر سلطانه متى خرج إلى النور، وأيضاً يظهر خداعه ويفضحه.

٣- الشبهة ليست هي كل مؤهلات الراعي (أب الاعتراف)، إنما يلزم أن يكون مُحَنَكًا في الشركة مع الرب سالكًا بلا عيب.

✠✠✠

مناظرات يوحنا كاسيان مع مشاهير آباء البرية

٣

مراحل الزهد الثلاث وعمل النعمة في جهادنا^١

للأنبا بفنوتيوس

١ - سيرة الأنبا بفنوتيوس

في وسط تلك الجوقة من القديسين الذين يتلألأون في ليل هذا العالم كنجوم لامعة، رأينا الطوباوي بفنوتيوس مثل كوكب عظيم يضيء بنور المعرفة. يقطن هذا الشيخ في برية الإسقيط في قلالية سكن فيها منذ صباه، تبعد خمسة أميال عن الكنيسة، ولم يتركها. وبالرغم من شيخوخته إلا أنه لم يكف عن الذهاب إلى الكنيسة يومي السبت والأحد، بل ويعود إلى قلايته حاملاً علي كتفيه إناء مملوء ماءً يستخدمه طول الأسبوع. ولم يكن يثقل على الصغار بإحضار الماء له بالرغم من بلوغه التسعين من عمره.

سلك هذا الأب في الرهبة منذ صباه المبكر بغيرة متقدة، واقتنى الاتضاع في فترة قصيرة، وصارت له معرفة بكل الفضائل الحميدة. وباتضاعه وطاعته أمارت كل شهواته قامعاً أخطائه، متمتعاً بالفضائل التي يتطلبها النظام الرهباني وتعاليم الآباء الأولين، ملتهداً بالغيرة علي مداومة النمو.

كان أيضاً تواقاً نحو الانسحاب في داخل البرية منفرداً من غير أي صحبة بشرية تقلقه وتعوق التصاقه بالله... وبغيرته المتزايدة فاق النساك في الفضيلة، كما برز في شوقه نحو حياة التأمل الإلهي المستمر، متجنباً رؤية الاخوة. ولقد كان يخفي عن الاخوة فترات طويلة في مناطق قاحلة شديدة الوحشية والقسوة، حتى أن النساك أنفسهم كانوا يقتدون به من وقت إلى آخر بكل مشقة... وكان يسود الاعتقاد بأن هذا الأب يتمتع بالوجود في مجمع ملائكي يبتهج معهم يومياً، لهذا لقبه البعض Bufflo.

^١ موجهة للذين يظنون أن حياة النسك (الترك) تعتمد على جهادهم الذاتي ونشاطهم وغيرتهم متناسين عمل نعمة الله وعنايته، لهذا يركز الأب في حديثه على النعمة من غير أن يتجاهل ضرورة الجهاد والمثابرة.

٢ - حديثنا معه

وإذ كنا مشتاقين إلى الاستماع إلى تعاليمه جننا باهتمام إلى قلايته مساءً. وبعد فترة وجيزة من السكون بدأ الشيخ يمدح اهتمامنا لأننا بسبب محبتنا لله تركنا منازلنا وقمنا بزيارة الكثير من المواضيع، محاولين أن نحتمل بكل طاقتنا متاعب البرية، مقتدين بحياتهم القاسية التي يندر أن يقبلها حتى من بين أولئك الذين يولدون وينشأون في حالة من العوز والاحتياج.

لقد أحببنا المجيء بقصد الإنصات إلى التعاليم والإرشادات لتتعرف على مبادئ رجل عظيم كهذا، وندرك الكمال الذي سمعناه عنه من شهود قائمين معه. فنحن لم نأت لنسمع مديحاً لا حق لنا فيه، أو لكي نزهو بغرور عقلي... من أجل هذا توصلنا إليه أن يقدم لنا تعليمًا نتعلم به الاتضاع والتوبة لا أن نسمع ثناء ينفخنا.

٣ - أنواع التكريس

قال الطوباوي بفنوتيوس: للتكريس ثلاثة أنواع، كما نعرف أن هناك ثلاثة أنواع للزهد (أو الترك) الذي هو لازم للراهب أياً كان تكريسه.

يلزمنا أولاً: أن نختبر باجتهاد أن السبب في قولنا بوجود ثلاثة أنواع من التكريس، هو أنه إذ نتأكد أننا قد دعينا لخدمة الله نتنبه ونحن في الدرجة الأولى من التكريس إن كانت حياتنا تسير مع العلو الشاهق الذي دعينا إليه، لأنه باطلاً أن نبدأ بدءاً حسناً ما لن نتطلع تجاه النهاية التي نُرسل إليها.

ثانياً: علي أي الأحوال من المفيد لنا أن نتعرف على الجوانب المثلثة للزهد. لأنه لا يمكننا بلوغ الكمال ما لم نتعرف عليها، أو إذا عرفناها ولم نعمل بها.

٤ - أنواع الدعوة

الفارق الرئيسي بين أنواع الدعوة الثلاثة هو أن النوع الأول مصدره الله، والثاني عن طريق إنسان، والثالث بطريق الإلزام.

الدعوة التي من الله تأتي خلال الوحي الذي يملك علي قلوبنا... إذ تتحرك فينا الرغبة في الحياة الأبدية والخلاص فتأمرنا أن نتبع الله ونلتصق بوصاياه بقلب منسحق في حياة مقدمة لله. ففي الكتاب المقدس نجد إبراهيم يدعوه صوت الله أن يترك أرضه وعشيرته وبيت أبيه (تك ١٢: ١). وسمعنا أيضاً عن الطوباوي أنطونيوس أنه دُعي بنفس الطريقة إذ سمع صوت الله وحده... لأنه عندما دخل إلى الكنيسة سمع الإنجيل فيه يقول الرب: "إن كان أحد يأتي إلي ولا يبغض أباه وأمه وأمرأته وأولاده وأخوته وأخواته حتى نفسه أيضاً فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً" (لو ١٤: ٢٦)، "إن أردت أن تكون كاملاً فاهرب وبع أملكك وأعطِ الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني" (مت ١٩: ٢١). لقد شعر في انسحاق قلبي أن هذا الحديث الإلهي موجه إليه هو شخصياً، ففي الحال ترك كل شيء وتبع السيد المسيح من غير أن ينتظر نصيحة أو تعليم من إنسان.

والنوع الثاني من التكريس وهو الذي يحدث عن طريق إنسان، أي عندما نسير مقتادين بآثار بعض القديسين ونصائحهم فتلتهب فينا الرغبة في الخلاص. وإن كنا نثار بنصائح القديسين الطيبة ونقتدي بهم، إلا أنه يجب ألا ننسى أن نعمة الله هي التي تدعونا وتعمل فينا لنكرس نفوسنا ونقدمها للدعوة...

أما النوع الثالث من التكريس فهو الذي يأتي بطريق الإلزام. فبينما نشغل بغنى هذه الحياة وأطايبيها فجأة تلحق بنا تجربة فتهددنا بخسارة أو موت أحد أعزائنا... وهذا يدفع بنا إلى الاقتراب نحو الله الذي استهنا

بالسير معه خلال أيام ترفنا...

٥ - أهمية التطلع إلى الدرجة العالية من الزهد

وبالرغم مما يبدو أن النوعين الأولين للدعوى متأسسين علي مبادئ أعظم، إلا أننا نجد أن النوع الثالث (الذي مصدره الإلزام) ولو أنه أقل منهما لكن عن طريقه صار البعض كاملين ومجتهدين في الروح... بينما نجد البعض ممن هم من النوع الأعلى أصيبوا بالفقر وانتهت حياتهم بصورة محزنة...

مثال: فالأب موسى الذي كان يقطن في بركة Calamus اضطر إلى الهرب إلى الدير خوفاً من الموت (الأبدي) بسبب جرائمه مقدماً توبة إجبارية، لكنه باختياره تسلى أعلى مرتفعات الكمال.

ومن الجانب الآخر هناك كثيرون لا يستطيعون أن أذكر أسماءهم دخلوا خدمة الله بأفضل بداية، لكن تسلى الكسل والقسوة إلى قلوبهم، وسقطوا في جمود خطير، وانحدروا إلى عمق هاوية الموت. ويظهر ذلك بوضوح في دعوة الرسل، لأنه أي نفع ناله يهوذا الذي احتضن بمحض اختياره نعمة الرسولية العظمى، بنفس الطريقة التي سار فيها بطرس وغيره من الرسل المدعويين، لكنه سمح لهذه البداية الرائعة لدعوته أن تُختم بنهاية مهلكة بسبب الجشع، وصار مجرمًا قاسيًا حتى اندفع نحو خيانة الرب.

وما الذي عاق بولس الذي صار أعمى فجأة، والذي كما لو كان قد سُحب بغير إرادته إلى الخلاص، إذ تبع الله بغيره روحية كاملة؟! وهكذا ابتدأ مجبرًا وكمل تكريسه بحرية اختياره، بالغًا إلى نهاية مدهشة، متمتعًا بمجد أعمال مجيدة.

فالأمر إذن يتوقف على النهاية، فقد يبدأ شخص بتقديم توبة فائقة، لكنه يفشل خلال إهماله. وآخر قد يسلك طريق الرهينة جبرًا لكنه يبلغ الكمال خلال جهاده ومخافة الله.

٦ - دعوة إبراهيم وأنواع الزهد

والآن لنتحدث عن الزهد الذي أعلنه الكتاب المقدس والتقليد في أنواع ثلاثة. ليتأمل كل إنسان بدقة لكي يصير كاملاً.

النوع الأول هو الذي يختص بالجسد، فيزهد الإنسان الثروة والممتلكات التي في هذا العالم.

والنوع الثاني فيه ننذب أساليب السلوك والروايل القديمة الخاصة بالروح والجسد.

والنوع الثالث فيه تتحرر الروح من كل الحاضرات والمرئيات متأملة في الأبديات، فينشغل القلب بغير المنظورات.

لقد سمعنا أن الله طلب من إبراهيم أن ينفذ هذه الأنواع الثلاثة (من الزهد) دفعة واحدة إذ قال له: "أذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك" (تك ١٢: ١). قال له أولاً: "أذهب من أرضك"، أي من ممتلكات هذا العالم وغناه الأرضي. ثانياً: "من عشيرتك"، أي من حياتك السابقة بما فيها من عادات وخطايا تعلقت بك منذ الميلاد الأول وارتبطت بك كما لو كانت رباطة صداقة وقربى. ثالثاً: "من بيت أبيك"، أي من كل ما في العالم وتراه عينيك، فعن الأبوين^٢ ينبغي ترك أحدهما والبحث عن الآخر. إذ يقول داود في شخص الرب: "اسمعي يا بنت وانظري وأميلي أذنك وانسي شعبك وبيت أبيك" (مز ٤٥: ١٠)، فالذي يقول "اسمعي يا بنت"

^٢ يقصد الأب الأرضي والأب السماوي.

بالتأكيد هو أب... ذاك الذي يطلب منها أن تترك شعبها (عاداتها القديمة) وبيت أبيها، وهذا يحدث بالموت مع المسيح عن هذا العالم. وكما يقول الرسول: "ونحن غير ناظرين إلى الأشياء التي تُرى بل إلى التي لا تُرى، لأن التي تُرى وقتية وأما التي لا تُرى فأبدية" (٢كو ٤: ١٨). محولين عيوننا عن هذا المسكن الزمني المنظور، رافعين عيون قلوبنا نحو الأمور الأبدية النافعة لنا. وهذا يُمكننا النجاح فيه عندما لا نضاد الله ونحن في هذه الحياة، معلنين بتصرفاتنا وأعمالنا عن طريق الحق الذي يقول عنه الرسول الطوباوي: "فإن سيرتنا نحن هي في السموات" (في ٣: ٢٠).

لقد وُضعت الأسفار الثلاثة (الأمثال والجامعة ونشيد الأنشاد) بطريقة متناسبة مع أنواع الزهد الثلاثة...

سفر الأمثال يتفق مع النوع الأول من الزهد، حيث فيه نضغط على شهوات الأمور الجسدية والخطايا الأرضية.

وسفر الجامعة يتناسب مع النوع الثاني إذ يعلن أن كل شيء تحت الشمس باطل.

وسفر نشيد الأنشيد يناسب النوع الثالث حيث تسمو الروح عن كل المنظورات ملتصقة بكلمة الله عن طريق التأمل في السماويات.

٧- خطورة التوقف عند الدرجة الأولى

إذا نفذنا النوع الأول من الزهد بكل إخلاص وأمانة، فإننا لا ننتفع كثيرًا ما لم نكمله بالنوع الثاني بنفس الغيرة والاشتياق. فإذا ما نجحنا في هذا يمكننا أن نبلغ النوع الثالث حيث نخرج من "بيت أبينا" القديم، إذ كُنَّا بالطبيعة أبناء الغضب كالباقين أيضًا" (أف ٢: ٣)، مثبتين أنظارنا تجاه العلويات. ويُحدث الكتاب المقدس أورشليم - التي احتقرت الله الأب الحقيقي - عن الأب القديم قائلًا "أبوك أموري، وأمك حثية" (حز ١٦: ٢). وفي الإنجيل جاء: "أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا" (يو ٨: ٢٤).

فإذا نترك هذا الأب عابرين من المنظورات إلى غير المنظورات نستطيع أن نقول مع الرسل: "لأننا نعلم أنه إن نُقِض بيت خيمتنا الأرضي فلنا في السموات بناء من الله بيت غير مصنوع بيدٍ أبدية" ٢ (كو ٥: ١)، ونقول أيضًا: "فإن سيرتنا نحن هي في السموات التي منها أيضًا ننتظر مخلصًا هو الرب يسوع المسيح الذي سيغير شكل جسد تواضعنا ليكون علي صورة جسد مجده" (في ٣: ٢٠)، وننطق بما يقوله داود الطوباوي: "غريب أنا في الأرض" مز ١١٩: ١٩...

يلزمنا أن نكون مثل أولئك الذين يُحدث الرب أباه عنهم قائلًا في الإنجيل: "ليسوا من العالم كما أنا لست من العالم" (يو ١٧: ١٦)، وأيضًا محدثًا التلاميذ أنفسهم قائلًا: "لو كنتم من العالم لكان العالم يحب خاصته. ولكن لأنكم لستم من العالم بل أنا اخترتكم من العالم لذلك يبغضكم العالم" (يو ١٥: ١٩).

إذن يمكننا النجاح في بلوغ الكمال عن طريق النوع الثالث من الزهد حيث لا تتلطف الروح بوصفات أتعال الجسد، إنما تنفضها عنها بكل عناية، متحررة من كل رغبة أو أمر أرضي، فترتفع إلى غير المنظورات عن طريق التأمل المستمر في الأمور الإلهية.

وفي بحثها عن العلويات والروحيات لا تعود تشعر بانجذاب إلى ذلك الجسد الضعيف وهيئته، إنما تُمسك في "الذهن"، حتى أنه ليس فقط لا يسمع الإنسان بأذنيه الخارجيتين، أو لا ينشغل بالأمور الحاضرة، إنما

لا يرى حتى ما في يديه ولو كانت أمور ضخمة واضحة.

لا يقدر أحد أن يدرك قوة ما أقوله ما لم يختبر ويتعلم هذا بالتجربة. فلا تتطلع عيني روحه إلى الحاضرات، إنما ينظر إليها كأمر سريعة الزوال، بل ويراهم أنها فعلاً قد انتهت وباطلة وتشبه البخار المعتم. وبهذا يكون كأخنوخ الذي "سارمع الله" (تك ٥: ٢٤)، ولم يوجد في الحياة البشرية وعاداتها، أي لم يعد بين أباطيل هذه الحياة.

هذا ما حدث بالفعل بصورة مادية لأخنوخ كما يعلمنا سفر التكوين "وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه" (تك ٥: ٢٤). ويقول الرسول أيضاً "بالإيمان نُقِلَ أخنوخ لكي لا يرى الموت" ذاك الموت الذي تحدث عنه السيد المسيح في الإنجيل قائلاً: "وكلُّ مَنْ كان حياً وآمن بي فلن يموت إلى الأبد" (يو ١١: ٢٦).

فإن كنا نتوق إلى بلوغ الكمال الحقيقي، يلزمنا أن نتطلع إلى الأبديات. فإن كنا حسب الخارج لنا جسد، (لهذا ننشغل بأبائنا ومنازلنا وجاهنا ومباهج هذه الحياة)، لنترك بقلوبنا من الداخل هذه الأمور ولا نعود نشاق إلى ما قد تركناه، فلا نصير كأولئك الذين قادمهم موسى. لأن هؤلاء إن لم يرتدوا بالجسد (حرفياً)، غير أن قلوبهم قد ارتدت إلى مصر، وذلك بتركهم الله الذي قادمهم بعلامات قوية، وعودتهم إلى عبادة تماثيل مصر التي حسبوا أنهم قد احتقروها. ويقول الكتاب: "ورجعوا بقلوبهم إلى مصر قائلين لهرون اعمل لنا آلهة تتقدم أمامنا" (أع ٧: ٣٩). وهكذا نسقط في نفس اللعنة التي سقطوا فيها في البرية بعدما أكلوا المنّ النازل من السماء، مشتهين طعام الخطية النجس، أو بالأحرى راغبين في الانحطاط متذمرين معاً في نفس الطريق (عد ١٨، ١١: ٥، خر ١٦: ٣)...

ويحدث معنا نفس الأمر في سلوكنا وحياتنا، فالبعض بعدما يترك هذا العالم يعود مرة أخرى إلى شهواته الأولى، متحولاً إلى ميوله السابقة الكائنة في قلبه، صانعاً ما صنعه أولئك... وإنني أخشى أن يتزايد عددهم ليلعب ذلك العدد المتخلف وراء موسى^٣ إذ كانوا ثلاثة آلاف وستمئة رجل مجند قد خرجوا من مصر ولم يدخل منهم إلى أرض الموعد سوى اثنين فقط.

ويلزمنا أن نكون حذرين في ضرب الأمثلة الخاصة بالصالحين لأنهم قليلون ونادرون، إذ يتحدث الإنجيل عن عددهم قائلاً: "لأن كثيرين يُدْعَوْنَ وقليلين يُنْتَبَخُونَ" مت ٢٢: ١٤.

فالترك المادي (الجسدي) ومجرد تغيير المكان... (أي الخروج من العالم إلى الدير) ليس له أي فائدة ما لم ننجح في أن يكون الترك من القلب، الأمر الأسمى والأقيم.

فعن الترك الجسدي المجرد - الذي تحدثنا عنه - يقول الرسول: "وإن أطعمت كلَّ أموالِي، وإن سلَّمت جسدي حتى احترق، ولكن ليس لي محبة فلا أنتفع شيئاً" (١كو ١٣: ٣). فيتنبأ الرسول الطوباوي بأن بعضاً من الذين يقدمون كل أموالهم لأجل إطعام الفقراء لا يستطيعون بلوغ الكمال الإنجيلي ومرتفعات المحبة الشاهقة. لأنه بينما يحكم الكبرياء وعدم الصبر على قلوبهم لا يحرصون على نقاوة أنفسهم من جهة خطاياهم السابقة وعاداتهم غير المضبوطة. وبذلك لا يقدر أن يحصلوا على محبة الله التي لا تسقط. هؤلاء بفشلهم في بلوغ المرحلة الثانية من الترك لا يقدر أن يصلوا إلى المرحلة الثالثة التي هي بالتأكيد أكثر علوًا.

^٣ يظهر دائماً في كتابات الكنيسة الأولى كيف أن ما جاء في العهد القديم بصورة مادية إنما هو رمز لما تم بصورة روحية بعد مجيء المسيح.

لتأخذ في اعتبارك بحرص عظيم أنه لم يقل باطلاً: "إن أطعمت كل أموالي"، لئلا يظن أحد أنه يتحدث عن لا ينفذ وصايا الإنجيل محتفظاً لنفسه بنصيب كأولئك الذين يعرجون بين الفرقتين. لذلك قال: "وإن أطعمت كل أموالي"، بمعنى أن تركه للعالم تركاً كاملاً. ويضيف إلي هذا الزهد أمراً في منتهى الأهمية وهو "وإن سلّمت جسدي حتى احترق ولكن ليس لي محبة فلا أنتفع شيئاً". بمعنى إذا أطعمت كل أموالي للفقراء طبقاً لوصايا الإنجيل الذي يخبرنا: "إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء" (مت ١٩: ٢١). أي تترك كل شيء من غير أن تترك لنفسك شيئاً، وهذا التوزيع للأموال يضاف إليه الاستشهاد، باحترق جسدي واعطائه للمسيح. فإنه إن كنت حاسداً أو متكبراً، أو منجذباً بخطايا أخرى، أو أنانياً، أو منغمساً في الأفكار الشريرة، أو غير مستعد ولا صابر علي ما يحلّ بي، فإن هذا الترك أو الاحتراق الخاص بالإنسان الخارجي لا ينفع شيئاً، لأن الإنسان الداخلي لا يزال مشغولاً بالخطايا السابقة.

لأنه خلال غيرتك التي في الأيام الأولى للتوبة اهتمت بترك المادة (أي الخروج إلى الدير والعطاء المادي)... هذه الغيرة ليست خيرة ولا شريرة في ذاتها، وهذا أمر ليس بذى أهمية (ما لم يتبعه ترك داخلي في القلب). أي ما لم أهتم بطرد القوة الشريرة التي للقلب الرديء بنفس الاهتمام (الخاص بالترك المادي)، وأهتم أن أنال محبة الله، وهي أن أصبر وأتفرق، ولا أحسد، ولا أتفاخر، ولا أنتفخ، ولا أطلب ما لنفسي، ولا أظن السوء، وأحتمل كل شيء وأصبر علي كل شيء... (١ كو ١٣: ٤-٧)، وأخيراً فإن المحبة لا تترك من يتبعها لئلا يسقط في خداعات الخطية.

٨ - ضرورة ممارسة الدرجة الثانية من الزهد

يجب علينا أن نحرص تمام الحرص أن نطرد كل تلك الممتلكات التي للخطية في إنساننا الداخلي ونقتلعها، تلك التي كانت مرتبطة بحياتنا المادية وملصقة علي الدوام بالجسد والروح. فإن لم ننبذها ونحن بعد في هذا الجسد، فإنها لا تكف عن الالتصاق بنا حتى الموت.

فكما أن الفضائل الجميلة والمحبة التي هي مصدر هذه الفضائل يمكننا أن نقتنيها في هذه الحياة، فإنها تبقى مع من اقتناها بعد هذه الحياة وتجعله محباً وممجداً، هكذا أيضاً أخطاؤنا تنتقل إلى حياتنا فتظلم عقلاً وتلطخه بصنوف القاذورات.

فجمال الروح أو قبحها هو نتيجة فضائلها أو رذائلها. فباللون الذي تصطبغ به تصوير مجدة حتى تسمع من النبي: "فيشتهي الملك حسنك" (مز ٤٥: ١١)، أو يجعلها سوداء وقيحة وقذرة، وتتأكد من نتانة عارها قائلة: "قد أنتنت قاحت حُبر ضربي من جهة حماقتي" (مز ٣٨: ٥). ويحدثها الله ذاته قائلاً: "فلماذا لم تُعصب بنت شعبي؟" (إر ٢٢: ٨).

وبهذا تبقى معنا ممتلكاتنا في روحنا علي الدوام، هذه التي لا يستطيع أن يغتصبها منا أي ملك أو عدو.

هذه هي الممتلكات التي لا يستطيع حتى الموت أن ينزعها عن أرواحنا...

٩ - أنواع الممتلكات والغنى

يذكر الكتاب المقدس ثلاثة أنواع من الغنى أو الممتلكات ما هو صالح، وما هو رديء، وما هو ليس بالصالح ولا الرديء.

فالممتلكات الرديئة تلك التي قيل عنها: "الأشبال احتاجت وجاعت" (مز ١٠: ٣٤)، "ولكن ويل لكم أيها الأغنياء، لأنكم قد نلتهم عزاءكم" (لو ٦: ٢٤). انتزاع هذا الغنى فيه سمو في الكمال، إذ يقول الرب عن الفقراء (الذين ليس لهم هذا الغنى): "طوبى للمساكين بالروح، لأن لهم ملكوت السماوات" (مت ٥: ٣)، وجاء في المزمور: "هذا المسكين صرخ والرب استمعه" (مز ٦: ٣٤)، وأيضًا "الفقير والبائس ليسبحا اسمك" (مز ٢١: ٧٤).

والغنى (الممتلكات) الصالح هو ما يمتلكه مقتني الفضائل... صانع البر الذي يمدحه النبي داود قائلاً: "تسله يكون قويًا في الأرض. جيل المستقيمين يُبارك. رعد وغنى في بيته وبره قائم إلى الأبد" (مز ١١٢: ٢، ٣). وأيضًا "فدية نفس رجل غناه" (أم ٨: ١٣). ويتحدث سفر الرؤيا إلى المفتقر والمُعَدَم من هذا الغنى قائلاً: "أنا مزعم أن أتقيك من فمي. لأنك تقول إنني أنا غني وقد استغنيت ولا حاجة لي إلى شيء ولست تعلم أنك أنت الشقي والبئس وفقير وأعمى وعريان. أشير عليك أن تشتري مني ذهبًا مصفًى بالنار لكي تستغني. وثيابًا بيضاء لكي تلبس فلا يظهر خزي عريتك" (رؤ ١٦: ٣-١٨).

هناك أيضًا الغنى الذي ليس بصالح ولا رديء، فيمكن أن يكون صالحًا أو رديئًا حسب رغبة مُستخدمه وشخصيته. وفي ذلك يقول الرسول الطوباوي: "أوصي الأغنياء في الدهر الحاضر أن لا يستكبروا ولا يلقوا رجاءهم علي غير يقينية الغنى بل على الله الحي الذي يمنحنا كل شيء بغنى للتمتع. وأن يصنعوا صلاحًا، وأن يكونوا أغنياء في أعمالٍ صالحة وأن يكونوا أسخياء في العطاء كرماء في التوزيع. مدخرين لأنفسهم أساسًا حسنًا للمستقبل لكي يمسكوا بالحياة الأبدية" (١ تي ٦: ١٧-١٩). هذا الغنى احتفظ به الغني المذكور في الإنجيل ولم يقبل أن يُعطي للفقراء، بينما كان لعازر المسكين ملقياً عند بابه يرغب أن يقات بالفتات الساقط من مائدته، لذلك عوقب بالنيران غير المحتملة ولهب جهنم الأبدية.

١٠ - حاجتنا لله كمعين في الترك

في ترك الأشياء المنظورة التي في هذا العالم لا نترك ما هو ليس لنا بالرغم من أننا استحوذنا عليه بمجهودنا أو ورثناه عن أجدادنا. وكما أقول أنه ليس هناك شيء ملك لنا فيما عدا ما يملكه قلبنا وما تلتصق به روحنا، الأمر الذي لا يقدر أحد أن ينزعه عنا.

لقد نطق السيد المسيح بعبارات اللوم بالنسبة للأغنياء، الذين يتمسكون بالغنى المنظور، كأنه ملك لهم، رافضين أن يساهموا بنصيب منه للمحتاجين، فيقول: "إن لم تكونوا أمناء في ما هو للغير فمَنْ يعطيكم ما هو لكم؟" (لو ١٦: ١٢). واضح إذن أنه ليس فقط خبرتنا اليومية، تعلمنا بأن هذا الغنى ليس ملكًا لنا، بل هذا ما ينطق به إلها أيضًا...

ويقول بطرس للرب عن هذا الغنى المنظور: "ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك. فماذا يكون لنا؟" (مت ١٩: ٢٧)، مع أنهم لم يتركوا شيئًا سوى الشباك البالية. لذلك فإن عبارة: "تركنا كل شيء" يفهم منها ترك الخطايا التي هي بالحقيقة أهم وأخطر. فإن ترك التلاميذ لممتلكاتهم الأرضية المنظورة تركًا تامًا، ليس سببًا كافيًا لينعموا بالمحبة الرسولية، ويتسلقوا بشوق واجتهاد المرحلة الثالثة من الترك، التي هي شاهقة وتخص قليلين.

كم بالأحرى يلزم أن يفكر في أنفسهم أولئك الذين لم يستطيعوا أن يسيروا في الخطوة الأولى السهلة بطريقة كاملة، محتفظين بضعف إيمانهم بجانب غناهم السابق الدنيء، ظانين في أنفسهم أنهم يفتخرون لمجرد تسميتهم رهبانًا؟!

فالنوع الأول من الترك، هو ترك ما هو ليس لنا (أيضًا الممتلكات الأرضية)، وهذا لا يكفي لمنحنا الكمال ما لم نسمو إلى النوع الثاني الذي فيه ترك الأمور التي تخصنا (أيضًا العادات والردائل الملتصقة بالنفس). وإذ ننبد كل أخطائنا نصعد إلى مرتفعات النوع الثالث أيضًا حيث نسمو لا علي مجرد الأشياء التي في هذا العالم أو التي تخص البشر، بل نسمو علي العالم كله الذي هو حولنا والذي يبدو مجيدًا، ناظرين إليه بقلبنا وروحنا أنه باطل وسريع الزوال، فننتطلع إليه كقول الرسول: "ونحن غير ناظرين إلى الأشياء التي تُرى بل إلى التي لا تُرى. لأن التي تُرى وقتية وأما التي لا تُرى فأبدية" (٢ كو ٤: ١٨).

يلزمنا أن ننصت إلى النصيحة العظمى التي قُدِّمت لإبراهيم: "اذهب إلى الأرض التي أُرِيكَ" (تك ١٢: ١). وهذه تعلن بأنه ما لم ينفذ الإنسان الأنواع الثلاثة من الزهد بكل شوق لا يقدر أن يصل إلى هذه المرحلة الرابعة التي توهب كإكليل وحق من أجل ما نزهده بالكامل. فيصير الإنسان مستحقًا أن يدخل أرض الموعد (السماويات) التي من أجلها يحتمل شوك الخطية وحسكها. فعندما تزول الآلام (الخطية) بواسطة نقاوة القلب حتى وهو في الجسد حينئذ يريح أرض الموعد، لا من أجل أعماله الفاضلة ومجهوداته البشرية، بل كوعد الله نفسه أن يرينا إياها قائلاً لنا: "اذهب إلى الأرض التي أُرِيكَ". مظهرًا بهذا أن بداية ثمار الخلاص تأتي من وعد الله القائل: "اذهب من أرضك" وأيضًا هي عطية منه حيث يتم الكمال والنقاوة ويتحقق القول: "اذهب إلى الأرض التي أُرِيكَ" (تك ١٢: ١). فهي أرض لا تقدر أن تعرفها أو تكتشفها بمجهودك الذاتي بل الأرض التي أُرِيكَ إياها" أي التي تجهلها ولم ترها.

بهذا يتضح أننا نسرع في طريق الخلاص، خلال تفاعلنا بوحى الله، حتى أنه بواسطة إرشاد توجيهاته وعمله فينا ننال كمال البركة العظمى.

١١ - سؤال: عن حرية الإرادة

جرمانبوس: إذن أين هي حرية الإرادة؟ وكيف يمكن أن نكون مستحقين للكراسة كثمرة للجهاد ما دام الله هو الذي يبتدئ وهو الذي يختم كل شيء فينا بخصوص خلاصنا؟

١٢ - بفنوتيوس: ...نحن نعرف أن الله يخلق لنا فرصًا للخلاص بشتى الطرق، لكن يمكننا أن نستخدم هذه الفرص باجتهاد أعظم أو أقل. فالله يقدم فرصة كقوله: "اذهب من أرضك"، لكن الطاعة من اختصاص إبراهيم الذي أطاع وذهب منها. ففي القول: "اذهب إلى الأرض" تحمل معنى العمل، عمل ذاك الذي أطاع، وفي القول: "التي أُرِيكَ" تحمل نعمة الله الذي أوصاه أو وعده.

من المفيد لنا أن نتأكد أنه بالرغم من أننا نجاهد في كل الفضائل جهادًا غير باطل، لكننا لا نستطيع بلوغ الكمال بجهدنا وغيبتنا، فلا يكفي نشاط الإنسان وجهاده المجرد للبلوغ إلى عطية النعمة الغنية ما لم يصن جهاده بالتعاون مع الله، وتوجيهات الله لقلبه نحو الحق.

لهذا ينبغي علينا أن نصلي في كل حين قائلين مع داود: "تَمَسَّكْتُ بِخَطَايَايَ بِأَثَارِكَ فَمَا زَلْتُ قَدَمَايَ" (مز ٥: ١٧)، "وأقام علي صخرة رجلي". ثَبَّتْ خَطَايَايَ" (مز ٢: ٤٠). الله هو المدبر لقلوبنا غير المنظورة، والذي يقدر أن يوجه رغباتنا نحو الفضيلة، لأن لديها الاستعداد للانحراف نحو الرذيلة، إما بسبب نقص معرفتها للخير أو للذات بالآلم (الشهوة). ويظهر ذلك بوضوح في قول النبي: "دَحْرُتَنِي دَحْرًا لِأَسْقُطَ"، معلنا ضعف إرادتنا الحرة. ثم يقول: "وأما الرب فعضدني" (مز ١١٨: ١٣)، معلنا عون الله لإرادتنا.

هكذا نحن لا نهلك إذ لضعف حرية إرادتنا، لأن الله يعضدنا ويعيننا باسطاً يديه لنا. فبالقول: "إذا قلت قد زلّت قدمي" يقصد زلّت إرادتي، وبالقول: "فرحمتك يا رب تعضدني" (مز ١٨:٩٤) يظهر عون الله لضعفنا، معترفاً أنه ليس بمجهودنا الذاتي بل برحمة الله لنا لا نزل أقدام إيماننا.

كذلك "عند كثرة همومي في داخلي" تلك الهموم التي تتبع بالتأكيد من إرادتي الحرة، "تعزياتك تلذ نفسي" (مز ١٩:٩٤)، بدخول التعزيات في قلبي عن طريق الوحي، معلنة صورة البركات العتيدة التي أعدها الله للذين يعملون في اسمه، هذه التعزيات ليس فقط تنزع الهموم من القلب بل، وتنعم عليه بالابتهاج العظيم.

وأيضاً "لولا أن الرب معيني لسكنت نفسي سريعاً أرض السكوت" (مز ١٧:٩٤). هنا يعلن أنه بسبب ضعف إرادتنا الحرة نسكن في الجحيم (أرض السكوت) لو لم ينقذنا عون الله وحمانيته...

هذا أيضاً يقال بخصوص النقاوة الكاملة، فإنه لا يقدر أحد بذاته أن يطلب البر، ما لم تمد الرحمة الإلهية يدها، وتعيّنه عند تعثره وسقوطه في كل لحظة، وإلا سقط وهلك وذلك عندما يزلّ بسبب ضعف إرادته الحرة.

١٣ - الله هو المعين في حياة الفضيلة

بالحق إن القديسين لا يقولون قط بأنهم قد بلغوا ذلك الطريق، الذي يسلكونه بتقدم وكمال في الفضيلة، بجهادهم الذاتي، إنما بفضل الله قائلين: "دربني في حقك" (مز ٥:٢٥).

١٤ - الله هو المعين في معرفة الناموس

حتى في السعي للوصول إلى معرفة الناموس ذاته لا يتأتى من مجرد النشاط في القراءة بل بإرشاد الله لنا واستنارتنا به، إذ يقول المرتل: "طرقك يا رب عرّفتني. سُبُّك علمني" (مز ٤:٢٥). و"اكشف عن عيني فأرى عجائب من شريعتك" (مز ١٨:١١٩). و"علمني أن أعمل رضاك لأنك أنت إلهي" (مز ١٠:١٤٣). وأيضاً "المعلم الإنسان معرفة" (مز ١٠:٩٤).

١٥ - الله هو المعين في فهم الناموس

وأكثر من هذا يسأل داود الله طالباً الفهم حتى يدرك وصايا الله، بالرغم من معرفته معرفة تامة أنها مكتوبة في كتاب الشريعة، فيقول: "عبدك أنا. فهمني فأعرف شهادتك" (مز ١٢٥:١١٩).

بالتأكيد كان لدى داود الفهم الموهوب له بالطبيعة، كما كان لديه إلمام تام بمعرفة وصايا الله المحفوظة في كتاب الشريعة، ومع هذا نجده يظل مصلحاً إلى الله لكي يعلمه الشريعة بإتقان... فما حصل عليه من فهم حسب الطبيعة لا يكفي، ما لم ينر الله علي فهمه يومياً، لكي يفهم الشريعة روحياً، ويعرف وصاياه بوضوح.

كذلك أعلن الإتياء المختار هذا الأمر "لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا من أجل المسرة" (في ١٣:٢). أي وضح أكثر من هذا أن مسرتنا وكمال عملنا يتم فينا بالكمال عن طريق الله؟! وأيضاً "لأنه قد وهب لكم لأجل المسيح لا أن تؤمنوا به فقط بل أيضاً أن تتألموا لأجله"، وهنا يعلن بأن توبتنا وإيماننا واحتمالنا للآلام هذا كله عطية من الله.

يعلم داود أيضاً بذلك فيصلي مثله لكي يوهب له هذا من قبل رحمة الله، قائلاً: "أَيَّد يَا الله هذا الذي فعلته لنا" (مز ٢٨:٦٨)، مظهرًا أنه لا يكفي فقط أن يوهب لنا بداية الخلاص كهبة ونعمة من قبل الله، بل ويلزم أن يكمل ويتم بنفس تحننه وعونه المستمر.

لأن ليس بإرادتنا الحرة، إنما "الرب يطلق الأسرى"،
 ليس بقوتنا، لكن "الرب يُقَوِّمُ الْمُنْحَنِينَ"،
 ليس بالنشاط في القراءة، بل "الرب يفتح أعين العمى"،
 ليس نحن الذين نعتني بل "الرب يحفظ الغرباء"،
 ليس نحن الذين نُعْضِدُ، إنما الله "يُعْضِدُ الْيَتِيمَ وَالْأَرْمَلَةَ" (مز ١٤٦: ٧-٩).

ما أقوله هذا لا يعني أننا نستهيئ بغيرتنا وجهودنا ونشاطنا كأنها غير ضرورية، أو نستخدم الحماسة، بل ينبغي علينا أن نعرف أننا لا نستطيع أن نجاهد بدون معونة الله، ولا يصير لجهادنا أي نفع للحصول على عطية النقاوة العظمى، ما لم توهب لنا بواسطة المعونة والرحمة الإلهية، لأن "الفرس مُعَدَّ لِيَوْمِ الْحَرْبِ. أَمَّا النُّصْرَةُ فَمِنَ الرَّبِّ" (أم ٣١: ٢١)، "لأنه ليس بالقوة يغلبُ إنسان" (١ صم ٩: ٢).

يلزمنا أن نَسَبِّحَ مع الطوباوي داود قائلين: "قوتي وترنمي" ليس بإرادتي الحرة ذاتها. ولكن "الرب وقد صار لي خلاصاً".

لم يكن معلم الأمم جاهلاً بهذا عندما أعلن أنه قد صار كُفَّاء ليكون خادماً للعهد الجديد، ليس بحسب استحقاقه وجهاده بل برحمة الله، "ليس أننا كفاة من أنفسنا أن نفتكر شيئاً كأنه من أنفسنا بل كفايتنا من الله الذي جعلنا كفاةً لأن نكون خدام عهد جديد" (٢كو ٥: ٣، ٦).

١٦ - الله هو المعين في نوال الإيمان

قد تحقق الرسل تماماً أن كل ما يخص الخلاص يُعطى من الله حتى أنهم سألوا الإيمان نفسه كهبة من الله قائلين: "زِدْ إيماننا" (لو ١٧: ٥)، إذ لم يستطيعوا أن يتصوروا أنه يمكن الحصول عليه بإرادتهم الحرة ذاتها بل آمنوا أنها منحة من الله.

وأخيراً فإن واهب الخلاص يعلمنا عن ضعف كفاية إيماننا وعدمها ما لم تدعم بالعناية الإلهية، وذلك عندما قال لبطرس: "سمعان، سمعان، هوذا الشيطان طلبكم لكي يغربلكم كالحنطة. ولكني طلبت من أجلك لكي لا يفنى إيمانك" (لو ٢٢: ٣٢، ٣١).

وآخر أيضاً وجد أن إيمانه قد أنتزع بموجات الشك وسُحب علي الصخور فهلك هلاكاً مريعاً، لذلك صرخ إلى الرب ذاته طالباً عوناً لإيمانه قائلاً: "أومن يا سيّد، فأعِنْ عدم إيماني" (مر ٩: ٢٤).

إن كنا قد وجدنا بطرس محتاجاً إلى عناية الله لحفظه من السقوط، لذلك فمن يظن أنه غير محتاج إلى معونة الله الدائمة لحفظ إيمانه يكون متجاسراً وأعمى، خاصة وأن الرب نفسه أوضح في الإنجيل قائلاً: "كما أن الغصن لا يقدر أن يأتي بثمرٍ من ذاته إن لم يثبت في الكرمة، كذلك أنتم أيضاً إن لم تثبتوا فيّ" (يو ١٥: ٤)، وأيضاً "لأنكم بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً" (يو ١٥: ٥). فكم غباوة وشر أن ننسب الأعمال الصالحة إلى جهادنا الذاتي وليس إلى نعمة الله وعنايته، وهذا ما وضع بجلاء في قول الرب حيث أعلن بأنه لا يقدر أحد أن يُظهر ثمار الروح بدون وحيه وعونه. لأن "كُلَّ عَطِيَّةٍ صَالِحَةٍ وَكُلِّ مَوْهَبَةٍ تَامَةٍ هِيَ مِنْ فَوْقِ نَازِلَةٌ مِنْ عِنْدِ أَبِي الْأَنْوَارِ" (يع ١: ١٧)... ويوافق الرسول الطوباوي قائلاً: "وأيُّ شيءٍ لك لم تأخذه؟! وإن كنت قد أخذت فلماذا تتفخر كأنك لم تأخذ" (١كو ٤: ٧).

١٧ - الله هو المعين في احتمال التجارب

ما نحتمله من تجارب تحل بنا لا يعتمد علي قوتنا قدر ما هو علي مراحم الله وإرشاده، إذ يعلن الرسول

الطوباوي قائلاً: "لم تُصِبْكُمْ تجربة إلاَّ بشرية. ولكن الله أمين الذي لا يدعكم تُجْرَبُونَ فوق ما تستطيعون، بل سيجعل مع التجربة أيضاً المنفذ لتستطيعوا أن تحتملوا" (١كو ١٠: ١٣).

يُعدُّ الله أرواحنا ويقويها لكل عمل صالح، ويعمل فينا كل ما يسره. ويعلمنا بذلك الرسول قائلاً: "والله السلام الذي أقام من الأموات راعي الخراف العظيم ربَّنَا يسوع المسيح بدم العهد الأبدي ليكمِّلْكم في كل عملٍ صالح لتصنعوا مشيئتهُ عاملاً فيكم ما يُرضي أمامه" (عب ٢١: ١٣، ٢٠). وقد توسل من أجل أهل تسالونيكي ليتم معهم نفس الأمر، قائلاً: "وربنا نفسه يسوع المسيح والله أبونا الذي أحببنا وأعطانا عزاءً أبدياً ورجاءً صالحاً بالنعمة يعزِّي قلوبكم ويثبتكم في كل كلام وعملٍ صالح" (٢تس ١٧: ٢، ١٦).

١٨ - الله هو المعين في نوال المخافة الإلهية

وأخيراً فإن إرميا النبي يتحدث علي لسان الله مقررًا بوضوح أن مخافة الله التي بها نثبت فيه تتسكب علينا منه، فيقول: "وأعطيتهم قلباً واحداً وطريقاً واحداً ليخافوني كل الأيام لخيرهم وخير أولادهم من بعدهم. وأقطع لهم عهداً أبدياً أني لا أرجع عنهم لأحسن إليهم وأجعل مخافتي في قلوبهم فلا يحدون عني" (إر ٣٩: ٢٢، ٤٠). ويقول حزقيال أيضاً "وأعطيتهم قلباً واحداً وأجعل في داخلكم روحاً جديداً، وأنزع قلب الحجر من لحمهم، وأعطيتهم قلب لحم لكي يسلكوا في فرائضي ويحفظوا أحكامي ويعملوا بها ويكونوا لي شعباً فأنا أكون لهم إلهاً" (حز ٢٠: ١١، ١٩).

١٩ - الله هو المعين في الإرادة الصالحة

تنفيذ الأعمال الصالحة هو هبة من الله في نفس الطريق... ومع ذلك فنحن نستحق الجعالة أو العقاب، لأنه يمكننا أن نجتهد أو نهمل في تفاعلنا مع عمل الله وترتيب العناية الإلهية الموضوعة من أجلنا باهتمام عظيم. وقد وصف هذا بوضوح في سفر التثنية (بصورة رمزية) قائلاً: "متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها وتطرد شعوباً كثيرة من أمامك الحثيين والجرجاشيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين سبع شعوب أكثر وأعظم منك ودفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم فإنك تحرمهم. لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم ولا تصاهرهم" (تث ٧: ١-٣).

لقد أعلن الكتاب بأن العطية الإلهية الخاصة بالحرية ليست إجبارية وهي أن يأتي بهم إلى أرض الميعاد... لكن في مقدورهم أن يخالفوا ذلك. من هذا نستطيع أن نرى بوضوح ما ننسبه لإرادتنا الحرة، وما ننسبه لمواعيد وعلامات العناية الإلهية الدائمة. ففرص الخلاص والتدابير الناجحة والنصرة تخص النعمة الإلهية، ونحن علينا إما أن نطبع بشغف أو نهمل البركات الممنوحة لنا من قبل الله...

٢٠ - الله هو الذي يريد أو يسمح بالأمر أن تحدث

يليق بنا أن نقول بإيمان مستقيم أنه لا يحدث شيء في هذا العالم بدون سماح الله. وعلينا أن نعرف أن كل شيء يحدث إما بإرادته أو بسماح منه، فكل ما هو خير يحدث بإرادة الله وعنايته، وكل ما هو ضد ذلك يحدث بسماح منه، متى نزعنا حماية الله عنا بسبب خطايانا أو قسوة قلوبنا، أو سماحتنا للشيطان أو الأهواء الجسدية المخجلة أن تتسلط علينا.

يعلمنا الرسول بذلك مؤكداً "لذلك أسلمهم الله إلى أهواء الهوان" (رو ٢٦: ١).

وأيضاً "كما لم يستحسنوا أن يبقوا الله في معرفتهم أسلمهم الله إلى ذهنٍ مرفوض ليفعلوا ما لا يليق"

رو ٢٨:١.

ويقول الله بالنبى: "فلم يسمع شعبي لصوتي وإسرائيل لم يرضَ بي. فسلمتهم إلى قساوة قلوبهم. ليسلكوا في مؤامرات أنفسهم" (مز ٨١: ١١، ١٢)...

الجمعة ٢٢ أبيب ١٦٧٦

٢٩ يوليو ١٩٦٠

ملخص المبادئ

✠ تأتي الدعوة لتكريس القلب لله بطرق ثلاث:

- من الله مباشرة، كأن يكون ذلك بالتفاعل مع وصية من وصايا الكتاب المقدس، فيتوب الإنسان ويسلم قلبه للرب، وقد يشترك إلى حياة التكريس الكامل للعبادة فيترك العالم ليحيا راهبًا.
 - عن طريق الاقتداء بالغير، وهنا يرجع الفضل أيضًا إلى عمل النعمة الإلهية فينا.
 - عن طريق الأحرار والتجارب، إذ ينزعنا الله من حياة الترف، لكي ما نعرف حقيقة الحياة الزائلة ونطلب الحياة الباقية - وهنا أيضًا بدون نعمة الله يسقط الإنسان في الكفر واليأس بدلاً من أن تدفعه التجربة للحياة مع الله.
- ✠ الطريق الثالث يبدو أنه أدنى الطرق، لكن كثيرين بدعوا به وارتفعوا إلى قمم كمال الحب والعشق الإلهي خلال الجهاد والمثابرة بفضل النعمة الإلهية. وعلي العكس كثيرون بدعوا الحياة مع الله بالحب لكنهم خلال التراخي والكسل انحرفت حياتهم.

✠ يأخذ الزهد مراحل ثلاث أو درجات ثلاث:

- الترك المادي كأن يترك الإنسان بعض أو كل ممتلكاته الأرضية وهنا يترك الإنسان ما ليس له.
 - ترك السلوك القديم، أي مما في داخله.
 - ترك الأرضيات وارتفاع القلب في السماويات.
- ✠ التوقف عند أي درجة معناه جمود حياة الإنسان، لذا لا يكفي أن نترك الماديات حتى إن وزعنا كل شيء وخرجنا إلى الدير، إنما لنجاهد في ترك عاداتنا بنعمة الرب، وهذا أيضًا لا يكفي، إنما لتحرر أذهاننا وترتفع قلوبنا لتعيش متأملة في السماويات.
- ✠ يحتاج هذا الترك في أي صورة من صوره إلى جهاد الإنسان المستند علي قوة عمل النعمة والعناية الإلهية. فالله هو الذي يعين الإنسان في التعرف علي الفضيلة تعرفًا عمليًا إختباريًا. وهو الذي يكشف الناموس وينير فهمنا لنذكره إدراكًا سرّيًا روحيًا تتذوقه النفس وتختبر قوته. وهو المعين في التجارب. وهو الذي يسمّر خوفه فينا فلا نحيد عنه.

^٤ تحدث بعد ذلك في نفس الموضوع كيف أن الإنسان حر الإرادة له أن يقبل الوصايا أو يرفضها، ولكن قبوله لها يحتاج إلى نعمة الله وعنايته لكي تسنده. ثم اختتم الحديث بأنه انتهى في منتصف الليل وهم مشتاقين إلى الزهد في مرحله الثالثة.

مناظرات يوحنا كاسيان مع مشاهير آباء البرية

٤

الفتور الروحي والحرب الروحية

للأب دانيال

١ - مقدمة

من بين فلاسفة المسيحيين الجهادية نعرف الأب دانيال، الذي لم يتمثل بقاطني برية الإسقيط في كل فضائلهم فحسب، بل وامتاز على وجه الخصوص بنعمة الاتضاع.

وبالرغم من صغر سنه إلا أنه بسبب نقاوته وقداسته قدّمه الطوباوي بفنوتيوس رئيس الكنيسة في البرية شماساً... وكان يتوق أن يراه شريكاً معه في الكهنوت وأن يصير خليفة له من بعده... وإذ نال دانيال رتبة أعلى في الكهنوت لم يتخلّ عن اتضاعه، فلم يكن يشترك مع الأب بفنوتيوس في خدمة الذبيحة ككاهن بل كان يخدم معه كشماس...

٢ - سؤال عن سبب الفتور الروحي

لقد سألنا الطوباوي دانيال: لماذا يحدث أحياناً حين نكون في القلاية ونحن مغمورين بالسعادة القلبية الكاملة، وفرح لا ينطق به، ومشاعر مقدسة غزيرة، لا يستطيع النطق أن يعبر عنها، إنما حتى المشاعر لا تقدر أن تدركها، فتخرج صلوات نقية ويمتلئ العقل ثماراً روحية، ونصلي حتى في أثناء النوم، ونشعر بأن الطلبات تخرج بنشاط وقوة، يحدث بغير سبب أن نمتلئ فجأة بالحزن العميق ونسقط في الغم بلا سبب، حتى أنه ليس فقط تغلبنا المشاعر، بل وتصير القلاية بالنسبة لنا مربعة، والقراءات تهرب من أماننا، نعم وصلواتنا تصير بغير استقامة وغموض، وإذ ننتهد ساعين للعودة إلى حياتنا الأولى يعجز عقلنا عن ذلك، ويضل شغفنا الذي به نود أن نثبت أمام الله، وتتحرف عقولنا إلى الأفكار المضللة، وتتسحب ثمار الروح تماماً، ونصير عاجزين عن طريق الاشتياق إلى الملكوت أو الخوف من الجحيم؟!

٣ - لقد ذكر الآباء ثلاثة أسباب للفتور (الجفاف) الروحي الذي نتحدث عنه:

- أ. إما لسبب الإهمال من جانبنا.
- ب. أو بسبب هجوم شيطاني.

ج. أو بسماع من الله.

فيأتي الفتور عن طريق إهمالنا، بسبب أخطائنا أو تراخيها سالكين بإهمال أو طيش. عندما نكون في حالة كسل نتغذى بالأفكار الرديئة، وبالتالي تنمر أرض قلبنا شوكة وحسكاً... ويجعلنا مجدبين وبلا ثمر أو تأمل روعي.

ويأتي عن طريق الهجوم الشيطاني، وذلك عندما نجتهد نحو الرغبات الصالحة. فإن عدونا مكر، يدخل إلى قلبنا بغير معرفتنا وضد رغبتنا ويسحب منا عزمنا الحسن.

٤ - الفتور بسماع من الله

أما عن الفتور الذي بسماع من الله فهناك سببان...

أولاً: يتركنا الله فترة قصيرة لكي ننتبه إلى ضعف قلوبنا، عندئذ لا ننكر أن نقاوة قلوبنا السابقة هي هبة من قبل الافتقاد الإلهي. فيسقوطنا في التجربة عن طريق ترك الله لنا وعجزنا عن العودة إلى حالة النقاء والبهجة السابقة عن طريق التتهديدات أو الجهود التي نبذلها، نتعلم أن سعادة قلوبنا السابقة ليست نتيجة لنشاطنا الذاتي، بل هي عطية من الله، وأنه يجب أن نطلبها من نعمة الله واستنارته.

ثانياً: وأما السبب الثاني فهو لأجل امتحاننا من جهة المثابرة والرسوخ العقلي والغيرة الحقيقية. فعندما يتركنا ينكشف فينا بأي هدف قلبي ونشاط في صلاتنا نبحث عن الروح القدس. ولكي نعرف كيف يلزمنا أن نجاهد باحثين عن السعادة الروحية... ونتعلم أن نحافظ على بهجة النقاوة بأكثر حرص وصيانة ونتمسك بها بأكثر ثبات. فالبشر عامة لا يحرصون على المحافظة على ما يظنون أنه يمكنهم بسهولة الحصول عليه.

٥ - فضل النعمة علينا

بهذا ينكشف بجلاء أن نعمة الله ورحمته يعملان دوماً لأجل خيرنا، فإذا تركتنا نعمة الله فإن كل الجهود العاملة لا تنفع شيئاً. فمهما جاهد إنسان بكل نشاط لا يقدر أن يصل إلى حالته الأولى بغير معونة الله، وهذا يظهره القول: "فإذا ليس لمن يشاء ولا لمن يسعى بل لله الذي يرحم" (رو ١٦: ٩).

هذا التخلي من الناحية الأخرى لا يمنع الافتقاد الإلهي المقدس الذي نتكلم عنه... إذ يبحث غير المستحقين ويعطى النائمين، وينير عيني العمي بالجهل، وبرحمته يبيكتنا ويؤدبنا، ويسكب في قلوبنا ما يؤنبنا ويدفعنا إلى الاستيقاظ من نوم الكسل.

وأخيراً غالباً ما نمثلي بافتقاد إلهي مفاجئ برائحته الطيبة بقوة فائقة... حتى أن الروح تختطف بهذه الابتهاجات، وتُمسك كما لو كانت في حالة دهش روعي حتى تنسى تلك الحقيقة أنها لا زالت في الجسد.

٦ - داود يختبر حالة الفتور كفرصة للجهد

يعرف داود الطوباوي بأن هذا الترك المؤقت من جانب الله تجاهنا أحياناً يكون لصالحنا، وفي صلاته طلب أن لا يكون ذلك على الدوام (لأنه يعلم أن ترك الله للإنسان فيه ضرر حيث تعجز الطبيعة البشرية عن السلوك نحو الكمال)، لذلك توسل بأن يكون ذلك في حدود معينة قائلاً: "لا تتركني إلى الغاية" (مز ١١٩: ٨). بمعنى آخر يقول: إنني أعلم أنك تترك قديسيك لأجل فائدتهم وذلك لامتحانهم... لذلك فأنا لست أسأل ألا تتركني، لأنه ليس من المفيد لي ألا أشعر بضغفي (لذلك قال "خير لي أني تذلت" مز ٧١: ١١٩)، ولا من النافع لي ألا تتاح لي فرصة للحرب. وهذه الفرصة لن تتاح لي بالتأكيد مادمت أمتلي بحماية الله الدائمة. فالشيطان لا

يتجاسر ويحاريني مادمت مستنداً على حمايتك، فيتقدم معترضاً ومشتكياً ضدي وضدك: "هل مجاناً يتقي أيوب الله؟ أليس أنك سيّجت حوله وحول بيته وحول كل ما له من كل ناحية؟" (أي ١: ٩-١٠). فأنا ألتمس منك أن تتركني لكن "ليس للغاية" (اللفظ اليوناني "ليس كثيراً") وذلك لأنه مفيد لي أن تتركني قليلاً حتى يمتحن ثبات حبي.

من الخطر عليّ أن تتركني كثيراً لخطاياي واستحقاقاتى، لأنه إن تركت عنايتك الإنسان في البرية طويلاً لا يقدر أن يحتفل فيستسلم للعدو. فأنت عالم بقوة الإنسان واحتماله، فلا تدعنا نجرب فوق ما نستطيع بل ستجعل مع التجربة أيضاً المنفذ لنستطيع أن نحتمل (١كو ١٠: ١٣).

ونقرأ أيضاً في سفر القضاة عن أمر كهذا في صورة رمزية (قض ٣: ١٤). فقد ترك الأمم ليس ليمنع سلامة الشعب (اليهودي)، ولا لضررهم، إنما لأنه يعلم أن ذلك فيه خيرهم. فإذا بضايقتهم الأمم بالهجوم يشعرون باحتياجهم إلى العناية الإلهية. لهذا يستمرون متطلعين إلى الله طالبين معونته ولا يتهاونون في كسل، ولا يفقدون فضيلة الاحتمال والعمل، مجاهدين في الفضيلة.

٧- النزاع بين الجسد والروح لخيرنا

نقرأ عن معركة كهذه قائمة في أعضائنا لأجل خيرنا، إذ يقول الرسول: "لأن الجسد يشتهي ضدّ الروح والروح ضدّ الجسد. وهذان يقاوم أحدهما الآخر حتى تفعلون ما لا تريدون" (غلا ٥: ١٧). هنا أيضاً نجد صراعاً رسخ في أجسادنا بترتيب من الله.

وحيث يوجد شيء مشترك بين كل البشر بغير استثناء، فماذا نظن إلا أن هذا يخص الطبيعة البشرية ذاتها منذ سقوط الإنسان الأول... وإذ نجد هذا الأمر المشترك ينمو مع نمو الإنسان، فإننا نعتقد بأن هذا السماح من الله لا لضرر الإنسان بل لأجل معونته...

وجد هذا النزاع فينا بترتيب من الخالق بطريقة تفيدنا وقد دعانا وحثنا على السمو. فلو لم يكن يوجد نزاع لنشأ سلام، لكنه مملوء خطراً (لأننا ما كنا نجاهد ونطلب السمو).

٨- سؤال

جرمانايوس: بالرغم من أن البعض قد ألمح عن المعنى الذي وُضِّحَ لنا إلا أننا لم نستطع أن ندرك المعنى الرسولي تماماً، لذلك نرغب منك أن تشرحه لنا بأكثر وضوح. ويبدو أن الرسول أشار إلى ثلاثة أمور:

أولاً: نزاع الجسد ضد الروح.

ثانياً: شهوة الروح ضد الجسد.

ثالثاً: إرادتنا الحرة التي تبدو أنها تقف بين الاثنين، وقد قيل عنها أنهم لا يقدرُوا أن يفعلوا ما يريدونه...

٩- دانيال

لكي نفهم الأمر يهمننا أن نوضح الأسئلة... فبالرغم من أن الذي يسأل الأسئلة يجهل الإجابة عليها، لكن متى سأل بحكمة وتعلم ما لم يعرفه فهذا يحسب له حكمة.

فبحسب التقسيم الذي أوضحته يبدو أن الرسول يشير في العبارة إلى ثلاثة أمور: شهوة الجسد ضد الروح، وشهوة الروح ضد الجسد، والنزاع المتبادل بين بعضهما البعض حتى يظهر القول أنهم لا يقدرُوا أن يفعلوا ما يريدونه كما لو كان ذلك سبباً باعثاً للنزاع.

يوجد أيضاً أمر رابع قد تغاضيت عنه وهو "أنا نفعل ما لا نريد".

والآن يلزمنا أولاً أن نعرف ما هما هاتين الرغبتين أي رغبة الجسد ورغبة الروح ثم نناقش بعد ذلك إرادتنا الحرة التي تقف بين الاثنين، وأخيراً نعرف بنفس الطريقة ما لا يمكن أن ننسبه لإرادتنا الحرة.

١٠ - مفهوم كلمة "الجسد"

استخدمت كلمة "الجسد" في الكتاب المقدس بمعان كثيرة.

١- فأحياناً يقصد بها "الإنسان"، أي ما يشمل من جسد وروح، مثال ذلك "والكَلِمَة صار جسداً" يو ١: ١٤، "وبصر كلُّ بشرٍ (جسد flesh) خلاص الله" لو ٣: ٦.

٢- وأحياناً يقصد بها الإنسان الخاطي الشهواني مثل "لا يدين روعي في الإنسان إلى الأبد. لزيغانه هو بشر (جسد flesh)" تك ٣: ٦.

٣- وأحياناً تستخدم للتعبير عن الخطايا ذاتها، مثال ذلك "وأما أنتم فلستم بل في الروح" رو ٨: ٩، وأيضاً "إن لحمًا ودمًا لا يقدران أن يرثا ملكوت الله" ١ كو ١٥: ٥٠، ويليها "ولا يرث الفاسد عدم فساد" ١ كو ١٥: ٥٠.

٤- وأحياناً يعني بها القرابة والنسب، مثال ذلك "هوذا عظمك ولحمك نحن" صم ٢: ١٥، ويقول الرسول "لعلِّي أُغَيِّرُ أُنْسِبَائِي (جسدي my flesh) وأُخَلِّصَ أُنَاسًا مِنْهُمْ" رو ١٤: ١٤.

فيلزمنا أن نعرف أي معنى يقصد به كلمة "الجسد" من هذه المعاني الأربع. فإنه بلا شك لا يكون المعنى المقصود هو ما جاء في العبارة "والكَلِمَة صار جسداً"، ولا ما جاء في العبارة "لا يدين روعي في الإنسان إلى الأبد لزيغانه هو بشر (جسد)"، حيث أن كلمة "جسد" في القول "الجسد يشتهي ضدَّ الروح والروح ضدَّ الجسد" لا تستخدم بمعنى إنسان شرير كما جاء في الآية السابقة (معنى ٢)، ولم يكن يتكلم الرسول عن أمور محسوسة بل عن أمور في داخله تقوم من وقت لآخر بمقاومته.

١١ - يلزمنا ألا نأخذ كلمة "الجسد" هنا بمعنى الإنسان أو المادة الملموسة، إنما يقصد الإرادة الشهوانية والرغبة الشهوانية.

كذلك كلمة "الروح" لا يقصد بها شيئاً مادياً بل صلاحاً ورغبات روحية للروح.

هذا المعنى سبق أن أعلنه الرسول الطوباوي في بداية حديثه "وإنما أقول اسلكوا بالروح فلا تكملوا شهوة الجسد. لأن الجسد يشتهي ضدَّ الروح والروح ضدَّ الجسد وهذان يقاوم أحدهما الآخر حتى تفعلون ما لا تريدون". فإذا توجد الالتئان، أي الرغبات الجسدية والرغبات الروحية وهما في نفس الإنسان معاً، لذلك تقومان بقتال داخلي يومي.

فالشهوة الجسدية تدفع بنا بطيش نحو الخطية، لنمرح في تلك الأطايب التي تتجمع بالاستكانة الحاضرة. ومن الجانب الآخر تعارضها الشهوة الروحية، راغبة في الانهماك في الجهاد الروحي، حتى أنها تتوق أن تتخلص حتى من الاحتياجات الضرورية للجسد، راغبة في السمو بهذه الأمور دون أن تشغل بضغفات الجسد.

يسر الجسد بالخلاعة والشهوات بينما لا تريد الروح حتى الرغبات الطبيعية.

- ❖ أحدهما يطلب أن يغطّ في النوم ويشبع من الطعام، والآخر ينتعش بالسهر والصوم، حتى يودّ لو لم يحصل حتى على النوم والطعام الضروريان للحياة.
- ❖ أحدهما يشّاق إلى الاغتناء بامتلاك كل شيء بكثرة، والآخر يكتفي بالحصول على القوت اليومي الزهيد.
- ❖ أحدهما يطلب الترفيه والإحاطة بالمنافقين حوله كل يوم، بينما الآخر لا يريد الترفيه ويطلب الانفراد في الصحراء القاسية ويتجنب الناس.
- ❖ أحدهما يعيش على الكرامات البشرية والمديح البشري، والثاني يتمجد بالاضطهادات والمضايقات التي تُقدّم ضده.

١٢ - فائدة وجود النزاع بين الرغبات الروحية والجسدية

موقف الإرادة الحرة التي للروح موقفاً وسطاً بين هذين النوعين من الرغبات يستحق اللوم إلى حد ما، فهي لا تسر بكثرة الخطايا، ولا تجتهد في قمع ذاتها من أهواء الجسد، غير راغبة في احتمال المتاعب اللازمة. إنها تودّ المحافظة على عفة الجسد بدون أي تعب للجسد. وتطلب نقاوة القلب من غير أن تسعى مجاهدة.

وترغب في الالتصاق بالفضائل الروحية مع حفظها للمباهج الجسدية. وتودّ الحصول على عطية الصبر من غير أن يحدث ضيق. وتطلب أن يكون لها انتضاع المسيح دون أن تفقد الأمجاد الأرضية. وتشتاق إلى بساطة الإيمان مع حبها لشهرة العالم. وترغب في خدمة المسيح مع الرغبة في مديح الناس...

وباختصار إنها تشغف بالتمتع بالبركات العتيدة من غير أن تفقد البركات الحاضرة.

هذه الإرادة الحرة لن تقودنا إلى بلوغ الكمال الحقيقي، بل تتحدر بنا في حالة يائسة من الفتور. وتجعلنا كأولئك الذين انتهرهم الله في سفر الرؤيا قائلاً: "أنا عارف أعمالك أنك لست بارداً ولا حاراً، ليتك كنت بارداً أو حاراً. هكذا لأنك فاتر ولست بارداً ولا حاراً أنا مزعج أن أتقيّاك من فمي" (رؤ ١٦: ٣، ١٥).

في هذه الحالة نقف بين الجانبين فتضطرب أحوالنا ونهلك بالفتور. فإذ نترك العمل لإرادتنا الحرة، ونرغب في قيادتها في هذا الاتجاه من الكسل، تظهر الشهوات الجسدية وتضايقنا بأهوائها الشريرة، وتجعلنا غير محتملين أن نبقي في حالة النقاوة التي كنا نتمتع بها، وتغويننا بالفتور ووسائل اللذة الشائكة التي تدفع بنا إلى الخوف.

كذلك إذا ما التهينا بنشاط الروح، نرغب في اقتلاع أعمال الجسد، ومن غير أن تلتفت (الروح) إلى الضعف البشري تحاول أن تسمو بنا في الجهاد الزائد فوق حدود الفضيلة، لكن ضعف إرادتنا البشرية يسحبنا ويردنا عن الحد الزائد الذي يريده الروح والذي يضرنا.

وعلى هذا فإن النتيجة هي أن التناقض بين النوعين من الرغبات يصير في نزاع من هذا النوع... وهذا يؤدي إلى نوع من التوازن في ميزان الجسد، حيث تنكشف حدود الجسد وحدود الروح بأكثر دقة. فلا يسمح للعقل أن يلتهب بجهاد الروح ليتسلط من الناحية اليمينية (أي يجاهد فوق الحدود متناسياً ضروريات الجسد)، ولا يسمح للجسد أن يميل إلى أشواك الخطية من الناحية الشمالية (أي لا يندفع نحو رغبات الجسد متجاهلاً رغبات الروح).

وبينما يعمل هذا الصراع يوماً فيوم لفائدتنا، فإننا ننسحب إلى المرحلة الرابعة... فنكتسب نقاوة القلب

لا بالكسل بل بالجهد المستمر وإنسحاق الروح. فنستعيد عفة جسدنا بالأصوام والجوع والعطش والسهر المستمر، ونحصل على هدف قلوبنا بالقراءات والسهر والصلوات الدائمة وأتعاب الوحدة. وننال الصبر باحتمال الضيقات، ونخدم خالقنا في وسط احتمال الإهانات، ونتبع الحق ولو أبغضنا العالم وصار معادياً لنا...

هذا النزاع يحدث تعادلاً، فاتحاً لنا طريقاً سليماً مضموناً للفضيلة معتدلاً بين الطريقين، مُعلماً جنود المسيح أن يسبوا في الطريق الملوكي (الإلهي).

وعلى هذا فإنه إذا ما ظهر الفتور في الإرادة البليدة التي تحدثنا عنها، ينشغل العقل بالشهوات الجسدية، وعندئذ يصطدم بالميل الروحية التي لا تقبل الخطايا الأرضية بأي وسيلة.

كذلك رغبات الروح الزائدة تسمو بروحنا إلى النشاط الزائد، وتتجه لكي تسمو إلى رفعة مستحيلة بلا حدود، لكن ضعفات الجسد تجعله يذعن إلى الاعتبارات الصحيحة لإرادتنا الحرة مع الحصول على نصيب مناسب في طريق الكمال...

١٣- هكذا فإن هذا الصراع (الذي بين رغبات الروح والجسد) يسبب لنا فائدة كبرى... ففي أثناء مقاومة الجسد نتحصن من تلك الأمور الشريرة التي يفكر فيها عقلنا، ونعود إلى حال أفضل عن طريق التوبة...

١٤- فائدة النضال مع شهوة الجسد

... الروح التي لا ترتبط بمادة جسدية^١، لا تجد غفراناً عن الخطية التي تسقط فيها... لأنها لا تصطدم ببواعث جسدية مثلنا، إنما تخطئ بفساد الإرادة. لذلك فإن خطيتها بلا غفران وضعفها بلا علاج. فإنها إذ تسقط من غير ضعفات أرضية، لا تجد مكاناً للتوبة ولا للغفران. وعلى هذا فإن الصراع بين الجسد والروح ليس فقط غير مضر، بل وبالحقيقة مفيد لنا.

١٥- أولاً: لأنه عن طريقها (شهوة الجسد) نلوم أنفسنا على كسلنا وإهمالنا، فهي تشبه ضابطاً نشيطاً لا يسمح لنا أن نحيد عن الطريق الصحيح للنظام... فإذا ما أهملنا ولو قليلاً، نثور فينا بباعث الشهوة، وبالتالي يحدث تأنيباً يعيدنا إلى الاعتدال الصحيح.

ثانياً: لأنه في حالة العفة والنقاوة الكاملة التي تهني إياها النعمة الإلهية، نجد أنفسنا محفوظين من الزنا الجسدي، حتى أننا نزن أننا لا نعود نضطرب بأي أهواء جسدية، وبهذا نخطئ وننتفخ في داخل قلوبنا، كأننا لا نحمل فساد الجسد. لكن بأشواك الشهوات نخضع ونتذكر أننا لسنا إلا بشر...

١٦- الكبرياء مع العفة أضر من شهوات الجسد

بالحقيقة أن الكبرياء الذي يتبع النقاء أكثر خطراً من كل الخطايا والشرور. وعلى هذا فإنه لن ينال أي مكافأة في بلوغ مرتفعات العفة... التي فيها يظن الإنسان إنه لن يخضع لأي شهوة جسدية، فيسقط من سموه وروحانياته إلى هلاك أبدي بسبب كبرياء قلبه.

لهذا ما كان يبقى لنا أمل لو لم يوجد فينا منذر للكسل من جانبنا في جسدنا أو عقلنا (وهي الشهوات الجسدية)، ولا كنا نجاهد في الوصول إلى مجد الكمال ونحتفظ بالتدبير الصحيح والزهد لو لم تعمل فينا المثيرات الجسدية فتعطينا اتضاعاً وتجعلنا ماهرين ومشتاقين إلى تنقية نفوسنا من الخطايا الروحية.

^١ مثل الملائكة الذين سقطوا (إيليس وجنوده).

١٨ - جرمانئوس: ما هو الفرق بين الإنسان الجسداني والإنسان الطبيعي وكيف أن الطبيعي أشر من الجسداني؟

١٩ - دانيال: يتحدث الكتاب المقدس عن ثلاثة أنواع من الأرواح: الجسداني، والطبيعي، والروحاني.

فيقول الرسول عن الجسداني "سقيتكم لبنًا لا طعاماً لأنكم لم تكونوا بعدُ تستطيعون بل الآن أيضًا لا تستطيعون لأنكم بعدُ جسدئون.." ١ (كو ٣: ٢). وأيضًا "إذ فيكم حسد وخصام وانشقاق أَلستم جسدئين؟"

أما عن الطبيعي فيقول: "لكن الإنسان الطبيعي لا يقبل ما لروح الله لأنه عنده جهالة" ١ (كو ٢: ١٤).

أما عن الروحاني فيقول: "وأما الروحي فيحكم في كل شيء وهو لا يُحكم فيه من أحدٍ" ١ (كو ٢: ١٥). وأيضًا "فأصلحوا أنتم الروحانيين مثل هذا بروح الوداعة" (غلا ٦: ١).

بالزهد نترك ما هو جسدي، أي نبدأ بالانفصال عما يتصل بأمور هذا العالم، ولا نصنع شيئًا خاصًا بنجاسة الجسد. وبالرغم من ذلك يجب أن نجاهد بحرص بكل قوتنا للحصول على الروحانية خشية أن نخدع أنفسنا بالسعادة، حيث يبدو أن إنساننا الخارجي قد ترك هذا العالم وتخلص من أدناس الزنا الجسدي، وأننا قد وصلنا إلى مرتفعات الكمال، فنهمل ولا نبالي بنقاوة نفوسنا من التأثيرات الأخرى. بهذا التخلف نصير غير قادرين على الوصول إلى مرحلة التقدم الروحي، إذ نظن أنه يكفي لكاننا أن نعزل إنساننا الخارجي عما يتصل بهذا العالم ومسرته... وبهذا نجد أنفسنا في حالة من الفتور تعتبر أشر من أية حالة. وبذلك نجد الله يريد أن يتقينا إذ يقول: "هكذا لأنك فاتر ولست باردًا ولا حارًا أنا مزعم أن أتقيًا من فمي" (رؤ ٣: ١٦).

وليس باطلاً يعلن الله عن أولئك الذين سبق أن قبلهم في أحشاء محبته، وقد صاروا للأسف فاترين. إنه سيتقيأهم وينزعهم من أحشائه... إنه يريد أن ينزعهم من قلبه، وبهذا يصيرون أشر من أولئك الذين لم يسيروا قط كطعام في أحشاء الله، إذ يردهم ثانية متقيًا إياهم.

فما هو بارد يصير دافئًا عندما يدخل في الفم فيقبل، وتكون له نتائج مرضية وحسنة. أما ما يرتد بسبب فتوره البائس فإنني لا أقول إنه لا تستطعمه الشفاه، بل ونشمئز جدًا من النظر إليه من بعيد. حقًا إنه أردأ من الإنسان الجسداني، أي العلماني أو الأممي. لأن هذا الأخير أكثر استعدادًا للتوبة والوصول إلى المرتفعات عن ذلك الذي يعمل بفتور من غير أن يسير في طريق الكمال حسب ما ترشده القوانين، مرتدًا في لحظة عن نيران النشاط الروحي.

فالأول (الجسداني) إذ ينهزم من الخطايا الجسدية يعرف دنسه، وعن طريق تأنيب ضميره يسرع من الدنس الجسدي إلى ينبوع الطهارة الحقيقية ومرتفعات الكمال. وفي حزنه من حاله التي يجد نفسه فيها، يلتهب بنيران الروح ويسمو بأكثر استعداد للكمال.

لكن إذ يبتدئ الإنسان بفتور (الإنسان الطبيعي) فإنه يسئ إلى اسمه كراهب ولا يسير في هذه المهنة بالاتضاع والنشاط اللازمين. وبإصابته بهذا الداء البائس لا يقدر أن يميز ما هو حق، ولا يتعلم من أقوال الآخرين. إنه يقول في نفسه: "إني أنا غني وقد استغنيت ولا حاجة لي إلى شيء"، فينطبق عليه تكملة القول "ولست تعلم أنك أنت الشقي والبئس وفقير وأعمى وعريان" (رؤ ٣: ١٧). وبهذا تكون حالته أشر من الرجل العالمي (محب العالم)، لأنه غير مدرك لحقيقة نفسه إنه شقي وأعمى وعريان ومحتاج إلى تطهير وإلى التعلم من الآخرين. لهذا فهو لا يستمع إلى أية نصيحة، لأنه لا يدرى إنه وإن كان قد أخذ اسم راهب إلا إنه أقل من الجميع. فبينما يتطلع إليه الجميع إنه قديس وخادم لله إلا إنه سيخضع لدينونة أعظم وعقاب أشد.

٢٠- وإنني أحجل أن أقول بأننا وجدنا عددًا كبيرًا بنوا تركهم (زهدهم) بطريقة لم يتركوا فيها شيئًا من خطاياهم ولا تخلوا عن عاداتهم القديمة، وإنما اكتفوا بتغيير طريقة المعيشة والزي... وبينما نجدهم مشتاقين أن يكونوا أفضل من اخوتهم إلا أنهم لا يخضعون لأبائهم...

وبالرغم من أن كبرياءهم نوع واحد لكنه في شكلين:

الأول صورة الجدية و(الاجتهاد)، والثاني صورة التحرر التام بشكل هزلي مضحك (وفي كليهما لا يريد أن يخضع لنظام الدير ولأبيه الروحي).

الأول صورة الصمت، والثاني ليس لديه مانع من أن يتحدث بحرية عن الأمور غير اللاتقة المملوءة حماقة، حاسبًا إنه من الصعب أن يحتفظ بالصمت.

الأول بالكبرياء يبحث عن وظيفة (في الدير أو في الكهنوت) تتناسب معه، والآخر يغض النظر عنها.

وعلى أي الأحوال فإن عدم الطاعة في كلا الحالتين يجعل الإنسان يكسر تعاليم الآباء سواء برغبته في العمل أو بحبه للتراخي.

إنه يصير على مخالفة قوانين الدير، سواء من أجل النوم أو السهر، وتعدى أوامر الآباء سواء من أجل القراءة أو الكسل.

وما نقوله بخصوص الكبرياء يحدث أيضًا من جهة كراهية الإنسان لأخيه سواء من أجل صومه أو إفطاره (أي يثور على أخيه لأنه صائم أو لأنه فاطر).

غير أن الذين يخطئون ولهم مظهر الفضيلة في ثوب روحاني هؤلاء أردأ وعلاجهم أصعب من الذين يخطئون بوضوح بسبب المذات الجسدية. فالحالة الأخيرة تشبه المرض الظاهر الذي يعالج بسهولة، أما الحالة السابقة فهي مكتسبة بزي الفضيلة لذلك تبقى بغير شفاء، ويصير ضحاياها في حالة مميتة وخطيرة.

٢١- أناس يتركون الكثير لكن القلب منشغل بالتفاهات

كيف نقدر أن نكشف عن مقدار السخف الذي نراه من جهة البعض، الذين كانوا متحمسين في زهدهم، تاركين خدمة هذا العالم وممتلكاتهم وغناهم العظيم ذاهبين إلى الأديرة، ومع هذا لا يزالون يشغفون بأمور لا تنقطع منه تمامًا، وحياتهم مرتبطة بها تمامًا، مهما كانت هذه الأمور صغيرة وتافهة، حتى نجد في هذه الحالات أن اهتمامهم بالتفاهات يكون أكثر بكثير من حبهم لكل ممتلكاتهم، وبذلك لا ينتفعون شيئًا إذ حولوا اهتمامهم من ممتلكاتهم وغناهم العظيم إلى الأمور البسيطة التافهة. فإذا لا يخطئون في خطية الطمع والبخل في الأمور الكبيرة يخطئون بها في الأمور التافهة، وبهذا فهم لم يتخلصوا من الطمع، إنما غيروا مادة الخطية.

فإذا ما انشغلوا كثيرًا بحصيرتهم أو سلاسلهم أو غطائهم (البطانية) أو كتبهم أو أي أمر تافه، فإن الأهواء نفسها تأسرهم وتردهم إلى حالتهم السابقة...

بذلك فإن مجرد ترك أمور هذا العالم لا يجلب لنا كمال القلب، لأنه وإن كان يجعلنا فقراء إلا إنه يلزمنا أن نحفظ بالغنى العقلي.

نياحة الأنبا أبامون ٢٧ أبيب ١٦٧٦

٣ أغسطس ١٩٦٠

ملخص المبادئ

✚ تمر بالمؤمن فترات فتور يشعر بالعجز عن الحديث مع الله أو الشعور بحبه أو بتجاوبه معه... وعلاج الفتور يستلزم التعرف على نوعه.

النوع الأول: فتور سببه الإهمال والتراخي من جانبنا كأن يتراخى الإنسان في صلاة الأجدية شيئاً فشيئاً، ولا يدرك الإنسان إلا بعد فترة زمنية إذ يجد نفسه لا يصلح بها، وإن حاول ذلك يستقلها ويجدها كروتين ممل جاف، ولا يشعر بحلاوة المزامير وقوتها... وما نقوله عن المزامير يحدث بالنسبة للتأمل والدراسة في الكتاب المقدس أو الصوم أو التمتع بالشركة في القداس الإلهي الخ.

ويحدث بصورة عكسية بالنسبة للذائل، فإن التهاون مهما صغر حجمه فباستدامته يسقط الإنسان في دوامة الخطية ويجعل الإنسان متحسراً على ما فقد من حياة العفة أو نقاوة القلب الخ.

النوع الثاني: فتور سببه حرب الشيطان. هنا يلزم أن يكون لنا روح التمييز لنعرف ما هو منا وما هو حرب من العدو الشيطان. لأنه كثيراً ما يبث العدو أفكاراً نجسة للغاية أو أفكار تجديف، أحياناً في أقدس لحظات الصلاة... وبعد ذلك يسقط الإنسان في اليأس قائلاً لنفسه كيف أفكر هكذا؟! مع إنه في الحقيقة هو يكرهها ويمقتها ولا يريد أن يقبلها قط.

النوع الثالث: فتور بسماح من الله، وذلك لأحد أمرين:

١- بالنسبة للمتكلمين على برهم الذاتي، أن يتعلموا بأن غيرتهم الأولى ونقاوتهم السابقة ليست منهم إنما بفضل عناية الله ونعمته علينا.

٢- بالنسبة للمتراخين والمستهترين تحت ستار حب الله ونعمته، هؤلاء يسمح الله بالتخلي عنهم وفتورهم إلى حين ليتعلموا حياة الجهاد والمثابرة في فترات الفتور، ولو لم يشعروا بتعزيات داخلية أو فرح... لأنه يلزم أن نجاهد من أجل الله ذاته.

✚ سمح الله بوجود شهوة الجسد التي هي ضد الروح لخيرنا.

١- عندما نضعف روحياً تنور فينا شهوة الجسد، عندئذ نشعر بالضعف فيكون باعثاً للتوبة. وهذا ما لا يتمتع به الشيطان لأنه بلا جسد.

٢- حتى في لحظات النمو الروحي تحاربنا شهوات الجسد (لكن بغير سلطان علينا)، وهذا يدفع بنا إلى الانسحاق و الاتضاع والشعور بالحاجة إلى عمل الله.

٣- تمنع رغبات الجسد الإنسان من المغالاة، فبدون الجسد تشتاق النفس ألا نطلب حتى الاحتياجات الضرورية اللازمة للجسد، كالأكل والشرب والنوم... وهذا يدفع إلى المغالاة وعدم الاعتدال.

✚ الإنسان الروحي هو الشخص الحار في العبادة والمشتعل بحب الله.

والجسداني هو الذي له ضعفات واضحة في حياته.

والطبيعي هو الشخص الفاتر الذي يظن في نفسه إنه غير محتاج. وهو إنسان تخدعه شكليات معينة، كأن يكون حافظاً للكتاب المقدس أو واعظاً مؤثراً يهز قلوب كثيرين أو مكتفياً بكونه راهباً... أو له صور معينة من العبادة أو الخدمة، دون أن يعيش كإنسان تائب منسحق القلب متمتع بعشرة الرب. وهذا الصنف خطير لأن

خارجہ یخدع الناس بل ویخدع الإنسان نفسه.

مناظرات يوحنا كاسيان مع مشاهير آباء البرية

٥

الأخطاء الثمانية

للأب سرابيون

١ - مقدمة

في مجمع الآباء الموقرين كان إنسان يدعى "سرابيون" اختص بنعمة "التمييز"، تستحق كلماته أن تُدون. هذا طلبنا منه أن يكشف لنا عن طريق النصرة على خطايانا حيث يلزمنا أن نعرف مصدرها وأسبابها، فبدأ يتحدث قائلاً:

٢ - أهم الخطايا

إن أهم الخطايا التي تواجه البشر هي ثمانية:

- ١ - النهم.
- ٢ - الزنا.
- ٣ - البخل أو محبة المال.
- ٤ - الغضب.
- ٥ - الحزن (الغم).
- ٦ - التواني أو الفتور.
- ٧ - حب الظهور.
- ٨ - الكبرياء.

٣ - أصنافها وأشكالها

هذه الخطايا صنفان:

(أ) إما أن تكون طبيعية كالنهم. (ب) أو تأتي من الخارج كالطمع.

أما عن أسلوب الخطية فينا فإنه يأخذ أربعة أشكال:

- (أ) فالبعض لا يتم ما لم يقوم الجسد بدور فيه، مثل النهم والزنا.
- (ب) والآخر يتم بدون أن يقوم الجسد بأي عمل، مثل حب الظهور والكبرياء.
- (ج) والبعض بواعثه من الخارج، مثل الطمع والغضب.
- (د) والآخر ينبع من مشاعر داخلية، كالفتور والغم.

٤ - الخطايا الجسدية والخطايا الروحية

إنني لا أتكلم من نفسي حسب ضعفي، إنما ببرهان الكتاب المقدس يظهر أن النهم والزنا وإن كانا يوجدان فينا طبيعياً، إذ ينبعان منّا دون حاجة إلى بواعث ذهنية، بل حسب عواطف الجسد وإغراءاته، إلا أنهما لكي يتمّان فينا، يلزم أن توجد مادة خارجية تثير الجسد. "ولكن كلّ واحدٍ يُجرب إذا انجذب وانخدع من شهوته. ثم الشهوة إذا حبلت تلد خطيئةً والخطيئة إذا كملت تُنتج موتاً" (يع ١: ١٤، ١٥).

فأدم الأول ما كان يسقط في النهم لو لم يجد الطعام في يده مستخدماً إياه بطريقة خاطئة، ولا جُرب آدم الثاني بغير مادة مغرية بل قيل له: "إن كنت ابن الله فقل أن تصير هذه الحجارة خبزاً" (مت ٤: ٣).

ومن الواضح أيضاً للجميع أن الزنا لا يتم إلا بعمل جسدي، إذ يقول الله عن هذا الزوج الطوباوي أيوب: "ها هي قوته في مثنيّه وشدّته في عضل بطنه" (أي ١٦: ٤٠).

وبذلك فإن هاتين الخطيئتين بالذات تُثارا بمساعدة الجسد، فهما يحتاجان إلى زهداً جسدياً بجوار الاهتمام الروحي، حيث تصميم العقل وحده لا يكفي لمقاومة تلك الحروب.

هناك أخطاء مثل الغضب والغم وغيرهما يمكن التغلب عليها بقوة العقل بغير نقشف جسدي.

ويستخدم الزهد الجسدي عن طريق: الصوم والسهرة، وأعمال التوبة. أضف إلى ذلك ترك مكان الخطيئة، لأنه حيث أن الخطيئة تنتج عن تضافر أخطاء الجسد مع العقل، لذا يلزم أن تتضافر قواهما معاً للتغلب عليها.

ومع أن الرسول الطوباوي يتكلم عن الخطايا عامة بأنها جسدية، إلا أنه يحصي العداوة والغضب والهزات أنها أعمال أخرى للجسد. لذا في معالجة الخطايا يلزم أن نكشف عن طبيعتها بدقة مميزين بين الصنفين، فندعو البعض جسدي والآخر خطايا روحية.

الخطايا الجسدية هي التي تعمل على إشباع الشهوات الجسدية وتلذّذه. وهذه تهيج العقل أحياناً ليقبل رغباتها بغير إرادته. وعن هذا يقول الرسول الطوباوي: "الذين نحن أيضاً جميعاً تصرّفنا قبلاً بينهم في شهوات جسدنا عاملين مشيئات الجسد والأفكار، وكُنّا بالطبيعة أبناء الغضب كالباقين أيضاً" (أف ٢: ٣).

أما الخطايا الروحية فهي التي تتبع فقط من باعث عقلي، فليس فقط لا تهب للجسد لذّة، بل أحياناً تجلب له ضعفاً وتضرّه. إنها تغذي العقل السقيم بطعام اللذّة البائسة. لذلك فهي تحتاج إلى علاج واحد وليس كالخطايا الجسدية التي تشفى بعلاج مزدوج...

٥، ٦ - آدم الثاني واهب النصر

إن كان الرسول قد أوضح بكلماته أن ربنا يسوع المسيح قد جُرب في كل شيء مثلنا إلا أنه قيل عنه أنه: "بلا خطيئة" (عب ٤: ١٥)، أي لم تنتقل إليه عدوى الشهوات، لأنه لا يعرف إغراءات الشهوات الجسدية التي بها نضطرب ضد إرادتنا وبغير معرفتنا. وقد وصف رئيس الملائكة حالة الحبل به قائلاً: "الروح القدس يحلّ عليك وقوة العليّ تظلكِ فلذلك أيضاً القدوس المولود منك يدعى ابن الله" (لو ١: ٣٥).

وكان يلزم بحق لربنا أن يجرب بنفس الأهواء التي جرب بها آدم حين كان في صورة الله قبل إفسادها، والتي هي: النهم، الافتخار، الطمع، الكبرياء، والتي تشابكت وأفرخت بعدما تعدى الوصية وأفسد صورة الله وشبهه.

لقد جرب آدم بالنهم حين أخذ الفاكهة من الشجرة الممنوعة، والطمع (الافتخار) حين قيل له: "تتفتح أعينكما"، والكبرياء حيث قيل: "وتكونان كالله عارفين الخير والشر"، وأيضًا جرب مخلصنا بالخطايا الثلاث: بالنهم حين قال له الشيطان: "قل أن تصير هذه الحجارة خبزًا" (مت ٤: ٣). والكبرياء حين قيل له: "إن كنت ابن الله فاطرح نفسك إلى أسفل" (مت ٤: ٦). والطمع حين أراه جميع ممالك الأرض ومجدها قائلاً "أعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لي" (مت ٤: ٩).

لقد أعطانا الرب بمثاله كيف نستطيع أن نتنصر، كما انتصر هو حين جرب. لقد لُقّب كلاهما بـ "آدم". أحدهما كان الأول في الخراب والموت، أما الثاني فكان الأول في القيامة والحياة. بالأول صارت البشرية كلها تحت الدينونة وبالثاني تحررت البشرية.

لقد جربه الشيطان بنفس الخطايا التي بها انخدع آدم الأول، ظانًا أنه كما خدع الأول يخدع الثاني مثله، فوجد نفسه قد انهزم بالتجارب التي هزم بها آدم الأول. وإذ انتصر الرب في تجربة النهم لم يجسر الشيطان أن يجربه بتجربة الزنا بل عبر به إلى تجربة الطمع الذي هو مصدر الشرور (١٠: ٦). وعندما انتصر على الطمع لم يجسر أن يحاربه بالتجارب الأخرى التابعة لها والتي مصدرها ونبوعها هو الطمع، لكنه عبر به إلى آخر الخطايا وهي الكبرياء، لأنه يعرف أن الكاملين الذين غلبوا كل الخطايا يمكن أن يتأثروا بالكبرياء، ولعلمه أنه هو نفسه لوسيفور ومن معه قد سقطوا بسبب الكبرياء من غير أن يسقطوا في أي خطية من الخطايا السابقة...

بهذا الترتيب الذي ذكرناه حسب الإنجيلي لوقا نجد توافقًا وترتيبًا دقيقًا بين الإغراءات وأشكال التجارب التي هاجمهم بها العدو الماكر آدم الأول وآدم الثاني^١...

١٠ - محاربة الخطايا الست الأولى

وبالرغم من أن الخطايا الثمانية مختلفة عن بعضها البعض من جهة أصلها وطريقة تأثيرها علينا إلا أن الخطايا الست الأولى: أي النهم والزنا والطمع والغضب والغم (الكآبة) والفتور لها ارتباط بين بعضها البعض. فإثارة أحدها تكون بداية للتي بعدها.

فالزيادة في النهم يتبعه الزنا، والزنا يتبعه الطمع، والطمع يثير الغضب، والغضب يولد الغم (الكآبة)، والغم يُنشئ الفتور... ويجب أن نراعي هذا في محاربتنا الخطايا. فالشجرة الطويلة كثيرة الأغصان تجف متى تعرّت جذورها أو قُطعت، وبركة الماء لا يمكن تجفيفها ما لم توقف القناة التي تمدّها بالماء.

^١ تحدث بعد ذلك عن أن الافتخار والكبرياء يمكن أن يتحققا بدون أي مساعدة من جهة الجسد.

فإن أردت الغلبة على الفتور يلزمك النصر على الكآبة. ولكي ما تتخلص من الكآبة يلزم طرد الغضب. ولتهدة روح الغضب يلزم أن نطأ بأقدامنا على الطمع، ولأجل اقتلاع الطمع يلزم الامتناع عن الزنا، ولكي ما نهلك الزنا فلننتهر خطية النهم.

أما الخطيَّان الباقيَّان أي الافتخار والكبرياء، فإنهما مرتبطان معاً بنفس الطريقة إلى حدٍ ما... ونلاحظ أننا نكون في خطر من هاتين الخطيَّتين متى صار لنا الغلبة والنصرة الرائعة على الخطايا الست السابقة...

١٣ - اختلاف الهجوم من إنسان لآخر

وإن كانت هذه الخطايا الثمانية تهاجم البشر جميعاً، إلا أنها لا تهاجم الكل بطريقة واحدة. فقد يحتل الزنا مركز الصدارة عند البعض، بينما يحتل الغضب المركز الأول عند آخرين...

١٤ - صراعنا ضد الخطايا

يجب علينا أن نتطلع إلى جميع الخطايا بطريقة تسمح لكل واحد منا أن يتعرف على الخطية التي تركه هو بالذات. بهذا يوجّه هجماته الأساسية ضدها معطياً إيّاها عناية خاصة، ساهراً من أجلها، وموجهاً ضدها سيوف الصوم اليومي، قاذفاً عليها رماح التهديدات والتأوهات القلبية على الدوام، مجاهداً في أعمال السهر والتأملات القلبية منسكباً بدموع وصلوات أمام الله، طالباً على الدوام أن يحفظه من هجماتها...

ويكون في ذلك مثله مثل ذلك الذي يصارع مع مجموعة من الحيوانات المفترسة في حضرة ملوك أرضيين، فإنه دون اعتبار إلى المكافأة التي يأخذها في ذلك المشهد الذي يدعى *pancarpus*، يوجّه هجومه الأول ضد الحيوان الأقوى والأشد افتراساً، فإذا ما قتله يستطيع بسهولة أن يتغلب على بقية الحيوانات الأضعف غير المُخيفة...

إلا أنه يلزمنا ألا نظن أنه إذا هاجم إنسان خطية معينة واحدة يهمل في الهجوم على بقية الخطايا الأخرى، فإنه لن ينتصر بسهولة بسبب الهجمات المفاجئة التي تثيرها الخطايا الأخرى...^٢

ويعلمنا المُشرّع نفسه أن نسلك هكذا، غير معتمدين في ذلك على جهادنا الذاتي، إذ يقول: "لا تهرب وجوههم لأن الرب إلهك في وسطك إله عظيم ومخوف. ولكن الرب إلهك يطرد هؤلاء الشعوب (رمز للخطايا) من أمامك قليلاً قليلاً. لا تستطيع أن تفنيهم سريعاً لئلاً تكثر عليك وحوش البرية. ويدفعهم الرب إلهك أمامك ويوقع بهم اضطراباً عظيماً حتى يفنوا" (تث ٧: ٢١-٢٣).

١٥ - حاجتنا إلى العناية الإلهية في الجهاد ضد الخطية

يلزمنا ألا ننتفخ باننصارنا، لهذا يحذرنا قائلاً "لئلاً إذا أكلت وشبعت وبنيت بيوتاً جيّدة وسكنت وكثرت

^٢ تحدّث عن الطمع والغضب أنه يمكن التغلب عليهما بسهولة حتى أن الآلاف تركوا ممتلكاتهم وسكنوا البراري. كذلك عن الغمّ والفتور وهما يظهران بدون حاجة إلى مؤثر خارجي، لذلك فإنهما كثيراً ما يهاجمان المتوحدين.

بقرك وغنمك وكثرت لك الفضة والذهب وكثر كل مالك يرتفع قلبك وتنسى الربَّ إلهك الذي أخرجك... من بيت العبودية (الخطية)" (تث ٨: ١٢-١٤). كذلك يقول سليمان في الأمثال: "لا تفرح بسقوط عدوك (أي بغلبتك على الخطية والشيطان) ولا يبتهج قلبك إذا عثر • لئلاً يرى الرب ويسوء ذلك في عينه فيردَّ عنه غضبه" (أم ١٧: ٢٤، ١٨)، أي خشية أن يرى الله كبرياء قلبك فلا يعود يهاجمه (يدافع عنك ضد الخطية)، بذلك يتخلى عنك فتغلبك الشهوة التي كنت بنعمة الله منتصراً عليها من قبل...

إنه من الأفضل لنا أن نتعظ بالخبرة ونتعلم بما جاء في الكتاب المقدس بأننا لا نستطيع بأي حال من الأحوال أن نتنصر على مثل هؤلاء الأعداء (الخطايا) الأشداء بقوتنا الذاتية ما لم تسندنا العناية الإلهية^٣...



ملخص المبادئ

- ✠ الخطايا الجسدية التي يشبع فيها الجسد أو يتلذذ تحتاج إلى تضافر قوى الجسد (الصوم والزهد والسهر) مع قوى العقل (صلاة وتنهيدات) في يدي النعمة الإلهية للنصرة عليها.
 - ✠ الخطايا سلسلة كل منها تسلم الإنسان إلى غيرها، لذا يلزم محاربة الأصل...
 - ✠ لكل إنسان خطية معينة، يلزمه أن يركز عليها ضربات السهام من صوم وصلاة وسهر وتنهيدات ودموع، وتتطلب النصر عليها الاهتمام بالخطايا الأخرى أيضاً.
 - ✠ قد جرب الرب وانتصر، لكي نعلم أنه لا نصره لنا بجهودنا الذاتية بل بالرب يسوع المنتصر.
 - ✠ تتطلب النصر حياة الشكر لله، لأنه لا خلاص لنا من خطية بغير نعمة الله وعنايته وحمايته لنا.
- ✠✠✠

^٣ تحدث بعد ذلك بإفادسة كيف أن إهلاك الأمم الوثنية في العهد القديم يشير رمزياً إلى إبادة الخطية في حياة الإنسان.

مناظرات يوحنا كاسيان مع مشاهير آباء البرية

٦

لماذا يسمح الله بالضيقات للقديسين؟!^١

للأب ثيودور (تادرس)

١ - مقدمة

في مقاطعة فلسطين التي تقرب من قرية تيقوع التي تشرفت بظهور النبي عاموس منها، توجد صحراء شاسعة تمتد من العربية حتى البحر الميت حيث يجري فيها نهر الأردن. يقطن هناك كثير من الرهبان الطوباويين، هؤلاء الذين قتلهم الـ Sarcens المجرمين. ولقد كرم الأساقفة المجاورين للمنطقة أجساد هؤلاء القديسين وكانت بينهم غيرة ورعة، إذ كان يرى كل منهم الحق في أخذ الأجساد ودفنها والاحتفاظ بها.

تساءل البعض: لماذا يُذبح هؤلاء الرجال ذوو الاستحقاق العظيم والفضائل الجمّة بواسطة هؤلاء اللصوص؟! لماذا يسمح الله أن تحدث جرائم لعبيده فيسقطوا تحت أيدي الأشرار؟!

وإذ كنا في حزننا أتينا إلى القديس ثيودور الذي برز في (نعمة) التمييز. كان هذا الأب يقطن في منطقة القلالي Calle بين نتريا والإسقيط، تبعد خمسة أميال عن نتريا وثمانية عن برية الإسقيط التي كنا مقيمين فيها. وإذ تقدمنا إليه ونحن في ضيق بسبب موتهم، مظهرين دهشتنا لطول أناة الله العظيمة حتى يسمح بقتل هؤلاء بهذه الكيفية، أولئك الذين كانوا قادرين على حفظ غيرهم من مثل هذه التجارب بسبب قداستهم، هم أنفسهم لم يقدروا أن يخلصوا من السقوط في أيدي الأشرار. لذلك سألناه: لماذا يسمح الله بحدوث مثل هذه الجرائم ضد خدامه؟!

أجابنا الطوباوي ثيودور قائلاً:

٢ - هذا السؤال غالباً ما يتردد في أذهان من ليس لهم إيمان عظيم ومعرفة، حاسبين أن مكافأة القديسين التي لا توهب في هذا العالم بل في الحياة العتيدة، تُمنح لهم في هذه الفترة القصيرة من الحياة الزائلة، أما نحن فقد وضعنا رجاءنا في المسيح، لا في هذه الحياة، لئلا نصير كقول الرسول أشقى جميع الناس (١كو ١٥: ١٩).

فالله لا يمنع التجارب عن المستقيمين، ولا يكافئ في هذا العالم الصالحين بأمور نافعة، والأشعار بأمور شريرة. فإن قلنا بغير هذا نسقط في العقاب مع من ذكرهم صفنيا النبي: "القائلين في قلوبهم إن الرب لا يحسن ولا يسيء" (صف ١: ١٢)، أو على الأقل نصير بين المجذفين على الله القائلين: "كل من يفعل الشر فهو صالح في عيني الرب، وهو يُسرُّ بهم. أو أين إله العدل؟" (مل ١٧: ٢)، ونسقط في التجديف الذي وصفه (النبي) هكذا:

^١ العنوان الأصلي: "موت القديسين".

"عبادة الله باطلة، وما المنفعة من أننا حفظنا شعائره وأننا سلكنا بالحزن قدام رب الجنود. والآن نحن مطَّوَّبون المستكبرين، وأيضًا فاعلوا الشرَّ يُبَيِّنون بل جَرَّبوا الله ونجوا" (مل ٣: ٤، ١٥).

يجدر بنا أن نتجنب هذا الجهل الذي هو أصل هذا الخطأ المهلك. كذلك يلزمنا أن نتعرف على ما هي الأمور الصالحة والأمور الشريرة، حسب المفهوم الوارد في الكتاب المقدس، وليس حسب الفهم العام لهذين التعبيرين، بهذا نهرب من الخداع الذي يسقط فيه غير المؤمنين.

٣ - الأمور الصالحة والأمور الشريرة

تنقسم الأمور التي في العالم إلى ثلاثة أنواع: أمور صالحة، وأمور شريرة، وأمور ليست صالحة ولا شريرة.

يلزمنا أن نعرف أن في الأمور البشرية لا يوجد صلاح حقيقي إلا فضيلة الروح وحدها التي تقودنا بإيمان حقيقي إلى الأمور السماوية، وتجعلنا على الدوام متمسكين بالأمور الباقية.

ومن هذه الناحية الأخرى ينبغي علينا ألا ندعو شيئًا ما شريرًا إلا الخطية وحدها التي تفصلنا عن الله وتربطنا بالشيطان الشرير.

أما دون هذا فهو ليس بصالِح ولا شرير، بل يمكن أن يكون هكذا أو كذلك، وذلك حسب تفكيرنا أو رغبتنا مثل الغنى والقوة والشرف والقوة الجسدية والصحة والجمال والحياة والموت والفقر والضعفات الجسدية والآلام وما إلى ذلك من مثل هذه الأمور التي تمدنا بالصلاح أو الشر حسب شخصية الإنسان واتجاه تفكيره.

فالغنى كثيرًا ما يكون لصالِحنا كقول الرسول بولس طالبًا من الأغنياء: "أن نكونوا أسخياء في العطاء، كرماء في التوزيع، مدَّخرين لأنفسهم أساسًا حسنًا للمستقبل، لكي يمسكوا بالحياة الأبدية" (١ تي ٦: ١٨، ١٩). وكما يقول الإنجيل بأن هذا الغنى يكون للخير لمن يصنع لنفسه "أصدقاء بمال الظلم" (لو ١٦: ٩). ويمكن أن يوجه الغنى إلى الشر عندما نحشده للتخزين أو التمتع به، غير مباليين باحتياج الفقراء.

كذلك **القوة والشرف والصحة السليمة** ليست صالحة ولا شريرة، إنما يمكن أن تكون هكذا أو كذلك. ويظهر ذلك بوضوح مما جاء عن كثير من القديسين الواردين في العهد القديم، إذ كانوا في غنى وفير وشرف عظيم ولهم قوة جسدية، ومع هذا كانوا مقبولين لدى الله. وبالعكس نجد الذين أساءوا استخدام هذه الأمور، مفسدين إياها لتحقيق أغراضهم الذاتية يعاقبون ويهلكون ويظهر ذلك بوضوح مما ورد في سفر الملوك.

أيضًا **الحياة والموت** ليسا في ذاتهما صالحين أو شريرين، ويؤكد هذا ميلاد يوحنا ويهوذا. أحدهما كانت حياته نافعة له، ويظهر ذلك مما قيل عنه، "وكثيرون سيفرحون بولادته" لو ١٤: ١. والآخر قيل عنه: "كان خيرًا لذلك الرجل لو لم يُولد" (مت ٢٦: ٢٤).

كذلك **المرض الجسدي** أحيانًا يكون نافعًا كما في حالة الطوباي لعازر، ذلك الشحاذ المملوء بالقروح. إذ لا يشير الكتاب المقدس إلى فضائل له سوى احتماله العوز والمرض الجسدي بصبرٍ عظيم، فاستحق أن يكون له نصيب مبارك في حضن إبراهيم.

كم تكون نافعة لنا تلك التجارب والآلام التي يحسبها البعض شريرة، فلا يحاول القديسون تجنبها، بل بحق يطلبونها بكل قوتهم، محتملين إياها بشجاعة، وبهذا يصيرون أحياء الله، ويحصلون على جعالة الحياة

الأبدية، ويتغنى الرسول الطوباوي قائلاً: "أسرُّ بالضعفات والشتائم والضرورات والاضطهادات والضيقات لأجل المسيح، لأنني حينما أنا ضعيف فحينئذٍ أنا قوي" (٢كو ١٢: ١٠).

٤ - هل يفرض الشر على أحد؟

الاحتفاظ بهذا التمييز الواضح الثابت وتلك المعرفة، بأنه ليس شيئاً خيراً إلا الفضيلة وحدها، ولا يحسب شيء شريراً سوى الخطية وحدها والانفصال عن الله، هذا يجعلنا ندرك بكل حرص: هل الله يسمح للشر أن يفرض على قديسيه مباشرة، أو عن طريق آخرين؟ بالتأكيد لا يمكن أن يحدث هذا. إذ لا يفرض أحد شر الخطية على آخر قهراً. إنما يحدث هذا خلال تراخيه أو شهوات قلبه الفاسدة.

لقد استخدم الشيطان كل حيله الشريرة ضد أيوب الطوباوي محاولاً أن يفرض عليه شر الخطية، فلم يقطع عنه فقط الاحتياجات الزمنية، بل وحاول أن يُرعبه بكل مصائب الحرمان التي لم تكن متوقعة، كموت أولاده السبعة، وإصابته بقروح مميتة، وعذابات لا تطاق من رأسه حتى أخمص قدميه، لكن أيوب بقي في هذا كله ثابتاً غير مجدّف.

٥ - كيف يُقال أن الله يخلق الشر؟

جرمانئوس: كثيراً ما نقرأ في الكتاب المقدس أن الله خلق الشر وجلبه على البشر، كما جاء في هذه العبارة: "ليس غيري. أنا الرب وليس آخر. مصوّر النور وخالق الظلمة صانع السلام وخالق الشر" (إش ٤٥: ٧). وأيضاً: "هل تحدث بليّة في مدينة والرب لم يصنعها؟" (عا ٦: ٣).

٦- ثيودور: اعتاد الكتاب المقدس أن يستخدم بعض التعبيرات في غير معناها الأصلي. فيستخدم كلمة "الشرور" عن "الأحزان والضيقات" ليس لأنها "شر" أو طبيعتها شريرة، بل لأن من تحلّ بهم هذه الأمور لأجل صالحهم يعتبرونها شرّاً.

فحينما يتحدث الحكم الإلهي مع البشر، يتكلم معهم حسب لغتهم ومشاعرهم البشرية. فالطبيب يقوم بقطع أو كيّ الذين يعانون من القروح لأجل سلامة صحتهم، ومع هذا يراه من لا يقدرون على احتماله أنه شر. والمنخاس أو السوط يكون مفيداً للحصان الجموح. والتأديب يُعتبر مرّاً بالنسبة للمؤدبين، إذ يقول الرسول: "ولكن كلُّ تأديبٍ في الحاضر لا يُرى أنه للفرح بل للحنن، وأما أخيراً فيعطي الذين يتدربون به ثمرٍ للسلام" (عب ١٢: ١١)، "الذي يحبُّه الربُّ يُؤدِّبُه ويجلد كل ابنٍ يقبله فأبني لا يُؤدِّبُه أبوه؟!" (عب ١٢: ٧).

لذلك فقد أُعتد أن تُقال كلمة "شرور" عوض "الحنن"، ذلك كما نقرأ: "فلما رأى الله أعمالهم أنهم رجعوا عن طريقهم الرديئة ندم الله على الشر الذي تكلم أن يصنعه فلم يصنعه" (يون ٣: ١٠)، وأيضاً: "لأنه رؤوف رحيم بطيء الغضب وكثير الرأفة ويندم على الشر" (يؤ ٢: ١٣)، أي يندم على الضيقات والخسائر التي يسمح بها من أجل خطايانا.

إننا لا نستطيع أن نزعم بأن هذه الأمور شريرة في ذاتها، لأنها تعمل في كثيرين للخير، مقدمة لهم فرصاً للبركة الأبدية.

وبذلك فنحن نعود إلى السؤال الذي وجه إليّ: فأقول بأن كل هذه الأشياء التي قد جلبها علينا أعداؤنا ويطن أنها شر لا يمكن اعتبارها شرّاً، بل هي في ذاتها ليست شرّاً ولا خيراً.

في النهاية نقول بأننا لا ننظر إلى هذه الأشياء حسبما يريد من صنعها أثناء ثورته وغضبه، إنما ننظر

بالنسبة للذين يحتملونها. فإذا ما لحق قديس قتلاً، ينبغي علينا ألا نظن أنه قد لحقه شر، بل ما هو ليس بخير أو شر، فيُعتبر شرّاً بالنسبة للرجل الشرير، وراحة وتحريراً من الشرور بالنسبة للصالحين.

٧- سؤال لماذا يعتبر مجرمًا من يقتل إنساناً ينتفع بالموت؟

جرمانئوس: حسنًا. إذا كان الرجل الصالح لا يحدث له شر بقتله، بل ينتفع من ذلك بحق، فكيف نستطيع أن ننتهم الرجل الذي لم يصنع له ضررًا بل خيرًا بقتله؟!

٨- **ثيودور:** لا يجوز عدم معاقبة الشرير لأن فعله الشرير لم يستطع أن يؤدي الإنسان الصالح. فصبر الرجل الصالح واستقامته لا يفيدان من قام بقتله، إنما يفيد هو فقط إذ تحمل بصبر ما قد حل به. فبعدل يُعاقب الشرير عن قسوته ووحشيته من أجل نيته الشريرة، بينما لا يصيب الآخر شرّاً لأجل قلبه إذ احتمل التجربة والألم بصبر، محولاً ما قد وقع عليه من شر ليكون لنفعه مساعداً إياه في بركة الحياة الأبدية.

٩- أمثلة:

إن صبر أيوب وانتقاعه بالتجارب التي بها ازداد صلاحاً لم ينتفع به الشيطان بل أيوب وحده لأنه احتمل بصبر. كذلك يهودا لم يعفَ من العقاب الأبدي بسبب خيانتة التي بها عاون على خلاص البشرية. يلزمنا ألا ننظر إلى نتيجة العمل بل هدف الفاعل.

لنتمسك بهذا متأكدين أنه لن يصيب أحد غيره شرّاً، ما لم يتقبله الغير بالكسل والفتور. يؤكد الرسول الطوباوي هذا بقوله: "ونحن نعلم أن كل الأشياء تعمل معاً للخير للذين يحبون الله" (رو٨:٢٨). بقوله "كل الأشياء تعمل معاً للخير" تشمل كل الأمور على قدم المساواة، سواء الأمور المبهجة أو الأمور التي تبدو كأنها مصائب. وخبّرنا الرسول في موضع آخر أنه قد اختبر هذا وذلك بقوله: "بسلاح البرّ لليمين واليسار" أي "بمجدٍ وهوانٍ بصيتٍ ردي وصيتٍ حسن. كمُضِلِّين ونحن صادقون. كحزانى ونحن دائماً فَرِحُونَ. كفقراء ونحن نُغْنِي كثيرين" (٢كو٦:٧-١٠). دعى كل الأمور المبهجة "لليمين"، هذا ما أوضحه الرسول من عبارات "بمجدٍ وبصيتٍ حسن"، والأمور التي تبدو كمصائب أوضحها بقوله: "وهوانٍ وبصيتٍ ردي" هذه التي "اليسار"، كل هذه الأمور بالنسبة للرجل الكامل "سلاح برّ" وذلك لأنه متى حلت به وتحملها بشجاعة يكون كما كان مستخدماً إياه كسلاح قوي ولا يكون هو المُهاجم بها. يحتمي بها كسلاح وسيف وترس قوي ضد الذين يستخدمونها (لهلاكه) فيضمن فوائد صبره وصلاحه، نائلاً صبراً عظيماً لثباته، مستخدماً نفس الأسلحة التي رشقه بها أعداؤه (الشياطين) لقتله.

إذا لم ينتفخ بنجاحه ولا ييأس بفشله، يكون بهذا سائراً على الدوام باستقامة في الطريق الملوكي من غير أن ينحرف عن الهدوء، لا يميناً حيث يشمل الفرع (منتفخاً)، ولا يساراً حيث تكتنفه المصائب وتغمره الكآبة. بالنسبة للكاملين والحكماء يقال: "كل الأشياء تعمل معاً للخير للذين يحبون الله" (رو٨:٢٨). أما بالنسبة للضعفاء الأغبياء فقد قيل أن كل شيء ضد الشخص الغبي، فلا ينتفع من النجاح ولا ينصلح شأنه من المصائب. إذ يهزم الإنسان بأكثر سهولة بالنجاح أكثر من الفشل، لأن الفشل يجعل الإنسان أحياناً يقف ضد إرادته، وينال اتضاعاً، وخلال حزنه المفيد يقلل من خطيته وينصلح شأنه. أما النجاح فقد يدفع بالإنسان إلى الكبرياء العقلي والعظمة الكاذبة.

١٠ - تشبيه الإنسان الكامل بالأشول

يشبّه (الرجل الكامل) في الكتاب المقدس بالأشول، إذ وُصف إهود في سفر القضاة (١٥:٣) بأنه يستخدم يده اليسرى كما لو كانت يمينى. ويمكننا أن ننال هذه القوة (أي تكون يدنا اليسرى قوية كاليمينى) باستخدامنا الأشياء السارة استخدامًا سليمًا ومفيدًا هذه التي هي "لليمين"، واستخدامنا الأشياء المؤلمة التي هي "ليسار" استخدامًا حسنًا "سلاحًا للبر" كقول الرسول.

الإنسان الداخلي له جانبان، أو بمعنى آخر "يدان". فلا يستطيع أي قديس أن يعمل من غير أن يستعمل يده اليسرى، وبهذا يظهر كمال الفضيلة. الإنسان الماهر يستطيع أن يحول كلا يديه إلى "يدين يمينيتين". ولكي نوضح ذلك نقول بأن القديس له يد يمينية للأعمال الروحية، وذلك بحصوله على الرغبات الصالحة والأهواء الحسنة بغيره روحية، متحرراً من هجمات الشيطان بدون أي مجهود أو صعوبة في بغضه وقطعه للخطايا الجسدية، وعندما يكون مبتهجا على الأرض، ناظراً إلى الأمور الزمنية والأرضية كبخارٍ وظلٍ باطلٍ، مزدرياً بها كأمر زائلة. وبقلبه الفياض لا يشتاق بغيره زائدة نحو الأمور العتيدة فحسب، بل بالحق يراها بوضوح، مقتاداً بالتأمل الروحي، مدركاً الأسرار بوضوح، ومقدماً صلواته أمام الله بنقاوة واستعداد، ملتهباً بغيره روحية نحو العبور إلى الأمور غير المنظورة الأبدية، حتى يصعب الاعتقاد بأنه لا يزال باقياً في الجسد.

ويكون للإنسان يد يسارية عندما يسقط في أشراك التجربة ويحترق بنيران الشهوة ويكون كما لو كان جالساً على نيران بسبب التهيج والغضب، مغلوباً من الكبرياء والافتخار، متضيقاً من الحزن العامل للموت، متزعزعا نحو قطع الرجاء، مهاجماً بالفتور، فاقداً كل دفء روحي، نامياً في نوع من الفتور والغم الذي بلا سبب، حتى أنه ليس فقط تتركه الأفكار الصالحة، بل والترنم بالمزامير والصلاة والقراءة وينهزم من النوم، وتبدو كأن جميع التداريب قد فقدت طعمها بكراهية مريضة لا تطاق، فإذا ما اضطرب (الراهب) بهذه الناحية فليعلم أنه مهاجم من الجانب اليساري.

فإن لا ينتفخ الإنسان بالكبرياء بسبب ما بلغه من الجانب الأيمن مما سبق ذكره، ويقاوم ببسالة الهجمات التي تأتيه من الجانب الأيسر من غير أن يترك مجالاً لليأس، ممسكاً بأسلحة الصبر متديراً على الفضيلة، فإن هذا الرجل يكون مستخدماً كلا يديه كيديين يمينيتين. فينال نصرة في كل عمل ويحصل على الجعالة بسبب الجانب الأيسر كما من الجانب الأيمن.

فإننا نقرأ عن المكافأة التي نالها الطوباوي أيوب والذي توج بالنصرة من الناحية اليمينية، لأنه إذ كان أباً لسبعة بنين وكان غنياً وصاحب ثروة طائلة كان يقدم كل يوم ذبائح لله لأجل تطهيرهم، وذلك لشغفه أن يكونوا مقبولين وأغزاء لدى الله أكثر منه. وكان يفتح بابه لكل غريب إذ كان: "عيوناً للعمي وأرجلاً للعرج" (أي ١٥:٢٩)، وكسى أكتاف التعابى بصوف غنمه. وكان أباً لأيتام وزوجاً للأرامل، ولم يكن يفرح قط لسقوط عدو له.

وقد بقي نفس الرجل في حياة الفضيلة بصورة أعظم عندما انتصر على المصائب من الناحية اليسارية، عندما أخذ منه أولاده السبعة في لحظة، فإنه كأب لم يتغلب عليه الحزن المرّ، بل كخادم حقيقي لله ابتهج بإرادة خالقه. وإذا صار فقيراً بعدما كان صاحب ثروة، ومُعذّباً بعد أن كان غنياً، وهزلاً بعدما كان قوياً، ومؤدباً ومرذولاً بعدما كان مشهوراً وصاحب شرف، في كل هذا احتفظ بثبات عقلته من غير أي اضطراب. وأخيراً إذ تجرد من كل شيء جلس وسط الرماد وكان يحك جسده بسبب ما أصابه، زافراً بتنهيدات حارة، ومع هذا لم

يسقط في اليأس ولا جدف أو تذمر على خالقه.

استطيع أيضًا أن أقول بأن يوسف كان أشولاً. ففي أفراده كان عزيزاً جداً عند والديه، محباً لإخوته، مقبولاً لدى الله. وفي ضيقاته كان عفيفاً، مؤمناً بالله. في سجنه كان أكثر شفقة على المسجونين، متسامحاً مع المخطئين، صافحاً عن أعدائه (امرأة فوطيفار). وبالنسبة لإخوته الحاسدين له، فإنه بمقدار ما سقطوا تحت سلطانه إذ كان في إمكانه أن يقتلهم أثبت محبته لهم بل وسخاءه الحقيقي تجاههم.

إن هؤلاء الرجال وأمثالهم بحق يدعى كل منهم "أشولاً" إذ يقدر أن يستخدموا كلا يديهم كأيد يمينية قائلين بحق: "بسلام البر لليمين واليسار. بمجد وهوان، بصيتٍ رديء وصيتٍ حسن الخ." (٢كو ٨: ٧: ٦).

يتحدث سليمان في سفر نشيد الأناشيد عن اليد اليمنى واليد اليسرى في شخص العروس قائلاً: "شماله تحت رأسي ويمينه تعانقني" (نش ٦: ٢). وبينما يظهر أن كليهما مفيد، إلا أنها تضع إحداها تحت الرأس، لأنه ينبغي أن تخضع الضيقات لمراقبة القلب، فتصير نافعة لأنها تهدبنا إلى حين، وتؤدبنا لأجل خلاصنا، وتهبنا الكمال في الصبر. أما اليمنى فتأمل أن تلتصق بها لكي ما تلاطفها، فتتال المعانقة المباركة التي للعريس، وفي النهاية تضمها إليه.

وهكذا يحسب كل منا أشولاً عندما لا يؤثر فينا الرخاء ولا العوز. فلا يغوينا الرخاء، ولا يدفع بنا نحو الإهمال الخطير، كذلك لا يجذبنا العوز إلى اليأس والشكوى (التذمر)، بل نقدم الشكر لله في كل شيء.

وقد أظهر الرجل الأشول، معلم الأمم، أنه هو نفسه كان هكذا بقوله: "فإني قد تعلمت أن أكون مكتفياً بما أنا فيه. أعرف أن أتضع وأعرف أيضاً أن استفضل. في كل شيء وفي جميع الأشياء قد تدرت أن أشبع وأن أجوع وأن استفضل وأن أنقص. أستطيع كل شيء في المسيح يسوع الذي يقويني" (في ٤: ١١-١٣).

١١ - لماذا يسمح الله بالتجربة؟

ينبغي علينا أن نعرف أن البشر جميعاً يجربون لأسباب ثلاثة:

(أ) غالباً لأجل اختبارهم (تزكيتهم).

(ب) وأحياناً لأجل إصلاحهم.

(ج) وفي بعض الحالات بسبب خطاياهم.

١ - فمن أجل اختبارهم، كما نقرأ عن الطوباييين إبراهيم وأيوب وكثير من القديسين الذين تحملوا تجارب بلا حصر.

٢ - ومن أجل الإصلاح، وذلك عندما يؤدب أبراره من أجل خطاياهم البسيطة (اللاإرادية) والهفوات، ولكي ما يسمو بهم إلى حال أعظم من النقاء، منقياً إياهم من الأفكار الدنسة، وذلك كالقول: "كثيرة هي بلايا الصديق" (مز ١٩: ٣٤)، "يا ابني لا تحتقر تأديب الرب ولا تحزر إذا وبخك. لأن الذي يحبه الرب يؤدبه ويجلد كل ابن يقبله فأبني لا يؤدبه أبوه. ولكن إن كنتم بلا تأديب قد صار الجميع شركاء فيه فأنتم نغول (أي أولاد زنا) لا بنون" (عب ١٢: ٥-٨). وفي سفر الرؤيا: "إني كل من أحبه أوبخه وأؤدبه" (رؤ ١٩: ٣). ويصلي داود من أجل عطية التطهير هذه قائلاً: "جربني يا رب وامتحني. صف كلبتي وقلبي" (مز ٢٦: ٢). وإذ يعلم النبي قيمة هذه التجارب يقول: "أدبني يا رب ولكن بالحق لا بغضبك" (إر ١٠: ٢٤)، وأيضاً "أحمدك يا رب لأنه إذ غضبت علي ارتد غضبك فتعزيني" (إش ١٢: ١).

٣- **عقاب من أجل الخطية** وذلك كما هدد الله بأن يُرسل أوبئة على بني إسرائيل (لشهرهم) "أرسل فيهم أنياب الوحوش مع حمة زواحف الأرض" (تث ٣٢: ٢٤). وأيضاً في المزمير: "كثيرة هي نكبات الشرير" (مز ٣٢: ١٠)، وفي الإنجيل جاء: "ها أنت قد برئت. فلا تخطئ أيضاً لنألاً يكون لك أشر" (يو ٥: ١٤).

٤- **بالحقيقة أيضاً نجد سبباً رابعاً ذكره الكتاب المقدس، وهي أن الأتعاب تُجلب علينا ببساطة من أجل إظهار مجد الله وأعماله، وذلك كقول الإنجيل: "لا هذا أخطأ ولا أبواه لكن لتظهر أعمال الله فيه" (يو ٩: ٣). وأيضاً "هذا المرض ليس للموت بل لأجل مجد الله ليتجدد ابن الله به" (يو ١١: ٤).**

٥- **وهناك أنواع أخرى للنقمة التي يُبتلي بها الذين تجاوزوا رباطات الشر في حياتهم (وبالغوا فيه)، إذ نقرأ عن داثان وأبيرام وقورح الذين عوقبوا، وعن الذين يقول عنهم الرسول: "أسلمهم إلى أهواء الهوان إلى ذهن مرفوض" (رو ١: ٢٦، ٢٨). وهذه تعتبر أمر كل عقاب لأنهم صاروا غير مستأهلين لأن يشفوا بالافتقاد الإلهي واهب الحياة، إذ "هم قد فقدوا الحسّ أسلموا نفوسهم للدعارة ليعملوا كل نجاسة في الطمع" (أف ٤: ١٩). وبسبب قسوة قلوبهم والتمادي في عاداتهم وفعلهم للشر قد صار لهم عقاب في هذا العالم من غير تطهير. وتغيرهم الكلمة المقدسة التي نطق بها النبي قائلاً: "قلبتُ بعضكم كما قلب الله سدوم وعمورة فصرتم كشعلة مُنثَّلة من الحريق فلم ترجعوا إليّ يقول الرب" (عا ١١: ٤). ويقول ارميا: "أكل وأبدي شعبي. ولم يرجعوا عن طرقهم" (إر ١٥: ٧). وأيضاً "ضربتهم فلم يتوجعوا. أفنتيهم وأبوا قبول التأديب. صلبوا وجوههم أكثر من الصخر. أبوا الرجوع" (إر ٣: ٥). فيرى النبي أن كل أدوية هذه الحياة لم تُجد نفعاً لشفائهم، معلناً أنه قد يئس من حياتهم، قائلاً: "احترق المنفاخ من النار، فني الرصاص. باطلاً صاغ الصائغ والأشرار لا يُفرزون. فضة مرفوضة يُدعون. لأن الرب قد رفضهم" (إر ٢٩: ٦، ٣٠).**

ينوح الله عليهم لأنه قدّم لهم التطهير بالنار فلم ينتفعوا، متصلبين في خطاياهم. فيبكيهم في شخص أورشليم التي تغلفت بالصدأ إذ يقول: "ضعها فارغة على الجمر ليحامي نحاسها ويحرق، فيذوب قنرها فيها، ويفنى زنجارها. بمشقاتٍ تعبت، ولم تخرج منها كثرة زنجارها. في النار زنجارها. في نجاستك رذيلة لأنني طهرتك فلم تطهري ولن تطهري بعد من نجاستك" (حز ٢٤: ١١-١٣).

إنه يشبه الطبيب الحاذق الذي استخدم كل وسائل الشفاء ولم يعد بعد هناك علاج يمكن أن يُستخدم. لقد غلب الله من ظلمهم، ويُجبر على الكف عن تأديباته الرقيقة، فاضحاً إياهم قائلاً: "أجل غضبي بكِ فتصرف غيرتي عنك فأسكن ولا أغضب بعد" (حز ١٦: ٤٢).

١٢- ثبات الإنسان المستقيم

ينبغي للإنسان المستقيم ألا يكون عقله مثل الشمع أو أي مادة رخوة فيسهل تشكيله بما يُضغط عليه، فيُختم أخذاً شكل الختم إلى أن يأخذ شكلاً آخر عندما يُختم بختم آخر. وبهذا لا يبقى ثابتاً على شكله، بل يتغير ويتشكل متأثراً بما يُضغط عليه. إنما يلزم أن يكون كالختم الحديدي الصلب، فيحتفظ العقل على الدوام بصلاحيته وطهارته، خاتماً شكله على كل شيء، مظهرًا علاماته عليها. وبهذا فإنه مهما حدث من الأمور لا تنزع عنه علاماته.

١٣- جرمانايوس: ولكن هل يستطيع عقلنا أن يحتفظ بحاله على الدوام بدون تغيير؟

١٤- **ثيودور:** إننا نحتاج إلى ما يقوله الرسول: "وتجددوا بروح ذهنكم" (أف ٤: ٢٣)، إلي التقدم الروحي ف

"أنسى ما هو وراء" (في ١٣:٣). فإن تغاضى الإنسان عن فعل ذلك تكون النتيجة الحتمية هي النكوص والتقهقر من سيئ إلى أسوأ.

لا يمكن للعقل أن يبقى على حالٍ واحدٍ. فكما أن الإنسان الذي يجدف بقوة يحاول أن يقاوم بسفينته ضد العاصفة القوية، مقتحمًا التيار بقوة ذراعيه، وبهذا يمتد إلى ما هو قدام، أما إذا ترأخى بيديه فإن سفينته تدور بسرعة تحت قوة العاصفة، هكذا يصير فشلنا واضحًا إن كنا لا نكتسب شيئًا إضافيًا، لأنه بغير شك نترجع إلى الوراء عندما نكون غير متقدمين إلى الأمام. وكما قلت إن العقل البشري لا يستطيع أن يبقى على حاله، إذ لا يستطيع أي قديس أن يصل إلى مرتفعات كل الفضائل مادام باقيا في الجسد حتى يبقى بدون تغيير. فإما أن يضيف شيئًا أو يفقد شيئًا. إننا نعترف بأن الله وحده هو غير المتغير، فيصلي إليه النبي الطوباوي قائلاً: "ولكن أنت، أنت، وسنوك لن تفنى" (عب ١:١٢). ويقول الله عن نفسه: "أنا الرب لا أتعير" (مل ٦:٣). لأنه هو وحده الذي بطبيعته صالح على الدوام وكلّي الصلاح ولا يمكن أن يُضاف أو ينقص منه شيء.

لهذا يلزمنا أن نخضع لمطالب الفضيلة بعناية فائقة وشوق، وأن نشغل أنفسنا بعملها، لأنه كما قلنا أن العقل لا يقدر أن يبقى على حال واحد، أي لا يمكن أن يبقى من غير أن يُضاف أو تقل منه صفاته الحسنة. فالفشل في اقتناء صفات جديدة يعني وجود خسارة. وإذ تبطل الرغبة في التقدم يوجد خطر التقهقر إلى الوراء.

١٦ - القوات السمائية يمكن أن تتغير

حتى القوات العلوية كما قلنا تخضع للتغير، ويظهر هذا من الذين سقطوا من رتبتهم بسبب خطأ إرادتهم الفاسدة. لذلك ينبغي علينا ألا ننظر أن طبيعتهم غير قابلة للتغير هؤلاء الذين بقوا في حالة مباركة كما خلقوا عليها ببساطة.

فبالأولى يلزمنا نحن أن نحفظ بحرص ما يمكن أن نفقده بالإهمال، إذ مكتوب: "لا تغبط (لا تمدح) أحدًا قبل موته" (يشوع بن سيراخ ٣٠:١١). فإنه طالما الإنسان في حالة جهاد يبقى في موقف مصارع. ليست فضيلة ما يمكن للإنسان أن ينالها بدون احتمال التغير، فإذا ما نالها يجب عليه أن يحافظ عليها دائما ويراعياها بنفس العناية والسهر اللذين طلبها بهما.

١٧ - لا يحدث السقوط فجأة

ينبغي ألا ننظر بأن إنسانًا ما يزل وينزل إلى الغم بسقطة مفاجئة، إنما ينحدر إلى سقطة ميئوس منها، إما عن طريق خداعه منذ البداية أثناء تدريبه ببداية خاطئة، أو يزل من حالته الروحية الحسنة تدريجيًا خلال فترة طويلة بسبب الإهمال العقلي، فتزداد الأخطاء قليلًا. لأن "قبل الكسر الكبرياء، وقبل السقوط تشامخ الروح" (أم ١٨:١٦). ذلك كالمنازل الذي لا يسقط فجأة دفعة واحدة بل يحدث بعض الخلل في الأساس لفترة طويلة، أو يحدث نتيجة إهمال ساكنيه لمدة طويلة، فيحدث بعض (الرشح أو الخلل) وبعد هذا تتهار الحوائط المحصنة تدريجيًا. لأنه "بالكسل الكثير يهبط السقف ويتدلى اليدين يكف البيت" (جا ١٨:١٠)، هذا أيضًا ما يحدث للروح.

إذ سمعنا ذلك نتعمنًا بوليمة روحية، حتى فاق السرور الذي ملأنا بهذه المناظرة الحزن الذي كنا فيه بسبب موت القديسين. فإننا لم نتعلم فقط بخصوص الأمور التي كنا في حيرة من جهتها بل وتعلمنا من سؤالنا هذا أمورًا أخرى لم نكن قد سألنا عنها.

نياحة القديس مويسيس ١١ مسرى ١٦٧٦

١٧ أغسطس ١٩٦٠



ملخص المبادئ

✠ لا يجازي الله الأبرار بالبركات الزمنية، ولا يعاقب الأشرار بالضيقات هنا، إنما نصيبنا هو الرب ورجاؤنا هو الحياة الأبدية.

✠ ما يصيب الأبرار هنا من شر هو في الحقيقة ليس شرًا، لأن الشر هو الخطية التي تفصلنا عن الله، والخير هو الفضيلة التي تقربنا الله.

✠ بالنسبة للمؤمن الحقيقي، جميع الأمور تعمل معًا للخير، فهو الرجل الأشول الذي يستخدم يده اليسرى كأنها اليمنى.

(أ) يستخدم الأفراح وتمتعه بالبركات الزمنية كيد يمنى بها يشكر الله ويسبحه، ويستخدم الأحزان والضيقات كيد يسرى بها يحتمل بصبر شاكراً الله.

(ب) في حالة التعزية الروحية والفرح - كيد يمنى - يتعبد لله بغيرة واشتياق. وفي حالة الفتن الروحية - كيد يسرى - لا يكف عن المثابرة والجهاد من أجل محبته للرب.

✠ يخسر الإنسان الغني في الرخاء والتمتع بالبركات الزمنية أكثر مما يخسره في حالة الأحزان والآلام.

✠ يسمح الله لأولاده فترات فتور روعي لكي يتعبدوا ويثابروا رغم فتورهم، فينالوا النصر من الناحية اليسارية.

✠ يسمح الله بالتجارب إما لتزكية المؤمن، أو لأجل تنقيته، أو كتأديب، أو لأجل تمجيد الله. وأحياناً يسمح بها نتيجة تخليه عن الإنسان الشرير بسبب إصراره على الشر.

✠ الله وحده غير متغير، لأن صلاحه لا عن جهاد أو مكتسب، بل هو كلي الصلاح بطبعه، أما الإنسان فهو دائم التغير، لأنه مهما بلغت قداسته وصلاحه لا يصل إلى كمال الصلاح غير المحدود، لهذا لا يبقى في حالة ثابتة. بهذا إن لم يتقدم في حياة الفضيلة حتمًا يتقهقر.



مناظرات يوحنا كاسيان مع مشاهير آباء البرية

٧

تشتيت الفكر وضبطه وهل للشيطان سلطان علينا؟

للأب سيرينوس

١ - مقدمة

إذ نرغب في تقديم الأب سيرينوس لأصحاب العقول الغيورة للغاية، هذا الرجل العظيم في قداسته وعفته، إجابته هي مرآة لاسمه. إننا نعجب منه في أمور كثيرة... فبجانب كل الفضائل التي تتلأأ فيه، لا من جهة أعماله وأخلاقه الظاهرة فحسب، بل ونعمة الله الظاهرة في هيئته أيضًا، فقد وهبت له نعمة خاصة هي عطية "العفة"، فلم يكن يشعر قط باضطراب حتى بالنسبة للانفعالات الطبيعية أثناء النوم.

ينبغي لي أولاً أن أشرح كيف حصل علي نقاوة الجسد العجيبة بمساعدة النعمة الإلهية بطريقة تبدو أسمى من الحالة الطبيعية التي للبشرية.

٢ - عفة سيرينوس

كان ذلك الرجل في صلواته النهارية والليلية وأصوامه وسهره يطلب بدون كلل العفة الداخلية التي للقلب والروح. وقد نال ما كان يشتهي ويصلي من أجله، فماتت أهواء الشهوة الجسدية في قلبه. هذا مع شعوره بلذة النقاوة، واشتياقه الحار للعفة...

باختباره للعطية التي حصل عليها أدرك أنه قد صارت له حصانة، لا باستحقاقات أعماله، بل حسب النعمة الإلهية، فصار يطلب العفة بأكثر غيرة، مجاهدًا... إذ كان يعتقد بأن الله قادر أن يقتلع بسهولة جذور الشهوات الجسدية... لأن نقاوة الروح، التي هي أعظم شيء، تُعطى هبة من قبل الله حسب إرادته.

إذ كان يصلي ملتزمًا بدموع، مثابرًا من أجل طلبته الأولى، ظهر له ملاك في رؤيا الليل، وكأنه قد فتح بطنه ونزع عنه الانفعالات الجسدية النارية، وقذف بها خارجًا، وأعادها كما كانت، ثم قال له: "هوذا قد أزيلت عنك انفعالات جسدك، ويلزمك اليوم أن تتأكد بأنك قد نلت نقاوة الجسد الكاملة التي سألت من أجلها بإيمان".

يكفي أن أخبركم بإيجاز عن هذه النعمة الإلهية التي وهبت لهذا الرجل بهذه الطريقة الخاصة. وأظن إنه

ليس هناك حاجة أن أتحدث عن بقية فضائله...

إذ كنا مشتاقين بغيرة قوية لمناقشته والتعلم منه زرناء في الصوم الكبير، وسألناه بهدوء عن أحوال أفكارنا وعن إنساننا الداخلي، وعما قمنا به خلال الفترة الطويلة التي قضيناها في البرية من أجل نقاوة إنساننا الداخلي، حينئذ قدمنا له هذه الشكوى.

٣ - سؤال بخصوص ضبط الفكر

إنك تظن أننا نلنا كمال إنساننا الداخلي في هذه الفترة الذي قضيناها هنا في الوحدة والتأمل، لكن حدث الآتي: لقد تعلمنا الأمور التي لا نستطيع أن نفعلها لا ما ينبغي أن نحاول فعله. بهذه المعرفة لم نشعر أننا حصلنا علي أي ثبات في النقاوة التي نشأتنا إليها، أو أية قوة وحزم، بل صار فينا خوف... بالرغم من تأملنا في أهداف نظامنا خلال دراستنا اليومية، واجتهادنا في الوصول من البداية إلى النقاوة الثابتة الأكيدة... وبدأنا نعرف بعض الأمور التي كنا نفهمها بمفاهيم خاطئة أو نجهلها تمامًا، وتقدمنا بخطوات ثابتة نحو ذلك النظام، متدربين عليه بكمال بدون أية صعوبة.

بالرغم من جهادي في هذه الرغبة نحو النقاوة لم أعرف بعد ما أستطيع أن أكون عليه... لهذا أشعر باضطراب، حتى أن دموعي لم تتوقف قط، ومع هذا لم أكف عن ما لا ينبغي أن أكون عليه.

ما الفائدة من تعلم ما هو الأفضل مادمت لا أقدر أن أناله حتى إن عرفت؟

إننا إذ نشعر بأن هدف قلبنا قد انحرف عن الغرض. تمر بنا الأفكار العجيبة السابقة لاشعوريًا وتتدفق بأكثر شدة ويصير الذهن في ذهول دائم، أسيرًا لأشياء كثيرة، حتى أننا غالبًا ما نياس من الإصلاح الذي نتوق إليه، وكأن كل هذا الاهتمام بلا جدوى. وإذا نستيقظ ونكتشف تيه الذهن عن غرضه الموضوع أمامه، ونرغب في استعادته إلى التأمل الروحي الذي ضل عنه، ونربطه بسرعة بالغرض القلبي الثابت، سرعان ما ينسحب من مخادع القلب أسرع من الحية.

إذ نلتهب بالتدرب اليومية لا نرى أننا كسبنا أية قوة أو ثبات قلبي فتُغلب باليأس، ونضل بهذه الفكرة، وهي الاعتقاد بأن الخطأ ليس منا بل من طبيعتنا وأن الضلال هو من الطبيعة البشرية.

٤ - لا نلم الطبع البشري في ذاته

سيرينوس: من الخطر أن نسرع إلى هذه النتيجة، ملقين اللوم علي الطبيعة (البشرية) دون أن نناقش الموضوع بإتقان... فيلزمك ألا تحكم حسب ضعفك، إنما بناء علي قيمة التدريبات ومنهجها واختبار الآخرين لها. فإن أي إنسان يجهل السباحة إذ يعلم أن وزن الجسد لا يمكن أن يحمله الماء ويرغب في البرهان علي ما قدمته له خبرته الخاصة قائلاً بأنه لا يمكن لأي جسم صلب أن يُحمل بسهولة علي سائل، فلا نصدق رأيه المبني علي خبرته الشخصية.

هكذا بحسب الطبيعة لا يمكن للعقل أن يكون خاملاً... بل لديه علي الدوام ما يشغله، وبسبب ثقله يضل ويتوه في أمور كثيرة ما لم يمارس التدريبات اليومية الطويلة، هذه التي تقول عنها أنك تعبت فيها بلا جدوى. هذا يتطلب الجهاد بمثابة لضبط الفكر، محاولاً ومتعلماً أن تقدم للذاكرة القوت الضروري (أي الأفكار الصالحة عوض الأخرى)، ويمكننا بسهولة طرد أفكار العدو (الشيطان) المُعادية التي تشتت فكرنا، وبالتالي نبلغ الحياة التي نشأتنا إليها.

يلزمنا ألا ننسب الانحراف في تيه القلب إلى الطبيعة البشرية أو خالقها، فإنه بالحق يقول الكتاب المقدس "إن الله صنع الإنسان مستقيماً، أما هم فطلبوا اختراعات كثيرة" (جا ٢٩:٧). اختلاف الأفكار يتوقف علينا نحن، لأن الفكر الصالح يقترب من الذين يعرفونه والإنسان العاقل يجده. فأمر يخضع لتمييزنا وعملنا يمكننا أن نصل إليه، فإذا لم نبغعه يرجع هذا إلى كسلنا وإهمالنا لا إلى خطأ في طبيعتنا.

لو لم يكن هذا الأمر في قدرتنا لما وىح الرب الفرسيين قائلاً: "لماذا تفكرون بالشر في قلوبكم؟" (مت ٤:٩). ولما كلف النبي ليقول: "اعزلوا شر أفعالكم من أمام عيني" (إش ١٦:١)، "إلى متى تبيت في وسطك أفكار الباطلة؟!" (إر ١٤:٤)، ولما كان لنوع أفكارنا اعتبار في يوم الدينونة إذ يهدد الله بواسطة إشعياء قائلاً: "وأنا أجازي أعمالهم وأفكارهم" (إش ٦٦: ١٨). فما كان من الصواب أن نجازي أو نعاقب حسب شهادة أفكارنا في ذلك الامتحان الرهيب المميت، إذ يقول الرسول المبارك: "شاهدًا أيضًا ضميرهم وأفكارهم فيما بينها مشتكية أو محتجة. في اليوم الذي فيه يدين الله سرائر الناس حسب إنجيلي" (رو ١٥:٢، ١٦).

٥ - سلطاننا على الفكر

ورد في الإنجيل مثال ممتاز بخصوص الكمال العقلي وذلك في حالة قائد المائة، هذا الذي لم تكن فضيلته بفكر مندفع (الزامي) إنما بإرادته كان يقبل الفكر الصالح أو يطرد الفكر الشرير بسهولة. وقد جاء ذلك في الصورة التالية: "لأنني أنا أيضًا إنسان تحت سلطان. لي جند تحت يدي. أقول لهذا اذهب فيذهب، ولآخر إنبت فيأتني ولعبدي افعَل هذا فيفعل" (مت ٨:٩).

إذا ما جاهدنا كبشر ضد الاضطرابات والخطايا، نصير هذه تحت سلطاننا وفق إرادتنا، فنحارب أهواء جسدنا ونهلكها ونأسرها تحت سلطاننا، ونطرد من صدرنا الضيوف المرعبين، وذلك بالقوة التي لنا بصليب ربنا، فتنتمتع بالنصرة التي نراها في مثال قائد المائة روحياً.

يرمز (سلطاننا على الفكر) بموسى في سفر الخروج إذ قيل: "وتقيمهم عليهم رؤساء ألوف ورؤساء مئات ورؤساء خمسين ورؤساء عشرات" (خر ١٨:٢١). ونحن أيضًا إذ نبلغ إلى مرتفعات هذا الجهاد يكون لنا نفس الحق والسلطان، فلا تحملنا الأفكار بغير إرادتنا، بل في استطاعتنا أن نستمر في الارتفاع ونمسك بتلك الأفكار التي تبهجنا روحياً، أمرين الأفكار الشيطانية أن ترحل عنا فترحل. فنقول للأفكار الصالحة إنبت فيأتني، وأيضاً لعبدي هذا أي الجسد الذي لنا أن ينتمي إلى العفة والطهارة فيخدمنا بغير مقاومة، من غير أن تثور فينا انفعالات الشهوة، بل يظهر كل ما يوافق الروح.

أما ما هي أنواع الأسلحة التي لقائد المائة هذا؟ وفي أي حرب نستخدمها؟ فلنسمع ما يقوله الرسول الطوباوي: "إذ أسلحة محاربتنا ليست جسدية (روحية وليست ضعيفة) بل قادرة بالله على هدم حصون" (٢كو ٤:١٠). وأما بالنسبة للحروب التي نستخدمها فيها فيقول: "هادمين ظنوناً وكلّ علو يرتفع ضد معرفة الله، ومستأسرين كل فكر إلى طاعة المسيح، ومستعدين لأن ننقم على كل عصيان متى كلمت طاعتكم" (٢كو ١٠: ٦-٥).

إنني أريدك أن ترى أنواع الأسلحة المختلفة وصفاتها، إذ ينبغي علينا إن أردنا أن نحارب في المعركة الإلهية ضد الشيطان ونحسب بين قواد المئات (الروحيين) الذين للإنجيل أن نتمنطق بها على الدوام.

يقول الإنجيل: "حاملين فوق الكل ترس الإيمان الذي به تقدر أن تطفئوا جميع سهام الشرير الملتهبة"

(أف: ٦: ١٦). الإيمان هو الذي يوقف سهام الشهوة الشريرة ويهلكها بالخوف من الدينونة والإيمان بملكوت السموات.

ويقول أيضًا: "درع الإيمان والمحبة" (١ تس ٥: ٨). المحبة في الواقع هي التي تحيط بالمناطق الحيوية للمصدر فتحميه من تعرضه لجراحات الأفكار المتزايدة المهلكة وتحفظه من الضربات الموجهة ضده ولا تسمح لسهام الشرير أن تتعمق إلى الإنسان الداخلي، لأن المحبة "تحتمل كل شيء وتصدق كل شيء وترجو كل شيء وتصبّر علي كل شيء" (١ كو ١٣: ٧).

"وَحُودَةٌ هي رجاءُ الخلاص" (١ تس ٥: ٨). والحدوة هي ما تحمي الرأس. المسيح هو رأسنا لذلك ينبغي علينا في التجارب أن نحمي رأسنا برجاء الأمور الصالحة المقبلة، وعلى وجه الخصوص أن نحفظ الإيمان كاملاً وظاهراً. فمتى فقد أيّ أحد جزء من الجسد يصير ضعيفاً، لكنه يمكن أن يعيش، إنما لا يستطيع أن يحيا ولا فترة قصيرة بغير الرأس.

"وسيف الروح الذي هو كلمة الله" (أف: ٦: ١٧) لأنه "أمضى من كل سيف ذي حدّين وخارقة إلى مفرق النفس والروح والمفاصل والمخاخ ومميّزة أفكار القلب ونيّاته" (عب ٤: ١٢). هكذا نقطع ما فينا مما هو أرضي وجسدي بواسطة هذه الأسلحة التي نستخدمها في دفاعنا ضد أسلحة العدو (الشيطان والخطية) وإتلافه، بهذا لا يصير أحد منا مربوطاً بسلاسل مضايقته، أسيراً ومسجوناً في أرض الأفكار الباطلة، ولا يسمع كلمات النبي: "لماذا يا إسرائيل لماذا أنت في أرض الأعداء" (يا ٣: ١٠). إنما يبقى كمُحارب منتصر في أرض الأفكار التي اختارها.

هل فهمتم أيضاً قوة قائد المائة وشجاعته إذ يحمل هذه الأسلحة التي تحدثنا عنها بأنها ليست جسدية بل روحية قادرة بالله؟ اسمع ما يقوله الملك (الله) نفسه مستصوباً الرجال الشجعان، مستدعياً إياهم إلى الحرب الروحية (ضد الخطية) قائلاً: "ليقل الضعيف إنني قوي". فلا يحارب في المعركة الإلهية إلا الضعفاء "لأنني حينما أنا ضعيف فحينئذ أنا قوي" (٢ كو ١٢: ١٠). وأيضاً: "لأن قوّتي في الضعف تكمل" (٢ كو ١٢: ٩). فالمجاهد الصبور سيحارب بالصبر الذي قيل عنه: "لأنكم تحتاجون إلى الصبر حتى إذا صنعتم مشيئة الله تتألون الوعد" (عب ١٠: ٣٦).

٦ - لنثابر مقتربين من الله ومجاهدين

بحسب خبرتنا نستطيع بالتمسك بالله إماتة إرادتنا وقطع شهوات هذا العالم، ونتعلم من أولئك الذين في علاقتهم بالله يقولون بكل إيمان: "التصقت نفسي بك" (مز ٦٣: ٨)، "لصقتُ بشهادتك. يا رب لا تخزني" (مز ٣١: ١١٩)، "أما أنا فالاقتراب إلى الله حسن لي" (مز ٧٣: ٢٨)، فعلينا ألا نكل بسبب تشتت العقل والتراخي لأن "المشتغل بأرضه يشبع خبزاً وتابع البطالين يشبع فقراً" (أم ٢٨: ١٩).

يلزمنا ألا ننسحب من جهادنا في السهر بسبب اليأس الخطير لأن "الآن ملكوت الله يُغصّب والغاصبون يختطفونه" (مت ١١: ١٢). فلا يمكن نوال فضيلة بغير جهاد، ولا يمكن ضبط العقل بغير حزن قلبي عميق، لأن "الإنسان مولود للمشقة" (أي ٥: ٧). ومن أجل الوصول "إلى إنسان كامل. إلى قياس قامة ملء المسيح" (أف ٤: ١٣) يلزمنا أن نكون علي الدوام في جهاد عظيم مع عناية لانهائية.

لا يمكن لأي إنسان أن يصل إلى ملء هذا القياس إنما من يأخذ هذا القياس في اعتباره مقدماً

ويتدرب عليه من الآن، ويتذوقه هنا في العالم، تكون له علامة العضوية الثمينة للمسيح، ويملك وهو في هذا الجسد على عربون هذا الاتحاد الكامل بجسد المسيح ويكون له اشتياق وعطش إلى أمر واحد جاعلاً ليس فقط أعماله بل وأفكاره متجهة إلى أمر واحد وهو أن يحفظ الآن وعلى الدوام عربون الحياة المقبلة الطوباوية التي للقديسين أي أن "يكون الله الكل في الكل" (١ كو ١٥: ٢٨).

٧- سؤال بخصوص شدة هجوم الأفكار الشريرة

جرمانبوس: لنفرض إنه قد أحاط بنا طوفان ذلك الميل العقلي أما يحيط بنا حشد عظيم من الأعداء فيتوجهون إلينا بقوة لا نهائية تُضاد رغبتنا، أو بالأحرى بسبب جولان هذه الأفكار ينسحب عقلنا نحوها؟ وحيث أن عددًا لا نهائيًا من الأعداء (الأفكار الشريرة) المخيفين يحيطون بالعقل ألا نضن إنه من الممكن لهم أن يقاوموا عقلنا وخاصة بسبب ضعف جسدنا؟!

٨- سيرينوس: لا يقدر أحد ممن اختير صراع إنسانه الداخلي أن يشك في سهر أعدائنا (الأفكار الشريرة) علي الدوام ضدنا وهم يعارضون تقدّمنا. إذ **يحثّوننا على صنع الشر، لكنهم لا يجبروننا عليه**، فنظن أنه لا يقدر الإنسان أن يتجنب الخطية التي يحرضوننا عليها بل يطيعها في قلبه متى كان الحافز قويًا، فيجبروننا على الخطية وليس فقط يقترحونها علينا. لكن إذ لديهم قوة كبيرة في الإثارة، فنحن أيضًا لدينا **معونة من النعمة الإلهية، وحرية في عدم القبول**. فإن كنّا نخشى قوتهم وهجومهم يمكننا أيضًا أن نطلب الحماية والعناية الإلهية ضدّهم، لأن الذي فينا أعظم من الذي في العالم (١ يو ٤: ٤).

عناية الله تحارب في صفّا بقوة أعظم من حرب النزلاء ضدنا لأن الله ليس فقط يقترح علينا الخير بل هو يعضدّ عقولنا ويسندها، حتى أنه في بعض الأحيان يجذب قلوبنا نحو الخلاص رغم إرادتنا (إذا طلبناه) وبغير معرفتنا.

لا يندفع أحد من الشيطان إلا الذي أراد أن يستسلم له برضاه، وذلك كما يقول سفر الجامعة "لأن القضاء علي العمل الرديء لا يُجرى سريعًا فلذلك قد امتلأ قلب بني البشر فيهم لفعل الشر" (جا ٨: ١١). لقد ظهر بوضوح أن كل إنسان يسير في الشر متى هاجمته الأفكار الشيطانية، ولا يقابلها في الحال بالرفض والمعارضة. لذلك يقول الرسول: "قاوموا إبليس فيهرب منكم" (يع ٤: ٧).

٩- سؤال بخصوص اتحاد النفس مع الأرواح الشريرة

جرمانبوس: ما التمسته منك هو بخصوص اتحاد الروح الإنسانية مع الأرواح الشريرة، إذ تكون الأرواح متحدة بها بطريقة تقدر أن تحدث خلالها وتجد لها فيها سبيلاً، تقترح عليها ما تريده، تثيرها حسبما ترغب، وتتطلع إليها مراقبة أفكارها وحركاتها. وتكون النتيجة هي توطيد الاتحاد بينها وبين الروح، حتى يصير - بدون النعمة الإلهية - مستحيلًا التمييز بين ما هو نتيجة لتحريض الأرواح وما هو من عمل إرادتها.

١٠- سيرينوس: ليس عجيبًا أن نتصل روح بروح بغير تفرقة وأن تعمل بقوة إغراء خفية حسبما ترغب فيه. (فكما يحدث بين البشر) هكذا بينهما شيء من الشبه والعلاقة... ولكن يستحيل أن تستقر الأرواح داخلنا أو تتحد معنا بطريقة تتمكن منّا، لأن هذا من حق الله وحده الذي يسيطر علينا بطبيعته الروحية.

١١- جرمانبوس: هذه الفكرة نجدها تُنقض تمامًا في حالة المأسورين من الأرواح الشريرة، إذ ينطقون ويعملون تحت تأثير الشيطان... وهم لا يعبرون عن كلماتهم وأعمالهم ورغباتهم بل ما هو للشياطين.

١٢ - سيرينوس: إن ما نتحدث عنه لا يتعارض مع ما نقوله، أي أن هؤلاء الذين قد امتلكتهم الأرواح النجسة يقولون ويفعلون ما لا يرغبون ويلزمون بالتقوى بما لا يعرفونه. فالبعض يتأثر بالأرواح النجسة بطريقة ما حتى إنه لا يكون لديهم أدنى إدراك لما يعملونه ويقولونه، والبعض يدرك ذلك و يتذكره. لكن يلزمنا ألا نتصور بأن هذا يحدث بطريقة فيها ينسكب الروح النجس خلال مادة الروح (الإنسانية) وتصير متحدة معها وملتصقة بها فينطقون بكلمات وأقوال خلال فهمهم... فلا يحدث هذا نتيجة لفقدان الروح (خلال الروح النجس) بل بسبب ضعف الجسد، فيلقي الروح النجس القبض على هذه الأعضاء ويسكن فيها ويلقي عليها ثقلاً غير محتمل، مسيطراً عليها بظلامه الدامس، ويتدخل بقوته، وذلك كما يحدث في حالة السكر والحمى والبرد الشديد.

ليس للروح النجس سلطان علي البشر، هذا يظهر عند صراعه ضد أيوب الطوباوي فقد أخذ السلطان علي جسده من قبل الرب، إذ قال له: "ها هو في يدك ولكن احفظ نفسك" (أي ٦:٢). أي لا تضعف روحه وتجعله مجنوناً وتتسلط علي ذاكرته وعقله خانقاً قوته الداخلية.

١٣ - لا تتحد روحنا إلا بالله وحده

... الثالث القدوس وحده لديه الإمكانية أن يخترق كل طبيعة عقلية، ليس فقط يعانقها ويلتف حولها بل ويدخل فيها...

فبالرغم من تمسكنا بوجود بعض الطوائف الروحانية مثل الملائكة ورؤساء الملائكة والطغمت الأخرى وأيضاً أرواحنا... إلا أنه ينبغي علينا ألا نعتبر هذه الطوائف غير مادية *incorporeal* إذ لها جسم تعيش به أخف بكثير مما لجسدنا وذلك كقول الرسول "أجسام سموية وأجسام أرضية" (١كو ١٥: ٤٠)، وأيضاً "يزرع جسماً حيوانياً *natural* ويُقام جسماً روحانياً" (١كو ١٥: ٤٤). وبهذا يظهر أنه لا يوجد شيء غير جسمي إلا الله وحده. هو وحده يمكن أن يخترق كل مادة روحية وعقلية، لأنه هو وحده الكامل والموجود في كل شيء، يرى أفكار البشر وحركاتهم الداخلية وكل خبايا أرواحهم، وعنه وحده يتحدث الرسول الطوباوي قائلاً: "لأن كلمة الله حيّة وفعالة وأمضى من كل سيف ذي حدّين وخارقة إلى مفرق النفس والروح والمفاصل والمخاخ ومميّزة أفكار القلب ونيّاته. وليست خليقة غير ظاهرة قدّامه، بل كل شيء عريان ومكشوف لعيني ذلك الذي معه أمرنا" (عب ١٣: ٤، ١٢). ويقول الطوباوي داود "المصوّر قلوبهم جميعاً" (مز ٣٣: ١٥) وأيضاً "لأنه هو يعرف خفيات القلب" (مز ٤٤: ٢١). "لأنك أنت وحدك تعرف قلوب بني البشر" (١٢: ٣٠).

١٤ - جرمانئوس: بحديثك هذا تجعل الأرواح عاجزة عن معرفة أفكارنا. ومن العبث أن نأخذ بهذه الفكرة إذ يقول الكتاب المقدس "إن صعدت عليك روح المتسلط" (جا ١٠: ٤)، وقد ألقى الشيطان في قلب يهوذا الإسخريوطي أن يسلمه (يو ١٣)، فكيف يمكننا بعد أن نعتقد بأن أفكارنا غير مكشوفة لها عندما نشعر بأن النصيب الأكبر منها ينبعث من اقتراحات الشيطان وتحريضه ويتبناها؟

١٥ - عدم قدرة الأرواح الشريرة على معرفة أفكار البشر

سيرينوس: لا يشك أحد من جهة تأثير الأرواح الشريرة على أفكارنا، وذلك عن طريق تحريك البواعث بدون تأثير محسوس عن طريق اتجاهاتنا أو من كلماتنا ومن الأمور التي نحبها والتي يرون أننا نميل إليها، لكنهم لا يقدرون أن يقتربوا إلى تلك التي تأتي من مخائب الروح. وهم يكتشفون الأفكار التي يطرحونها علينا لا بسبب طبيعة الروح أي الميل الداخلي المخفي في العقل، إنما عن طريق الانفعالات والعلامات الظاهرية التي للإنسان، فمثلاً عندما يقترحون علي إنسان بالنهم، إذا ما رأوا الراهب يتطلع من الكوة تجاه الشمس بقلق أو يسأل

باستمرار عن الساعة، يُدركون أنه قبل شهوة النهم.

وإذا ما اقترحوا الزنا ورأوه يخضع بهدوء لهجوم الشهوة أو يرون تهيجًا جسديًا أو تأوهات ناجمة عن خلعة الاقتراحات النجسة، يعلمون أن سهم الشهوة قد نفذ إلى داخل روحه.

وإذا ما أثاروا فينا بواعث نحو الحزن أو الغضب، فإنهم يستطيعون أن يدركوا إن كانت لها جذور في القلب إما عن طريق حركات الجسد والاضطرابات المنظورة، أو بملاحظتهم التتهيدات، أو السكون، أو انفعال الغضب، أو تغير لون الإنسان، بهذا يكتشفون بدهاء الأخطاء التي يسقط فيها الإنسان، لأنهم يعلمون أن كل إنسان له خطية معينة ينجذب إليها على الدوام.

هذا ليس بعجيب بالنسبة لقوات الهواء، لأنه حتى الإنسان الظاهر غالباً ما يقدر أن يكتشف حال غيره الداخلي من طلعته ونظراته وحركاته الخارجية، فكم بالأكثر يقدر هؤلاء الذين لهم طبيعة روحية وبالتالي هم أكثر دهاء وحذاقة من البشر.

١٦ - مثال: لكي يعرف بعض اللصوص موضع الكنوز المخفية في المنازل التي يرغبون سرقتها، ينثرون رملاً في ظلام الليل بدقة فيكتشفون الكنوز المخفية التي لا يقدرون أن يروها، وذلك عن طريق رنين الصوت الذي يحدث أثناء سقوط الرمل، بهذا يبلغون إلى المعرفة الحقيقية من جهة وجود المعادن التي تكشف عن نفسها بنفسها عن طريق الصوت الناتج منها.

هكذا بالنسبة للتجسس علي كنوز قلوبنا، يلقون علينا رمال الاقتراحات الشريرة، وإذا يرون بعض الانفعالات الجسدية التي تطابق الصفات الداخلية يعلمون كما لو كان بنوع ما من رنين الصوت ما يحدث في المخابئ الداخلية، ما هو مخفي في المكان السري الذي للإنسان الداخلي.

١٧ - ليس لكل شيطان سلطان في اقتراح أي أهواء

لنعلم أنه لا تستطيع كل الشياطين أن تغرس في البشر كل الأهواء، بل تحتضن الأرواح خطايا معينة، البعض يثير الشهوات النجسة، والآخر التجديف، وآخرون تخصصوا بالأكثر في الغضب والسخط، والبعض يفلحون في الكآبة، وآخرون يهدأون بالكبرياء والعظمة. يغرس كل واحد منهم في قلوب البشر ما يُسر هو به. إنهم لا يقدرون أن يغرسوا ردائهم دفعة واحدة، إنما بترتيب معين حسب الظروف، أي حسب الزمان أو المكان أو الشخص نفسه الذي يفضحونه بإثارته أثناء اقتراحاتهم.

١٨ - هل للشياطين نظام يتبعونه في هجومهم؟

جرمانوس: إذن هل نعتقد بأن الشر مرتّب ومنسّق فيما بينه، يستخدم نظاماً خاصاً، وخطة منظمة أثناء هجومه، مع أن النظام والتنسيق هو عند الصالحين والمستقيمين وحدهم، إذ يقول الكتاب المقدس "المستهزئ يطلب الحكمة ولا يجدها" (أم ١٤: ٦)، "ليس حكمة ولا فطنة ولا مشورة تجاه الرب" (أم ٣٠: ٢١).

١٩ - سيرينوس: من المؤكد حقاً أنه لا يوجد اتفاق ثابت بين الأشرار، والوفاق الكامل لا يمكن أن يكون حتى بين الذين لديهم خطايا معينة... لكن في بعض الأمور حيث يوجد نفع جماعي واحتياجات إلزامية أو ربح مشترك، هذا يدفع إلى وجود اتفاق منظم إلى حين. ونحن نلاحظ بوضوح في الحرب الروحية التي للشر... فالأرواح تتقدم بعضها البعض بطريقة معينة، فإذا ما انهزم أحدها أو تراجع ترك مجالاً لروح آخر أكثر عنفاً ليهاجمه... وإذا ما انتصر الروح لم يعد بعد هناك حاجة لكي يأتي آخر ليخدع الإنسان.

٢٠ - كل إنسان يُهاجم قدر طاقته

لسنا نجهل أن الأرواح جميعها ليست في نفس الشراسة والنشاط، ولا في نفس الشجاعة والخبث، فالمبتدئين والضعفاء من البشر تهاجمهم الأرواح الضعيفة، فإذا ما انهزمت تلك الأرواح تأتي من هي أقوى منها لتهاجم جنود المسيح. ويصعب علي الإنسان بقوته أن يقاوم، لأنه لا توازي طاقة أحد القديسين خُبث هؤلاء الأعداء (الروحيين) الأقوياء الكثيرين، أو يصد أحد هجماتهم، أو يحتمل قسوتهم ووحشيتهم، ما لم يرجحه المصارع معنا، ورئيس الصراع نفسه الرب يسوع، فيرد قوة المحاربين، ويصد الهجوم المتزايد، ويجعل مع التجربة المنفذ قدراً نستطيع أن نحتمل (١كو ١٠: ١٣).

٢١ - لا تخف من محاربات الشيطان

إننا نعتقد أنهم يتعهدون هذا الصراع بقوة، لكن في مناضلتهم يكون لديهم نوع من القلق والغم، خاصة حين يقفون أمام مناضلين أقوى أي رجال قديسين كاملين، وإلا فإنه لا يكون نضالاً ونزاعاً بل هو مجرد تغرير بالبشر، لأن طرف قوي والآخر ضعيف، (فالحرب الروحية شديدة) وإلا فأين يكون موضوع كلمات الرسول القائل: "إن مصارعتنا ليست مع دم ولحم بل مع الرؤساء مع السلاطين مع ولاة العالم علي ظلمة هذا الدهر مع أجناد الشر الروحية في السماويات" (أف ٦: ١٢)، وأيضاً "هكذا أضارب كأني لا أضرب الهواء" (١كو ٩: ٢٦)، وأيضاً "قد جاهدت الجهاد الحسن" (٢تي ٤: ٧)؟!

إذ يتحدث عن حرب وصراع ومعركة، يلزم أن توجد قوة وجهاد في كلّي الطرفين، وأن يكون كلاهما مُعدّاً إما أن يضجر ويخجل من الفشل أو يبتهج بالنصرة. لو أن أحد الجانبين يحارب ببسر مع ضمان (النصرة) علي الثاني الذي يناضل بقوة عظيمة لما دعيت معركة أو صراع أو نزاع بل يكون نوعاً من الهجوم المجحف غير العادل.

بالتأكيد تُعدّ الأرواح نفسها لمهاجمة البشر بقوة لا تقل عن قوتهم لكي يضمّنوا النصر عليهم... (فيسقطون هم فيما يصنعونه بنا) إذ يقول: "وعلي هامته يهبط ظلمة" (مز ١٦: ٧)، وأيضاً "لنأتيه التهلكة وهو لا يعلم ولتنشب به الشبكة التي أخفاها وفي التهلكة نفسها ليقع" (مز ٣٥: ٨)، أي في التهلكة التي دبرها بغشه للبشر. فتسقط الأرواح في الحزن، وإذ تريد إهلاكنا تهلك هي بواسطتنا بنفس التهلكة التي يرغبوها لنا. ولكن لا تعني هزيمتهم أن يتركونا بغير رجعة.

بالنظر إلى هذه الهجمات وهذا النضال، فإن من كانت أعين إنسانه الداخلي سليمة يراهم يتقرسون راغبين في الخراب، وإذ يخشى لئلا يصيبه هذا يصلي إلى الله قائلاً: "أنر عيني لئلا أنام نوم الموت. لئلا يقول عدوي قد قويت عليه. لئلا يهتف مضايقي بأني تزعزعت" (مز ١٣: ٤)، "يا رب إلهي فلا يثمتوا بي. لا يقولوا في قلوبهم هه شهوتنا. لا يقولوا قد ابتلعناه" (مز ٢٥: ٣٥، ٢٤)، "حرّقوا علي أسنانهم يا رب إلى متى تنظر" (مز ١٧: ١٦)، لأنه "يكمن في المختفي كأسد في عريسه. يكمن ليخطف المسكين" (مز ١٠: ٩). وأيضاً إذ تهلك قواهم ويفشلون في صراعهم معنا نقول: "ليخز وليخجل معاً الذين يطلبون نفسي لإهلاكها. ليرتد إلى الوراء وليخز المسرورون بأذيتي" (مز ٤٠: ١٤). وأيضاً يقول إرميا "ليخز طاردي ولا أخز أنا. ليرتعبوا هم ولا أرتعب أنا. أجلس عليهم يوم الشر واسحقهم سحقاً مضاعفاً" (إر ١٧: ١٨). إذ لا يقدر أحد أن يشك في أنه متى انتصرنا عليهم يهلكون هلاكاً مضاعفاً.

فكل قديس إذ يرى خراب أعدائه (الشياطين) ونجاحه يبتهج متعجباً قائلاً: "أتبع أعدائي فأدركهم ولا أرجع حتى أفنيهم. أسحقهم فلا يستطيعون القيام. يسقطون تحت رجلي" (مز ٣٧: ١٨، ٣٧)، ويصلي ضدهم قائلاً: "خاصم يا رب مخاصمي. قاتل مقاتلي. امسك مجناً وترساً وانهض إلى معونتي. واشرع رمحاً وصدّ تلقاءً مطاردي. قل لنفسي خلاصك أنا" (مز ٣٥: ١-٣). وعندما نقمع كل أهوائنا التي انتصرنا عليها ونبيدها نسمح لأنفسنا أن نسمع كلمات التطويب هذه: "لترتفع يدك علي مبغضيك وينقرض كل أعدائك" (مي ٩: ٥).

عند قراءتنا أو عندما نتغنى بتلك الآيات وما يشبهها مما جاء في الكتاب المقدس، فإننا إن لم نأخذها على أنها ضد الشر الروحي (الخطية) الذي ينتظرنا ليلاً ونهاراً نفشل في أن نستخرج منها ما هو لبنياننا وما يجعلنا ودعاء وصبورين، بل بواسطة بعضها قد نصل إلى حالة مريضة تخالف الكمال الإنجيلي تماماً...

٢٢ - هل للشيطان سلطان عليك؟

ليس للأرواح الشريرة سلطاناً أن تضر أحداً، يظهر ذلك بوضوح في حالة الطوباوي أيوب، حيث لم يتجاسر العدو أن يجربه إلا حسبما سمح الله به... وقد اعترفت الأرواح نفسها بذلك كما جاء في الإنجيل إذ قالت: "إن كنت تُخرجنا فأذن لنا أن نذهب إلى قطيع الخنازير" (مت ٨: ٣١). فإن كان ليس لديهم السلطان أن يدخلوا الحيوانات النجسة العُجم إلا بسماع من الله، فكم بالأحرى يعجزون عن الدخول في الإنسان المخلوق على صورة الله؟!

لو كان لهؤلاء الأعداء (الشياطين) سلطان علينا والإضرار بنا وتجريتنا كما يشاءون لما كان يستطيع أحد أن يعيش في الصحراء بمفرده... ويظهر ذلك بأكثر وضوح من كلمات ربنا ومخلصنا الذي احتل آخر صفوف البشر، إذ قال لبلاطس: "لم يكن لك عليّ سلطان البتة لو لم تكن قد أُعطيْت من فوق" (يو ١٩: ١١).

٢٤ - كيف تملك الشياطين على أجساد البعض؟

واضح أن الأرواح النجسة لا تقدر أن تجد لها طريقاً في أجساد من اغتصبتهم بأي وسيلة ما لم تملك أولاً علي عقولهم وأفكارهم فتسلب منهم مخافة الله وتذكره والتأمل فيه، وبهذا تتجاسر فتتقدم إليهم كمن بلا حصانة إلهية، وتقيدهم بسهولة وتجد لها موضعاً فيهم، كما لو كان لها حق الملكية عليهم.

٢٥ - لماذا يسمح الله بخضوع أجسادنا لهم؟

من يسقط بالجسد تحت سلطانهم (أي يجربون في الجسد) يصيرون في خطر عظيم واضطراب شديد، أما الذين تسقط أرواحهم تحت سيطرتهم فيسقطون في الخطايا والشهوات هؤلاء حالهم أردأ. لأنه كما يقول الرسول أن من يُغلب من أحد يصير عبداً له.

نحن نعلم أنه حتى القديسين يسمح الله أن تسقط أجسادهم تحت سلطان الشيطان وتحل بهم نكبات كثيرة، ذلك من أجل الهفوات (لتأديبهم) لأن الرحمة الإلهية لا تطيق أن يكون فيهم وسخ أو دنس إلى يوم الدينونة، فينقيهم من كل شائبة، مُقدماً إياهم إلى الأبدية مثل الذهب أو الفضة المصفاة، غير محتاجين بعد إلى تنقية، فيقول الله "وألقي زغلك.. وأنزع كل قصديرك.. بعد ذلك تُدعين مدينة العدل القرية (المدينة) الأمانة" (إش ٢٥: ١، ٢٦). وأيضاً كما تُمْتَحَن الفضة في البوطة والذهب في الكور هكذا يَمْتَحَن الرب القلوب (أم ٣: ١٧). وأيضاً "لأن الذي يحبهُ الربُّ يُؤدِّبُهُ ويجلد كل ابن يقبلُهُ" (عب ١٢: ٦).

٢٦ - أمثلة

أ. نرى هذا بوضوح في حال النبي رجل الله المذكور في الكتاب الثالث من الملوك الذي افترسه أسد من أجل أنه أخطأ مرة بعدم الطاعة عن غير قصد بل بإغواء غيره (١مل ١٣: ١٨). فيقول الكتاب المقدس: "هو رجل الله الذي خالف قول الرب فدفعه الرب للأسد فافترسه وقتلته حسب كلام الرب الذي كلمه به" (١مل ١٣: ٢٦). في هذا المثال نجد العقاب من أجل عدم الطاعة مع الإهمال، كذلك المكافأة من أجل بزه أيضاً. لأن الرب سلم بنيهِ في هذا العالم للمهلك وفي نفس الوقت كان الحيوان المفترس بالنسبة لفريسته مترقفاً وعفيفاً إذ لم يجرؤ أن يتذوق شيئاً من الغنيمة التي أُعطي له سلطاناً عليها.

ب. نجد نفس الأمر ببرهان واضح جداً وجلي في حالة الأبوين بولس وموسى اللذين عاشا في بقعة من البرية تدعى Calamus لأن الأول (بولس) قد سبق فقطن في البرية التي صارت قاسية عوض مدينة

Panephris، هذه التي صارت بريبة قاحلة عن قريب كما تعلم، إذ هبت ربح شمالية من المستنقعات فأغرقت الحقول وكل الإقليم بماء مالح، حتى صارت القرى كجزائر وهجرها سكانها. في هذه المنطقة تقدم الأب بولس في نقاوة القلب وسط هدوء البرية وسكونها، حتى إنني أقول أنه ما كان يسمح لنفسه أن يرى وجه امرأة، بل ولا ملابس هذا الجنس. فعندما كان ذاهباً إلى قلاية أحد الشيوخ مع الأب أرشيبوس الذي كان يقطن معه في نفس البرية، حدث أن قابلتهما امرأة. وفي الحال نفر من مقابلتها حتى أنه ترك عمله من جهة زيارته لصديقه الذي بدأ فيها وهرب راجعاً إلى قلايته بسرعة كمن يهرب من وجه أسد أو حيوان مفترس. ولم يبال بصرخات الأب أرشيبوس وتوسلاته الذي كان يرجوه أن يعود ليكمل رحلتها إلى الرجل العجوز. ومع أن هذا حدث بسبب شغفه نحو حياة الطهارة ورغبته في النقاوة، لكن هذا تم بغير معرفة، لأنه تعدى اتباع الترتيب والنظام بدقة مناسبة (بغير اعتدال)، إذ تصور أنه ليس مخالطة النساء (التي هي بحق ضارة للرهبان)، بل حتى مجرد شكل هذا الجنس يلزم مقتته. من أجل هذا نال هذا العقاب، وهو أن جسده كله ضرب بالفالج، ولم يعد أي عضو من أعضاء جسده قادر على القيام بمهمته، ليس فقط يداه وقدماه بل ولسانه الذي به يتكلم، وفقدت أذناه السمع، ولم يصر فيه من الإنسان سوى الشكل بغير حراك ولا أحاسيس. انحدر إلى هذا الحال حتى عجز الرجال عن خدمته، رغم العناية الفائقة التي بذلوا معها، وصار محتاجاً إلى خدمة النساء الممثلة ترفقاً (في التمريض)، فأرسل إلى دير عذارى قديسات. ولم يكن قادراً حتى على الأكل والشرب، فكانت النسوة يخدمن إياه حوالي أربع سنوات إلى نهاية حياته.

وبالرغم مما كان يعانيه... إلا أنه كانت له نعمة من الصلاح حتى كان المرضى يأخذون زيتاً مما يدهن به جسده بل تدهن به جثته (التي تكاد أن تكون ميتة) وبه كانوا يبرأون للحال من كل آلامهم. وبهذا ظهر بوضوح حتى لغير المؤمنين أن ضعف أعضائه حدث بسماح من عناية الله ومحبتة، وأن نعمة الأشفية قد وهبت بالروح القدس شهادة لنقاوته وإعلاناً عن استحقاقاته.

٢٧- المثال الثاني (الأب موسى)

أما الشخص الثاني الذي أشرنا إليه أنه ساكن في هذه الصحراء، فمع أنه رجل معروف وعجيب، إلا أنه عوقب عن كلمة واحدة نطق بها بحدة إلى حد ما في جدال مع الأب مكاريوس... فقد أسلم إلى شيطان مهلك، للحال ملاً فمه بدنس (قروح)، وذلك لكي لا يبقى فيه أي غضن من خطئه الذي حدث في لحظة. و ما أن أمره الأب مكاريوس أن يصلي، للحال فارقه الروح الشرير ورحل عنه.

٢٨- لا تحتقر من أسلم لروح الشرير

من هذه الأمثلة الواضحة، يلزمنا ألا نكره ولا نزدري بالذين نراهم قد أسلموا لتجارب متنوعة أو لأرواح شريرة، لأنه يلزمنا أن نتمسك بهاتين النقطتين:

أولاً: أنه ما كان لأحد أن يجرب بالأرواح الشريرة بغير سماح إلهي.

ثانياً: أن كل ما يحل بنا هو بواسطة الله، سواء ما يظهر في الوقت الحالي محزناً أو مفرحاً، فإنه لأجل نفعا كما من أب فائق الحنان وطبيب عظيم الترفق. ولهذا فإن البشر كما لو كانوا تحت عناية معلمين يذلون هنا حتى إذا ما رحلوا من هذا العالم يصيرون في الحياة الأخرى في حال أعظم نقاوة. إنهم ينالون هنا عقاباً خفيفاً حتى كما يقول الرسول يُسلمون في الوقت الحاضر "للشيطان لهلاك الجسد لكي تخلص الروح في يوم الرب يسوع" (١ كو ٥: ٥).

٢٩ - اعتراض

كيف يكون هذا ونحن نرى أنه يلزم لا أن نحترقهم بل ويتجنبهم كل إنسان، ويُطردوا من اجتماع الرب. إذ يقول الإنجيل: "لا تعطوا القدس للكلاب. ولا تطرحوا دُرُركم قدام الخنازير" (مت ٦: ٧). بينما أنت تخبرنا أنه يلزمنا أن نتطلع إلى إذلال التجربة أنه من أجل تنقيتهم ونفعهم؟!

٣٠ - سيرينوس: متى كان لنا هذه المعرفة أو بالأحرى ذلك الإيمان الذي سبق أن عالجته، بمعنى أن نعتقد بأن كل الأمور تحدث لنا بسماع من الله، وأنها مرتبة لأجل خير أرواحنا، فإننا ليس فقط لا نحترقهم بل ولا نكف عن الصلاة من أجلهم كأعضاء منا، وأن نحنو عليهم بكل قلوبنا وكل جوارحنا (فإن كان عضو واحد يتألم فجميع الأعضاء تتألم معه) (١كو ١٢: ٢٦)، إذ نحن نعلم أننا لا نقدر أن نكمل بدونهم أعضاء منا، وذلك كما نقرأ عن السابقين لنا أنهم لا يقدر أن ينالوا تمام المكافأة بدوننا إذ يقول الرسول: "فهلأء كلهم مشهوداً لهم بالإيمان لم ينالوا الموعد إذ سبق الله فنظر لنا شيئاً أفضل لكي لا يُكملوا بدوننا" (عب ١١: ٣٩، ٤٠).

لم نسمع قط أن الشركة المقدسة قد منعت عن (المجرمين)... وما جاء في الإنجيل: "لا تعطوا القدس للكلاب" هذا الذي أوردته في غير معناه الحقيقي، يلزم ألا نظن بأنه يعني أن الشركة المقدسة تصير (بالنسبة للمجرمين) طعاماً للشياطين وليس تنقية وحماية للجسد والروح، لأنه عندما يتناولها إنسان يُحرق الروح الشرير ويصارعه هذا الذي وجد له مكاناً في أعضائه أو حاول أن يختفي فيه.

ج. رأينا متأخراً أن الأب أندرونيكوس وكثيرين قد شفاوا بهذه الطريقة، لأن العدو يفسد بالأكثر الإنسان الذي امتلكه متى رآه قد امتنع عن الدواء السماوي، ويخذه بالأكثر بطريقة خفية، إذ يراه قد ابتعد بالأكثر عن العلاج الروحي.

٣١ - بؤس الذين لا يؤدبون هنا

يلزمنا أن نأخذ في اعتبارنا أن الذين يدنسون أنفسهم بكل صنوف الخطايا والشر ومع ذلك لا توجد علامات منظورة لملكية الشيطان عليهم (أي أن تجرب أجسادهم) ولا تحل بهم أي تجربة تتناسب مع أفعالهم ولا يتحملون أي عقاب، هؤلاء بؤساء وأشقياء. لأنه لا يوهب لهم علاج خفيف وسريع في هذا العالم، بل بسبب غلاظة قلوبهم يستحقون عقاباً أشد في تلك الحياة إذ يذخرون لأنفسهم "غضباً في يوم الغضب واستعلان دينونة الله العادلة" (رو ٢: ٥)، حيث "دودهم لا يموت ونارهم لا تطفأ" (إش ٦٦: ٢٤).

كأن النبي قد تحير إذ رأى القديسين يخضعون لخسائر متنوعة وتجارب، بينما رأي الأشرار ليس فقط يعبرون حياتهم في هذا العالم بغير أي تأديب مملوء ذلاً بل يتمتعون بغنى عظيم وتنعم وفير في كل شيء. فاشتعل النبي بغضب غير مضبوط وغير معلن: "أما أنا فكادت تزل قدمي. لولا قليل لزلقت خطواتي. لأنني غرت من المتكبرين إذ رأيت سلامة الأشرار. لأنه ليست في موتهم شدائد وجسمهم سمين. ليسوا في تعب الناس ومع البشر لا يُصابون" (مز ٧٣: ٢-٥). إذ أنهم يعاقبون فيما بعد مع الشياطين، لأنه لم يوهب لهم في هذه الحياة أن يؤدبوا مع بني البشر في عداد الأبناء.

إرميا أيضاً مع أنه لم يشك قط معترفاً بعدالة الله إذ يقول "أبر أنت يا رب من أن أخاصمك" (إر ١٢: ١). إلا أنه يتحدث عن تنعم الأشرار كما لو كان ذلك بسبب عدم عدالة الله إذ يقول: "لكن أكلمك من جهة أحكامك. لماذا تنجح طريق الأشرار؟! اطمأن كل الغادين غدرًا. غرستهم فأصلوا نمواً وأثمروا ثمرًا، أنت قريب في فهمهم وبعيد من كلامهم" (إر ١٢: ٢).

عندما يحزن الرب بسبب هلاكهم يوجه الأطباء والجراحين لأجل شفائهم ويحثهم إلى حزن مشابه ويقول علي لسان النبي: "سقطت بابل بغيّة وتحطمت. ولولوا عليها. خذوا بلساناً لجرحها لعلها تشفي" (إر ٥١: ٨).

كذلك الملائكة الموكّلون بالنيابة لخلاص البشر في يأسهم يجيبون، أو أن النبي في شخص الرسل والروحانيين والأطباء الذين يرون غلاظة روحهم وقسوة قلوبهم يقولون: "داوينا بابل فلم تشف. دعوها ولنذهب كل واحد إلى أرضه لأن قضاءها وصل إلى السماء وارتفع إلي السحاب" (إر ٥١: ٩).

ويتكلم إشعياء في شخص إله أورشليم عن ضعفهم المملوء بؤساً فيقول: "من أسفل القدم إلى الرأس ليس فيه صحّة بل جرح وإحباط وضربة طريّة لم تُعصر ولم تُعصب ولم تليّن بالزيت" (إش ٦: ١).

٣٢ - شهوات قوات الهواء^١

لقد تبرهن بجلاء أنه يوجد في الأرواح النجسة عدة شهوات مثل البشر. فالبعض تقوى الفسق واللّهو، وبعضها تعمل في قلوب من تأسّروهم بالكبرياء الباطل... وأرواح أخرى حاذقة في الكذب بل وتوحي للبشر بالتجديف ويظهر ذلك مما جاء علانية في (١ مل ٢٢: ٢٢) "أخرج وأكون روح كذب في أفواه جميع أنبيائه". وبسبب هذه الأرواح ينتهر الرسول من هم مخدوعين بها إذ هم "تابعون أرواحاً مضلّة وتعاليم شياطين في رياء أقوال كاذبة" (١ تي ٤: ١). وهناك نوع آخر من الشياطين يشهد عنهم الكتاب أنهم يُكم وصم. وبعض الأرواح تُقوي الشهوة والدنس، إذ يعلن هوشع النبي قائلاً: "لأن روح الزنى قد أضلّهم فزنوا من تحت إلههم" (هو ٤: ١٢).

وينفس الطريقة يعلمنا الكتاب أن هناك شياطين الليل والنهار والظهيرة (مز ٩١: ٥-٦). ولقد لقيت الشياطين بأسماء كثيرة في الكتاب المقدس^٢... هذه الأسماء لم ترد اعتباطاً بل تشير إلى شراستها وجنونها تحت أسماء هذه الحيوانات المفترسة المتباينة الضرر والخطورة بالنسبة لنا (إذ لقيت أسود وأفاعي)...

٣٣ - سؤال: هل يوجد بين الأرواح الشريرة درجات؟

جرمانئوس: إننا بالتأكيد لا نشك في هذه الرتب التي عددها الرسول بخصوصهم قائلاً: "فإن مصارعنا ليست مع دم ولحم بل مع الرؤساء مع السلاطين مع ولاة العالم علي ظلمة هذا الدهر، مع أجناد الشر الروحية في السماويات" (أف ٦: ١٢). لكننا نريد أن نعرف إن كان يوجد فيما بينهم تفاوت وهل توجد بينهم درجات مختلفة في الشر...

٣٤ - سيرينوس: بالرغم من أن أسئلتكم قد سرقتنا خلال الراحة الليلة كلها، حتى أننا لم ندرك اقتراب الفجر... فإن الإجابة علي هذا السؤال الذي أقترح إن بدأنا فيه فسيجرنا إلى بحر من الأسئلة متسع وعميق، والوقت الذي بين أيدينا مقصر ولا يسمح لنا بذلك. لهذا فإنني أرى أنه من اللائق أن نحتفظ به للتأمل في ليلة أخرى. لأنه بإثارة هذا السؤال سأجد في استعدادكم للبحث بعض الفرح الروحي والثمر المتكاثر، ويمكننا إن أعطانا الروح القدس نسمة موفقة أن نتعمق بأكثر حرية في تعقيدات السؤال المعروض أمامنا.

لهذا فلنتمتع بقليل من النوم إذ يقترب الفجر، ثم ننزع عنا الكسل الذي يسلب عيوننا ونذهب سويّاً إلى

^١ اختصرت هذا الفصل.

^٢ "فضلوا بعيداً عن إلههم".

^٣ راجع شيء ٢٢، ١٣: ٢١، ١٥، ١٣: ٣٤، مز ١١٦: ١٣، لو ١٩: ١٠، يو ١٤: ٣٠، أف ٦: ١٢.

الكنيسة من أجل حفظ يوم الأحد ونعود بعد الخدمة حسبما يهبنا الله لأجل تقدمنا العام.



ملخص المبادئ

✠ وهب الله للإنسان سلطاناً علي الفكر، له أن يقبل الخير ويتجاوب معه، وأن يقبل الشر وعندئذ يخضع له وينحني تحت سلطانه بغير إرادته، وبالتالي يحتاج إلى نعمة الله في انسحاق قلب وتوبة، مجاهدًا حتى يتحرر من السلطان الذي خضع له بإرادته.

✠ لا تيأس مهما بلغت خطاياك واشتد ضعفك، لكن جاهد في رجاء لأن ملكوت الله يُعْتَصَب.

✠ إن كان الشيطان عنيفاً في حربه، فنحن أيضاً فينا الروح القدس القدير، ولنا الرب يسوع المنتصر.

✠ قد ننخدع فنظن أن للشيطان سلطاناً علينا، لكن الحق أنه وإن اشتدت قوة إغراءاته يعجز عن أن يلزمنا بالطاعة له، بل ولا يعرف أفكارنا ما لم نُعلنها نحن خلال تصرفاتنا وملامح وجوهنا...

✠ لا تتحد الشياطين مع أرواح البشر، بل الله وحده الذي له أن يوحّدنا فيه.



مناظرات يوحنا كاسيان مع آباء البرية

٨

الرئاسات^١

للأب سيرينوس

في المناظرة السابقة تم الحوار الأول مع الأب سيرينوس بخصوص ضبط الفكر، ورأينا دور الشياطين في تشتيت الفكر. وقد تحدث الأب عن قوة الشيطان وإمكانياته، لكنه لن يستطيع أن يغلب المؤمن الملتصق بالله، لأن الذي معنا أعظم من الذي علينا. أما في هذا الحوار الذي يحوي ٢٥ فصلاً، فتحدث فيه عن وجود رتب متنوعة بين الشياطين.

فصل ١: تحدث فيه عن كرم الأب سيرينوس (فصل ١)

فصل ٢: سأل جرمانئوس عن أصل القوات المتنوعة جداً المقاومة للإنسان، وعن الفروق بينها، إذ يقول الرسول بولس: "إِنْ مَصَارَعْتَا لَيْسَ مَعِ دِهٍ وَلَحْمٍ، بَلْ مَعَ الرُّسَاءِ، مَعَ السَّلَاطِينِ، مَعَ وِلَاةِ الْعَالَمِ عَلَى ظُلْمَةِ هَذَا الدَّهْرِ، مَعَ أَجْنَادِ الشَّرِّ الرُّوحِيَّةِ فِي السَّمَاوِيَّاتِ" (أف ٦: ١٢). و"لَا مَلَائِكَةُ وَلَا رُؤَسَاءُ وَلَا قُوَّاتٌ وَلَا خَلِيقَةٌ أُخْرَى تَقْدِرُ أَنْ تَقْضِلَنَا عَنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ الَّتِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّنَا" (رو ٨: ٣٨، ٣٩). يسأل أيضاً: من أين جاءت كل هذه العداوة المملوءة حسداً ضدنا؟ هل لنا أن نؤمن أن هذه القوات قد خلقها الرب لهذا الأمر، أي لتحارب ضد البشر بهذه الرتب التي لها؟

فصل ٣: أجاب الأب سيرينوس بأن ما ورد في هذا الشأن في الكتاب المقدس هو سرٌّ مخفي يحتاج إلى دراسة واجتهاد. فكلمة الله هي طعام يلزم طبخه لكي يؤكل. لكلمة الله المعنى الظاهري الحرفي، وأيضاً المعنى الخفي (فصل ٤).

فصل ٦: يؤكد أن الله لم يخلق شيئاً شريراً، بل كل ما خلقه هو حسن جداً (تك ١: ٣١).

فصل ٧: أوضح أن الله خلق السمائيين قبل خلقه العالم. "عندما صُنِعَتِ الْكَوَاكِبُ مَعًا سَبَحْتَنِي الْمَلَائِكَةُ بِصَوْتٍ عَالٍ" (أي ٧: ٣٨ LXX). فقد كانت الملائكة موجودة في بدء خلقه العالم تسبحه على أعمال خلقته للعالم المنظور لنا.

يقول الإنجيلي يوحنا: "به كان كل شيء، وبغيره لم يكن شيء مما كان" (يو ١: ٣)، ويعدد الرسول بولس

^١ أرجو أن يسمح لنا الرب بنشر تعريب هذه المناظرة مع بقية نصوص كتابات القديس يوحنا كاسيان التي لم تُعرب بعد في مجلد آخر.

الخليقة قائلاً: "إِنَّ فِيهِ (في المسيح) خُلِقَ الكل، ما في السماوات وما على الأرض، ما يُرى وما لا يُرى، سواء كان عروشاً أم سيادات أم رياسات أم سلاطين، الكل به وله قد خُلِقَ" (كو ١: ١٦).

فصل ٨: تحدث عن سقوط الشيطان وملائكته وقد رثاهم النبيان حزقيال وإشعياء:

"يا ابن آدم ارفع مرتاة على ملك صور وقل له:

هكذا قال السيد الرب: أنت خاتم الكمال ملآن حكمة وكامل الجمال.

كنت في جنة الله.

كل حجر كريم، ستارتك عقيق أحمر وياقوت أصفر وعقيق أبيض وزبرجد وجزع ويشب وياقوت أزرق

وبهرمان وزمرد وزهرمان وذهب.

أنشأوا فيك صنعة صيغة الفصوص وترصيعها يوم خلقت.

أنت الكروب المنبسط المظلل وأقمتك.

على جبل الله المقدس كنت.

بين حجارة النار تمشيت.

أنت كامل في طرقك من يوم خلقت حتى وُجد فيك إثم.

بكثرة تجارتك ملأوا جوفك ظلماً فأخطأت.

فأطرحك من جبل الله، وأبيدك أيها الكروب المظلل من بين حجارة النار.

قد ارتفع قلبك لبهجتك.

أفسدت حكمتك لأجل بهائك.

سأطرحك إلى الأرض، وأجعلك أمام الملوك لينظروا إليك.

قد نجست مقادسك بكثرة أثامك بظلم تجارتك" (حز ٢٨: ١١-١٨).

ويقول إشعياء عن شيطان آخر:

"كيف سقطت من السماء يا زهرة بنت الصبح؟!

كيف قُطعت إلى الأرض يا قاهر الأمم؟!

وأنت قلت في قلبك:

أصعد إلى السماوات، أرفع كرسيَّ فوق كواكب الله،

وأجلس على جبل الاجتماع في أقاصي الشمال.

أصعد فوق مرتفعات السحاب،

أصير مثل العلي" (إشعياء ١٤: ١٢-١٤).

يخبر الكتاب المقدس أن الشيطان لم يسقط وحده من حالته المباركة، بل يسقط التنين ومعه ثلث

الكواكب (رؤ ١٢: ٤).

في أكثر وضوح يقول أحد الرسل: "والملائكة الذين لم يحفظوا رياستهم، بل تركوا مسكنهم حفظهم إلى

دينونة اليوم العظيم بقيود أبدية تحت الظلام" (يهوذا ٦).

هذا أيضاً وقد قيل لنا: "لكن مثل الناس تموتون وكأحد الرؤساء تسقطون" (مز ٨٠: ٧). على من ينطبق

هذا القول بأن كثيرين من الرؤساء قد سقطوا؟

يرى الأب سيرينوس أن الرؤساء هم الملائكة، سقطوا عن رتبهم المتنوعة من مواضعهم السماوية كثمرة شرهم، وأنهم أيضًا حملوا رتبًا حسب درجة شرهم. وكأنهم كما حملوا رتبًا متنوعة في حياتهم الملائكية، نالوا في سقوطهم رتبًا مضادة حسب درجة شرهم.

ف ٩: يقول جرمانوس إنهم اعتادوا أن يعتقدوا أن الحسد هو علة سقوط الشيطان وبدء سقوطه، الذي بسببه طرد من السماويات، وذلك عندما خدع آدم وحواء باحتيال.

ف ١٠: أوضح الأب سيرينوس أنه ظاهر من سفر التكوين أن بدء سقوط الشيطان ودماره كان قبل هذا الخداع. فقد قيل عن الحية (الشيطان) أنها أحكم من كل حيوانات الأرض، وجاءت كلمة "أحكم" في العبرية تعني "أحيل". كان أكثر خداعًا ليس من الملائكة، لأنهم ليسوا مخادعين، ولا من البشر، لأنهم لم يكونوا بعد قد خلقوا (بل من ملائكته الساقطين معه). هذا الخداع الذي فيه كبرياء نزل به ليحمل اسم "الحية"، ويحمل حسدًا.

إنه لم يعد بعد يقدر أن يمشي بل يزحف، ولا أن يتطلع إلى فوق، بل يلتصق بالأرض يزحف عليها، وينحط ليزحف على بطنه يأكل طعامًا ترابيًّا أي أعمال الخطايا، بهذا يحمل روح العداوة ضد كل الخليقة. هذه العداوة وإن كانت قد دفعت به ليخدع آدم وحواء، لكن كما يقول الأب سيرينوس أنها لنفعنا، وهذا الخلاف لفائدتنا، فيقف البشر في حذر منه كعدو خطير، فلا يقدر بعد أن يضربنا بأن يخدعنا بإظهاره الصداقة معنا.

هنا يمكنني خلال كلمات هذا الأب أن أضع مقارنة بين التصاق الإنسان بالحية القديمة إبليس وبين التصاقه بالسيد المسيح:

- يوجد صراع بين السيد المسيح كلمة الله وإبليس، كل منهما يريد أن يضم الإنسان إليه ويهبه ما عنده.
- التصاق الإنسان بإبليس يجعله متشبهًا بالحية التي لا تقدر أن تمشي في الطريق الإلهي الملوكي بل تزحف على الأرض، فيصير الإنسان ترابيًّا. أما الالتصاق بالسيد المسيح، الطريق الحق، فيهبنا جناحي الروح القدس لكي نتطلق النفس كحمامة وتطير إلى السماوي. بهذا تجلس النفس كما في السماويات وتنعم بالجنسية السماوية .
- التصاق الإنسان بإبليس يجعله يزحف على بطنه فيأكل التراب، ويجعل من بطنه إلهًا كقول الكتاب: "ألتهم بطونهم"، يعيش الإنسان ليأكل، وليس يأكل لكي يعيش. يقاتل الإنسان مع إبليس على الخطية كطعام داخلي له. أما السيد المسيح فيهبنا جسده ودمه مأكلاً ومشرباً لكي ننعم بالحياة الأبدية. يصير السيد المسيح "البر الإلهي" طعامًا للنفس التي تقتات به، أما طعام الجسد فضرورة لأجل الحياة.
- التصاق الإنسان بإبليس يسكب فيه روحه، الذي هو روح العداوة، أما التصاقه بالسيد المسيح فيسكب فيه روحه الذي هو روح الحب والصداقة على مستوى أبدي.

ف ١١: إن كان المخادع إبليس يسقط تحت العقوبة والدينونة التي يستحقها، فإن من يقبل الخداع لا يُعفى من العقاب، وإن كان عقابه أخف من العقاب الذي يسقط تحته المخادع نفسه.

يقول الرسول أن حواء لا آدم هي التي خُدعت، لكن آدم قبل مشورتها. لذا يليق بنا أن نحذر من كل مشورة شريرة، هذه التي تجلب عقوبة على من صدرت عنه ومن قبلها.

ف ١٢: جماهير الشياطين وما تثيره من اضطرابات في جو حياتنا.

يرى الأب سيرينوس أن الجو ما بين الأرض والسماء مكتظ بجموع من الأرواح الخفيفة، تطير لا في

هدوء ولا في خمول.

من عناية الله الفائقة أنه حجب هذا المنظر عن الأعين البشرية. لأنه لو كشف عن عيني الإنسان ليرى هذا المنظر لسقط في حالة رعب شديدة وانهيار، وفستت حياته يومًا فيومًا، وعجز عن ممارسته لعمله اليومي وتحقيق رسالته. فالرؤيا تجعله يدخل في علاقة مباشرة منظورة خلالها يرى في كل لحظة ما يمارسونه من شر، مما قد يدفع الإنسان إلى الخطأ.

فصل ١٣: صراع الشياطين ليس فقط ضد الإنسان، وإنما حتى ضد بعضهم البعض، فإنهم لن يتوقفوا عن الخلافات والصراعات بسبب ما يحملونه من شر.

في دانيال ١٠: ١٢-١٤ نرى رئيس الملائكة ميخائيل يُقاوم رئيس الفارسيين لمدة ٢١ يومًا لكي يحفظ دانيال منه. كما يتحدث عن رئيس لليونانيين... وإن الشيطان الذي يعهد بالفارسيين يصارع ليس فقط ضد أولاد الله، بل وضد الشيطان الذي يعهد باليونانيين. هذا في رأي الأب سيرينوس هو سر الصراعات المستمرة بين الأمم بروح الحسد الذي لا ينقطع. إنها صراعات بين الشياطين وبعضها البعض التي تنثر الأمم ضد بعضها.

فصل ١٤: كيف نالت قوات الشر الروحية ألقاب القوت والرئاسات؟

لأنها تحكم وتسيطر على أمم مختلفة، ولها تأثيرها على أرواح أقل منها، وعلى شياطين، وقد شهدت الأناجيل عن وجود "جيتون".

فما كان يمكن دعوتهم أرباب ما لم يوجد من يمارسون عليهم الروبية، ولا يدعون قوات وسلطين ما لم يكن لهم من يمارسون عليهم هذا السلطان.

فالفرسيون في تجديفهم على السيد المسيح قالوا: "بيلزبول رئيس الشياطين يخرج الشياطين" (لو ١١: ١٥)، كما دُعيت الشياطين: "ولاة العالم على ظلمة" (أف ٦: ١٢)، ودُعي أحدهم: "رئيس هذا العالم" (يو ١٤: ٣٠). ويتحدث الطوباوي بولس عن هؤلاء الرئاسات والقوت كيف يبطل سلطانهم على هذا العالم حين يخضع الكل للسيد المسيح فيقول: "متى سُلّم الملك لله الأب متى أبطل كل رئاسة وكل سلطان وكل قوة" (١كو ١٥: ٢٤).

فصل ١٥: ليس بدون سبب حملت القوات المقدسة السمائية ألقاب الملائكة ورؤساء الملائكة.

دعوا "ملائكة" ومعناها "رسل"، لأن عملهم هو حمل رسائل إلهية. ودعوا "رؤساء ملائكة" لأن لهم سلطان على الملائكة. و"سلطين" لأن لهم سلطان على أشخاص معينين. و"رئاسات" إذ لهم أشخاص هم رؤساء عليهم. و"عروش" لأنهم قريبون جدًا من الله وأخصاء وملتصقون به، فتستريح العظمة الإلهية فيهم كما في عرش إلهي بطريقة كمن يتكى عليهم.

فصل ١٦: ندرك خضوع الشياطين لرؤسائهم ليس فقط مما ورد في الكتاب المقدس (لو ١٩: ١١)، بل نراه أيضًا خلال خبرات القديسين المتنوعة.

روى الأب سيرينوس قصة أحد الاخوة (الرهبان). إذ كان في رحلة في تلك البرية وجد كهفًا فتوقف هناك ومارس صلاة الغروب فيها، مسبجًا بالمزامير. بعد الصلاة جلس قبل أن يأكل وكان جسده منهكًا، فرأى

عدداً لا يحصى من فرق الشياطين، اجتمعت معاً من كل جانب. جاءوا كجموع لا تُحصى في طابور طويل، البعض يسبق الآخرين، وآخرون يتبعون رئيسهم، وهو أطول منهم وأكثرهم رعباً. وُضع عرش عليه كرسي للقضاء عالٍ، وبدأ يفحص أعمال كل واحدٍ منهم.

فإذا ما قال أحدهم أنه لم يستطع بعد أن يغلب منافسيه يصدر أمر بطرده في خزي وعار بكونه كسلاناً وخاملاً، ويوبخ بغضب شديد لأنه أضاع وقتاً طويلاً وأن عمله لم يُثمر.

أما الذين يقولون بأنهم خدعوا منافسيهم فيمتدحهم الرئيس ويمجدهم فوق الكل كمصارعين شجعان وأنهم صاروا نماذج مشهورة أمام البقية.

من بين هؤلاء ظهر أكثر الأرواح شراً وقدم نفسه ليروي نصرته العظيمة. لقد أشار إلى راهب معروف جداً، وأنه بعد صراعٍ ضده استمر ١٥ عاماً أخيراً غلبه الليلة بخفية الزنا مع فتاة مكرسة، وأنه أغواها لكي يتزوجها. عندئذٍ صدرت صرخات فرح مدوية، ونال مديحاً عظيماً بواسطة رئيس الظلمة، ووجهت إليه كرامات عظيمة.

إذ ظهر النهار اختفت كل الشياطين من أمام عيني الأخ، وكان متشككاً من جهة الأرواح الدنسة متذكراً كلمات الإنجيل: "لم يثبت في الحق، لأنه ليس فيه حق، متى تكلم بالكذب فإنما يتكلم مما له، لأنه كذاب وأبو الكذاب" (يو ٨: ٤٤).

كمل الأخ طريقه إلى البلسم حيث يعلم أن هذا الإنسان يقطن هناك، هذا الذي تحدث عنه الروح الشرير بأنه قد حطمه، إذ كان الأخ معروفاً جداً لديه. وعندما سأل عنه وجده بالفعل إنه في تلك الليلة ترك ديره وضل ساقطاً في خطيته مع الفتاة السابق ذكرها.

فصل ١٧: يقول الأب سيرينوس:

[يشهد الكتاب المقدس عن وجود ملاكين، أحدهما صالح والآخر شرير، يكونان ملاصقين لكل واحدٍ منا. يقول المخلص عن الملاك الصالح: "لا تحقروا أحد هؤلاء الصغار، لأنني أقول لكم إن ملائكتهم في السموات كل حين ينظرون وجه أبي الذي السموات" (مت ١٨: ١٠). وأيضاً: "ملاك الرب حال حول خائفيه وينجيهم" (مز ٣٤: ٧). وأيضاً ما قيل في أعمال الرسل عن بطرس: "إنه ملاكه" (أع ١٢: ١٥).

أما عن وجود كلا النوعين من الملائكة فيعلمنا كتاب الراعي هذا بطريقة كاملة^١.

إن كنا نفكر في ذاك الذي هاجم الطوباوي أيوب فإننا نتعلم أنه كان يخطط ضده لكنه لم يقدر قط أن يجتذبه إلى الخطية، لذلك كان يطلب سلطاناً من الرب، إذ كان مربوطاً لا بفضيلة (أيوب)، بل بحماية الرب التي كانت تحميه دوماً.

قيل أيضاً عن يهوذا: "ليقف الشيطان عن يمينه" (مز ١٩: ٦).

فصل ١٨: درجات الشر الموجودة في الأرواح المعادية كما ظهرت في حالة فيلسوفين.

تحدث عن مثال لفيلسوفين كان لهما خبرة عظيمة في أعمال السحر مع الكسل والجسارة والشر. لقد حاولا أن يؤذيا الطوباوي أنطونيوس وإذ لم يستطيعا حاولا أن يخلعا من قلايته بخيالات السحر وأكاذيب

^١ الراعي لهرماس: ك ٢ وصية ٦.

الشياطين، فأثارا ضده الأرواح الشريرة المملوءة عنفاً، ليهاجموه في حسدٍ لكونه خادم الله. وإذ لم يقدرُوا حتى على الاقتراب منه، إذ كان يرشم صدره وجبهته بعلامة الصليب مكرساً وقته للصلوات والتوسلات، عادت الشياطين إلى من قاما بتوجيههم. قام الساحران بإرسال أرواح شريرة أكثر شراً، وإذ عادوا خائبين لم يحققوا رسالتهم، أرسلوا من هم أكثر قوة لمقاومة جندي المسيح الغالب، ولم يستطيعوا أن يصنعوا شيئاً ضده.

هكذا كل الحيل والخطط وفنون السحر نافعة في تأكيد التقدير العظيم لعمل المسيحيين، حتى إن هذه الخيالات العنيفة والمتسلطة التي تظن أنها قادرة على حجب الشمس والقمر إذ اتجهت نحو الطوباوي أنطونيوس لم تستطع أن تصيبه بضرر، ولا أن تسحبه من ديره للحظة واحدة.

فصل ١٩: لن تستطيع الشياطين أن تغلب البشر إلا إن امتلكوا أولاً أذهانهم.

أكمل الأب حديثه قائلاً:

إذ دُهِش الفيلسوفان انطلقا فوراً إلى الأب أنطونيوس، وكشفا له عن هجماتها وخطتها ضده، وطلبا أن يصيرا مسيحيين. وعندما سألهما عن اليوم الذي فيه مارسا هذا العمل اكتشف أنه في هذا اليوم كان محارباً بأفكارٍ مرة. بهذه الخبرة أكد الطوباوي أنطونيوس وثبت الفكرة التي قلناها بالأمس في مناظرتنا إن الشياطين لا تستطيع أن تجد لها مدخلاً إلى ذهن أحد أو جسده، وليس لها سلطان أن تسيطر على نفس أحدٍ ما لم تنزع عنها كل الأفكار المقدسة وتجعلها فارغة فاقدة التأمل الروحي.

يليق بكم أن تعرفوا أن الأرواح الدنسة تطيع البشر بطريقتين:

- إما بالنعمة الإلهية والسلطان الذي لقداسة المؤمنين.
- أو أن يكونوا مأسورين بذنائب الخطاة ويمارسون تلاوات معينة كعابدين للشياطين.

لقد ضل الفريسيون بفهم خاطئ وتخللوا أن الرب المخلص أعطى الأوامر للشياطين بهذه الطريقة (أعمال السحر) إذ قالوا: "إنه ببعلزبول رئيس الشياطين يخرج الشياطين". هذا يتفق مع تلك الخطة التي عرفوا أن سحرتهم والعزافين الذين لهم - إذ يمارسون تلاوات لإيليس ويقدمون له الذبائح التي يُسر بها ويبتهج يصيرون له كخدام يهبهم السلطان حتى على الشياطين الخاضعة له.

فصل ٢٠: سأل جرمانئوس عن ما ورد في سفر التكوين عن الملائكة الساقطين إن كانوا قد مارسوا علاقات جسدية مع بنات الناس (تك ٦: ٢)، وما ورد في الإنجيل عن الشيطان أنه كذاب وأبو الكذابين (يو ٨: ٤٤)، ماذا يعني بقوله أب الكذابين؟

فصل ٢١: الإجابة عن السؤالين السابقين.

أجاب الأب سيرينوس على السؤالين السابقين قائلاً:

[لا يمكننا أن نعتقد بأن هذه الكائنات الروحية يمكن أن تمارس علاقات جسدية مع النساء. لو كان هذا ممكناً أن يتحقق حرفياً، فلماذا لا يحدث الآن أيضاً، فإننا لا نرى بطريقة ما أن نساء يحملن بواسطة شياطين بدون علاقة جسدية مع رجال؟ خاصة عندما يظهر بوضوح أن الشياطين تجد لذة في إثارة الشهوة التي بالتأكيد كان الأفضل لها أن تحققها بواسطة مباشرة عن أن تتم خلال الرجال، لو كان ذلك ممكناً لهم أن يمارسوه. وكما يقول سفر الجامعة: "ما كان فهو ما يكون، والذي صُنِعَ فهو الذي يُصنع فليس تحت الشمس جديد. إن وجد شيء يُقال عنه: انظر، هذا جديد. فهو منذ زمان كان في الدهور التي كانت قبلنا" (جا ٩: ١٠-١١).

لكن السؤال الذي طُرح يمكن أن يُحل بالطريقة التالية: بعد موت هابيل البار، لكي لا يخرج كل الجنس البشري من صلب إنسان قاتل لأخيه وُلد شيث بدلاً من أخيه الذي قتل (هابيل) ليحتل مكانه، ليس فقط بخصوص إنجاب الأجيال، بل وفي ممارسة العدالة والصلاح. وجاء نسله يتبعون مثال صلاح أبيهم، صاروا دائماً في عزلة عن الدخول في علاقات (زيجية) مع قايين. فقد ظهر الاختلاف بين السلسلتين في الأنساب كما قيل لنا بوضوح: "آدم ولد شيثاً، وشيث ولد أنوش، وأنوش ولد قينان، وقينان ولد مهللئيل، ومهللئيل ولد يارد، ويارد ولد أخنوخ، وأخنوخ ولد متوشالح، ومتوشالح ولد لامك، ولamak ولد نوحاً" (تك ٥). وجاءت سلسلة أنساب قايين منفصلة: "قايين ولد حنوك، وحنوك ولد عيراد (قينان)، وعيراد ولد محويائيل، ومحويائيل ولد متوشائيل، ومتوشائيل ولد لامك، ولamak ولد يابال ويوبال" (تك ٤: ١٧-٢١). وهكذا بقي خط الأنساب النابع من صلب شيث البار يختلط مع بعضه البعض مستمراً إلى فترة طويلة في قداسة آبائهم وأسلافهم، لا يتلامسون مع تجاديف وشورور النسل الشرير المغروس فيه بذرة الخطية كما لو كانت تنتقل من الأسلاف.

طالما بقي هذا الانفصال بين الخطيين: زرع شيث كمن صدر عن جذر ممتاز، دُعي بسبب قداسته "ملائكة الله"، أو كما نسخها البعض "أبناء الله" (تك ٦: ٢٠ LXX). وعلى العكس دُعي الآخرون بسبب شرهم وشر آبائهم وتصرفاتهم الأرضية "بنات الناس".

بالرغم من وجود الانفصال المقدس والنافع بينهما حتى هذا الوقت، فإنه بعد ذلك رأى أولاد شيث الذين هم أبناء الله البنات اللواتي من نسل قايين، فالتهبت فيهم الشهوة بسبب جمالهن، واتخذوا لهم منهن زوجات. علّمت الزوجات رجالهن شر آبائهن، واقتدن إياهم بعيداً عن القداسة الموروثة وبساطة الذهن التي لأبائهم. فانطبق عليهم بكل دقة هذا القول: "أنا قلت إنكم آلهة وبنو العلي كلكم، لكن مثل الناس تموتون وكأحد الرؤساء تسقطون" (مز ٨٢: ٦-٧). هؤلاء سقطوا من الدراسة الحقيقية للفلسفة الطبيعية التي تسلموها من أسلافهم، حيث تتبع الرجل الأول (آدم) دراسة كل الطبيعة واستطاع أن ينالها بوضوح، وسَلَّمَهَا إلى خلفه على أسس أكيدة، وذلك قدر ما رأى العالم في بدء نشأته، حيث كان لا يزال الإنسان في رفته وبساطته كمن فيه ليس فقط كمال الحكمة هذه، بل ونعمة النبوة التي وهبت له بالوحي الإلهي، حتى أنه بينما كان ساكناً في هذا العالم غير متعلم أعطى أسماء لكل الكائنات الحية، ولم يعرف فقط ثورة كل أنواع الحيوانات والثعابين وسمومها، بل وميّز بين أنواع النباتات والأشجار وطبائع الأحجار وتغيير الفصول التي لم يكن بعد قد اختبرها. استطاع أن يقول حسناً: "الرب وهب لي علماً يقيناً بالكائنات حتى أعرف نظام العالم، وفاعلية العناصر، ومبدأ الأزمنة ومنتهاها وما بينها، وتعاقب الاعتدالات وتغيير الفصول، ودوائر السنة ومراكز النجوم، وطبائع الحيوانات وغرائز الوحوش، ونغمات الأرواح وخواطر البشر، وأنواع النبات وخواص الجذور، فعرفت كل ما خفي وكل ما ظهر" (حك ٧: ١٧-٢١).

تسلم نسل شيث هذه المعرفة الخاصة بكل الطبيعة خلال تعاقب الأجيال التي تسلمتها من الآباء، طالما بقيت الأجيال معتزلة الخط الشرير، إذ تتقبلها في قداسة، وتستخدمها لمجد الله ولإشباع احتياجاتها اليومية.

لكن إذ امتزجت بالجيل الشرير انسحبت نحو اقتراحات الشياطين وأفسدت استخدامها بطريقة ضارة. فقدت المعرفة التي تعلمتها في براءة، وصارت تتعلم في حب استطلاع مع جسارة بلا تعقل فنون السحر والتلاوات والخرافات. تعلمت الأجيال المتعاقبة أن تترك عبادة الله المقدسة، وأن تكرم وتسجد للعناصر أو النار أو شياطين الهواء.]

يروي بعد ذلك الأب سيرينوس كيف انتقلت فنون السحر وعبادة الأصنام والشياطين حتى بعد الطوفان

خلال الزيجات الخاطئة بين أولاد الله وبنات الناس.

فصل ٢٢: اعتراض جرمانئوس على اعتبار الزواج بين أولاد الله من نسل شيث وبنات الناس من نسل قابين خطية حيث لم تكن هناك شريعة تمنع ذلك.

فصل ٢٣: يوضح الأب سيرينوس أن الناموس الطبيعي من البداية يمنع ذلك، لهذا تعرضوا للعقوبة.

فصل ٢٤: بعدل سقط أولاد الله الذين تزوجوا بنات الناس في العقوبة بالرغم من أنهم أخطأوا قبل الطوفان.

فصل ٢٥: أوضح الأب سيرينوس معنى ما ورد في الإنجيل عن الشيطان أنه كذاب وأنه أبو الكذابين (يو ٨: ٤٤).

إِنَّهُ لَأَمْرٌ سَخِيفٌ أَنْ تَتَخِيلَ هَذَا (أَنَّ الشَّيْطَانَ يَلِدُ أَبْنَاءَ) وَلَوْ عَلَى سَبِيلِ حُبِّ الْاِسْتِطْلَاعِ. فَإِنَّهُ كَمَا قُلْنَا مِنْذُ قَلِيلٍ أَنَّ الْأَرْوَاحَ لَا تَلِدُ أَرْوَاحًا، كَمَا أَنَّ النَّفْسَ لَا تَقْدِرُ أَنْ تَصْدُرَ نَفْسًا، مَعَ هَذَا لَا نَشْكُ أَنَّ الْجَسَدَ بِصَغَرِهِ مِنْ زَرْعِ الْإِنْسَانِ. يُمِيزُ الرِّسُولُ بوضوح بين الحالتين، أي بين الجسد والروح ... "ثم قد كان لنا آباء أجسادنا مؤدبين وكنا نهابهم؛ أفلا نخضع بالأولى جدًّا لأبي الأرواح فنحيا؟! (عب ١٢: ٩). أي شيء يمكن أن يكون أكثر وضوحًا من هذا التمييز، حيث يوضح أن البشر هم آباء أجسادنا، ولكنه دائمًا يعلم أن الله هو وحده أب النفوس.

مع أن الأمر الأصغر الخاص بهذا الجسد... يُنسب للبشر، بينما الجزء الرئيسي لتكوين الإنسان يشكله الله خالق الكل، يقول داود: "يداك خلقتاني وكوّنتاني" (مز ١١٩: ٧٣). ويقول الطوباوي أيوب: "ألم تصبني كاللبن، وخترتني كالجبين، كسوتني جلدًا ولحمًا، فنسجتني بعظام وعصب؟! (أي ١٠: ١٠-١١). ويقول الله لإرميا: "قبلما صورتك في الرحم عرفتكَ" (إر ١: ٥). لكن سفر الجامعة يجمع بوضوح شديد ودقة طبيعة بين العنصرين وبدايتهما... ونهاية كل منهما، فاصلاً بين الجسد والنفوس بقوله: "فيرجع التراب إلى الأرض كما كان، وترجع الروح إلى الله الذي أعطاها" (جا ٧: ٧).

هكذا إذ خُلِقَ الشَّيْطَانُ أيضًا روحًا، أو ملاكًا صالحًا، لم يكن له أب إلا الله خالقه. لكنه عندما انتفخ بالكبرياء، وقال في قلبه: "أصعد فوق مرتفعات السحاب، أصير مثل العلي" (إش ١٤: ١٤) صار كذابًا ولم يثبت في الحق (يو ٧: ٤٤)، بل ولد كذبًا من مخازن شره. صار ليس فقط كذابًا بل أبًا للكذب العملي. عندما وعد الإنسان بالألوهة وقال: "تصيران كالله" تك ٣: ٥ لم يثبت في الحق، بل كان منذ البدء قَتَلًا يجلب آدم إلى حالة الموت، وقتل هابيل بيد أخيه بناء على اقتراحٍ منه.



مناظرات يوحنا كاسيان مع مشاهير آباء البرية

٩

الصلاة

للأب إسحق^١

١ - مقدمة

ما قد وعدنا به في الكتاب الثاني من المؤسسات^٢ بخصوص الحديث عن الصلاة الدائمة بلا انقطاع يتحقق بمعونة الرب بحديث الأب إسحق الذي نقدمه لكم...

٢ - العلاقة بين الصلاة والفضائل

هدف كل راهب وكمال قلبه هو المداومة على الصلاة بلا انقطاع، فيجاهد قدوماً يسمح ضعفه البشري لينال العقل الهادئ غير المضطرب والنقاوة الدائمة حتى يمارس الأعمال الجسدية^٣ بانسحاق قلب ثابت بغير قلق.

يوجد نوع من الوحدة المشتركة غير المنفصلة بين الاثنين (الصلاة الدائمة والفضائل)، فكمال الصلاة هو تاج بنيان كل الفضائل، فإذا لم تتحد كل فضيلة اتحاداً كاملاً بالصلاة لا تكون لها قوة أو ثباتاً. ودوام الهدوء في الصلاة وثباتها لا يمكن أن يكون أكيداً وكاملاً ما لم تسندها الفضائل، ولا يمكن اقتناء الفضائل ما لم تثبت في الصلاة.

لهذا فإننا لا نقدر في حديث قصير أن نبحث بتدقيق "أثر الصلاة"، وأن نتعمق إلى "غاية الصلاة الرئيسية" التي نحصل عليها بعمل كل الفضائل، ما لم نناقش ونحسب الأمور التي يجب نبذها (الردائل) أو تلك التي يلزم الاهتمام بها (الفضائل) من أجل الصلاة، وذلك حسب المثال الوارد في الإنجيل (لو ١٤: ٢٨) أي أن نحسب حساب نفقة بناء البرج الروحي الشاهق العلو، ونتمعن في ذلك مقدماً بحرص. ومع هذا فإن هذه الأمور لا يجدي حسابها شيئاً، ولا يسمح هذا بإتمام العلو الشاهق لبناء الكمال كما يليق، ما لم نأخذ في اعتبارنا أولاً الأخطاء بصورة واضحة، أي ما لم نحفر ونزيل الفساد ونفايات الشهوات، حينئذ يجوز وضع أساسات البساطة

^١ هذا الأب تلميذ للقدّيس أنطونيوس، وقد أشار إليه القدّيس بلاديوس.

^٢ المؤسسات ٩: ٢.

^٣ أي العبادة أو الممارسات الخاصة بالعبادة.

والاتضاع القوية فوق التربة الصلبة التي لصدنا الحي، أو بالأحرى توضع الأساسات على صخر الإنجيل (لو ٤٨:٦). بهذا يرتفع برج الفضائل الروحية، ويقدر أن يصمد ويعلو إلى أعالي السموات في أمان كامل لا يتزعزع. فمتى وُضعت هذه الأساسات، لا يصيبه خراب ولا يؤذيه أي ضرر حتى وإن صدمته عواصف الشهوات العنيفة، وثارت ضده عذابات الضيق، وقامت ضده هجمات الأعداء الروحيين (الشياطين) العنيفة.

٣- كيف نقتنى الصلاة النقية؟

لكي ما نرفع الصلاة بالغيرة والنقاوة اللازمتين لها ينبغي مراعاة الآتي:
أولاً: ترك كل قلق متعلق بأمور جسدية.

ثانياً: ألا نترك فرصة لأفكارنا أن تشرذ في الاهتمام أو حتى مجرد ذكر أي عمل من الأعمال^٤. وأن نلقي جانباً كل الوشايات وكثرة الكلام الباطل (القال والقليل). وقبل كل شيء نترك الغضب، وننزع الكآبة المملوءة قلقاً، ونقتلع جذور الشهوات الجسدية المميتة والطمع.

هكذا إذ يرى الإنسان مثل هذه الأخطاء ويستبعضها ويقطعها عن طريق البساطة النقية والبراءة، عندئذ يلزمه أن يضع أساساً أميناً من الاتضاع العميق الذي يعين البرج الذي يرتفع إلى السماء. بعد ذلك يُقام عليها ببيان الفضائل الروحية، وتحرر النفس من كل أحاديث وأفكار هائمة، ويبدأ في التأمل الإلهي، وترتفع النظرة الروحية قليلاً. لأنه بالتأكيد يرد علينا أثناء الصلاة ما كان يشغل أذهاننا في الساعة التي تسبقها، وذلك من جراء دوام نشاط الذاكرة. فما نريد الانشغال به أثناء الصلاة يلزم أن نُعد أنفسنا للتفكير فيه قبل وقت الصلاة. فالذهن في الصلاة يتشكل حسب الحالة التي يكون عليها قبل الصلاة.

عندما نتقدم للوقوف للصلاة، نتراقص أمام أعيننا صُور الحوادث والكلمات والأفكار التي سبقت الصلاة، من غضب وحزن وشهوات وأعمال سابقة، قد جعلنا نضحك ضحكات ساخرة بفكاهات سخيفة أو بعض التصرفات، أو نتذكر مناقشتنا التي سبقت الصلاة. فإن كنا لا نريد أن يزعجنا شيء أثناء الصلاة، يلزمنا أن نحترس قبل الصلاة لنظهر القلب بعزم من كل هذه الأشياء، بهذا ننتم قول الرسول: "صلُّوا بلا انقطاع" (١ تس ٥:١٧)، "في كل مكانٍ رافعين أيادي طاهرة بدون غضبٍ ولا جدالٍ" (١ تي ٢:٨). ونحن لا نقدر أن ننفذ هذه الوصية ما لم يتنق عقلنا من كل بصمات الخطية ويلتصق بالفضيلة، حتى يكون صلاحه طبيعياً، ويتغذى بالتأمل المستمر في الإله القدير.

إمكانيتنا للصلاة

طبيعة النفس تشبه ريشة غاية في النعومة أو جناحاً غاية في الخفة، فلو لم تتلفها أو تفسدها رطوبة خارجية، ترتفع طبيعياً إلى أعالي السموات بحكم خفة طبيعتها وبفضل نفخة بسيطة... هكذا نفوسنا إذا لم تُثقل بالخطايا التي تلمسها، واهتمامات هذا العالم، أو تتلف برطوبة الشهوات المؤذية، فإنها ترتفع بمواهب نقاوتها الطبيعية، وتُحمل إلى الأعالي بنفخة خفيفة من التأمل الروحي وإذ تترك النفس الأمور السفلية المادية تتطلق نحو الأمور السماوية غير المنظورة. لذلك طالبتنا الوصية أن نحذر لئلا نتقل قلوبنا بالتخمة والسكر واهتمامات هذا العالم (لو ٢١:٣٤).

^٤ خاصة بالرهبان ويمكن لأي مؤمن الاستفادة من ذلك، إذ يلزمه أن يعطي لنفسه فترات ينسى فيها كل شئونه، ليس استهتاراً بعمله، بل لأجل نفعه الروحي والجسدي والنفسي، وهذا لا يقلل من أمانته وحبه لعمله كوزنة إلهية.

فإذا أردنا وصول صلواتنا لا إلى السماء فحسب بل وإلى ما وراء السماء، لنهتم أن تعود نفوسنا إلى خفتها الطبيعية مغسولة من الأخطاء الأرضية ونقية من كل الخطايا. وهكذا تصل صلواتنا إلى الله من غير أن تعوقها أية خطية.

٥- ما الذي يثقل النفس؟

وجدت بنا أن نلاحظ العلل التي أشار إليها الرب وأظهر أنها تثقل النفس. فهو لم يشر إلى الدعارة أو الزنا أو القتل أو التجديف أو الاغتصاب، هذه الأمور التي يعرف كل إنسان أنها مُهلكة ومميتة، إنما ذكر التخمة والسكر واهتمامات هذا العالم، هذه الأمور كثيرًا لا يتجنبها البشر، بل ولا ينظرون إليها على أنها مُهلكة، حتى أننا نجد بعضًا ممن يدعون أنفسهم رهبانًا (وأنا أخجل أن أقول ذلك) مثقلون بمثل هذه الانشغالات كأنها غير ضارة أو أنها نافعة.

هذه الرذائل الثلاث تثقل النفس، وتفصلها عن الله، وتُحملها بالأمور الأرضية... إلا أنه من السهل جدًا أن نتجنبها، لاسيما لنا (نحن الرهبان) إذ انفصلنا بعيدًا عن كل رجاء وأمل في هذا العالم الفاني، وليس لنا عذر أن نرتمي في أحضان الاهتمامات المنظورة والسكر والتخمة.

لكن هناك تخمة من نوع آخر لا تقل خطرًا عن التخمة (بالمفهوم العام)، وسكر روحي يصعب تجنبه، واهتمامات بهذا العالم تصطادنا ونحن نعيش في حياة الوحدة. عن مثل هذه يقول النبي: "اصحوا أيها السكارى" (يوئيل ١: ٥). ويقول إشعياء: "قد سكرنا وليس من الخمر، ترنحوا وليس من المسكر" (إش ٢٩: ٩). في هذا السكر يستخدمون خمرًا يسميه النبي "سم الأفعوان". أما عن الخمر فيقول: "لأن من جفنة سدوم جفنتهم ومن كروم عمورة" (تث ٣٢: ٣٢).

أتريد أن تعرف شيئًا عن ثمرة الكرم و بذار ذلك الغصن؟ إنه يقول: "عنبهم عنب سمٍّ، ولهم عناقيد مرارة" (تث ٣٢: ٣٢). لأنه ما لم نتطهر من كل الأخطاء، ونزهد تخمة كل الشهوات، نتقل قلوبنا بمسكر وخمر أشد خطرًا، من غير أن تسكر بخمر أو تتخم بولائم.

أما من جهة الاهتمامات العالمية، فيمكنها أن تحاربنا لعلها تتمكن منا نحن الذين ليس لنا أعمال في العالم (الرهبان)، وهذا يظهر بوضوح من تدابير الآباء السواح، إذ يتركون كل شيء اللهم إلا طعامهم اليومي الضروري والاحتياجات الضرورية للجسد.

٧- أنواع الصلاة

أظن أنه لا يمكننا أن نفقتي كل أنواع الصلاة بدون نقاوة القلب والروح مع استتارة الروح القدس.

هناك أنواع كثيرة للصلاة تختلف باختلاف الظروف وأحوال النفس... وبسبب بلادة قلبنا لا نقدر أن نعدد كل أنواع الصلاة، لكنني أحاول - قدر ما تسعفني خبرتي القليلة - أن أضعها في نسق معين. لأن صلواتنا تتغير كل وقت حسب درجة النقاوة التي تكون عليها النفس، والصفات التي صارت لها بسبب ما يحدث للإنسان من حوادث، أو ما يبذله من جهاد، لهذا لا يقدر إنسان أن يقدم على الدوام صلوات على نمط واحد.

فما يصلي الإنسان وهو نشيط غير ما يصلي وهو مثقل بالحزن أو القنوط. ويصلي بطريقة أخرى عندما يكون منتعشًا بالفضائل الروحية، وبطريقة مغايرة عندما يهاجم بهجمات عنيفة... وبطريقة أخرى عندما يطلب الصفح عن خطاياه، وأيضًا عندما يسأل نعمة أو فضيلة ما، أو يتوسل من أجل إزالة خطية معينة.

وعندما يُنَحَس قلبه بالتفكير في الجحيم وبهاب الدينونة المقبلة، غير ما يصلّيه عندما يكون ممثلاً بالرجاء والاشتياق إلى الأمور المقبلة. كذلك عندما يكون في مخاطر غير ما يصلّيه وهو في سلام وأمان. وعندما يكون مستتيراً بإعلان أسرار سماوية غير ما يصلّيه وهو مثقل بالإحساس بالعقم من جهة الفضيلة وجفاف المشاعر.

٩ - الأربعة أنواع من الصلاة

... لا يزال ينتظرنا أمر صعب، وهو أن نشرح كل نوع من أنواع الصلاة حسب تقسيم الرسول إذ قال: "فأطلب أوّل كلّ شيء أن تُقام طلبات وصلوات وابتهالات وتشكرات" (١:٢). ماذا يقصد بالطلبات والصلوات والابتهالات والتشكرات!؟...

١١ - الطلبات

"فأطلب أوّل كلّ شيء أن تُقام طلبات"، الطلبة هي تضرع أو التماس بخصوص الخطايا، يقدمه الإنسان طالباً الصفح عن خطاياه الحالية والماضية.

١٢ - الصلوات

الصلاة هي التي تقدم شيئاً كنذر لله، ويسمّيها اليونان "نذراً". فما جاء "أوفي نذوري للرب" (مز ١١٦:١٤)، يُترجم عن اليونانية "أوفي صلواتي للرب"، كذلك نجد في سفر يشوع بن سيراخ: "إذا نذرت للرب نذراً فلا تؤخره أيضاً" (٣:٥)، وأيضاً (تث ٢٣:٢١) و(جا ٥:٤، ٥) جاء في اليونانية بمعنى "إذا صلّيت صلاة للرب فلا تتأخر في إيفائها"... ويكون إيفاء الصلاة هكذا: بزهنا هذا العالم وإمانتنا عن كل الأفعال العالمية... واعدن بأن نخدم الرب بنية صادقة من القلب.

ونحن ننفذ الصلاة عندما نعد باحتقار الكرامة الأرضية، وازدراؤنا بالغنى الزمني، ملتصقين بالرب في حزن قلبي وانسحاق روحي.

ونصلّي عندما نعد بأن نعصد على الدوام نقاوة الجسد العظمى والصبر الثابت، وعندما ننذر بأن نقتلع من قلوبنا جذور الغضب تماماً، وأصل الحزن الذي يعمل للموت.

أما إذا ضعفنا بالكسل وعُدنا إلى خطايانا القديمة، فإننا نكون قد فشلنا في إيفاء الصلاة، و بدأ نخطئ بصلواتنا ونذورنا، وتطبق علينا هذه الكلمات: "إنه من الأفضل ألا ننذر عن أن ننذر ولا نفي"، والتي تطابقها في اليونانية أنه من الأفضل ألا نصلّي عن أن نصلّي ولا نفي.

١٣ - الابتهالات

تأتي بعد ذلك "الابتهالات" حيث اعتدنا، أن نقدم صلاة من أجل الآخرين أيضاً ونحن مملوئين بحرارة الروح، سائلين من أجل الأعزّاء علينا، ومن أجل العالم كله، مستخدمين عبارة الرسول بأن نصلّي "لأجل جميع الناس لأجل الملوك وجميع الذين هم في منصب" (١:٢، ٢). (١:٢، ٢).

١٤ - التشكرات

يلي ذلك التشكرات... حيث نقدم لله الذهن، رافعين إياه، متذكّرين بركات الله الماضية، متأمّلين في بركاته الحاضرة، متطلعين إلى البركات المقبلة التي أعدها للذين يحبونه. وبهذا تكون صلواتنا غنية، فإذا نتطلع بعيون نقية إلى ما أعدّ للقديسين في المستقبل تحنّنا روحنا أن نقدم لله تشكرات لا يُنطق بها مع فرح بلا حدود.

١٥- لزوم الأنواع الأربعة لكافة البشر

تساعد الظروف نفسها على إيجاد هذه الأنواع الأربعة بغنى ووفرة. فالطلبات تتبع عن الحزن من أجل الخطية. والصلوات تصدر من الثقة في تقديم تقديرات والقدرة على إيفاء نذورنا بضمير نقي. والابتهالات تأتي عن حرارة الحب. والتشكرات تتولد عن التأمل في بركات الله وعظمته وصلاحه.

نحن نعلم أنه غالباً ما تصدر هذه الأنواع من الصلوات التي نتحدث عنها بغيرة وانتقاد. وبهذا فهي نافعة ولازمة لكل البشر. فبالنسبة لأي إنسان تقدم مشاعره المتغيرة صلوات مملوءة لطفاً وطهارة واتقاداً باستخدام الطلبات مرّة، والصلوات مرّة أخرى والابتهالات ثالثة... ومع هذا يبدو كما لو أن الأولى (الطلبات) تناسب بالأكثر المبتدئين، الذين لا يزالون مضطربين بوخزات خطاياهم وتذكرها. والثانية (الصلوات) تناسب الذين تمتعوا فعلاً بشيء من السموّ الذهني في تقدمهم الروحي وطلب الفضيلة. والثالثة (الابتهالات) تناسب الذين حققوا كمال نذورهم بأعمالهم، وهؤلاء لهم غيرة للصلاة من أجل الآخرين خلال ضعفهم مع غيرة حبهم. والرابعة (التشكرات) تناسب الذين ينزعون من قلوبهم أشواك الضمير المذنبة، متحرّرين من الهمّ، وبهذا يقدرّون بذهن نقي أن يتأملوا في بركات الله وتعطفاته، سواء بالنسبة لما وهبه لنا في الماضي، أو يمنحه في الحاضر، أو يعدّه لنا للمستقبل، فيُحْمَلون إلى الأمام قلوباً متقدّمة بصلاة حارة لا تُحد ولا تستطيع أفواه البشر أن تعبر عنها.

إلا أنه أحياناً كيفما كان حال الذهن، إذ هو يتقدم نحو كمال النقاوة وقد بدأ فعلاً في التقدم، يصلي بهذه الأنواع الأربعة جميعها في وقت واحد، ويكون كليهما لا يُوصف، مقدّمًا لله صلوات غير موصوفة عظيمة النقاوة، والروح نفسه يشفع بأنات لا يُنطق بها، بينما نحن أنفسنا لا نفهم، فيتقدم لله في تلك الساعة منسكباً بطريقة لا يُعبر عنها، طالباً أموراً عظيمة لا ينطق بها فمّ، بل ولا يقدر الذهن أن يسترجعها في وقت آخر. بهذا يحدث أنه في أية درجة يكون فيها الإنسان، يجد نفسه أحياناً يقدم صلوات نقية مقدسة...

١٦- نوع الصلاة التي نوجّه إليها أنفسنا

مع ذلك يلزمنا في تقدمنا في الحياة ونوالنا الفضيلة أن نهدف بالأحرى إلى تلك الأنواع من الصلاة التي تُسكّب، إما متأمله في الأمور المقبلة الصالحة، أو في غيرة الحب، أو على الأقل أن ينطق الإنسان بأكثر اتضاع ومتبعاً المقاييس الخاصة بالمبتدئين، ليرتفع لطلب الفضيلة أو لينزع خطأ ما، وإلا فإنه لا يمكننا أن نبلغ تلك الدرجات السامية للصلاة التي نتحدث عنها، مالم ترتفع أذهاننا قليلاً بدرجات منتظمة حتى تصل إلى "الابتهالات".

١٧- الرب يضع أساس الأنواع الأربعة من الصلاة

وهب لنا الرب نفسه مثلاً في تأسيس هذه الأنواع الأربعة من الصلاة. بهذا يتحقق ما قيل عنه "ما ابتدأ يسوع بفعله ويعلم به" (أع ١: ١).

١- لقد استخدم النوع الأول أي "الطلبات" بقوله: "يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس" (مت ٢٦: ٣٩)، وما رثّل به النبي في المزمور على لسانه قائلاً: "إلهي إلهي لماذا تركتني" (مز ٢٢: ١).

٢- استخدم أيضاً "الصلاة" عندما قال: "أنا مجتدك على الأرض. العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته" (يو ١٧: ٤)، وأيضاً: "لأجلهم أقّس أنا ذاتي ليكونوا هم أيضاً مقدّسين في الحق" (يو ١٧: ١٩).

٣- استخدم "الابتهالات" عندما قال: "أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون

أنا لينظروا مجدي الذي أعطيتني" (يو ١٧: ٢٤). أو عندما قال: "يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون" (لو ٢٣: ٣٤).

٤- استخدم "التشكرات" بقوله: "أحمدك أيها الآب ربّ السماء والأرض، لأنك أخفيت هذه عن الحكماء والفهماء وأعلنتها للأطفال. نعم أيها الآب لأن هكذا صارت المسرة أمامك" (مت ٢٦: ١١، ٢٥)، أو على الأقل عندما قال: "أيها الآب أشكرك لأنك سمعت لي، وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي" (يو ١١: ٤٢، ٤١).

مع أن ربنا قد ميّز بين الأنواع الأربعة من الصلاة، مقدّمًا كل نوع على انفراد، إلا أنه يمكننا أن نستخدم الأنواع الأربعة في صلاة واحدة في وقت واحد، وهذا أيضًا أعلنه كمثال في الصلاة التي وردت في خاتمة إنجيل يوحنا... فالباحث المدقق في كلمات هذه الصلاة يقدر أن يكتشف أنها اشتملت الأربعة أصناف... وقد عبّر الرسول في رسالته إلى أهل فيلبّي بنفس المعنى، بذكره الأربعة أصناف من الصلاة مع اختلاف بسيط في الترتيب، مظهرًا ضرورة تقديمها بغيره في صلاة واحدة إذ يقول: "بل في كل شيء بالصلاة والدعاء مع الشكر لتُعلم طلباتكم لدى الله" (في ٤: ٦). بهذا رغب منا أن نفهم أنه يلزم في الصلاة والدعاء (الابتهالات) أن نقدم الشكر ممتزجًا بطلباتنا.

١٨ - الصلاة الربانية

هذه الأنواع المختلفة من الصلاة يليها حالة سامية وممتازة نقدمها بالتأمل في الله وحده بواسطة الحب الممتلئ غيرة، إذ به ينتقل الذهن ملقيًا بنفسه في الحب لله، مخاطبًا الله بأعظم دالة أنه أبوه الخاص به، مع طاعته لله وتكريمه. وعلّمنا نموذج "الصلاة الربانية" ضرورة البحث عن هذه الحالة قائلين "أبانا".

عندما ننطق بأفواهنا أن الله رب كل المسكونة هو أبونا، نعترف أننا قد دُعينا من العبودية إلى التبني كأبناء. وإذ نردف قائلين "الذي في السموات" نتحاشى بكل مخافة إطالة البقاء في هذه الحياة الحاضرة، عابرين هذه الأرض كمن هم في رحلة. فنسرع مشتاقين إلى المدينة التي نعترف بأن أبانا يقطنها. ولا نسمح لأي شيء يفقدنا الاستحقاق لموطننا الأبدي ولشرف التبني، ناظرين إليه كعار يحرمنا من ميراث أبينا، وبه يحل بنا غضب عدله وصرامته.

فإذ نتقدم إلى هذه الحالة من "البنوة"، نشعل بالتقوى كما يليق بأبناء صالحين، فنحنى بكل طاقاتنا، ليس ابتغاءً لنفع خاص، إنما لأجل مجد الله، قائلين له: "ليتقدّس اسمك". وبهذا نشهد أن رغبتنا وفرحنا هو مجده، مقتدين بالذي قال: "من يتكلم من نفسه يطلب مجد نفسه، وأمّا من يطلب مجد الذي أرسله فهو صادق وليس فيه ظلم" (يو ١٨: ٧).

أخيرًا إذ امتلأ الإتياء المختار بهذه المشاعر (عدم الأنانية) رغب أن يكون محرومًا من المسيح (رو ٣: ٧) من أجل شعبه... ويقول أيضًا: "لأننا نفرح حينما نكون نحن ضعفاء وأنتم تكونون أقوياء" (٢كو ١٣: ٩). لنعبر أيضًا إلى مستلم الشريعة الذي لم يرفض أن يموت مع اخوته الذين حكم عليهم بالموت قائلًا: "والآن إن غفرت خطيتهم وإلا فامحني من كتابك الذي كتبت" (خر ٣٢: ٣٢).

حين نقول "ليتقدّس اسمك" يليق بنا جدًا أن نفهمه بهذا المعنى "تقدّيس الله هو كمالنا"، أي اجعلنا أيها الآب قادرين أن نفهم ونسلك بما فيه تقدّيس اسمك، أي نشهد لك يا الله بسلوكنا كروحيين بتغيّرنا الروحي، إذ يرى الناس أعمالنا ويُمجدوا أبانا الذي في السموات (مت ٥: ١٦)...

١٩ - ليأت ملكوتك

الطلبة الثانية هي أن يرغب القلب النقي في مجيء ملكوت أبيه للحال، بمعنى أن يملك السيد المسيح يومًا فيومًا في القديسين، ويتأتى ذلك بطرد سلطان الشياطين من قلوبنا، وإبادة وسخ الخطية، وبيراً بملك الله علينا خلال حلاوة عبير الفضائل، فينهزم الزنا وتملك الطهارة على قلوبنا. ويملك الهدوء بتقهقر الغضب، والاتضاع بوطء الكبرياء تحت الأقدام.

يعني (بالملكوت) ما قد وُعد به كل الكاملين وأبناء الله حين يقول لهم السيد المسيح: "تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم" (مت ٢٥: ٣٤).

فالقلب يشترك إلى الملكوت بنظرة ثابتة قوية ويحس إليه مخاطباً الله: "ليأت ملكوتك"، لأنه يعلم بشهادة ضميره أنه عندما يأتي الرب سيشاركه في الميراث. فلا يقدر إنسان خاطئ أن ينطق بهذا، ولا يرغب فيه، لأنه لا يريد أن يواجه كرسي قضاء الديان وهو يعلم أن في مجيئه لا ينال مكافأة بل عقاباً...

٢٠ - لتكن مشيئتك

الطلبة الثالثة للأبناء هي "لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض".

لا يمكن أن توجد صلاة أعظم من الاشتياق أن تكون الأمور الأرضية مساوية للسمائية. لأنه ماذا يعني القول: "لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض" سوى السؤال من أجل البشر ليكونوا مثل الملائكة؟ فكما تمت مشيئة الله بواسطتهم في السماء، هكذا ليت الذين على الأرض لا يفعلون مشيئتهم الذاتية بل مشيئة الله!

هذه الطلبة لا يمكن أن ينطق بها من القلب إلا الذي آمن أن الله يدبر كل الأمور المنظورة لخيرنا، سواء الأمور المبهجة أو المؤلمة، وأنه مهتم بما لخيرنا وخلصنا أكثر من اهتمامنا نحن بأنفسنا.

على أي الأحوال يمكن أن تؤخذ بهذا المعنى: إرادة الله هي خلاص كل البشر وذلك كقول الرسول: "الذي يريد أن جميع الناس يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون" (١ تي ٢: ٤) ... فعندما نقول: "لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض" نصلي أن يخلص جميع الذين يسكنون في الأرض وذلك مثل أولئك الذين سبقونا إلى السماء (الكنيسة المنتصرة)، إذ عرفوك أيها الآب.

٢١ - الخبز اليومي

"أعطنا الخبز اليومي الذي هو *Supersubstantial*" والذي يدعو إنجيل آخر "خبزنا اليومي". الأولى تشير إلى سمو هذا الخبز من حيث أنه فوق كل المواد، ويشير إلى علو جلاله وقداسته الذي يفوق كل المخلوقات. أما الثانية فتشير إلى غاية استخدامه وقيمه. فإذا يقول أنه "يومي" يظهر ضرورة استخدامه يومياً غير مكتفين بأننا اقتنيناه بالأمس...

حاجتنا اليومية إليه تلزمنا أن نقدم هذه الصلاة في كل الأوقات، لأنه لا يوجد وقت لا تكون فيه حاجة إليه لينقوى قلب إنساننا الداخلي بأكله وتقبله. هذا بالرغم من أن كلمة "اليومي" تستخدم بمعنى "الحياة الحاضرة" بمعنى هب لنا في هذه الحياة الحاضرة أن نقف الخبز. فنحن عالمين بأنك ستهبه فيما بعد لمن يستحقونه،

° ذكر الأسقف Lightfoot في كتاب "On a Fresh Revision 'New Testament'" ص ٢١٩ بأن كاسيان اعتمد على ترجمة جيروم في النص اللاتيني مترجماً الكلمة اليونانية "Supersubstantialis" في مت ١١: ٦ ونفس الكلمة في لو ١١: ٣ ترجمها بـ "Quatidianum" وهكذا من المدهش أن كاسيان يخطئ بهذا في معرفته باليونانية. (من مجموعة آباء نيقية).

لكننا نسأل أن تعطينا إياه الآن، لأنه مالم يوهب الإنسان في هذه الحياة لا يمكن أن تكون له شركة فيما بعد.

٢٢ - اغفر لنا ما علينا

"اغفر لنا ما علينا كما نغفر نحن ما عليهم". تهبنا المراحل الإلهية غير المنطوق بها شكل الصلاة وتعلمنا نظام الحياة المقبولة عند الله، إذ عن طريق الطلبات الواردة في نموذج الصلاة المُقدم لنا أوصانا أن نصلّي على الدوام أن ينزع عنا جذور الغضب والغم. كذلك تُعلن المراحل الإلهية للمصلّين الطريق الذي به ينعمون بحكم الله المملوء رحمة وشفقة، إذ تهب لنا قوة لتلطيف حكم دياننا، مغتصبين حكمه بغفران خطايانا على مثال عفونا نحن للآخرين، وذلك عندما نقول: "اغفر لنا كما نغفر نحن".

هكذا بغير قلق، في ثقة بهذه الصلاة، يمكن للإنسان أن يطلب عفواً عن معاصيه، إن غفر للذين يسيئون إليه...

على أي الأحوال من لا يغفر من قلبه لأخيه الذي أساء إليه لا يجلب لنفسه بهذه الصلاة غفراناً بل دينونة. وبعملة هذا يطلب لنفسه السقوط تحت الحكم بأكثر قسوة فهو يقول: "اغفر لي كما أغفر أنا أيضاً"، وإذا لا يحقق ما جاء في طلبته، ماذا يستحق سوى أن يُعاقب بغضب غير محتمل وحكم لا يُستأنف كما يفعل هو بعدم عفوه للغير؟!

فإن أردنا أن نُحاكم بالرحمة يلزم أن نكون رحماء تجاه من يسيئون إلينا، لأننا سننال العفو عندما نعفو للذي يضرنا مهما كان مؤذياً.

عندما يتغنى كل الشعب بهذه الصلاة في الكنيسة يخشى البعض هذه العبارة فيصمتون حاذفين إياها حتى لا يربطوا أنفسهم بدلاً من أن يحلوها وهم في هذا لا يعلمون أنهم باطلاً يحاولون مراوغة ديان كل البشرية الذي يشاء أن يكشف لنا سلفاً كيف يدين المتوسلين إليه. لأنه لا يريد أن يكون مضيقاً لهم، بل يشير إلى طريقة إدانته، حتى نحكم على إخوتنا متى أخطأوا في حقنا بالحكم الذي نرغبه بالنسبة لأنفسنا، لأن الحكم بلا رحمة لمن لم يستعمل الرحمة.

٢٣ - لا تدخلنا في تجربة

هنا يثور سؤال ليس بتافه، وهو إن كنا نصلّي ألا نعاني من التجربة فكيف نتزكى قوة احتمالنا كالقول: "طوبى للرجل الذي يحتمل التجربة" (يع ١: ١٢)؟

العبارة "لا تدخلنا في تجربة" لا تعني "لا تسمح لنا بتجربة"، لأن أيوب جُرب لكنه لم يدخل في تجربة إذ لم يصف الله بأيّ تجديف ولا استسلم بفم شرير كرجبة المجرب نفسه.

إبراهيم جُرب ويوسف جُرب، لكن لم يدخل أحدهما في تجربة لأنهما لم يستسلما مرضيين للمجرب.

جاء بعد ذلك "لكن نجنا من الشرير"، أي لا تسمح لنا أن يجربنا الشيطان فوق ما نحتمل بل تجعل مع التجربة المنفذ لنستطيع أن نحتمل (١كو ١٠: ١٣).

٢٤ - لنصل بما ورد في الصلاة الربانية

ها أنتم ترون نموذج الصلاة المقترح علينا بواسطة الديان نفسه، الذي نصلّي إليه. فالصلاة لا تحوي طلبات من أجل الغنى، ولا فكراً تجاه الكرامة، ولا سؤالاً من أجل القوة والعظمة، ولا إشارة إلى القوة الجسدية

والحياة الزمنية. هكذا يقدم الإنسان إهانة شديدة لعظمة الله وجوده إذا ما ترك الطلبات الأبدية واختار أن يسأله أمراً تافهاً غير ثابت. وأيضاً بدناءة صلاته يجلب لنفسه غضباً عوض استعطاف الديان.

٢٥ - بركات الصلاة الربانية

هذه الصلاة إن بدت شاملة لكل ملء الكمال، إذ مؤسسها ومرتبها سلطان الرب نفسه، إلا أنها ترتفع بمن يستخدمها إلى حالة علوية سبق أن تحدثنا عنها، وتحملهم إلى صلاة مملوءة حرارة... هذه التي بالحقيقة نعجز أن ننطق بها، إذ تفوق كل أفكار البشر، ولا يميزها صوت أو حركة لسان...! فإذ يستثير الذهن بانسكاب نور سماوي لا يصفه لسان بشر محدود، بل ينسكب بغنى كما من ينبوع غزير في أذهاننا، وتتحدث مع الله بطريقة لا تُوصف، وتُعبّر في أقصر زمن ممكن عن أمور عظيمة لا يقدر الذهن أن يعبر عنها أو يرويها بسهولة بحسب قدرته البشرية المجردة (أو المحدودة).

٢٦ - العوامل التي تساعد على الصلوات المنسكبة

لكن من له القدرة - مهما بلغت خبرته - أن يعدد الأسباب التي تثير القلب (بالندامة) فيلتهب مشتعلًا بالنار وتحته للصلوات الورعة العظيمة الغيرة؟! لكننا نذكر أمثلة قليلة...

- أحياناً التسبب بمقطع من المزامير يبعث فينا صلاة حارة.
- وأحياناً انسجام التلحين لصوت أحد الإخوة يثير الأذهان الخاملة إلى ابتهالات كثيرة.
- كذلك طريقة النطق والوقار الذي للمرنم (بالتسبيح) يلهب غيرة من هم معه.
- أضف إلى هذا نصائح الإنسان الكامل والحديث الروحي غالباً ما يرفع مشاعر الحاضرين إلى صلاة غنية.
- كذلك يمكننا بواسطة موت أخ أو عزيز لدينا أن نحمل إلى ندامة كاملة. وأيضاً عندما نتذكر برودنا وإهمالنا تشتعل فينا حرارة الروح.
- بهذا لا يقدر أحد أن يشك بأن فرصاً لا حصر لها - في أيدينا - تنزع عن أذهاننا برودنا ونومها.

٢٧ - أنواع الندامة المختلفة

أما عن كيف أو بأي طريق تنتج هذه الندامة من مخبأ النفس العميق فهذا ليس بالأمر السهل حتى نتبعه.

١ - غالباً خلال البهجة التي لا يعبر عنها والحداقة الرفيعة تظهر ثمرة الندامة الجليلة المقدار، حتى تظهر بالفعل صرخات تُعبّر عن الفرح الذي لا يُوصف ولا يُعبر عنه، وتسمع بهجة القلب وبهجة التهليل في قلاية الأخ المجاور.

٢ - أحياناً يخفي العقل نفسه في صمت كامل في هدوء عميق، حتى أنه من دهشته من الاستنارة المفاجئة تتوقف الكلمات وتبهر الروح في مهابتها، فتحتفظ بمشاعرها داخلها، أو تنفك وتسكب رغباتها لله بتهدات لا يُنطق بها.

٣ - أحياناً إذ تمتلئ بندامة شديدة وحزن لا تقدر أن تترجم هذا الشعور إلا بالدموع.

٢٨ - سؤال بخصوص الدموع

جرمانينوس: إنني بضعفي لا أجهل هذه المشاعر الخاصة بالندامة جهلاً تاماً، لأنه أحياناً تنسكب

الدموع عند تذكري خطاياي. فإنني بواسطة الافتقاد الإلهي أنتعش بفرح لا يوصف، الذي تتحدث عنه، وشدة هذا الفرح تؤكد لي ألا أياس من غفران خطاياي. أظن أنه لا توجد أسمى من هذه الحالة الذهنية، فقط لو كان للإنسان إمكانية أن يستدعيها متى أراد. لكن يحدث أنني أحياناً اشتاق إلى هذه الندامة وتلك الدموع، وأضع أخطائي وخطاياي قدام عيناى، ومع ذلك اعجز عن استعادة الدموع الغزيرة، بل تجف عيناى وتقسو مثل حجر صوان صلد، لا تقطران دموعاً واحدة. هكذا قدر ما أنتعش بالدموع الغزيرة، لكنني أحزن بسبب عجزى عن استعادتها مرة أخرى عندما أريد.

٢٩- إسحق: ليست كل الدموع تتبع من مشاعر متشابهة، أو عن فضيلة واحدة.

١- فالبكاء المتسبب عن وخزات خطايانا التي تنخس قلوبنا كما قيل: "تعبت في تنهّدي. أعوم في كل ليلة سريري ودموعي أذوب فراشي" (مز ٦: ٦)، وأيضاً: "اسكبي الدموع كنهر نهاراً وليلاً. لا تعطي ذاتك راحة. لا تكفّ حدقة عينك" (مرا ١٨: ٢)، هذه الدموع تصدر بطريقة معينة.

٢- بطريقة أخرى تأتي الدموع الصادرة عن التأمل في الأمور الصالحة والاشتياق إلى المجد المقبل، إذ تتدفق دموع غزيرة نابغة عن فرح لا يمكن كتمانته وتهليل بلا حدود. فإذ نتعطش أنفسنا إلى الله الحي القدير نقول: "متى أجيء وأترأى قدام الله. صارت لي دموعي خبزاً نهاراً وليلاً" (مز ٤٢: ٢، ٣)، معلنة ذلك ببكاء يومي ونحيب قائلة: "ويل لي فإن غربتي قد طالت" (مز ١٢٠: ٥).

٣- بطريق ثالث تتدفق الدموع، لا عن إحساس بالخطية المهلكة إنما بسبب الخوف من الجحيم وتذكر يوم الدينونة المرهب، وذلك مثل رعب النبي القائل: "لا تدخل في المحاكمة مع عبدك فإنه لن يتبرر قدامك حي" (مز ١٤٣: ٢).

٤- يوجد أيضاً نوع آخر من الدموع، لا ينسكب بسبب معرفة الإنسان لنفسه إنما بسبب قسوة الآخرين وخطاياهم، فصموئيل كان يبكي لأجل شاول. وجاء في الإنجيل عن الرب أنه بكى من أجل مدينة أورشليم كما فعل إرميا في الأيام السابقة. إذ يقول الأخير: "يا ليت رأسي ماء وعيني ينبوع دموع فأبكي نهاراً وليلاً قتلتي بنت شعبي" (إر ٩: ١).

٥- بالتأكيد الدموع المذكورة في المزمور المائة واثنين "إني قد أكلت الرماد مثل الخبز ومزجت شرابي بدموع" (مز ١٠٢: ٩)، صادرة عن مشاعر تختلف عن تلك التي وردت في المزمور السادس الخاصة بالإنسان التائب، فهي ناشئة عن متاعب هذه الحياة وضيقاتها وخسائرها، التي تضغط على الأبرار العائشين في العالم...

٣٠- لا تسكب الدموع قسراً

توجد دموع مختلفة تمام الاختلاف عما سبق ذكره، تلك التي تأتي قسراً من عيون جافة وقلب قاسٍ.

بالرغم من أننا لا نقدر أن نعتقد أنها عقيمة تماماً (لأنهم يحاولون سكبها بنية حسنة، خاصة الذين لم ينالوا بعد المعرفة الكاملة أو التنقية من آثار الخطايا الماضية والحاضرة) لكن بالتأكيد لا يتأتى سكب الدموع بالقوة بالنسبة للذين تقدموا في محبة الفضيلة، ولا نحاول أن نتعب أنفسنا في إبقاء الإنسان الخارجي بمحاولات عنيفة... فإنه بهذا تطرح الدموع نفس المصلي وتفسد جهادها وتهينها وترتكها في أعمال بشرية وتترفعها من الأمور العالية السماوية... إذ يسترخي ذهن المصلي ويصير مريضاً بسبب الدموع العقيمة النابغة

عن العنف...

٣٢- الثقة في استجابة الصلاة

يجدر بنا ونحن نصلي ألا نرتاب بنوع من اليأس أو نتزعزع نقتنا من جهة استجابة طلباتنا.

عندما نسكب صلاتنا نثق بأننا ننال ما نسأله، إذ لا نشك في وصولها إلى الله... لأنه هكذا تُستجاب صلاة الإنسان عندما يؤمن أن الله مهتم به، وقادر أن يعطيه سؤاله، إذ لا يخيب قول الرب: "كل ما تطلبونه حينما تصلون فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم" (مر ١١: ٢٤).

٣٣- اعتراض بخصوص استجابة الصلاة

جرمانئوس: إننا بالتأكيد نؤمن أن هذه الثقة من جهة استجابة صلاتنا تكون حسب نقاوة الضمير. أما بالنسبة لنا نحن الذين لايزال قلبنا مضروبًا بأشواك الخطايا، كيف نقدر أن نقتني هذه الثقة ونحن ليس لنا أي استحقاق؟!...

٣٤- **إسحق:** يعلمنا الإنجيل والأنبياء الأسباب المتنوعة لاستجابة الصلاة حسب حالة النفوس.

(أ) فقد أشار الرب عن ثمار الاستجابة في حالة اتفاق اثنين معًا إذ يقول: "إن اتفق اثنان منكم على الأرض في أي شيء يطلبانه فإنه يكون لهما من قبل أبي الذي في السموات" (مت ١٨: ١٩).

(ب) كذلك في حالة كمال الإيمان، الذي يشبه حبة خردل، إذ يقول: "لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل ولا يكون شيء غير ممكن لديكم" (مت ١٧: ٢٠).

(ج) وأيضًا في حالة الاستمرار في الصلاة، إذ طلب الرب أن نستمر مثابرين بلجاجة بغير قلق، إذ يقول: "أقول لكم وإن كان لا يقوم ويعطيه لكونه صديقه، فإنه من أجل لجأته يقوم ويعطيه قدر ما يحتاج" (لو ١١: ٨).

(د) وأيضًا الاستجابة للصلاة تكون ثمرة من ثمار العطاء "اغلق على الصدقة في أخاديرك فهي تتفذك من كل شر" (ابن سيراخ ٢٩: ١٥).

(هـ) وتكون الاستجابة في نقاوة الحياة وأعمال الرحمة، إذ قيل منتهزًا الصوم العقيم: "حل قيود الشر. فكك عقد النير... حينئذ تدعو فيجيب الرب. تستغيث فيقول هأنذا" (إش ٥٨: ٦، ٩).

(و) وكثرة الضيقات تجعل الصلاة مستجابة. "إلى الرب في ضيقي صرخت فاستجاب لي" (مز ١٢٠: ١). وأيضًا: "لا تضطهد الغريب ولا تضايقه... فيكون إذا صرخ إليّ إني أسمع، لأنني رعوف" (خر ٢٢: ٢١، ٢٧).

لقد رأيت أنه كيف بطرق كثيرة ننال عطية الاستجابة للصلاة، لكي لا يصطدم أحد باليأس من جهة ضميره، ضمانًا لتلك الأمور الأبدية العظيمة المقدر.

(ز) وإن كنا بالتأمل في بؤسنا قد نجد أنفسنا مفتقرين تمامًا إلى كل هذه الفضائل السابقة... فإنه بالتأكيد لا يمكن أن يحرم أحد من تلك الفرصة التي يقدمها الله لكل المشتاقين إلى استجابة الصلاة، وهي وعده بأن كل ما يسأله في الصلاة يعطيه لنا. فيجدر بنا أن نثابر بغير ارتياب، ولا يكون لنا أدنى شك في أنه بالمداومة على الصلاة ننال كل ما نطلبه حسب فكر الله. لأن الله في اشتياقه أن يهبنا السماويات والأبديات

يحتثنا أن نضغط عليه بلجأنا. إنه لا يحتقر اللجاجة أو يستخف بها، بل يُسرّ فعلاً بها ويمدحها، ويعد بلطف عظيم أن يهب الماثبرين ما يطلبونه، قائلاً: "اسألوا تُعطوا. اطلبوا تجدوا. اقرعوا يُفتح لكم. لأن كل من يسأل يأخذ. ومن يطلب يجد. ومن يقرع يُفتح له" (لو ١٠: ١١، ٩). وأيضاً: "وكل ما تطلبونه في الصلاة مؤمنين تتألونه" (مت ٢١: ٢٢)، "ولا يكون شيء غير ممكن لديكم" (مت ١٧: ٢٠).

لكن ليتأكد ذاك الذي يرتاب في استجابة صلاته، أنه لن يُستجاب له!

يلزمنا ألا نسأل الله بقلق، وذلك كما يعلمنا دانيال الطوباوي، إذ سمع الله له من اليوم الأول الذي بدأ فيه يقدم الصلاة، لكنه نال ثمرة صلاته بعد ٢١ يوماً (دا ١٠: ١٢). وهكذا ليتنا لا نفتر في غير صلواتنا التي بدأنا فيها، إن تصورنا أن الاستجابة قد أبطأت، لئلا تتأجل الاستجابة التي تهيبها لنا العناية الإلهية... هذا ما كان يمكن أن يحدث في حالة النبي المذكور لو لم يوجد مثابراً على الدوام بثبات في صلواته خلال الـ ٢١ يوماً (رغم أن الاستجابة صدرت من اليوم الأول)...

من المفيد لنا أن نأخذ في اعتبارنا ما قاله الإنجيلي الطوباوي يوحنا... "وهذه هي الثقة التي لنا عنده أنه إن طلبنا شيئاً حسب مشيئته يسمع لنا" (١ يو ٥: ١٤). إنه يأمرنا أن تكون لنا ثقة كاملة بغير ارتياب من جهة استجابة الطلبات التي ليست من أجل نفعنا (الأرضي) أو راحتنا الزمنية، إنما تطابق مشيئة الرب. وتعلمنا الصلاة الربانية أن يكون لنا هذا في صلواتنا، إذ نقول "لتكن مشيئتك"، لا مشيئتنا. فإن تذكرنا كلمات الرسول: "لأننا لسنا نعلم ما نصلي لأجله كما ينبغي" (رو ٨: ٢٦)، ندرك أننا أحياناً نسأل أموراً تضاد خلاصنا. وبواسطة عنايته الإلهية يرفض طلباتنا، لأنه يرى ما هو لصالحنا بحق أعظم مما نستطيع نحن.

هذا حدث مع معلم الأمم عندما صلى أن ينزع منه ملاك الشيطان الذي سمح به الرب لأجل نفعه. "من جهة هذا تضرعت إلي الرب ثلاث مرات أن يفارقني. فقال لي: تكفيك نعمتي لأن قوتي في الضعف تُكمل" (٢كو ١٢: ٩، ٨).

٣٥ - الصلاة السرية

قبل كل شيء يجب أن نلاحظ بكل اعتناء الوصية الإنجيلية التي تأمرنا أن ندخل مخدعنا ونغلق بابنا ونصلي لأبينا. وهذا يتحقق كالاتي:

- نصلي داخل مخدعنا عندما ننزع من قلوبنا الداخلية الأفكار المقلقة والاهتمامات الباطلة، وندخل في حديث سرّي مغلق بيننا وبين الرب.
- نصلي بأبواب مغلقة، عندما نصلي بشفاة مغلقة في هدوء وصمت كامل لذاك الذي يطلب القلوب لا الكلمات.
- نصلي في الخفاء عندما نكتم طلباتنا الصادرة من قلوبنا وأذهاننا المتقدمة بحيث لا تكشفها إلا الله وحده، فلا تستطيع القوات المضادة (الشياطين) أن تكتشفها. لذلك يجب أن نصلي في صمت كامل، لا لنتحاشى فقط التشويش على إخواننا المجاورين لنا وعدم إزعاجهم بهمسنا أو كلماتنا العالية، ونتجنب اضطراب أفكار المصلين معنا، وإنما لكي نخفي مغزى طلباتنا عن أعدائنا الذين يراقبوننا وبالأخص في وقت الصلاة، وبهذا تتم الوصية: "احفظ أبواب فمك عن المضطجة في حضنك" (مي ٧: ٥).^٦

^٦ تحدث بعد ذلك عن عظمة الصلاة القصيرة الصامتة أنها ذبيحة مقبولة أمام الله.

٣٦ - قيمة الصلاة القصيرة والصامتة

يليق بنا أن نكثر من الصلاة ولكن باختصار، فإننا إذ نطيل الصلاة ينجح عدونا الماكر في زرع شيء ما في قلبنا.

هذه (الصلوات القصيرة المتعددة) هي ذبائح حقيقية، "فالذبحة لله روح منسحق" (مز ١٧: ٥١). هذه هي تقدمات نافعة، تقدمات نقية، أي "ذبحة البر"، "ذبحة الحمد" (مز ٢٢: ٥٠)، محرقات جوهريّة، تقدمها قلوب متواضعة منسحقة؛ والذين يختبرون هذا الروح المنضبط والملتهب (للصلاة) الذي تحدثنا عنه بقوة فعالة يمكنهم أن يسبحوا: "لنستقم صلاتي كالبخور قدامك، ليكن رفع يديّ كذبحة مسائية" (مز ١٤١: ٢). لكن اقتراب الساعة المناسبة (للصلاة) وحلول المساء يحثنا على ممارسة هذا الأمر نفسه بتكريس لائق حسبما نستطيع...

لقد صرنا مبهورين بكلمات القديس إسحق أكثر منا مكتفين. وبعد خدمة العشيّة استرحنا قليلاً، ومع الهزيع الأول عدنا ثانية حسب وعده أن يقدم لنا حديثاً كاملاً، متهللين بحصولنا على هذه الوصايا...

لقد شعرنا بأن سمو الصلاة صار واضحاً لنا، غير أننا لم نفهم من مناظرته طبيعة الصلاة والقوة التي ننالها ونحتفظ بها بمداومتنا عليها.



مناظرات يوحنا كاسيان لمشاهير آباء البرية

١٠

الصلاة عظة ثانية للأب إسحق

مقدمة

بدأ القديس يوحنا كاسيان مناظرته بذكر العادة التي كانت سائدة بين بطاركة الإسكندرية، وهي أن يبعثوا برسالة عيد القيامة المجيد في يوم عيد الغطاس إلى كل مدينة وقرية ودير. وقد وصلت الرسالة من الأنبا ثاوفيلس إلى الدير، وتعرضت الرسالة إلى بدعة سادت بين بعض الرهبان، تتلخص في تشبيه الله بالإنسان، وأن اللاهوت له جسد ووجه وذراع... معتمدين في ذلك على ما ورد في العهد القديم مع تفسيره حرفياً. أثّر هذا الأمر مع الأب إسحق، وكانت فرصة للربط بين موضوع "إعلان الله عن ذاته" وبين "الصلاة"، وفيما يلي حديث الأب إسحق:

٦ - أهمية الخلوة الروحية

كما قلت في المناظرة السابقة أن كل عقل يرتفع ويتشكل في الصلاة حسب نقاوته. فإن كان مهتماً بالأمور المادية الأرضية يحمل هذه النظرة أمامه، وتبقى هذه النظرة قدام عيني نفسه الداخليتين في رؤيته للرب يسوع، سواء عندما جاء في اتضاعه في الجسد، أو عند مجيئه في عظمته. أمثال هؤلاء لا يقدرون أن يروا الرب يسوع آتياً في ملكوته، إذ هم مُمسكون بنوع من الضعف اليهودي (أي النظرة المادية)، ولا يستطيعون القول مع الرسول: "وإن كنا قد عرفنا المسيح حسب الجسد لكن الآن لا نعرفه بعد" (٢كو ٥: ١٦).

أما الذين يرتفعون فوق الأعمال والأفكار الأرضية السفلية، ويصعدون في جبل الانعزال (الانفراد) المرتفع، متحرّرين من الاضطراب بكل المتاعب والأفكار الأرضية، في أمان من تدخل الخطايا، ممجدين بإيمان قوي، هؤلاء يمكنهم أن يتطلعوا بعيون نقية إلى لاهوته، وفي أعالي الفضيلة يكتشفون مجده وصورة سموه...

يُعلن يسوع للموجودين في المدن والقرى والمزارع، أي الذين لهم أعمال يقومون بها، لكن ليس بالبهاء الذي يظهر به لمن يصعدون معه على جبل الفضائل السابق ذكره... ففي الوحدة (العزلة) ظهر الله لموسى وتحدث مع إيليا.

وقد رغب ربنا في أن يؤسس هذه (الخلوة الروحية)، تاركاً لنا مثلاً... فإذا هو ينبوع القداسة الذي لا

يُنْتَهَك، وليس محتاجًا إلى عون خارجي، ولا إلى مساعدة الوحدة (الخلوة)، لأن كمال نقاوته لا يمكن أن تتأثر بالجماهير، ولا تتلوث من مخالطته للبشر، بل هو الذي يقدس ويظهر الأمور الدنسة، ومع ذلك نجده يعتزل في الجبل وحده للصلاة.

باعتراله يعلمنا أننا إن رغبتنا في الاقتراب من الله بمحبة صادرة عن قلب نقي بلا دنس، يلزمنا أن ننسحب من كل اضطرابات الجموع، حتى نتدرب نفوسنا - ونحن بعد في الجسد - على تذوق السعادة الموعود بها للقديسين، وهي أن "يكون الله هو الكل في الكل" (١كو١٥: ٢٨).

٧- تذوقنا عربون السعادة الأبدية

صلى مخلصنا إلى الآب من أجل تلاميذه قائلاً: "ليكون فيهم الحب الذي أحببتي به" (يو١٧: ٢٦)، وأيضاً: "ليكون الجميع واحداً كما أنك أنت أيها الآب فيّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا" (يو١٧: ٢١).

عندما نتحقق فينا صلاة مخلصنا تحقيقاً كاملاً، أي تلتهب مشاعر قلوبنا بكمال محبة الله الذي أحبنا أولاً (١يو٤: ١٦)، ونؤمن أن هذه الصلاة لا يمكن أن تخيب، عندئذ يكون الله هو كل حبنا واشتياقنا ورغبتنا وطاقتنا وكل فكر فينا وكل حياتنا وكل كلمة ننطق بها وكل نسمة حياتنا... حينئذ أيضاً ينسكب في قلوبنا وأذهاننا رابطة سرية... إذ نرتبط بالله في حب دائم لا ينقطع، كما أحبنا هو حباً نقيّاً غير واهن لا ينحل. هكذا نتحد به حتى يكون الله هو كل نسمة حياتنا...

هذا هو غاية الانعزال (الخلوة)... حيث يوهب للراهب أن يملك في جسده عربون السعادة المقبلة، ويبداً في هذا العالم يتذوق شيئاً من غير الحياة السماوية والمجد العلوي.

أقول، أن هذا هو نهاية كل الكمال: إن الذهن بتحرره من كل شهوات الجسد يرتفع نحو الأمور الروحية لتصير كل حياته وأفكار قلبه صلاة دائمة!

٨- سؤال بخصوص الصلاة الدائمة

جرمانئوس: بهذا عدنا مرة أخرى إلى الحيرة الشديدة التي كنا فيها أثناء المناظرة السابقة، بل وبصورة أشد. لأن هذا التعليم يلهب فينا الرغبة نحو السعادة الكاملة، وإذ لا نعرف كيف نطلب هذه الأمور شاهقة العلو أو كيف ننالها نعود إلى يأس عظيم. لهذا نرجوك في طول أناة أن تسمح وتوضح لنا كيف ننشغل على الدوام في تأمل طويل؟

[بدأ جرمانئوس يطلب منه أن يحدثه على قدر ضعفه قائلاً له إنه كطفلٍ صغيرٍ يريد أن يتعلم الحروف الأولية للعمل الروحي والتدريب على الصلاة الدائمة، وقد اعترف للأب إسحق بمعرفته البسيطة عن الأسس الأولية التي يستخدمها الإنسان ليعيش في حياة تذكر الله على الدوام.]

٩- يُشير سؤالك الدقيق إلى النقاوة التي تقترب منها جداً. لأنه لا يقدر أحد أن يعرض أسئلة في هذه الأمور ما لم يكن لديه باعث نحو اختبار هذه الأمور بذهنٍ متقدٍ مثابرٍ في اهتمام بالغ، ولا يقدمها إلا من كان هدفه الدائم موجه نحو الحياة الصالحة المضبوطة، متعلماً بالتجربة العملية محاولة الدخول إلى هذه النقاوة وقرع أبوابها...

١٠- الصلاة الدائمة

بخصوص هذا التدبير (نظام الصلاة الدائمة)، إذا قارنته بتعليم الأطفال (الذين ليس لهم القدرة أن يتلقوا الدروس الأولية الخاصة بالحروف الهجائية، لكنهم يتعرفون على شكلها، ويتدربون على رسمها قدر ما يستطيعون، حيث تقدم لهم نماذج منها على الشمع...) هكذا يلزمني أن أقدم لك شكل التأمل الروحي لتضعه نصب عينيك على الدوام... وتتدرب على التأمل فيه باستمرار لأجل نفعك... حتى تصعد إلى نظرة أعلى.

سنعرض عليك طريقة خاصة لبلوغ هذا التدبير الذي ترغب فيه، وتلك الصلاة التي يجدر بكل أحد أن ينفذها لأجل تقدمه الروحي في تذكر الله، متذكراً هذا التدبير في قلبه بغير انقطاع، طارداً كل أنواع الأفكار الأخرى. لأنه لا يقدر القلب أن يتمسك به ما لم يتحرر من كل اهتمام خاص بالجسد.

لقد سلّمت إلينا هذه الطريقة بواسطة قليلين تسلّموها عن آباء شيوخ حاذقين... فلكي تحتفظ بتذكر الله الدائم ضع قدام عينيك هذه الصلاة الوردية: "يا الله التفت إلى معونتي، يا رب أسرع وأعني" (مز ١:٧٠).

أختيرت هذه الآية من الكتاب المقدس كله ليس جزافاً، إنما تحمل كل المشاعر التي يمكن أن توجد في الطبيعة البشرية، وتتفق مع كل الظروف والأخطار التي تحلّ بنا. فهي تحمل تضرعاً إلى الله من أجل كل الأخطار، وتحمل اعتزافاً ورعاً مملوء انسحاقاً واهتماماً يقظاً ومخافة دائمة.

إنها تحمل إحساس الإنسان بضعفه، مع ثقة في الاستجابة، وتؤكد بأن المعونة حاضرة وسريعة، لأن الإنسان إنما يدعو الله الحاضر معنا على الدوام لكي يعينه.

إنها تحمل تأجج حب ومحبة، وتحمل فهمًا بخصوص مؤامرات الأعداء (الشياطين) ومهالكهم. فمن يرى نفسه محوطاً بهم ليلاً ونهاراً يعترف بعجزه عن التحرر منهم بغير مساعدة معينة.

هذه الآية حصن منيع للذين يتعبون من هجمات الشياطين، ودرع حصين، فهي لا تسمح للذين يسقطون في اكتئاب وقلق فكري أو المتضايقين بالحزن أو المهومين بالقنوط وكل أنواع الأفكار المشابهة، أن ييأسوا من وجود علاج شافٍ، إذ تُعلن أن الله الذي نتضرع إليه ناظر إلى صراعنا على الدوام، وليس ببعيد عن سائله.

إنها تنذرنا نحن الذين نصيبنا هو النجاح الروحي وبهجة القلب، فلا ننتفخ قط لسعادتنا، إذ تؤكد لنا أنه لا يمكننا أن نعيش بدون الله حافظنا...

هذه الآية هي معين، ونافعة لكل واحد منا مهما كانت أحواله، لأن الإنسان يحتاج في كل أموره إلى معونة. محتاج إلى مساعدة الله، ليس فقط في الأحزان والضيقات، بل وأيضاً في النجاح والأفراح، حتى يُنقذ من الأولى ويستمر في الثانية. لأن الضعف البشري يعجز عن أن يحتمل كليهما بغير معونة الله.

فإذا ما ثارت في شهوة النهم، وطلبت الطعام الذي ليس في البرية، وسبحت في رائحة الولايم الفاخرة، ووجدت نفسي منسحباً بغير إرادتي، أسرع قائلاً: "يا الله التفت إلى معونتي. يا رب أسرع وأعني". وإذا ما طلبت الطعام في غير مياعده، وحاولت في مرارة شديدة صادرة من القلب أن أحفظ حدوداً ملائمة ومنظمة خاصة بالقوت الزماني، يلزمني أن أصرخ متتهذاً: "يا الله التفت إلى معونتي، يا رب أسرع وأعني". وإذا ما بدأ الخوار يدب في أعضائي ليعوقني عن الاستمرار في قانون صيامي، ويثور جسدي محتجاً، ويجف جوفي، وتهدد طبيعتي بالإمساك المخيف، فلكي ما تنطفئ رغبات الجسد... أصرخ: "يا الله التفت إلى معونتي، يا رب أسرع وأعني".

عندما أجيء إلى العشاء في الساعة المناسبة حسب النظام الموضوع، واشمئز من الطعام وأمتنع عن أكل أي شيء لأجل الاحتياجات الضرورية لطبيعة الجسد، أصرخ متأوهاً: "يا الله التفت إلى معونتي، يا رب أسرع وأعني".

حينما يطير النوم من عيني وأقضي الليل تباعاً وأنا مسهداً وقد دبّ في الهزال من الأرق بفعل الشيطان، حارماً أجفاني من الهدوء والراحة الليلية، عندئذ يجب عليّ أن أصلي متهدداً: "يا الله التفت إلى معونتي. يا رب أسرع وأعني".

عندما أكون في جهادي ضد الخطية، وقد التهب جسدي بالشهوة، وسرى في أعضائي إحساس باللذة، جاذبة إيّاي إلى مرضاتها أثناء نومي، فلكي لا تحرق النار الثائرة من الخارج زهور العفة الذكية الرائحة يجدر بي أن أصرخ: "يا الله التفت إلى معونتي، يا رب أسرع وأعني".

عندما أشعر بأن دافع الشهوة قد نُزع عني، ولهيب الخطية في أعضائي قد مات، فلكي ما تبقى هذه الحالة الحسنة المكتسبة أو بالأحرى لكي ما تستمر هذه النعمة الإلهية يجب عليّ أن أقول بغيره: "يا الله التفت إلى معونتي، يا رب أسرع وأعني".

حينما تسري في لدغات الغضب والطمع والكآبة، وأجد نفسي قد فقدت سلامي المحبب إليّ، فلكي لا يحملني الغضب إلى مرارة الحقد، يلزمني أن أعلن بأنات عميقة: "يا الله التفت إلى معونتي، يا رب أسرع وأعني".

وإذا ما تأمرت عليّ نفسي ومجّدت ذاتي وطلبت المديح والمجد الباطل والكبرياء، وتملّقي ذهني بأفكار مراوغة بأن الآخرين باردون ومهملون، فلكي لا تتسلط عليّ هذه الأفكار التي يقترحها العدو، يلزمني أن أصلي بكل انسحاق قلب قائلاً: "يا الله التفت إلى معونتي، يا رب أسرع وأعني".

وإذا ما أشرقت عليّ نعمة الاتضاع والبساطة، وتحررت نفسي من نفخة الكبرياء ... فلكي "لا تأتي رجل الكبرياء، ويد الأشرار لا ترحزني" (مز ٣٦: ١١)، وحتى لا أهلك هلاكاً خطيراً بالزهو في نجاحي، يجدر بي الصراخ بكل طاقتي: "يا الله التفت إلى معونتي، يا رب أسرع وأعني".

وعندما تحرقني أفكار طائشة بلا عدد، ويتوه قلبي، وتتشتت أفكاري، ولا أستطيع ضبطها، ولا أقدر أن أجمع نفسي للصلاة بغير اضطراب أو تصورات باطلة، أو أمتنع عن تذكر الأحاديث والأحداث أثناء الصلاة، وأشعر بأن نفسي قد أثقلت بالجفاف والعقم، ولا أستطيع أن أنجب أي فكر روحي، فلكي ما يوهب لي التحرر من حال فكري البائس هذا... يجب عليّ أن أصرخ: "يا الله التفت إلى معونتي، يا رب أسرع وأعني".

مرة أخرى إذا شعرت بفاعلية الروح القدس، وصار لنفسي هدف وثبات في الفكر، وحذاقة قلب، مع فرح غير موصوف، وتغيير في الذهن وفي غزارة المشاعر الروحية، أدركت بإنارة ربانية مفاجئة تعلن لي أفكاراً مقدسة وفيرة كانت مخفاة عني، ولكي ما يوهب لي أن استمر على هذه الحال طويلاً يلزمني أن ألح على الدوام قائلاً: "يا الله التفت إلى معونتي، يا رب أسرع وأعني".

وإذا ما داهمني رعب الليل... فاضطربت، وأفزعني خيالات الأرواح النجسة حتى تطغيني بخوفها وتفقدني رجائي وخلصي، فإنني أطير إلى الملجأ الآمن لهذه الآية وأصرخ بكل قوتي: "يا الله التفت إلى معونتي، يا رب أسرع وأعني".

مرة أخرى حينما أكون منتعشًا بتعزيات الرب، ومبتهجًا بمجيئه، شاعرًا كما لو كنت محاطًا بربوات الملائكة غير المحصيين، وأجد في نفسي شجاعة وغيره لكي أقتحم حرب (الشياطين) وأدخل المعركة مع الذين كنت منذ قليل أخافهم أكثر من الموت، وكنت أرتجف ذهنيًا وبدنيًا لمجرد الاقتراب منهم، ولكي ما تستمر معي هذه الجرأة بنعمة الرب أصرخ بكل طاقاتي: "يا الله التفت إلى معونتي، يا رب أسرع وأعني".

إن يجب علينا أن نصلي بهذه الصلاة بغير انقطاع، سواء في شدة بلوانا حتى نزول، أو في نصرتنا لكي تدوم علينا ونحفظ من سقطة الكبرياء. ليكن فكر هذه الآية موجهاً دفعة صدورك بلا انقطاع. أيًا كان العمل الذي في أيدينا، أو المهمة الملقة علينا، وفي أي موضع تسير إليه، لا تكف عن التغني به. فكر فيها وأنت على سريرك لتنام، وفي أثناء الأكل، وفي كل الأعمال الضرورية.

ليكن هذا الفكر في قلبك لينقذك ويحفظك من أذية هجمات الشياطين، بل وقيمك من كل الأخطاء والوصمات الأرضية، ويقودك إلى التأمل السماوي غير المنظور، ويحملك إلى حرارة الصلاة القوية التي لا يختبرها إلا القليلون.

ليته يأتيك النوم وأنت مشغول بها، فتتطبع في قلبك من كثرة استخدامها، حتى أنه من كثرة تكرارها تردها حتى في أثناء نعاسك. وعندما تستيقظ، لتكن هي أول ما تفكر فيه، فتسبق جميع أفكارك. وعندما تقوم من سريرك تدعوك للركوع، وتثب في عملك، وترافقك طوال اليوم.

يلزمك كما أوصى المشرع (تث ٦، ٧) أن تفكر فيها في بيتك وفي رحيلك، في نومك وبقيظتك. تكتبها على مدخل فمك وبابه، تنقشها على حوائط منزلك وفي داخل قلبك، حتى متى ركعت للصلاة تتغنى بها، وإذا تقوم بالأعمال الضرورية في الحياة تكون صلاتك الدائمة أينما كنت.

١١- يجدر بالذهن أن يلتصق بهذه العبارة على الدوام، فينقوى باستخدامها الدائم والتأمل المستمر فيها، وبهذا يطرد عنه كل الأفكار الأخرى الغنية مستهينًا بها... مكتفيًا بفقر هذه العبارة الوحيدة. وهكذا يبلغ بأقصى سرعة إلى التطويب الوارد في الإنجيل، محتلاً مكان الصدارة بين التطوبيات، إذ يقول: "طوبى للمساكين بالروح، لأن لهم ملكوت السموات" (مت ٥: ٣).

وإذا يصير الإنسان مسكينًا للغاية بفقر كهذا يتحقق فيه قول النبي: "الفقير والبائس ليسبحا اسمك" (مز ٢١: ٧٤). حقًا أي فقر أشد من أن يعرف إنسان عن نفسه إنه بلا قوة ليدافع بها عن نفسه، طالبًا العون اليومي من جود غيره. وهكذا يعلم أن كل لحظة من لحظات حياته تعتمد على العناية الإلهية... فيصرخ إلى الرب يوميًا: "أما أنا فمسكين وبائس، الرب يهتّم بي" (مز ١٧: ٤٠).

هكذا يصعد بواسطة الاستنارة الروحية إلى معرفة الله من جوانب متعددة، ويتقوّت بأسرار عالية مقدسة كقول النبي: "الجبال العالية للوعول، الصخور ملجأ للوبار (القفنذ)" (مز ١٨: ١٠٤).

هذا ينطبق تمامًا على المعنى الذي نقدمه، لأن من يسلك في بساطة وبراءة لا يؤدي أحدًا، مكتفيًا بالجهاد لحماية نفسه من أذية أعدائه. ويكون مثل قنفذ روجي يتدحّر دائمًا متحصنًا في صخرة الإنجيل، أي محتميًا بتذكر آلام الرب... ولقد جاء في سفر الأمثال عن هذا القنفذ الروجي "الوبار (القنفذ) طائفة ضعيفة، ولكنها تضع بيوتها في الصخر" (أم ٢٦: ٣٠)...

قوة صلاة المزامير

من يتقدم في هذه الحالة لا يضمن بساطة البراءة فحسب، بل و يتدرج بفضيلة التمييز، ويكون ذهنه المتقد مثل أبل عاقل يتغذى على جبال الأنبياء والرسل، أي يرفع على قمم الأسرار العليا. إنه يتغذى من هذا المرعى على الدوام، مقتاتًا بأفكار المزامير، مسبحًا بها هكذا، أي ينطق بها بأحاسيس قلبية عميقة للغاية، لا كأمر من وضع المرتل، بل كأن هذه المزامير من نطقه هو وأنها صلاته هو. يأخذ المزامير على نفسه، فلا يرى كلماتها على أنها تخص النبي ومن نطقه، بل يجدها في حياته هو في كل يوم. وعندئذ يفتح أمامنا الكتاب المقدس في وضوح أعظم، ويظهر ما بداخله من أوردة ونخاع خفي، ونختبر معانيه ونشعر بها مقدمًا، وندرك مغزى كلماته لا بتفسير كلامي إنما ببرهان اختباري.

عندما نختبر بأنفسنا الحالة التي كان عليها المرتل عندما كان يسبح بالمزامير ويكتبها، نصير كأننا نحن المرتلون بها، ونتلمس معانيها مقدمًا ونجمع قوة كلماتها... فعندما نقرأها نتذكر ما قد حدث معنا وما يحدث معنا في صراعنا اليومي، وعندئذ تأتينا أفكار المزامير.

ففي تسبيحنا بالمزامير نتذكر إهمالنا نحن أو غيرتنا الناقصة ونتذكر العناية الإلهية الممنوحة لنا أو مثيرات العدو (الشيطان) ضدنا، ونسياننا المملوء دهاء أو ضعفنا البشري أو الجهل الذي يغشنا. كل هذه المشاعر عبّرت عنها المزامير، وإذ ننظر ما يحدث معنا في مرآة ناصعة للغاية نفهمها بأكثر وضوح. فلا نعرف المعنى بمجرد قراءة النص، إنما نختبره وندركه مقدمًا. وهكذا يبلغ ذهننا إلى تلك الصلاة غير الفاسدة التي تحدثنا عنها في المناظرة السابقة...



أهم المبادئ

(المناظرتين ٩، ١٠)

✠ الصلاة تاج الفضائل وغايتها، والفضائل سند للصلاة الهادئة.

✠ ما يحدث في الفترة التي تسبق الصلاة من ضحك أو أحاديث أو قلق تتراقص في مخيلتنا أثناء الصلاة... لذلك يجدر أن نهتم بهذه الفترة عن طريق الألحان أو القراءة.

✠ أنواع الصلاة:

(أ) الطلبات، حيث نسأل الله الغفران عن خطايانا والنمو في حياة الفضيلة.

(ب) الصلوات، أي أن نفي نذرنا وهو أننا ملك لله، أبناء الملكوت...

(ج) الابتهاالات، أي أن نصلي من أجل اخوتنا ومن أجل العالم كله.

(د) التشكرات، أي نشكر الله ونسبحه ونمجده كما يفعل السمائيون.

✠ الصلاة الربانية نموذج للحديث السري بين النفس البشرية والآب السماوي... وهي تحوي كل ما يلزم أن تكون عليه أفكارنا أثناء الصلاة.

✠ بالصلاة الربانية ينتقل المصلي الواعي إلى صلاة سرية صامتة عميقة، فيها يبتهج القلب برينا يسوع، ويعجز اللسان عن التعبير عن المشاعر... وعندئذ:

(أ) قد تخرج بعض صرخات حب تعبر عن فرح مجيد لا ينطق به.

(ب) بالأكثر تقف النفس مبهورة أمام عريسها في هدوء كامل!

(ج) أحيانًا تعبّر النفس عن فرحتها خلال الدموع.

✠ يلزمنا ألا نقحم أنفسنا ونلزمها بالدموع، لنألا تخرج نتيجة عوامل خارجية مع بقاء القلب متحجرًا والعينين الداخليتين جافتين... وهنا ينخدع الإنسان ويسقط في الكبرياء... بل وتُفسد الدموع حياة الإنسان وعبادته.

✠ ردّ صلاة: "يا الله التفت إلى معونتي، يا رب أسرع وأعني" في كل مناسبة... في بيتك وفي عملك، أثناء أكلك وشربك، في يقظتك وفي نومك، في حزنك وفي فرحك، أثناء غيرتك الروحية أو فتورك في العبادة... فإنها خير معين لك.

✠ يسمى القديس أغسطينوس هذه الصلاة القصيرة بالصلاة السهمية، لأنها تضرب كالسهم في قلب الشيطان، حيث لا يقدر أثناءها أن يشتت أفكارنا...

✠✠✠

مناظرات يُوحنا كاسيان

مع مشاهير آباء البرية

الجزء الثاني

١١-١٧

مقدمة

أيها الأخان المقدسان Honoratus و Eucherius، إن كان كثير من القديسين الذين يقتدون بكم بالكاد يمكنهم أن يقتدوا بسمو كمالكم الذي به تضيئون ككواكب منيرة عظيمة تتلألأ بلمعان عجيب في هذا العالم، لكنكما لا تزالان تتأثران بالمجد العظيم الذي لهؤلاء الرجال السامين (رهبان مصر) الذين تسلمنا منهم مبادئ الرهبنة. فأحدكما كرئيس دير عظيم يرغب أن يكون رهبانه الذين يتعلمون من حياته المقدسة دروساً يومية أن يدرسوا وصايا هؤلاء الآباء. والثاني إذ هو شغوف نحو المجيء إلى مصر ليتهذب خلال رؤيته هؤلاء الآباء، تاركاً مقاطعته الجامدة كما بجليد فرنسا (الغال)، طائراً كحمامة طاهرة إلى الأراضي التي ترى شمس البر وتقترب منها، تلك الأراضي الغنية بثمار الفضائل الناضجة. لهذا ألزمتني محبتي العظيمة نحوكما... ألا أمتنع عن الكتابة إليكما رغم المتاعب التي تلاحقني، وذلك لكي أحمل أحدكما بالمسؤولية كأب (رئيس دير) مسئول عن أولاده، وأحث الآخر للقيام برحلته (إلى مصر) رغم المخاطر التي تلاحقه.

بالأحرى لم يشبع اشتياقكما كتاب "المؤسسات" الخاص بنظام الشركة الذي كتبته للأسقف Castor في اثني عشر كتاباً، ولا العشرة مناظرات التي جمعتها بطريقة أو أخرى من الآباء الساكنين في الإسقيط حسب وصية الأسقفين القديسين هيلاديوس ولينتوس. والآن فلنكي ما تكون رحلتي معروفة لكما فكرت أن أكتب - بنفس الطريقة - سبع مناظرات لثلاثة آباء رأيناهم في صحراء أخرى وهي تتعرض لمواضيع ربما سبق لنا شرحها بطريقة غامضة أو لم نتطرق لها من قبل...

حتى إن كانت هذه المناظرات لا تشبع ظمأ رغبتيكما المقدسة سأرسل سبعة مناظرات أخرى إلى الأخوة القديسين الساكنين في جزائر Stechades^١، وأظن أنها كافية لإشباع رغباتكما وأشواقكما.

^١ مجموعة جزائر على ساحل فرنسا مقابل مرسيليا، وقد أشار Plinny أنها تعرف حالياً *Les isles d' Hieres*.

مناظرات يوحنا كاسيان مع مشاهير آباء البرية

١١

الكمال^٢

الإيمان – الرجاء – المحبة

للأب شيريمون

Abbot Chaeremon

١ - وصف لمدينة Thennesus

إذ كنا ونحن في طفولة إيماننا مقيمين في دير بسوريا، وقد تقدمنا روحياً إلى حد ما، اشتقنا بالأكثر إلى نعمة الكمال، فعزمنا للحال أن نذهب إلى مصر ونتوغل في صحراء طيبة Thebaid، لكي نزور كثير من القديسين، هؤلاء الذين انتشرت سيرتهم ومجدهم في كل بقاع العالم. وقصدنا من هذا أن نقنطري بهم أو على الأقل أن نتعرف عليهم.

قمنا بهذه الرحلة الطويلة إلى مدينة في مصر تدعى Thennesus^٣، يحيطها البحر أو البحيرات المالحة من كل جانب، ويشغل أهلها بالأعمال البحرية، حيث يفتقرون إلى أرض حتى لأجل البناء، فعندما كانوا يرغبون في بناء بيت كانوا يحضرون تراباً بالقوارب للردم.

٢ - بخصوص الأسقف أرشيبوس Archebius

عندما وصلنا إلى هناك، حقق الله أمانينا عن طريق ذلك الرجل العظيم المبارك الأسقف أرشيبوس^٤، هذا الذي أخذ من مجمع النساك ورسم أسقفاً على مدينة Panephsis^٥. وقد قضى عمره مشتاقاً إلى حياة الوحدة بتدقيق شديد، حتى أنه لم ينحرف قط عن اتضاعه السابق، ولا كان يفتر بسبب المركز الذي ناله (إنما كان يدعى بأنه أستبعد من النظام الديرى لعدم استحقاقه، قائلاً بأنه لم يقدر أن يبلغ النقاوة السامية التي للإيمان رغم بقائه سبعة وثلاثين عاماً في الدير).

^٢ ترجمة: نادية أمين.

^٣ هذه المدينة بجوار بحيرة المنزلة.

^٤ لم يعرف شيئاً عن هذا الأسقف سوى في كتابات كاسيان (مناظرة ٢٦:٧، وكتاب المؤسسات ٣٧:٥، ٣٨).

^٥ وهى في الدلتا وحقق شامبليون أنها "المنزلة الحديثة".

استقبلنا بلطف زائد وكرم عظيم في مدينة Thennesus سألنا الذكر، حيث يقوم بأعمال اسقيته. وإذ عرف غرضنا واشتياقنا أننا نبحث عن الآباء القديسين الذين في مصر القائمين حتى في الأماكن النائية، قال: "تعالوا لنرى الآباء الشيوخ الكبار الذين يعيشون ليس بعيداً عن ديرنا، هؤلاء الذين يظهر طول جهادهم من أجسادهم المنحنية، وتشرق قداسهم على ملامحهم، حتى أن مجرد التطلع إليهم يعطينا درساً عظيماً. فإنكم سوف لا تتعلمون من كلماتهم كثيراً قدر ما تتعلمون من حياتهم المقدسة الأمر الذي أحزن على فقدانه، وفقد الشيء لا يقدر أن يهبه لكم. وإن افتقاري هذا سيقبل نوعاً ما بهذه الغيرة التي لكما إذ وأنتما تطلبان لؤلؤة الإنجيل التي ليست معي، فأنتي على الأقل أتمتع بها معكما وأنتما تتالانها.

٣- وصف الصحراء التي يقطنها شيريمون Chaeremon

هكذا أخذ عكازه ومزوده كعادة الرهبان، وبدأ معنا الرحلة، مرشداً إيانا الطريق إلى مدينته أي Penepheis، الأرض التي هي أعظم جزء في المنطقة المجاورة (إذ كانت قبلاً أغنى منطقة، وكما يُقال أن مائدة الملك كانت تُعد من منتجاتها). هذه الأرض طغى عليها البحر وصارت خراباً، وتحولت إلى مستنقعات مالحة، حتى أن من يراها يظن أنها هي التي قيل عنها في المزامير: "يجعل الأنهار قفاراً، ومجارى المياه معطشة، والأرض المثمرة سبخة من شر الساكنين فيها" (مز ١٠٧: ٣٣، ٣٤).

في هذه البقاع دُمِرت مدن كثيرة وهجرها سكانها، وتحولت إلى جزائر، وصارت مسكناً لراغبي الوحدة النساك القديسين، من بينهم ثلاثة متقدمين في السن هم: شيرمون ونسطوروس Nesteros ويوسف Joseph حيث قطنوا فيها زمناً طويلاً.

٤- بخصوص الأب Chaeremon

هكذا رأى الأب المبارك أرشيبوس أنه من الأفضل أن يأخذنا أولاً إلى الأب شيريمون^٦، لأنه كان أقربهم إلى ديره وأكبرهم سناً، جاوز المائة من عمره، نشيطاً في الروح، (أما من جهة جسده) فقد انحنى ظهره بعامل الزمن مع الصلاة الدائمة، وكأنه قد رجع مرة أخرى إلى الطفولة يزحف ببديه المتدليتين اللتين تلمسان الأرض. بالتطلع إلى وجه هذا الرجل العجيب وطريقة سيره... سألناه بانسحاق أن يقول لنا كلمة ويعطينا تعليماً. وإذ أخبرناه أن غاية محبتنا الوحيدة هي اشتياقنا إلى التعليم الروحي، تنهد تنهداً عميقاً وقال:

"أي تعاليم يمكنني أن أعلمكم بها، وأنا قد وهن بي ضعف السن، وتراخيت في تدقيقي السابق، وأنتزعت ثقتي مني في أن أعلم، لأنه كيف يمكنني أن أعلم ما لا أعمله؟ إذ كيف أرشد آخر فيما أعلم أنني أمارسه الآن في ضعف وقتور؟!

من أجل هذا لا أسمح لأي راهب شاب أن يسكن معي وأنا في هذا السن المتقدم، لئلا تقتر غيرته ممثلاً بي، لأن سلطان المعلم لن يكون قوياً ما لم يثبتته في قلوب سامعيه عن طريق التنفيذ العملي."

٥- عند هذا ارتبكنا ليس بقليل، وأجبناه قائلين: "بالرغم من أن قسوة المكان وحياة العزلة نفسها التي بالكاد يمكن للشباب القوي أن يحتملها هي بنفسها تعلمنا كل شيء (من غير أن تحدثنا بشيء، لأنها تؤثر فينا تأثيراً عظيماً) إلا أننا لانزال نسألك أن تترك صمتك قليلاً، وترزع فينا المبادئ التي يمكننا أن نعتقها، فيصير لنا الصلاح الذي نراه فيك، ليس فقط بالافتداء بك وإنما عن طريق اشتياقنا بتعليمك.

^٦ ربما يكون نفس الأب الذي ذكره بلاديوس في تاريخه (٩٢: ١٠٠).

إننا نعلم فتورنا وعدم استحقاقنا أن ننال ما نسألك إياه، لكن على الأقل من أجل مشقة الرحلة الطويلة إذ أسرعنا باشتياق للمجيء هنا من ديارنا في بيت لحم لأجل الاستماع إلى تعاليمك والانتفاع بها.

٦ - الإيمان والرجاء والمحبة

عندئذ قال المبارك شيريمون:

هناك ثلاثة أمور تمكن الإنسان أن يجمع أخطاءه:

(أ) إما الخوف من جهنم أو خشية القوانين المفروضة.

(ب) أو الرجاء في ملكوت الله والرغبة فيه.

(ج) أو محبة الصلاح أو حب الفضيلة.

لأننا نقرأ أن الخوف من الشر يجعلنا نشمئز من التدنس. "مخافة الرب بغض الشر" (أم ٨: ١٣).
وأيضاً الرجاء يصد هجوم كل الأخطاء لأن "كل من اتكل عليه لا يُعاقب" (مز ٣٤: ٢٢).
والمحبة أيضاً لا تخاف من هلاك الأشرار. "المحبة لا تسقط أبداً" (١كو ١٣: ٨)، وأيضاً "المحبة تستر كثرة من الخطايا" (١ بط ٤: ٨).

ويجمل الرسول الطوباوي مجموع الخلاص وبلوغ هذه الفضائل الثلاثة قائلاً: "أمّا الآن فيثبت الإيمان والرجاء والمحبة" (١كو ١٣: ١٣). فالإيمان هو الذي يجعلنا نتحاشى وصمات الخطية خوفاً من الدينونة المقبلة. والرجاء هو الذي ينزع عن عقولنا محبة الأمور الزمنية، محتقرين كل الملمات الجسدية مقابل ما ننتظره من البركات السماوية. والمحبة تشعل فينا حب السيد المسيح وحب ثمار الروح، كارهين بقلب ثابت كل ما يتعارض مع ذلك.

هذه الأمور الثلاثة، ولو أن ظاهرها يشير إلى هدف واحد ونهاية واحدة (لأنها تحتنا على الابتعاد عن الأمور غير اللائقة) إلا أنها تختلف فيما بينها في السمو. لأن الإيمان والرجاء يليقان بالأكثر للذين لم يكتسبوا بعد محبة الفضيلة أثناء هدفهم نحو الصلاح. أما المحبة فتتعلق بالله، وبالذين نالوا في داخلهم أن يكونوا على صورة الله ومثاله. لأن الله وحده هو الذي لا يصنع الصلاح خوفاً ولا ابتغاء كلمة شكر أو نوال جزاء، إنما يصنع الصلاح ببساطة من أجل محبة الصلاح. وذلك كقول سليمان: "الرب صنع الكل لغرضه" (أم ١٦: ٤). فبصلاحه يغدق بالخير على المستحقين وغير المستحقين، لأنه لا ينفعل غضباً بسبب الأخطاء، ولا يتأثر بانفعالات خطايا البشر، إذ هو على الدوام كلى الصلاح غير متغير.

٧ - ارتباط الإيمان والرجاء والمحبة بالعبودية والأجرة والبنوة

متى رغب إنسان في الكمال، يلتزم أن يتقدم من المرحلة الأولى التي للخوف والتي دعيت بحق "عبودية"، إذ قيل عنها: "متى فعلتم كل ما أمركم به فقولوا أننا عبيد بطّالون" (لو ١٧: ١٠)، متقدماً خطوة تالية، صاعداً إلى طريق الرجاء المرتفع، حيث لا يُدعى بعد عبداً بل أجيراً ينتظر المكافأة، متحرراً من الاهتمام بخصوص التبرئة من خطاياه أو الخوف من العقوبة، متيقظاً للأعمال الصالحة.

وإذ يظهر الإنسان في هذه المرحلة كأجير ينتظر الأجرة الموعود بها، لا يقدر أن يدرك حب الابن الوثائق من محبة أبيه وسخائه وعدم شكه في أن كل ما للأب هو له. لهذا فإن ذاك الضال الذي خسر اسم "الابن" (رغم بنوته لأبيه) لم يقدر أن يتجاسر ويطمع في أن يطلب ما للبنوة عندما قال: "لست مستحقاً بعد أن أدعى لك ابناً"، لأنه بعدما أكل خرنوب الخنازير... إذ "رجع إلى نفسه" غلب عليه خوف مفيد، مشمئزاً من قدرة

الخنزير، خائفًا من عقوبة الجوع القارس. كما لو كان يعمل عبدًا اشتاق أن يكون أجيرًا، وفكر في الأجرة: "كم من أجيرٍ لأبي يفضل عنه الخبز وأنا أهلك جوعًا؟! أقوم وأذهب إلى أبي وأقول له يا أبي أخطأت إلى السماء وقدّامك • ولست مستحقًا بعد أن أدعى لكى ابنًا. اجعلي كأحد أجراك" (لو ١٥: ١٧-١٩).

مع كلمات التوبة المملوءة انسحاقًا ركض إليه أبوه وقابله بعطف عظيم أكثر مما طلب الابن، قاطعًا حديثه لكي لا ينطق بما هو أقل (إذ لا يريد أن يجعله أجيرًا).

إذ قطع الضال المرحلتين الأوليتين بغير توان (أي مرحلة العبد والأجير أو الإيمان والرجاء)، أعاده الأب إلى كرامة بنوته السابقة.

نحن أيضًا يجدر بنا أن نسرع هكذا بغير تَوَانٍ بواسطة نعمة الحب الثابتة لنصعد إلى المرحلة الثالثة التي للبنوة، حيث نؤمن أن كل ما للأب هو لنا، ويمكننا أن نفتدي بالابن في قوله: "كلُّ ما للأب فهو لي" (يو ١٦: ١٥).

هذا ما يعلنه الرسول الطوباوي قائلًا: "فإن كل شيءٍ لكم. أبولس أم أبلُّوس أم صفا أم العالم أم الحياة أم الموت أم الأشياء الحاضرة أم المستقبل كلُّ شيءٍ لكم" (١كو ٣: ٢١، ٢٢). وتحثنا وصايا مخلصنا بما يشبه ذلك إذ يقول: "فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذي في السموات هو كامل" (مت ٥: ٤٨).

يجدر بنا أن نبذل كل طاقتنا لكي نرتقي في اشتياق كامل من الخوف إلى الرجاء، ومن الرجاء إلى محبة الله ومحبة الفضائل نفسها، وهكذا إذ نعبر بثبات إلى محبة الصلاح ذاته، نثبت في الصلاح قدر ما تستطيع الطبيعة البشرية.

٨- يا لعظمة المحبة!

يوجد فرق شاسع بين من يخمد نيران الخطية في داخله خوفًا من جهنم أو مترجيًا الجزاء المقبل، وبين من يبغض الخطية ذاتها ودنسها بدافع الحب الإلهي. فبالحب يحافظ على فضيلة النقاوة ببساطة غير منتظرٍ أي جزاء مقبل، إنما يبتهج بمعرفة الصلاح الحاضر، صانعًا الخير ليس عن خوف من العقاب، بل ابتهاجًا بالفضيلة.

مثل هذا لا يمكن أن ينتهز أي فرصة ليخطئ في غياب شهود بشريين، ولا يزعج بإغراءات الفكر الخفية، إنما يحتفظ في أعماقه بمحبة الفضيلة ذاتها، ولا يسمح لأي شيء مضاد أن يدخل إلى قلبه، إنما يكره ذلك فعلاً كراهية شديدة.

هناك فارق بين من يكره وصمات الخطية وشهوات الجسد ابتغاء التمتع ببركات زمنية، أو يمتنع عنها رغبة في الجزاء السماوي. وأيضًا بين من يصنع هذا خشية فقدان الأرضيات، أو خوفًا من العقاب الأبدي.

أخيرًا أنه لأمر عظيم أن يرغب الإنسان في ألا يهمل الصلاح لأجل الصلاح ذاته، عن أن يمتنع عن الشر خوفًا من الشر، لأنه في الحالة الأولى يكون الصلاح اختياريًا، أما الثانية فيكون فيها اضطراريًا. لأن من يمتنع عن إغراءات الخطية بسبب الخوف يعود إليها متى نزع عنه حائل الخوف، وبهذا لا يكتسب أي ثبات في الصلاح، ولا يستريح من الهجمات، لأنه لا يتحصن بفضيلة السلام الدائم. أما من جهة قهر هجوم الخطايا، فيتمتع بحالة ثابتة من الأمن، ويبلغ إلى محبة الفضيلة نفسها، وبهذا يحتفظ بالصلاح بصفة مستمرة، إذ يعكف على المداومة عليها، ويؤمن بأنه لا يوجد شيء أسوأ من أن يفقد الطهارة "النقاوة" الداخلية، ويرى أنه لا يوجد أعز

وأثمن من الطهارة الحاضرة، معتبراً فقدانها عقاباً محزناً...

مثل هذا الإنسان يحمل في الداخل ضميره كقاضٍ يحكم على أعماله بل وأفكاره، محاولاً أن يرضيه على الدوام، إذ يعلم أنه لا يستطيع أن يغش ضميره أو يخدعه أو يهرب منه.

٩ - بالمحبة نصير على صورة الله ومثاله

من يتكل على معونة الله وليس على مجهوده الذاتي، يوهب له أن يبلغ هذه الحالة، فينتقل من حالة العبودية التي يسودها الخوف، ومن حالة الطمع "الأجراء" حيث لا يطلب كثيراً مجد الواهب كجزاء، عابراً إلى حالة التبني حيث لا يعود هناك خوف ولا طمع، بل يكون الحب الذي لا يسقط أبداً. هذا الخوف أو الحب للذين من أجلهما يوبخنا الله، كل واحد حسب ما يتناسب معه، قائلاً: "الابن يكرم أباه والعبد يكرم سيده، فإن كنت أنا أباً فأين كرامتي؟ وإن كنت سيّداً فأين هييتي؟" (مل ٦:١). فالعبد يلزمه أن يخاف: "وأما ذلك العبد الذي يعلم إرادة سيده ولا يستعد ولا يفعل بحسب إرادته فيضرب كثيراً" (لو ١٢: ٤٧).

ومن يصير بالمحبة على صورة الله ومثاله، يبتهج في الصلاح من أجل الصلاح ذاته، ويكون له مثل هذا الشعور من جهة الصبر والوداعة. فلا يغضب بسبب أخطاء الخطاة، إنما في حنو وترفق يطلب لهم الصفح لأجل ضعفهم، متذكراً أنه هو نفسه إلى وقت طويل كان مجرباً بأشواك شهوات مشابهة حتى افتقدته مراحم الله. وإذ أنقذ من الهجوم الجسداني بواسطة عناية الله وليس بمجهوده الذاتي، لهذا لا يظهر بغضاً على الذين ضلوا بل رحمة، مترنماً بكل سلام عقلي قائلاً: "حللت قيودي. فلك أذبح ذبيحة حمدٍ" (مز ١١٦: ١٦، ١٧). "لولا أن الرب معيني لسكنت نفسي سريعاً أرض السكوت" (مز ٩٤: ١٧). وإذ يكون عقله دائم التواضع، يستطيع أن ينفذ الوصية الإنجيلية بكمالها: "أحبوا أعداءكم. باركوا لاعنيكم. أحسنوا إلى مبغضيك. وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم" (مت ٥: ٤٤). بالتالي ننال الجزاء الذي يلحق بهذه الوصية، إذ لا نكون فقط على صورة الله ومثاله، بل وندعى أبناء الله، إذ يقول الرب: "لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات. فإنه يشرق شمسك على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين" (مت ٥: ٤٥). بهذا الإحساس عرف يوحنا المبارك ما ناله إذ قال: "أن يكون لنا ثقة في يوم الدين لأنه كما هو في هذا العالم هكذا نحن أيضاً" (١يو ٤: ١٧).

فيم يمكن للطبيعة البشرية أن تتشبه بالله سوى أن تظهر محبة هادئة في الداخل نحو الصالحين والطالحين، الأبرار والأشرار متمثلة بالله الذي يفعل الصلاح حباً في الصلاح ذاته، فتبلغ إلى التبني الحقيقي الذي لأولاد الله، الذي يتكلم عنه الرسول الطويلاوي، قائلاً: "كل من هو مولود من الله لا يفعل خطيئة لأن زرعهُ يثبت فيه ولا يستطيع أن يخطئ لأنه مولود من الله" (١يو ٣: ٩)، وأيضاً: "تعلم أن كل من ولد من الله لا يخطئ بل المولود من الله يحفظ نفسه والشرير لا يمسه" (١يو ٥: ١٨)؟! ويجدر بنا ألا نفهم هذا عن كل أنواع الخطايا، إنما الخطايا التي للموت فقط (١يو ٥: ١٦).

فمن لم يتخلص من هذه الخطايا "التي للموت"، ولا تطهر منها، فإن الرسول المذكور يعلمنا في موضع آخر ألا نصلي لأجلهم قائلاً: "إن رأى أحد أخاه يخطئ خطيئة ليست للموت يطلب فيعطيه حياة للذين يخطئون ليس للموت. توجد خطية للموت. ليس لأجل هذه أقول أن يطلب" (١يو ٥: ١٦).

أما عن الخطايا التي ليست للموت، فانه لا يستطيع أحد أن يتجنبها أو يخلو منها حتى أولئك الذين يخدمون السيد المسيح بأمانة. "إن قلنا أنه ليس لنا خطية نُضِلُّ أنفسنا وليس الحق فينا" (١يو ٨: ١)، وأيضاً: "إن قلنا أننا لم نخطئ نجعله كاذباً وكلمته ليست فينا" (١يو ١: ١٠).

فيستحيل على أي قديس ألا يخطئ بكلمة أو فكر أو عن جهل أو نسيان أو عن ضرورة أو عن إرادة أو تعجب... وهذه تختلف كلية عن الخطية التي للموت، لكنها لا تعني أنها تخلو من الخطأ أو الملامة.

١٠ - الصلاة من أجل الأعداء هو كمال المحبة

عندما يكتسب أي إنسان محبة الصلاح التي تكلمنا عنها، والتي بها ننتسبه بالله، حينئذ يوهب له قلب الله الحنون، فيصلي من أجل المسيئين إليه، قائلاً على نفس المثال: "يا أبتاهُ أغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون" (لو ٢٣: ٣٤).

هناك علامة واضحة تكشف النفس التي لم تتطهر بعد كلية من رواسب الخطية، وهي عدم حزنها من أجل أخطاء الآخرين في حنو، إنما تحكم عليهم كديان في لوم عنيف.

لكن، كيف يقدر أن ينال كمال نقاوة القلب من لا ينفذ الوصايا التي يظهرها الرسول "احملوا بعضكم أثقال بعضٍ وهكذا تَمُمُوا ناموس المسيح" (غل ٢: ٦)، ومن ليس لديه فضيلة المحبة التي هي: "لا تُقبح... ولا تحدث... ولا تظنُّ السوء... وتحتمل كلَّ شيء... وتصبِر على كل شيء" (١ كو ١٣: ٤-٧)؟! لأن "الصدِّيق يراعى نفسه بهيمته، أما مراحم الأشرار ففاسية" (أم ١٠: ١٢).

هكذا يسقط الإنسان (الراهب) في نفس الأخطاء التي يدين فيها غيره بقسوة بغير ترفق، لأن "الرسول الشرير يقع في الشر" (أم ١٣: ١٧)، و"من يسدُّ أذنيه عن صراخ المسكين فهو أيضاً يصرخ ولا يُستجاب" (أم ١٣: ٢١).

١١ - سؤال: كيف تقول أن المحبة كاملة، والخوف من الله والرجاء في الجزاء المقبل غير كاملين؟

جرمانئوس: إنك تحدثت بوضوح عن محبة الله الكاملة، ولكن هذه الحقيقة لازالت تَورقنا، وهي أنك إذ مدحتها قلت بأن الخوف من الله والرجاء في الجزاء السماوي أمران غير كاملين، مع أن النبي يقول: "خافوا الربَّ يا قديسيه لأنه ليس عوز لخائفه" (مز ٩: ٣٤). وأيضاً يعلن لنا أن نصنع أعمال الله الصالحة من أجل رجاء المكافأة، إذ يقول: "عطفت قلبي لأصنع فرائضك إلى الدهر لأجل المجازاة" (مز ١١٩: ١١٢). ويقول الرسول: "بالإيمان موسى لمَّا كبر أبى أن يُدعى ابن ابنة فرعون، مفضلاً بالأحرى أن يُذلَّ مع شعب الله على أن يكون له تمثُّع وقتي بالخطية، حاسباً عار المسيح غنى أعظم من خزائن مصر لأنه كان ينظر إلى المجازاة" (يقول الشعب ١١: ٢٤-٢٦).

إذن كيف يمكننا أن نفكر فيهما أنهما غير كاملين، بينما يفتخر داود بأنه يعمل أعمال الله الصالحة من أجل المجازاة، وقيل عن مستلم الشريعة أنه كان ينظر إلى المجازاة المقبلة، مستغنياً عن شرف التبني الملوكي مفضلاً الذل المريع عن كنوز المصريين؟!^٧

١٢ - شيريمون: يلخص لنا الكتاب المقدس رغباتنا الحرة في درجات مختلفة من الكمال، حسب حالة كل ذهن وقياسه، لأنه لا يُتوج كل البشر بتاج موحد من الكمال، إذ ليس للكل نفس الفضيلة ولا نفس الهدف أو الغيرة. هكذا أشارت الكلمة الإلهية بطريق ما إلى درجات الكمال المختلفة وقياساته المتنوعة.

^٧ هنا إشارة إلى رفض الإنسان لغنى العالم وكراماته الزمنية حاملاً عار الصليب لأجل الأبدية.

الدليل على هذا تنوع التطويبات (مت ٥). فقد طوب الذين سيرثون ملكوت السماوات، وطوبى الوارثين الأرض (طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض)، كذلك الذين يرحمون، والذين يشبعون... ومع هذا فإننا نؤمن بأن هناك فارق شاسع بين وارثي ملكوت السماوات ووارثي الأرض، وبين الذين يرحمون والذين يشبعون من البر وبين الذين يعاينون الله (طوبى للأتقياء القلب لأنهم يعاينون الله). و"مجد الشمس شيء ومجد القمر آخر ومجد النجوم آخر، لأن نجماً يمتاز عن نجم في المجد، هكذا أيضاً قيامة الأموات" (١ كو ١٥: ٤١، ٤٢).

طبقاً لهذا المبدأ يمدح الكتاب المقدس من يخاف الله قائلاً: "طوبى لكل من يتقى (يخاف) الرب، ويسلك في طريقه" (مز ١٢٨: ١)، واعداء إياهم بسعادة سماوية. ومع هذا يرجع فيقول: "لا خوف في المحبة، بل المحبة الكاملة تطرح الخوف إلى خارج، لأن الخوف له عذاب، وأما من خاف فلم يتكلم في المحبة" (١ يو ٤: ١٨).

مرة أخرى بالرغم من أن عبادة الله بخوف شيء عظيم وقد قيل: "اعبدوا الربّ بخوف" مز ١١: ٢، و"طوبى لذلك العبد الذي إذا جاء سيده يجده يفعل هكذا" (مت ٢٤: ٤٦)، إلا أنه قيل للرسول: "لا أعود أسميكم عبيداً، لأن العبد لا يعلم ما يعمل سيده، لكني قد سميتكم أحبباءً، لأنني أعلمتكم بكل ما سمعته من أبي" (يو ١٥: ١٥). مرة أخرى يقول: "أنتم أحبائي إن فعلتم ما أوصيكم به" (يو ١٥: ١٤).

ترون إذن أن هناك درجات مختلفة من الكمال، وأن الرب يدعونا من الأشياء السامية إلى الأسمى بطريقة تجعل ذلك الذي صار مطوباً وكاملاً في مخافة الله يسير كما هو مكتوب من قوة إلى قوة (مز ٨٤: ٧)، أي من كمال إلى آخر. بمعنى أن يصعد بغيرة الروح من الخوف إلى الرجاء، وأخيراً إلى المحبة التي هي آخر مرحلة. فهذا الذي كان "العبد الأمين الحكيم" (مت ٢٤: ٤٥)، يبلغ إلى مرحلة الصداقة ثم التبني كابن.

من ثم يمكن فهم كلامنا بالمعنى التالي: إننا لا نقول أن الخوف من العقوبة المنتظرة أو رجاء الجزاء المبارك الذي وعد به القديسين ليس بذي قيمة، لكن وإن كان هذا نافعاً، إذ يدفع أولئك الذين يتبعونها للتقدم خطوة مباركة، إلا أنه في المحبة ثقة كاملة وفرح دائم، تبعدهم عن خوف العبيد ورجاء الأجير إلى محبة الله، وتجعلهم أبناء وتقللهم من كمال إلى كمال أعظم.

يقول المخلص إن في بيت أبيه منازل كثيرة (يو ١٤: ٢) ومع أن الكواكب تظهر في السماء، لكن مجد الشمس شيء ومجد القمر شيء آخر، وهكذا بقية الكواكب. لهذا لا يفضل الرسول المبارك المحبة عن الخوف والرجاء فحسب بل وفوق كل العطايا التي تحسب عظيمة ومدهشة... فبعد ما عدد مواهب الروح من الفضائل أراد أن يصف عناصرها فبدأ يقول "وأيضاً أريكم طريقاً أفضل. إن كنت أتكلّم بالسنة الناس والملائكة ولكن ليس لي محبة فقد صرت نحاساً يطن أو صنجا يرن. وإن كانت لي نبوة وأعلم جميع الأسرار وكل علم وإن كان لي كل الإيمان حتى أنقل الجبال ولكن ليس لي محبة فليست شيئاً. وإن أطعمت كل أموالي وإن سلّمت جسدي حتى أحترق ولكن ليس لي محبة فلا أنتفع شيئاً" (١ كو ١٣: ٣١، ١٣-٣). أترون إذن كيف أنه لا يوجد شيء أقيم أو أكمل أو أشرف منها!!

إن أمكنني أن أقول، إنه لا يوجد شيء أبقي من المحبة. لأنه "أما النبوات فستبطل، والألسنة فستنتهي، والعلم فسيبطل" ولكن "المحبة لا تسقط أبداً" (١ كو ١٣: ٨). بدونها لا تتجح معظم أنواع المواهب الثمينة بل ويفقد الاستشهاد عظيمته.

١٣ - الخوف الكامل

من يثبت في هذا الحب الكامل، بالتأكيد يتدرج إلى درجة أعلى وهي الخوف النابع من الحب، الذي هو ليس الخوف من العقوبة أو فقدان المجازاة، إنما الخوف من الحب العظيم. فأَي ابن في محبته للأب اللطيف لا يهابه، أو الأخ لا يخاف أخاه، أو الصديق صديقه أو الزوجة زوجها، ولكن ليس خوفاً من الضرب، بل حرصاً على مشاعر الحب لكي لا تجرح. فيحرص في كل كلمة وكل تصرف لئلا تقتّر محبته تجاهه.

يصف أحد الأنبياء عظمة هذا الخوف بدقة قائلاً: "حكمة ومعرفة هما عن الخلاص، مخافة الرب هي كنز"^٨، فلم يستطع أن يصف قيمة الخوف بوضوح أكثر من أن يقول إنه غنى خلاصنا الذي يتكون من حكمة الله ومعرفته الحقيقية اللتين لا يمكن حفظهما إلا بواسطة مخافة الرب.

تدعو الكلمة الإلهية على لسان النبي في المزامير، ليس فقط الخطاة، بل والقديسين أيضاً قائلة لهم: "انقوا (خافوا) الرب يا قديسيه لأنه ليس عوز لمتقيهِ (خائفهِ)" (مز ٩:٣٤). فمن يخاف الله بهذا الخوف بالتأكيد لا يعتاز شيئاً قط من الكمال.

واضح أن ما تحدث عنه الرسول يوحنا هو الخوف من العقوبة إذ قال: "الذي يخاف لم يكمل بعد في المحبة"، لأن الخوف له عذاب^٩.

يوجد فرق بين الخوف الذي لا ينقصه شيء، والذي هو كنز الحكمة والمعرفة (إش ٦:٣٣) والذي هو رأس الحكمة (مز ١٠:١١)، وبين الخوف من العقوبة، هذا الذي يُستبعد عن قلوب الكاملين بملء المحبة. لأنه "لا خوف في المحبة، بل المحبة الكاملة تطرح الخوف إلى خارج" (١ يو ٤:١٨).

لذلك يوجد خوف مزدوج:

١- أحدهما للمبتدئين، أي الذين لازلوا تحت العبودية المرعبة، التي نقرأ عنها: "العبد يكرم سيده" (مل ٦:١)، وفي الإنجيل يقول: "لا أعود أسميكم عبيداً، لأن العبد لا يعلم ما يعمل سيده" (يو ١٥:١٥). "والعبد لا يبقى في البيت إلى الأبد، أما الابن فيبقى إلى الأبد" (يو ٨:٣٥). لذلك يعلمنا الله أن ننقل من الخوف من القصاص إلى ملء حرية المحبة وثقة الأحباء أبناء الله.

أخيراً فإن الرسول المبارك بقوة حب الله عبر مرحلة عبودية الخوف، لكي يحتقر الأشياء الأرضية، ويعلن أنه قد اغتني بأمور الله الصالحة إذ يقول: "لأن الله لم يُعطينا روح الفشل، بل روح القوة والمحبة والنصح" (٢تي ١:٧).

هؤلاء أيضاً الذين التهبوا بحب كامل نحو أبيهم السماوي، والذين بالتبني الإلهي صاروا أبناء لا عبيداً، يخاطبهم الرسول: "إذ لم تأخذوا روح العبودية أيضاً للخوف بل أخذتم روح التبني الذي به نصرخ يا أبا الآب" (رو ٨:١٥).

٢- أما عن الخوف الآخر فيتكلم النبي عن الروح ذو السبع جوانب، الذي بحسب سر التجسد يحل بكمال على الإله المتجسد: "ويحلّ عليه روح الرب، روح الحكمة والفهم، روح المشورة والقوة، روح المعرفة ومخافة الرب" (إش ٢:١١). بل ويضيف على وجه الخصوص: "ولذته تكون في مخافة الرب" (إش ٣:١١). نلاحظ أنه لم يكمل قائلاً، "يحلّ عليك روح الخوف"، بل "لذته تكون في مخافة الرب". لأن هذا هو عظمة غنى

^٨ الترجمة الحرفية لما ورد في النص (إش ٦:٢٣).

^٩ الترجمة الحرفية لما ورد في النص (١ يو ٤:١٨).

هذا الخوف أنه إذ يستقر على أحد بقوته لا يستحوذ على جزء من عقله بل كل عقله. وليس ذلك بغير إدراك، لأنه مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحب الذي "لا يسقط أبداً".

إنه ليس فقط يملأ الإنسان، بل ويبقى على الدوام ويستمر في الإنسان الذي بدأ فيه، فلا تؤثر فيه إجراءات الفرح العالمي كما في حالة الخوف المنبؤ (الأول).

هذا هو الخوف الذي ينتمي للكمال، إذ الإله المتجسد الذي جاء ليس فقط ليخلص البشرية، وإنما لكي يرسم لنا أيضاً صورة الكمال ومثال الصلاح، لأنه ابن الله الحقيقي "الذي لم يفعل خطيئة ولا وُجد في فمه مكر" (ابط ٢: ٢٢) لا يشعر بخوف العقوبة المرعب^{١٠}...



ملخص المبادئ

✠ هناك ثلاثة أمور تساعد الإنسان للسلوك في طريق الرب:

(أ) الخوف من العقاب الأبدي... أي الإيمان بيوم الدينونة ومجازاة الأبرار والأشرار.

(ب) الرجاء في ملكوت الله والاشتياق إليه.

(ج) محبة الصلاح نفسه أو حب الفضيلة من أجل الله ليس خوفاً من عقاب ولا ابتغاء مكافأة.

✠ ليصعد الإنسان مبتدأ بالخوف، خوف العبد الذي يخشى سيده، ثم ينطلق إلى الرجاء، رجاء الأجير الذي ينتظر مكافأة صاحب العمل في آخر يومه، ليبلغ إلى قمم الحب كابين لا يطلب من أبيه شيئاً سوى أن يكون في حضنه.

✠ الحب هو غاية إيماننا، بدون تفقد العبادة كيانها، بل تصبح حجر عثرة وحجاباً يفصلنا عن الله، الحب المطلق.

✠ المحبة الكاملة تطرد الخوف خارجاً... لتحمل في طياتها روح مخافة الرب الكاملة... خوف من صنف آخر هو خوف الابن الذي يحب أباه ويخشى لئلا تجرح مشاعر الحب التي تربطه بالأب.



^{١٠} سأل القديس جرمانبوس بخصوص إمكان دوام الإنسان في حياة الهدوء بغير اضطراب شهواني... وأجابه الأب عن قوة المحبة التي بها نلتصق بالله، تاركاً إجابة السؤال إلى المناظرة التالية الخاصة بـ (الطهارة).

مناظرات يوحنا كاسيان مع مشاهير آباء البرية

١٢

الطهارة^١

للأب شيريمون

٤ - الطهارة هبة من الله

يجدر بنا أن نتأكد أن أقسى درجات الاحتمال من وطأة الجوع والعطش والسهر والعمل المتواصل والمثابرة في القراءة... كل هذه التداريب وحدها لا تثبتنا في طهارة دائمة ما لم نقتنع عملياً وسط تدريبنا هذا أن نعمة الله وحدها تستطيع أن تهبنا هذه الطهارة غير الفاسدة.

لنتيقن أنه يلزم على كل أحد أن يثابر بصبرٍ بلا ملل، حتى ينال بإذلال الجسد رحمة الرب، ويستحق أن تتقذه نعمة الله من هجمات الجسد وعبودية الشهوات العنيفة، وألا يظن أنه بهذه الأعمال وحدها يقدر أن يقتني الطهارة الدائمة التي يبتغيها.

لنفرح بالرب أثناء التداريب اليومية

إن أردنا طرد الشهوات من قلوبنا، فلنفسح المجال لكي تدخل الأفراح الروحية بلا حدود.

وإذ ترتبط روحنا بهذا الفرح على الدوام، ترى من الآن (في هذه الحياة) أين تثبت، طاردة عنها جاذبية أفراح العالم والسعادة الزائلة.

وإذ تقودها التداريب اليومية إلى هذه الحالة، تختبر الروح مشاعر الفرح التي لا يُعبر عنها وهي هنا، وترتل أمام الحق بالتسبيح العادي^٢ الذي لا يقدر أن يختبره إلا القليلون الذين تذوقوه، مخترقين أعماق معنى هذا القول: "جعلتُ الربَّ أمامي في كل حين، لأنه عن يميني فلا أتزعزع" (مز ١٦: ٨).

٧ - درجات الطهارة

للطهارة درجات كثيرة، بها نرتفع لنبلغ الطهارة الدائمة.

وبالرغم من عجزنا عن معرفة جميع درجاتها والحديث عنها كما ينبغي، غير أن تسلسل المناظرة

^١ترجمة: عابدة حنا عن كتاب: M. J. Rouet de Journel: Textes Ascétiques des Pères de L'Eglise, ١٩٤٧.

^٢أي التسابيح الكنسية العادية، إذ يتذوقها كل إنسان قدر قامته الروحية.

يُحصرني، فأخبركم قدر خبرتي الضعيفة، تاركًا للكاملين أن يتحدثوا عنها بصورة أكمل.

وما أنطق به الآن لا تأخذونه قضية مسلم بها، فإن الذين يتمتعون بهذه الفضيلة في درجة أعلى، هؤلاء يُكشف لهم نور أسطع فيختبروا ويخبروا الآخرين عنها.

وأنتي سأميز بين الدرجات الست التي لهذه الطهارة العظيمة، ولو أنه يوجد بُعد شاسع بين كل درجة وأخرى، وكان يمكن أن يوضع بينهم درجات وسطى... وإذ هذه الدرجات أمر غير محسوس وغاية في الدقة، لهذا بالكاد يقدر الذهن أن يدركها أو الكلام يُعبر عنها.

هذه الدرجات الست التي أتوقف عندها تقود الإنسان يومًا فيوماً إلى الطهارة الكاملة. لأنه كما أن الجسد ينمو يومًا فيوماً لاشعوريًا ويسير نحو الكمال (أي النضوج الجسدي) الذي نبتغيه، هكذا تثبت الروح في قوة الطهارة وكمالها رويدًا رويدًا.

درجات الطهارة الست

- ١- الأولى: عدم سقوط الإنسان تحت ثقل هجمات الجسد.
- ٢- الثانية: أن يوقف فكره عن الأفكار الدنسة.
- ٣- الثالثة: ألا تؤثر فيه رؤيته للمرأة أدنى تأثير.
- ٤- الرابعة: ألا يشعر خلال يومه بأي حركة من حركات الجسد.
- ٥- الخامسة: ألا يتأثر فكره بأي لذة متى ألزمته الضرورة أن يتحدث عن الزواج أو التنازل البشري، إنما في طهارة قلبه الهادئ يرى في ذلك مجرد مسئولية لمقاة على كاهل الجنس البشري، ولا يتطلع إلى هذا الأمر على أنه أمر تافه.
- ٦- السادسة: ألا يتعرض في أثناء نموه للمناظر النسائية الجذابة، لأنه وإن كان في هذا عدم خطية، لكن لها علاقة بالشهوة الكامنة في عمق القلب.



مناظرات يوحنا كاسيان مع مشاهير آباء البرية

١٣

حماية الله

للأب شيريمون Abbot Chearemon

ملاحظة هامة

أرجو قراءة هذا المقال بعد الرجوع إلى المقدمة الخاصة بها في حياة كاسيان. فقد أثارت مشكلة لكاسيان وأتهم بسببها بالـ Semi-pelagianism، إذ خُشي منها لئلا تكون طريقًا لاتباع بلاجيوس الذين يتجاهلون نعمة الله إلى حد ما، مركزين بالأكثر على الأعمال.

١ - مقدمة

بعد فترة قصيرة من النوم عدنا إلى خدمة الصباح، وكنا ننتظر الرجل الشيخ، وكان يبدو على الأب جرمانئوس حيرة عظيمة، لأن المناظرة السابقة حملت قوة توحى إلينا بشوق عظيم نحو تلك الطهارة التي لم تكن معروفة لنا بعد. وقد أضاف الشيخ الطوباوي عبارة فريدة نزع فيها كل دعوانا من جهة جهاد الإنسان الذاتي، مضيفاً أنه وإن جاهد الإنسان بكل طاقته من أجل الثمرة الصالحة، لكنه لا يقدر أن يسيطر على ما هو صالح ما لم يطلبه ببساطة من جود الله وكرمه، وليس بجهاده الذاتي.

وإذ كنا متحيرين من جهة هذا الأمر، إذ الطوباوي شيريمون يصل إلى القلاية، فرأنا نتهامس معاً، فقلل من خدمة الصلاة والمزامير شيئاً يسيراً عن المعتاد وسألنا عن الأمر.

٢ - سؤال: لماذا لا ننسب الطهارة إلى جهاد الإنسان؟

جرمانئوس: إذ نحن صامتون من جهة عظمة تلك الفضيلة التي وصفتها لنا الليلة الماضية، مؤمنين بفاعليتها، لكنني أستسمحك القول بأنه يبدو لي أنه من العبث أن نقول عن الطهارة الكاملة التي تُقَتَّى بغيره الإنسان المجاهد كمكافأة للجهاد، أنها لا تنسب رئيسياً إلى جهاده. لأنه من الغباوة أن نرى مثلاً مزارعاً يحتمل آلاماً كثيرة في زراعة أرضه ولا تنسب الثمار إلى جهاده!

٣- شيريمون: يمكننا بنفس المثال الذي قدمته أن نبرهن بالأكثر أن جهود الإنسان العامل لا تقيد شيئاً بغير معونة الله. لأن الزارع حين يحتمل أتعاباً كثيرة في زراعة الأرض لا يقدر أن ينسب كثرة المحصول ووفرة الثمار إلى مجهوده الذاتي. فقد يضيع كل تعب هباء لو لم تأت الأمطار أو يساعده الجو. وقد نرى الثمار ناضجة فعلاً

بل ويحصدها الفلاح ويجنيها ومع هذا فإن مجهود العاملين يمكن أن يكون بلا نفع ما لم تسنده عناية الله. كذلك الصلاح الإلهي لا يأتي بالإنتاج الوفير للمزارعين الكسالى الذين لا يحراثون حقولهم على الدوام، كما أنهم قد يتعبون الليل كله بلا جدوى ما لم تُنجح مراحم الرب أعمالهم.

لكن كبرياء البشرية يجعلها ترفض أن تضع نعمة الله مع جهادها على قدم المساواة ولا أن يختلطاً معاً، إنما تظن أنه بمجهودها الذاتي تنال جود الله وكرمه، أو أن الثمار هي ثمرة جهادها وحده.

ليتأمل الإنسان جيداً وليتقحص بعناية فائقة وازناً هذه الحقيقة كما ينبغي، وهي أنه لا يقدر الإنسان حتى أن يستخدم نفس تلك الجهود التي له بغيره ما لم تهبه عناية الله وترافقه قوة لتنفيذها، وإن إرادته ذاتها وقوته يخوران ما لم يمدده الحنو الإلهي بالوسائل لأجل تميمهما. فقد يفشل الإنسان بسبب كثرة المطر الزائد أو لانعدامه.

فعندما يهب الرب للثور نشاطاً وقوة جسدية للعمل ونجاحاً في مشروعه، يجدر بالإنسان أن يصلي لئلا يسقط عليه ما قيل في الكتاب المقدس: "وتكون سماءك التي فوق رأسك نحاساً والأرض التي تحتك حديدًا"، و"فضلة القمح أكلها الزحّاف، وفضلة الزحّاف أكلها الغوّاء، وفضلة الغوّاء أكلها الطيّار" (يو ١: ٤).

ولا يحتاج المزارع إلى عناية الله لتعينه في مجهوداته أثناء عمله فحسب، بل وأيضاً لكي يتفادى الكوارث غير المنظورة التي يمكن أن تحل به، والتي أحياناً تصيب الحقل وهو غني بالمحصول المتوقع... بل وأحياناً يفقد ما قد جمعه فعلاً وخزنه في البيدر للدرس أو في المخزن.

من هذا نخلص بوضوح إلى أن البداية لا تتأتى من جهة أعمالنا نحن بل حتى أفكارنا الصالحة تأتي من الله، الذي يوحى إلينا بإرادة صالحة نبدأ بها العمل ويمدنا بفرص لتنفيذ هذه الإرادة الصالحة "كل عطية صالحة وكل موهبة تامة هي من فوق نازلة من عند أبي الأنوار" (يع ١: ١٧).

إنه يبدأ معنا بما هو صالح ويستمر معنا فيه ويكمله معنا، وذلك كقول الرسول: "والذي يقدم بذاراً للزراع وخبراً للأكل سيقدم ويكثر بذاركم وينمي غلات بركم" (١ كو ٩: ١٠). هذا كله من أجلنا نحن، لكن باتضاع نتبع يوماً فيوماً نعمة الله التي تجذبنا، أما إذا قاومنا نعمته بريبة غليظة وأذان غير مختونة (أع ١٧: ٥١) فإننا نستحق كلمات النبي إرميا القائل: "هل يسقطون ولا يقومون؟! أو يرتد أحد ولا يرجع؟! فلماذا ارتد هذا الشعب في أورشليم ارتداداً دائماً. تمسكوا بالمكر. أبوا أن يرجعوا؟!" (إر ٨: ٤).

٤ - اعتراض

جرمانئوس: إننا نرى الكثير من الوثنيين الذين لم يوهب لهم نعمة الله سامين لا في فضائل التدبير والصبر فحسب، بل (وبصورة واضحة) في الطهارة. فكيف يمكننا أن نحسب أن حرية إرادتهم قد أسرت، وأن فضائلهم وهبت لهم بواسطة نعمة الله، خاصة وأنهم يتبعون حكمة العالم وينكرون نعمة الله، بل وينكرون وجود الله ذاته؟ فهم ليسوا مثلنا نحن الذين خلال القراءة وعن طريق الآخرين عرفنا نعمة الله، أما هم فيقولون أنهم ينالون طهارتهم الفائقة السمو بجهادهم وتعبيهم الزائد؟

٥ - شيريمون: إنني مسرور لأنك قد التهبت بالشوق العظيم لمعرفة الحق، إلا أنك تقدم بعض النقاط، وبإثارتك

القَمَص هو الجراد في أول خروجه من البيضة، وعندما يبدأ يزحف يسمى "الزحّاف"، وبعد ما ينبت له أجنحة يسمى "الغوّاء"، وإذا أصبح في كامل نضجه يسمى "الطيّار".

لهذه الاعتراضات تؤكد بالأكثر سمو إيمان الكنيسة الجامعة... فبالتأكيد أنت تقدم هذه الاعتراضات رغبة في معرفة الحق لذلك فلتأخذ في اعتبارك هذه الأمور:

يلزمنا أولاً ألا نفكر بأن الفلاسفة قد نالوا طهارة النفس كتلك التي ننالها نحن، والتي لا تتوقف عند مجرد عدم الزنا، إنما لا يدعى بيننا شئ دنس قط، إنما هم لديهم نوع خاص من الطهارة بمعنى ضبط الجسد، الذي به يقمعون شهواتهم لكي لا ينفذوا اتصالاً جسدياً. لكنهم لا ينالون طهارة الذهن الداخلية ونقاوة الجسد الدائمة، لا من جهة العمل، إنما أيضاً من جهة الفكر. أخيراً فإن سقراط - الذي يعتبرونه - أشهر جميع الفلاسفة يعترف عن نفسه بهذا...

إنهم لا يعرفون فضيلة الطهارة التي نبتغيها نحن، لذلك فإن ختانا الروحي لا يمكن أن يُطلب إلا بنعمة الله، ولا يخص إلا الذين يخدمون الله بقلب منسحق.

٦ - لا يمكننا الجهاد بغير نعمة الله

إن كان في أمور كثيرة، بل بالحق في كل شئ، يظهر أن البشر على الدوام محتاجون إلى معونة الله، وإن كان الضعف البشري يعجز عن أن يتم شيئاً لخلاصه بذاته وحده بغير مساعدة الله، فإنه يكون ذلك بالأكثر بالنسبة لنوالنا الطهارة والمحافظة عليها.

إن كان الحديث عن صعوبة كمال الطهارة قد طال كثيراً، فلنناقش باختصار أدواتها. إنني أسأل: أي إنسان مهما بلغت حرارته في الروح، هل يقدر بقوته الذاتية أن يحتمل قسوة البرية، لا أقول يحتمل نقصاً في الضروريات اليومية بل في مؤونة الخبز الجاف؟ من يستطيع بغير تعزية الله أن يحتمل الظم الدائم، أو يحرم عينيه من نوم الصباح اللذيذ، لتصبح كل أوقات راحته ونومه في حدود أربعة ساعات؟! من يشعر بالاكتماء والشبع خلال مثاربه على القراءة والسهر الدائم في العمل وعدم اهتمامه بالريح الزمني ما لم تعينه نعمة الله؟!

إذ لا نقدر أن نشاق إلى مثل هذه الأمور بغير وحي إلهي، فإننا نعجز بأي وسيلة أن ننفذها بغير معونة الله. وإذ نتأكد من هذا الأمر ليس بحسب ما تمليه علينا خبرتنا بل وتؤكد الأدلة والبراهين الثابتة، ففي أمور كثيرة لا نشعر بالضعف ولا تنقصنا المهارة الكاملة ولا تنقصنا الإرادة ومع هذا ما لم يوهب لنا بمراحم الرب قوة التنفيذ نحرف بعيداً عن هدفنا.

ليس في طاقتنا أن نزال سكون العزلة ونمارس الأصوام الصعبة والدراسة المسهبة حتى عندما توجد الفرص المناسبة. غير أنه كثيراً ما تحدث حوادث غالباً ما تكون ضد إرادتنا على طول الخط مما يجعلنا نعجز عن تنفيذ قوانيننا التي نحترمها. لهذا نحن نصلي إلى الرب لكي يهب لنا المكان والوقت حتى نمارس قوانيننا. ولا يكفي هذا، ما لم يهبنا الله فرصاً لتنفيذ ما يمكننا صنعه، وذلك كقول الرسول أيضاً: "لذلك أردنا أن نأتي إليكم أنا بولس مرةً ومَرَّتَيْنِ. وإنما عاقنا الشيطان" (١ تس ٢: ١٨).

أحياناً يكون من المفيد لنا أن نُحرم من التمارين الروحية حتى أننا بغير رضانا نكسر القوانين المعتادة خاضعين لضعف الجسد، وبهذا فإننا بغير إرادتنا نتعلم صبراً نافعاً...

٧ - غاية الله منا وعنايته بنا

لأن غاية الله من خلقته لا أن يهلك الإنسان بل يحيا إلى الأبد، وهذه الغاية لا تزال كما هي، وإذ يرى أن يشع فينا صلاحه ولو بشرارة خفيفة من الإرادة الصالحة، فإنه يضرمها كما لو كانت خارجة من الحجر

الصوان الصلد الذي لقلوبنا. انه يثيرها ويتعهدا ويقويها بنسمة "الذي يريد أن جميع الناس يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون" (١تي ٤:٢). لأنه "هكذا ليست مشيئة أمام أبيكم الذي في السموات أن يهلك أحد هؤلاء الصغار" (مت ١٨:١٤)...

الله صادق ولا يكذب إذ يقسم قائلاً: "حي أنا يقول السيد الرب أنني لا أُسرُّ بموت الشرير بل بأن يرجع الشرير عن طريقه ويحيا. ارجعوا ارجعوا عن طرقكم الرديئة. فلماذا تموتون يا بيت إسرائيل؟! (حز ١١:٣٣) إنه لا يريد ان يهلك أحد أصاغره، فكيف لا نكون مجدفين إن كنا نتصور أنه لا يريد كل البشر أن يخلصوا بل بعضهم؟!"

فالذين يهلكون إنما يهلكون بغير إرادته، وهو يشهد ضد كل واحد منهم يوماً فيوماً قائلاً: "ارجعوا ارجعوا عن طرقكم الرديئة، فلماذا تموتون" (حز ١١:٣٣). وأيضاً: "كم مرّة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا" (مت ٢٣:٣٧)، "فلماذا ارتد هذا الشعب في أورشليم ارتداداً دائماً. تمسكوا بالمكر. أبوا أن يرجعوا" (إر ٥:٨).

إذن نعمة المسيح حاضرة بين أيدينا في كل يوم، وإذ هي تريد أن "جميع الناس يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون" تدعو الجميع بغير استثناء قائلة: "تعالوا إلي يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم" (مت ١١:٢٨).

فلو لم يدعُ الجميع بل البعض فقط، لكانت النتيجة أن يكون الكل مثقلاً بالخطايا الأصلية (الجدية) والخطايا الفعلية، وإلا صار القول التالي غير صادق: "إذ الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله" (رو ٣:٢٣)، وما كنا نصدق أن الموت قد عبر إلى جمع الناس (رو ٥:١٢).

وإذ الهالكون يهلكون بغير إرادة الله، لهذا يمكننا أن نقول بأن الله ليس بصانع الموت وذلك كشهادة الكتاب المقدس القائل: "إذا ليس الموت من صنع الله ولا هلاك الأحياء يسره" (حك ١:١٣).

عناية الله في عدم استجابة بعض طلباتنا

لما كانت أغلب صلواتنا ترتفع ليس لأجل صالحنا بل نسأل العكس، لهذا تتأخر الاستجابة وأحياناً تُرفض طلباتنا. كذلك يهبنا الرب – كطبيب غاية في الحنو – أن يجلب لنا بغير إرادتنا ما هو لصالحنا ونحن نظنه عكس هذا. وأحياناً يعوق إشتياقاتنا المؤذية ومحاولاتنا المميّنة، وبينما نندفع تجاه الموت يردنا إلى الخلاص، وينقذنا بغير معرفتنا من مخالب الجحيم.

٨- الله المحب والإنسان قاسي القلب!

وصفت الكلمة الإلهية اهتمام الله وعنايته بنا على لسان هوشع النبي تحت رمز أورشليم كزانية، التي انحرفت في غيرة مملوءة جحوداً عندما قالت: "أذهب وراء محبي الذين يعطون خبزي ومائي، صوفي وكتاني، زيتي وأشربتي"، فتجيبها التعزية الإلهية لا لأجل تحقيق شهواتها إنما رغبة في خلاصها فنقول: "لذلك هاأنذا أسبّح طريقك بالشوك، وأبني حائطها حتى لا تجد مسالكها. فتنبت محبيها ولا تتركهم وتفتش عليهم ولا تجدهم. فنقول أذهب وأرجع إلى رجلي الأول لأنه حينئذٍ كان خير لي من الآن" (هو ٥:٢-٧).

وقد وصف عنادنا واستهتارنا إذ نذري به بروح متمردة عندما يحثنا إلى الرجوع المفيد – وذلك في المقارنة التالية: يقول الله: "قلت تدعيني يا أبي ومن ورائي لا ترجعين، حقاً إنه كما تخون المرأة قرينها هكذا

خنتموني" (إر ١٩:٣، ٢٠). فهو يقارن أورشليم (النفس البشرية) بامرأة زانية تطلب رجلاً. ويقارن محبته لنا برجل يموت في محبة عروسه.

فصلاح الله ومحبته التي يعلنها على الدوام لكل البشر، لا تُغلب إلا بكفنا عن الاهتمام بخلصنا، وهروبنا من اهتمام الله بنا، كما لو أنها فُهرت بشرونا، لذلك فإنها لا تُقارن إلا برجل محترق بنيران الحب من أجل امرأته، إذ يذوب من أجل محبته لها قدر ما يراها تستخف مستهينة به. إذن الحماية الإلهية حالة معنا على الدوام بغير انفصال.

عظيم هو حنو الخالق تجاه خليقته، الذي لا يرافقه حنوه فحسب، بل ويتقدمها!... عندما يرى فينا طيفاً خفيفاً من بداية الإرادة الصالحة، للحال يلهبه ويقويه ويتعهد لأجل خلاصنا، فينمي ما قد غرسه فينا أو ما يراه قد نشأ عن جهادنا، إذ يقول: "قبلما يدعون أنا أجيب وفيما هم يتكلمون بعدُ أنا أسمع" (إش ٤٥:٢٤). وأيضاً "يتراءف عليك عند صوت صراخك" (إش ٤٠:١٩). وفي صلاحه لا يلهمنا بالرغبات المقدسة فحسب، وإنما يخلق لنا فرصاً للحياة وللنتائج الصالحة، ويكشف اتجاه طريق الخلاص للذين ضلوا.

٩ - بين إرادتنا الصالحة ونعمة الله

لا يستطيع العقل البشري أن يدرك بسهولة كيف يعطي الرب الذين يسألونه، وكيف يُوجد للذين يطلبون منه ويفتح للقارعين، بينما من الجانب الآخر يعطي من لم يسألوه ويبسط يديه لغير المؤمنين والمجدفين، منادياً ومقدماً الدعوة للذين يقاومونه والمبتعدين عنه، جاذباً البشر نحو خلاصهم، حاملاً الذين يرغبون في الخطية إلى ما هو على خلاف رغبتهم، إذ بصلاحه يقف في طريق المندفعين نحو الشر.

من يقدر بسهولة أن يرى كيف أن تمام خلاصنا يتم بإرادتنا إذ قيل: "إن شئتم وسمعتم تأكلون خير الأرض. وإن أبيتم وتمردتم تُؤكلون بالسيف لأن فم الرب تكلم" (إش ١٩:١، ٢٠)، وفي نفس الوقت "ليس لمن يشاء ولا لمن يسعى بل لله الذي يرحم" (رو ٩:١٦)؟!

كيف يكون هذا، أن الله "سيجازي كل واحد حسب أعماله" (رو ٢:٦)، وفي نفس الوقت "لأن الله العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا من أجل مسرته" (في ٢:١٣)، و"لأنكم بالنعمة مخلصون بالإيمان وذلك ليس منكم. هو عطية الله. ليس من أعمالٍ كيلا يفخر أحد" (أف ٢:٨)؟!

ما هذا أيضاً، إذ قيل: "اقتربوا إلى الله فيقترب إليكم. نقوا أيديكم أيها الخطاة وطهروا قلوبكم يا ذوي الرأيين" (يع ٤:٨)، وفي موضع آخر يقول: "لا يقدر أحد أن يُقبل إليَّ إن لم يجتذبه الآب الذي أرسلني وأنا أقيم في اليوم الأخير" (يو ٦:٤٤)؟!

ما هذا الذي نجده، "مهّد سبيل رجلك فتثبت كل طرقك" (أم ٢٦:٤)، بينما نقول في صلواتنا: "سهّل قدامي طريقك" (مز ٨:٥)، و"تَمَسَّكْتُ بخطواتي بآثارك فما زِلْتُ قدامي" (مز ٥:١٧)؟!

وما هذا الذي يدعشنا إذ يقول: "اطرحوا عنكم كل معاصيكم التي عصيتم بها واعملوا لأنفسكم قلباً جديداً وروحاً جديدة، فلماذا تموتون؟" (حز ٣١:١٨) وهو الذي وعدنا بهذا إذ يقول: "وأعطيهم قلباً واحداً وأجعل في داخلكم روحاً جديداً وأنزع قلب الحجر من لحمهم وأعطيهم قلب لحم لكي يسلكوا في فرائضي ويحفظوا أحكامي ويعملوا بها" (حز ١١:٢٠، ١٩)؟!

ما هذا الذي يأمرنا به الرب قائلًا: "اغسلي من الشر قلبك يا أورشليم لكي تُخلصي. إلى متى تبيت في

وسطك أفكارك الباطلة؟! (إر ٤: ١٤)، بينما يسأله النبي قائلاً: "قلباً نقياً اخلق فيَّ يا الله اغسلني فأبيض أكثر من الثلج" (مز ٥١: ٢)!

ما هذا الذي قيل: "ازرعوا لأنفسكم نور المعرفة"^٤ (هو ١٠: ١٢)، وقد قيل عن الله: "المعلم الإنسان معرفة" (مز ٩٤: ١٠)، "الرب يفتح أعين العمي" (مز ١٤٦: ٨)، أو ما نقوله في صلواتنا بالنبي: "أنز عيني لئلاً أنام نوم الموت" (مز ١٣: ٣)!

في هذا كله إعلان عن نعمة الله وحرية الإرادة، حتى متى رغب إنسان في السلوك في طريق الفضيلة، يقف سائلاً مساعدة الرب. فلا يقدر أن يتمتع بالصحة الجيدة بإرادته، وبرغبته يتحرر من الضعف. لكن الأمر الصالح الذي نتوق إليه من جهة الصحة لا أناله ما لم يهبه الله الذي يمنحنا متعة الحياة ذاتها ويقدم لنا الصحة المملوءة نشاطاً.

من الواضح أنه خلال سمو الطبيعة التي وهبها لنا صلاح الخالق أحياناً تثور فينا بداية الإرادة الصالحة، والتي لا نقدر أن نحققها عملياً أو نتممها بغير قيادة الرب. ويشهد بذلك الرسول القائل: "فإني أعلم أنه ليس ساكن في، أي في جسدي، شيء صالح. لأن الإرادة حاضرة عندي وأما أن أفعل الحسنى فليست أجد" (رو ٧: ١٨).

١٠ - بين حرية الإرادة وضعفها

يسند الكتاب المقدس حرية الإرادة فيقول: "فوق كل تحفظ احفظ قلبك لأن منه مخارج الحياة" (أم ٢٣: ٤)، ويشير الرسول أيضاً إلى ضعفها فيقول: "وسلام الله الذي يفوق كل عقل يحفظ قلوبكم وأفكاركم في المسيح يسوع" (في ٤: ٧).

يؤكد داود قوة الإرادة الحرة فيقول: "عظفت قلبي لأصنع فرائضك" (مز ١١٩: ١١٢)، وهو نفسه يعلمنا عن ضعفها بصلاته قائلاً: "أمل قلبي إلى شهادتك لا إلى المكسب (الطمع)" (مز ١١٩: ٣٦)، وسليمان يقول: "لئيميل بقلوبنا إليه لكي نسير في جميع طرقه، ونحفظ وصاياه وفرائضه وأحكامه التي أوصي بها آبائنا" (امل ٨: ٥٨). ويشير المرتل إلى قوة إرادتنا في قوله: "جُد عن الشر واصنع الخير، اطلب السلامة واسع وراءها" (مز ٣٤: ١٤)، وتشهد صلواتنا عن ضعفها بقولنا: "اجعل يارب حارساً لفمي. احفظ باب شفتي" (مز ١٤١: ٣).

تظهر أهمية الإرادة من قول الرب: "انحلي من رُط عنقك أيتها المسبية ابنة صهيون" (أش ٥٢: ٢)، ويتغنى النبي بضعفها قائلاً: "الرب يطلق الأسرى" (مز ١٤٦: ٧)، "حللت قيودي. فلك أذبح ذبيحة حمد" (مز ١١٦: ١٦، ١٧).

إننا نسمع في الإنجيل الرب ينصحن أن نأتي إليه سريعاً بحرية إرادتنا: "تعالوا إلي يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم" (مت ١١: ٢٨)، ويشهد الرب نفسه عن ضعفها بقوله: "لا يقدر أحد أن يقبل إلي إن لم يجتذبه الآب الذي أرسلني" (يو ٦: ٤٤).

يشير الرسول إلى حرية إرادتنا بالقول: "هكذا اركضوا لكي تتألوا" (كو ٩: ٢٤)، ويشهد يوحنا المعمدان عن ضعفها بقوله: "لا يقدر إنسان أن يأخذ شيئاً إن لم يكن قد أُعطي من السماء" (يو ٣: ٢٧).

^٤ النص البيروتي: "ازرعوا لأنفسكم بالبر".

لقد أوصانا أن نحفظ نفوسنا بكل عناية، إذ يقول النبي: "احفظوا نفوسكم"، وبنفس الروح يشهد نبي آخر: "إن لم يحفظ الرب المدينة فباطلاً يسهر الحارس" (مز ١٢٧: ١).

ويكتب الرسول إلى أهل فيلبي مظهرًا لهم حرية إرادتهم "تمموا خلاصكم بخوفٍ ورعدة"، ويردِّف مظهرًا ضعفها: "لأن الله العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا من أجل المسرة (مسرته)" (في ١٣: ٢، ١٢).

١١ - تلازم النعمة مع الإرادة البشرية

هكذا فإن مثل هذه الأمور تتشابه معًا بلا تمييز... حتى أن كثيرين ينشغلون بمثل هذه الاستفسارات الصعبة: هل الله يظهر حنوه لنا لأننا نظهر بداية إرادتنا الصالحة، أم أن الإرادة الصالحة تبدأ لأن الله يحنو علينا؟

كثيرون يعتقدون بأحد هذين الرأيين ويؤكدانه أكثر مما يجب فيسقطون في أخطاء مضادة. فإن قلنا أن بداية الإرادة الصالحة هي في سلطاننا، فماذا نقول عن بولس المضطهد؟ وماذا نقول عن متى العشار؟ إذ سُحب أحدهما إلى الخلاص وهو تواق إلى سفك الدم ومعاقبة البريء، والآخر سُحب وهو محب للعنف والنهب. وإن قلنا أن بداية إرادتنا تأتي دائمًا كنتيجة لوحي النعمة الإلهية، فماذا نقول عن إيمان زكا، وصلاح اللص الذي على الصليب، هذين اللذين بإرادتهما اغتصبا ملكوت السموات، ونالا قيادة خاصة بالدعوة؟

حقًا يبدو أن هاتين الاثنتين: أي نعمة الله وحرية الإرادة معارضتين لبعضهما، لكن في الحقيقة هما متفقتان معًا، ونحن نستنتج من نظام الصلاح أنه يلزمنا أن تكون لنا الاثنتان معًا متشابهتين، فإن نزعنا إحداها نكون قد كسرنا نظام قانون الكنيسة. فعندما يشاهدنا الله مائلين نحو الخير، يلتقي بنا ويقودنا ويقيننا... إذ يقول: "يتراءف عليك عند صوت صراخك، حينما يسمع يستجيب لك" (إش ٣٠: ١٩)، "وادعني في يوم الضيق أنقذك فتعجبني" (مز ٥٠: ١٥). وإذا وجدنا غير راغبين في الخير أو أننا ننمو في البرود (الروحي)، يثير قلوبنا بنصائح مفيدة لكي ما تتجدد فينا الإرادة الصالحة أو تتكون فينا.

١٢- يجدر بنا ألا نتطلع إلى الله أنه خلق الإنسان بلا إرادة، أو أنه عاجز عن الصلاح، فلو كان قد سمح له بالإرادة الشريرة والقدرة على الشر دون الخير يكون بذلك قد حرّمه من الإرادة الحرة، وعندئذ ماذا تعني العبارة التي نطق بها الرب مباشرة بعد سقوطه: "هوذا الإنسان قد صار كواحد منا عارقًا للخير والشر" (تك ٣: ٢٢)؟ لأننا لا نقدر أن نظن أنه كان قبلاً جاهلاً للخير تمامًا، وألا بهذا يكون الإنسان مخلوقًا غير عاقل كالحوانات العجم، وهذا القول غريب تمامًا عن الكنيسة الجامعة.

علاوة على هذا فإن سليمان الحكيم يقول: "الله صنع الإنسان مستقيمًا" (جا ٢٩: ٧). بمعنى أنه على الدوام يتمتع بمعرفة الخير وحده، "أما هم فطلبوا اختراعات كثيرة" (جا ٢٩: ٧). إذ صارت لهم معرفة الخير والشر كما كان من قبل. لقد صار لآدم بعد السقوط معرفة الشر الذي لم يكن يعرفه قبلاً، لكنه لم يفقد معرفته للخير الذي كان يعرفه.

أخيرًا تكشف كلمات الرسول بوضوح أن البشرية لم تفقد معرفة الخير بعد سقوط آدم، إذ يقول: "لأنه الأمم الذين ليس عندهم الناموس متى فعلوا بالطبيعة ما هو في الناموس فهؤلاء إذ ليس لهم الناموس هم ناموس لأنفسهم، الذين يظهرون عمل الناموس مكتوبًا في قلوبهم، شاهدًا أيضًا ضميرهم وأفكارهم فيما بينها مشتكية أو محتجة، في اليوم الذي يدين الله سرائر الناس" (رو ١٤: ١٦).

بنفس المعنى ينتهر الرب على لسان النبي غير الطبيعيين، الذين اختاروا بإرادتهم عمى اليهود، وخلال عنادهم جلبوا ذلك على أنفسهم "أيها الصمّ اسمعوا، أيها العمي انظروا لتبصروا، مَنْ هو أعمى إلّا عبدي وأصمّ كرسولي الذي أرسله؟!" (إش ١٩، ٤٢: ١٨).

وحتى لا ينسبوا عماهم هذا إلى الطبيعة وليس إلى إرادتهم يقول: "أخرج الشعب الأعمى وله عيون والأصمّ وله آذان" (إش ٤٣: ٨)، وأيضاً "الذين لهم أعين ولا يبصرون، لهم آذان ولا يسمعون" (إر ٥: ٢١)، والرب نفسه يقول في الإنجيل: "لأنهم مبصرين ولا يبصرون وسماعين ولا يسمعون ولا يفهمون" (مت ١٣: ١٣).

بهذا تتحقق نبوة إشعيا النبي القائل: "اسمعوا سمعاً ولا تفهموا وابصروا إبصاراً ولا تعرفوا، غلظ قلب هذا الشعب وثقل أذنيه وأطمس عينيه لئلا يبصر بعينه ويسمع بأذنيه ويفهم بقلبه ويرجع فيشفي" (إش ٦: ٩، ١٠).

أخيراً لكي تدرك أن إمكانية الصلاح كانت موجودة فيهم يوبخ الفريسيين قائلاً: "ولماذا لا تحكمون بالحق من قبل نفوسكم؟" (لو ١٢: ٥٧) وهكذا ما كان يقول الرب هذا لو لم يعلم أنهم بحكمهم الطبيعي قادرون على تمييز ما هو صالح.

لهذا يلزمنا مراعاة عدم إشارة كل استحقاقات القديسين إلى الرب بطريقة لا تناسب فيها للإنسانية إلا ما هو شر وعناد. وهذا ما ندحضه بشهادة سليمان الحكيم، بل وبشهادة الرب نفسه. لأنه بعد الانتهاء من بناء الهيكل، وفي أثناء الصلاة نطق سليمان بهذا: "وكان في قلب داود أبي أن يبني بيتاً لاسم الرب إله إسرائيل. فقال الرب لداود أبي: من أجل أنه كان في قلبك أن تبني بيتاً لاسمي قد أحسنت بكونه في قلبك. إلّا أنك أنت لا تبني البيت بل ابنك الخارج من صلبك هو يبني البيت لاسمي" (١مل ٨: ١٧-١٩). فهل هذا الفكر أو هذه الرغبة التي للملك داود ندعوه فكراً صالحاً من الله، أم شريعاً من الإنسان؟! فلو كان صالحاً ومن الله، ما كان الله يوحى له بهذا الفكر المرفوض؟ ولو أنه فكر شرير من الإنسان، فلماذا مدحه الرب؟ إذن بقي أن هذا الفكر صالح ومن الإنسان.

هكذا يمكننا أن نتكلم بخصوص أفكارنا اليومية، فإنه لم يُوهب لداود وحده أن يفكر فيما هو صالح، إذ لا نَحرم نحن طبيعياً أن نفكر ونتصور أموراً صالحة. إذ لا نشك أنه بالطبيعة توجد فينا بعض بذور الصلاح، أوجدناها حنو الخالق في كل نفس. لكن هذه البذور لا يمكن أن تنمو ما لم يرعها العون الإلهي، وكما يقول الرسول الطوباوي: "إذاً ليس الغارس شيئاً ولا الساقى بل الله الذي يُنمي" (١كو ٣: ٧)...

تبقى حرية الإرادة على الدوام في الإنسان، لا نهملها ولا نغالي فيها... لأنه ما كان للرسول أن يوصي قائلاً: "تمموا خلاصكم بخوف ورعدة" لو لم يعلم أنه يمكن للإنسان أن يتقدم في الخلاص أو يهمله. لكن لا يتصور البشر أنهم غير محتاجين للعون الإلهي في عمل الخلاص، إذ يكمل: "لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا من أجل مسرته" (في ٢: ١٣). وأيضاً، "لا تهمل الموهبة التي فيك المعطاة لك بالنبوة مع وضع أيدي المشيخة" (١تي ٤: ١٤)، "أذكرك أن تضرم أيضاً موهبة الله التي فيك بوضع يدي" (٢تي ١: ٦).

لهذا فإنه في كتابته إلى أهل كورنثوس ينصحهم ويحذرهم لئلا بعدم إثمارهم يظهروا غير مستحقين لنعمة الله، قائلاً: "تطلب أن لا تقبلوا نعمة الله باطلاً" (١كو ٦: ١). لأن قبول النعمة المخلصة لم يفقد سيمون شيئاً لأنه قبلها باطلاً، إذ لم يطع وصية بطرس المبارك الذي قال له: "فتنب من شرك هذا واطلب إلى الله عسى أن يُغفر لك فكر قلبك، لأنني أراك في مرارة المرّ ورباط الظلم" (أع ٢٣، ٨: ٢٢).

فالنعمة تتقدم إرادة الإنسان، إذ قيل: "إلهي رحمته تتقدمني" (مز ١٠: ٥٩). وأيضاً يتأخر الله لأجل صالحنا حتى يختبر رغباتنا، **عندئذ إرادتنا هي التي تتقدم،** إذ قيل: "في الغداة (الصباح) صلاتي تتقدمك" (مز ١٣: ٨٨)...

وهو يدعونا عندما يقول: "طول النهار بسطت يدي إلى شعب معانٍ ومقاوم" (رو ١٠: ٢١). **ونحن ندعوه** إلينا عندما نقول: "كل يوم بسطت إليك يدي" (مز ٩: ٨٨).

وهو ينتظرنا كقول النبي: "ولذلك ينتظر الرب ليتراءف عليكم" (إش ١٨: ٣٠). **ونحن ننتظره** عندما نقول له: "انتظاراً انتظرت الرب فمال إليّ" (مز ١٤٠: ١)، و"رجوت خلاصك يا رب ووصاياك عملت" (مز ١١٩: ١٦٦).

هو يقوينا عندما يقول: "وأنا أنذرتهم وشددت أزرعهم وهم يفكرون عليّ بالشر" (هو ١٥: ٧). ويحثنا أن **نقوي أنفسنا** بقوله: "شدّدوا الأيدي المسترخية والركب المرتعشة ثبّتوها" (إش ٣: ٣٥). **ويصرخ** الرب يسوع: "إن عطش أحد فليقبل إليّ ويشرب" (يو ٣٧: ٧). **كما يصرخ النبي إليه:** "تعبت من صراخي، ببس حلق. كلت عينايت من انتظار إلهي" (مز ٣: ٦٩).

الرب يطلبنا عندما يقول: "طلبتُهُ فما وجدته دعوته فما أجابني" (نش ٦: ٥). والعروس أيضاً **تطلبه،** إذ تبكي بدموع قائلة: "في الليل على فراشي طلبت من تحب نفسي، طلبته" (نش ١: ٣).

١٣ - الجهاد لا يفقد النعمة مجانيته

هكذا تتعاون النعمة على الدوام مع إرادتنا لأجل نفعها، وتساعدنا في كل شيء وتحميها وتدافع عنها، وذلك بطريقة يظهر فيها أنها تبحث عن بعض الجهاد الذي للإرادة الصالحة، حتى لا تبدو أنها تهب عطايها للإنسان الخامل المترخي. وهي تبحث عن فرص لكي تكشف للإنسان الخامل أنه باستكانته يفقد جود النعمة. مع هذا تُحسب النعمة مجانية، لأنه من أجل جهاد تافه تُمنح بغنى أمجاد الخلود التي لا تُقدر وبركات الأبدية.

ليس لأن إيمان اللص جاء أولاً يقول أحد أن عطية السكنى في الفردوس لم تمنح له مجاناً. ولا يمكننا أن نقول أنه بسبب كلمات الملك داود التي نطق بها تائباً قائلاً: "أخطأت إلى الرب" أنه بغير مراحم الله (المجانية) قد وهب له الغفران من خطيئتين خطيرتين، إذ وهب له أن يسمع من النبي ناثان: "الرب أيضاً قد نقل عنك خطيتك" (٢ صم ١٢: ١٣). حقيقة إنه أضاف القتل إلى الزنا وهذا بالتأكيد بإرادته الحرة، لكن انتهاز النبي له هو من حنو نعمة الله. كذلك انسحاقه واعترافه بالخطأ هذا من عمله هو، أما المغفرة عن هذه الخطايا في لحظة من الزمن فهذا عطية من الرب الرحيم.

ماذا نقول عن هذا الاعتراف المختصر الذي نطق به داود وعن المكافأة الإلهية السرمدية منقطعة النظير، إذ نرى الرسول المبارك يثبت أنظاره بسهولة إلى عظمة المكافأة العتيدة مستهيناً باضطهاداته غير المحصية، قائلاً: "لأن خفة ضيقتنا الوقتية تتشئ لنا أكثر فأكثر ثقل مجد أبدياً" (٢ كو ٤: ١٧). هذا ما يؤكد في موضع آخر قائلاً: "فإني أحسب آلام الزمان الحاضر لا تُقاس بالمجد العتيد أن يُستعلن فينا" (رو ٨: ١٨). هكذا مهما بلغ جهاد الضعف الإنساني، لن يبلغ (بذاته) إلى المكافأة المقبلة. ووجود جهاده لا ينفي عن النعمة الإلهية كونها مجانية.

لذلك فإن معلم الأمم قد بلغ درجة الرسولية بنعمة الله إذ يقول: "بنعمة الله أنا ما أنا"، وفي نفس الوقت

يعلن أنه قد وافق النعمة الإلهية قائلاً: "ونعمته المعطاة لي لم تكن باطلة بل أنا تعبت أكثر من جميعهم" (١كو١٥: ١٠). فعندما يقول: "أنا تعبت" يظهر جهاد إرادته، وعندما يقول: "ولكن لا أنا بل نعمة الله" يشير إلى قيمة الحماية الإلهية. وعندما يقول: "التي معي" يؤكد تعاون النعمة معه عندما لا يكون في كسل أو إهمال بل عاملاً ومجاهداً.

١٤. كيف يختبر الله قوة إرادة الإنسان عن طريق التجربة؟^٥

أ. هذا أيضاً ما نقرأ عنه، أن البرّ الإلهي قد أعان أيوب الأمين بحق في مصارعته، عندما ناهضه الشيطان في معركة فريدة. لكن لو تقدم أيوب ضد عدوه، ليس بقوته إنما بحماية نعمة الله مسنوداً بالعون الإلهي من غير أي احتمال من جانبه، فانه في خضوعه لهذه التجارب المتعددة... كم يكون للشيطان أن ينطق بعدلٍ مفترياً بما سبق أن قاله قبلاً: "هل مجاناً يتقي أيوب الله؟! أليس أنك سيّجت حوله... حول كل ما له من كل ناحية؟! ولكن ابسط يدك الآن" أي اسمح لي أن أحاربه هو "فإنه في وجهك يجذّف" (أي ١: ٩-١١).

لكن إذ لم يستطع العدو المفترى أن يحتج بهذا بعد المعركة، لأنه انهزم بقوة أيوب وليس بقوة الله^٦، لا بمعنى أن نعمة الله فارقت أيوب، لأنها هي التي أعطت للمجرب سلطاناً أن يجرب في الحدود التي كانت ترى فيها أن أيوب يقدر أن يقاومها، وفي نفس الوقت لم تحميه النعمة من هجمات العدو بطريقة تنزع فيها فضيلته وجهاده، إنما فقط هي تعينه. بمعنى أنها لا تسمح لذلك العدو الذي هو في غاية القسوة أن ينزع عنه عقله أو يغرقه أثناء ضعفه ببث أفكار فوق طاقته أو النزول معه في نزاع غير متساوٍ معه.

ب. أحياناً يرغب الرب أن يمتحن إيماننا لكي يتقوى ويتمجد أكثر، وذلك كما في مثال قائد المئة الوارد في الإنجيل، إذ علم الرب أنه سيشفى خادمه بنطقه كلمة، ومع هذا اختار الرب أن يقدم له هذه الوسيلة وهي ذهابه إليه بالجسد، قائلاً: "أنا آتي وأشفيه" (مت ٨: ٧). وإذ غلب قائد المائة من هذا العرض الذي قدمه الرب، قال بإيمان مملوء غيرة وحرارة: "يا سيّد لستُ مستحقاً أن تدخل تحت سقفي، لكن قلّ كلمة فيبراً غلامي (عبدي)" (مت ٨: ٨)، فتعجب الرب منه ومدحه... فما كان يمكن أن يوجد له أساس للمديح والاستحقاق لو أن السيد المسيح قد ميزه هكذا عن الذين آمنوا بما قد وهبه هو به (أي لو لم يكن لقائد المئة نصيب في الجهاد من جانبه).

ج. نقرأ عن التجربة التي بقصد اختبار الإيمان التي جلبها البرّ الإلهي على العظيم في الآباء، إذ قيل: "وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم" (تك ٢٢: ١)، لأن البرّ الإلهي أراد أن يمتحن ليس فقط الإيمان الذي أوحاه الله إليه... بل وليظهر حرية إرادته. لذلك فإن ثبات إيمانه لم يترك عبثاً، وقد جاءت نعمة الله التي فارقتة إلى لحظة لتزكيته، جاءت تعينه إذ قيل له: "لا تمدّ يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئاً، لأنّي الآن علمت أنك خائف الله فلم تمسك وحيدك عني" (تك ٢٢: ١٢).

د. هذا النوع من التجربة الذي يمكن أن يحل بنا لأجل تركيتنا أخبرنا عنه معطي الشريعة في سفر التثنية. "إذا قام في وسطك نبيّ أو حالم حلمًا وأعطاك آية أو أعجوبة ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التي كلّمك

^٥ حملت بعض العبارات مغالاة من جهة إرادة الإنسان وعلاقتها بنعمة الله.

^٦ هذا النص من ضمن النصوص التي جعلت البعض يتهمونه بال Semi – pelagianism غير أنه يظهر من المقال في مجمله أنه لا يقصد تجاهل نعمة الله وقوته. لكن خاف البعض لئلا يقتطف البيلاجيون بعض عباراته منفردة عن المقال ويعتمدون عليها في تأكيد انكالمهم على أعمال الإنسان فقط.

عنها قائلاً: لنذهب وراء آلهة أخرى لم تعرفها ونعبدّها، فلا تسمع لكلام ذلك النبي أو الحالم ذلك الحلم، لأن الربّ إلهكم يمتحنكم لكي يعلم هل تحبون الرب إلهكم من كل قلوبكم ومن كل أنفسكم" (تث ١٣: ١-٣). هل عندما يسمح الله بأن يقوم مثل ذلك النبي أو يحدث ذلك الحلم، نقول بأنه سيحمي هؤلاء الذين يُختبرون في إيمانهم بطريقة لا يكون لهم فيها حرية إرادة، حيث يحاربون المجرب بقوتهم؟ وما الحاجة لتجربتهم إن كان الله يعلم أنهم هكذا ضعفاء وواهنين حتى أنهم لا يقدرّون بقوتهم أن يقاوموا المجرب؟ بالتأكيد ما كان للبر الإلهي أن يسمح لهم أن يُجربوا ما لم يعلم أن فيهم قوة معادلة للمقاومة، بها يمكن أن يحكم عليهم حكماً عادلاً إن وجدوا مستحقين للعقاب أو التكريم.

يتكلم الرسول أيضاً عن نفس النتيجة قائلاً: "إذا مَنْ يظنُّ أنه قائم فلينظر أن لا يسقط. لم تُصِبتُمْ تجربة إلاً بشريّة. ولكن الله أمين الذي لا يدعكم تُجربون فوق ما تستطيعون بل سيجعل مع التجربة أيضاً المنفذ لتستطيعوا أن تحتملوا" (١كو ١٠: ١٢، ١٣). لأنه عندما قال "مَنْ يظنُّ أنه قائم فلينظر أن لا يسقط" أعطى إرادة حرة من جانبه، إذ يعلم بالتأكيد أنه بعد ما نال النعمة يمكن أن يثبت بالجهد أو يسقط خلال الإهمال. لكن عندما أضاف: "لا يدعكم تُجربون فوق ما تستطيعون" يويخ ضعفهم وخوار قلبهم الذي لم يتقوّ بعد، إذ لم يستطيعوا بعد أن يقاوموا هجمات قوات الشر الروحية، تلك القوات التي يحارب ضدها هو وغيره من الكاملين كل يوم، إذ يقول لأهل أفسس: "فإن مصارعتنا ليست مع دمٍ ولحمٍ بل مع الرؤساء مع السلاطين مع ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر مع أجناد الشرّ الروحية في السماويّات" (أف ٦: ١٢). وعندما أضاف: "ولكن الله أمين الذي لا يدعكم تجربون فوق ما تستطيعون" بالتأكيد لا يعني أنه لا يدعهم يجربون، إنما لا يُجربوا فوق طاقتهم. فالعبارة الأولى تشير إلى إرادة الإنسان الحرة والأخرى إلى نعمة الله الذي يلطف من عنف التجارب.

إن في كل هذه العبارات توجد براهين أن النعمة الإلهية تعمل في إرادة الإنسان لا لكي تحميها وتدافع عنها في كل الأمور بطريقة تجعلها لا تدافع عن نفسها بجهادها ضد الأعداء الروحيين، فينسب النصر إلى نعمة الله والهزيمة إلى ضعف الإرادة...

مثال توضيحي

إن أردنا أن نوضح مراحل خالقنا التي لا نظير لها من أمور أرضية، ليست مساوية لها في الحنو بل لمجرد التوضيح، فإنها تشبه مربية غاية في الاهتمام تحمل طفلاً في حضنها لمدة طويلة فلكي، تعلمه المشي عوض الحب، تساعد بمد يدها اليمنى لكي يستند عليها أثناء تبديل قدميه، وفي لحظة تتركه قليلاً، فإذا ما رآته يتطوح بشدة تمسك به بسرعة، وإذا تراه يسقط تخطفه وترفعه وتحميه من السقوط أو تسمح له أن يسقط سقطّة خفيفة لترفعه بعدما يكبو. لكن عندما تربيته حتى إلى الصبوة أو قوة الشباب أو الرجولة المبكرة فإنها تعطيه بعض الأحمال والأثقال لا لكي تهلكه إنما لتمرّنه، وتسمح له أن يتنافس مع من هم في عمره.

كم بالأكثر الأب السماوي الذي هو أب الجميع يعرف كيف يحمل الإنسان في حضن نعمته لكي ما يدرّبه على الفضيلة أمام نظره بواسطة تدريب إرادته الحرة، ومع ذلك يساعده في جهاده ويسمع له عندما يدعو، وأحياناً ينتشله من المخاطر حتى يغير معرفته.

١٥ - أنواع دعوة النعمة للبشرية

بهذا يتضح بوضوح أن الله بواسطة أحكامه التي لا تُستقصى وطرقه البعيدة عن الفحص (رو ١١: ٣٣) يجذب البشرية إلى الخلاص. ويمكننا أن نبرهن على هذا بأمثلة من الدعوات الواردة في الأناجيل.

- اختار الرب أندراوس وبطرس وبقية التلاميذ بواسطة **حنو نعمته المجانية**، بينما كانوا لا يفكرون في شفائهم وخلصهم.
- **حينما سعى زكا - قبل إيمانه - ليرى الرب** معالجاً قصر قامته باعتلائه الجميزة، فلم يستقبله الرب فحسب، بل وكرمه وشرفه بالذهاب معه إلى مسكنه.
- **بولس أيضاً بغير إرادته وفي مقاومته** جذب الرب إليه.
- وآخر أمره الرب أن يتبعه ويلتصق به تماماً، حتى عندما سأله أن يؤجل ذلك قليلاً ليدفن والده لم يسمح له بذلك.
- بالنسبة لكرنيليوس إذ كان على الدوام يثابر على الصلوات والصدقات أظهر له طريق الخلاص كمكافأة له، وبواسطة زيارة الملاك له أمره أن يستدعي بطرس ويتعلم منه كلمات الخلاص التي بها يمكن أن يخلص هو وكل بيته.

هكذا تهب حكمة الله من جوانب متعددة للخلاص للبشر بطرق متنوعة وحنوه الذي لا يستقصى، ويعلن لكل واحد حسب طاقته نعمة جوده، حتى أنه يريد أن يهب شفاؤه ليس حسب مقياس محدد لقوة جلاله، إنما حسب مقاييس الإيمان التي يجدها في كل واحد، أو حسبما يعطي هو بنفسه كل واحد. لأنه عندما آمن شخص أنه لأجل برئه من البرص تكفيه إرادة المسيح وحدها لشفائه قال الرب: "أريد فاطهر" (مت ٨: ٣). وعندما توسل آخر أن يأتي الرب ويقيم ابنته الميتة عن طريق أن **يمسكها بيده**، دخل الرب منزله كما ترجى ذاك ووهب له ما قد سأله. وآخر آمن أن ما هو رئيسي لخلاصه يتوقف على مجرد أمر (كلمة) من فم الرب وأجاب: "قُلْ كلمة فيبراً غلامي (خادمي)" (مت ٨: ٨). قال له: "اذهب وكما آمنت ليكن لك" (مت ٨: ١٣). وآخرون إذ ترجوا **الشفاء من لمس هذب ثوبه** وهبهم عطية الشفاء العظيمة.

البعض عندما سألوهم وهبهم الشفاء من أمراضهم. وآخرون قدم لهم الشفاء من غير أن يسألوه، وآخرون **حثمهم لكي يطلبوا ذلك قائلًا: "أتريد أن تبرأ؟"** (يو ٦: ٥٠)، وآخرون عندما كانوا بلا رجاء أعانهم من تلقاء نفسه. إنه يطلب إرادة البعض قبل أن يشبع احتياجاتهم قائلًا: "ماذا تريدان أن أفعل بكما" (مت ٢٠: ٣٢). وبالنسبة لأخرى لم تكن تعرف الطريق لتحقيق ما ترغب فيه، أظهر لها الطريق في حنو قائلًا: "إن آمنتِ ترين مجد الله" (يو ١١: ٤٠).

سكب أعماله الشفائية علي البعض كقول الإنجيلي: "وشفى مرضاهم" (مت ١٤: ١٤). لكن بالنسبة لآخرين توقفت عطايا الله التي لا تحد إذ قيل: "ولم يقدر أن يصنع هناك ولا قوة واحدة... وتعجب من عدم إيمانهم" (مر ٦: ٥). وهكذا يظهر أن جود الله فعلاً يتوقف على طاقة الإيمان حتى أنه قيل: "بحسب إيمانكما ليكن لكما" (مت ٩: ٢٩)، وآخر قيل: "اذهب وكما آمنت ليكن لك" (مت ٨: ١٣)، ولآخر: "ليكن لك كما تريدان" (مت ١٥: ٢٨)، وأيضاً: "إيمانك قد شفاك" (لو ١٨: ٤٢).

١٦ - النعمة الإلهية تسمو بالحدود الضيقة التي للإيمان البشري

ليته لا يتصور أحد أننا قدمنا هذه الأمثلة لكي ننسب النصيب الأكبر من خلاصنا على إيماننا نحن وذلك كما يظن البعض بتصورات أرضية، هؤلاء الذين ينسبون كل شئ لحرية الإرادة، قائلين أن نعمة الله توزع حسب استحقاقات كل إنسان. وإنما نؤكد بوضوح رأينا الذي يعلن بجلاء بغير لبس أن نعمة الله غاية في السمو والوفرة وأحياناً توسع الحدود الضيقة لنقص الإيمان البشري.

نذكر ما حدث في حالة الحاكم الوارد في الإنجيل، الذي إذ آمن أنه من الأسهل أن يشفي له ابنه من مرضه عن أن يقيمه من الموت مستعجلاً الرب ليذهب إليه في الحال قائلاً: "يا سيد أنزل قبل أن يموت ابني" (يو ٤: ٤٨)، ولو أن الرب وبخه لقلّة إيمانه بهذه الكلمات: "لا تؤمنون إن لم تروا آياتٍ وعجائب" إلا أنه لم يعلن نعمة لاهوته قدر ضعف إيمان الرجل، ولا نزع مرض الحمى المميت بحضور الرب بالجسد كما أراد الرجل، إنما بكلمة قوته قال له: "اذهب. ابنك حي" (يو ٤: ٥٠).

نقرأ أيضاً أن الرب سكب من غنى نعمته الغنية في حالة شفاء المفلوج، الذي وإن كان قد سأل من أجل شفاء جسده إلا أنه وهبه شفاء النفس أولاً بقوله: "ثِقْ يا بُنَيَّ. مغفورة لك خطاياك" (مت ٩: ٢). وإذ لم يصدق الكثرة أنه يقدر أن يغفر خطايا البشر، شفى أعضاء الرجل بقوة كلمته نازعاً مرض الفالج بالقول: "لماذا تفكرون بالشرّ في قلوبكم؟ أيما أيسر أن يقال مغفورة لكي خطاياك. أو أن يقال قُمْ وأمش. ولكن لكي تعلموا أن لابن الإنسان سلطاناً على الأرض أن يغفر الخطايا، حينئذٍ قال للمفلوج: قُمْ أحمل فراشك واذهب إلى بيتك" (مت ٩: ٤-٦).

بنفس الطريقة في حالة الإنسان الذي كان ملقياً ٣٨ سنة بجوار حافة البركة، مترجياً الشفاء من حركة الماء، فقد أظهر غنى جوده له من غير أن يسأله. فعندما رغب أن يقيمه قال له: "أتريد أن تبرأ؟" (يو ٦: ٥). وعندما أشتكى من عجز المعونة البشرية قائلاً: "ليس لي إنسان يلقيني في البركة متى تحرّك الماء" (يو ٥: ٧)، وهبه الرب في حنوه العفو عن عدم إيمانه وجهله وأبرأه وأعادته إلى صحته الأولى، ليس كما كان يتوقع، بل كما يريد الرب نفسه قائلاً له: "قُمْ. احمل سريرك وامش" (يو ٥: ٨).



ملخص المبادئ

✠ الطهارة الداخلية عطية مجانية تهبها النعمة الإلهية، وهي لا تُعطى إلا للمجاهدين المثابرين بقلب منسحق.

✠ نعمة السيد المسيح حاضرة بين أيدينا كل يوم... غايتها وعملها أن تجتذب كل الناس لكي يخلصوا.

✠ الجهاد والنعمة طريق واحد... فهما متلازمان لا يمكن فصلهما، لأن الجهاد الحقيقي لا يمكن القيام به بغير النعمة، ولا النعمة تعمل في المتراخين... فلا عجب إن رأينا الله يأمرنا بوصايا معينة لتنفيذها... وفي نفس الوقت نطلب نحن في جهادنا أن ينفذ الله ما أمرنا به في حياتنا. ونذكر في ذلك الأمثلة التالية:

١- الله يأمرنا: "اقتربوا إلى الله" (يع ٤: ٨)، و "تعالوا إليّ يا جميع المتعبين" (مت ١١: ٢٨)، وفي نفس الوقت لا يقدر أحد أن يأتي إليه ما لم يجتذبه الآب (يو ٦: ٤٤).

٢- الوصية تقول: "مهّد سبيل رجلك" (أم ٢٦: ٤)، ونحن نطلب من الله أن يسهل لنا الطريق (مز ٥: ٨).

٣- الوصية تأمر: "اطرحوا عنكم كل معاصيكم" (حز ١٨: ٣١) ونحن نطلب عمل الله القادر وحده أن ينزع عنا القلب الحجري (حز ٢٠، ١١: ١٩)

٤- الرب يأمر: "اغسل من الشر قلبك" (إر ٤: ١٤)، ونحن نصرخ إليه: "طهّرني بالزوف فأطهر" (مز ٥١: ٧).

٥- الوصية تقول: "ازرعوا لأنفسكم نور المعرفة" (هو ١٠: ١٢)، والكتاب يعلمنا أن الله هو "المعلم الإنسان

^٧ تحدث بعد ذلك عن عناية الله التي لا تستقصي وكيف أنه بطرق متنوعة وأحكام لا تفحص يبحث عن الإنسان ويطلبه ويدافع عنه. ويعتبر ذلك ملخص للمناظرة كلها لهذا لم أترجمها منعاً للإطالة والتكرار.

معرفة" (مز ٩٤: ١٠).

٦- الوصية تطلب: "فوق كل تحفظٍ احفظ قلبك" (أم ٢٣: ٤)، مع أن "سلام الله الذي يفوق كلَّ عقلٍ يحفظ قلوبكم" (في ٤: ٧).

٧- الوصية تنادي: "انحلي من رُبُط عنقك" (إش ٥٢: ٢)، مع أن "الرب يطلق الأسرى" (مز ١٤٦: ٧).

٨- باختصار يطالبنا الرب على لسان رسوله: "اركضوا لكي تتالوا" (كو ٩: ٢٤)، وفي نفس الوقت يقول: "لا يقدر أحد أن يأخذ شيئاً إن لم يكن قد أُعطي من السماء".

✠ على كل فإن عمل الله لا يقيد، بعيد عن الفحص وفوق كل استقصاء، ولا يمكننا أن نقول أيهما يبدأ أولاً الجهاد أم النعمة، ولا نتوقف نعمة الله في سخائها على طريقة واحدة فهناك طرق كثيرة منها:

١- اختيار الله - بحنو نعمته المجانية - أندراوس وبطرس.. من غير أن يفكروا في شفائهم وخلصهم.

٢- اختار زكا لأنه كان يناهض ويبحث ليرى يسوع من هو.

٣- جذب بولس بغير إرادته وهو مقاوم للرب.

٤- جذب آخر ليتبعه مانعاً إياه أن يذهب ويدفن أباه.

٥- أعلن ذاته ورسالته لكرنيليوس من أجل مثابرتة على الصلوات والصدقات.

✠ النعمة الإلهية تهب الإنسان حسب طاقة إيمانه.

١- فمن كان يكتفي أن يريد الرب له الشفاء ليُشفى كان يقول له: "أريد فأطهر".

٢- ومن كان يطلب كلمة من فم الله يقول له: "كما آمنت يكون لك".

٣- ومن يؤمن بلمس هذب ثوبه يشفى، هكذا حسب إيمانه هذا يشفى.

٤- ومن يطلب أن يأتي الرب إلى بيته ويمسك بيد مريضه... هكذا قدر إيمانه يهبه.

✠ أحياناً توسع النعمة حدود إيماننا الضيقة:

١- فالرجل الذي طلب من الرب أن يسرع إلى بيته لئلا يموت ابنه... أعطاه شفاء ابنه من غير أن يذهب معه.

٢- ومريثا التي قالت له: "لو كنت ههنا لم يمُت أخي" (يو ١١: ٢١)، أقام لها لعازر أخيها بعدما أوضح لها إمكانياته أنه هو القيامة.

✠ أحياناً يهب الرب نعمته من غير أن نسأله... كما فعل مع مريض بيت حسدا الذي ذهب إليه

بنفسه وسأله: "أتريد أن تبرأ؟".

وأحياناً يمتنع عن تقديم نعمته بسبب عدم الإيمان.

✠ أخيراً فإن نعمة الله تعمل في المجاهدين وتعينهم، دون أن تفقدهم حرية إرادتهم حتى يتكلموا، هذا

الجهاد مهما بلغ قدره لا ينفي عن النعمة مجانيته.

مناظرات يوحنا كاسيان مع مشاهير آباء البرية

١٤

المعرفة الروحية

للأب نسطور

Abbot Nesteros

١ - مقدمة

يقتضي طريقنا منا أن نتبع تعاليم الأب نسطور، رجل ممتاز في كل شيء وخاصة في المعرفة العظيمة. هذا الأب لما رأنا قد استظهرنا غيباً بعض أجزاء من الكتاب المقدس، ورجبنا في أن يشرحها لنا، خاطبنا بهذه الكلمات:

يوجد في هذا العالم عدة أنواع من المعرفة تختلف اختلافاً شاسعاً فيما بينها، كما هو في مختلف الفنون والعلوم. فكل الفنون أو العلوم الضارة منها أو النافعة في هذه الحياة الزمنية لا يوجد واحد منها ليس له نظام أو وسيلة بها يفهمها الذين يرغبون في تعلمها. فإن كان لهذه الفنون وسائل معينة يلزم إتباعها لأجل انتشارها، فكم بالأحرى يكون الأمر بالنسبة لانتشار ديانتنا والتعبير عنها، التي تقوم على التأمل في الأسرار الخفية غير المنظورة، ولا تطلب نفعاً زمنياً، بل مكافأة أبدية، أن تعتمد على نظام ثابت ونسق معين. والمعرفة الخاصة بها لها جانبان:

الجانب الأول: المعرفة العملية التي ننالها بتقدمنا في الفضيلة والتنقي من الأخطاء.

الجانب الثاني: المعرفة التي تحوي التأمل في الإلهيات، ومعرفة الأفكار التي هي غاية في القداسة.

٢ - بلوغ المعرفة الروحية

من يبغى الوصول إلى هذه المعرفة النظرية (التأمل في الإلهيات)، يلزمه أولاً أن يتبع المعرفة العملية (الإختبارية) بأقصى ما يمكن، لأن هذه المعرفة العملية يمكن أن تُطلب دون النظرية، أما النظرية فيستحيل اقتنائها بدون العملية. إذ يوجد مراحل معينة محددة ومرتبطة يصعد بها تواضع الإنسان إلى العلي... فلا يقدر أن يطير الإنسان إلى المرحلة الثانية ما لم يبدأ بالأولى. باطلاً يجاهد الإنسان من أجل رؤية الله، ما لم تزول عنه آثار الخطية، لأن "الحكمة لا تلج النفس الساعية بالمكر ولا تحل في الجسد المسترق للخطيئة. لأن روح التأديب القدوس يهرب من الغش، ويتحول عن الأفكار السفهية وينهزم إذا حضر الإثم" (حك ١: ٤، ٥).

٣- الكمال العملي يعتمد على نظام مزدوج

الكمال العملي يعتمد على نسق مزدوج:

الوسيلة الأولى: هي أن نتعرف على طبيعة كل الأخطاء وطريقة علاجها.

الوسيلة الثانية: هي أن نكتشف تدبير الفضائل، ونشكل أذهاننا بكمال الفضائل، حتى تطيعها أذهاننا، ليس كمن هي مجبرة على هذا، ولا كمن يخضع لنفوذ قاسٍ، إنما تبتهج بطبيعتها الصالحة وتتجح فيها، وتصعد ذلك الطريق الضيق الصعب الذي للفرح الحقيقي. **لأنه كيف يمكن للإنسان الذي لا ينجح في فهم طبيعة أخطائه ولا يحاول أن يقطع دابرها أن يقتني فهم الفضائل، التي هي المرحلة الثانية من الاختبار العملي، أو يتفهم الأسرار الروحية والأمور السماوية التي هي المرحلة العالية الخاصة بالمعرفة النظرية؟**

من الضروري لنا أن نؤكد أنه لا يستطيع الإنسان أن يتقدم إلي العلا ما لم يرتفع بعد إلي الأمور التي هي أقل، وبالتالي يعجز عن إدراك الأمور التي هي من خارج (أي التي تفوق إدراكه الحالي) ما لم ينجح أولاً في فهم ما هو في متناول فهمه.

يجدر بنا أن نعرف أن نبذل جهداً بغرض مزدوج: لأجل سحق الرذيلة، ولأجل نوال الفضيلة. هذا القول ليس من تخميننا، وإنما نتعلمه من كلمات الله التي وحدها تعرف قوة عمله ووسيلته، إذ يقول: "لتقلع وتهدم وتهلك وتنقض وتبني وتغرس" (إر ١: ١٠). إنه يشير إلي أن التخلص من الأمور المهلكة يتطلب منا أربعة أمور: تقلع، وتهدم، وتهلك، وتنقض. أما تنفيذ ما هو صالح ونوال نصيب في البر فيحتاج فقط إلي أن "تبني وتغرس". هذا يشير بشهادة كاملة أن تمزيق الشهوات المتأصلة التي للجسد والروح ونزوعها أصعب من إدخال الفضائل الروحية وزرعها.

٤- أنواع طرق المعرفة العملية

هذه الحياة العملية، التي قيل عنها أنها تتأسس على تدبير مزدوج (أي هدم الأخطار وبناء الفضيلة) تنتوزع بين أعمال واهتمامات كثيرة. فالبعض يركزون كل غرضهم في التمتع بحياة النسك الخفية ونقاوة القلب، وذلك مثل إيليا واليشع في القديم، وأنطونيوس وآخرون اقتدوا به في أيامنا هذه. هؤلاء التصقوا بالله تماماً خلال سكون الوحدة. والبعض بذلوا كل جهدهم واهتمامهم في نظام الاخوة وحرصوا على حياة الشركة. وذلك مثل الأب يوحنا^١ الذي ظهر حديثاً، والذي رأس ديرًا كبيرًا بجوار مدينة Thmuïs. وآخرون مشابهون في الاستحقاقات كانوا بارزين مثل الرسل. والبعض يفرحون بخدمة إضافة الغرياء والزائرين، المملوءة كرمًا ورحمة، الأمر الذي به أَرْضَى إبراهيم ولوط الرب. وفي وقتنا هذا يوجد مقاريوس المبارك، رجل فريد من جهة كرمه واحتماله، هذا الذي كان يقوم بخدمة بيت الضيوف الذي في الإسكندرية بطريقة جعلته لا يقل عن أولئك الذين انسحبوا إلي البرية. والبعض اختاروا الاهتمام بالمرضى. والبعض كرسوا حياتهم للتشفع عن الآخرين، حيث يقدمون صلواتهم من أجل المتضايقين والحزاني. والبعض كرسوا حياتهم للتعليم أو لإعالة المساكين وهكذا ظهروا بين الرجال الممتازين بسبب حبهم وصلاتهم.

٥- المثابرة فيما اختاره الإنسان

من الأفضل والنافع للإنسان أن يجاهد بكل طاقته لينال كمالاً في العمل الذي بدأ فيه واختاره حسب

^١ يشك فيما إذا كان هو نفسه الأب يوحنا المذكور في كتاب المؤسسات ٢٨:٥، والذي تُنسب إليه المناظرة ١٩.

النعمة التي نالها. وإذ يمدح فضائل الآخرين ويُعجب بها لا ينحرف عن الطريق الذي اختاره من بين الطرق. وكما يقول الرسول بأن جسد الكنيسة واحد، لكن الأعضاء كثيرة "ولكن ليس جميع الأعضاء لها عمل واحد، هكذا نحن الكثيرون جسد واحد في المسيح وأعضاء بعضاً لبعض كل واحد للآخر. ولكن لنا مواهب مختلفة بحسب النعمة المعطاة لنا. أنبؤة فبالنسبة إلي الإيمان أم خدمة في الخدمة. أم المعلم في التعليم. أم الواعظ في الوعظ. المُعطي فيسخاء. المدبر فباجتهاد. الراحم فيسرور" (رو ١٢: ٤-٨).

لأنه لا يقدر عضو أن يقوم بعمل الأعضاء الأخرى، فالعين لا تقدر أن تقوم بعمل اليد، ولا الأنف بعمل الأذن. هكذا ليس الكل رسلاً، ولا الكل أنبياء، ولا الكل معلمين، وليس للكل مواهب شفاء، ولا الكل يتكلم باللسنة، ولا الكل يفسر (١كو ١٢: ٢٨).

٦- مضار التثنت في طريق الحياة الروحية

أما أولئك الذين لم يستقروا بعد على الطريق الذي يسلكونه، هؤلاء متي سمعوا أحدًا يمدح فضائل معينة يثيرهم هذا المديح محاولين تنفيذها. وفي هذا الضعف البشري يشتتون جهودهم بلا هدف. لأنه توجد استحالة أن يتفوق الإنسان في كل الأعمال الصالحة التي سبق أن عدتها. فإذا ما اشتاق إنسان إلي اقتنائها جميعاً بدرجة متساوية، يصل بالتأكيد إلي هذه النتيجة: بينما هو مجتهد في كل عمل، لا ينجح في أي واحد منها، بل يخسر بدلاً من أن يكسب وذلك بسبب التغيير والتبديل بينها. ففي طرق كثيرة يتقدم البشر تجاه الله، وهكذا يلزم على كل إنسان أن يكمل ما ثبت أنظاره تجاهه من غير أن يغير طريقه، حتى يصير كاملاً في طريقة الحياة التي له.

٧- ... ففي بعض الأمور التي يصنعها البعض بحق يكون من الخطأ أن يقلدها الآخرون، فما قد يفيد البعض قد يضر الغير. ولكي ما نعطي مثلاً نذكر الأعمال الصالحة التي اعتاد الأب يوحنا أن يذكرها لا للاقتداء بها بل لإعجابه بها... فقد جاء إليه رجل علماني وقدم له بكور محصوله. وفي أثناء حضوره كان عند الأب رجل متسلط عليه شيطان في منتهى العنف. هذا الشخص ازدري بأوامر الأب يوحنا ورفض الشيطان أن يترك الجسد الذي سكن فيه، ولكن بمجيء الرجل العلماني خاف الشيطان للحال وهرب في خزي عظيم... تعجب الشيخ (الأب يوحنا) كثيراً من أجل النعمة الواضحة التي لهذا الرجل، ومما زاد من دهشته أنه رآه علمانياً. فبدأ يسأله بتدقيق عن طريقة سلوكه وحياته. وإذ أجابه أنه يعيش في العالم ومرتبطة برباط الزوجية، تأمل يوحنا الطوباوي عظمة فضيلته ونعمته، وسأله بالأكثر مستفسراً عن طريقة سلوكه في الحياة. فأعلن له الرجل أنه فلاح يجد طعامه بالتعب اليومي بصعوبة وليس له أي عمل صالح يقوم به سوى أنه لا يذهب قط في الصباح إلي الحقل ولا يعود إلي بيته ما لم يقدم الشكر لله الذي يهبه طعامه اليومي. ولا يمد يده إلي المحصول ما لم يقدم البكور والعشور، ولا يجر ثوره خارج حدود حقله ما لم يكمه حتى لا يلحق جاره أية خسارة بسبب إهماله... وتحت الإلحاح في الاستفسار اعترف الرجل أنه كان يرغب في حياة الرهينة، وقد أجبراه والداه على الزواج منذ اثنتي عشر عاماً... فحفظ زوجته بتولاً في بيت العذاري. ولما سمع الشيخ اندهش، وعرف أنه ليس عبثاً أن الشيطان لم يحتمل حضوره.

بالرغم من أن الأب يوحنا كان يريد أن يخبر بهذه القصة متعجباً منه بشدة، لكنه لم ينصح أي أحد أن يصنع هذا. لأنه ما هو حق بالنسبة لإنسان قد يكون خطأ بالنسبة لغيره ويعرضه للخطر. كما لا يمكن للجميع أن ينفذوا ما قد وهبه الله لقليلين كهبة خاصة.

٨- عن المعرفة الروحية

لنعد إلى شرح "المعرفة" موضوع هذه المناظرة. كما قلنا قبل أن المعرفة العملية توزع بين مواضيع واهتمامات كثيرة. أما المعرفة النظرية فتقسم إلى قسمين: التفسير التاريخي والتفسير الروحي...

المعرفة (أو التفسير) الروحية ثلاثة أنواع:

أ - التفسير المجازي أو استخدام الاستعارة tropological.

ب- التفسير الرمزي allegorical.

ج- التفسير التشبيهي anagogical...

يحتضن التفسير التاريخي معرفة الأمور المنظورة (كما هي)، وذلك كما ورد في أقوال الرسول بصورة متكررة مثل قوله: "فإنه مكتوب أنه كان لإبراهيم ابنان واحد من الجارية والآخر من الحرّة. لكن الذي من الجارية وُلد حسب الجسد وأما الذي من الحرّة فبالموعِد" (غلا ٤: ٢٢).

التفسير الرمزي هو ما يختص بالمستقبل، فما يحدث حاليًا هو رمز للمستقبل بشكل سرّي، إذ يقول الرسول: "وكل ذلك رمز، لأن هاتين هما العهدان أحدهما من جبل سيناء الوالد للعبودية الذي هو هاجر، لأن هاجر جبل سيناء في العربية، ولكنه يقابل أورشليم الحاضرة فإنها مستعبدة مع بنيتها" (غلا ٤: ٢٥).

أما التفسير التشبيهي فيستنبط من الأسرار الروحية أسرارًا سماوية مقدسة عالية. إذ يكمل الرسول قوله بهذه الكلمات: "وأما أورشليم العليا التي هي أُمنا (جميعًا) فهي حرّة. لأنه مكتوب افرحي أيتها العاقر التي لم تلد. اهتفي واصرخي أيتها التي لم تتمخض فإن أولاد الموحشة أكثر من التي لها زوج" (غلا ٤: ٢٦-٢٧).

أما التفسير المجازي أو الاستعاري فهو التفسير الأخلاقي الذي يختص بالتعليم العملي، كما لو كنا نفهم العهدين (المذكورين في النص السابق غلا ٤: ٢٦-٢٧) على أنهما التعليم العملي والنظري. أو كأن نفسر أورشليم أو صهيون على أنها النفس البشرية، وذلك كما جاء: "سبحي يا أورشليم الربّ. سبّحي إلهك يا صهيون" (مز ١٤٧: ١٢).

ويمكن تطبيق هذه الأنواع الأربعة من التفسير السابق ذكرها في موضع آخر. فتؤخذ أورشليم الواردة في الآية السابقة في أربعة معان:

(أ) المعنى التاريخي: وهي مدينة أورشليم ذاتها...

(ب) المعنى الرمزي: أي كنيسة المسيح.

(ج) المعنى التشبيهي: أي مدينة الله السماوية، التي هي أُمنا جميعًا.

(د) المعنى المجازي (الاستعاري): أي النفس البشرية.

يتحدث الرسول المبارك عن هذه الأنواع الأربعة من التفسير هكذا: "فالآن أيّها الاخوة إن جئت إليكم متكلمًا بالسنة فماذا أنفعكم إن لم أكلّمكم إما بإعلانٍ أو بعلمٍ أو بنبوّةٍ أو بتعليمٍ؟!" (١كو ١٤: ٦).

(أ) الإعلان: ينتمي إلى التفسير الرمزي، لأن ما قد تم في الحدث التاريخي يعلن في داخله تفسيرًا روحيًا، مثال ذلك ما جاء شارحًا كيف أن "آباءنا جميعهم كانوا تحت السحابة، وجميعهم اجتازوا في البحر، وجميعهم اعتمدوا لموسى في السحابة وفي البحر، وجميعهم أكلوا طعامًا واحدًا وروحيًا، وجميعهم شربوا شرابًا واحدًا وروحيًا، لأنهم كانوا يشربون من صخرةٍ روحيةٍ تابعتهم والصخرة كانت المسيح" (١كو ١٠: ٤-١). هذا الشرح

رمزي، إذ فيه يقارن ما قد حدث بما يخص جسد المسيح ودمه اللذين تناولهما يومياً.

(ب) أما "العلم" فيشير به الرسول إلي التفسير المجازي (الاستعاري) بنفس الطريقة، هذا الذي به نستطيع خلال الدراسة باهتمام أن نرى كل الأمور التي تحدث بإدراك (تمييز) عملي متى كانت هذه الأمور مفيدة وصالحة. مثال ذلك عندما يطلب منا أن نحكم في أنفسنا: "هل يليق بالمرأة أن تصلي إلي الله وهي غير مغطاة؟!" (١كو ١١: ١٣)، وهذا الأمر يحوي فيه معنى أخلاقي.

(ج) كذلك "النبوة" التي وضعها الرسول في المكان الثالث، مشيراً إلي التفسير التشبيهي anagogical، حيث تطبق الكلمات الواردة علي أمور مقبلة غير منظورة. وذلك كما قيل: "ثم لا أريد أن تجهلوا أيها الاخوة من جهة الراقدين لكي لا تحزنوا كالباقين الذين لا رجاء لهم. لأنه إن كنا نؤمن أن يسوع مات وقام فذلك الراقدون بيسوع سيحضرهم الله أيضاً معه. فإننا نقول لكم هذا بكلمة الرب أننا نحن الأحياء الباقين إلي مجيء الرب لا نسبق الراقدين. لأن الرب نفسه بهتاف بصوت رئيس ملائكة وبوق الله سوف ينزل من السماء والأموات في المسيح سيقومون أولاً" (١تس ٤: ١٣-١٦).

(د) وأما "التعليم" فيحوي العرض التاريخي البسيط، حيث لا يكمن فيه أي معنى سري، إنما يتحدث بكلمات واضحة، كما في العبارة: "فإنني سلّمت إليكم في الأول ما قبلته أنا أيضاً أن المسيح مات من أجل خطايانا حسب الكتب. وأنه دفن وأنه قام في اليوم الثالث حسب الكتب. وأنه ظهر لصفا ثم للإثني عشر" (١كو ١٥: ٣-٥). و "أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة مولوداً تحت الناموس ليفتدي الذين تحت الناموس" (غل ٤: ٤، ٥).

٩ - كيف نفتني المعرفة الروحية من العملية؟

أولاً: إن كنتم مشتاقين إلي الحصول على نور المعرفة الروحية، معرفة ليست خاطئة لأجل كبرياء فارغ لتكونوا رجالاً فارغين. يجدر بكم أولاً أن تلتهبوا بالشوق نحو هذا التطويب الذي نقرأ عنه: "طوبى للأنقياء القلب، لأنهم يعاينون الله" (مت ٥: ٨). بهذا تتالون ما قاله الملاك لدانيال: "والفاهمون يضيئون كضياء الجلد، والذين ردوا كثيرين إلي البر كالكواكب إلي أبد الدهور" (دا ١٢: ٣). ويقول نبي آخر: "ازرعوا لأنفسكم بالبر (حيث يوجد وقت)" (هو ١٠: ١٢).

هكذا يلزمنا المثابرة بجهد في القراءة، الأمر الذي أراكم تصنعونه، مع السعي بكل اشتياق لنوال المعرفة العملية الاختبارية أولاً، أي المعرفة الأخلاقية. لأنه بغيرها لا يمكن اقتناء النقاوة النظرية التي نتكلم عنها، وبهذا لا ينطقون بكلمات غيرهم معلمين بها، إنما بالسمو في العمل والتنفيذ. فبعدما يبذلون جهوداً وأتعباً كثيرة يستطيعون أن ينالوا المعرفة الروحية كمكافأة لهم من أجلها. وإذا يقتنون المعرفة، لا من مجرد التأمل في الشريعة، بل كثمرة لتعبهم، يتغنون مع المرتل قائلين: "من وصاياك تفهمت" (مز ١١٩: ١٠٤). وإذا يقهرون كل شهواتهم يقولون بكل ثقة: "لك يا رب أرتم. أتعل في طريق كامل" (مز ١٠١: ٢). فمن يجاهد في طريق كامل بقلب نقي يترنم بالمزمور ويتعل (يتقهم) الكلمات التي يسبح بها.

إن أردتم أن تعدوا قلوبكم هيكلاً للمعرفة الروحية، فنقوا أنفسكم من آثار كل الخطايا وتخلصوا من اهتمامات هذا العالم لأن هناك استحالة على النفس التي ترتبك باهتمامات العالم - ولو إلي درجة بسيطة - أن تفتني عطية المعرفة، أو تصير مصدراً للتفسير الروحي وتجاهد في قراءة الأمور المقدسة.

ويجدر بكم أن تهتموا في المكان الأول، وخاصة بالنسبة لك يا يوحنا الأصغر سنًا، أن تطلبوا الحرص فيما أكلكم به، وإن ترتبطوا بالسكون المطلق، مقتنين أول كل شيء تواضع القلب الثابت لكي يحملكم إلي كمال الحب، لا إلي المعرفة التي تتفخ بل التي تنير.

إنه يستحيل على الذهن غير النقي أن يقتني هبة المعرفة الروحية. لذلك تجنبوا هذا بكل حرص ممكن لئلا خلال غيرتكم في القراءة لا يرتفع فيكم نور المعرفة ولا المجد الدائم الموعود به خلال النور النابع عن القراءة، بل ترتفع أدوات تدميركم خلال الزهو الفارغ.

ثانيًا: يلزمكم أن تجاهدوا بكل وسيلة ممكنة أن تتخلصوا من كل الأفكار العالمية المقلقة، وتسلموا أنفسكم للقراءة المقدسة بمثابرة بغير انقطاع حتى يمتلئ قلبكم بالتأمل الدائم، وتشكلكم القراءة لتتكلموا على شبهها. بهذا تجعل القراءة قلبك أشبه بتابوت العهد يحمل في داخله لوحين حجريين هما الثقة الكاملة في العهدين (القديم والجديد). وفيه القسط الذهبي أي ذاكرة نقية غير دنسة، تحفظها صلابة دائمة للامن المحفوظ فيها، أي الاحتمال والعذوبة السماوية التي للتفسير الروحي وخبز الملائكة. كذلك يوجد فيه عصا هارون، أي الخشبة المنقذة التي لربنا يسوع المسيح رئيس الكهنة الحقيقي، والتي تفرخ على الدوام ذاكرة حية غير مائتة. لأن هذا هو القضيبي الذي خرج من أصل يسى ومات وقام في حياة قوية. هذا كله تحت حراسة الكاروبين: أي كمال المعرفة التاريخية والروحية. لأن الكاروبيم يعني مجموعة من المعرفة (إذ هو مملوء أعيننا)، وهذه المعرفة تحمي عرش الله الرحوم أي سلام القلب. فهي تظلمه ضد كل هجمات الشر الروحية. وبهذا تُحمل نفوسكم لا إلي تابوت العهد الإلهي فحسب، بل وإلي الملكوت الكهنوتي، حاملة فيها محبة النقاوة غير المنكسرة، وذلك بتنفيذها الوصايا المعطاة للكهنة خلال الدراسات الروحية، وترتبط بواهب الشريعة كما قيل "لا يخرج من المقدس لئلا يدنس مقدس إلهه" (لا ٢١: ١٢)، بمعنى لا يخرج من قلبه، هذا الذي وعد الرب أن يسكن فيه إلي الأبد قائلاً "إني سأسكن فيهم وأسير بينهم" (كو ٦: ١٦).

لهذا يجدر بنا أن نستوعب في ذاكرتنا كل ما ورد في الكتاب المقدس باجتهاد، ونكرره بغير انقطاع، لأن هذا التأمل الدائم يهبنا ثمرة مزدوجة: أولاً: إذ يُمتص انتباه الذهن في القراءة والاستعداد للدروس، لا يمكن أسره بسهولة في أي فخ من فخاخ الأفكار الشريرة.

ثانيًا: الأمور التي نشتغل بها... والتي نحاول تكرارها، إن كنا لا نفهمها وقت قراءتها لكننا سنفهمها بعد ذلك بوضوح... فعندما نكون في راحة (ليلاً)، تكون نفوسنا كما لو أنها قد غطت في سبات عميق، وينكشف لنا فهم الكثير من المعاني السرية التي لم ندركها أثناء عملنا خلال ساعات النهار.

١١ - فهم الكتاب المقدس بصور متعددة

إذ تنمو نفوسنا بواسطة هذه الطرق الخاصة بالدراسة، يلبس الكتاب المقدس وجهًا جديدًا بالنسبة لنا. وبنمونا نحن نجد نموًا في تذوق جمال معانيه المقدسة، لأن الإنسان يطبق معانيه حسب قدرة فهمه، فبالنسبة للجسدانيين تظهر لهم معانيه أرضية، ويجدونها الروحانيون إلهية.

لكي ما نوضح قصدنا هذا بأكثر جلاء بمثال، نكتفي بأن نأخذ عبارة واحدة من الشريعة كمثال نبرهن به على أن جميع الوصايا يطبقها البشر حسب قياس حالهم. فقد جاء في الشريعة "لا تزني" (خر ٢٠: ١٤).

(أ) هذه يمكن أن تُلاحظ بحق حسب المعنى الحرفي للعبارة، وذلك بالنسبة للذين لا يزالون في عبودية

الشهوات الدنسة.

(ب) أما الإنسان الذي ترك بالفعل مثل هذه الأفعال القذرة والانفعالات الدنسة، فإنه ينظر إلي الوصية في الروح. يراها تطالبه بترك العبادة الوثنية وشكوك الأوثان وخرافتها، رافضاً العرافة والتقاؤل والتشاؤم... على أي الأحوال لا يرتبك بأي خزعبلات تقسد بساطة الإيمان... فنحن نقرأ عن أورشليم أنها قد تدنسّت بزنا من هذا النوع على الجبال العالية وتحت كل شجرة خضراء (إر ٦:٣)، ويوبخها الرب بالنبي قائلاً: "قد ضعفت من كثرة مشوراتك. ليقف قاسمو السماء الراصدون النجوم المعرفون عند رؤوس الشهور ويخلصوك مما يأتي عليك" (إش ٤٧:١٣). وتحدث عن هذا الزنا في موضع آخر موبخاً إياهم قائلاً: "شعبي يسأل خشبه وعصاه تخبره، لأن روح الزنى قد أضلهم فزنوا من تحت إلههم" (هو ١٢:٤).

(ج) أما من ترك مثل هذين النوعين من الزنا، فسيجد نوعاً ثالثاً من الزنا يجب تجنبه، وهو الارتداد إلي الأمور اليهودية^٢ التي يقول عنها الرسول: "أتحفظون أياماً وشهوراً وأوقاتاً وسنين" و"لا تمس ولا تدنق ولا تجس؟!" (غل ٤:١٠، كو ٢:٢١) وبلا شك من يسقط في هذا يزني وراء السيد المسيح (مرتداً إلي اليهودية مرة أخرى في شكلها الخارجي، رافضاً الدخول إلي العمق الذي أعلنه الرب يسوع)، فلا يستحق أن يسمع من الرسول القول التالي: "إني أغار عليكم غيرة الله، لأنني خطبتكم لرجلٍ واحدٍ لأقدم عذراءً عفيفةً للمسيح" (٢كو ١١:٢)، وإنما توجه إليه هذه الكلمات: "ولكنني أخاف أنه كما خدعت الحية حواء بمكرها هكذا تُفسد أذهانكم عن البساطة التي في المسيح" (٢كو ١١:٣).

(د) ومتى هرب الإنسان من دنس مثل هذا الزنا، يبقى نوع رابع، هذا الذي يُرتكب خلال الاتصالات الشريرة الناجمة عن التعليم الهرطوقي. ويتحدث الرسول المبارك عن هذا قائلاً: "لأنني أعلم هذا أنه بعد ذهابي سيدخل بينكم ذئاب خاطفة لا تشفق على الرعية. ومنكم أنتم سيقوم رجال يتكلمون بأمر ملتوية ليجتنبوا التلاميذ وراءهم" (أع ٢٠:٢٩).

(هـ) لكن إن نجح الإنسان في تجنب مثل هذا النوع أيضاً، فليحذر لئلا يسقط في خطية معثرة وهي الزنا. أقصد بذلك الأفكار الهائمة، لأن كل فكر باطل (خامل) يفصلنا عن الله - ولو إلي درجة بسيطة - هذا ينظر إليه الإنسان الكامل أنه في غاية الدنس.

١٢ - كيف يمكننا الحصول على "عدم الاهتمام بهذا العالم"؟

عند ذلك بدأت أتحرّك بدافع خفي، ثم تنهدت تنهداً عميقاً وقلت:

هذه الأمور التي أوضحتها لنا أخيراً ربما تجعلني أسقط في اليأس أكثر من ذي قبل، إذ أنه بجانب تلك الأمور العامة التي تأسر النفس (وتعوقها عن المعرفة الحقيقية)... فإن عائقاً خاصاً يعطلني عن الخلاص وهو معرفتي للأدب. هذه المعرفة التي كما أظن إنني بالفعل نلت منها نصيباً بسيطاً بفضل جهود معلمي أو بفعل دراساتي المستمرة، وقد شُحن ذهني بالشعر حتى إنني أفكر فيه أثناء الصلاة، فأتذكر الأمور التافهة وقصص الملوك والمعارك التي سمعتها في طفولتي المبكرة... وفي أثناء التسبيح بالمزامير أو طلب غفران الخطايا، يتطفل الشعر المحفوظ على ذاكرتي بغير إرادتي، وتستعرض صور الحروب والمعارك المذكورة في الشعر أمام عيني، وتتراقص الخيالات قدامي وتثيرني ولا تسمح لنفسني أن تصفو متأملة في الأمور العليا، حتى إنني لا أستطيع أن أتخلص من هذه الأمور بنحبيبي اليومي.

^٢ ظهر منذ بدء المسيحية بدعة قام بها اليهود الذين صاروا مسيحيين، وهي المناداة بكل طقوس اليهودية وأعيادها كما هي بحرفيتها.

١٣- الإجابة

هذه الحقيقة التي تراها ينبوعاً لليأس الشديد من جهة تنقيتك، هي بذاتها تحمل علاجاً سريعاً وفعالاً، وذلك إن وجهت قراءتك وتأملاتك إلي الكتابات الروحية، وذلك بنفس الجهد والشغف اللذين تقول إنك أظهرتهما في الدراسات الزمنية. لأنه بالتأكيد سيبقي ذهنك منشغلاً بذلك الشعر إلي أن تقتني بنفس الغيرة والمثابرة التأمل في الأمور الأخرى، فتنشغل بالأمور الروحية الإلهية بدلاً من الأمور الأرضية غير النافعة.

عندما نفهم هذه الأمور الروحية فهماً كاملاً وتنتعش فيها، تُستبعد عنا الأمور الثانية (الأرضية) بالتدريج إلي أن تُترع عنا بالتمام. فذهن الإنسان لا يمكن أن يبقى بغير تفكير، ويقدر ما لا يشغل بالأفكار الروحية، حتماً يمتلئ بالأفكار التي سبق أن تعلمها منذ زمن بعيد. فإذا لا يجد ما يشغله ويتدرب عليه الآن حتماً يردد إلي ما قد تعلمه في طفولته، ويعود إلي ما قد سبق أن استخدمه أو تأمل فيه منذ زمن بعيد.

لكي ما تتقوى فيك المعرفة الروحية بثبات قويم، ولا تتمتع بها فقط إلي حين مثل أولئك الذين يتلمسونها لا بجهدهم إنما يعتمدون على مجرد سماعهم ما يسرده الآخرون... ولكي ما تبقى في قلبك وتتركها بعمق وتعاينها وتمسكها بصورة كاملة يحسن بك أن تتمسك بها بحرص شديد، أي حتى إن فرضنا أنك سمعت في مناظرة ما أموراً تعرفها معرفة جيدة، لا تتطلع إليها باستخفافٍ وتراخٍ بسبب معرفتك السابقة، بل ضعها في قلبك بنفس الغيرة التي لك نحو كلمات الخلاص التي تتوق إليها، فتفتح لها آذاننا وننطق بها على شفاهنا.

لأنه وإن كان كثيراً ما يتكرر سرد الأمور المقدسة، لكن الذهن الذي يشعر بعطش إلى المعرفة الحقيقية، فإن شبعه لا يخلق قط نوع من الإشمئزاز، بل في كل يوم يتقبل الكلمة كشيءٍ جديدٍ يحتاج إليه. وعلى أي الأحوال غالباً ما ينصت إليها بشغف شديد ويتحدث بها. والتكرار بالنسبة له يثبت في المعرفة التي له من قبل دون ضجر.

هذه هي العلامة التي بها يُعرف الذهن أنه بارد ومتعجرف، أنه يتقبل أدوية كلمات الخلاص بازدراء واستهتار، بالرغم من أنها مقدمة بغيرة ولجاجة زائدة، وذلك لأن "النفس الشبعانة تدوس العسل، وللنفس الجائعة كل مرٍّ حلو" (أم ٢٧:٧).

هكذا أن أخذت هذه الأمور بعناية، وحُزنت في داخل النفس وختمت بخاتم السكون، فإنها تصير مثل الخمر حلوة المذاق، تُبهج قلب الإنسان، وتُعتق بتخزينها كثيراً في الفكر مع الصبر الثابت، فتخرج من آنية القلب رائحة لذيذة، ويصير ينبوعاً دائماً يفيض أعماق الخبرة بغزارة، وتكون كمجاري مروية. تسكب الفضيلة تيارات غزيرة كما من بئر قلبك العميق.

يصف سفر الأمثال من ينفذ هذا، فيقول: "اشرب مياهاً من جبّك، ومياهاً جارية من بئرِكَ" (أم ١٥:٥). ويقول النبي إشعياء: "ويقودك الرب على الدوام ويشبع في الجذوب نفسك، وينشط عظامك، فتصير كجئة رياء، وكنع مياهٍ لا تنقطع مياهه. ومنك تُبنى الخرب القديمة. تقيم أساسات دور فدور فيسمونك مرمم الثغرة، مرجع المسالك للسكنى" (إش ١٢، ٥٨:١١). ويحل بك التطويب الذي وعد به النبي نفسه قائلاً: "ويعطيكم السيد خبزاً في الضيق، وماءً في الشدة. لا يختبئ معلومك بعد، بل تكون عينك تريان معلميك. وأذنك تسمعان كلمة خلفك قائلة: هذه هي الطريق اسلكوا فيها حينما تميلون إلي اليمين وحينما تميلون إلي اليسار" (إش ٣٠:٢٠، ٢١). ولا يكون هذا كل غرض قلبك، إنما تصير كل الأفكار التي تدور في مخيلتك مقدسة، متأملات في الشريعة الإلهية بغير انقطاع.

١٤ - عجز النفس الدنسة عن تقبلها المعرفة الروحية

كما قلت أنه مستحيل على المبتدئ أن يفهم المعرفة الروحية، فكيف يقدر أن يقدمها للغير؟! لكن إن كانت لديه لياقة للتعليم بخصوص هذه الأمور، بالتأكيد تكون كلماته عقيمة بلا نفع، وتحمل كلماته كسلًا واضحًا، وزهوًا عقيمًا، لأنهم لا يخرجونها من كنز ضمائرهم الصالحة، إنما تنبع عن زهو فارغ مملوء سفاهة.

يستحيل على النفس غير النقية - مهما بلغت أشواقها نحو القراءة - أن تحصل على معرفة روحية. لأنه لا يقدر أحد أن يسكب دهنًا طيبًا أو عسلًا جيدًا أو أي سائل قيم في إناء قذر كرهه الرائحة. لأن الإناء الممتلئ بروائح كريهة يُفسد ما يوضع فيه أكثر مما يتأثر هو من الشيء الصالح، لأن ما هو نقي يفسد بسرعة أكثر من تأثير النقي على الفاسد.

هكذا ما لم يتتقَ إناء صدرنا من وصمات الخطية الفاسدة، لا يستحق أن يتقبل الدهن المبارك الذي تحدث عنه النبي قائلًا: "مثل الدهن الطيب على الرأس النازل على اللحية، لحية هارون النازل إلي طرف ثيابه" (مز ١٣٣: ٢). "لأنه آية خلطة للبر والإثم؟! وآية شركة للنور مع الظلمة؟! وأي اتفاق للمسيح مع بليعال؟! وأي نصيب للمؤمن مع غير المؤمن؟!" (٢ كو ٦: ١٤، ١٥).

١٥ - اعتراض

جرمانئوس: هذا بالتأكيد يبدو لنا غير صحيح أو غير مؤسس على سبب قوي. لأنه إن كان من الواضح أن كل الذين لم يتقبلوا الإيمان بالسيد المسيح أو الذين فسدوا بتعاليم الهرطقة الشريرة قلوبهم غير نقية، فكيف نجد أن كثير من اليهود والهرطقة وبعض المؤمنين^٣ الذين لهم خطايا واضحة، لهم معرفة بالكتاب المقدس، ويفخرون بعظمة تعليمهم الروحي، بينما نجد من الجانب الآخر حشود لا حصر لها من القديسين الذين تنقت قلوبهم من كل وصمات الخطية، قانعين بالتقوى الذي للإيمان البسيط دون أن تكون لهم معرفة بأسرار المعرفة الحقيقية؟! كيف تستقيم هذه الفكرة التي تتادي بها ناسبًا المعرفة الروحية لأنقياء القلب وحدثهم؟

١٦ - نسطور: لا يقدر أن يكتشف قيمة ما أكدته إلا الذين يزنون كل كلمة ننطق بها بميزان دقيق. فقد بدأنا الحديث عن أناس ماهرين في النقاش لكنهم عاجزين عن الدخول إلي عمق الكتاب المقدس واكتشاف معانيه الروحية. لأن المعرفة الروحية يطلبها عابدو الله وحدهم، ولا ينالها الذين قيل عنهم: "اسمع هذا أيها الشعب الجاهل والعديم الفهم الذين لهم أعين ولا يبصرون، لهم آذان ولا يسمعون" (إر ٢١: ٥). وأيضًا: "قد هلك شعبي من عدم المعرفة، لأنك أنت رفضت المعرفة، أرفضك أنا حتى لا تكهن لي، ولأنك نسيت شريعة إلهك أنسى أنا أيضًا بنيك" (هو ٦: ٤).

فكما قيل أنه في السيد المسيح تكمن كل كنوز الحكمة والمعرفة (كو ٣: ٢)، فكيف يمكننا أن نقول بأن الذي يحتقر التعرف على السيد المسيح، أو عندما يجده يجدف عليه بشفتيه المدنستين، أو على الأقل يدنس بأفعاله الشريرة إيمانه الذي حسب الكنيسة الجامعة، كيف يقدر أن ينال معرفة روحية؟!

"إن الحكمة لا تلج النفس الساعية بالمكر، ولا تحل في الجسد المسترق للخطيئة، لأن روح التأديب القدوس يهرب من الغش، ويتحول عن الأفكار السفهية، وينهزم إذا حضر الإثم" (حك ١: ٤، ٥).

إذن لا يوجد طريق لبلوغ المعرفة الروحية غير ذلك الطريق الذي وصفه النبي بدقة قائلًا: "ازرعوا

^٣ - النص الإنجيلي "التابعين للكنيسة الجامعة"

لأنفسكم بالبرّ، احصدوا بحسب الصلاح، احرثوا لأنفسكم حرثاً، فإنه وقت لطلب الرب حتى يأتي ويعلمكم البرّ" (هو ١٠: ١٢). يلزمنا أولاً أن نزرع بالبرّ، أي بأفعال البرّ نوسع الكمال العملي. بعد ذلك يجدر بنا أن نحصد رجاء الحياة، أي عن طريق نزع الخطايا الجسدية نجمع ثمار الفضائل الروحية. وهكذا سوف ننجح في إضاءة أنفسنا بنور المعرفة.

يرى المرتل بالمزامير أيضاً أن هذا النظام يلزمنا إتباعه إذ يقول "طوباهم الذين بلا عيب في الطريق، طوباهم الذين يفحصون عن شهادته" (مز ١١٩: ١). فإنه لا يقول في الأول "طوبى للذين يفحصون عن شهادته" وبعد ذلك "طوباهم الذين هم بلا عيب"، إنما يبدأ بالقول "طوباهم الذين هم بلا عيب"، مظهرًا أنه لا يستطيع الإنسان أن يأتي إلى فحص شهادات الله بلباقة ما لم يسلك في طريق المسيح بلا عيب بحياته العملية.

فأولئك الذين تشير إليهم لا يملكون المعرفة التي لا يملكها غير الأتقياء، إنما يقتنون معرفة باطلة يتحدث عنها الرسول قائلاً: "معرضاً عن الكلام الباطل الدنس ومخالفات العلم الكاذب الاسم" (١ تي ٢: ٢٠). هؤلاء الذين يظهرون أنهم ينالون نوعاً ما من المعرفة، أو أولئك الذين يكرسون نفوسهم لقراءة المجلدات المقدسة، واستذكار الكتب المقدسة غير متخلين عن الخطايا الجسدية، هؤلاء قيل عنهم في سفر الأمثال: "خزامة ذهب في فنيضة خنزيرة، المرأة الجميلة العديمة العقل" (أم ١١: ٢٢). لأنه ماذا ينتفع الإنسان إن اقتنى الزينة السماوية التي للبلاغة، والجمال الكثير الثمن الذي للكتاب المقدس، إن كان يفسد هذا الالتصاق بالأفعال الفكرة والأفكار الشريرة، دافعاً إياها في أرض دنسة، أو ينجسها بالتمرغ في قذارة شهواته؟! النتيجة هي أن ما هو حلي بالنسبة للذين يستعملونه استعمالاً حسناً، يصير بالنسبة لهم ليس عاجزاً عن تزينهم فحسب بل قذارة ووحل متزايد، لأنه "لا يجمل الحمد في فم الخاطيء" (ابن سيراخ ١٥: ٩). إذ يقال له بالنبي. "مالك تحدث بفرائضي وتحمل عهدي على فمك؟! (مز ١٦: ٥٠). مثل تلك النفوس لا تملك مخافة الرب بأي شكل من الأشكال إذ قيل: "مخافة الرب أدبٌ حكمة" (أم ١٥: ٣٣). ومع هذا فإنها تحاول أن تستخلص معاني الكتاب المقدس بالتأمل المستمر فيه، ولبلاغة يسألون في سفر الأمثال: "لماذا في يد الجاهل ثمن؟ الاقتناء الحكمة وليس له فهم؟" (أم ١٧: ١٦).

ليس للمعرفة الحقيقية الروحية فصاحة زمنية، تلك التي هي مدنسة بوصمات الخطايا الجسدية، فإننا نعرف أنه أحياناً ينالها بصورة عظيمة من هم بلا فصاحة لسان بل والأميين. هذا يظهر بوضوح في حالة الرسل وكثير من القديسين الذين لهم مظهر الأوراق الكثيرة لكنهم منحون بفعل ثقل ثمار المعرفة الروحية الحقيقية. عن هؤلاء جاء في أعمال الرسل: "فلما رأوا مجاهرة بطرس ويوحنا ووجدوا أنهما إنسانان عديما العلم وعاميان تعجبوا، فعرفوهما أنهما كانا مع يسوع" (أع ٤: ١٣).

فإن كنتم شغوفين لنوال تلك الرائحة الذكية التي لا تزول، يلزمكم أولاً أن تجاهدوا بكل طاقتكم للحصول على نقاوة الطهارة من الرب. لأنه لا يقدر أحد من الذين فيهم محبة الشهوات الجسدية أن ينال المعرفة الروحية، خاصة الذين لا يزالون يترنحون بالزنا...

يعلمنا الرسول الطوباوي ضرورة الحصول على المعرفة الروحية التي تحدثنا عنها، لأنه عندما رغب في تسجيل قائمة فضائله جميعها وصف ترتيبها مظهرًا أيهما الأولى وأيها التالية، وما هي الفضيلة التي تتبع سابقتها وتتولد منها... قائلاً "في ضرباتٍ في سجونٍ في اضطراباتٍ في أتعابٍ في أسهارٍ في أصوامٍ في طهارةٍ في علمٍ في أناةٍ في لطفٍ في الروح القدس في محبةٍ بلا رياءٍ" (٢ كو ٦: ٥، ٦). بهذا الإحصاء يعلمنا بوضوح أن نبدأ بالسهر والصوم إلى الطهارة، ومن الطهارة إلى العلم (المعرفة)، ومن المعرفة إلى طول الأناة، ومن طول

الأناة إلى اللطف، ومن اللطف إلى الروح القدس، ومن الروح القدس إلى مكافأة الحب غير الواهن. بهذا النظام وهذا التدبير، إذ تأتي إلى المعرفة الروحية، لا تكون معرفتك عقيمة مملوءة كسلًا، بل معرفة حية مثمرة. وترتوي بذرة كلمة الخلاص التي تبذرهما في قلوب السامعين بأمطار الروح القدس الغزيرة. لهذا وعد النبي قائلًا: "ثم يعطي مطر زرعك الذي تزرع الأرض به، وخبز غلة الأرض، فيكون دسمًا وسمينًا، وترعى ماشيتك في ذلك اليوم في مرعى واسع" (إش ٣٠: ٢٣).

١٧ - لا تحدث المستهترين بأسرار الكتاب

احذر لئلا تنقاد إلى التعليم وأنت في شبابه، فتضل بالمجد الفارغ، ولا تعلم ما قد تعلمته بالاختبار أكثر مما بالقراءة أولئك الذين قد تدنسوا إلى النهاية (أي المستهترين)، فيتم ما قد أعلنه الرجل الحكيم سليمان القائل: "في أذني جاهل لا تتكلم لأنه يحتقر حكمة كلامك" (أم ٩: ٢٣). و"لا تعطوا القدس للكلاب، ولا تطرحوا دُرُركم قدام الخنازير، لئلا تدوسها بأرجلها وتلتفت فتمزقكم" (مت ٦: ٧). يليق بنا أن نخفي أسرار المعاني الروحية عن البشر الذين هم من هذا النوع حتى نتغنى بحق: "خبأْتُ كلامك في قلبي لكيلا أخطئ إليك" (مز ١١٩: ١١).

يخبرك أحكم رجل، أي سليمان، قائلًا: "أعطوا مسكرًا لهالك وخمرًا لمري النفس، يشرب وينسى فقره ولا يذكر تعبهُ بعدُ" (أم ٣١: ٦-٧). بمعنى أن أولئك الذين قد صاروا في ضيق الحزن والأسى بسبب أعمالهم الماضية، أسندهم بأفراح المعرفة الروحية بوفرة وذلك مثل "خمر تفرح قلب الإنسان لإلماح وجهه أكثر من الزيت، وخبز يسند قلب الإنسان" (مز ١٠٤: ١٥). هؤلاء أصلحهم بالشرب القوي لكلمة الخلاص، لئلا يغرقوا في الحزن المستمر، ويسقطوا في اليأس الذي للموت، لئلا يبتلعوا من الحزن المفرط (٢ كو ٧: ٢). أما الذين لا يزالون في برود واستهتار، غير مضروبين بالحزن القلبي، هؤلاء نقرأ عنهم "كلام الشفتين إنما هو إلى الفقر" (أم ٢٣: ١٤).

هكذا نتجنب بكل حرص ممكن الانتفاخ بالمجد الباطل، وبهذا نصير شركاء مع ذاك الذي يمدحه النبي القائل: "فضته لا يعطيها بالربا" (مز ١٥: ٥). لأن كل من يوزع كلمات الله بدافع محبة مديح الناس... يكون كمن يعطي أمواله بالربا، ويستحق ليس فقط عدم مكافأة بل عقابًا شديدًا..

١٨ - أسباب عقم التعليم الروحي

بالتأكيد هناك سببان يجعلان التعليم الخاص بالأمر الروحية غير فعال:

أ- أن المعلم يمدح أمورًا ليس له خبرة بها، فيعلم سامعيه كلمات جوفاء فارغة.

ب- أن السامع إنسان شرير مملوء بالخطايا، ولا يريد أن يتقبل في قلبه القاسي تعاليم الرجل الروحاني المقدسة والمخلصة. وقد قال النبي عن مثل هذا: "غَطَّ قلب هذا الشعب وثَقُلَ أذنيه... لئلا يبصر بعينيه ويسمع بأذنيه ويفهم بقلبه ويرجع فيُشْفَى" (إش ٦: ١٠).

١٩ - ولكن أحيانًا من أجل كرم الله السخي في عنايته بنا... يهب للإنسان غير المستحق للتعليم نعمة التعليم الروحي من أجل خير الكثيرين..



ملخص المبادئ

✠ المعرفة الروحية السليمة هي التي تُبنى على معرفة اختبارية عملية.

✠ للمعرفة العملية جانبان:

١- التعرف على الخطأ وطرق علاجه.

٢- التعرف على الفضائل والتدريب عليها.

✠ المعرفة الروحية أو التفسير الروحي ينقسم إلى:

١- التفسير التاريخي، وهو يتحدث عن الأمور والوقائع بأسلوب بسيط لا يرمي إلى معنى سري.

٢- التفسير المجازي واستخدام الاستعارة.

٣- التفسير الرمزي (استخدام الرموز).

٤- التفسير التشبيهي، وهو الذي يحوي في التشبيهات أسرارًا سماوية مقدسة عالية.

✠ كل إنسان يفهم الكتاب المقدس قدر قامته الروحية...

✠ كيف نقتني المعرفة الروحية؟

١- التخلص من اهتمامات هذا العالم.

٢- السلوك بلا عيب في طريق وصايا الرب. لأن النفس المتمدنة والتي تصر على التمسك باللذة لا

تقدر أن تتفهم الكتاب المقدس.

✠ أسباب عقم التعليم الروحي:

أ - أن المعلم يتكلم في أمور لم يختبرها.

ب- أن السامع قد أعمى عينيه بالخطية ولا يريد أن يرى الوصية.

✠ ✠ ✠

مناظرات يوحنا كاسيان لمشاهير آباء البرية

١٥

المواهب الإلهية

للأب نسطور

Abbot Nesteros

١ - مقدمة

بعد خدمة المساء جلسنا معًا على الحصر كالعادة لنسمع الحديث الذي وعدنا به. وإذ بقينا صامتين إلى حين احترامًا للشيخ قطع سكوتنا بمثل هذه الكلمات:

تدفعنا مناظرتنا السابقة لتحدث عن "تدبير المواهب الإلهية"، هذا الذي كما تعلمناه من تقاليد الآباء الشيخ أنه ذو ثلاث جوانب:

الجانب الأول: مواهب الشفاء، حيث تلازم الآيات أناس مختارون وأبرار وذلك من أجل استحقاقات قداستهم، وهذا يظهر بوضوح في حالة الرسل وكثير من القديسين، إذ تتم على أيديهم الآيات والعجائب بسلطان الرب القائل "اشفوا مَرْضِي، طهروا برصًا، أقيموا موتى، أخرجوا شياطين، مجّانًا أخذتم مجّانًا أعطوا" (مت ١٠: ٨).

والثاني من أجل تعليم الكنيسة: أو من أجل إيمان الذين أحضروا مرضاهم أو إيمان الذين يشفون أنفسهم. ويتم الشفاء حتى على أيدي الخطاة وغير المستحقين لها. هؤلاء يتحدث عنهم المخلص في الإنجيل قائلًا: "كثيرون سيقولون لي في ذلك اليوم يا رب يا رب، أليس باسمك تنبأنا، وباسمك أخرجنا شياطين، وباسمك صنعنا قوّاتٍ كثيرة؟! فحينئذٍ أصرّح لهم إني لم أعرفكم قط، اذهبوا عني يا فاعلي الإثم" (مت ٢٣: ٧، ٢٢).

من الناحية الأخرى، أحيانًا يعوق عدم إيمان المرضى أو الذين أحضروهم عن إتمام الشفاء... ويقول الإنجيلي "لم يقدر أن يصنع هناك ولا قوةً واحدة غير أنه وضع يديه على مرضى قليلين فشفاهم، وتعجب من عدم إيمانهم" (مر ٦: ٥). ويقول الرب نفسه: "وبرص كثيرون كانوا في إسرائيل... لم يظهر واحد منهم (لعدم إيمانهم) إلا نعمة السرياني" (لو ٢٧: ٤).

الطريقة الثالثة في الشفاء: تتم بخداع الشياطين وحيلهم. وذلك عندما يُستعبد الإنسان لخطايا واضحة، ولكن إذ يندهش الناس من المعجزات التي يصنعها ينظرون إليه كقديس وخادم الله، فيفتقون آثاره ويتمثلون بخطاياهم. وهكذا يفتح باب المكابرة وُثْهان قداسة الدين، وينتفخ ذاك الذي يظن أنه يملك موهبة الشفاء بكبرياء

قلب، ويسقط سقوطاً خطيراً. ويقول الإنجيل: "لأنه سيقوم مسحاء كذبة وأنبياء كذبة ويعطون آيات عظيمة وعجائب حتى يضلوا لو أمكن المختارين أيضاً" (مت ٢٤: ٢٤).

٢ - لا تكرم الإنسان من أجل صنعه المعجزات إنما من أجل محبته

يجدر بنا ألا نندهش قط من الذين يصنعون هذه الأمور، من أجل سلطانهم هذا، إنما بالأحرى يلزمنا أن ننظر إن كانوا كاملين من جهة تخلصهم من كل الخطايا وإصلاح طرقهم... هذه هي المعرفة العملية التي عبر عنها الرسول باسم آخر وهو "الحب". فبسلطان فضل الرسول الحب فوق كل السنة الناس والملائكة، وأكثر من كل الإيمان الأكيد الذي ينقل الجبال، وعن كل معرفة ونبوة، وعن توزيع كل الأموال، وعن مجد الاستشهاد ذاته، لأنه عندما عدد كل أنواع المواهب وقال: "فإنه لواحد يُعطى بالروح كلام حكمة. ولآخر كلام علم بحسب الروح الواحد، ولآخر إيمان بالروح الواحد، ولآخر مواهب الشفاء بالروح الواحد، ولآخر عمل قوآت، ولآخر نبوة، ولآخر تمييز الأرواح، ولآخر أنواع السنة، ولآخر ترجمة السنة" (١ كو ١٢: ٨-١٠)، وإذ كان آخداً في التحدث عن المحبة جعلها قبل كل المواهب، إذ يقول بكلمات قليلة "ولكن جدوا للمواهب الحسنى، وأيضاً أريكم طريقاً أفضل" (١ كو ١٢: ٣١). بهذا يظهر بوضوح أن علو الكمال والتطويب لا يكمن في تنفيذ مثل هذه الأعمال المدهشة بل في نقاوة الحب. وهذا ليس بغير سبب، لأن كل هذه الأمور ستنتهي، وأما الحب فيبقى إلى الأبد.

هكذا فإن هذه الأعمال والعلامات (عمل المعجزات) لم تكن تشغل آباؤنا، إنما بالأحرى عندما كانوا يملكونها بنعمة الروح القدس، لم يريدوا أن يستخدمونها إلا في حالة الضرورة الملحة للغاية والتي لا يمكن فيها الامتناع عنها.

٣ - مثال لصنع المعجزة من أجل رد البسطاء

إننا نذكر الميت الذي أقامه الأب مقاريوس^١ الذي هو أول ساكني صحراء الإسقيط، وذلك عندما ظهرت هرطقة معينة تبعت خطأ إنوميوس^٢ الذي بجدله المملوء خبثاً حاول أن يهدم بساطة الإيمان العام، وقد خدع الكثيرين.

سُئل مقاريوس الطوباوي بواسطة مجموعة من المؤمنين الذين اضطربوا خائفين مما حدث، راجين أن يحرر القطيع البسيط في مصر من مخاطر الكفر. فذهب الأب إليهم، فأراد الهرطوقي أن يستخدم معه الجدل... لكن الطوباوي مقاريوس وضع حداً لثرثرته بواسطة القول الرسولي المختصر قائلاً: "ملكوت الله ليس بكلام بل بقوة" (١ كو ٤: ٢٠). لنذهب إذن إلى المدافن ونستخدم اسم الرب على أول ميت نجده، وكما هو مكتوب أن نظهر إيماننا بأعمالنا (يع ٢: ١٤)، مظهرين البراهين الواضحة للإيمان الحقيقي بشهادة الله، وبهذا يظهر الحق الواضح لا بمناقشة الكلمات إنما بقوة العجائب، فلا يكون في الحكم خداعاً.

^١ مقاريوس المصري وليس الاسكندري، وقد ذكر كل من روفنيوس وسوزومين هذه المعجزة.

^٢ إنوميوس Eunomius (مات عام ٣٩٤): قائد للأريوسية الجديدة ومدافع عنها، كان أسقفاً على Cyzicus في Mysia. من عائلة ريفية كبادوكية ذهب إلى الإسكندرية، وتلمذ على يدي Aetius، وذهب معه إلى كبادوكية حيث حضر مجمع أريوسي عقده Eudoxius. إذ صار أودكسيوس أسقفاً على القسطنطينية سام إنوميوس شماساً عام ٣٦٠م، وقدمه أسقفاً على Cuzicus. وقد أدهشهم ببلاغته الفارقة، لكن حدثت متاعب كثيرة وشعر الكثيرون بفراغه الداخلي وطرده من المدينة. ذهب إلى القسطنطينية وسكن مع Eudoxius. نال شهرة ودُعي تلاميذه الإنوميوسيين. عاد إلى دولته، وفي عام ٣٨٣ حضر مجمعاً في القسطنطينية، وبعد قليل نُفي بواسطة الإمبراطور ثيودوسيوس. عاش حتى عام ٣٩٤ في Halmyris في Moesia بقيصرية كبادوكية، بالقرب من داكورا Dacora. قام بتنفيذ آراء القديسين باسيليوس الكبير وجرغوريوس أسقف نيصص، وأيضاً ابوليناريوس وثيودودور أسقف الميصمة.

عندما سمع الهرطوقي هذا الكلام غلب عليه الأمر وصار في خزي أمام الحاضرين، فتظاهر بالموافقة، ووعد أنه سيأتي في الغد. وفي اليوم التالي إذ اجتمع الكل بشغف عظيم منتظرين في المكان المحدد، راغبين أن يروا المشهد، إذ به يهرب مصر مرتاباً في عدم الإيمان... وإذ انتظر الطوباوي مقاريوس مع الشعب حتى الساعة التاسعة، أخذ الشعب وذهب به إلى المدافن المعينة... (وأقام ميتاً متحدّثاً عن الإيمان السليم ثم نام مرة أخرى).

٤ - معجزة بدافع الحنان والشفقة

ما الحاجة إلى أن أشير إلى أعمال الأب إبراهيم^٣ الذي يُدعى بـ "البسيط" وذلك بسبب بساطة حياته وبراعته. هذا الرجل عندما نزل من البرية إلى مصر لأجل الحصاد في الأحد السابق للصوم الكبير أزعجته امرأة بدموعها وتوسلاتها إذ جاءت إليه بطفلها الذي كاد أن يموت بسبب نقص اللبن، فأعطاه كوب ماء رسم عليه علامة الصليب، ولما شربت منه للحال صار صدرها مملوء باللبن الغزير.

٥ - معجزة من أجل تمجيد اسم الرب يسوع

ذهب نفس الرجل إلى قرية فأحاط به جماعة من الساخرين الذين جاءوا إليه بإنسان فقد قدرته على المشي منذ سنين طويلة وقد انحنى ركبتيه وكان يزحف، وقد ضعفت رجليه من الجلوس الدائم. جربوه قائلين: "أيها الأب إبراهيم إن كنت خادم الله تعيد هذا الإنسان إلى صحته السابقة، فنؤمن أن اسم يسوع الذي تؤمن به ليس باطلاً". للحال استخدم اسم السيد المسيح، وانحنى وأمسك بقدم الرجل ثم جذبها وإذ لمسها صارت الركبة اليابسة المنحنية مستقيمة، وعادت إليه قدماء كما كانتا، ورجع المقعد فرحاً...

٦ - لا تحكم على استحقاق إنسان بمعجزاته

كان هؤلاء الرجال لا ينسبون شيئاً لأنفسهم بسبب قدرتهم على صنع مثل هذه الأعاجيب، معترفين بأنهم لم يصنعوا هذا عن استحقاقاتهم بل بحنو الرب. ورفض الرسل الكرامة البشرية المقدمة لهم بسبب الاندهاش من معجزاتهم قائلين: "ما بالكم تتعجبون من هذا، ولماذا تشخصون إلينا كأننا بقوّتنا أو تقوانا قد جعلنا هذا يمشي؟! (أع ١٢: ٣). ولم يفكر أحد أن يتمجد من أجل المواهب الإلهية والأعاجيب، بل بالأحرى بثمار الأعمال الصالحة، لأنه كما قلنا قبلاً، إن أصحاب الأذهان الفاسدة ينبذون الحق بإخراج الشياطين وصنع المعجزات العظيمة باسم الرب وقد اشتكاهم التلاميذ قائلين: "يا معلّم رأينا واحداً يُخرج الشياطين باسمك فمنعناهُ لأنه ليس يتبع معنا". فأجابهم الرب من جهة الزمن الحاضر قائلًا: "لا تمنعوه لأن من ليس علينا فهو معنا" (لو ١١: ١٩)، ولكن في النهاية إذ يقولون له "يا رب يا رب أليس باسمك تنبأنا وباسمك أخرجنا شياطين، وباسمك صنعنا قوّاتٍ كثيرة"، يشهد أنه سيجيبهم قائلًا: "إني لم أعرفكم قط، اذهبوا عني يا فاعلي الإثم" (مت ٢٣: ٢٢).

لهذا يحذر من وهبهم بنفسه هذا السلطان لصنع المعجزات والأعمال العجيبة بسبب قداستهم ألا ينتقخوا قائلًا: "ولكن لا تفرحوا بهذا أن الأرواح تخضع لكم، بل افرحوا بالحرى أن أسماءكم كُتبت في السموات" (لو ١٠: ٢٠).

٧ - عظمة المواهب تكمن لا في المعجزات بل في الاتضاع

أخيرًا فإن الرب ينبوع كل المعجزات والأعمال القديرة هو بنفسه عندما دعا تلاميذه أن يتعلموا منه،

^٣ يحتمل أن يكون صاحب المناظرة (٢٤).

أظهر لهم بوضوح ما ينبغي عليهم بحق أن يتعلموه بصفة رئيسية: "تعلموا مني"، ليس بصفة رئيسية أن تخرجوا الشياطين بقوة سماوية، ولا أن تطهروا البرص، ولا أن تشفوا العمي، ولا أن تقيموا الموتى، فإنه هذه الأمور أفعّلها خلال خدامي، لكن لا يمكن بهذه الأمور أن يكون الإنسان ممدوحًا من الله، ولا يقدر أن يكون بها تلميذًا أو خادمًا له... وإنما يقول: "تعلموا مني، لأني وديع ومتواضع القلب" (مت ٢٩: ١١)، فإن هذا ممكن لدي البشر عامة. إذ يمكنهم أن يتعلموه ويختبروه. أما صنع المعجزات والعلامات فهذا ليس بضروري على الدوام، ولا هو مفيد للجميع، ولا يوهب للكل.

الاتضاع هو سيد كل الفضائل، والأساس الأكيد للبناء السماوي، وعطية المخلص الخاصة السامية. فالإنسان يقدر أن يتم المعجزات التي صنعها السيد المسيح "باسم الرب" من غير خطر السقوط في الكبرياء، حينما يقتفي أثر الرب الوديع، لا في سمو معجزاته بل في فضيلتي الصبر والاتضاع. وأما الذي يهدف إلى أن يأمر الأرواح النجسة أو ينال مواهب الشفاء، أو إظهار بعض معجزات الباهرة أمام الشعب، فإنه حتى وإن أظهرها تحت اسم المسيح، إلا أنه بعيد عن السيد المسيح، لأنه بكبرياء قلبه لا يتبع معلمه المتضع.

في عودته إلى الآب، تهيأ هكذا ليتحدث بإرادته تاركًا لتلاميذه "وصية جديدة" وهي: "أن تحبوا بعضكم بعضًا، كما أحببتكم أنا تحبون أنتم أيضًا بعضكم بعضًا"، وللحال أضاف: "بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي إن كان لكم حبّ بعض لبعض" (يو ١٣: ٣٤، ٣٥). إنه لم يقل "إن كان لكم أن تصنعوا علامات ومعجزات"، بل "إن كان لكم حبّ بعضًا لبعض". هذه الوصية بالتأكيد لا يقدر أن يحفظها إلا الإنسان الوديع والمتواضع.

لذلك فإن آباءنا السابقين لم يحسبوا رهبان صالحين أو متحررين من خطأ المجد الباطل لأنهم يخرجون الشياطين، ولا يتباهون بزهو أمام الجماهير المعجبة من النعمة التي نالوها أو ادعوا، وهكذا فإن من يصنع شيئًا من هذه الأمور (العجيبة) في حضورنا، يلزم أن نمدحه ليس إعجابًا بالمعجزات، بل لجمال سيرته، ولا نطلب أن تخضع لنا الشياطين بل بالأحرى أن نحمل ملامح الحب التي يصفها الرسول.

٨ - إخراج الخطأ من حياة الإنسان أعظم من إخراج الشياطين من الآخرين

في الحقيقة إنها لمعجزة أعظم أن يقتلع الإنسان من جسده دوافع الدنس عن أن يطرد الشياطين من جسد غيره. وهي علامة أعظم أن يقاوم شهوات الغضب المفترسة لفضيلة الصبر عن أن يأمر قوات الشر. وأمر أعظم وأسمى أن ينتزع مخالف الظلمة المهلكة من قلبه عن أن يطرد المرض من غيره وينزع الحمى من بدنه. أخيرًا فإنه بطرق كثيرة، يُحسب شفاء النفس فضيلة عظمي أكثر سموًا من شفاء جسد الغير. كما أن النفس أعظم من الجسد، هكذا فإن إنقاذها أهم. وكما أن طبيعتها أثنى وأقيم، فإن هلاكها يكون أخطر.

٩ - كيف تكون الحياة المستقيمة أفضل من صنع المعجزات؟

قيل للرسل الطوباويين بخصوص تلك الأشفية: "ولكن لا تفرحوا بهذا أن الأرواح تخضع لكم، بل افرحوا بالحري أن أسماءكم كُتبت في السموات" (لو ١٠: ٢٠). لأن هذا لا يحدث بقوتهم إنما بقوة الاسم الذي يستخدمونه. لذلك حذرهم لئلا ينسبوا لأنفسهم أي تطويب أو مجد من هذه الجهة، إذ هي تتم بسلطان الله وقدرته. أما النقاوة الداخلية التي لحياتهم وقلوبهم، فبسببها يُوهب لهم أن تُكتب أسماءهم في السماء...



مناظرات يوحنا كاسيان مع مشاهير آباء البرية

١٦

الصدّاقة

للأب يوسف

١ - مقدمة

الطوباوي يوسف الذي نقدم لكم الآن تعاليمه ووصاياه هو أحد الثلاثة الذين أشرنا إليكم عنهم في المناظرة الأولى^١، وهو ينتسب إلى عائلة عريقة جدًا. وكان رئيسًا لمدينة Thmuis في مصر، وقد تعلم فصاحة اليونان وبلاغة المصريين، حتى إنه كان يحدثنا بطلاقه بتثير دهشتنا، الأمر الذي يجهله المصريون، وما كان يحدثنا عن طريق مترجم، إنما يحدثنا بلغتنا مباشرة.

إذ رأنا شغوفين للتعليم منه، سألنا أولاً عما إذا كنا أخوين، ولما سمع منا أننا مرتبطان بوحدة روحية لا جسدية، وأننا منذ بداية زهدنا العالم ونحن مرتبطان برباط لا ينفصم، كذلك في أسفارنا التي نقوم بها من أجل العبادة الروحية، وفي سلوكنا في الدير أيضًا، عندئذ بدأ الأب المناظرته كما يلي:

٢ - أنواع الصداقات

توجد أنواع كثيرة من الصداقات والمصاحبات بين البشر، بطرق مختلفة من جهة رباطات الحب. فالبعض يدخلون في تكوين علاقة تعارف يليها علاقة صداقة خلال معرفة سابقة. وآخرون يرتبطون برباط حب بعد الدخول في صفقات أو اتفاقات تجارية. والبعض يتحدثون معًا في صداقة بسبب التشابه ووحدة العمل أو العلم أو الفن أو الدراسة، الأمر الذي يجعل حتى النفوس الشرسة تشفق على بعضها البعض. فنرى الذين في الغابات والجال يتلذذون باللصوصية ويشغفون بسفك الدم، يحتضنون شركاءهم في الجرائم ويهتمون ببعضهم البعض.

لكن هناك نوع آخر من الحب، فيه يكون الاتحاد نابعا عن دوافع طبيعية وبسبب رابطة الدم، مثل الرباط الذي بين أفراد القبيلة الواحدة، أو الرباط بالزوجات والأبناء والإخوة والأبناء، إذ لهؤلاء تمييز خاص عند الإنسان عن غيرهم. وهذا الأمر لا نجده في البشرية فقط، بل وبين كل الطيور والحيوانات. فعند الخطر تدافع

^١ مناظرة ١١ أو الأولى من الكتاب الثاني.

(الطيور والحيوانات) عن صغارها بدافع طبيعي، حتى إنهم لا يخشون التعرض للخطر والموت من أجلها. حقاً حتى هذه الأنواع من الحيوانات والحيات والطيور التي تعزل بعيداً عن غيرها بسبب شرستها المهلكة أو سمها المميت مثل الأفاعي والثور الوحشي والنسور، بالرغم من إنه حتى نظراتها يقال عنها إنها خطيرة على كل إنسان، لكنها لا تضر بعضها البعض بل يوجد فيما بينها سلام ومشاعر صداقة بسبب وحدة أصلهم.

غير أن هذه الأنواع كلها من الحب التي نتحدث عنها هي عامة، توجد بين الصالحين والأشرار، وبين الحيوانات المفترسة والثعابين، وهي لا تبقى إلى الأبد! غالباً ما تقصد وحدتهم وتتكرر بسبب البعد المكاني، أو بسبب عامل النسيان بحكم الزمن، أو بسبب المضايقات في التعامل والاحتداد في الكلام. فإذا تقوم هذه الأنواع على أساس النفع الخاص أو الرغبات أو بسبب القرابة أو التشابه في العمل، لذلك متى انتهت هذه الظروف بطلت الألفة.

٣- كيف يمكن للصداقة أن تبقى على الدوام؟

بين هذه الأنواع جميعها يوجد نوع واحد من الحب لا ينحل، حيث يقوم فيه الاتحاد لا على التعارف أو بغية نوال شفقة أو ربح أو بسبب نوع من العلاقات التجارية أو بحكم ضرورة الطبيعة، إنما ببساطة لأجل التشابه في الفضيلة. هذا الحب، أقول، لا تهزه الظروف، ولا يؤثر فيه أو يفسده عامل الزمن أو المكان، بل ولا يقدر الموت أن ينزعه. هذا هو الحب الحقيقي الذي لا ينكسر، والذي لا تنفصم رباطاته بسبب اختلاف الميول أو أي اضطراب من جهة الرغبات المتضاربة.

لكننا نعرف كثيرين نُزع عنهم هدفهم، هؤلاء الذين ارتبطوا معاً برباط الزمالة خارجاً عن حبههم للسيد المسيح الملتهب، فلم يقدروا أن يبقوا على هذه الزمالة على الدوام دون أن تنكسر، لأنهم وإن اعتمدوا على بداية حسنة لصداقتهم، لكنهم لم يثبتوا بنفس الغيرة في غرضهم الذي بدأوا به. لهذا فإن حبههم يكون إلى حين، لأنه لم يُدعم بصلاح مشترك مشابه، بل يمارسه طرف واحد فقط بشجاعة لا تكل، بينما ينكسر بسبب دناءة الطرف الثاني. لأن ضعفات الباريين يحتملها الأقوياء بصبر، أما الضعفاء فلا يحتملون أنفسهم، لأنهم يزرعون في داخلهم أسباب الاضطراب التي لا تسمح لهم بالراحة. وهم في هذا يشبهون الذين يعانون من مرض جسدي، فينسبون تعب معدتهم وتوعك صحتهم إلى إهمال الطباخين ومساعدتهم الذين يخدمونهم، أي الذين هم في صحة جيدة، دون أن يدركوا أن السبب هو ضعفهم هم.

لذلك كما سبق أن قلت إن اتحاد الصداقة الأكيد الذي لا ينحل هو الذي يكمن بين المتشابهين في الصلاح وحده... بهذا يكون الحب غير معشوش بين من لهم هدف واحد وفكر واحد ليشاءوا أو يرفضوا نفس الأمور معاً.

إن أردتم أن تحفظوا هذا الحب غير المنكسر يجدر بكم أن تكونوا حريصين أولاً أن تتخلصوا من أخطائكم وتميتوا شهواتكم بغيرة مشتركة وهدف متحد، مجاهدين في تحقيق ما يُهيج النبي على وجه الخصوص القائل: "هوذا ما أحسن وما أجمل أن يسكن الإخوة معاً" (مز ١٣٣: ١). لأنه أي شيء يُظهر وحدة الروح مثل السكنى معاً في مكان واحد؟! غير أن مختلفي الشخصية والهدف عبثاً يحاولون السكنى معاً في سكنٍ واحدٍ، ولا يعوق البعد المكاني الوحدة بين المتأسسين على صلاحٍ متساوٍ. لأن الاتحاد يتم بالله وليس بالمكان... ولا يمكن للسلام الثابت أن يبقى متى اختلفت الإرادة بين الناس.

٤ - سؤال

جرمانايوس: هل لو رأي إنسان أن أمراً ما - حسب فكر الله - مفيداً ونافعاً، يتممه حتى ولو كان ضد إرادة الطرف الثاني أم يترك الأمر؟!

٥ - الأب يوسف

قلنا أن الصداقة التامة الكاملة لا يمكن أن تبقى إلا بين الكاملين والمتشابهين في الصلاح، الذين بسبب تشابه الفكر واشتراكهم في الهدف لا يختلفوا قط في أي أمر من الأمور الخاصة بتقدمهم في الحياة الروحية مهما كان السبب، أما إذا وجدت بينهم نزاعات فهذا دليل على عدم استيفائهم الشرط السابق ذكره. وحيث إنه لا يقدر أحد أن ينطلق إلى الكمال ما لم يبدأ من الأساس، وسؤالك ليس عن عظمة هذا الاتحاد إنما كيف يُمكن اقتنائه، لهذا أرى إنه يحسن بي أن أشرح لكم، في كلمات قليلة، القانون الذي يحكمه، والطريق الذي ينبغي أن توجه إليه خطواتك حتى يمكنك بسهولة أن تضمن بركة الصبر والسلام.

٦ - الوسائل التي تحفظ الاتحاد

أولاً: الأساس الأول للصداقة الحقيقية يكمن في الازدراء بالأمور الزمنية واحتقار كل ما نملكه لأنه من الخطأ تماماً أن نهتم بأباطيل العالم وكل الأمور المزدرة أكثر مما نهتم بالأمور الأعظم ألا وهي محبة القريب...
ثانياً: يجدر بكل إنسان أن يقطع رغباته، فلا يظن في نفسه إنه حكيم مُختبر، فلا يفضل آرائه عن آراء قريبه.

ثالثاً: يلزمه أيضاً أن يعرف أن كل شيء، حتى ما يبدو مفيداً وضرورياً، يحتل المركز الثاني بعد بركة الحب والسلام.

رابعاً: عليه أن يتحقق إنه لا يجوز له أن يغضب قط بسبب حسن أو رديء.

خامساً: يجدر به أن يحاول شفاء كل غضبٍ عند أخيه تجاهه، ولو كان بغير سبب، بنفس الطريقة التي بها يرغب في أن يتخلص هو من غضبه ضد أخيه. وليعلم أن غضب أخيه ضده هو أمر شرير مثل غضبه ضد أخيه، فيبذل كل طاقته أن يستبعد عن ذهن أخيه الغضب تماماً.

أخيراً: الأمر الذي بلا شك حاسم ويجب عليه أن يتحققه كل يوم إنه راحل عن هذا العالم. وبهذا ليس فقط لا يسمح للغضب أن يبقى في قلبه، بل ويضبط كل حركات الشهوات والخطايا من كل الصنوف.

فمن يقتنى هذه الأمور، لا يسمح للغضب وعدم الاتفاق أن يوجد ولا يجد سبباً لهما. أما من يفشل في هذه الأمور، فإنه وإن كان غيوراً بالحب لكنه يتشرب سم الانفعال ضد الأصدقاء شيئاً فشيئاً، وإذا تحدثت منازعات متكررة يبرد الحب فيه شيئاً فشيئاً وفي وقت أو آخر، يفارق الحب قلوب المحبين، إلى أن يُنتزع تماماً.

لأنه من كان في الطريق السابق شرحه كيف يمكنه أن يختلف مع صديقه، مادام لا يطلب لنفسه شيئاً؟! بهذا يبتدئ بداية أي نزاع بترّاً تاماً (ذلك الذي غالباً ما يحدث بسبب أمور تافهة غير ضرورية بالمرّة)، إذ يلاحظ ما لفائدته كما جاء في سفر الأعمال: "وكان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة. ولم يكن أحد يقول أن شيئاً من أمواله له بل كان عندهم كل شيءٍ مشتركاً" (أع: ٤: ٣٢).

كيف إذن يمكن أن تحدث أي بذار للنقاش (المثير) ممن لا يطلب ما لنفسه بل ما لقريبه؟! بهذا يصير

تابعًا لربه وسيد القائل عن نفسه: "لأنني قد نزلت من السماء ليس لأعمل مشيئتي بل مشيئة الذي أرسلني" (يو ٣٨: ٦). كيف يمكن أن يثير نزاعًا لسبب ما، ذاك الذي صمم أن يأخذ برأي قريبه وليس حسب إرادته الذاتية، محققًا بقلبٍ ورعٍ متضعٍ ما جاء في الإنجيل: "بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي إن كان لكم حبٌ بعض لبعض" (يو ١٣: ٣٥)؟ لأنه بهذا - كما بعلامة خاصة - أراد السيد المسيح أن يميز قطيعه في هذا العالم، فارزًا إياهم عن غيرهم، مختومين بالختم الذي نتكلم عنه! على أي أساس يقبل أية ضغينة تتسرب إلى نفسه أو تبقى في نفس أخيه؟! فإن قراره ثابت وهو أنه لا يمكن أن يترك أساسًا للغضب لأنه أمر خطير وخطيئ، وإذا ما كان أخوه غاضبًا معه لا يقدر أن يصلي كما لو كان نفسه غاضبًا، حافظًا كلمات ربنا ومخلصنا يسوع في قلبه باتضاع: "فإن قدّمتُ قُربانك إلى المذبح، وهناك تذكرت أن لأخيك شيئًا عليك، فأترك هناك قُربانك قُدّام المذبح واذهب أولاً اصطالح مع أخيك، وحينئذٍ تعال وقدّم قُربانك" (مت ٥: ٢٤، ٢٣).

باطلا تقررّون ألا تغضبوا وأنتم تظنون أنكم بهذا تتفزون الوصية القائلة: "اغضبوا ولا تخطئوا، لا تغرب الشمس على غيظكم"، وأما أنا فأقول لكم إن كل من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم" (أف ٤: ٢٦، مت ٥: ٢٢)، إذا كنتم تهملون غضب الآخرين نحوكم بقلب عنيد ولا تبالون بتلطيفه بنوكم. لأنكم بهذا تعاقبون بسبب تعديكم الوصية. الذي قال ألا تغضب على الغير، قال أيضًا ألا تتجاهل غضب الغير عليك، وكلاهما وصيتان متشابهتان في نظر الله "الذي يريد أن جميع الناس يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون" (١ تي ٢: ٤)، سواء بكونك تهلك نفسك أو نفس أخيك. فموت الواحد مشابه لموت الآخر في نظر الله، وفي نفس الوقت كلاهما ربح متساوٍ في نظر (الشيطان) الذي يبتهج بكل دمار...

أخيرًا كيف يمكنك أن تستبقى أي إغاضة مع أخيك يا من تتحقق كل يوم أنك راحل عن هذا العالم؟!

٧ - عظمة الحب وخطورة الغضب

لا يوجد شيء يفوق الحب، وبالتالي لا يوجد شيء أدنى من الغضب. يلزمنا ألا نهتم بشيء مهما بدى نافعا وضروريًا حتى نتجنب الغضب الذي يسبب اضطرابًا، ولا نرتبك بالأمور حتى التي نحسبها ليست كمالية حتى نحفظ هدوء الحب والسلام بغير نقص، لأنه يلزمنا أن ندرك أن لا شيء مهلك مثل الغضب والتكدر، وليس شيء مفيدًا مثل الحب.

٨ - كيف ينشأ النزاع بين الروحانيين؟

كما أن عدونا (إبليس) يشتت الإخوة الذين لا يزالون ضعفاء وجسدانيين خلال انفجار غضب مفاجئ بسبب أمور تافهة زمنية، يلقي بذار الخلاف حتى بين الروحانيين على أساس اختلاف الأفكار، مما يؤدي إلى نزاع واختلاف في الكلام. هذا يذمه الرسول، إذ يبذره عدونا الحقود الخبيث بين الإخوة الذين لهم فكر واحد، وذلك كقول سليمان الحكيم "البغضة تهيج خصومات والمحبة تستر كل الذنوب" (القديس أمبروسيوس ١٠: ١٢).

٩ - كيف نتخلص من أسباب النزاع بين الروحانيين؟

لكي نحفظ الحب باقياً بغير انكسار، لا يكفي نزع الأساس الأول لعدم الاتفاق والذي يظهر بصورة عامة بسبب محبة الأمور الأرضية التافهة مزدريين بكل الأمور الجسدية، واهيين اخوتنا احتياجاتهم المطلوبة بلا حدود؛ وإنما يجب أن نقطع بنفس الطريقة الأساس الثاني لعدم الاتفاق الذي ينشأ مستترًا تحت مشاعر الروحانية، ونقتنى أيضًا الاتضاع في كل شيء والإرادة المتفقة معًا.

١٠- اختبار عملي

إنني أذكر، أنني في صبوتي اقترحت علي أفكارني أن ألصق بشريك معي وكانت أفكارنا من جهة التداريب الروحية ودراسة الكتاب المقدسة تركنا (نحن الاثنين)... لكن إذ اجتمعنا معًا وبدأنا نظهر أفكارنا في نقاش عام، ظهر بعضها باتفاق عام إنها مضرّة، مع أنها كانت تبدو قبلاً مضيئة كالنور وذلك بخداع شيطاني حتى يسبب نزاعاً بيننا بسهولة... بهذا نزع عنا كل مشاجرة، وقد سن لنا الآباء الشيوخ ما هو في قوة القانون: إنه لا يجوز لأحدنا أن يعتمد على حكمه الخاص متجاهلاً رأي أخيه، وذلك إن أردنا التحفظ من خداع مكر الشيطان.

١١- من يعتمد على رأيه الشخصي لا يسلم من خداع الشيطان

لقد تأكد قول الرسول حقيقة "الشيطان نفسه يغيّر شكله إلى شبه ملاك نور" (٢كو ١١: ١٤)، إذ يبيث خداع أفكار الظلمة المشوشة بوفرة بدلاً من نور المعرفة الحقيقية.

فإن لم نتقبل الأفكار بقلب متواضع وديع، ونأخذ في اعتبارنا رأي المختبرين والآباء الشيوخ، فاحصين إياها حسب حكمهم فننبذها أو نقبلها، بالتأكيد نقبل في أفكارنا ملاك الظلمة بدل ملاك النور ونصاب بخراب خطير.

من يعتمد على حكمه الخاص يصيبه ضرر لا يمكن تجنبه ما لم يصبر محباً وتابعاً للاتضاع الحقيقي، متمماً بانسحاق قلب ما يصلّي من أجله الرسول كأمر رئيسي قائلاً: "فإن كان وعظ ما في المسيح، إن كانت تسليّة ما للمحبّة، إن كانت شركة ما في الروح، إن كانت أحشاء ورافة فتّمموا فرحى حتى تفتكروا فكرًا واحدًا، ولكم محبة واحدة، بنفسٍ واحدة، مفتكرين شيئاً واحداً لا شيئاً بتحزّب أو بعُجب، بل بتواضع، حاسبين بعضكم البعض أفضل من أنفسهم"، "وآدين بعضكم بعضاً بالمحبّة الأخويّة. مقدّمين بعضكم بعضاً في الكرامة" (في ١: ٢-٣، رو ١٢: ١٠)، حتى يهتم كل واحد بالأكثر بمعرفة أخيه وقداسته، ويرى أن النصيب الأفضل للتمييز الحقيقي هو أن يهتم الإنسان بحكم الغير وليس بحكمه هو.

١٢- لا تحتقر الأصاغر أثناء المناقشات

يحدث أحياناً بتصورٍ شيطاني أو نتيجة خطأ بشري أن يخطئ إنسان حاذق في الفهم ومتعلم. بينما يتقبل من هو قليل الفهم والأقل في الاستحقاق أموراً بصورة أكثر صدقاً وبطريقة أفضل. لذا لا يليق بإنسان، مهما كان متعلماً، أن يندفع في مجده الباطل، ظاناً أنه غير محتاج للمناظرة مع غيره. فإنه وإن لم يخدعه الشيطان فيعمي حكمه إلا أنه لا يقدر أن يتجنب شباك الكبرياء والغرور المهلكة. لأنه من يقدر أن يدعى لنفسه هذا من غير أن يصيبه خطر عظيم، بينما نجد الإناء المختار نفسه، الذي كما أكد أن فيه يتكلم المسيح نفسه، يعلن أنه في بساطة ذهب إلى أورشليم من أجل هذا السبب، مناقشاً مع زملائه الرسل بخصوص الإنجيل الذي بشر به للأمم حسب إعلان الرب له ومعونته؟!

بهذا يظهر إنه يلزمنا أن نحفظ الوفاق والاتحاد ليس فقط من أجل هذه الوصايا (السابق ذكرها)، وإنما لئلا نخدع بحيل الشيطان ونسقط في شبابه المنصوبة لنا.

١٣- الحب ليس فقط صفة لله إنما هو الله

سامية هي فضيلة الحب المبجلة، إذ يعلن الرسول الطوباوي يوحنا أنها ليس فقط تُنسب لله بل هي الله:

"الله محبّه ومن يثبت في المحبة يثبت في الله والله فيه" (١يو٤:١٦).

هكذا نرى المحبة إلهية، حتى أننا نجد ما قاله الرسول حق حي وواضح فينا، "لأن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المعطى لنا" (رو٥:٥). وكأنه يقول أن الله قد انسكب في قلوبنا بالروح القدس الساكن فينا، هذا الذي إذ لا نعرف ما نصلي لأجله "يعين ضعفاتنا... ولكن الروح نفسه يشفع فينا بأنّاتٍ لا يُنطق بها، ولكن الذي يفحص القلوب يعلم ما هو اهتمام الروح، لأنه بحسب مشيئة الله يشفع في القديسين" (رو٨:٢٦، ٢٧).

١٤ - درجات الحب

يمكن إظهار الحب الذي يتكلم عنه الرسول قائلاً: "فإذا حسبنا لنا فرصة فلنعمل الخير للجميع ولا سيما لأهل الإيمان" (غلا١٠:١٠). إننا نحب آباءنا بطريقة، وزوجاتنا بطريقة، وأولادنا بطريقة ثالثة. فهناك فارق شاسع بين مشاعر المودة وبعضها البعض. بل نجد أن حب الآباء نحو أولادهم ليس متساوٍ على الدوام. ويظهر ذلك في حالة الأب^٢ يعقوب، الذي كان أباً لأثني عشر ابنًا، أحبهم جميعًا بحب أبوي، غير أن مودته لـ يوسف كانت أعمق كما جاء في الكتاب المقدس: "فلما رأي أخوته أن أباهم أحبه أكثر من جميع أخوته أبغضوه.." (تك٤:٣٧). واضح أن ذلك الرجل لم يفشل في تقديم حب عظيم لبقيّة أولاده، إنما مودته التصقت بالأكثر بهذا الابن في حنو ولطف أعظم، وذلك بكونه رمزًا للرب.

هذا الأمر نجده أيضًا بوضوح بالنسبة ليوحنا الإنجيلي الذي يُقال عنه: "كان يسوع يحبه" (يو١٣:٢٣). فبالرغم من أن الرب قد احتضن الإحدى عشر الآخرين الذين اختارهم بنفس الطريقة التي اختاره بها، وقد وهبهم حبه الخاص كما جاء بشهادة الإنجيل: "وصية جديدة أنا أعطيتكم أن تحبوا بعضكم بعضًا، كما أحببتكم أنا تحبوا أنتم أيضًا بعضكم بعضًا" (يو١٣:٣٤). "إذ كان قد أحب خاصته الذين في العالم أحبهم إلى المنتهى" (يو١٣:١٣)، فحبه لشخص معين بطريقة خاصة لا يعني عدم محبته لبقيّة التلاميذ، وإنما أظهر حبًا تامًا غيّر اتجاه هذا الواحد، بسبب امتيازهِ بالبتولية ونقاوة جسده التي وهبت له. لهذا رعاها بمعاملة استثنائية كما لو كان له سمو خاص، ليس لأن هناك كراهية تجاه الآخرين، بل لوجود نعمة غنية أوفر للحب المميز.

نجد أيضًا شيئًا من هذا القبيل في شخصية العروس في نشيد الأناشيد، حيث تقول: "علّمهُ فوقى محبة" (نش٤:٢).

١٥ - عدم تهدة الضمير بالابتعاد عن يغضبون عليهم

إننا نعلم - وليتنا ما كنا نعلم - أن بعض الإخوة قساة وعنيدون. هؤلاء إذ يعرفون أن مشاعرهم قد ثارت ضد إخوتهم، أو أن إخوتهم ثارت مشاعرهم ضدهم، يعالجون هذا التكدير الذهني بالابتعاد عنهم، مع أنه كان يلزم أن يلاطفوهم ويتحدثون معهم باتضاع... وإذ يظنون إنهم يلطفون الأفكار المرة التي ثارت في قلوبهم، يزيّدونها خلال هذا السلوك المملوء سفاهة، الأمر الذي كان يمكنهم التخلص منه للحال لو أظهروا اهتمامًا أكثر بإخوتهم، واتضاعًا أمامهم. لأن التعبير عن الأسف المناسب في حينه يشفي مشاعرهم ويلطف قلوب إخوتهم.

إنهم بهذا السلوك ينعشون خطية الدناءة، ويتممون خطية الكبرياء بدلاً من سحق كل بواعث النزاع،

^٢ الترجمة الحرفية "البطريق" إذ تعتبر الكنيسة الآباء الأولين إبراهيم واسحق ويعقوب بطارقة.

متجاهلين وصية الرب القائل: "وأما أنا فأقول لكم أن كل من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم. ومن قال لأخيه رفاً يكون مستوجب المجمع. ومن قال يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم. فإن قدّمت قُربانك إلى المذبح وهناك تذكرت أن لأخيك شيئاً عليك فأترك هناك قُربانك قُدّام المذبح واذهب أولاً أصطلح مع أخيك، وحينئذٍ تعال وقدّم قُربانك" (مت ٢٢: ٢٤-٢٥).

١٦ - لا تتجاهل تذكر أخيك تجاهك

هكذا ربنا غيور جداً ألا نتجاهل تذكر الغير علينا، حتى إنه لا يقبل تقدمتنا متى كان أخونا لديه شيء ضدنا، بمعنى إنه لا يسمح لنا أن نقدم له صلواتنا ما لم يتم إصلاح سريع بنزع التكدر الذي في ذهن أخينا تجاهنا، سواء كان على حق أو باطلاً.

لأن الرب لم يقل: "أن لأخيك أساس سليم لشكواه ضدك"، بل قال: "وهناك تذكرت أن لأخيك شيئاً عليك فأترك هناك قُربانك قُدّام المذبح واذهب أولاً أصطلح مع أخيك"، بمعنى إنه إن كان يوجد شيء - مهما كان صغيراً أو تافهًا - يغضب أخيك عليك، وهذا تذكرته فجأة، يلزمك ألا تقدم قربان صلواتك الروحي إلا بإصلاح مملوء حنوًا، بنزع الكدر من قلب أخيك مهما كان سببه.

فإن كانت كلمات الإنجيل تأمرنا أن نهدي أولئك الذين هم غاضبين علينا لأسباب قديمة ولأمور تافهة... فماذا يكون شقاؤنا نحن الذين بنفاق عنيد نهمل الغضب القائم حاليًا، وقائم بسبب أمور خطيرة، ويرجع سببه إلى أخطائنا نحن؟ لكن إذ نحن متعجرفون بكبرياء الشيطان نتخرج من أن نتواضع، متذكرين أننا نحن السبب في تكدر أخينا. هكذا بروح متمردة نستعين بالخضوع لوصايا الرب، متذمرين عليها طائنين أنها مستحيلة التنفيذ. وإذ نضع في ذهننا أن الرب أوصانا بأمور مستحيلة غير مناسبة نصير كقول الرسول لسنا عاملين بالناموس بل ديانين له (يع ٤: ١١).

١٧ - احتمل أخاك كما تحتل أهل العالم

يلزمنا أن ننتحب هذا الأمر بمرارة، وهو أن بعض الإخوة عندما يغضب عليهم أحد وينطق ضدهم بكلمات مخزية، فإذ يستسمحهم... يقولون للحال إنه لو كان إنسانًا وثنيًا أو يحيا حياة عالمية لاحتملوه، كما لو كان الاحتمال من جانبنا يكون بالنسبة لغير المؤمنين والمجدفين فقط ولا نحتمل الجميع. أو كأن الغضب يحسب شريرًا متى كان ضد إنسان وثني، وصالحًا لو كان ضد أحد الإخوة (المؤمنين)، مع أن الغضب المملوء عنادًا يجلب بالتأكيد ضررًا للنفس الغضوبية أيا كان الشخص الذي يغضب عليه.

يا له من عناد مرعب! نعم وفيه جمود! لأنه بسبب غباوة أصحاب الأذهان البليدة لا يقدر على تمييز تلك الكلمات، إذ لم يقل: "كل من يغضب على غريب باطلاً يكون مستوجب الحكم"، بل قال: "كل من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم".

هكذا إن كنا نرى إنه بحسب قانون الحق أن كل إنسان هو أخ، إلا أنه في هذه العبارة تحمل كلمة "أخ" معنى الإنسان المؤمن والشريك معه في طريق الحياة أكثر مما تعنيها بخصوص الوثني.

١٨ - لا تثر أخاك بالصمت

لكن ما هذا؟! فإننا نظن أحيانًا أننا صابرون، وذلك لأنه عندما نُثار نحتقر الغير بعدم إجابتنا عليه. بصمتنا الكئيب أو خلال حركات السخرية وبالإيماءات نهزأ بإخوتنا الغاضبين، حتى نشيرهم بنظراتنا الصامتة

أكثر مما لو كنا قد غضبنا معهم ثائرين. في هذا نظن أننا غير مخطئين أمام الله لأننا لم نسمح لكلمة أن تخرج من شفاهنا، هذه التي توصمنا بوصمة العار أمام الناس وتديننا، كأن الله لا يهتم إلا بالكلمات غير مبالٍ بإرادتنا الخاطئة. وكأنه ينظر إلى تصرفنا الخارجي لعمل الخطية لا إلى رغبتنا ونيتنا المخطئتين. أو كأننا نُسأل في يوم الدينونة فقط على ما نفعله دون أن نُسأل عن نية الفعل...

في هذا كأنه يكفي للإنسان أن يحتج بأنه لم يدفع الأعمى بيديه ليسقط، مع أن الجريمة متساوية حينما يزدري بإنقاذه متى رآه في طريقه للسقوط في هوة وفي إمكانه أن يرشده ولم يفعل! أو كأن المجرم هو من يُمسك مرتكباً الجريمة، ولا يُحاسب من دبر الجريمة وخططها!

إذن باطلاً لنجم ألسنتنا إن كان صممتا يقوم بنفس الدور الذي يقوم به الصراخ. وبواسطة إيماءاتنا الكاذبة نجعل ذاك الذي نشفيه في حالة أكثر غضباً، بينما يمتدحنا الناس من أجل هذا... وبهذا يكون الإنسان أكثر إجراماً، لأنه يحاول أن يمجد نفسه على حساب سقوط أخيه...

غالباً ما يثير الصبر المتنصع الغضب بأكثر حذاقة مما يثيره الكلام. وبالصمت المؤذي يزيد شتائم الغير بطريقة أكثر مما يثيرها الكلام، وجراحات الأعداء تُحتمل بأكثر سهولة من مDAHنة الساخرين المملوءة مكرًا، والتي قيل عنها حسناً بالنبي: "ليأسر رؤساءه حسب إرادته" (مز ١٠٥: ٢٢). وفي موضع آخر قيل: "كلام النمام مثل لقم حلوة فينزل إلى مخادع البطن" (أم ٢٦: ٢٢). هنا ينطبق القول: "لسانهم سهم قتال يتكلم بالغش. بفمه يكلم صاحبه بسلام وفي قلبه يضع له كميناً" (إر ٩: ٨). وعلى أي الأحوال هو يخدع الغير إذ "الرجل الذي يطري صاحبه ببسط شبكة لرجليه" (أم ٢٩: ٥).

أخيراً عندما جاءت جموع كثيرة بسيوف وعصي للقبض على الرب، لم يكن أحد من المجرمين في حق واهب الحياة أكثر قسوة من ذاك الذي تقدم باحترام مملوء خداعاً وتكريماً فاسداً مقدماً قبله حب غاش، هذا الذي قال له الرب: "يا يهوذا أبغيلة تسلم ابن الإنسان؟!!" (لو ٢٢: ٤٨).

١٩ - لا تُضرب عن الطعام بغضب

يوجد نوع آخر من التكدر الشرير، الذي ما كان يستحق الإشارة إليه لولا معرفتنا أن بعض الإخوة يسمحون لأنفسهم به. هؤلاء الذين عندما يتكذبون يضربون عن الطعام حتى أننا (للأسف الأمر الذي لا يمكنني أن أذكره بغير خجل) نجد أولئك الذين في وقت هدوئهم يعلنون عجزهم عن الصوم أكثر من الساعة السادسة أو التاسعة، إذ بهم في وقت غضبهم لا يشعرون بالجوع لمدة يومين أو أكثر، فيزدادون زهداً بواسطة تخمة الغضب.

هؤلاء بلا شك يندسون الأمور المقدسة (الأصوام) كما لو كانت خارجة عن غضب شيطاني، محتملين أصواماً كان ينبغي أن تقدم لله وحده بتواضع قلب ونقاوة من الخطية، لكنهم يقدمون الصلوات والتقدمات للشياطين. وبهذا يكونون مستحقين لتوبيخات موسى القائل: "ذبخوا لأوثان ليست الله، لآلهة لم يعرفوها أحداثٌ قد جاءت من قريب لم يرهبها آباؤكم" (تث ٣٢: ١٧).

٢٠ - لا تقدم الخد الآخر بخد مزيف

إننا لا نهمل نوعاً آخر من انحراف العقل الذي نجده في بعض الإخوة تحت لون من الصبر المزيف. هؤلاء لا يكتفون بإثارة المنازعات حتى يثيرون الآخرين لكي يضربونهم، لكنهم إذا ما ضُربوا بضربات خفيفة يقدمون أجزاء أخرى من جسمهم للضرب ليثيروا من هم حولهم، وهم يحسبون أنهم بهذا يحققون الكمال المأمور

به في القول: "مَنْ لطمك على خَدَّك الأيمن فحوّلْ لَهُ الآخر أَيْضًا" (مت ٣٩:٥)، هؤلاء يجهلون معنى الآية وغايتها، طانين إنهم ينفذون الصبر الوارد في الإنجيل أن لا نقاوم الشر بالشر ولا التهيج بمثله، وإنما قُدمت لنا الوصية لكي نسكن غضب الضارب باحتمالنا ضعفه (وليس بإثارتنا له لكي يضرنا).

٢١- جرمانئوس: كيف يمكننا أن نلوم إنسانًا ينفذ وصية الإنجيل ولم يقابل الشر بمثله بل استعد لاحتمال خطأ مضاعف؟

٢٢- يوسف: كما سبق أن قلنا منذ قليل إنه يلزمنا ألا ننظر إلى الأمر من جهة العمل ذاته بل نية الفاعل وطريقة تفكيره فإذا ما وُزنت فعل الإنسان، فاحصًا قلبه بتدقيق ومشاعره التي نبع عنها الفعل، فسترى إنه لا يمكن أن تتم فضيلة الاحتمال واللفظ في الروح المضاد أي خلال عدم الاحتمال والغضب (الخفي).

لهذا عندما أعطانا ربنا ومخلصنا درسًا كاملاً بخصوص فضيلة الاحتمال واللفظ (أي يعلمنا لا أن نعترف بها بلساننا إنما نخزنها في أعماق نفوسنا الداخلية) وهبنا ملخصًا للكمال الإنجيلي قائلًا: "وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر. بل مَنْ لطمك على خَدَّك الأيمن فحوّلْ لَهُ الآخر أَيْضًا" (مت ٣٩:٥). (وإذ أشار إلى الخد الأيمن، فهذا لا يمكن أن يحدث إلا في وجه الإنسان الداخلي)^٣، ولهذا يرغب الرب أن ينزع عنا كل مثيرات الغضب من أعماق النفس الداخلية نزعًا تامًا. بمعنى إن كان خدك الأيمن الخارجي يستقبل لكمة من الضارب، فليقبل الإنسان الداخلي باتضاع أن يتقبل الضربة على خده الأيمن. بهذا يحتمل الإنسان الخارجي بلطف، ويخضع الجسد لمضايقات الضارب فلا يضطرب الإنسان الداخلي...

لقد رأيت كيف أن هذا بعيد كل البعد عن الكمال الإنجيلي الذي ينادى بالثبات في الصبر، لا بالكلام بل في هدوء القلب الداخلي. ويأمرنا أن نحفظ هذا مهما أصابنا من شرور، حتى أننا ليس نحفظ أنفسنا على الدوام بغير غضب مقلق، بل وبخضوعنا لأذيتهم نجبرهم أن يهدأوا عن اضطرابهم بتتيمهم اللطم الثاني، وهكذا بلطفنا نقهر غضبهم... هكذا أيضًا تتحقق كلمات الرسول: "لا يغلبك الشر بل اغلب الشر بالخير" (رو ١٢:٢١).

واضح أن هذا لا يقدر أن ينفذه من ينطق بكلمات اللطف والاتضاع بروح كهذه مملوءة غضبًا، حتى إنهم ليس فقط يفشلون في إطفاء نار الغضب الملتهبة، بل بالأحرى يشعلونها بأكثر قسوة، سواء في مشاعرهم أو مشاعر أخيهما الآخر.

هؤلاء حتى وإن حفظوا هدوءًا لأنفسهم لكنهم لا يحملون أي ثمر للبر. وبينما هم يدعون الصبر من جانبهم على حساب هلاك قريبهم، يستبعدون المحبة الرسولية التي: "لا تطلب ما لنفسها" (١كو ١٣:٥)، لأن المحبة لا تطلب هذا الغنى لنفعها الخاص على حساب هلاك القريب، ولا ترغب في ربح شيء على حساب خسارة الغير.

٢٣- قوة الإنسان وشهامته تكمن في خضوعه لإرادة غيره

يلزمك بالتأكيد أن تعرف بصورة عامة أن من يخضع لإرادة أخيه يكون أقوى من الذي يتمسك متشبثًا بعنادٍ مدافعًا عن آرائه الخاصة. الأول باحتماله أخيه ومساعدته يربح صفة القوة والحيوية، أما الثاني فيقتتي الضعف والمرض...

^٣ لأن الإنسان حينما يُضرب إنما يضرب على خده الأيسر.

لا يظن الأول أنه فقد شيئاً من كماله بالرغم من خضوعه وتركه شيئاً من دقته التي يهتم بها، بل ليتأكد أنه ربح ما هو أعظم: فضيلة الصبر وطول الأناة. هذه هي وصية الرسول: "فيجب علينا نحن الأقوياء أن نحتمل أضعاف الضعفاء ولا تُرضى أنفسنا" (رو ١٥: ١) و"احملوا بعضكم أثقال بعض، وهكذا تَمُمُوا ناموس المسيح" (غلا ٦: ٢). لأن الإنسان الضعيف لا يقدر أن يعين الضعيف، ولا من يعانى من أمر يقدر أن يشفي عليلًا مثله. أما من كان غير خاضع للضعف فهذا يستطيع أن يقدم علاجًا للضعيف، إذ قيل: "أيها الطبيب اشف نفسك" (لو ٤: ٢٣).

٢٤ - عجز الضعيف عن احتمال غيره

يجدر بنا أن نلاحظ هذه الحقيقة أيضًا، وهي أن طبيعة الضعفاء إنهم متسرعون ومستعدون على الدوام أن ينتهروا ويبيذروا بذار المنازعات، بينما هم أنفسهم لا يقدر أن يحتملوا أن يمسه أحد بأقل ضرر بسيط. وبينما هم لا يبالون بالغير، ينشرون بتسرع وصايا يعجزون عن احتمال أخفها.

لهذا حسب فكر الآباء الشيوخ السابقين أن الحب لا يمكن أن يبقى ثابتًا غير منكسر إلا بين أشخاص متشابهين في الهدف والصلاح، لأنه سينكسر حتمًا، في وقت أو آخر، مهما بذل طرف واحد فقط من عناية.

٢٥ - سؤال

جرمانئوس: إذن كيف يمكن مدح الصبر الذي للرجل الكامل إن كان لا يحتمله الضعفاء على الدوام؟

٢٦ - يوسف:

إنني لم أقل أن فضيلة الإنسان وصبره سيُفهران، لكن يؤس الإنسان الضعيف يزداد بواسطة طول أناة الرجل الكامل، وزيادته في شره لا يقدر هو أن يحتمل شيئًا... غير أن الذي يرغب في حفظ مودة زملائه دون أن تتحل، بمعنى إنه عندما يُثار بأي خطأ (من الغير)، يلزمه أن يحفظ شفتيه، بل ويحفظ أعماق صدره بغير اضطراب. وإن وجد أنهم (شفتيه وصدره الداخلي) يضطربون اضطرابًا خفيفًا، يحفظ نفسه في صمتٍ كاملٍ ويلاحظ باجتهاد ما يقوله المرتل: "صَمْتُ صمًا، سكْتُ عن الخير، فتحرَّك وجعي. حمي قلبي في جوفي. عند لهجي اشتعلت النار. تكلمت بلساني" (مز ٣٩: ٢، ٣).

يلزمه أيضًا ألا ينظر إلى حالته الحالية ولا يعطى بالاً لما يقترحه عليه غضبه العنيف وذهنه الثائر... إنما يجدر به أن يعيش في نعمة الحب الماضية، أو يتطلع بذهنه إلى المستقبل، إلى السلام الذي سيعود، بتأمله في ساعة غضبه ذاتها، كما لو كان قد عاد السلام بينهما فعلاً. وبينما يحفظ نفسه ببهجة الاتفاق الآتي لا يشعر بمرارة النزاع الحاضر، وبسهولة يمكنه أن يقدم مثل تلك الإجابات (اللطيفة)...

٢٧ - كيف يمكن قمع الغضب؟

يجدر بنا أن نقمع كل حركة من حركات الغضب ونلطفها تحت إرشاد التمييز (الحكمة)، حتى لا نتهور بالغضب الأعمى، الأمر الذي قال عنه سليمان: "الجاهل يظهر كل غيظه، والحكيم يسكنه أخيرًا" (أم ١١: ٢٩). بمعنى أن الإنسان الجاهل يلتهب بانفعال الغضب لينتقم لنفسه، أما الحكيم فبسبب نزوج مشورته ولطفه يطفئ الغضب شيئًا فشيئًا ويتخلص منه.

يقول الرسول أمرًا مشابهًا: "لا تنتقموا لأنفسكم أيها الأحباء، بل أعطوا مكانًا للغضب. لأنه مكتوب لي النعمة أنا أجازي يقول الرب" (رو ١٢: ١٩). بمعنى لا تسمحوا لقلوبكم أن تُحبس في مضايق عدم الصبر

والجُبْن، حتى متى ثارت أية عاصفة عنيفة للغضب لا تقدر أن تحتملها، لكن لتكن قلوبكم متسعة تتقبل موجات كلمات الغضب في تيارات الحب المتسعة التي "تحتمل كلَّ شيء... وتصبح على كل شيء" (١ كو ١٣: ٧). وهكذا تتسع أذهانكم بطول الأناة والصبر ويكون فيه أعماق المشورة الأمانة التي تستقبل دخان الغضب وتبيده.

يمكن أن تفهم العبارة بالمعنى التالي: إننا نضع مكاناً للغضب وذلك بقدر ما نخضع بذهن متواضع هادئ لانفعال الآخرين، وننحني لعدم صبر الثائرين، كما لو كنا نستحق كل صنوف الخطأ (كتأديب لنا).

أما الذين يشوهون معنى الكمال الذي يتحدث عنه الرسول مفسرين "وضع مكان الغضب" بأنه الابتعاد عن الإنسان في وقت غضبه، يبدو لي إنهم بهذا لا يقطعون أسباب الغضب بل يهيجون بواعث النزاع. لأنه ما لم نصلح غضب القريب في الحال بإصلاح مملوء تواضعاً فإن الابتعاد يثير القريب أكثر...

يتكلم سليمان عن أمرٍ كهذا قائلاً: "لا تسرع بروحك إلى الغضب، لأن الغضب يستقر في حزن الجاهل" (جا ٩: ٧). و"لا تبرز عاجلاً إلى الخصام لئلاً تفعل شيئاً في الآخر حين يخزيك قريبك" (أم ٨: ٢٥). وهو بهذا لا يلوم التسرع في النزاع بمعنى أنه يمدح النزاع المتأخر.

بنفس الطريقة يجب أن نفهم القول: "غضب الجاهل يُعرّف في يومه. أما سائر الهوان فهو ذكي" (أم ١٦: ١٢)، لأنه لا يعنى أن الحكيم يخزن انفجار الغضب خفية، إنما يلوم انفجار الغضب المتهور... يلزمه أن يخفي الانفجار بهذا السبب، وهو إنه بينما يتركه إلى حين يهدأ روح الغضب إلى الأبد. لأن هذه هي طبيعة الغضب، عندما يترك له مكان (أي لا نتسرع به) يضعف ويبيد أما إذا عُرض الغضب في حالة الثورة فإنه يحرق أكثر فأكثر.

يجب على القلوب أن تتسع وتفتح حتى لا تتحصر في مضيقات الجُبْن وتمتلئ بالغضب المتزايد، وتصير قادرة أن تتقبل وصايا الله بما يدعو النبي ("اتساع القلب) أو الاتساع الفائق". إذ يقول النبي: "في طريق وصاياك سعيت عندما وسعت قلبي" (مز ٣٢: ١١٩).

لأن بطء الغضب هو حكمة، نتعلمها بواسطة أقوال الكتاب المقدس الواضحة لأن "بطيء الغضب كثير الفهم، وقصير الروح معليّ الحمق" (أم ٢٩: ١٤). لذلك يقول الكتاب المقدس عن الشخص الذي طلب من الرب عطية الحكمة: "وأعطى الله سليمان حكمةً وفهماً كثيراً جداً ورحبة قلب كالرمل الذي على شاطئ البحر" (١ مل ٢٩: ٤).

٢٨ - خاتمة

هذا أيضاً ما تبرهنه لنا الخبرات الكثيرة أن الذين دخلوا في رباطات الصداقة خلال رباط شرير، لا يمكنهم أن يحفظوا اتفاقهم بغير انحلال، إما لأنهم حاولوا حفظه بعيداً عن رغبتهم في الكمال، أو لعدم تأسيسه على الحب الرسولي بل على حب أرضي... أو لأن عدونا (الشیطان) المملوء دهاء يجعلهم بالتهور في كسر سلاسل صداقتهم حتى يجعلهم حائنين لوعدهم.

هذا الفكر تأسس بأكثر تأكيد بواسطة أعظم الرجال حكمة، وهو أن الاتفاق الحقيقي والوحدة غير المنحلة يمكن أن توجد فقط بين الذين يحيون حياة نقية ومتشابهين في الصلاح والهدف.

هكذا تحدث يوسف الطوباوي بحديث روحي بخصوص الصداقة، وقد ألهب الاشتياق بالأكثر نحو حفظ

الحب الذي لزمالتنا لكي يبقى على الدوام.

✠ ✠ ✠

ملخص المبادئ

- ✚ الصداقة الدائمة هي التي يرتبط فيها الأعضاء مع بعضهم البعض في شخص الرب يسوع.
- ✚ لا يمكن أن تدوم الصداقة ما لم تكن الأطراف متشابهة في الهدف ومتساوية في الصلاح والفضيلة.
- ✚ أسباب فشل الصداقة بين الجسدانيين هو محبة الأمور الزمنية، وأسباب فشل الصداقة بين بعض الروحانيين هو ما يبثه العدو من اختلاف الفكر.
- لهذا يلزمنا ١- أن نرفض محبة العالم وكل ما فيه.
- ٢- ألا نعتمد على حكمنا الخاص وإرادتنا ولا نتشبث بآرائنا.
- ✚ الإنسان المتشبث بآرائه لا يسلم من خداعات العدو، والإنسان الذي يخضع لرأي أخيه وينصت لمن هم أقل منه إنسان قوى.
- ✚ صور مستترة للغضب وعدم محبة الغير:
- ١- الابتعاد عن الذين بيننا وبينهم نزاع بقصد إثارتهم.
- مع أن الله ينظر إلى القلب لا إلى مجرد النزاع الخارجي.
- تأمرنا الوصية أن نهتم بأخينا الذي يحمل غضباً تجاهنا، حتى ولو كان بغير سبب.
- ٢- يستخدم البعض الصمت لإثارة الآخرين أكثر مما يثيرهم الكلام. لأنه وإن ظهر أمام الناس بلا عيب لكنه يهلك أخيه بإثارته بصمته.
- ٣- الإضراب عن الطعام بغضب.
- ٤- يقدم البعض الخد الآخر لإثارة الغير وليس لتلطيف غضبه.

✚ ✚ ✚

مناظرات يوحنا كاسيان مع مشاهير آباء البرية

١٧

التعهد بوعود

للأب يوسف Abbot Joseph

١ - مقدمة

بعد المناظرة السابقة وقد انتهت فترة من سكون الليل الهادئ، قادنا الأب يوسف إلى قلاية منعزلة لنتمتع بالهدوء، لكن عبر الليل كله من غير نوم (لأن كلماته كانت ملتهبة في قلوبنا). عُدنا من القلاية ورجعنا حوالي ١٠٠ ياردة، وجلسنا في مكان منعزل بعدما كانت لنا فرصة طوال الليل أن نتناقش معا (يوحنا كاسيان وجرمانايوس) نقاشاً بغير تكلف، وقد جلسنا معاً وكان جرمانايوس يتنهد تنهداً عميقاً.

٢ - قلق جرمانايوس بسبب تذكره وعُدا في الدير بالعودة إليهم

قال: ماذا نفعل؟ فإننا قد صرنا في مأزق شديد، لأننا هنا حسب ما يمليه عليه عقلنا (مما نسمعه من تعاليم) وما نراه في حياة القديسين نتعلم أفضل ما نتصوره من أجل تقدمنا الروحي، لكننا سبق أن تعهدنا أمام الآباء الشيوخ (بالعودة إليهم) مما لا يسمح لنا أن نختار ما هو مفيد لنا؟

فإننا إذ نتمثل بحياة هؤلاء الآباء العظماء (هنا) نتشكل إلى حياة أكمل ونسعى نحو هدف أعظم، غير أن وعدنا يلزمنا بالعودة حالاً إلى الدير. وإن عدنا فإننا سوف لا نجد فرصة أخرى للرجوع إلى هنا مرة أخرى. وإن بقينا هنا ونفذنا رغبتنا نكون غير ملتزمين بوعدنا الذي تعهدنا به أمام آبائنا بالرجوع السريع، لكي ما يسمحون لنا بالمجيء إلى الأديرة والالتقاء بقديسي هذه المنطقة.

وفيما نحن على هذا الحال المملوء قلقاً، لم نقدر أن نقرر قراراً حاسماً نافع لخلاصنا. وإنما بتعهداتنا كنا في مرارة، موبخين أنفسنا من أجل تهورنا (في إعطاء الوعد) كارهين عيب طبيعتنا، شاعرين بثقل الأمر الذي لم يكن أمامنا طريق سواه تحت إلحاح أولئك الذين أعاقونا عما هو لنفعنا وصلاحنا، وذلك بطلب وعد منا بالعودة سريعاً. وقد بكينا لأننا قد صنعنا هذا تحت خطأ هذا العيب الذي قيل عنه: "كما يعود الكلب إلى قيئه هكذا الجاهل يعيد حماقته" (أم ١١: ٢٦).

٣ - إجابتي عليه

عندئذٍ أجبت: إن مشورة هذا الشيخ، هذا الذي يلزمنا أن نخبره عن قلقنا، تسهل لنا الصعوبة. فما يحكم به يكون حكمًا إلهيًا سماويًا، ينهي اضطراباتنا. ونحن نحتاج ألا يساورنا أدنى شك فيما ينطق به الرب على شفثيه من أجل استحقاقاته ومن أجل إيماننا. فالله بسبب محبته يهب المؤمنين مشورة صالحة خلال أشخاص غير متأهلين، كما يهب الأشرار المشورة الصالحة خلال القديسين، أي أن الله يعطي المشورة إما من أجل استحقاقات الذي يجاوب أو من أجل إيمان الذي يطلب نصيحة.

هكذا تمسك القديس الأب جرمانئوس بهذه الكلمات بشغف كما لو كانت تصدر من الرب. وإذا كنا ننتظر مجيء الأب الشيخ قليلًا، مقتربين من ساعة الخدمة الليلية Nocturnal قدمنا له التحية العادية وكان قد أنهى مزاميره المحفوظة والصلوات وجلسنا مرة ثانية على نفس الحصر التي نمنا عليها.

٤ - استفساره عن سبب قلقنا

إذ رأى الشيخ الوقور يوسف أننا في حالة معنوية مريرة، أدرك أن هذا لا يكون بغير سبب، فوجه إلينا نفس الكلمات التي سبق أن نطق بها البطريك يوسف^١: "لماذا وجهاكم مكمدان اليوم؟" (تك ٤: ٧) أجبناه إننا لسنا مثل عبيدي فرعون اللذين رأيا حلمًا ولم يعرفا له تفسيرًا. استطردت أقول له: "إننا اجتزنا الليل في هدوء، وليس لنا من يخفف أثقالنا إلا الرب خلال حكمتك".

عندئذٍ قال ذاك الذي يستحق أن ينال سمو الأب البطريك (يوسف بن يعقوب) سواء من جهة استحقاقاته أو تشابهه في الاسم: "أما يهب الله الشفاء من القلق؟ إذن اعرضوا الأمر، فإن الحنو الإلهي قادر أن يهبكم شفاء خلال نصيحتي حسب إيمانكم".

٥ - جرمانئوس يعرض الأمر

كنا ن فكر أنه ينبغي علينا العودة إلى ديارنا ونحن مملؤون بفيض من جهة الفرح الروحي وما انتفعنا به بالتطلع إلى قداستكم، وأنا بعد عودتنا سوف نفتقي آثاركم، فنعلم الآخرين ولو بمناظرة خفيفة ما تعلمناه منكم... وقد ظننا أننا سنكون قادرين (في خلال هذه الفترة) أن نفتدي بحياتكم العالية وتعاليمكم السامية في ذلك الدير. لقد فكرنا أننا بهذه الوسائل يُمنح لنا كل الفرح، إلا أنه من الجانب الآخر قد أضح بنا حزن لا يُطاق، لأننا أدركنا عجزنا عن الحصول على هذا الطريق الصالح بسهولة...

إذن في كلا الجانبين نحن الآن عاجزان، لأننا إن أردنا أن نفي بوعدنا الذي تعهدنا به في حضرة كل الاخوة في المزود الذي فيه أشرق ربنا بنفسه مولودًا من أحشاء البتول، وقد شهد الرب بنفسه على وعدنا (بالعودة سريعًا)، تصيينا خسارة فادحة من جهة حياتنا الروحية. وإن تجاهلنا وعدنا وبقينا في هذا الإقليم واعتبرنا أن العهد الذي ارتبطنا به أقل أهمية من بلوغنا الكمال، نخشى مما يسببه الحنث بالوعد والكذب من مخاطر مرعبة.

لا نقدر أن نخفف من هذا الثقل عن طريق تنفيذنا الوعد الذي تعهدنا به وهو أن نرجع بعد ذلك إلى هنا بأقصى سرعة ممكنة... لأننا لسنا متأكدين إن كنا نجد فرصة للعودة مرة أخرى إلى هذا الموضوع...

^١ أو الأب يوسف (بن يعقوب بن إسحق).

٦ - الإجابة

بعد فترة صمت قصيرة قال الأب المبارك يوسف: هل أنتم متأكدون أن وجودكم في هذه المنطقة يجعلكم تتمتعون بفائدة أعظم من الأمور الروحية؟

٧ - جرمانئوس

بالرغم من أنه يلزمنا أن نكون شاكرين جداً من أجل ما تسلمناه من تعاليم منذ صبوتنا حيث تدريبنا على أمور كثيرة، وإذا أعطونا أن نتذوق شيئاً من سموهم صارت قلوبنا في ظمأ نحو الكمال، ولكن إن حكمنا على حالنا نجد أنه لا توجد مقارنة بين ما قد تدريبنا عليه هنا وما تعلمناه هناك، حتى لتتطرق ألسنتنا بنقاوة حياتنا بصورة لا مثيل لها. وإننا نعتقد أن ما قد وهب لنا ليس فقط بسبب تركيز أذهانكم وهدفكم في تعليمنا، ولكن المكان نفسه والجو المحيط ساعدنا على ذلك. لذلك نحن لا نشك أنه لكي نقتدي بكمالكم العظيم لا تكفينا التعاليم التي قدمتموها لنا ما لم نبقى هنا في هذا الجو نفسه، وخلال التعليم الطويل ينحل فتور قلبنا بالتدريب اليومي...

٨ - استحسانه عدم التعهد بوعود

الأب يوسف: حقاً إنه حسن ولائق بعملنا أن ننفذ ما تعهدنا القيام به في أي وعد نعد به، لذلك يجدر بالراهب ألا يتسرع في إعطاء أي وعد، حتى لا يلتزم بتنفيذ ما قد وعد به بغير حذر، لأنه إن تراجع عن وعده، بوجهة نظر سليمة، يُحسب حائثاً لوعده.

ولكن هدفنا الآن ليس معالجة من هو في صحة (أي لم يعط وعداً) بل الشفاء من المرض، مقدماً المشورة ليس لمن هم في الحالة الأولى بل كيف تهربون من الصخور المهلكة التي تحطم السفن (أو الوعود التي تعهدتم بها وهي مضرة).

فحيث لا توجد سلاسل تعوقنا أو شروط تعهدنا بها تضايقنا، ففي هذه الحالة نقارن بين الأمور الصالحة ونختار تنفيذ ما هو أفضل وأكثر فائدة لنا. أما متى قام في الطريق شيء يفسد حياتنا ويسبب لها خسارة، فإننا نبحث عن أقل خسارة ممكنة.

فإعطائكم وعود بلا حذر أتى بكم إلى هذه الحالة التي فيها تصيبكم خسارة خطيرة، ويحل بكم التعب، لذلك يجدر بإرادتكم أن تميل تجاه الجانب الأقل في الخسارة التي يمكن إصلاحها بعد ذلك.

إذن إن رأيت أنك ستنتال ربحاً أوفر لروحك ببقاءك هنا أكثر مما تتاله في ذلك الدبر فيمكنك أن تتوقف عن تنفيذ وعدك دون أن تُصاب بخسارة كبيرة. فإن الخسارة التي تصيبك من عدم تنفيذك لوعده أفضل لك من أن تتجشم الخسارة التي تصيبك بتنفيذ الوعد، إذ تقول أن حياتك الروحية ستبرد، ويصيبك ضرر دائم (هذا إذ حدث مرة لا تعود تكرر الوعد مرة أخرى فتكون سبباً لخطايا أخرى).

فإنه يمكنك إصلاح الوعد الذي تهمل في تنفيذه بالاعتذار، بل ويمكن أن يصير هذا الإهمال موضوع مدح متى دفعك السلوك في طريق أفضل، فلا تعود تتظر إليه على أنك فشلت في طريق الاستقامة. أما عن إصلاح التهور (في التعجل بإعطاء وعد) فإنه يلزم تصحيحه لأنه خطأ.

ما أقوله إنما يؤكد الكتاب المقدس، لأن كثيرين قادهم وفأؤهم بوعدهم إلى الموت، وكثيرون كان من الخير لهم أن يمتنعوا عن تنفيذ وعدهم.

٩ - أمثلة من الكتاب المقدس

تظهر هذه الأمور بوضوح في حالتَي القديس بطرس وهيرودس. فالأول ترك ما قد وعد به، مصممًا أن ينفذه كمن يقسم قائلًا: "لن تغسل رجلي أبدًا" (يو ١٣: ٨)، وبهذا ربح النصيب الخالد مع السيد المسيح، بينما كان سيُقطع من نعمة التطويب لو تمسك بقوله متشبثًا. أما الثاني، فإذ تمسك بالعهد الذي قطعه بقسمٍ شريرٍ، صار سافكًا دم سابق الرب (يوحنا المعمدان). وبسبب خوفه الباطل لئلا يكون حائنًا بوعده أغرق نفسه في الدينونة وعقاب الموت الأبدي.

إذن يجدر بنا في كل شيء أن نهتم بالنهاية، موجّهين إليها طريقنا وهدفنا، فإذا ما رأينا بمشورة صالحة أن تدبيرنا في شيء ما يميل للشر يجدر بنا أن ننفر منه، ونعود إلى تفكيرٍ أفضل ولا نتمسك بتعهداتنا متشبثين بها فنسقط في خطايا أشر.

١٠ - سؤال بخصوص الوعد الذي تعهداه في الدير بسوريا

جرمانئوس: إننا لو عدنا إلى ديارنا، فبال تأكيد أننا ليس فقط نفشل في تحقيق هدفٍ سامٍ كهذا (التهديب بالحديث المستمر معكم)، بل وسيصيبنا خسارة عظيمة من طريقة الحياة هناك، التي هي في درجة متوسطة. لكن وصية الإنجيل ترعبنا إذ نقول: "بل ليكن كلامكم نعم نعم ولا لا ٠ وما زاد على ذلك فهو من الشرير" (مت ٥: ٣٧).

إننا نرى أننا لا نقدر إن نُكافأ ونحن نعصى وصية مهمة كهذه، وفي نفس الوقت نحن غير قادرين على العودة إلى الدير لتنفيذ الوعد الذي تعهدناه في البداية بطريقة خاطئة.

١١ - الأب يوسف

كما سبق أن قلنا، أنه يلزمنا في كل حالة ألا ننظر إلى العمل بل إلى نية الفاعل، ولا نسأل ماذا يفعل الإنسان بل لأي غرض يصنع هذا، حتى اننا نجد البعض يُدان عن أفعال جاءت بنتائج صالحة، بينما آخرون يصلون إلى أعالي البر رغم استخدامهم لأموالٍ في ذاتها تستحق اللوم.

في الحالة الأولى نجد أن النتائج الصالحة التي لأعمالهم لا تفيدهم شيئًا لأنهم فعلوها بنية شريرة، ولم تكن إرادتهم تحقيق الصلاح، إنما جاءت النتائج ضد ما قصده، وفي نفس الوقت لا تضر نيتهم هذه الآخرين...

١٢ - لكي نوضح هذا بأمثلة من الكتاب المقدس، فإن أي شيء يمكن أن نقدمه أكثر فائدة للعالم كله مثل بركات آلام الرب المخلصة؟ ومع هذا فإن الخائن الذي سلم الرب للآلام لم ينتفع شيئًا من خيانتته، بل أصابه ضرر بالفعل، إذ قيل عنه: "ويل لذلك الرجل.. كان خيرًا لذلك الرجل لو لم يُؤَلَد" (مت ٢٦: ٢٤). فنثار عمله لا ترتد إليه حسب ما جاءت به من نتائج فعلية بل حسب ما أراد هو واعتقد.

مرة أخرى أي شيء يمكن أن يكون أكثر خطأ من المكر والخداع...؟! ومع ذلك فإن البطريرك يعقوب (بن إسحق) ليس فقط لم يُقابل باللوم أو الخزي على فعله هذا، بل وبواسطته وُهب له ميراث البركة الدائم. ولم يكن هذا بغير سبب، لأن يعقوب رغب في البركة الخاصة بالكورية ليس طمعًا في ربح زمني، إنما من أجل إيمانه في التقديس الدائم، أما يهوذا فسلم مخلص الكل ليس لأجل خلاص البشرية إنما بدافع محبة المال...

فبعدل نال كل منهما جزاء عمله حسب مفاهيمه في اللحظة الأولى من بداية عمله، وليس حسب نتيجة عمله التي تخالف قصد صانعها سواء كانت صالحة أو شريرة.

هكذا نظر الديان العادل إلى يعقوب الذي تجاسر على مثل هذا البطلان على أنه مستحق للعفو، بل وصار ممدوحاً من أجل انه ما كان يمكنه أن يضمن بركة البكورية بغير هذا الطريق، ولم يحسب له خطية من أجل رغبته في البركة. فلو وجد طريقاً آخر لنوال هذه البركة واستخدم هذا الطريق لكان هذا الأب المذكور مخطئاً ليس فقط في حق أخيه، بل ومخادعاً لأبيه!

ها أنت ترى أن الله لا يسأل عن الفعل ذاته بل هدف الذهن من عمل الإنسان. وبهذه المقدمة (المنطقية) نعود ثانية إلى السؤال المقترح... وأريدك أولاً أن تخبرني لماذا ربطتم نفسيكما بقيود الوعود؟

١٣ - جرمانايوس

السبب الأول: كما قلنا إننا كنا خائفين من كدر آباتنا الشيوخ ولا نريد أن نعصى أوامرهم.

السبب الثاني: أننا بغاوة حسبنا أننا متى تعلمنا منكم عن الأمور الكاملة السامية، نقدر أن نعود فننفذ في ديارنا ما سمعناه ورأيناه.

١٤ - الأب يوسف

إذا أتينا بهذه المقدمة المنطقية وهي أن نية الإنسان هي التي تجعل الإنسان يُكافأ أو يُعاقب، وذلك كما جاء في العبارة: "الذين يظهرون عمل الناموس مكتوباً في قلوبهم شاهدًا أيضاً ضميرهم وأفكارهم فيما بيننا مشتكية أو محتجة، في اليوم الذي فيه يدين الله سرائر الناس حسب إنجيلي ببسوع المسيح" (رو ٢: ١٥، ١٦). وأيضاً: "وأنا أجازى أعمالكم وأفكاركم" (إش ٦٦: ١٨). لذلك فإنني أرى أنكما قد ربطتما نفسيكما بهذا الوعد رغبة في الكمال، وإذ ظننتما أنكما بهذا تريحانه... ولكن الآن تزان أنكما بهذا لا تقدران أن تتسلفا مرتفعات الكمال. لذلك فإن ترككما لوعدكما لا يعوق هدفكما الأول الموضوع أمامكم منذ البداية، اللهم إلا إذا كنتما تريدان تغيير هدفكما. لأن تغيير الوسيلة لا يعنى ترك العمل. فاختيار طريق أقصر أو أكثر استقامة لا يعنى رغبة المسافرين في الكسل والتراخي. هكذا في هذا الأمر، أي إصلاح في وجهة النظر القصيرة المدى لا تحمل أي نكوص بالوعد الروحي. لأن ما تفعلاه إنما هو بدافع حب الله والرغبة في الصلاح التي هي "نافعة لكل شيء"، إذ لها موعد الحياة الحاضرة والعتيدة" (١٨: ٤). فإنه وإن بدأ ببداية صعبة مضادة، لكن ذلك (النكوص) ليس فقط غير ملوم بل ومكرم بالفعل.

الوعد الذي قطعتماه بإهمال، لا يكون كسره عائقاً للكمال مادام الكسر هو من أجل نفس الغاية الموضوعية والصلاح الذي تبتغونه عندما وعدتما به، وبهذا نقدر أن نظهر لله قلباً نقياً. فان كان ما تبتغيانه يسهل عليكما نواله في هذه المقاطعة، فإن تغيير اتفاقكما الذي وعدتما به لا يكون عائقاً، إن كان كمال النقاوة، الذي لأجله قدمتما وعدكما هذا، يكون بالأكثر مضموناً حسب إرادة الرب.

١٥ - أما يستغل الضعفاء هذا كفرصة لإباحة الكذب؟!

جرمانايوس: هذه الكلمات التي قدمتها لنا لها قوتها بطريقة معقولة... فإننا بسهولة نستبعد ريبنا من جهة وعدنا الذي قطعناه، لكن أما يلزم أن نحذر بتدقيق لئلا ينتهز الضعفاء هذا الكلام كفرصة لاستباحة الكذب، وذلك بعلمهم أنه يمكن كسر الاتفاق بطريقة مشروعة؟ مع أن هذا الكذب ممنوع بعبارات قوية مملوءة تهديداً، كقول النبي: "تَهْلِكُ المتكلمين بالكذب" (مز ٦: ٥) و"القم الكاذب يقتل النفس" (حك ١: ١١).

١٦- الأب يوسف

أولئك الذين يسلكون في طريق الهلاك لن يقدموا طرقًا وفرصًا لأجل تدمير أنفسهم. فلا يمكننا أن نحذف العبارات الواردة في الكتاب المقدس أو نهملها، لأن الهراطقة استغلوا استغلالاً خاطئاً... لكن بالعكس يلزمنا أن نؤمن بهذه العبارات بتقوى ونتمسك بها بثبات ونركز بها حسب روح الحق.

لا يليق بنا بسبب كفر هؤلاء أن نحتقر تدابير الأنبياء والقديسين التي يُشير إليها الكتاب المقدس، لأنه بينما نحن نقصد إرضاء ضعفهم نوصم أنفسنا لا بخطية الكذب فقط بل وتدني الأمور المقدسة^٢...



^٢ تحدث بعد ذلك عن أمثلة لأناس لم ينفذوا وعودهم بل والبعض استخدم الكذب، مثل راحاب الزانية وغيرها...

مناظرات يُوحنا كاسيان

مع مشاهير آباء البرية

الجزء الثالث

١٨ - ٢٤

هذا الجزء خاص بالرهبان المتوحدين والتابعين لنظام الشركة. كثير مما ورد في هذه المناظرات يتحدث عن النساك المتوحدين ورهبان نظام الشركة... ولا يليق تنفيذ التدرييب الواردة بها إلا بإرشاد أب الاعتراف.

مقدمة

لقد نشرت بنعمة المسيح عشرة مناظرات للآباء، وذلك استجابة سريعة لطلب المغبوطين هيلاديوس ولينتيوس. كذلك بعثت سبع آخر إلى هونارتيوس الأسقف الطوباوي من جهة اسمه واستحقاقاته، وإلى خادم المسيح المبارك أوخريوس Eucherius.

الآن أحسب أنه يليق أن أهديكم سبع مناظرات آخر أيها الأخوة المقدسين: جوفنيانوس ومينارفيوس وليونتيوس وثيودور (تادرس)، حيث أن الشخص الذي ذكرته أخيراً (تادرس) أنشأ في منطقة الغال (فرنسا) نظاماً دبيرياً مباركاً وسامياً يحيا فيه جماعة رهبان في نظام الشركة، بل شوق البعض إلى حياة التوحد العالية.

رُتبت هذه المناظرات التي لأعظم الآباء بعناية فائقة، وهي تهتم بكل الجوانب الخاصة بالنظامين (نظام الشركة ونظام التوحد)، لأنه على أيديكم غصت مدن الغرب بل والجزر امتلأت بالاخوة الرهبان. بمعنى أنني أقصد أولئك الذين يعيشون في مجامع الرهبان خاضعين لنظام ممدوح، والذين ينسحبون إلى مسافات ليست بعيدة عن أديرتكم محاولين السلوك بنظام التوحد... هؤلاء بالأكثر سيتعلمون من هذه المناظرات...

لقد ساهمت بجهودكم وتعبدكم في تدريبهم بعض التداريب، وبهذا فإنهم أكثر استعداداً لتقبل وصايا الآباء الشيوخ وتعاليمهم، وإذ هم يتقبلون في قلايهم مصادر المناظرات... ويتحدثكم معهم يومياً على نظام الأسئلة والأجوبة، لا يعودون يروا الطريق صعباً أو مجهولاً في مدينتهم. وتصير المخاطر المعرضون لها واضحة، ولا ينقصهم وجود أمثلة كثيرة أمامهم لأشخاص سبقوهم في هذا الطريق.

بهذه المناظرات يسلكون الحياة النسكية (التوحد) على مثالهم، دارسين تقاليدهم القديمة وعملهم وخبرتهم الطويلة دراسة وافية.

مناظرات يوحنا كاسيان مع مشاهير آباء البرية

١٨

أنواع الرهبان الثلاثة

للأب بيامون

١ - مقدمة

بعد زيارة هؤلاء الآباء الشيوخ الثلاثة والتحدث معهم ومحاولة وصف مناظراتهم للأخ يوخريوس Eucherius، إذ لنا رغبة قوية في الاستطلاع على أجزاء أخرى من مصر يقطن فيها جماعات من القديسين أكثر كمالاً... أتينا إلى قرية Diolcos^١، تقع على أحد مصبات النيل السبعة. لأنه عندما سمعنا عن أديرة عديدة أسسها الآباء الأولون، أفلعنا على الفور كتجار شغوفين مدفوعين بالأمل في نوال ربحٍ أعظم. وإذ تجولنا هناك لوقت طويل، مثبتين أنظارنا المتلهفة على جبال الفضيلة الشاهقة، وقعت أنظارنا على الأب بيامون، الذي هو أول المتوحدين القاطنين هناك وكاهنهم، وكأنه فنار عالٍ.

إنه يسكن فوق جبلٍ عالٍ، وذلك مثل المدينة المذكورة في الإنجيل (مت ١٤: ٥)، سرعان ما سلط نوره على وجوهنا، هذا الذي تشهد له حياته ومعجزاته التي رأيناها بعيوننا. كذلك تشهد النعمة الإلهية لسموه، وإذ لا نريد أن نطيل الحديث في هذا المجلد فإننا نشعر أنه يلزمنا أن نعبر صامتين في سكون. لأننا قد وعدنا أن نجتمع في ذاكرتنا ما أمكن، ليس من جهة المعجزات الإلهية، بل من جهة تعاليم القديسين وآثارهم، حتى نمد القراء بالتعاليم الضرورية اللازمة للحياة الكاملة وليس أن نتكلم عن مقدار دهشتنا بطريقة خاملة غير مريحة.

هكذا استقبلنا الأب بيامون بترحابه وغمرنا بعطفه عندما عرف أننا غرباء، وسألنا عن سبب مجيئنا إلى مصر. وإذ عرف أننا قادمون من دير في سوريا نسعى وراء الكمال ابتدأ الحديث.

٢ - ضرورة استرشاد المبتدئين في الرهبنة بالآباء الشيوخ

يا أولادي، لا يوجد إنسان يرغب في إتقان مهارة ما في أي فن من الفنون إلا ويبذل كل جهده متوخيًا الدقة، فاحصًا الأنماط التي يدرسها، ملاحظًا بإحكام أنظمة أفضل المتخصصين في هذا العمل أو هذا العلم. ومن لا يفعل هذا يكون قد دفع نفسه في حفرة من الأمل الزائف ليبلغ بأشواق غير هادفة أن يكون مشابهًا لمن

^١ المؤسسات ٣٦:٥.

يتجنب اقتفاء آلامهم وسهرهم.

إننا نعلم أن البعض جاء من بلادكم إلى هذه البقاع لمجرد التجول في الأديرة والتعرف على الاخوة ، دون أن يعزموا على تبني القواعد والأنظمة التي من أجلها يسافرون، ولا يودون الاعتزال في قلالي لينفذوا ما قد رأوه عملياً. هؤلاء بقوا على حالهم كما هو، وكما قال البعض عنهم أنهم لم يغيروا موطنهم بقصد النفع... ويعنادهم وتشبث أفكارهم لم يتعلموا شيئاً بل ولا استطاعوا الإقامة. وإن كانوا لم يغيروا طريقة صومهم أو ترتيب مزاميرهم ولا حتى لبسهم ، فماذا نظن من جهة غاية مجيئهم إلى هنا؟

٣- من أجل هذا إن كانت نعمة الله، كما نعتقد، قد جذبتكما إلى هنا، لتتقلا معرفتنا، فعليكما أن تتجاهلا كل الأنظمة التي تمرستما عليها منذ حداثكما، وتتبعاً بكل تواضع كل ما ترون آباءنا يفعلون أو يعلمون به. ولا يساوركما ضيق، ولا تحيدان بعيداً عن التمثل بما ترونه، حتى وإن بدى لكما غامضاً إلى حين أو لأي سبب. لأن من كان له الفكر الصالح وفي تواضع مع شوق يتمثل بإخلاص بما يراه، سواء خلال التعليم أو اقتداءً بما يراه في الآباء، بدلاً من الانشغال في الجدل، بهذا تستقر فيه معرفة كل شيء باختبار عملي. أما الذين ابتدأوا تعلمهم بالجدال، فلن يدخلوا إلى غاية الحق... لذلك فإن عدونا (الشيطان) يدفعهم بسهولة بعيداً عن معرفة الآباء، حتى لتبدو لهم الأمور المفيدة والنافعة كأنها غير ضرورية، بل ومضرة. بهذا يلعب العدو الماكر ببطنة، جاعلاً إياهم يتمسكون برأيهم الخاص في عناد ، مقتنعين بأن ما يملأ عقولهم النجسة من أخطاء هو صلاح وحق ومقدس.

٤ - الأنظمة الثلاثة للرهبنة

يجدر بكما أن تسمعا متى بدأ نظامنا؟ وكيف بدأ؟ لأنه من يعرف عظمة مؤسس هذا النظام، يتدرب على هذا الفن ممارساً إياه بكل اجتهاد.

هناك ثلاثة أنواع من الرهبان في مصر، نوعان يجدر الإعجاب بهما، أما النوع الثالث فيلزم تجنبه. النوع الأول هو نظام الشركة، وهم الذين يعيشون في مجمع يقودهم أب أكبر، ونجد كثيرين يعيشون بهذا النظام في ربوع مصر.

النوع الثاني هو نظام التوحد (أو النسك anchorites) الذين تدربوا في البداية على نظام الشركة، وتكملوا متدربين في الحياة العملية، ثم اختاروا أعماق الصحراء، وإننا نأمل أن نجد لنا مكاناً في هذا النظام.

أما النوع الثالث وهو نظام ملام يدعى بالسرابيين Serabtian.

وستحدث عن هذه الأنواع الثلاثة بصورة مفصلة حسب الترتيب. ولكن، كما قلنا، يجدر بنا أولاً أن نتعرف على واضعي هذا النظام، لأنه بهذا إما أن تبرز كراهية ونفور من النظام الذي يلزم تجنبه أو شوق للنظام الذي يجدر بنا السلوك فيه... فإنه من المؤكد أن أي طريق يؤدي بالسائرين فيه إلى النهاية التي وصل إليها مؤسس الطريق.

٥ - بخصوص مؤسسي نظام الشركة

لقد ظهر نظام الشركة في أيام كرازة التلاميذ، إذ هكذا كانت جموع المؤمنين بأورشليم التي وُصفت في سفر أعمال الرسل: "وكان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة. ولم يكن أحد يقول أن شيئاً من أمواله له بل كان عندهم كل شيء مشتركاً... لأن كل الذين كانوا أصحاب حقول أو بيوت كانوا يبيعونها ويأتون بأثمان

المبيعات ويضعونها عند أرجل الرسل، فكان يُوزَّع على كل واحد كما يكون له احتياج" (أع ٣٥: ٣٤، ٣٢).
 "والأملاك والمقتنيات كانوا يبيعونها ويقسمونها بين الجميع كما يكون لكل واحد احتياج" (أع ٤٥: ٢).

أقول الآن أن كل الكنيسة آنذاك كانت مثل الحفنة القليلة التي تسلك الآن في نظام الشركة، ولكن بعد موت الرسل، وقد بدأت جموع المؤمنين تقترب وتبرد، خاصة الجموع التي جاءت إلى الإيمان من أمم مختلفة، والذين بسبب حداثة إيمانهم وعبادتهم الوثنية المتأصلة فيهم لم يُطالبوا سوى بضرورة أن "تمتنعوا عما دُبح للأصنام وعن الدم والمخنوق والزنى" (أع ٢٩: ١٥). هذه الحرية التي وهبت للأمم لحداثة إيمانهم، قللت من الصورة الكاملة التي كانت لكنيسة أورشليم... بل وحتى بعض القادة تهاونوا بعض الشيء ظانين أنه ما قد سُمح به للأمم من أجل ضعفهم مسموح به لهم أيضاً، معتقدين أنهم لن يُضاروا شيئاً إن اتبعوا إيمان المسيح واعترفوا به محتفظين بمقتنياتهم وما يمتلكونه.

أما أولئك الذين بقوا على حماية إيمانهم الرسولي، مراعين الكمال الأول، فإنهم تركوا مدنهم وتركوا الذين ظنوا أن إهمالهم وحياتهم الرغدة مسموح بها لهم لكنيسة الله، وهكذا ذهبوا إلى بقاع أكثر عزلة، وبدأوا يتدربون على ما أمر به الرسل لكل جسد الكنيسة الجامعة. هكذا فإن هذا النظام الذي نتحدث عنه نابع عن التلاميذ الذين انعزلوا عن الشر. هؤلاء بالتدريج امتنعوا أيضاً عن الزواج^٢ وانعزلوا عن الارتباط بأقاربهم... أطلق العالم عليهم "رهباناً" أو "متوحدين" بسبب حياتهم الصارمة المنعزلة. وقد سمو بالكانوبيين (أي تبع نظام الشركة) من أجل حياة الشركة التي بينهم... وهذا هو أول نوع من الرهبان، لكن ليس من حيث الزمن... وقد استمر هذا النظام لا عوج فيه...

٦ - النساك أو المتوحدون وأصلهم

من هذا العدد من الكاملين، أو إن أمكن أن أطلق عليهم شجرة القديسين، التي أينعت، فأخرجت زهوراً وثماراً هم "النساك".

إن مؤسسي هذا النظام هما الأنبا بولا والأنبا أنطونيوس، رجلين جابا أعماق الصحراء، لا عن وهن الروح أو قلق، إنما رغبة في بلوغ درجات أسمى من الكمال، ويقصد التأمل الإلهي، مع أنه قيل عن الأنبا بولا أنه عرف طريقه إلى الصحراء عن ضرورة متجنباً مؤامرة أقربائه (خاله) في زمن الاضطهاد.

خرج من نظام الشركة نوع آخر من الساعين وراء الكمال، يُدعون بـ "المتوحدين" أي المنعزلين. وإذا لم يكتفوا بنصرتهم، إذ داسوا حيل إبليس الخفية تحت أقدامهم وهم يعيشون وسط الناس، اشتاقوا أن يدخلوا في حرب علانية ومعركة مكشوفة مع العدو.

هكذا لم يخشوا التوغل في أعماق البرية، مقتفين آثار يوحنا المعمدان الذي قضى كل حياته في الصحراء، كذلك إيليا واليشع، إذ يتحدث الرسول عنهم قائلاً: "طافوا في جلود غنم وجلود معزى معتازين مكرويين مُذَلِّين، وهم لم يكن العالم مستحقاً لهم، تائهين في براري وجرال ومغاير وشقوق الأرض" (عب ١١: ٣٧، ٣٨).

تكلم عنهم الرب مع أيوب بصورة رمزية قائلاً: "من سَرَّجَ الفراء حُرّاً ومن فَكَّ رُيْطَ حمار الوحش، الذي جعلت البرية بيته والسباح مسكنه. يضحك على جمهور القرية. لا يسمع زجر السائق. دائرة الجبال مرعاه وعلى خضرة يفتش" (أي ٣٩: ٥-٨). أيضاً يقول سفر المزامير: "ليقل مفديو الرب الذين فداهم من يد العدو" ثم يكمل

^٢ ليس كشر لكن لأجل السمو.

قائلاً: "تأهوا في البرية في قفر بلا طريق. لم يجدوا مدينة سكن. جِيع عطاش أيضاً أعيت أنفسهم فيهم. فصرخوا إلى الرب في ضيقهم فأنقذهم من شدائدهم" (مز ١٠٧: ٢، ٤-٦). يصفهم إرميا أيضاً قائلاً: "جيد للرجل أن يحمل النير في صباه. يجلس وحده ويسكت لأنه قد وضعه عليه" (مرا ٢٧: ٣، ٢٨). وتخرج كلمات المرتل من القلب: "صرت مثل بومة الخرب. شهدت وصرت كعصفور منفرد على السطح" (مز ١٠٢: ٦، ٧).

٧- أصل السرابيين وطريقة حياتهم

بينما كانت المسيحية تتهلل بهذين النظامين للرهبنة... ظهر نوع ممقوت وغير مخلص. يرجع هذا النظام إلى ظهوره في شخص حنانيا وسفيرة في الكنيسة الأولى، لكن الرسول بطرس قطعه للحال بقسوة. وبهذا أصبح هذا النظام مكروهاً ولم يتبناه أحد لفترة طويلة، إذ كانت كلمات الرسول العنيفة لاصقة في ذاكرة المؤمنين. هذه الكلمات التي فيها لم يرفض الرسول فقط أن يسمح لها بالشفاء، وإنما قضى على هذه الآفة بالموت العاجل.

وإذ خفت آثار هذه الحادثة الذي عوقب بعنف رسولي في حالة حنانيا وسفيرة، فإنه بمرور الزمن مع الإهمال قامت جماعة السرابيين الذين انشقوا علي مجمع الشركة، وصار كل واحد منهم يهتم بشأن نفسه، ولقبوا بالحق باللغة المصرية "Sarabaites"، هؤلاء خرجوا عن الذين أرادوا الاقتداء بالكمال الإنجيلي، هادفين إليه، مفضلين الفقر التام عن كل أشكال الغنى.

هؤلاء بنفوس ضعيفة يتظاهرون بالخير الأعظم وقد اضطروا بالقوة أن ينضموا إلى نظام الرهبنة مشتاقين إلى لقب "رهبان" وليس إلى مسعاهم. وهم لم يخضعوا للنظام الرهباني في أي صورة من صورته، ولا خضعوا لإرادة الآباء، ولا تعلموا من تقاليدهم، بل اعتمدوا على إرادتهم الخاصة. جاعلين من رفضهم العالم مهنة أمام كل الناس، ذلك إما باستمرار بقائهم في منازلهم مكرسين أنفسهم لمشاغلهم الأولى كسابق عهدهم مع أنهم تكرموا بحمل لقب "رهبان"، أو بناء قلالي لأنفسهم أطلقوا عليها اسم أديرة يعيشون فيها في حرية وهم سادة لأنفسهم، غير خاضعين لأحكام الإنجيل الذي يمنعه من الانشغال بالقلق على الطعام اليومي أو الشؤون المادية، هذه الوصايا التي لا ينفذها بإيمان سوى أولئك الذين جردوا أنفسهم من كل مشتبهات هذا العالم، وخضعوا لآباء الشركة ولم يقولوا أنهم معلمون لأنفسهم.

لكن كما قلنا أولئك الذين خشوا قسوة الأديرة... ورأوا التخلص من نير الآباء، واقتناء حرية تنفيذهم لإرادتهم، يتجولون كيفما شاءوا. هؤلاء شغلوا أنفسهم بالعمل اليومي بطريقة تزيد عما هو في نظام الشركة وبإيمان مغاير ويهدف مختلف، لأن هؤلاء السرابيون يفعلون هذا لا ليقدموا ثمار أعمالهم لإرادة الرب، إنما ليربحوا أموالاً يعتمدون عليها.

الأولون لا ينشغلون بالغد، مقدمين لله ثمار أتعابهم أما هؤلاء فيمتد قلقهم الخالي من الإيمان لا إلى الغد فحسب بل وعبر السنين أيضاً. وهكذا يظنون أن الله كاذب أو عاجز، أو أنه لا يريد أن يهبهم طعامهم اليومي وملابسهم كوعده.

النوع الأول يجاهد في صلاته ليبلغ الحرمان من كل شيء حتى الفقر الدائم. والثاني يجاهد لكي يقتني وفرة في كل شيء. نوع يجاهد بشوق ليتعدى الأحكام الموضوعة للعمل اليومي، مقدماً ما يفيض عن حاجة الدير المقدسة لكي يوزع، بناء على رغبة أمين الدير (الروبيطة)، على المسجونين والغرباء والفقراء... والآخر يستخدم الفائض كل حسب رغبته النهم... وحتى إن وزعوا على الفقراء يأتون منتقخين بعملهم هذا مما يجعلهم يسقطون كل يوم في الإثم...

النوع الأول بصره ومثابرته يتمسك بالنظام الذي قبله فلا ينفذون شيئاً حسب إرادتهم الخاصة، بل صلبوا للعالم كل يوم وصاروا شهداء أحياء، أما الآخرون فقد ألقوا بأنفسهم إلى الجحيم لسوء هدفهم...

عدد هذا النوع الثالث (السرايين) يتكاثر في بقاع أخرى حتى صار هو النوع الوحيد في بعض المناطق، حيث أنه في أيام لوكيوس قام أسقف أريوسي في زمن حكم الإمبراطور فالنس بينما كنا نحمل عطايا لاختنا الذين أخذوا من مصر وطيبة إلى مناجم بنطس وأرمينيا^٣ بسبب ثباتهم على إيمان الكنيسة الجامعة، وجدنا في الطريق بعض المدن ليس فيها نظام الشركة إلا القليل ومتباعد، بل ولم نقدر أن نستدل على وجود مجرد اسم "متوحدين" أو نساك هناك.

٨- النوع الرابع من الرهبان

نوع رابع من الرهبان رأيناه أخيراً بين أولئك الذين يخدعون أنفسهم بأخذ مظهر النساك المتوحدين، هؤلاء الذين كانوا قبلاً يسعون وراء كمال الشركة، لكنهم فتروا وبردوا وإذ لا يريدون أن يضعوا حداً لعاداتهم وأخطائهم السابقة، ولأنهم لا يرغبون في حمل نير التواضع والاحتمال والزهد في الخضوع لأحكام الآباء، بحثوا عن قلالي منعزلة، وفضلوا البقاء منفصلين. وإذ لا يثيرهم أحد يظهرون أمام الناس صابرين ودعاء ومتواضعين.

هذا النظام بل هذا الإهمال واللامبالاة لا يمكن أن يقترب بالمسكين به إلى الكمال. إنهم لا يقلعون عن أخطائهم بل تتفاقم في الوقت الذي فيه لا يؤنبهم عليها أحد. وهكذا تصير مثل سم مميت كلما أخفيناه تعمق وأدى إلى مرض عضال.

بسبب احترام الناس لهم لا يجروا أحد على تأنيب هذا الإنسان المنعزل، وهو بدوره يهمل خطاياهم ولا يعالجها. هذا مع أن الفضائل لا تتشأ بإخفاء الرذائل بل بطردها إلى الخارج.

٩- جرمانئوس

هل هناك أي فارق بين "الشركة" و"الدير"، أم هما اسمان يُطلقان على شيء واحد؟

١٠- الأب بيامون

ولو أن كثيرين يتحدثون عنهما كشيء واحد، إلا أنه هناك اختلاف بينهما، فالدير هو اسم يطلق على المكان، ولا يعني غير ذلك، أي هو مسكن الرهبان، أما "الشركة" فتصف نوع الحياة ونظامها.

قد يعني الدير مسكن راهب واحد، أما الشركة فلا يمكن أن تكون إلا بين جماعة يعيشون معاً. ونحن نسمي بعض الأماكن "أديرة" حيث يعيش فيها بعض جماعات السرايين (حيث يسير كل راهب منهم على حسب هواه وإرادته الخاصة دون الخضوع لنظام معين).

١١- عن التواضع الحقيقي والتواضع المزيف

إنني إذ أرى أنكما قد تعلمتما المبادئ الأولى لهذه الحياة من رهبان أفاضل، أعني مبتدئين بمدرسة الشركة الممتازة هادفين إلى نظام السمو الشاهق الذي للنساك، لذلك يجدر بكما أن تبحثا بإخلاص عن فضيلتي التواضع والصبر. وإنني لا أشك في أنكما قد لفتتما هاتين الفضيلتين كما ينبغي وليس في صورة زائفة كلامية

^٣ كان المعترفون بإيمان الكنيسة الجامعة المستقيم يرسلون للعمل في المناجم كنوع من الاضطهاد. راجع صلوات القديس مرقس في قداسه للذين في السجون...

كما يفعل البعض، ولا بطريقة صناعية...

هذا التواضع المزيف كشفه الأب سربايون في عمقه، عندما أتاه أحد الرهبان مظهرًا مسكنة عظيمة في ملبسه وطريقة حديثه، فطلب منه الأب الشيخ أن يوزع المزامير كالعادة، لكن الراهب اعتذر محتقرًا نفسه معلنًا أنه خاطئ ولا يستحق حتى أن يستنشق الهواء، ورفض حتى أن يستخدم الحصيرة التي قُدمت له، مفضلًا أن يجلس على الأرض العراء، مظهرًا ميلًا لغسل الأرجل... وبعد العشاء إذ اجتمعوا بدأ الأب سربايون ينصح الراهب بوداعة ورقة أن يكف عن الأسفار بغير هدف، خاصة وأنه شاب قوى، وأن يبقى في قلايته حسب نظام الآباء، ويعتمد على جهاده وليس على جهاد غيره، الأمر الذي لم يسمح به الرسول لنفسه، فبينما يعمل من أجل الإنجيل لم يقبل أن يأخذ احتياجاته المادية التي هي من حقه، لكنه استحسن أن يعمل من أجل احتياجاته الضرورية واحتياجات الذين يخدمون معه وهم غير قادرين على العمل بأيديهم. احتدم الراهب بالغضب، حتى أنه لم يستطع أن يخفي الضيق الذي ملأ قلبه، فقال له الأب سربايون "يا ابني إنك حتى هذه الساعة كنت تتهم نفسك بتعديلات كثيرة معترفًا بآثام مخيفة تشوه سمعتك. وها أنا أرى كيف إن نصيحتي الممثلة حبا لك والتي لم تحوي توبيخًا أثارت كآبة في داخلك وغضبًا لم تستطع ضبطه... فلعلك كنت تطلب منّا وراء تظاهرك بمظهر المسكنة أن تسمع منّا مديحًا... لكن ينبغي أن تقتني تواضع القلب الذي لا يأتي من مظهر الكلام بل بمسكنة الروح الداخلية. هذه المسكنة وحدها تشرق بضياء الشهادة الحقيقية، وذلك عندما لا يفخر الإنسان بالإثم بالتباهي به، بل في هدوء ووداعة روح يغفر لمن يتهمونه متغاضيًا عنهم.

١٢ - كيف نقتني الصبر؟

جرمانبوس: كيف يمكننا أن نقتني الوداعة ونحفظها؟ إننا عندما نمارس الصمت نغلق شفاهانا ونمتنع عن الحديث، حتى نتمكن من حفظ وداعة القلب التي نفقدها أحيانًا حتى ولو صمت اللسان، لهذا فنحن نعتقد أن وداعة الروح لا يمكن أن يحافظ عليها إلا ناسك متوحد في قلاية منعزلة.

١٣ - بيامون

إننا لا نحصل على الصبر الحقيقي والهدوء، ولا نحفظهما بدون تواضع عميق من القلب. فإذا ما نبع الصبر من هذا المصدر لا تكون هناك حاجة إلى الوجود في قلاية (كمعين ضد الغضب) أو إلى حماية البرية، فإنه لا حاجة إلى عون خارجي من أي شيء طالما توجد فضيلة التواضع الداخلية، التي هي أم الصبر وحارسته.

أما إذا اضطربنا من أي إنسان يهاجمنا، يكون من الواضح أن أسس التواضع غير موجودة فينا بإحكام، لذلك فإن هبت أقل عاصفة يهتر البناء كله وبهالك. لأن الصبر لا يستحق الإعجاب والتقدير إن احتفظ بالهدوء عندما لا يهاجمنا عدو، بل يكون عظيمًا ومجيدًا إن بقي بلا تأثير عندما تهاجمه عواصف التجارب. لأنه يزداد قوة حين يضايقه عدو أو يؤذيه، وحيث يظنون أنه سيتضايق إذ هو بالأكثر يتزكى.

لأن كل إنسان يعرف أن "الصبر" يأخذ اسمه من الآلام والاحتمال، بهذا يتضح أنه لا يمكن أن يدعى إنسان صبورًا إلا ذاك الذي يحتمل كل ما يحل به من متاعب دون أن يتضايق. هكذا لم يمدح سليمان مثل هذا الإنسان بغير بسبب، إذ يقول: "البطيء الغضب خير من الجبار ومالك روحه خير ممن يأخذ مدينة" (أم ٣٢: ١٦). وأيضًا "بطيء الغضب كثير الفهم، وقصير الروح معلى الحمق" (أم ٢٩: ١٤).

إذا انهزم إنسان أمام خطأ واشتعلت فيه نيران الغضب، وجب عليه ألا يعتبر أن مرارة الإهانة الموجهة

إليه هي سبب خطيته بل بالأحرى ظهور ضعفه الخفي، وذلك طبقاً لمثل ربنا ومخلصنا يسوع المسيح الذي تحدث فيه عن المنزلين (مت ٢٤: ٢٦). أحدهما مؤسس على الصخر والآخر على الرمل. فقد قال عن الاثنين أن عواصف المطر والسيول والرياح هبت عليهما بالتساوي لكن المؤسس على الصخر والصلب لم يتأثر على الإطلاق من قسوة الصدمة، أما الذي تأسس على الرمل الناعم المتحرك فللحال انهار وسقط، والسبب في سقوطه بالتأكيد لم يكن اصطدامه بالعواصف والسيول بل لأنه بُني في غير حكمة على الرمل.

فالقدّيس لا يختلف عن الخاطيء في أنه ليس مجرباً مثله، بل يختلف عنه في أنه لا يُقهر حتى من الهجوم العنيف أما الآخر فينهزم من أقل تجربة. لأنه كما سبق وقلت أن ثبات أي إنسان صالح لا يستحق المديح بنواله النصره بدون أن يجرب، لأنه ليست نصره بدون حرب روحية...

"طوبى للرجل الذي يحتمل التجربة، لأنه إذا تزكّى ينال إكليل الحياة الذي وعد به الرب للذين يحيونهُ" (يع ١: ١٢). وكما جاء في رسالة الرسول بولس أن "القوة تكمل" ليس في الطريق السهل المملوء مباحج، بل "في الضعف" (٢كو ١٢: ٩). ويقول الله "هأنذا قد جعلتك اليوم مدينة حصينة وعمود حديد وأسوار نحاس على كل الأرض، لملوك يهوذا ولرؤسائها ولكهنتها ولشعب الأرض، فيحاربونك ولا يقدرُونَ عليك، لأنّي أنا معك يقول الرب لأنّك" (إر ١٩: ١٨).

١٤ - مثال الصبر، تقدمه امرأة تقية

أودّ أن أقدم لكم مثالين للصبر: واحد عن امرأة تقية كانت تصبو نحو فضيلة الصبر بشوق شديد حتى أنها لم تتجنب هجوم التجارب فقط بل في الواقع دبرت لنفسها أوقات تجربة وتعب حتى لا يتوقف امتحانها. هذه المرأة كانت تعيش في الإسكندرية وكان أبواها مقتدرين وكانت تعبد الرب بتقوى في البيت الذي تركه لها والدها. هذه أتت إلى الأسقف أثناسيوس ذو السيرة العطرة ورجته أن يعطيها أرملة تسكن معها تتفق عليها وترعاها. وعندما تحقق الأسقف من قصد المرأة ورأي أن لها استعداداً لعمل الرحمة أمر بأن يسمح لها بأرملة معروفة بحسن سلوكها وخاف أن يعطيها امرأة لها سلوك سيئ خوفاً من أن تعثرها في إيمانها.

وعندما أتت المرأة إلى بيتها خدمتها بكل أنواع الخدمات وأظهرت لها كل وداعة وعطف، وهكذا رأت أنها بدأت تتقبل شكرياً ومديحاً في كل دقيقة لأجل خدمتها الرحيمة. فذهبت بعد عدة أيام إلى الأسقف وقالت له: "لقد سألتك امرأة أخدمها في طاعة" وإذ لم يفهم الأسقف هدفها ظن أن طلبها الأول قد أهمل، فسأل عن سبب التأخير ووجد أنهم قد أعطوها أطيب امرأة، فأمر سرّاً أن يعطوها أسوأ امرأة، تكون غضوبية وكثيرة المتاعب والكلام، محبة للخمر، تخضع تحت نير هذه الأخطاء.. عندما أخذتها وبدأت تخدمها وتقدم لها نفس العناية التي قدمتها للأرملة الأولى، عوض الشكر الذي كان يليق بتقديمه نظير خدمتها كانت تشكي على الدوام من أخطاء لا تستحقها، وكانت تسبها بألفاظ سيئة لأنها أحضرتها إلى منزلها لمضايقتها وتعذيبها، وأخذتها من الراحة إلى الجهد والتعب. ولما فاقت شتائمها الحد وتطاوت فمدت يدها عليها، ضاعفت المرأة من خدمتها بوداعة وتواضع أكثر، وتعلمت أن تتغلب على الشر لا بمقاومته بل بضبط النفس والتواضع.

وعندما اقتنت فضيلة الصبر الكاملة التي كانت تتوق إليها أتت إلى الأب الأسقف لتشكره على اختياره الحكيم وبركة التدريب على احتمال مضايقاتها اليومية التي كانت بمثابة زينةً يلطف من الجرح... وقد قالت له:

^٤ يستخدم الآباء مثل هذه النصوص بمعنى رمزي لنفعا الروحي.

"لقد أعطيتني حقاً امرأة تعينني وتشددني... أما الأولى فكانت تكرمني بالأكثر وتدلني بخدمتها".

هذا مثال كافٍ قيل عن جنس المرأة، حتى أننا بهذه القصة لا نتوقف فحسب وإنما بالأكثر نخزي، لأننا لا نستطيع أن نحفظ الصبر إلا إذا لجأنا إلى الكهوف والقلالي كالوحوش.

١٥ - مثال الأب بفنوتيوس

الآن نتكلم عن المثل الثاني الخاص بالأب بفنوتيوس الذي كان مملوءاً على الدوام غيرة في وسط برية الإسقيط الشهيرة، والذي الآن هو قس (البرية)، ولقد لقبه بقية النساك "Bubalis" ° لأنه كان في سكناه في الصحراء مبتهجاً على الدوام كما لو كان يحب هذا بالفطرة.

كان حتى في صبوته صالحاً ومملوءاً نعمة، حتى أعجب مشاهير الرجال وعظمائهم بهيبته واستقامته الدائمة، ورغم صغر سنه كان يُوضع في مصاف الشيوخ بسبب فضائله... لكن الحسد الذي سبق أن أثاره اخوة الأب (البطريق) يوسف ضد أخيه، أثار أحد الأخوة بغيرة متقدة آكلة. وإذ أراد الأخ تشويه جمال بفنوتيوس بوصمة... انتهر فرصة تركه قلايته يوم الأحد لذهابه إلى الكنيسة، وتسلسل إليها وخبأ كتابه بين السعف...

لما انتهت الخدمة المعتادة، جاء ليشنكي أمام جميع الأخوة للقديس إيسيدورس الذي كان قساً للبرية قبل رسامة بفنوتيوس هذا قساً عليها، وأعلن بأن كتابه قد سرق من قلايته، فأثارت شكواه بليلة في عقول الإخوة وبخاصة القس، حتى توقف تفكيرهم، إذ غلبتهم الدهشة أن يسمعو عن جريمة لم تُرتكب قبلاً ولا سمعوا عنها، لأنها لم تحدث من قبل في هذه البرية... حث المدعى أن ينتظر الكل في الكنيسة ويرسل بعض الأخوة المنتخبين للبحث في قلالي الرهبان، راهباً راهباً. عهد القس الأمر إلى ثلاثة من الشيوخ الموثوق فيهم، فدخلوا قلايات الجميع، وأخيراً وجدوا الكتاب في قلاية بفنوتيوس وسط السعف... فلما عادوا إلى الكنيسة أحضروا الكتاب أمام الجميع. أما بفنوتيوس فرغم نقاوته من جهة ضميره، لكنه كان كما لو كان إنساناً كشفت جريمة سرقته، فطلب منهم تهذيب نفسه وتواضع طلب التوبة...

ولما خرج من الكنيسة في الحال لم يضطرب فكره، لكنه وثق في حكمة الله، فصار يزرف الدموع في الصلوات ويصوم ثلاثة أضعاف ما كان عليه، ويصنع طائيات للاحوة في تواضع. وهكذا إذ أدل نفسه بكل أنواع الندامة من جهة الجسد والروح لمدة ١٤ يوماً، حتى جاء مبكراً في صباح السبت وصباح الأحد لا يشترك في الأسرار المقدسة، بل لي طرح نفسه على أرضية الكنيسة طالباً العفو من إخوته.

لكن الله، الذي يعلم أسرار الأمور ويشهد لها، لم يتركه كثيراً مُعتدياً عليه... لأن مرتكب الجريمة، اللص الشرير الذي سرق ماله (سرق كتابه هو ونسب السرقة للأب بفنوتيوس) صنع هذا بعيداً عن الأعين البشرية، فكشفه الله بواسطة نفس الشيطان الذي بث فيه الخطية... فقد صرعه روح شرير عنيف، فاعترف بكل تفاصيل المكيدة السرية المدبرة... وقد بقي زماناً طويلاً متألماً من الروح النجس، حتى لم تستطع صلوات القديسين الساكنين هناك أن تشفه... بل ولا حتى الموهبة الخاصة التي للقس إيسيدوروس... لأن المسيح كان يحفظ للشباب بفنوتيوس هذا المجد إذ لا يشفي الرجل إلا بصلوات من دُبرت ضده المكيدة.

إنه (بفنوتيوس) بهذا في صبوته المبكرة أظهر ما ستكون عليه شخصيته فيما بعد، فإنه حتى في سن الصبا رسم خطوط ذلك الكمال الذي نما فيه.

° أو Bufflo راجع مناظرة ٣.

إذن إن أردنا أن نحصل على أعلى فضيلة يلزمنا أن نلقي نفس الأساس لنبدأ به.

١٦- على أي الأحوال يوجد سبب مزدوج يقودني أن أسرد هذه الحقيقة:
أولاً: أن نتأمل في هذا الثبات والاحتمال كأمر سهل، فيمكننا أن نحيا في هدوء وصبر مستهينين بحيل العدو (الشيطان).

ثانياً: لكي ما نؤكد أننا لا نقدر أن نهرب من عواصف التجارب وهجمات الشيطان، إذا ما اعتمدنا في مساندة صبرنا، لا على قوة إنساننا الداخلي إنما على مجرد غلق باب قلايتنا أو التوغل في الصحراء ومصاحبة القديسين أو أي ضمان خارجي من أي نوع.

فما لم يتقو ذهننا بقوة حماية الله الذي يقول في الإنجيل: "ملكوت الله داخلكم" (لو ١٧: ٢١)، باطلاً نظن أننا قادرون على تفادي هجمات عدونا الخبيث "الشيطان" بمعاونة الساكنين معنا، أو نتخلص منها ببعد المكان، "أي الانعزال عن الناس"، أو نهرب منها بحماية الجدران لنا. فإنه إذ كان القديس بفنوتيوس لا يعوزه شيء من هذا، لكن المجرب لم يغلب في أن يجد له منفذاً لمهاجمته.

النفس الممتلئة حماقة لا تنتفع شيئاً من الاختباء وراء الجدران أو الانعزال عن الناس أو استحقاقات القديسين الذين تعيش معهم.

لكن إذ ثبت القديس، خادم الله، رجاء قلبه لا على أمور خارجية بل على الله الذي هو ديان السرائر، لا تحركه مكائد عدو كهذا.

من الجانب الآخر لم يتمتع الإنسان، الذي دفعه حسده إلى خطية عظيمة كهذه بحياة العزلة، ولم يحمه مسكنه المنعزل، ولا استفاد من التحادث مع القديس الطوباوي الكاهن إيسيدورس وغيره من القديسين، وهكذا إذا ما أثار الشيطان عاصفة يهتز البيت ويندثر للحال.

إذن لسا نحتاج إلى البحث عن سلامنا في الخارج، ولا نظن أن صبر الآخرين يفيد عدم صبرنا. لأنه كما أن "ملكوت الله داخلكم" كذلك أعداء الإنسان هم "أهل بيته" (مت ١٠: ٣٦)، فإنه ليس لي عدو أكثر من قلبي، الذي هو بالحق ألصق "أهل بيتي" إلي.

فإن كنا حريصين، فإنه لا يمكن أن نتأذى بسهولة من الأعداء الباطنيين، فإذا لم يقاومني أهل بيتي، عندئذ أضمن وجود ملكوت الله في سلام القلب.

إن فحصت الأمر جيداً، تجد أنه لا يمكن أن يصيبني أي ضرر من أي إنسان مهما كان مؤذياً، ما لم أحارب نفسي... فإن لحقتني الضرر، فالخطأ ليس بسبب هجوم الآخرين إنما لعدم احتمالي. وذلك كالطعام الدسم جداً، مفيد للإنسان المتمتع بصحة جيدة إلا أنه مضر للمريض، فهو لا يضر الإنسان الذي يتناوله ما لم يكن هو مريض أصلاً. ومهما يكن الأمر، فعليكم أن تعرفوا أن خطية الحسد يصعب الشفاء منها أكثر من بقية الخطايا، فهي الوباء الذي رمز له النبي: بالحيات "لأنني هأنذا مرسل عليكم حياتٍ أفاعي لا تُرقى فتلدغكم يقول الرب" (إر ٨: ١٧).

بحق قارن النبي لدغات الحسد بسم الأفاعي المميت... فهي مصدر سموم، لكنها تَهلك وتموت بعد لدغها للشخص. فالحاسد لا يضر المحسود، بل يهلك نفسه بنفسه قبل أن يؤذي المحسود، يهلك نفسه قبل أن يصب سم الموت على الغير، لأنه "بحسد إبليس دخل الموت إلى العالم فيذوقه الذين هم من حزبه" (حك ٢:

٢٤-٢٥). كما أن أول من هلك (إبليس) بواسطة الحسد لا يجد علاجًا للتكفير ولا الشفاء، كذلك الذين يسمحون لأنفسهم أن يكونوا حاسدين، تستبعد عنهم مساعدة أي راقٍ مقدس، لأنهم لم يُعذبوا بخطايا الآخرين، إنما تعذبوا بتفوق ونجاح من يحسدونهم. وهم يخلطون من إظهار الحقيقة، فيبحثون عن علل خارجية تافهة يبررون بها الخطية، وإذ على الدوام يزيفون الحقيقة، لذلك يبقى رجاؤهم في الشفاء باطلاً، بينما يسري في شرايينهم السم المميت الذي لا يفرزونه "بل ينبعث فيهم بسبب نجاح الآخرين".

الحسد يصعب شفاؤه، لأنه بالبحث عن أسبابه، يصير إلى حال أردأ. يبحث في الأسباب الخارجية لا الحقيقة الداخلية، ويزداد شدة بتقديم الخدمات والهدايا للحاسد، لأنه كما يقول سليمان نفسه "أنه يقف قدام الحاسد" (أم ٤: ٢٧). على قدر ما ينجح الآخر (المحسود) في الخضوع والتواضع أو في فضيلة الصبر أو الكرم، تزداد وخزات حسد الآخر، إذ لا يود إلا هلاك المحسود وموته.

أخيراً لم يكن يوسف قادراً أن يخفف من حدة حسد إخوته الإحدى عشر، الراغبين في موته مع أنه لم يؤذهم في شيء.

من الواضح أن الحسد من أسوأ الخطايا وأصعبها شفاءً، لأنه يلتهب بنفس الأدوية التي بها تهلك بقية الخطايا، فمثلاً الإنسان الذي يحزن لخسارة قد لحقت به، يشفي بتعويضها، والمتضايق بسبب خطأ أصابه فإن اعتذار متواضع كافٍ لرضائه، لكن ماذا تفعل لإنسان تزداد معصيته كلما ازدادت تواضعاً ورحمة، هذا الذي لا يغضب طمعاً في رشوة ينالها... أو ليحصل على خدمات، إنما يغضب بسبب نجاح الآخرين وسعادتهم؟

من ذا الذي يستطيع أن يُرضي الحاسد، الذي يتمنى ضياع ثروة الآخرين، ويعمل على فشلهم، أو يسبب لهم مصائب؟

إننا محتاجون إلى عون إلهي، الذي ليس لديه شيء غير مستطاع، حتى لا تُهلك الحية بعضتها الوحيدة ما هو مزدهر فينا، بل نحيا بحياة الروح القدس الفعالة وقوته!

أما فيما يختص بسموم الحية الأخرى، أعني الأخطاء والضعفات الجسدية التي يقع فيها الضعف البشري بسهولة ويشفي منها أيضاً بسهولة، فإنها تترك بعضاً من آثارها على الجسد. وبالرغم من قروح الجسد إلا أن الطبيب الروحي المتمرس يمكنه أن يهب العلاج بكلمات الخلاص الشافية فلا تموت النفس موتاً أبدياً من سم هذا الشر.

عندما تنفث الأفاعي سم الحسد تحطم حياة التقوى والإيمان حتى قبل ظهور أثر الجرح على الجسد، فالحاسد لا يلوم الآخرين بل الله. وهو لا يسعى لتوبيخ إثم الإنسان إنما يستهين بدينونة الله، لأن الحسد هو أصل المرارة، الصاعد إلى السماء، مزدرياً بالله الذي يهب كل صلاح للناس...

الله ليس جابل للحسد، إلا أنه بعدل الحكم الإلهي تُعطى المواهب الصالحة للمتواضعين وتُمنع عن المتكبرين المرفوضين الذين يقول عنهم الرسول أنهم يستحقون أن يُسلموا إلى "ذهن مرفوض" (رو ١: ٢٨)، ويجعل الحسد يسحقهم ويفنيهم كما لو كان من عند الله، كما يقول "هم أغاروني بما ليس إلهاً. أغاظوني بأباطيلهم. فأنا أعيرهم بما ليس شعباً" (تث ٣٢: ٢١).

بهذا الحديث زوّد الأب بيامون شوقنا الذي بدأ ينمو فينا من حياة الشركة إلى مستوى حياة النساك، وإرشاد تعاليمه بدأنا الخطوة الأولى في الحياة المنعزلة، وتبعنا خطى تعاليمه بعد ذلك في الإسقيط بكل دقة.



ملخص المبادئ

- ✠ **رهبة الشركة الحقيقية** ليست شيئاً غريباً، بل هي المسيحية كما ينبغي أن تكون... والدافع إليها هي الحياة مع ربنا يسوع في حياة شركة وحب مع الإخوة مع موتٍ عن أمور هذا العالم وحب الاقتناء.
- ✠ **رهبة التوحد السليمة** هي زهور أينعت في شجرة القديسين الحيّة، فيها يبغي النساك حياة التأمل الدائم والانطلاق بالنفس نحو الرب بلا عوائق.
- ✠ **رهبة السرايين** هي انحراف للرهبنة وانتكاس لها، يحيا فيها كل راهب حسب هواه وإرادته بغير خضوع لأبيه الروحي، فيصير الدير ليس شركة مجمع، بل مجموعة من الرهبان المستقلين في فكرهم وهدفهم وطريقة حياتهم.
- ✠ **المتوحدون** الذين هربوا إلى العزلة لا لعشقهم في الرب، وبعد نجاحهم في الطاعة والخضوع في نظام الشركة... بل هروباً من حمل هذا النير (حب الإخوة وطاعة القوانين وأب الاعتراف)، هؤلاء ليسوا متوحدين حقيقيين بل مهملين يحملون سم خطاياهم في داخلهم، يخدعون أنفسهم وغيرهم.
- ✠ **التواضع الحقيقي** للراهب هو الذي ينبع عن مسكنة الروح الداخلية ولا يتوقف على مجرد مسكنة المظهر والكلام الزائف.
- ✠ **الحرب ضد الخطية** ميدانها في داخل النفس فلا نلوم الآخرين أو الظروف بل ضعف نفوسنا.
- ✠ **خطية الحسد** تضرر الحاسد لا المحسود، وهي أشر الخطايا يصعب علاجها إذ تطلب الضرر للآخرين.



مناظرات يوحنا كاسيان مع مشاهير آباء البرية

١٩

هدف راهب الشركة والمتوحد^١

للأب يوحنا

١ - الأب بولس وصبر أحد الإخوة

بعد أيام قليلة اتخذنا طريقنا مرة أخرى بنشاط عظيم، يحفزه الرغبة في التمتع بتعاليم أكثر. فبلغنا إلى مجمع شركة الأب بولس حيث كان هناك أكثر من مائتي أخ. كانوا يحتفلون بعيد تذكارات انتقال أب سابق كان رئيساً على نفس الدير، وقد اجتمع كل الرهبان وتجمعات أخرى من رهبان مجمع آخر.

ذكرنا هذا الاجتماع حتى نتأكد أن نتحدث باختصار بخصوص صبر أحد الإخوة الذي كان يتميز بالثبات العظيم... فإنه عندما جلس جميع الرهبان في مناطق مختلفة بلغ عددها اثنا عشر غير القاعة الكبيرة المفتوحة، كان هذا الأخ قد أبطأ في إحضار طبق طُلب منه، فأسرع الأب بولس واخترق مجموعات الإخوة الذين كانوا يخدمون، ويملاء كفه ضربه قوية، حتى أن صوت اللطمة بلغ آذان من كانوا معطين ظهورهم، والذين كانوا يجلسون بعيداً.

أما الشاب ذو الصبر الملحوظ فتلقى الضربة بكل هدوء قلب، ولم يتفوه ببنت شفة (بكلمة) ولا أظهر أية علامة من علامات التذمر البسيطة على شفتيه، ولا تغير لون وجهه. إنما كان الاتضاع والسلام يرتسمان على شفتيه. قيل هذا الموقف بإعجاب ليس منا نحن الذين أتينا من دير في سوريا حيث لم نتعلم الصبر بهذه الصورة الصارخة، بل وكان موضع دهشة الجميع... هكذا تعلم من هذه اللطمة حتى المتقدمون روحياً درساً نافعاً. لأن هذا التأديب الأبوي لم يزعج سلامه، ولا دفعه وجود الكثيرين إلى تغيير ملامح وجهه.

٢ - اتضاع الأب يوحنا

وجدنا في مجمع الرهبان هذا شيخاً متقدماً جداً يدعى الأب يوحنا، لا يمكننا أن نعبر على كلماته واتضاعه صامتتين، لأن بهما فاق جميع القديسين... وقد علمنا عنه أنه كان جاداً في هذا الكمال (الاتضاع)، الذي يراه أم كل الفضائل، وأساس البناء الروحي الراسخ. ومع هذا فقد كان كماله هذا غريباً عن نظامنا. فلا

^١ ترجمة: نادية أمين.

عجب فإننا لم نقدر نحن أن نصل إلى علو هؤلاء الرجال، كما لم نقدر أن نحتمل تدريب المجمع لمدة طويلة، إنما بالكاد أمكننا أن نحتمل نير الخضوع لمدة سنتين... في هذه الفترة كنا خاضعين لمن هم أكبر منا ليس اضطراراً بل بمحض اختيارنا.

حينما رأينا هذا الرجل المسن في مجمع الأب بولس، انتابتنا دهشة، أولاً بالنسبة لشيخوخته وتقدمه في الأيام جداً، وبسبب النعمة التي كانت تحيطه. وبنظرات مثبته تجاه الأرض بدأنا نستعطفه أن يوضح لنا لماذا ترك انطلاق الصحراء، ذلك العمل الممجّد (أي حياة التوحد) حيث نال هناك صبيّاً ذائعاً وشهرة فوق كل الذين كانوا يعيشون مثله في حياة التوحد.

سألناه لماذا اختار أن يدخل تحت نير المجمع، فقال لأنه لم يكن مستحقاً لحياة المتوحدين ولا مستوجباً لعلو كمالهم، لذلك عاد إلى مدرسة الأطفال، حتى يتعلم فيها الدروس اللازمة...

ولما لم نقتنع بهذه الإجابة، رفضنا أن نقبل هذه الإجابة المتواضعة، وأخيراً بدأ يتكلم هكذا:

٣- سبب تركه الصحراء

نظام المتوحدين الذي تستغربون لتركي إياه، أنا لا أرفضه بل أحبه وأنظر إليه بكل إجلال... فإنني بعدما قضيت ٣٠ سنة في مجمع، سررت بأن أقضي ٢٠ عاماً أخرى في التوحد حتى لا أكون متراخياً... ولكن نقاوة هذه الحياة - التي اختبرت منها القليل - كان يفسدها وجود بعض الأمور المادية، فكان من الأفضل لي الرجوع إلى المجمع... لبلوغ هدف أسهل مع خطورة أقل بدلا من اقتحام الحياة الأعلى للوحدة، لأنه من الأفضل تحقيق وعود صغيرة باهتمام عن وعود عظيمة مع الإهمال.

إن كنت أتحدث معكم الآن في شيء من الكبرياء، لكن بالحقيقة أتحدث في شيء من الحرية. أتوسل إليكم ألا تفكروا أن ما أقوله هو من قبيل المباهاة، لكن بالأحرى من أجل تثقيفكم، لأنكم سألتُموني بشغفٍ شديدٍ، فلا يليق بي أن أخفي عنكم شيئاً من الحقيقة. وإنني إذ أكشف الحقيقة كما هي... أظن أنكم تتقبلون هذا التعليم بروح المحبة لا المباهاة...

٤- بخصوص عظمة نظام التوحد

إذا كان أي إنسان يُسر بانطلاقه في البرية لينسى كل تعامل مع الناس، ويقول مع إرميا: "ولا اشتبهت يوم البلية، أنت عرفت" (إر ١٧: ١٦)، فإنني أعترف إنني بفضل بركات نعمة الرب عليّ قد تمتعت بهذه الانطلاقة. هكذا بعتية ربنا الرحيم، أتذكر إنني غالباً ما تمتعت بهذا الانجذاب الروحي، حتى إنني كنت أنسى إنني متسريل هذا الجسد الضعيف. بغتة كنت أنسى كل الأفكار الخارجية، وكانت نفسي تتعزل عن كل الأمور المادية، حتى توقفت عينايا وأذنايا عن عملهم الطبيعي. كانت روحي تتمتع بالتأمل المقدس والأفكار الروحية، حتى إنه غالباً ما يأتي المساء وأنا لا أعلم إن كنت قد تناولت أي طعام اليوم أم لا. ويأتي اليوم التالي وأنا غير متأكد إن كنت قد أكلت البارحة بعد الصيام أم لا. كنت أضع مئونة سبعة أيام من الخبزات جانباً ابتداء من يوم السبت لكي ما إذا انتهت المئونة أعلم أن الأسبوع قد انتهى وقد حان موعد الخدمة في يوم العيد (الأحد)... لكن كنت أحياناً ألاحظ عدم تذكرتي للأكل عن طريق الخبزات الباقية...

الآن لنتغاضى عن مميزات البرية (لأن هذا ليس موضوعنا أن نعددها ونصنفها) بل بالأحرى أشرح الأسباب التي دفعتني لتركيها حسب طلبكم. لكن في حديث سريع أشير إشارة عابرة بخصوص ثمار الوحدة التي

ذكرتها ومميزاتها...

٥ - مميزات الصحراء (الوحدة)

عندما كان عدد القاطنين في البرية قليلين، كنا نتمتع بحرية واسعة في انطلاق النفس... وطالما كنا في الخلوة في عزلة أكبر، كنا مأخوذين بالسماويات المذهلة، ولم يكن عدد كبير من الإخوة يقوم بزيارتنا مما دعانا إلى ضرورة إظهار كرم الضيافة وهذا بالتالي ثقل أفكارنا في هموم كثيرة...

هذه الحياة التي يميل إليها قلبي، والتي تقارن بنعيم الملائكة جاء إليها كثيرون... مما حد من حرية انطلاق النفس في البادية الواسعة، وأطفأ من لهيب التأمل الإلهي المقدس، وتكبل الذهن بطرق مختلفة في قيود الأمور المادية، فقررت أن أوجه هدفي تجاه هذا النظام خير لي من أن أفتر في هذه الحياة السامية خلال اهتمامي بالأمور المادية (اللازمة للغرباء)...

يمكنني هنا (في الدبر) أن أواسي نفسي بتنفيذ وصايا الإنجيل متجنباً كل اهتمام بالغد، وعوض ما فقدته من سمو التأمل (في حياة الوحدة) يمكن تعويضه بالخضوع والطاعة. لأنه أمر شرير أن يدعي إنسان معرفة أي فن أو حرفة ولا يبلغ أبداً إلى اقتنائها.

٦ - مميزات حياة الشركة

لذلك سأوضح باختصار ما أتمتع به هنا في هذا النظام من مميزات. ويجب عليكم أن تتأملوا كلماتي وتحكموا ما إذا كانت مميزات الصحراء تعادل هذه الراحة، ويمكنكم أن تتحققوا ما إذا كنت قد اخترت معيشة المجمع الضيقة اضطراراً أم رغبة في نقاوة حياة الوحدة.

هنا لا يوجد انشغال بالعمل، ولا تفكير في شراء أو بيع ولا اهتمام بخصوص طعام السنة، ولا قلق حول الأشياء الجسدية، ليس من أجل احتياجات الراهب نفسه لكن من أجل أي عدد من الزائرين. وهنا أيضاً نحن غير معرضين للاستكبار بمديح الناس، الذي هو أشد شيء، وبسببه نخسر حتى الصلاح الذي نلناه بمجهود في البرية. وإن تجاهلنا الكبرياء الروحي أو المجد الباطل الفاسد التي قد تثور في حياة التوحد، نرجع إلى ذلك الثقل الذي لا يقدر أن يتخلى عنه أي شخص، أي الاهتمام بإعداد الطعام... إذ لم يعد الطعام كالمقياس القديم الدقيق حيث كان يعد الطعام بغير زيت... مكتفين طوال العام بينت pint^٢ زيت وقليل من العدس لأجل الزائرين، أما الآن فإن المتوحد يحتاج على الأقل إلى ضعف أو ثلاثة أضعاف تلك الكمية. هكذا تزايد التراخي في حياتهم حتى صاروا يخلطون الخل بالشورية... ويكسرون الجبن بالزيت أكثر مما ينبغي من أجل مذاق لذيق...

يمثل هذا الانحدار الذي هو التزايد في طلب الأمور المادية تحت مظهر كرم الضيافة والاهتمام بالغرباء، بدأ المتوحدون يحتفظون في قلوبهم بأغطية... منشغلين بالالتقاء مع الإخوة والاهتمام باستقبال الغرباء... وتكون النتيجة أن تُعاق حرية حياة المتوحد بهذه الرباطات، فلا تكون لهم تلك الحداقة القلبية القوية، وهكذا تقسد حياة الرهبنة...

٧ - سؤال بخصوص ثمار حياة الشركة وثمار البرية

الآن وقد صار واضحاً أنك لست مثل الكثيرين تلمس مجرد المظهر الخارجي لهذين النوعين من الحياة، بل اخترت أعماقهما، لهذا نود أن نخبرنا ما هي غاية حياة الشركة؟ وما هي غاية حياة التوحد؟ لأنه ما

^٢ وحدة تساوي ١٢٥ درهم تقريباً.

من شك في أنه لا يستطيع أي إنسان أن يناقش هذا الموضوع بصورة كاملة وقوية إلا من تدرب على هذه الحياة لفترة طويلة.

٨ - الأب يوحنا

بالحقيقة إن الهدف من حياة المجمع أن يصلب الراهب جميع رغباته ويتمثل بالكمال... ولا يهتم بالغد. وواضح تمامًا أن هذا الكمال لا يبلغه الجميع بل راهب الشركة... ولكن كمال المتوحدين هو أن يُخلي ذهنه عن كل الأشياء الأرضية، وأن يربطه بالمسيح قدر ما يسمح ضعف الإنسان. ويصف النبي إرميا مثل هذا الرجل قائلاً: "جيد للرجل أن يحمل النير في صباه، يجلس وحده ويسكت لأنه قد وضعه عليه" (مرا ٢٧:٣، ٢٨). ويقول داود أيضًا: "شهدتُ وصرتُ كعصفورٍ منفرد على السطح" (مز ١٠٢:٧).

٩ - عن الكمال الحقيقي

لكن هذا ليس بتمام الكمال، بل هو جزء منه. فالكمال بصورته التامة نادر، يمنحه الله لقليلين جدًا... لأن الكامل هو من يحتمل في صبر متاعب البرية (التوحد)، وفي نفس الوقت وينفس الدرجة يقدر أن يحتمل ضعف الإخوة في نظام الشركة. لهذا من الصعب أن تجد إنساناً كاملاً في كلا النظامين، ولو أننا نعلم أن الأب موسى والأب بفنوتيوس ومن على مثليهما قد بلغوا قمم الكمال في كلا النظامين. فمع كونهم قد توغلا أكثر من الآخرين في الصحراء، ولا توقفوا عن التمتع بالانفراد في الفقر، ومع أنهم لم يتحدثوا مع الآخرين إلا أنهم يحتملون حضور الآتين إليهم وضعفاتهم، حتى أن عددًا كبيرًا من الإخوة كانوا يبحثون عن هؤلاء الآباء ويستقيدون منهم، ويحتمل الآباء مشقة استقبالهم بصبر لا ينفذ...

لهذا ظن الناس أن جميع أيام حياتهم التي يقضونها لا يتدربون ولا يتعلمون شيئاً إلا كيف يستضيفون الذين يأتون إليهم...

١٠ - عن الذين لم يبلغوا الكمال ويتوغلوا في الصحراء

لكن البعض يغريهم سكون الصحراء، ويبقون طوال اليوم كله يخشون التحدث مع الناس، وعندما يقطعون صمتهم بسبب زيارة أحد الإخوة لهم يرتفع قلبهم بالغضب وتظهر علامات المضايقة عليهم بوضوح.

هذا يحدث مع الإخوة الذين ألزموا أنفسهم بحياة الوحدة بهدف غير ناضج وقبل أن يتدربوا في المجمع تدريباً حسناً. هؤلاء يكونون دائماً غير كاملين، ويتقلبون سريعاً، تارة يميلون إلى ناحية وتارة إلى ناحية أخرى، ويمكن لعواصف التعب أن تهلكهم، وذلك بثورتهم وعدم صبرهم في محادثتهم مع الإخوة، كذلك بعجزهم في حياة الوحدة، فلا يحتملون السكون الذي يتدربون عليه (لأنه مبني على أساس غير سليم)...

١١ - سؤال عن معالجة الذين تركوا شركة المجمع

جرمانايوس: ما هو العلاج الذي يمكن أن يُقدم لمثل هؤلاء الضعفاء؟... هؤلاء الذين تعلموا القليل في نظام المجمع، لأننا نحن اشتقنا إلى حياة الوحدة قبل أن نتخلص من أخطائنا؟

أو كيف يمكن أن نحفظ بفكر راسخ وصبر ثابت نحن الذين تركنا حياة الشركة في المجمع وأهملنا المدارس والأرض المهيأة للتدريب عليها تدريباً متقناً؟

كيف يمكننا الآن ونحن نعيش منفردين أن نبلغ إلى قوة الاحتمال والصبر؟ أو كيف نكتشف إن كنا قد اقتنينا هذه الفضائل أم لازالت تنقصنا، لأننا لا نتحدث مع أناس ولا ننزعج من إثارتهم؟...

١٢ - يوحنا

أولئك الذين يبحثون عن علاج شاف من طبيب الأرواح الحقيقي بالتأكيد سينالون طلبهم ولا يعوزهم شيء، خاصة الذين لا يتجاهلون حالتهم المرضية، ولا يخفون ما يلاحقهم من جرحهم، ولا يرفضون بقلوب عابثة تأديباً للعلاج، إنما بقلب متضع وباهتمام يهربون إلى الطبيب السماوي من أجل شفاء أمراضهم التي لحقتهم عن جهل أو خطأ أو ضرورة.

هكذا يجب أن نعرف أننا إذا جنحنا إلى الوحدة أو الأماكن الخفية بدون أن نكون قد تخلصنا من أخطائنا، فإنها تُكبت في داخلنا ونشعر بها. لأن جذورها تكون مختبئة فينا أو بالأحرى تزحف فينا، بهذه العلامات نعلم أنها لا تزال تعيش فينا. مثال ذلك إن كنا نعيش منفردين في وحدة ونقبلنا زيارة بعض الإخوة بقلق، عندئذ نعرف أنه لا يزال يحيا فينا دافع عدم الصبر. وإذا كنا ننتظر زيارة أخ، ولسبب ما تأخر قليلاً، فنلومه في داخلنا متضايقين، قلقين في انتظاره، فهذا يكشف لنا أن خطية الغضب ما زالت راسخة في داخلنا. أيضاً إذا سألنا أحد الإخوة كتاباً يقرأه، أو أي شيء يستعمله، فضايقنا هذا الطلب، أو لم نستجب لطلبه فبلا شك نحن لا نزال نتعثر في شباك الطمع. وإذا خطر علينا فكر مفاجئ أو نصاً من الكتاب المقدس يذكرنا بامرأة، ونشعر أننا منجذبون نحوها، بجدر بنا أن نعلم أن نار الرذيلة (الشهوة) ما زالت تعيش فينا. وإذا كنا نقارن دقتنا بتراخي إنسان آخر فثار كبرياء في فكرنا، فمن الواضح أننا مصابون بطاعون الكبرياء المُخيف.

عندما نكتشف علامات الأخطاء هذه في قلبنا، يلزمنا أن نأخذها كفرصة للإصلاح لا للحنن (اليأس) على الخطية التي تجردنا منها (لكن جذورها قائمة). وبالتأكيد هذه الانفعالات الداخلية متى وجدت الفرصة في سلوك الإنسان العادي تظهر في عقلنا الباطن، لا كأمر جديد خلق في الحال، إنما هو كشف لما كان مختبئاً فينا لمدة طويلة.

هكذا فإنه حتى في الوحدة يمكن للإنسان أن يكتشف بعلامات واضحة جذور الخطأ المزروعة فيه، هذه التي يمكنه أن يخفيها عن الناس، لكنها لا تختبئ عن الله فاحص أسرار القلب.

١٣ - سؤال: كيف يمكن للإنسان الذي توحد، بدون أن يتخلص من أخطائه، أن يُشفى؟

جرمانبوس ... لقد عرفنا كيف نكتشف الأخطاء المختبئة في داخلنا، لأن خبرتنا اليومية وعواطفنا المستمرة تكشف لنا عن جميع ما قد قيل، وإذ عرفنا أسباب أمراضنا وعلاماتها بطريقة واضحة وصريحة بقي لنا أن نعرف العلاج. لأنه لا يشك أحد في أنه يلزم على من يكتشف المرض من البدء بعلامات واضحة أن يعالجها. هكذا كشف لنا تعليم قداستكم عن غوامض جراحاتنا، ونحن نأمل في العلاج، لأنه من الواضح أن تشخيص المرض يعطي أملاً في الشفاء. لأنك كما تقول أن أسس الخلاص الأولى تُكتسب في حياة الشركة، وأن الإنسان لا يستريح في الوحدة ما لم يكن قد شُفي أولاً بدواء الشركة.

١٤ - يوحنا... يجب أن يكون العلاج بنفس الطريقة التي بها نكتشف الخطأ... فعندما يكتشف أي إنسان بهذه العلامات التي شرحناها سابقاً أنه ينقصه الصبر أو عدم الغضب، يلزمه أن يتدرب على الأمور المضادة واضحاً أمام عينه كل العيوب والأخطاء، كما لو كان هناك شخص آخر يكشفها له. ويعود تفكيره أن يزيل كل ما يجلبه عليه الشر في اتضاع تام. ويقدم لنفسه كل أنواع القسوة والأمور غير المحتملة... ناظرًا إلى عذابات جميع القديسين وآلام الرب نفسه. وبهذا يقتنع بأن كل أنواع التائب المختلفة والتأديبات أقل مما يستحق، وفي نفس الوقت لا يهين نفسه للكآبة (الغم).

وإذا ما استدعاه أحد لحضور اجتماع الإخوة، وهذا نادرا ما يحدث في البرية، ووجد أنه منزعج داخليًا... يلزمه أن يراقب عواطفه الداخلية ويدين نفسه عن أخطائه... موبخًا نفسه قائلاً: "يا رجل، يا صالح، هل أنت الإنسان الذي تدرت على الوحدة، وظننت أنك قد تخلصت من الصفات الرديئة، وعذبت نفسك بآلام وتأديبات لا تحتمل؟"

هل تصورت أنك قادر على الصمود أمام كل العواصف؟!

كيف انهزم صبرك الذي لا يُقهر في أول تجربة من مجرد كلمة بسيطة؟!

كيف اهتز بيتك من نسمة خفيفة، يا من تصورت أنه مؤسس على الصخر الصلب؟

أين هذا الذي كنت تقوله في وقت سلامتك بثقة غبية؟... "أنا مستعد ولست مضطرباً"^٣. وما كنت تقوله مع النبي: "جرّني يا ربُّ وامتحني. صفَّ (امتحن) كليتي وقلبي" و"اختبرني يا الله واعرف قلبي، امتحني واعرف أفكارِي. وانظر إن كان فيَّ طريق باطل، واهدني طريقاً أبدياً" (مز ٢٦: ٢؛ ١٣٩: ٢٣، ٢٤).

بمثل هذا التعنيف والتبكيت يمكن للإنسان أن يضبط نفسه، ولا يسمح لتجربة مفاجئة تقلب كيانه أن تعبر هكذا بدون تأديب. إنما يلزمه أن يتأدب بشدة بالصوم والسهرة، معاقباً نفسه من أجل جنوح الفكر...



^٣ مز ٢٦: ٢.

مناظرات يوحنا كاسيان مع مشاهير آباء البرية

٢٠

ثمار التوبة وعلامات الصفح

للأب بينوفيس

١ - مقدمة

الآن إذ أروي لكم تعاليم الأب بينوفيس، الرجل العظيم الممتاز، بخصوص غاية التوبة، أظن أنه يمكنني أن أتغاضى عن الكثير من مادة هذا الموضوع... حتى لا يمل القارئ. إني أصمت هنا عن مديحي تواضع الأب بينوفيس، إذ سبق لي الحديث عنه باختصار في كتاب المؤسسات^١ تحت عنوان "قوانين خاصة بالنسك"...

كان هذا الرجل رئيساً كأب وقس على مجمع رهبان عظيم قريب من مدينة أنيفو^٢ Panéphysis التي قلنا أنها بمصر، وكانت المقاطعة كلها تمجده جداً من أجل تقواه والمعجزات التي تتم على يديه، وكان يرى في نفسه أنه بهذا ينال أجره أعماله في مديح الناس. وإذ خشي المديح العام الفارغ، الذي كان ينبذه، لئلا يفقد ثمار الجزاء الأبدي، هرب من ديره سرّاً وذهب إلى مكان منعزل بعيد في دير طبانسين^٣. لم يختر المضي إلى الصحراء الموحشة حيث الوحدة والبعد عن اهتمام الآخرين الخاصة بالمتوحدين، هذه الحياة التي قد يلجأ إليها بعض الأحيان غير الكاملين وغير القادرين على احتمال الطاعة لجميع الرهبان مدفوعين بكبرياء التوحد، بل اختار لنفسه أن يخضع في دير مشهور.

على أي الأحوال ارتدى زي علماني متخفياً، وهناك ارتدى أمام باب الدير وهو يبكي بدموع لمدة أيام كثيرة، كما كانت العادة هناك، طالباً أن يقبلوه. وكان ينحني أمام الجميع ليقبلوه، لكنهم كانوا يرفضونه ناظرين إليه أنه رجل مسن جداً لا يطلب الحياة المقدسة بإخلاص إنما من أجل العوز.

أخيراً قبلوه، وجعلوه يساعد أخاً حديثاً في الرهبنة يعتني بشئون الحديقة. فكان ينفذ أوامر رئيسه باتضاع عجيب مقدس، عاملاً بأمانة في كل ما يُعهد إليه به. وكان يقوم بالليل ليعمل خفية بعض الأعمال الأخرى التي

^١ المؤسسات، ك ٤ ف ٣٠ - ٣١.

^٢ أنيفو أو بانيفو أو بانيفيسيس Anepho or Panepho or panephyssis

^٣ أو طبنسي... Tabennse or Tabens

كان الإخوة يشمزون منها أو يستقلونها. وكانوا إذا قاموا في الفجر يبتهج الجميع من أجل الأعمال التي قد تمت دون أن يعلموا من الذي كان يصنعها.

قضى ثلاث سنوات على هذا الحال وهو مبتهج بهذه الخدمات والأعمال... حتى حدث أن جاء أخ من نفس المنطقة التي كان يعيش فيها الأب بينوفوس. رآه الأخ وتردد إلى حين في التأكد من شخصه، وذلك بسبب حقارة ملابسه ومنظره، لكن إذ تفرس فيه قليلاً سقط عند قدميه وصار يقبله.

اندهش الإخوة جميعهم من هذا الأمر، وإذ أخبرهم الأخ عن اسمه الذي ما أن سمعوه حتى عرفوه لأن قداسته كانت ذائعة، للحال أصيبوا بأسف وندامة من أجل ما أسندوا إلى هذا الكاهن الفاضل من خدمات حقيرة كهذه، فالتفوا به وصاروا يبجلونه. أما هو فكانت دموعه تذرف بغزارة، ناسباً أن هذا الإفشاء إنما بسبب حسد الشيطان له. (اضطر أن يعود إلى ديره).

بقي على هذا الحال إلى وقت قصير، وبسبب عظمة الاحترام الذي قدموه له اضطر أن يختفي مبحراً إلى مقاطعة فلسطينية في سوريا، وذهب كمبتدئ في الرهبنة في الدير الذي كنا نعيش فيه، وقد عهد إليه مدير الدير أن يمكث في قلايتنا. ولم تمض فترة قصيرة حتى انكشفت فضائله، إذ ظهرت شخصيته بنفس الطريقة السابقة، وعاد إلى ديره بتبجيل واحترام.

٢ - مجيئنا إليه

بعد وقت قصير وليس بطويل إذ دفعنا شوقنا لزيارة مصر للتمتع بالتعليم المقدس بحثنا عنه بشغف...، فاستقبلنا بترحاب ولطف، إذ كنا قبلاً شركاء معه في نفس القلاية، وقد استضافنا في قلايته التي بناها في أقصى الحديقة. هناك في حضرة الإخوة أثناء الخدمة سلم لأحدهم، الذي كان خاضعاً لقانون الدير، قوانين غاية في السمو وشديدة الصعوبة، هذه التي لخصتها بإيجاز قدر المستطاع في الكتاب الرابع من "المؤسسات". هذه القوانين غاية في العلو، حتى ظهر لنا أنه يصعب على من هم قطيع ضعيف مثلنا أن يرتقي إليها... لهذا صرنا في يأس ولم تستطع ملامح وجوهنا أن تخفي مرارة أفكارنا الداخلية.

رجعنا إلى الشيخ الطوباوي بقلب قلق، وإذ سألنا عن سبب حزننا الشديد، تنهد الأب جرمانبوس بعمق وأجاب قائلاً:

٣ - سؤال بخصوص غاية التوبة وعلامات الصفح

بما أنك تعرض لنا مبدأ جديداً يفتح أمامنا طريقاً أكثر مشقة نحو التجرد الكامل... ويظهر لنا ذروته مرتفعاً في السموات، فنحن نرى أنفسنا مطروحين بثقل كبير من اليأس. لأنه حينما نقارن جهلنا بارتفاع الفضيلة التي لا حد لها، نشعر بأننا ضعفاء بهذا المقدار بحيث أننا ليس فقط لا نستطيع الوصول إليها بل يزداد إيماننا بتقصيرنا، وهذا يدفعنا إلى السقوط إلى أعماق اليأس. لكن يوجد لنا سند واحد وحيد يقدر أن يشفي جراحاتنا، وهو أن تعلمنا شيئاً عن غاية التوبة وخاصة علامات الصفح عنا، حتى نشعر بتأكيد غفران خطايانا الماضية، بهذا يمكننا أن نحرص على تسلك مرتفعات الكمال السابق وصفها.

٤ - بينوفوس

إنني في الحقيقة مسرور لثمار اتضاعكم الوفيرة التي حصلتم عليها، الأمر الذي لمستته سابقاً لما كنت ساكناً في قلايتكم في بيت لحم، وإنني مسرور جداً للقائكم، واذكرلكم بأن كلماتي ليست مهمة بالدرجة التي

تستحق مزيد اهتمامكم بها، لكنكم أنتم بهذا تخفون مزايا فضائلكم كما لو كنتم على غير علم بشيء عن الأمور التي تحدثت لكم عنها والتي تمارسونها يوميًا. هذا أمر يستوجب جزيل الشاء أن تقرروا أن تعاليم القديسين لا تزال غير معلومة لكم كما لو كنتم مبتدئين. ويلزمنا إطاعة أوامر أصدقاء مرتبطين بنا بصداقة قديمة مثلكم، ولو كانت الأوامر تفوق طاقتنا وقدرتنا.

لقد عالج الكثيرون موضوع قيمة الندامة وقوتها اللطيفة، لا عن طريق الوعظ فحسب، بل وبالكتابة، مظهرين كيف أنها نافعة وقوية ومملوءة نعمة، حتى أن الله عندما يغضب علينا من أجل خطايانا ويوشك أن يجلب علينا عقابًا عادلًا من أجل ما ارتكبناه من شرور كهذه، فإن التوبة بطريقة ما، إن صح لي هذا القول من غير أن أخطئ التعبير، تمنعه وتصد يد العقاب...

أعرف أن هذا الأمر معلوم لكم سواء بقدرتكم على الاستنباط، أو من دراستكم التي لا تكل للكتب المقدسة...

أخيرًا، إنكم شغوفون لا أن تتعرفوا على صفات التوبة، إنما عن غايتها وعلامات الرضى، وهكذا بسؤالكم المملوء حكمة تطلبون ما غفل عنه الكثيرون.

٥- لكي ما أشبع رغبتكم وطلبكم باختصار وإيجاز قدر المستطاع، فإن الوصف الكامل التام للتوبة هي عدم الخضوع مرة ثانية للخطايا التي نقدم عنها ندامة، أو التي قد تبكت ضميرنا من جهتها. لكن دليل الرضى وصفح الرب عن ذنوبنا هو أن نكون قد وصلنا إلى مرحلة نلفظ فيها محبة الخطايا من قلوبنا. لأنه يلزم أن يتأكد كل إنسان أنه للآن لم يتحرر من خطاياه السابقة طالما يمكن لأية صورة من صور تلك الخطايا التي ارتكبها أو ما يشبهها تتراقص أمام عينيه. وإنني لا أقول التلذذ بالخطايا، لكن حتى مجرد تذكرها^٤ يزعج أعماق النفس بينما يكرس نفسه للمدح والتخلص منها.

من أجل هذا فإن الإنسان لا يشعر أنه أصبح حرًا من خطاياه وأنه قد نال الصفح عن أخطائه السابقة عندما يحس أن قلبه يهتز ويضطرب لإغراء هذه الخطايا وتصورها. لذلك فإن أصح اختبار لمعرفة ما إذا كنا تائبين، ومعرفة شهادة العفو عنا، نجدها في ضمائرنا الآن قبل يوم الدينونة، ونحن في هذا الجسد يظهر لنا تحررنا من الخطأ ويتبين لنا نعمة الصفح. وإن ما قلناه يمكن التعبير عنه باختصار بأن ماضي خطايانا الملوث يكون قد ابيضت صفحاته، عندما تكون مسرات هذا الزمان وشهوته قد فارقت قلوبنا.

٦- سؤال: كيف تطالبنا بعدم تذكر خطايانا؟

جرمانئوس: كيف تكون فينا هذه التوبة المقدسة السليمة النابعة عن الاتضاع، والتي وصفت في شخص التائب هكذا: "أعترف لك بخطيتي ولا أكتُم إثمي. قلت أعترف للرب بذنبي"، وبهذا يمكننا أن نقول ما جاء بعد ذلك: "وأنت رفعت آثام خطيتي" (مز ٣٢: ٥)؟ أو كيف تأتينا دموع الاعتراف عندما نركع في الصلاة، لنستعطف الرب وننال الصفح عن خطايانا كالقول التالي: "أعوذ في كل ليلة سريري وبدموعي أبلّ فراشي" (مز ٦: ٦)، إذ طردنا عنا كل تذكر للخطايا مع أننا على العكس نحن مطالبون بتذكرها كقول الرب "خطاياك لا أذكرها دكرني (أذكرها أنت)" (إش ٤٣: ٢٦)، بينما نستطيع ليس فقط في وقت عملنا، بل وإذا نهضنا للصلاة أن نسترجع إلى أذهاننا خطايانا متذكرينها لكي ما يصير لنا اتضاع حقيقي وانسحاق قلب ونجرؤ على القول مع النبي:

^٤ هذا هو تذكّار الشرّ الملبس الموت الذي تحدث عنه القديس الإلهي (صلاة الصلح - القديس الباسيلي).

"أنظر إلى ذلّي وتعبي واغفر جميع خطاياي" (مز ١٨: ٢٥)؟!

٧- إلى أي مدى نحتفظ بتذكر الخطايا؟

بينوفبوس: إن سؤالك الذي عرضته قبلاً، لم يكن بخصوص صفات التوبة بل غايتها وعلامات الرضى، والذي، كما أظن، أنه قُدمت لك عنه إجابة سديدة. أما ما قلته عن تذكر الخطايا، فإنه فعلاً مفيد جداً ولازم لمن بدأوا في التوبة حتى أنهم بقرعهم المستمر على صدورهم يقولون: "لأنني عارف بإثمّي وخطيئتي أمامي في كل حين" (مز ٥١: ٣)، وأيضاً: "لأنني أخبر بإثمّي" (مز ١٨: ٣٨). ففي أثناء توبتنا، إذ لانزال حزاني بتذكرنا لخطايانا الماضية، فإن انسكاب دموعنا الذي يحدث باعترافنا بالخطية تخدم نار ضمائرنا.

لكن بينما يكون الإنسان في انكسار قلب وانسحاق روح، مع استمرار الجهاد والبكاء، إذ بالنعمة الإلهية تلاشي تذكر الخطايا السابقة وتنتزع وخزات الضمير عنها. هنا يكون واضحاً أنه قد نال غاية الرضى ومكافأة العفو، وأنتزعت منه وصمات الخطايا التي ارتكبتها. عندئذ يمكننا أن نصل إلى نسيان الخطية وذلك بإزالة آثار الخطايا والرغبات القديمة مع نقاوة القلب وكماله.

هذه الحالة لا يصل إليها الكسالى والمتهاونون الذين فشلوا في نوال المغفرة عن خطاياهم، إنما يصل إليها من استمروا في التتهّد والتأوه بحزن لأجل إبادة كل آثار الخطايا، فبصلاح قلوبهم مع جهادهم يعلن كل منهم للرب: "أعترف لك بخطيئتي ولا أكتّم إثمي" (مز ٣٢: ٥). ويقول: "صارت لي دموعي خبزاً نهراً وليلاً" (مز ٣: ٤٢). فيؤهب له في النهاية أن يسمع هذه الكلمات: "امنعي صوتك عن البكاء وعينك عن الدموع، لأنه يُوجد جزاء لعملك يقول الرب" (إر ١٦: ٣١). ويقول له الرب: "قد محوت ذنوبك وكسحبت خطاياك" (إش ٤٤: ٢٢). وأيضاً: "أنا أنا هو الماحي ذنوبك لأجل نفسي وخطاياك لا أذكرها" (إش ٤٣: ٢٥). وهكذا إذ يتحرر من رباطات خطاياه التي ربط الكل بها يشكر الرب مسبحاً: "حللت قيودي، فلك أذبح ذبيحة حمد" (مز ١١٦: ١٦، ١٧).

٨- ثمار التوبة

بعد نعمة المعمودية المعروفة للجميع وتلك العطية العظمى التي للاستشهاد التي هي الحميم بالدم، توجد ثمار كثيرة للتوبة التي بها يمكننا أن نقلع عن خطايانا. إن الخلاص الأبدي ليس موعوداً به بالتوبة عن الخطايا حسبما يقوله الطوباوي بطرس الرسول: "فتوبوا وارجعوا لثمحي خطاياكم" (أع ٣: ١٩)، وحسبما قاله يوحنا المعمدان والسيد المسيح نفسه: "توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السماوات" (مت ٣: ٢)، لكن أيضاً ينبغي أن تكون مقرونة بأعمال المحبة، لأن "المحبة تستر كثرة من الخطايا" (ابط ٤: ٨). هكذا نجد الشفاء لكل جراحاتنا نتيجة لثمار التوبة كالصدقات وأفعال الرحمة. لأنه كما يقول الكتاب المقدس: "كما أن الماء يطفئ الحريق كذلك الدموع تغسل خطايانا" (ابن سيراخ ٣: ٣٣)، وأيضاً "أعوّم في كل ليلة سريري ودموعي أبلّ فراشي" (مز ٦: ٦).

أخيراً لكي تعلم أن هذه الدموع لا تُدَرَف عبثاً يقول: "ابعدوا عني يا جميع فاعلي الإثم، لأن الرب قد سمع صوت بكائي" (مز ٦: ٨). أيضاً بالاعتراف ثمحي خطايانا كقول المرنم: "أعترف لك بخطيئتي ولا أكتّم إثمي. قلت أعترف للرب بذنبي وأنت رفعت أثام خطيئتي" (مز ٣٢: ٥). ومع انسحاق النفس والجسد فإننا نفوز بمغفرة خطايانا أيضاً لأنه يقول: "أنظر إلى ذلّي وتعبي وأمح كل آثامي" (مز ١٨: ٢٥). بالأخص عندما نغير طرقنا

° راجع في هذا الموضوع الحب الرعوي ص ٤٠٦-٤١٧.

القديمة لأنه يقول: "اعزلوا شرَّ أفعالكم من أمام عينيَّ، كَفُّوا عن فعل الشر، تعلَّموا فعل الخير، اطلبوا الحق، انصفوا المظلوم، اقصوا لليتيم، حاموا عن الأرملة. هَلَمْ نتحاجج يقول الرب، إن كانت خطاياكم كالقرمز تبيضُ كالثلج، إن كانت حمراء كالوددي تصير كالصوف" (إش ١٦: ١-١٨).

كذلك صلوات القديسين تنفع في أن يغفر الرب لنا خطايانا كقول الرسول: "إن رأى أحد أخاه يخطئ خطيةً ليست للموت يطلب فيعطيه حياةً للذين يخطئون ليس للموت، تُوجَد خطية للموت، ليس لأجل هذه أقول أن يطلب" (١ يو ٥: ١٦). ويقول أيضاً: "أمريض أحد بينكم فليدعُ قسوس الكنيسة فيصلُّوا عليه ويدهنوه بزيتٍ باسم الرب، وصلوة الإيمان تشفي المريض، والرب يقيمه، وإن كان قد فعل خطيةً تُغفر له" (يع ١٤: ٥، ١٥).

أيضاً مع الرحمة والإيمان تمحي الذنوب، إذ "بالرحمة والحق يُستَر الإثم" (أم ٦: ١٦). وكثيراً ما يكون ذلك بواسطة شوقنا وسعينا وتعبنا نحو خلاص الذين خلصوا بإنذارنا ووعظنا، كقول الكتاب: "قليل من رَدَّ خاطئاً عن ضلال طريقه يخلص نفسه من الموت، ويستر كثرةً من الخطايا" (يع ٢٠: ٥).

وفضلاً عن ذلك بصفحنا عن ذنوب الآخرين ومسامحتهم ننال الصفح عن خطايانا كالقول: "فإنه إن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أيضاً أبوك السماوي" (مت ١٤: ٦).

نعرف مما تقدم أنه عديدة هي الوسائل التي ننال بها مغفرة خطايانا، حتى أنه ما من أحد يشاق نحو خلاص نفسه يتطرق إليه اليأس، لأنه يرى أنه مدعو للحياة بأدوية كثيرة هذا عددها!

إذا كنت تحتج أنه بالنسبة لضعف الجسد لا تستطيع أن تتخلص من خطاياك بممارسة الصوم، ولا تستطيع أن تقول مع المرتل داود: "ركبتي ارتعشتا من الصوم ولحمي هزل عن سِمَنِ" (مز ٢٤: ١٠٩)، ولا أن تقول أيضاً معه: "إني قد أكلت الرماد مثل الخبز ومزجتُ شرابي بدموعٍ" (مز ٩: ١٠٢)، إذن عوض هذا استبدله بجزيل الصدقات.

إذا لم يكن لديك شيء لتقدمه للمحتاجين (ولو أن العوز والفقر لا يعفي المرء من التصديق) إذ أن السيد المسيح مدح فلسي الأرملة الفقيرة أكثر من العطايا الكبيرة التي قدمها الأغنياء، والسيد المسيح ذاته وعد أنه لن يضع أجره من سقى كأس ماء بارد، فإنك تستطيع على الأقل أن تطهر ذاتك عن طريق تغيير حياتك وإصلاحها وتقويمها. وإذا لم تستطع أن تحوز الكمال في الصلاح باستئصال جميع أخطائك، تستطيع أن تظهر الشوق المقدس والاهتمام بالعمل لخير وخلص الآخرين.

إذا كنت تحتج بأنك لست كفئاً للقيام بهذا الأمر تستطيع أن تسر خطاياك بإشعال المحبة في قلبك نحو الآخرين. وإذا كنت بالنسبة لهذا أيضاً نتيجة كسل واسترخاء العقل تكون ضعيفاً، على الأقل ينبغي أن تتضع وتنسحق أمام الله وتسعى لعلاج جراحاتك بالصلوات وبشفاعات القديسين.

أخيراً من هو الإنسان الذي لا يستطيع أن يعترف قائلاً: "أعترف لك بخطيتي ولا أكتُم إثمي"^٦، ثم يردف قائلاً: "وأنت رفعت أثام خطيتي" (مز ٥: ٣٢). ليته لا يتوقف اعترافك في اتضاع كامل: "أنا عارف بإثمي وخطيتي في كل حين". وأيضاً: "إليك وحدك أخطأتُ والشرُّ قدام عينيك صنعتُ" (مز ٤: ٥١).

فضلاً عن ذلك فإنه في مقدرتنا بإرادتنا أن نصفح عن خطايا الآخرين، عندئذ يصفح الرب عن زلاتنا

^٦ بالاعتراف أمام الله وأمام الكاهن.

كما نطلب إليه في الصلاة الربانية: "اغفر لنا ذنوبنا كما تغفر نحن أيضًا للمذنبين إلينا"، من أجل ذلك فإن كل من يرغب في مغفرة خطاياہ عليه أن يعد نفسه بهذه الوسائط.

ليتنا لا ندع قلوبنا تنقسي وتتبع عن العلاج الخلاصي وعن مصدر الخيرات. لأنه إن فعلنا كل هذه الأمور فإنها ليست كافية لرسوخ أقدامنا على صخرة التوبة ما لم تُمح خطايانا بواسطة مراحم الرب الذي عندما يرى مجهوداتنا المقدسة التي نقدمها بقلب متضع يسند ضعفاتنا وأتعبنا بجزيل فضله وإنعامه، ويقول: "أنا أنا هو الماحي ذنوبك... وخطاياك لا أذكرها" (إش ٤٣: ٢٥). إذن كل من يهدف إلى هذه الحالة التي ذكرناها، فإنه سيبحث عن نعمة الصفح مستخدمًا الصوم يوميًا، وقمع شهوة القلب والجسد، لأنه مكتوب "بدون سفك دم لا تحصل مغفرة" (عب ٩: ٢٢). هذا لم يقله بغير سبب لأن "لحمًا ودمًا لا يقدران أن يرثا ملكوت الله" (١كو ١٥: ٥٠). فإن الإنسان الذي يصد "سيف الروح الذي هو كلمة الله" (أف ٦: ١٧) عن سفك الدم بالتأكيد يسقط تحت اللعنة التي أعلنها أرميا قائلًا: "ملعون من يمنع سيفه" (الكتاب المقدس) عن الدم" (إر ٤٨: ١٠) إذا لنفعا يُسفك الدم الفاسد الذي لمادة خطايانا. هذا هو السلاح الذي يقطع وينقي كل أمر شهواني وأرضي ينمو في نفوسنا. إنه يجعل الناس يموتون عن الخطية ويعيشون لله ويزدهرون بالفضائل الروحية.

من أجل هذا لا يعود أحد يبكي لأجل تذكر الشرور السابقة لكن لأجل الرجاء الذي سيأتي، وإذ لا يفكر في خطاياہ الماضية بأقل من ترجي الصالحات التي سوف تأتي فإنه يسكب الدموع ليس من أجل الحزن عن الخطايا، لكن من أجل الفرح في السعادة الأبدية المرتقبة، وينسى ما هو وراء، أي الخطايا الشهوانية، كما يقول بولس الرسول: "أنسى ما هو وراء وأمتد إلى ما هو قدام" (في ٣: ١٣)، أي إلى المواهب والفضائل الروحية.

٩ - فائدة نسيان الخطية للكاملين (نسبيًا)

أما بالنسبة لما قلته منذ قليل، أنه بسبب هدف موضوع أمامك لا تريد أن تذكر خطاياك السابقة مرة أخرى، فبالتأكيد يلزم ألا تذكرها، إلا إذا باغتك بغير إرادتك، فللحال أطردها فإنها تحرم الروح بقوة عن التأمل النقي، خاصة بالنسبة للمتوحد، فهي تعرقله في وصمات هذا العالم وتغرقه في الخطايا النجسة. فبينما نتذكر الأمور التي كنت تصفها في جهل وطيش... فإنه حتى وإن كنت في تذكرك لها لا تشعر بلذة، فلا أقل من أن عفونة النجاسات تفسد روحك برائحته الكريهة وتبطل أريج رائحة الحياة الصالحة، أي رائحة الطيب الذكية.

عندما تخطر بذاكرتك الخطايا السابقة، اهرب منها كما يهرب الإنسان البار الشريف متى وجد امرأة عاهرة شريرة تطلبه في الطريق العام بواسطة حديثها معه أو تقبيلها إياه. فإنه إن لم يهرب منها للحال، متباطئًا في الحديث معها بأحاديث مشوية، فإنه وإن رفض التمتع باللذة المعيبة إلا أنه لا يقدر أن يتجنب احتقار العامة له ونظرات السخرية المتسلطة عليه. هكذا نحن أيضًا، بتذكرنا المهلك هذا نسقط في أفكار كهذه. لهذا يلزمنا أولاً أن نمتنع عن التمسك بها، منفذين وصية سليمان القائل لا نذهب إلى هناك ولا نبطئ في مكانها، ولا نثبت نظرنا عليها، لئلا عندما ترائنا الملائكة المارة بنا، أننا مشغولين بأفكار نجسة، فلا تقدر أن نقول لنا: "بركة الرب عليكم" (مز ١٢٩: ٨). فإنه يستحيل أن يستمر الفكر مشغولاً في الأمور الصالحة، إن كان النصيب الأكبر من القلب غارقاً في تأملاته الأرضية الشريرة. لقد حق قول سليمان: "عينك تنتظران الأجنبية، وقلبك ينطق بأمر ملئوة. وتكون كمضطجع في قلب البحر أو كمضطجع على رأس سارية. يقول "ضربوني ولم أتوجع. لقد لكأوني ولم أعرف" (أم ٢٣: ٣٣-٣٥).

يلزمنا أن نهجر لا الأفكار الشريرة فحسب، بل والتفكير في الأمور الزمنية، رافعين اشتياقات نفوسنا نحو الأمور السماوية كقول مخلصنا: "حيث أكون أنا هناك أيضًا يكون خادمي" (يو ١٢: ٢٦). لأنه يحدث أيضًا حتى من باب العطف أن نفكر في سقطات الغير أو أخطائهم، فنتأثر باللذة ونسقط بالتالي في هموم الآخرين. فتكون النتيجة أن ما بدأنا به حسنًا ينتهي نهاية مهلكة، لأنه "تُوجد طريق تظهر للإنسان مستقيمة وعاقبتها طرق الموت" (أم ١٤: ١٢).

١٠ - كيف نتجنب تذكر الخطايا؟

على أي الأحوال يجدر بنا أن نسعى إلى انسحاق القلب الصادق، الذي يهدف نحو الفضيلة والاشتياق إلى ملكوت السماوات، ولا يكون هدفه مجرد تذكر الشر المميت. فالإنسان بالتأكيد يختنق من روائح البالوعات الخائفة طالما قبل الجلوس بجوارها أو يستنشق نتانتها.

١١ - طرق التوبة الحقيقية ومغفرة الخطية

لكننا نعرف كما قلنا مرارًا أنه بعد أن نندب خطايانا السابقة ونتوب عنها فإن المشاعر والأحاسيس الخاطئة القديمة التي سافتنا إلى الخطية، والتي حزنا من أجلها، يجب استئصالها من قلوبنا، ولا يتصور إنسان أنه يجوز ذلك إلا إذا قطع كل الأسباب التي تسوقه إلى الخطية. على سبيل المثال إذا كان قد سقط في خطية مع امرأة فإنه يجب الاحتراس، فلا يتطلع إلى امرأة. وإذا كان قد سقط بسبب الخمر وكثرة الأكل، فإنه يجب عليه أن يتعفف ويتقشف ويبطل نهمه ويكتفي بالطعام الخفيف المعتدل. وإذا كان سقوطه بسبب حب المال وقد أوقعه في الإضرار بالناس والسرقات وما أشبهه، يجب عليه أن يمنع نفسه من كل فرص الطمع والجشع. وإذا كان يندفع كثيرًا في كبرياء إلى خطية الغضب، فإنه بمداومة نفسه بالاتضاع يستطيع أن يطفئ حدة غضبه الخ. وهكذا.

مجل القول أنه لكي يقضى الإنسان على أية خطية يجب عليه أن يتخلص أولاً من كل الأسباب المؤدية إليها. وبهذه الطريقة نستطيع أن نتخلص من خطايانا ونستطيع أن نتبرأ من تذكر الخطايا التي ارتكبتها.

١٢ - هل صرت معصومًا من الخطأ؟

هذا الحديث عن نسيان الخطايا السابقة، أقصد به الخطايا الرئيسية التي دانها أيضًا الناموس الموسوي، التي قد انتهى الميل إليها، ونُزعت عنا بالحياة الصالحة، والتي قد انتهت الندامة من أجلها. أما المعاصي الأخرى (الصغرى) التي قيل عنها: "لأن الصديق يسقط سبع مرات ويقوم" (أم ١٦: ٢٤)، فإن التوبة عنها لا تنتهي، لأنه سواء عن جهل أو نسيان أو بالتفكير أو الكلام أو بمجرد الاشتياق أو عن ضرورة أو عن ضعف الجسد أو نجاسة في حلم... هذه الأمور غالبًا ما نسقط فيها كل يوم بغير إرادتنا أو بإرادتنا. مثل هذه الخطايا يُصلي من أجلها داود النبي للرب، ويطلب التتقية منها والغفران عنها: "السهوات من يشعر بها؟! من الخطايا المستترة أبرئني؟!" (مز ١٩: ١٢). وأيضًا يقول الرسول: "لأنني لست أفعل الصالح الذي أريده بل الشر الذي لست أريده فأبأه أفعل" (رو ٧: ١٩). لذلك تهتد قائلاً: "ويحي أنا الإنسان الشقي، مَنْ ينجذني من جسد هذا الموت؟!" (رو ٧: ٢٤).

إننا نسقط في هذه الخطايا بسهولة كما لو كانت بحكم الطبيعة نفسها فرغم يقظتنا وسهرنا نحوها فإننا لا يمكننا تجنبها كلية. هذا الأمر الذي جعل أحد التلاميذ الذي كان يسوع يحبه يصرخ ويقول: "إن قلنا أنه ليس لنا

خطية نُضِلُّ أنفسنا وليس الحقُّ فينا" (١ يو ٨:١).

أكثر من ذلك إن الإنسان الذي يسعى نحو الكمال المسيحي لا يكتفي بأنه ندم على الخطية بالغ الندم ليمنع نفسه عما لا يليق، بل لابد أن يبحث نفسه على التقدم للأمام نحو الفضائل النورانية التي بها تستطيع النفس أن تسير في طريق الكمال. ولا يكتفي الإنسان بأنه يحفظ نفسه من الخطايا والأدناس التي يكرهها السيد المسيح، بل عليه أن يعمل على حفظ طهارة القلب وممارسة أفعال المحبة الأخوية التي بها يُسر الله.

هكذا انتهى الأب بينوفوريوس من حديثه عن علامات الصفح وغاية التوبة، وبالرغم من أنه قد أَلَح علينا كثيرًا لكي نبقى معه في قلايته، لكنه إذ لم يقدر أن يبقينا إذ قد جذبتنا شهوة برية الإسقيط سمح لنا أن نسير في طريقنا.



ملخص المبادئ

✠ علامة التوبة الصحيحة، أننا في وسط الحزن والندامة على الخطية نحمل في النفس سلامًا داخليًا.

✠ التوبة التي بلا سلام داخلي تحمل بأسًا وقنوطًا ينزع عن النفس رجاءها.

✠ الإنسان التائب لا يعود يذكر خطاياها التي تاب عنها، وخاصة تفاصيلها، حتى لا تدفعه للسقوط مرة أخرى.

✠ تذكر الخطايا السابقة مهم بالنسبة للإنسان المتهاون والكسلان، ولكن بحذر أيضًا.

✠ لا تذكر تفاصيل خطاياك القديمة، لكن أذكر ضعفك: "خطيتي أمامي كل حين".

✠ لا تنسى الجانب الإيجابي... اذكر محبة الرب وحنانه وفاعلية دمه في حياتك، ولا تجعل كل فكرك في الخطية التي ارتكبتها.

✠ أيضًا حياة الشكر هامة في التوبة، نشكر الله من أجل رحمته كغافر للخطية.

✠ أخيرًا لتكن توبتنا عملية، أي مقترنة بالثمار الحيّة:

- (أ) تنفيذ وصايا الرب كالصدقات وأفعال الرحمة...
- (ب) محبتنا لإخواننا وعطفنا تجاه الخطاة الساقطين.
- (ج) استئصال المشاعر والأحاسيس الخاطئة، والابتعاد عن مكان الشر... الخ.

✠ أخيرًا يلزمنا في توبتنا أن نعرف:

- (أ) إن جهادنا مهما بلغ قدره لا ينفع شيئًا بغير نعمة الله المتفرقة بنا.
- (ب) مهما وهبنا من نعمة وجاهدنا... لكننا نبقى في حالة توبة دائمة مادامنا بعد في هذا الجسد. "إن قلنا أننا بلا خطية نضل أنفسنا وليس الحق فينا" وذلك لأننا نبغي في حياتنا أن نصل إلى ملء قامة المسيح... فنبقى كل حياتنا مجاهدين بفرح ورجاء، لكن في انسحاق وانكسار قلب على الدوام.



مناظرات يوحنا كاسيان مع مشاهير آباء البرية

٢١

الراحة أثناء الخماسين^١

للأب ثيونس

١ - مقدمة

قبل أن أبدأ في عرض هذه المناظرة مع هذا الرجل العظيم "الأب ثيونس"، أعتقد أنه من الأفضل أن أصف في حديث قصير أصل هدايته، بهذا يقدر القارئ أن يستشف عظمتة. عندما كان هذا الرجل في حداثة سنه ألزم بالزواج بناء على رغبة والديه وأمرهما، وكان الباعث على ذلك حرصهما على فضيلته، إذ كانا خائفين لئلا يسقط ابنهما في الشهوات، حاسبين أن الشهوات الشبابية يمكن ضبطها بالزواج. عاش مع زوجته خمس سنوات، ثم جاء إلى الأب يوحنا الذي لفرط قداسته اختير للإشراف على إدارة الصدقات، إذ كان هذا العمل لا يُعطى للإنسان حسب رغبته إنما لمن يراه مجمع الآباء الشيوخ أنه متقدم في السن ومشهود لسموه وفضيلته وأنه أفضل الجميع. جاء الشاب سابق الذكر إلى يوحنا المبارك هذا في اشتياق لنسكه المملوء ورعًا، محضرًا معه عطايا تحمل في طياتها تقوى، وكان معه آخرون جاءوا متحمسين لتقديم العشور ويكور ثمارهم للرجل المسن. وعندما رآهم الأب المسن يكيلون العطايا الكثيرة، اشتاق أن يرد لهم بعض الجميل مقابل عطاياهم، فبدأ يزرع فيهم الروحيات نظير الجسديات التي حصدها، وذلك كقول الرسول (١كو٩: ١١)، وهكذا بدأ يقدم لهم كلمة نصيح.

٢ - نصيحة الأب يوحنا لثيونس وغيره

حقًا إنني مبتهج يا أولادي بسخاء عطاياكم وتقدماتكم الجليلة التي تقدمتم بها. وإنني أتقبلها شاكرًا إذ تقدمون البكور والعشور لسد احتياجات المعوزين كتقدمة للرب، رائحة ذكية للمخلص، مؤمنين أن الرب يبارك أثماركم وكل ما قدمتم منه تقدمه حسب وصيته... "أكرم الرب من مالك ومن كل باكورات غلتك، فتمتلئ خزائنك شبعًا، وتفيض معاصرك (أوانيكم) مسطارًا (خمرًا) (أم ٣: ٩، ١٠).

إنكم ستكافأون في هذا العالم بغنى عظيم من الأمور الصالحة... وإذ صنعتم هذا بإيمان اعلموا أنكم قد أوفيتم بر الناموس القديم الذي تعده الذين كانوا عاشقين تحته فصاروا تحت المعصية، بينما لو نفذوه لبلغوا إلى

^١ ترجمة: نادية أمين وبيت القديسة دميانة بالجيزة.

الكمال...

٣- بخصوص العشور والبكور

حقاً حسب وصايا الله كانت العشور تكرر لخدمة اللاويين، وأما التقدمة والبكور فللكهنة (عد١٨:٢٦، ١٠، ٥:٩)، لكن وصية البكور كانت هكذا أن يؤخذ عُشر الثمار أو الحيوانات ويقدم لخدمة الهيكل والكهنة. فكان البعض بغير مبالاة يُنقص هذه النسبة، بينما الورعون كانوا يضيفون عليها. أعطى البعض ١/٦٠ فقط من العشور والآخر أعطى ١/١٤ من ثماره. أما بالنسبة للأبرار الذين لا يُعتبر الناموس بالنسبة لهم تشريعاً، إذ هم ليسوا تحت الناموس، فإنهم لا ينفذون الناموس ويفون به فحسب، بل ويفوقون كماله، ويكون ولاؤهم لما هو أكثر من المطالب القانونية لأنهم يتجاوزون حدود الناموس مضيفين إلى ما يطلبه بإرادتهم الحرة.

٤- بعض رجال العهد القديم أوفوا أكثر مما يطلب الناموس

نقرأ أن إبراهيم فاق مطالب الناموس التي أعطيت فيما بعد، لأنه بعد انتصاره على الأربع ملوك، لم يلمس شيئاً من غنائم سدوم التي كانت له حقاً كمنتصر، والتي عرضها عليه ملك سدوم بنفسه الذي أنقذه إبراهيم... لكنه صرخ مقسماً باسم الله قائلاً: "رفعت يدي إلى الرب الإله العلي مالك السماء والأرض لا آخذن لا خيطاً ولا شراك نعل ولا من كل ما هو لك" (تك٢٣:١٤، ٢٢).

كذلك نعلم عن داود أنه زاد عن مطالب الناموس. لأن موسى أمر أن يؤخذ بالتأثر من الأعداء (خر٢١:٢٤)، لكن داود لم يفعل ذلك بل شمل مضطهديه بالحب، وتوسل إلى الله من أجلهم، وبكى من أجلهم بمرارة حينما قُتلوا.

بالتأكيد نحن نعلم أن إيليا ونحميا لم يكونا تحت الناموس مع أنه لا ملامة عليهما لو كانا قد تزوجا. ومع هذا فضلاً أن يكونا بتوليئين. كذلك نقرأ أن إليشع وآخرين نهجوا على منوالهما إذ فاقوا وصايا موسى، هؤلاء الذين يقول عنهم الرسول: "طافوا في جلود غنم وجلود معزى، معتازين مكروبين مُدَلِّين، وهم لم يكن العالم مستحقاً لهم، تائهين في براريّ وجبال ومغاير وشقوق الأرض" (عب٣٨:١١، ٣٧).

وماذا أقول عن أبناء يوناداب بن ركاب، الذين نسمع عنهم أنهم عندما قدم لهم إرميا خمرًا قالوا له: "لا نشرب خمرًا، لأن يوناداب بن ركاب أبانا أوصانا قائلاً لا تشربوا خمرًا أنتم ولا بنوكم إلى الأبد، ولا تبنوا بيتًا، ولا تزرعوا زرعًا، ولا تغرسوا كرمًا، ولا تكن لكم بل أسكنوا في الخيام كل أيامكم" (إر٣٥:٦). لهذا السبب أيضًا سمح لهم أن يسمعو من نفس النبي: "لذلك هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل^٢. لا ينقطع ليوناداب بن ركاب إنسان يقف أمامي كل الأيام" (إر٣٥:١٩).

هؤلاء جميعاً لم يكتفوا بتقديمهم العشور بل رفضوا الممتلكات وقدموا لله أنفسهم وأرواحهم التي لا يمكن للإنسان أن يعوض عنها كما يشهد الرب في الإنجيل قائلاً: "ماذا يُعطي الإنسان فداءً عن نفسه؟!" (مت٢٦:١٦)

٥- كيف يُلزم على من يعيشون في عهد النعمة أن يفوقوا مطالب الناموس؟

يجدر بنا أن نعلم أننا لسنا مطالبون بأوامر الناموس لكن نترن في آذاننا كلمات الإنجيل يوميًا: "إن أردت أن تكون كاملاً فاهرب وبع أملكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني" (مت١٩:٢١).

^٢ كلمة "إسرائيل" لا تعني شعب اليهود الحالي الذي فقد إيمانه برفضه للرب محاولاً أن يدعي أنه شعب الله المختار.

عندما نقدم لله العشور نكون لا نزال منحدرين إلى أسفل نحو الأرض تحت عبء الناموس، عاجزين عن الارتفاع إلى علو الإنجيل الذي من يعمل بموجبه يُكافأ ليس فقط ببركات الحياة الحاضرة بل بالخيرات العتيدة... إذ يقول الرب لتلاميذه: "طوبى للمساكين بالروح. لأن لهم ملكوت السموات" (مت ٥: ٣). "وكل من ترك بيوتاً أو أخوة أو أخوات أو أباً أو أمّاً أو امرأة أو أولاداً أو حقولاً من أجل اسمي يأخذ مائة ضعفٍ ويرث الحياة الأبدية" (مت ١٩: ٢٩).

جدير بالثناء لا أن نفلح عن الأمور المحرمة، بل ونزهد الأمور المحللة، عالمين بأنه قد سُمح لنا أن نستخدمها بقدر ضئيل من أجل ضعف بشرتنا. لهذا إن كان الذين يقدمون عشور ثمارهم في طاعة لوصايا الله بإخلاص لا يقدرون أن يرتفعوا إلى علو الإنجيل، فكيف يكونوا مشتركين في نعمة الإنجيل أولئك الذين يتغافلون عن تنفيذ وصايا الناموس الهينة؟ والتي يشهد عنها واهب الناموس إن اللعنة تحل بالذين يغفلونها... "ملعون من لا يقيم كلمات هذا الناموس ليعمل بها" (تث ٢٧: ٢٦). لكن في عهد النعمة فإنه بسبب سمو الوصايا وعلوها يقال "من استطاع أن يقبل فليقبل" (مت ١٩: ١٢). في عهد الناموس نجد قوة الإلزام القوي من أجل سهولة الشرائع فيقول: "أشهد عليكم اليوم السماء والأرض أنكم تبيدون سريعاً عن الأرض" (تث ٤: ٢٦). لكن تظهر سمو الوصايا وعلوها في الحقيقة من أن الله (في العهد الجديد) لا يأمر بل ينصح قائلاً: "إن أردت أن تكون كاملاً اذهب" اعمل هذا أو ذاك.

في العهد القديم يضع موسى ثقلاً لا يحق أن يرفضه غير الراغبين ، وهنا بولس ينصح الراغبين في الكمال والمشتاقين إليه. لأن هذا لا يتمتع به الكل ولا يطلبه الكل كنناموس إلزامي لأنه لا يقدر الكل أن يتممه بسبب طبيعته العجيبة السامية، إنما بالنصح يحث الكل بالنعمة، فالذين يرتفعون يستحقوا أن يكلوا بسبب كمال فضائلهم. أما الضعفاء فلا يستطيعوا أن يصلوا إلى "قياس قامة ملء المسيح" (أف ٤: ١٣)، فإنهم وإن لم يدركوا التمتع ببهاء لمعان الكواكب...، لكنهم يقدرون أن يتحرروا من لعنات الناموس ولا يقاسوا من بلايا حاضرة، ولا يُعاقبوا بعقاب أبدى (ويكون لهم نصيب أبدى لكن ليس مثل من صاروا كواكب لامة)^٣.

إذن لا يُكره المسيح أحداً أن يرتفع بالإلزام على مرتفعات الصلاح السامية هكذا، إنما يحثه بنصائح حكيمة، ويشوقه للكمال ليقبله بإرادته الحرة. لأنه إذا من وجد أمر فيكون لزاماً على من يخالفه أن يسقط تحت العقاب. وبالتالي من ينفذه يهدف إلى تجنب العقاب الذي هدد به الناموس القاسي وليس لنوال مكافأة أو صواب.

٦ - نعمة الإنجيل تعضد الضعفاء

كما أن كلمة الإنجيل ترفع الأقوياء إلى مرتفعات سامية وعالية، كذلك لا تسمح للضعفاء أن ينحدروا إلى الأعماق، لأنها تضمن للكاملين تمام البركة، وتهب غفراناً للذين ينهزمون بسبب الضعف. فالناموس وضع الذين ينفذونه في حالة وسطى، فلا يسقطوا في دينونة العاصين وفي نفس الوقت لا ينالوا مجد الكاملين. لكن هذا أمر مملوء بؤساً، لأننا إن قارناه بما يحدث في الحياة الحاضرة، فإنه يكون أمراً رديئاً أن يتعب الإنسان ويبذل العرق لا ليصير غنياً ومكرماً ومشهوراً إنما خشية أن يعتبره الصالحون مجرمًا.

^٣ واضح أن هذا الحديث يخص الوصايا الخاصة بالكاملين مثل الرهبة والبتولية الاختيارية والفقر الاختياري الخ. الأمور التي لم تكن في الناموس.

٧- سلطاننا أن نختار البقاء تحت نعمة الإنجيل أو تحت خوف الناموس؛

لهذا السبب فإننا اليوم لنا سلطان أن نختار الحياة تحت نعمة الإنجيل أو تحت خوف الناموس. فكل إنسان أن يميل إلى جانب أو آخر حسب صفة أعماله. أما نعمة المسيح فترحب بالذين يفوقون مطالب الناموس. أما الناموس فيخضع تحته الضعفاء الذين هم مدينون له وفي قبضته.

فالشخص الخاضع لشرائع الناموس، ولم يُوفِ مطالبها بعد لا يقدر أن يصل إلى كمال الإنجيل، حتى ولو كان يفخر - في تهاونه - أنه مسيحي ومتحرر بنعمة الرب. لأنه يلزمنا ليس فقط أن نعتبر الإنسان الراضى تنفيذ ما يطلبه الناموس أنه لا زال تحت الناموس، بل والذي يكتفي بالتوقف عند حدود مطلب الناموس، دون أن تكون له ثمار تليق بدعوة المسيح ونعمته حيث لا يطلب الرب العشور والبكور بل يقول "اذهب وبع أملكك وأعط الفقراء... وتعال اتبعني" (مت ١٩: ٢١). وبسبب عظمة الكمال لم يسمح للتلميذ حتى بوقت قصير لكي يذهب ويدفن أباه (مت ٨: ٢١)، لأن فضيلة الحب الإلهي تفوق مرتبة الواجب الإنساني.

٨- تحريضه زوجته لنبذ العالم

إذ سمع ثيوداس المبارك هذا الكلام التهب قلبه بشوق لا يحد إلى كمال الإنجيل، واستودع - على حد التعبير - بذرة الكلمة التي قبلها في ثنايا قلبه المثمرة العميقة المنكسرة. إذ انسحقت نفسه بسبب فشله في بلوغ كمال الإنجيل متممًا بالجهد وأمر الناموس إذ اعتاد أن يقدم كل عام عشور ثماره لله. وكان يبكي لأنه لم يكن قد سبق له أن سمع عن البكور، وإن كان يدفعها فإنه إلى هذا الحد لا يزال - في نظر الشيخ - بعيدًا جدًا عن كمال الإنجيل.

عاد إلى بيته حزينًا... وعزم أن يحول كل اهتمام زوجته وشوق عقلها نحو الخلاص. وبدأ يحثها بنفس مشتاقة متلهفة على ما انشغل به. كان ينصحها حائًا إيّاها بدموع نهارًا وليلاً لكي ما يخدم الله سويًا في قداسة وعفة، قائلاً لها إنه يجدر بهما ألا يؤجلا تحولهما إلى الحياة الأفضل، لأن حادثة سنهما لا يعفيهما من احتمال موت مفاجئ محتوم...

٩- ولما كانت زوجته قاسية لم توافق، فتأبر بتوسلات من أجل هذا الأمر... وبعدما حاججها بخصوص ضعف الطبيعة البشرية لمدة طويلة كان يقول لها إنه لا يليق بأي إنسان أن يحرم نفسه من تلك الفضيلة التي يلزمنا الالتصاق بها، وأن ازدرائنا بالصالح بعدما نتعرف عليه هو أشد خطرًا من عدم حبنا له قبل أن نتعرف عليه...

هذا وسمو الكمال مبسوط لكل سن ولكل جنس، وقد نُصح جميع أعضاء الكنيسة أن يتسلقوا مرتفعات الصلاح السماوية، إذ يقول الرسول: "هكذا اركضوا لكي تنالوا" (١كو ٩: ٢٤). لهذا لو كان ممكنًا أن نصغي بتعقل، ونتحول سويًا إلى هذا الاختيار المشتبه للغاية، أقصد أن نخدم الرب سويًا... فإنني لا أرفض رباط الزواج، لا بل أسلم به في حب أعظم. لأنني بهذا أشهد معترفًا لزوجتي التي عينها لي الرب وأكرمها، ولا أرفض الارتباط بها برباط الحب في المسيح، الذي لا ينفك أبدًا.

^٤ واضح جدًا أنه لا يقصد العودة إلى الناموس الموسوي وطوقسه وإنما بصير الإنسان في عبادته بروح الناموس القديم من جهة الخوف، أي عبادة العبيد الذين يخشون سيدهم بغير أن تكون لهم دالة...

^٥ جاء في تاريخ الكنيسة أمثلة كثيرة لعائلات التهب قلوبهم بحياة التأمل الإلهي فخرجوا إلى الأديرة في محبة واتفاق ورضى.

١٠- لا يتصور أحد أننا قلنا هذا لأننا ندين الزواج في أي صورة من صورته، إنما نتبع كلمات الرسول القائل أن الزواج مكرم في كل شيء والفرش غير مدنس...

١٠- سؤال: لماذا لا نصوم أو نصنع مطانيات في الخماسين؟

لقد حان الوقت الذي فيه نتابع المناظرة التي وعدنا بها. فإذا جاءنا الأب ثيونس ليفتقدنا في قلايتنا أثناء الخماسين بعدما انتهت تسبحة المساء، جلسنا معًا على الأرض، وبدأنا نتأمل بدقة لماذا كان (الرهبان المصريون) حريصين إلى هذا الحد ألا يحني أحد منهم ركبته أثناء الصلاة في أيام الخماسين، ولا يجروا أن يصوم حتى الساعة التاسعة، وقد استفسرنا عن ذلك لأننا لم نر في أديرة سوريا مراعاة هذا الأمر بعناية كهذه.

١٢- ثيونس

بدأ الأب ثيونس يجيب على هذا قائلاً:

حقًا يليق بنا، حتى إن كنا لا نعرف السبب، أن نخضع لسلطان آبائنا وتقليد أسلافنا الذي داوموا عليه سنين عديدة إلى وقتنا هذا، فنراعيه كأمر مُسلم إلينا من القدم، باحترام لائق واهتمام دائم. لكن إذ تريدون أن تعرفوا أساس هذا الأمر وأسبابه فإنني أسلمكم في كلمات قليلة ما قد تسلمناه من آبائنا بخصوص هذا الموضوع...

لقد عينت الحكمة الإلهية في سفر الجامعة أن لكل شيء وقت مناسب له، سواء كان هذا الأمر مفرحًا أو مؤلمًا... إذ تقول: "كل شيء زمان ولكل أمر تحت السموات وقت. للولادة وقت وللמות وقت. للغرس وقت وللقع المغروس وقت. للقتل وقت وللشفاء وقت. للهدم وقت وللبناء وقت. للبكاء وقت وللضحك وقت. للنوح وقت وللرقص وقت. لتفريق الحجارة وقت ولجمع الحجارة وقت. للمعانقة وقت وللانفصال عن المعانقة وقت. للكسب وقت وللخسارة وقت. للصيانة وقت وللطرح وقت. للتمزيق وقت وللتخييط وقت. للسكوت وقت وللتكلم وقت. للحب وقت وللبغضة وقت. للحرب وقت وللصلح وقت" (جا ٣: ١-٨). وأيضًا يقول: "لأن لكل أمر ولكل عمل وقت" (جا ٣: ١٧). وعلى هذا ليس شيء من هذا يكون صالحًا إلا إذا صنع في الوقت المناسب المضبوط.

هذه الأمور التي تُصنع في وقت معين تظهر صالحة إذا صنعت في اللحظة المضبوطة، أما إذا أقدم الإنسان عليها في غير وقتها تصير بلا نفع أو ضارة. هذا يخالف الأمور التي بطبيعتها الخاصة صالحة أو شريرة، والتي لا يمكننا أن نحول طبيعتها إلى الجانب الآخر. وذلك مثل الحكمة والاحتمال والعفة وغير ذلك من الفضائل، أو مثل الخطايا التي لا يُمكن بأيّة حال أن نغير من وصفها أو نجعلها تحت عنوان آخر. أما الأمور التي يمكن أن تظهر صالحة أو شريرة حسب شخصية من يستخدمها، هذه لا نعتبر طبيعتها في ذاتها مفيدة أو ضارة، إنما حسب عقل صانعها ووقت صنعه لها.

١٣- نوع صلاح الصوم

لو اعتقدنا أن الصوم ضمن قائمة الفضائل السابقة الذكر حتى أن مجرد الامتناع عن الطعام يكون صالحًا في ذاته، فإنه بهذا حتمًا يكون الاشتراك في الطعام أمرًا شريرًا بطبعه، لكن الكتاب المقدس لا يسمح بهذا. لأننا إن صُمنا بهذا الفكر وذلك المقصد ظانين أن من يتناول الطعام يسقط في الخطية، فإننا ليس فقط لا ننال نفعًا عن امتناعنا عن الطعام والشراب، إنما نسقط في بدعة فظيعة وضلال. وكما يقول الرسول: "أمرين أن يُمتنع عن أطعمة قد خلقها الله لتتناول بالشكر من المؤمنين وعارفي الحق، لأن كل خليفة الله جيدة ولا يُرفض شيء إذا أُخذ مع الشكر" (١ تي ٤: ٣). لأنه "ليس شيء نجسًا بذاته إلا مَنْ يحسب شيئًا نجسًا فله هو نجس"

(رو ١٤: ١٤).

لذلك لا نقرأ قط عن أحد أنه سيُلام من أجل تناوله الطعام، إنما يدان من أجل ارتباطه به أو الاستبعاد له.

١٤ - ليس الصوم صالحاً في ذاته

من هذا يظهر بوضوح أن الصوم ليس هو بالأمر الشرير ولا الصالح. بمعنى أنه يجلب التبرير عندما نراعيه كما ينبغي، لكن لا نسقط في الدينونة عندما نمتنع عنه (للضرورة)...

فالأمور التي نستخدمها في ظروف معينة وأوقات مناسبة تقدسنا عندما نراعيها من غير أن تفسدنا عندما نتركها، هي أمور ليست صالحة ولا شريرة، وذلك مثل الزواج والزراعة والثروة والاعتزال في الصحراء والسهر وقراءة الكتاب المقدس والتأمل فيه والصوم الذي هو موضوع نقاشنا... لذلك فإن هذه الأمور أو بعضها أمرنا أسلافنا أن ننفذها بتبصر، وأن نهتم بالدافع لها ومكان التنفيذ والوسيلة والزمن، لأننا متى نفذناها بطريقة مناسبة تصير صالحة وملائمة وإن صنعناها بانحراف تصير شريرة ومؤذية.

مثلاً إذا قدم علينا أخ أما يلزمنا أن نخدم السيد المسيح في شخص الأخ فنستقبله بترحاب ولطف للغاية، ويكون من الوقاحة أن نلتزم بالصوم الحازم أمامه فننال منه مديحاً ومكافأة من أجل تعبدنا؟!

وإذا ألزمتنا عجز الجسد أو ضعفه أن نأكل لكي نسترجع قوتنا، أفلا يُعتبر الامتناع عن الطعام والشراب باستهتارٍ كقتل للجسد أكثر منه حرصاً على خلاص النفس؟

كذلك إذ يتناسب مع العيد أن يأكل الإنسان طعاماً دسماً إلى حد ما، فإن صمم الإنسان على الصوم أفلا يعتبر كإنسانٍ فظ ومخالف؟!

كذلك يعتبر الصوم شراً بالنسبة للذين يترقبون به مديح الناس. هؤلاء تقول عنهم كلمة الإنجيل إنهم قد نالوا أجرهم في هذه الحياة. بل ويرفض الله صومهم إذ يقول على لسان النبي: "يقولون لماذا صمنا ولم تنتظر؟! ذلّلنا أنفسنا ولم تلاحظ؟! ها إنكم في يوم صومكم تُوجدون مسرةً وبكل أشغالكم تسخرون. ها إنكم للخصومة والنزاع تصومون ولتضربوا بكلمة الشر. لستم تصومون كما اليوم لتسميع صوتكم في العلاء. أمثل هذا يكون صوم أختاره؟! يوماً يذلّل الإنسان فيه نفسه يحيي كالأسلة رأسه ويفرش تحته مسحاً ورماداً. هل تسمي هذا صوماً ويوماً مقبولاً للرب؟! أليس هذا صوماً أختاره حلّ قيود الشر. فكَّ عَقْد النير وإطلاق المسحوقين أحراراً وقطع كل نير؟! أليس أن تكسر للجائع خبزك وأن تدخل المساكين التائهين إلى بيتك. إذا رأيت عرياناً أن تكسوه وأن لا تتغاضى عن لحمك؟! حينئذٍ ينفجر مثل الصبح نورك وتنبت صحتك سريعاً ويسير برك أمامك ومجد الرب يجمع ساقتك. حينئذٍ تدعو فيجيب الرب. تستغيث فيقول هأنذا" (إش ٥٨: ٣-٩).

ها أنتم ترون كيف لا يعتبر الله الصوم صالحاً في ذاته، إنما يصير صالحاً وساراً لله متى اقترن بأعمال أخرى. في ظروف معينة لا يحسب الصوم باطلاً بل ومكروهاً فعلاً، إذ يقول الرب: "حين يصومون لا أسمع صراخهم" (إر ١٤: ١٢).

١٥ - الصوم وسيلة لا غاية

يجدر بنا ألا نمارس الرحمة والصبر والحب... الأمور الصالحة بطبعها من أجل الصوم، بل بالأحرى نمارس الصوم من أجلها. فإن همتنا هي أن نبليغ تلك الفضائل الصالحة خلال الصوم، وليس أن نبليغ الصوم

خلال هذه الفضائل كنتيجة لها. فإذا ألمّ الجسد مفيد، لهذا استخدم الآباء هذا العلاج، أي الزهد في الطعام والشراب، لكي ننجح في الوصول إلى الحب، أي لنبلغ الأمر الصالح الذي لا يتغير خلال الزمن.

لأن الفنون لا تُستخدم من أجل الأدوات الخاصة للعمل بها، إنما بالأحرى تُستخدم الآلات لأجل ممارسة الفن... وكما أن هذه الأدوات مفيدة للذين يفهمونها، كذلك فهي غير نافعة للذين يجهلون استخدامها. وكما أنها تعين الذين يستخدمونها، تكون بلا نفع للذين لا يعرفون غرضها بل يتوقفون عند مجرد امتلاكها وليس للعمل بها... إذن الشيء غير الصالح أو طالح في ذاته هو وسيلة لتحقيق ما هو صالح بطبعه، أما الثاني فلا يستخدم من أجل الأول بل لأجل ذاته.

١٦ - علامات الأمر الصالح بطبعه

ويمكن تمييز الشيء الصالح بطبعه عما هو ليس بصالح ولا شرير بالعلامات الآتية:

- (أ) إذا كان صالحاً بذاته وليس بسبب شيء آخر.
- (ب) إذا كان نافعاً بذاته وليس بشيء آخر.
- (ج) إذا كان يبقى صالحاً دون تغيير خلال الزمن، فلا ينقلب إلى الضد.
- (د) إذا كان في الامتناع عنه لا يسبب ضرراً.
- (هـ) إذا كان ما هو عكسه يكون مضراً بطبعه ولا يمكن أن يتحول ليصير صالحاً.

بتطبيق هذه الأوصاف على "الصوم"، نجده ليس صالحاً في ذاته، ولا هو نافع في ذاته ما لم يُستخدم بحكمة بقصد اقتناء نقاوة القلب والجسد، لأنه عندما تضعف وخزات الجسد تهدأ النفس وتصلح مع خالقها. ولا هو صالح صالحاً بلا تغيير في كل الأوقات، لأنه كثيراً ما لا يصيبنا ضرر بسبب الانقطاع عنه، بل أحياناً يصيبنا ضرر متى استخدمناه استخداماً خاطئاً. ولا يبدو ما هو عكسه كأمر شرير، اللهم إلا إذا كان فيه إفراط في الأكل أو تنعم وترف... لأنه "ليس ما يدخل الفم ينجس الإنسان. بل ما يخرج من الفم هذا ينجس الإنسان" (مت ١٥: ١١).

١٨ - كيف لا يكون الصوم مناسباً في كل الأوقات؟

إذ تكلمنا عن شروط الصوم، يبدو أنه من المناسب أن نأتي بشهادة الكتاب المقدس من جهة أن الصوم لا يجوز أن يكون على الدوام. جاء في الإنجيل أنه إذ كان الفريسيون صائمون هم وتلاميذ يوحنا، لم يحفظ التلاميذ طقس الصوم بكونهم أصدقاء العريس السماوي. اشتكى تلاميذ يوحنا للرب، هؤلاء الذين ظنوا أنهم اقتتوا البر الكامل بأصوامهم لكونهم أتباع الكارز بالتوبة العظيم الذي قدم مثلاً صالحاً لجميع الناس بقوته، رافضاً ليس فقط تنوع الأطعمة بل والخبز الذي هو الطعام العام بين الكل، قائلين له: "لماذا نصوم نحن والفريسيون كثيراً وأما تلاميذك فلا يصومون؟!" (مت ٩: ١٤) أوضح لهم الرب أن الصوم ليس مناسباً أو ضرورياً في كل الأوقات كما في يوم العيد، أو بدافع محبة لإكرام ضيف، قائلاً لهم: "هل يستطيع بنو العرس أن ينوحوا ما دام العريس معهم. ولكن ستأتي أيام حين يُرَقَّع العريس عنهم فحينئذ يصومون" (مت ٩: ١٥). هذه الكلمات نطق بها قبل قيامته مشيراً إلى فترة عيد الفصح إذ أكل بعد قيامته مع تلاميذه خلال الأربعين يوماً، وبسبب فرحهم الدائم بحضوره وسطهم لم يسمح لهم أن يصوموا.

١٩ - لماذا لا نصوم خلال الخماسين؟

جرمانئوس: لماذا نكف عن صرامة الصوم خلال الخمسين يوماً، مع أن المسيح ظل مع تلاميذه أربعين يوماً

فقط بعد قيامته؟

٢٠ - الأب ثيودور

يلزمنا أن نقدم جوابًا حقيقيًا مضبوطًا لسؤالك السديد هذا. بعد صعود مخلصنا الذي تم في اليوم الأربعين بعد قيامته، رجع التلاميذ من جبل الزيتون... ودخلوا إلى أورشليم وانتظروا عشرة أيام من أجل حلول الروح القدس. وإذا تحقق ذلك في اليوم الخمسين قبله بفرح. هكذا تحقق العيد بوضوح بعدما جاء بصورة رمزية في العهد القديم حيث كان يُطلب عمل عيد بعد سبعة أسابيع (٤٩ يومًا ابتداء من وضع المنجل في الزرع)، فيه يقدمون للكهنة بكور الثمار، وقد قدم الشعب في يوم الخمسين طعامًا حقيقيًا نتيجة وعظ الرسل في ذلك اليوم كبكور للتعليم الجديد وبداية للشعب المسيحي للرب... لهذا يلزم أن تبقى هذه الأيام العشرة بنفس الوقار والفرح اللذين للأربعين السابقة. وقد أخبرنا التقليد الذي استلمناه من رجال رسوليين أن نحفظ هذا النظام. فلا نحني ركبتنا في هذه الأيام أثناء الصلاة، لأن احناء الركب علامة الندامة والنوح، إنما نراعي هذه الأيام كاحتفالات مثل يوم الأحد، فلا نحني ركبتنا ولا نصوم تكريمًا لقيامه الرب.

٢١ - أما يضر الامتناع عن الصوم طهارة الجسد؟

جرمانوس: أما يجذب الجسد إلى الإهمال مما يزيد من مثيرات الخطية التي بُثرت، وذلك بتنعنا بالمأكولات غير العادية في عيد طويل هكذا؟ أو هل تستطيع النفس المثقلة بسبب الإسراف في الولائم غير العادية ألا تخفف من سيطرتها على الجسد - العبودية لها - خاصة بالنسبة لمن هم في سننا حيث يمكن لأعضائنا أن تثور ثورة سريعة متى تجربنا على تناول طعامنا العادي بكميات أكبر، أو طعامًا غير عادي بحرية فوق ما اعتدنا؟!

٢٢ - ثيودور

إن كنا نصنع كل عمل باتزان، غير فاحصين آراء الناس الآخرين من جهة نقاوة قلبنا، بل نفحص ضمائرنا ذاتها، فإن هذه الفترة التي للراحة لن تقلل من حزمنا وضبطنا لأنفسنا. ذلك فقط كما قلت لو فكر عقلنا في الحدود المعقولة الخاصة بالسماح لنا بالأكل أو عدم السماح به، ممتنعين عن كل إفراط في أي الجانبين، مميزين بإفراز حقيقي إن كان اندفاعنا في التمتع ثقل على أرواحنا أو مغاللتنا الزائدة في الصوم ما يتقلها أيضًا... فإن ربنا لا يرضى أن نفعل شيئًا من أجل مجده دون أن نمزجه بالإفراز (التمييز) لأن عز الملك أن يحب التمييز (الحق) (مز ٩٩: ٤). لهذا نجد سليمان - أحكم الناس - يحثنا على عدم الانحراف في أي الجانبين قائلاً لنا أن نكرم الرب بالأتعاب المملوءة براء ونقدم له ثمار البر.

فإذا سكن في ضميرنا قاضي عادل غير مرتشٍ، فإنه حتى إن أخطأ الكل لكن نقاوتنا الداخلية لن تتخدد قط. وهكذا يلزمنا أن نحتفظ بهدوء دائم في قلبنا المتيقظ بكل اجتهاد واهتمام، حتى لا يضل حُكم إفرازنا، فننشغل بمجرد صوم مملوء حماقة (أي مفرط) أو بتلذذ باسترخاء زائد. وهكذا ننقل قوتنا في ميزان غير سليم. إنما يجب علينا أن نضع نقاوة نفوسنا في كفة وقوتنا الجسمية في كفة أخرى، ونزنهما بحكم ضميرنا العادل، حتى لا نميل منحرفين إلى كفة على حساب الأخرى، أي إلى حزم غير لائق أو استرخاء بتفريط...

لأن تقدمات الصوم التي نندفع فيها بلا تفكير تمزق أمعاءنا بعنف ونحن حاسبون أنها تُقدم بطريقة سليمة للرب. لكن ذاك الذي "يحب البر والعدل (الإفراز)" (مز ٣٣: ٥) يكره السلب في تقدمه المحرقة... الذين يسلبون النصيب الأكبر من تقدمتهم (إذ يصومون للكرامة البشرية)... تاركين النصيب الأصغر جدًا للرب، هؤلاء

تدينهم الكلمة الإلهية كفعل خادعين قائله لهم: "ملعون من يعمل عمل الرب بغش (برخاوة).." (إر ١٠:٤٨).

إذن ليس بغير سبب يوبخ الرب من يخدع نفسه باعتبارات غير صحيحة فيقول: "إنما باطل بنو آدم. كذب بنو البشر. في الموازين هم إلى فوق" (مز ٩:٦٢). لهذا يوصينا الرسول المبارك أن نقبض بزمام الإفراز ولا ننحرف إلى المغالاة في أي الطريقين (رو ٣:١٢). ويمنع واهب الشريعة نفس الأمر قائلاً: "لا تتركبوا جوراً في القضاء لا في القياس ولا في الوزن ولا في الكيل" (لا ٣٥:١٩). إذن يجدر بنا ألا نكون في قلوبنا موازين ظالمة، ولا موازين مزدوجة في مخزن ضميرنا، بمعنى أنه يجب علينا ألا نحطم من يلزمنا أن نركز لهم بكلمة الرب، بشرائع حازمة مغالى فيها أثقل مما نحتملها نحن، بينما نعطي لأنفسنا الحرية ونخفف منها... لأنه إن كنا نزن لاختوتنا بطريقة ولأنفسنا بأخرى يلومنا الرب بأن موازيننا غير عادلة ومقاييسنا مزدوجة، وذلك كقول سليمان بأن الوزن المزدوج هو مكروه عند الرب والميزان الغاش غير صالح في عينيه (راجع أم ١٠:٢٠).

٢٣ - وقت الراحة وقدرها

بهذا يجدر بنا مراعاة الأيام المذكورة بطريقة كهذه حتى يمكن أن تكون الراحة مفيدة وغير مضرّة للجسد والنفس. لأن فرحة أي عيد لا تُضعف أشواك الجسد، ولا يمكن لعدونا المتوحش (الشيطان) أن يهدأ بسبب أيام الراحة هذه. فلنكن ما نحفظ تقاليد موسم العيد، ولكي لا نخضع لقانون الصوم... يكفي لنا في هذا الوقت أن نتناول الطعام الساعة السادسة^٦ (١٢ ظهرًا) بدلاً من الساعة التاسعة، من غير أن نغيّر من كمية الطعام ونوعه حتى لا نفقد نقاوة الجسد وصلاح النفس الذين نلناهما أثناء الصوم الكبير...

يجب أن نحترس بيقظة إلى المنتهى لنلا تخور نفوسنا بسبب الغوايات فنفقد نقاوة طهارتنا التي نلناها وذلك بالراحة والإهمال في وقت عيد الفصح بعد جهاد مستمر طوال الصوم الكبير. لهذا يلزمنا ألا نضيف شيئاً إلى نوع الطعام أو كميته، بل حتى في اسمي الأعياد يجب أن نمتنع عن هذه الأطعمة حتى لا يثير فينا فرحنا بالعيد صراعاً مميئاً للغاية بسبب الشهوات الجسدانية، وهكذا نتحول إلى الحزن. فنعود نبكي نقاوة قلبنا المفقودة بحزن الندم اللانهائي.

في نفس الوقت يجدر بنا أن نسعى لنلا نُوبخ بهذا التحذير "عَيِّدي يا يهوذا أعيادك أوفي ندورك" (نا ١٥:١). لأنه إن كانت أيام العيد لا تتعارض مع استمرار زهدنا، فإننا نتمتع بأعياد روحية دائمة...

٢٤ - بخصوص عدد أيام الصوم الكبير

لم يعلمنا أسلافنا شيئاً غير معقول. ففي الناموس كانت الوصية لجميع الناس "تقدمون للرب إلهكم عشوركم ويكوركم". وإذ نحن نؤمر بتقديم عشور ثروتنا المادية وكل ثمارنا، نحتاج بالأكثر أن نقدم عشور حياتنا وأعمالنا وأفعالنا العادية، والتي بلا شك نقدمها خلال الصوم الكبير. لأن عشور السنة ٣٦ يوماً ونصف تقريباً. لكن في السبعة أسابيع إذا طُرحت منها الآحاد والسيوت يتبقى ٣٥ يوماً للصوم (الانقطاعي). وبإضافة عشية عيد الفصح أي طول يوم السبت حتى صباح الديك في فجر العيد لا يصير العدد ٣٦ يوماً فحسب بل وعليه عشور الخمسة أيام الأخرى وذلك إذ حسبنا الجزء من الليل الذي أضيف على يوم السبت.

٢٦ - بخصوص البكور

ماذا أقول عن البكور التي يقدمها كل خدام المسيح بإخلاص كل يوم؟ عندما يستيقظون من النوم

^٦ يظهر بوضوح أن هذا يخص الرهبان.

وينهضون بنشاط متجدد بعد فترة راحة، قبل أن يدخل إليهم أي فكر، أو يقبلوا تذكر أي عمل يكرسوا بداية أفكارهم كتقدمة مقدسة للرب. ماذا يفعلون سوى تقديم بكور محصولهم عن طريق الكاهن الأعظم - يسوع المسيح - لأجل التمتع بهذه الحياة؟...

أيضًا عندما يستيقظون من النوم، يقدمون أيضًا لله قربان الفرح متضرعين إليه بأول حركة من حركات ألسنتهم لمده اسمهم ومجده، فاتحين باب شفاهم أول كل شيء في ترتيل الألحان له لتخدم الله.

بنفس الطريقة أيضًا يقدمون بكور ذبائح أيديهم وخطواتهم، عندما يقومون من الفراش ويقفون للصلاة قبل أن يستخدموا أطرافهم في أعمالهم الخاصة... يقدمون بكور كل حركاتهم ببسط أيديهم واحناء ركبهم وإخضاع الجسد كله... لأننا لا نستطيع بطريق آخر أن نحقق ما ترنم به المزمور: "سبقت قبلت في غير وقت وصرخت.. سبقت عيناى وقت السحر لألهج في جميع أقوالك" (مز ١١٩: ١٤٧، ١٤٨) إلا إذا كنا بعد فترة راحة النوم نعود إلى هذا النور كما من الظلام والموت، لا نتجاسر بالبده في أية خدمة من كل الخدمات الخاصة بالعقل والجسد لنفعلنا الخاص...

لنحرص قدر المستطاع أن ننتيقظ لكي نقدم أول أفكارنا الصباحية وبكرها قبل أن تتدنس بواسطة عدونا الحسود الذي يحاول أن يمتلكها بسرعة، فتكون بكور ثمارنا مرفوضة من الرب كشيء لا قيمة له. فإذا لم ننتبه متيقظين فإنه لا يكف عن أن يشغلنا العدو كعادته ويسبق فيمتلك أفكارنا بحيله كل يوم. لهذا إن كنا نريد أن نقدم بكور ثمارنا لتكون مقبولة لدى الله وموضوع رضائه، يلزمنا ألا نضيع أقل اهتمام لكي نحفظ حواس جسدا للرب، خاصة في أثناء ساعات الصباح لتكون محرقة نقية بلا دنس في شيء...

هذا النوع من العبادة يراعيه كثير من سكان العالم باهتمام بالغ، إذ يستيقظون قبل السحر باكر جدًا ولا يختلطون بأي عمل عادي أو ضروري، وقبل أن يسرعوا إلى الكنيسة مكرسين بكور عملهم وفعلهم لله^٧...

٢٩ - عدم توقف الكاملين من الرهبان عند حدود الصوم المفروض

الإنسان البار والكامل لا يتقيد بهذا القانون الخاص بالصوم الكبير ولا يقف عند هذا الحد البسيط الذي أسسه رؤساء الكنيسة للمنشغلين في أعمالهم وغير صائمين طول العام، وذلك لكي ما يتقيدوا بهذا الالتزام القانوني، مجبرين أن يخصصوا هذه الأيام (صائمين) للرب، مكرسين عشور حياتهم له، إذ بغير هذا القانون يمكن أن يتراخوا طوال حياتهم مستغلين كل وقتهم لنفهم الخاص الزماني. أما الكاملون فلا يُفرض عليهم قانون، ولا يخضعون لواجب بسيط، أي العشور، إنما يصومون كل وقتهم، لأنهم أحرار من ثقل العشور التي حسب الناموس. لكن إذا كانت هناك مناسبة هامة وظرف خاص يمكنهم بغير تردد أن يحلوا صيامهم، لأنهم لم يقدموا العشور التافه بل قدموا كل ماله للرب...

٣٠ - أصل الصوم الكبير وبدايته

يجب أن تعرفوا أنه طالما احتفظت الكنيسة الأصلية بكمالها صحيحًا لا يوجد طقس الصوم الكبير

^٧ تحدث بعد ذلك عن صوم الأربعين وقد رأينا كيف أنه ٣٦،٢/١ يومًا انقطاعي كعشور للسنة، لكنه دعي كذلك:

(أ) تمثلاً بالرب نفسه موسى وإيليا...

(ب) أو لأن الـ ٤٠ يومًا تماثل الجزية التي اعتاد الناس أن يقدموها للملك.

(ج) تذكيرًا لمدة البرية (٤٠ عامًا)، أي أننا في برية هذا العالم.

لأنهم لم يكونوا مقيدين عند حدود هذا الصوم الضيقة جدًا إنما شمل صومهم العام كله بلا استثناء. لكن رأت الكنيسة خشية أن ينحل البعض من جهة الزهد والانسحاق أن تفرض قانونًا كنسيًا يُدفع كمثل عسور قانونية. ذلك من أجل نفع الاخوة الضعفاء، وفي نفس الوقت يصير الكاملون الذين يعيشون تحت نعمة الإنجيل متعبدين تعبدًا اختياريًا فوق مطالب الناموس (أي صائمين العام كله باختيارهم).

٣١- شرائع الإنجيل أخف من شرائع الناموس

كل من يتسلق مرتفعات الكمال الإنجيلي يرتفع إلى أعالي الفضيلة متخطيًا كل قانون، ناظرًا إلى ما قد أمر به موسى على أنه أمر بسيط سهل، مدركًا أنه بخضوعه لنعمة المخلص يصل إلى تلك الحالة التي هي في غاية السمو. على هذا لا يكون للخطية سلطان عليه "لأن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المعطى لنا" (رو ٥: ٥). بهذا يُنزع عنه كل اهتمام بأي أمر آخر، ولا يرغب في صنع ما هو ممنوع عنه، أو يهمل فيما قد أمر به، لكن إذ يكمن كل هدفه وكل اشتياقه في الحب الإلهي على الدوام لا يقع في التلذذ بالأمور التافهة، بل ولا يطلب حتى الأمور المسموح له بها.

تحت الناموس يسمح بالزوجات الشرعيات، وهذا فيه قمع للذة والخلاعة، مكتفيًا الإنسان بامرأة واحدة... لكنه لا يبطل بهذا وخزات الشهوة الجسدانية، ويصعب إطفاء النار المتقدة والتي تُموّن بوقود دائم، حتى لا تخرج إلى الخارج... فلا يسمح لنار الشهوة أن تخرج خارج هذه الحدود (أي خارج حدود زوجته). لكن رغم وجود هذه الحدود إلا أنها تبقى في الداخل مكبوتة والإرادة ذاتها مخطئة (إذ يشتهي في قلبه ولو أنه لا يزني جسديًا). أما الذين تضرهم نعمة المخلص بحب الطهارة المقدس، فإنهم يُهلكون كل أشواك الشهوات الجسدية في نار حب الرب...

إذن الخاضعون للناموس مع استعمالهم لما هو مشروع ينحطون بالتدريج نحو الأمور المحرمة، أما المشتركون في النعمة فإنهم إذ يتجاوزون (بإرادتهم) عما هو محلل لا يعرفون شيئًا عن الأمور المحرمة...

كذلك من يقنع عند حد دفع العسور والبكور... بالتأكيد يخطئ في طريقة التوزيع أو كميته... أما الذين لم يزدروا بنصيحة الرب، بل تركوا كل ممتلكاتهم للفقراء وحملوا صليبهم وتبعوا مانح النعمة، لا يكون للخطية سلطان عليهم، إذ لا يساورهم القلق من جهة طعامهم اليومي... ولا يفسد بهجة تقديمهم العطايا بتردد مملوء تبرمًا. لأنه يقوم بتوزيع كل شيء مرة واحدة كتقدمة للرب... ولا يعود له بعد ملكية خاصة، متأكدًا أن الذي يطعم طيور السماء يهتم به عندما ينجح في تجريد نفسه من كل شيء... ، فالشخص الذي يدفع العسور والبكور... يستحيل عليه أن يتخلص من سلطان الخطية، أما الذي يتبع نعمة المخلص، فإنه يتخلص من حب الامتلاك.

كذلك لا يستطيع أن يتخلص من سلطان الخطية من كان بحسب أمر الناموس يقلع عينًا بعين وسنًا بسن ويكره عدوه، لأنه فيما هو يريد أن يرد الشر بالشر منتقمًا عن الضرر الذي أصابه وكارهًا عدوه يشتعل بالغضب والسخط. أما الذي يعيش تحت نور الإنجيل فإنه يغلب الشر بعدم مقاومته، بل باحتماله، بإرادة حرة أن يحتل اللطم على خده الآخر، أو يهب الرداء أيضًا لمن يطلب منه ثوبه، وأن يحب أعداءه، ويصلي للذين يسيئون إليه، بهذا يكسر نير الخطية ويهشم قيودها. لأن من يهلك بذور الخطية، لا تحت الناموس، بل تحت النعمة التي لا تبتز أغصان الشر إنما تقتلع جذوره التي للإرادة الشريرة.

٣٢- كيف يظهر الإنسان أنه تحت النعمة؟

أي إنسان يسعى إلى الوصول إلى كمال التعليم الإنجيلي، هذا الذي يعيش تحت النعمة، لا يسقط تحت

سلطان الخطية، لأن البقاء تحت النعمة معناه العمل بالأمر التي تأمر بها النعمة.

أما الإنسان الذي لا يُخضع نفسه للمطالب الكاملة الخاصة بكمال الإنجيل، فيلزمه ألا يجهل أنه وإن كان قد اعتمد وصار راهباً، لكنه بالرغم من هذا فهو ليس تحت النعمة، إنما مقيد بقيود الناموس ومثقل بأثقال الخطية. لأن ذاك الذي وهب نعمة التبني ويقبل الذين يقبلونه، يرغب في أن يضيف إلى البناء لا أن يهدمه، إذ أراد أن يكمل الناموس لا أن يهدمه.

إذ لا يفهم البعض هذا الأمر، مهملين نصائح المسيح الرائعة ومواعظه، يتخذون من الحرية فرصة للإهمال والتهور الزائد، حتى أنهم يعجزون عن تنفيذ أوامر المسيح كأنها صعبة جداً، محتقرين أيضاً وصايا الناموس الموسوي^٨ كأمر عتيق، مع أن الناموس قدمها للمبتدئين والأطفال. بهذا ينادون بالحرية الخطيرة التي يلعبها الرسول قائلين "أنخطئ لأننا لسنا تحت الناموس بل تحت النعمة؟" (رو ٦: ١٥). هؤلاء ليسوا تحت النعمة، لأنهم لم يتسلقوا قط مرتفعات تعاليم الرب. ولا هم تحت الناموس لأنهم لم يقبلوا حتى تلك الوصايا البسيطة التي للناموس. هؤلاء إذ هم ساقطون تحت سلطان الخطية المزدوج يظنون أنهم قد قبلوا نعمة المسيح... ويسقطوا فيما يحذرنا منه الرسول بطرس قائلاً: "كأحرار وليس كالذين الحرية عندهم سترة للشر." (١ بط ٢: ١٦). ويقول الرسول بولس الطوباوي: "فإنكم إنما دُعيتُم للحرية أيها الاخوة. غير أنه لا تُصيروا الحرية فرصة للجسد" (غل ٥: ١٣)، أي دُعيتُم للتحرر من سلطان الخطية، وليس معنى إبعاد أوامر الناموس بمثابة تصريح بعمل الخطية. وعلّمنا الرسول بولس أن هذه الحرية لا توجد إلا حيث يوجد الرب، إذ يقول: "وأما الرب فهو الروح وحيث روح الرب هناك حرية" (٢ كو ٣: ١٧).

لهذا لست أعرف إن كنت قد استطعت أن أعبر وأشرح قصد الرسول المبارك، لأن الذين لديهم خبرة هم الذين يعرفون ذلك. إنما شيء واحد أنا متأكد إنني أعرفه، وهو أنه من الواضح جداً - دون حاجة إلى شرح - أن أي إنسان ممن اقتنى التدريب العملي يفهم ما جاء بالمناظرة من قبل تدريسه دون حاجة إلى مجرد الفهم^٩...



^٨ يقصد الوصايا وليس الذبائح اليهودية الرمزية، لأن هذه لا يجوز العودة إليها بعدما جاء الرمز (السيد المسيح).

^٩ سأل الأب جرمانبوس بعد ذلك عن السبب الذي لأجله يتبع الصوم الزائد عن الحد كثرة الشهوات الجسدية مما يسبب احتلاماً فيقوم الإنسان من نومه فائزاً في الصلوات. وقد رأي الأب ثيوداس أن يجيب على هذا السؤال في مناظرة أخرى.

ملخص المبادئ

- ✚ من يعيش تحت النعمة يلزمه في تحرره أن يتجاوز مطالب وصايا الناموس.
- ✚ من يستخدم الحرية كوسيلة للهروب من وصايا الناموس، وبالتالي يتهاون في وصايا كمال الإنجيل... مثل هذا يخضع لسلطان الخطية وتكون حرته في حقيقتها تهاون بنعمة الله.
- ✚ وصايا الناموس أسهل وهي إلزامية، أما الإنجيل فوصاياه اختيارية وهي أصعب، ولكن بنعمة الله المجانية أسهل.
- ✚ الصوم وسيلة لنقاوة القلب وليس غاية في ذاته.
- ✚ ليكن لنا ميزان عادل، لأن التهاون في الصوم والمغالاة فيه كلاهما مضران لحياة الإنسان الروحية.
- ✚ لا تؤخذ فترة الخماسين كمجال لإشباع رغبات الجسد، ولا ليأكل الإنسان ويستريح بلا تدقيق.

✚ ✚ ✚

مناظرات يوحنا كاسيان مع مشاهير آباء البرية

٢٣

الكمال الذي نبغيه^١

للأب ثيوناس Abbot Theonas

١ - "لست أفعل الصالح الذي أريده"

إذ بدأ النهار اضطر الرجل المسن تحت إلحاحنا الشديد أن يبحث أعماق الموضوع الذي تحدث عنه الرسول فقال:

أما بخصوص العبارات التي تحاولون أن تظهروا بها أن الرسول لا ينطق بها عن نفسه بل على لسان الخطاة قائلًا: "لأنني لست أفعل الصالح الذي أريده بل الشر الذي لست أريده فأياه أفعل"، أو قوله "فإن كنت ما لست أريده إياه أفعل فلست بعد أفعله أنا بل الخطية الساكنة في"، أو قوله "فإنني أسرُّ بناموس الله بحسب الإنسان الباطن، ولكنني أرى ناموسًا آخر في أعضائي يحارب ناموس ذهني ويسبيني إلى ناموس الخطية" (رو ٧: ١٩-٢٣)، فإنه بالعكس يظهر أن العبارات لا تلائم الخطاة (غير التائبين) بل تنطبق على الكاملين، الذين يقتدون بالرسول الصالحين.

لأنه كيف يمكن أن ينطبق على الخطاة هذا القول: "لأنني لست أفعل الصالح الذي أريده بل الشر الذي لست أريده فأياه أفعل"؟ أو "فإن كنت ما لست أريده فأياه أفعل فلست بعد أفعله أنا بل الخطية الساكنة في"؟!

لأنه أي خاطئ يدنس نفسه كرهًا بالفجور والزنا؟!

من منهم بغير إرادته يصنع مكائد ضد قريبه؟!

من منهم تلزمه الضرورة أن يظلم إنسانًا شاهدًا عليه بالزور، أو يغشه بسرقة، أو يطمع في ممتلكات

آخر، أو يسفك دمه؟!

كلًا! بل يقول الكتاب المقدس: "تصوّر قلب الإنسان شرير منذ حداثته" (تك ٨: ٢١). لأنه إلى هذه الدرجة يلتهب قلبهم بحب الخطية والشهوة راغبين في تنفيذ ما يحبونه، مترقبين باهتمام شديد أن يتمتعوا بشهواتهم "ومجدهم في خزيهم" (في ٣: ١٩). وكما يؤكد إرميا النبي أنهم يرتكبون أثامهم الخبيثة لا بإرادتهم أو

^١ ترجمة: بيت القديسة دميانة.

بانتسراح قلب فحسب بل ويبدلون جهودًا شاقة محتملين أتعابًا في تنفيذها... إذ يقول: "تعبوا في الافتراء" (إر ٥:٩).

أيضًا من يقول أن هذه العبارة: "بذهني أخدم ناموس الله ولكن بالجسد ناموس الخطية" تنطبق على حالة الخطاة الذين لا يخدمون الله لا بالذهن ولا بالجسد؟ إذ كيف يستطيع الذين يخطئون بالجسد أن يخدموا الله بالذهن إن كان الجسد يقبل إغراء الخطية من القلب، إذ يعلن خالق الاثنين (الذهن والجسد) أن القلب هو أصل الخطية ومنبعها قائلًا: "لأن من القلب تخرج أفكار شريرة قتل زنى فسق سرقة شهادة زور تجديف" (مت ١٥: ١٩)!

على أي الأحوال يظهر بوضوح أن هذه العبارات لا يمكن أن تنطبق على الخطاة الذين ليس فقط لا يكرهون الشر بل يحبونه فعلاً، وهم بعيدون جدًا عن خدمة الله بالذهن أو الجسد، حتى أنهم يخطئون بالذهن قبل أن يخطئوا بالجسد، وقبل أن يتمموا ملذات الجسد تقهرهم الخطية في ذهنهم وأفكارهم.

٢ - تتم الرسول أعمالاً صالحة كثيرة

بقي لنا أن نقيس معنى العبارات وغرضها حسب مشاعر المتكلم العميقة، ونناقش ما يدعوه الرسول "صالحًا" مقارنًا إياه بالشر، ليس بالمعنى العام للفظ، بل حسب القصد الذي يظهره هو بسبب ورعه. فيمكننا أن نفهم الكلمات التي جاء بها الوحي الإلهي حسب هدفه ورغبته، متأملين في مكانة الناطقين بها وسماتهم. عندما نصير لنا نفس مشاعر الرسول (لا بالكلام بل عمليًا) يمكننا بكل تأكيد أن نفهم أفكاره وآراءه، فنعرف ما هو الصلاح الذي لم يستطع الرسول أن يفعله عندما أرادته...

إننا نعلم أنه توجد أعمال صالحة للرسول الطوباوي ومن هم على مثاله، فنجد بلا شك في الرسول الطوباوي ورفقائه النقاوة الصالحة والتعفف المملوء حناًا والعدل المقدس... حتى أنهم كرزوا بقوتهم وفضائلهم أكثر مما بكلماتهم. ما أعظم ما كانوا عليه من جهة اهتمامهم المستمر وإشفاقهم المتيقظ من جهة جميع الكنائس! يا له من حب عظيم نافع، حتى أنهم يلتهبون عندما يتعثر أحد، ويضعفون مع الضعفاء (٢كو ١١: ٢٩). إن كان الرسول يفيض بأمور صالحة كهذه، فإننا نعجز عن إدراك عظمة صلاح الكمال الذي يفتقر إليه الرسول، اللهم إلا إذا تقدمنا إلى تلك الحالة الذهنية (الروحية) التي كان عليها الرسول. فجميع الفضائل التي امتلكها والتي تشبه أعظم الجواهر الثمينة، متى قورنت باللولؤة الفريدة الجميلة التي يطلبها التاجر المذكورة في الإنجيل وأراد أن يحصل عليها ببيعه كل ما يملكه، عندئذ تبدو الفضائل الأولى تافهة وقليلة بالنسبة لها...

٣ - الصلاح الكثير الثمن الذي ينبغي الرسول أن يكمله

يا لعظم ذلك الصلاح الذي لا نظير له بين تلك الأمور الصالحة العظيمة غير المحصاة حتى يلزمنا أن نقف فوق كل هذه الأمور!! إنه بلا شك النصيب الصالح الذي من أجله احتقرت مريم واجبات الضيافة واختارته... وقد وصفه الرب قائلًا: "مرثا مرثا أنت تهتمين وتضطربين لأجل أمور كثيرة، ولكن الحاجة إلى واحدٍ، فاختارت مريم النصيب الصالح الذي لن يُنزع منها" (لو ١٠: ٤٢).

إذن (التأمل) أو (التفكير في الله) هو الشيء الوحيد الذي بجواره تقتفر جميع استحقاقات أعمالنا الصالحة وأهدافنا في الفضيلة بل وكل الأمور الصالحة والنافعة التي للرسول بولس والتي هي عظيمة وفاخرة. فمثلًا السبيكة التي تُعتبر مفيدة وقيمة متى قورنت بالفضة تصبح لاشيء، وتتلاشى قيمة الفضة أمام الذهب، ويُحتقر الذهب إذا ما قورن بالأحجار النفيسة. ومع هذا فإن كمية كبيرة من الأحجار الثمينة مهما بلغت قيمتها

تحتقر أمام ضياء لؤلؤة واحدة كثيرة الثمن. هكذا جميع فضائل القداسة التي هي صالحة ومفيدة في الوقت الحاضر، بل وتضمن عطية الحياة الأبدية، متى قورنت بفضيلة التأمل المقدس تبدو تافهة، ويمكننا أن نقول أنه يمكن بيعها.

٤ - صلاح الله وصلاح الإنسان

إن أردنا أن نسند هذا الرأي ببراهين أوضح نذكر ما ورد في الإنجيل عن أمور كثيرة دعيت صالحة... فيقول "لا تقدر شجرة جيدة أن تصنع أثماراً رديئة" (مت ١٨: ٧)، وأيضاً: "الإنسان الصالح من الكنز الصالح في القلب يُخرج الصالحات" (مت ١٢: ٣٥)، وأيضاً: "تبعاً أيها العبد الصالح والأمين" (مت ٢٥: ٢١). ومع هذا فإنه بالتأكيد لا يوجد أدنى شك في أنه ليس شيء من هذا كله صالحاً في ذاته إذا ما قورن بصلاح الله، إذ قيل: "ليس أحد صالحاً إلاً واحد وهو الله" (لو ١٨: ١٩). ففي نظر الله حتى الرسل الذين في أمور كثيرة فاقوا في الصلاح سائر البشر دُعوا أشراراً (بمقارنتهم بصلاح الله) "فإن كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تُعطوا أولادكم عطايا جيدة، فكم بالحري أبوكم الذي في السموات يَهَبُ خيراتٍ للذين يسألونه؟!" (مت ١١: ٧)

أخيراً يُحسب خيرنا شراً في نظر الله الأعظم (بمقارنته بخيره هو)، وهكذا يدعى برنا، إن قورن بالبر الإلهي، أنه ثوب عدة (ثوب الحيض) كقول النبي إشعياء: "كثوب عدة كل أعمال برنا" (إش ٦٤: ٦).

هكذا فإن استحقاقات جميع الفضائل السابق ذكرها رغم صلاحها ونفعها تظلم بالنسبة لنور التأمل...

٥ - عجز الكل عن التمتع الدائم بالصلاح الأسمى

من يستطيع أن يتأمل في هدوء مدرّكاً مجد العظمة الإلهية أثناء هذا العمل؟! وهو "المنقذ المسكين ممّن هو أقوى منه، والفقير البائس من سالبه" (مز ٣٥: ١٠)، "هشمت أضرّاس الظالم، ومن بين أسنانه خظفت الفريسة" (أي ٢٩: ١٧). من يقدر أثناء اهتمامه بالفقراء... أن يتأمل في عظمة السعادة، وبينما هو منشغل باحتياجات الحياة الحاضرة بالنسبة لهم يكون قلبه مرتفعاً على الدوام فوق أقدار الأرض؟!... من من الناس حتى وإن كان رئيساً للأبرار القديسين نزن أنه في وقت ما يقدر وهو مقيد بقيود هذه الحياة أن يصل إلى هذا الصلاح الرئيسي دون أن يتوقف عن التأمل المقدس؟ أما ينجذب ولو إلى وقت قصير عن ذاك الذي وحده صالح بواسطة أفكار أرضية؟ أما لا يهتم ولو إلى حين من أجل طعام أو لباس أو أمور جسدية أخرى أو يهتم باستقبال الاخوة أو تغيير مكانه أو بناء قلايته...؟

علاوة على هذا فإننا نؤكد بثقة أنه حتى الرسول بولس الذي فاق جميع القديسين من جهة عدد مكابذاته وتعبه لم يستطع أن يتخلّى عن هذه الأمور، إذ كما يشهد بنفسه للتلاميذ في سفر أعمال الرسل قائلاً: "أنتم تعلمون أن حاجاتي وحاجات الذين معي خَدَمْتُهَا هاتان اليَدَانِ" (أع ٢٠: ٣٤). وعندما كتب إلى أهل تسالونيكي شهد بأنه كان يشتغل بتعب وكد ليلاً ونهاراً (٢ تس ٣: ٨). وإن كان يمثل هذه الأعمال صارت له مكافآت عظيمة من أجل فضائله، إلا أن عقله مهما يكن مقدساً وسامياً لكنه أحياناً ينجذب عن التأمل الإلهي بانشغاله بالأعمال الأرضية.

علاوة على هذا، إذ رأى نفسه غنياً بثمار فعلية كهذه وقد أدرك صلاح التأمل، مقارناً فائدة هذه الأعمال كلها بمباهج التأمل الإلهي المقدس جذبه هذا إلى ترك هذه الحياة. وأخيراً في حيرته كان يصرخ قائلاً: "فماذا أختار لست أدرى. فإني محصور من الاثنين، لي اشتها أن أنطلق وأكون مع المسيح. ذاك أفضل جداً، ولكن أن أبقى في الجسد ألزم من أجلكم" (في ١: ٢٢-٢٤). إنه لا يمكن للعقل الذي تعوقه اهتمامات متعددة كهذه

وتعرقله اضطرابات متعبة كهذه أن يتمتع على الدوام بالرؤية المقدسة...

لأنه من منا قد أكثر الخلوات في الصحراء وتجنب اللقاء مع الناس بطريقة لم يعد فيها فكره يجول قط في أمور غير هامة ولا ينظر أبدًا إلى أعمال أرضية منحدرًا بعيدًا عن التأمل في الله الذي بالحقيقة وحده الصالح؟ من استطاع أن يحفظ روحه متقدة في كل وقت حتى لا يعبر به أي فكر يشغله عن هدفه للصلاة ويحدره من التأمل في الأمور السماوية إلى الأمور الأرضية فجأة؟ من منا حتى في اللحظة التي يرفع فيها نفسه للصلاة لله بسمو لا يسقط قط في التشنيت؟... إنني أتساءل: من هو متيقظ وساهر هكذا حتى لا يسمح بعقله أبدًا أن يتحول عن معنى الكتاب المقدس أثناء ترنمه بالمزمور لله؟ من هو هكذا محب لله و متحد به تمامًا حتى يطوب نفسه عندما ينفذ ليوم واحد وصية الرسول الذي أمرنا أن نصلّي بلا انقطاع (١٧:٥)؟

مع أن هذه الأمور جميعًا قد تبدو للمغمسين في خطايا جسيمة على أنها أمور تافهة وبعيدة تمامًا عن الخطية، لكن الذين يدركون قيمة الكمال، يرون حتى الأمور البسيطة جدًا عظيمة الخطورة.

٦ - الذين يحسبون أنفسهم بلا خطية

لنفرض أن رجلين أحدهما قوى النظر والآخر متوكل العينين ضعيف البصر، دخلا معًا في بيت عظيم مملوء باللباقات والآلات الموسيقية وأوان فاخرة، فإن الشخص الذي حرمه ظلام الإبصار عن الرؤية يؤكد أنه لم يجد شيئًا سوى خزانة وسرير ومائدة... وهذا كل ما قد أدركه بإصبعه أثناء تلمسه تلك الأمور، أما الشخص الثاني الذي تطلع بعينين براقتين سليميتين فيعلن عن وجود أمور كثيرة ودقيقة للغاية بالجهد يمكن إحصاءها... هكذا القديسون أيضًا، إذ يمكننا أن نقول إنهم يبصرون هدفهم إلى غاية الكمال، يكتشفون بمهارة تلك الأمور التي لا نستطيع نحن أن نراها بتفريس عقولنا التي كما لو كانت مظلمة. هؤلاء الذين بالنسبة لإهمالنا نحن يُحسبون أنهم لم يشوبوا نقاء أجسادهم التي كالتلج تمامًا، لكن بسبب أدنى بقعة من الخطية يرون أنهم ملوثون بشوائب كثيرة. لا أقول لأنهم يرتكبون شرًا أو يتذكرون أفكارًا باطلة غير مفيدة، لكن لمجرد تششت ذهنهم قليلًا في أثناء تلاوتهم مزمور. يقولون إننا إذ نسأل شخصًا ما عظيمًا... فإننا نركز عقولنا بجملته وجسدنا تجاهه، ونقف في مهابة مع انحناء رأس علامة التسليم... وأيضًا عندما نقف في محكمة أو في مجالس قضاة أرضيين مع خصمنا المستمر في مضاداتنا، إذا ما غلبنا في وسط المحكمة سعال أو بصاق أو ضحك أو تثاؤب أو نوم، فإننا إن صنعنا هذا يستخدمه خصمنا لإثارة قسوة القاضي ضدنا. كم بالأولي يكون حالنا ونحن نتوسل إلى ديان العالم بجميع أسرارنا لكي ينزع عنا هلاكنا الوشيك بموت أبدي، متضرعين إليه بصلاة حارة مملوءة شوقًا من أجل استدرار حنان القاضي، خاصة وأنه يقف من الجانب الآخر مضللنا المخادع يتهمنا ليس بغير دلائل بل يجد فينا ذنبًا خبيثًا خطيرًا...

أما الذين يغطون أعين قلوبهم بحجاب خطاياهم السميكة، فيقول عنهم المخلص: "لأنهم مبصرين لا يبصرون، وسامعين لا يسمعون ولا يفهمون" (مت ١٣: ١٣)، هؤلاء يصعب عليهم إدراك ما تكنه أعماق صدورهم من خطايا عظيمة مهلكة، ولا يقدر أن يتطلعوا بعين صافية إلى الأفكار المخادعة التي فيهم، ولا إلى الرغبات الغامضة التي تصيب عقولهم باقتراحات واهنة خبيثة، ولا يرون قيود أرواحهم، لكنهم على الدوام يتجولون وسط أفكار فاسدة، لهذا لا يعرفون كيف يحزنون بسبب انصرافهم عن التأمل الإلهي. وبالتالي لا يندمون كأنهم فقدوا شيئًا، إنما يفتحون عقولهم لأي فكر يتلذذون به من غير أن يكون لهم هدف يثبتون عليه كأمر رئيسي...

٧- ... إذ نُضرب بالعمى لا نقدر أن نرى في ذواتنا شيئاً سوى الذنوب الكبيرة، ظانين أنه يلزمنا فقط أن نكون أنقياء من تلك الذنوب وحدها التي تستكرها القوانين الدنيوية، فإذا ما رأينا أنفسنا قد تحررنا منها إلى حين نظن أننا قد صرنا بلا خطية تماماً... فلا نبصر البقع الكثيرة التي تتجمع معاً في داخلنا، وبالتالي لا ننزعها بالانسحاق المنقذ، ولا نحزن عندما تصيبنا أفكار الغرور، ولا نبكي من أجل صلواتنا التي نرفعها في تراخٍ شديد وفقر. ولا نحسب شرود فكرنا أثناء الترنم بالمزامير والصلوات أنه خطأ. ولا نستحي من تصوراتنا لأمر كثيرة نخجل أن ننطق بها أو نمارسها أمام الناس والتي هي مكشوفة أمام البصر الإلهي. ولا نظهر فساد الأحلام الدنسة بالدموع الغزيرة... ولا نعتقد أن هناك أية خسارة تصيبنا عندما ننسى الله مفكرين في أمور أرضية فاسدة، بهذا تنطبق علينا كلمات سليمان: "ضربوني ولم أتوجع، لقد لكأوني ولم أعرف" (أم ٢٣: ٣٥).

٨- اشتياق الروحانيين إلى البقاء في التأمل في الإلهيات

من الناحية الأخرى الذين يجعلون فرحهم وبهجتهم وسعادتهم تكمن في التأمل في الأمور المقدسة الروحانية فقط، هؤلاء متى استولت عليهم أفكار أخرى بغير إرادتهم إلى حين يندمون جداً كمن تندسوا طالبين عليه تأديباً. وفي حزنهم لأنهم قد حولوا نظرهم إلى المخلوق التافه (الذي تحول إليه بصرهم الذهني) أكثر من خالقهم يحسبون ذلك كأنه إلحاد، مع أنهم سرعان ما يحولون عيون قلوبهم بأقصى سرعة ممكنة لمشاهدة بهاء مجد الله. إنهم لا يقدرون أن يحتملوا ظلام الأفكار المادية ولو إلى وقت قصير، ممقتين كل ما يعوق نظر أرواحهم عن النور الحقيقي.

أخيراً عندما لقن الطوباوي يوحنا الرسول هذا الشعور لكل أحد قال: "لا تحبوا العالم ولا الأشياء التي في العالم. إن أحبب أحد العالم فليست فيه محبة الآب. لأن كل ما في العالم شهوة الجسد وشهوة العيون وتعظم المعيشة ليس من الآب بل من العالم. والعالم يمضي وشهوته وأما الذي يصنع مشيئة الله فيثبت إلى الأبد" (١ يوحنا ٢: ١٥-١٧).

لذلك يحتقر القديسون كل هذه الأمور الخاصة بالعالم، لكن ليس من الممكن لهم ألا ينتقل فكرهم إليها ولو إلى حين وحتى الآن لا يوجد إنسان ما إلا إلهنا ومخلصنا الذي وحده يستطيع أن يحفظ ذهنه ثابتاً على الدوام في التأمل في الآب دون أن تمسه قط أية محبة لشيء في هذا العالم، ويقول عنه الكتاب أنه حتى الكواكب غير نقية في عينيهِ، "هوذا عبيده لا يأتئمنهم وإلى ملائكتِهِ ينسب حماقةً" (أي ٤: ١٨؛ ١٥: ١٥؛ ٢٥: ٥).

٩- إنني أقول بأن القديسين الذين يحرصون على تذكر الله على الدوام... يكونون كمن هم محمولين على حبل ممدود مرتفع يسرون عليه، وذلك مثل الراقصين الذين يدعون باليهلوانيين الذين يخاطرون بسلامتهم وحياتهم، سائرين على الحبل الرفيع بسرعة، فإذا مازلت قدمهم أو انحرفت ولو قليلاً جداً يتعرضون لموت مرعب. فتكون الأرض (التي يسقطون عليها) التي هي بالنسبة للجميع أساس سلام بالنسبة لهم تمثل خطراً شديداً، لا لأن طبيعة الأرض قد تغيرت، وإنما لأنهم يسقطون عليها بثقل أجسادهم. هكذا أيضاً صلاح الله الذي لا يتغير لا يؤدي أحد، لكن بسقوطنا من أعلى الارتفاعات... يصير سبب موتنا. إنه يقول: "ويل لهم لأنهم هربوا عني. تَبَّ لهم لأنهم أذنبوا إليّ" (هو ١٣: ٧). "ويل لهم أيضاً متى انصرف عنهم" (هو ١٢: ٩). لأنه "يوبخك شرك وعصيانك يوبدك. فاعلمي وانظري إن تركك الرب إلهك شرّ ومَرَّ" (إر ١٩: ٢). لأن كل إنسان "بحبال خطيته يُمسك" (أم ٢٢: ٥). ويوجه الله هذا التوبيخ بلباقة: "يا هؤلاء جميعكم القادحين ناراً، المتطققين بشرار، اسلكوا بنور ناركم،

وبالشرار الذي أوقدتموه" (إش ٥٠: ١١)، وأيضًا "الذي يوقد شرًا يهلك به".

١٠ - شعورهم الدائم بالحاجة إلى مراحم الله

عندما يشعر القديسون بأن ثقل الأفكار الأرضية يضايقهم، وأنهم يرتدون بعيدًا عن سمو أذهانهم، متقادين بغير إرادتهم أو بالأحرى لا شعوريًا إلى ناموس الخطية والموت، وتعوقهم الأعمال الأرضية التي هي نافعة وصالحة عن معاينة الله، فإنهم يئنون إلى الله باستمرار، معترفين بانسحاق قلب لا بالكلام بل بقلوبهم إنهم خطاة، وبينما هم بغير انقطاع يلتمسون من رحمة الله الصّبح عما يقترفونه يوميًا فيوماً بسبب ضعف الجسد، يزرّفون دموعًا حقيقية للتوبة بغير انقطاع...

كذلك يدركون بالخبرة أنه بسبب ثقل الجسد يعجزون بقوتهم البشرية أن يبلغوا النهاية المطلوبة، وأن يكونوا متحدين، حسب اشتياق قلوبهم، بذلك الصّلاح الرئيسي الأسمى، وإذ ينقادون بعيدًا عن رؤيته مأسورين بالأمور العالمية يتوجهون إلى مراحم الله "الذي يبرّر الفاجر" (رو ٤: ٥). ويصرخون مع الرسول: "ويحي أنا الإنسان الشقي. مَنْ ينفذني من جسد هذا الموت. أشكر الله بيسوع المسيح ربنا" (رو ٧: ٢٥). لأنهم يشعرون بأنهم على الدوام لا يستطيعون أن يكملوا الصّلاح الذي يريدونه، إنما يسقطون في الشر الذي لا يريدونه والذي يكرهونه أي الأفكار الزائفة والاهتمام بالأمور الجسدية.

١١ - تفسير: "فإني أُسر بناموس الله بحسب الإنسان الباطن"

إنهم بالحقيقة يُسرون بناموس الله بحسب الإنسان الباطن الذي يسمو فوق كل المنظورات، ويسعون على الدوام ليكونوا متحدين بالله وحده، لكنهم يرون ناموسًا آخر في أعضائهم، أي منغرس في طبيعتهم البشرية يحارب ناموس ذنهم (رو ٧: ٢٢)، أي يأسر أفكارهم إلى ناموس الخطية العنيف، ويُلزمهم أن يتخلوا عن ذلك الصّلاح الأعظم، ويرضخوا للأفكار الأرضية التي وإن ظهرت هامة ومفيدة ونحتاج إليها في العبادة.. إلا إنها تقف عائقًا عن التأمل في ذلك الصّلاح الذي يسحر أنظار القديسين فيرونها شريرة ويحاولون تجنبها، لأنه خلالها إلى حد ما وإلى حين يحرمون من بهجة تلك السعادة الكاملة. لأن ناموس الخطية هو بحق ما جلبه سقوط الأب الأول على البشرية، إذ صار النطق بضم القاضي العادل: "ملعونة الأرض بسببك (في أعمالك).. شوكًا وحسكًا تثبت لك... بعرق وجهك تأكل خبزًا" (تك ٣: ١٧-١٩).

إنني أقول إن هذا هو الناموس المنغرس في أعضاء البشر جميعًا الذي يحارب ناموس أذهاننا ويعوقها عن رؤية الله. إذ بعدما لُعنّت الأرض بأعمالنا بعد معرفتنا للخير والشر، صارت تثبت حسك الأفكار وأشواكها التي تخنق بذور الفضائل الطبيعية، حتى أنه بغير عرق جبيننا لا نستطيع أن نأكل خبزنا "النازل من السماء" (يو ٦: ٣٣)، والذي "يسند قلب الإنسان" (مز ١٠٤: ١٥). لذلك فإن البشر عامة، بغير استثناء، خاضعون لهذا الناموس...

١٢ - تفسير: "فإننا نعلم أن الناموس روحي" (رو ٧: ١٤)

هذا الناموس يسميه الرسول: "روحي"، قائلًا: "فإننا نعلم أن الناموس روحي وأما أنا فجسدي مبيع تحت الخطية"، لأن هذا الناموس روحي، إذ يأمرنا أن نأكل بعرق جبيننا "الخبز الحقيقي من السماء" (يو ٦: ٣٢). لكن إذ نحن مُباعين تحت الخطية فنحن جسدانيون. إنني أتساءل: ما هي تلك الخطية؟ ولمن؟

بلا شك هي خطية آدم الذي بسقوطه أو بتدبيره التالف وتعاقده المملوء خداعًا صرنا مُباعين. فعندما

قاده إغراء الحية إلى الضلال جاء بجميع ذريته تحت نير العبودية المستمر... فبالأكل من الشجرة الممنوعة استلم من الحية ثمن حريته مستهيناً بها، واختار لنفسه العبودية المستمرة للحية التي استلم منها الثمن المميت... وليس بغير سبب صار كل نسله عبيداً في خدمة ذاك الذي صار له عبداً... لأنه هل يمكن لزوجين عبيدين إلا أن ينتجا من هم عبيد؟

لكن هل هذا المشتري المخادع قد سلب حق الملكية من المالك الشرعي الحقيقي؟ كلا، لأنه لم ينل حق ملكية الله... لكن الخالق إذ منح جميع الخليقة العاقلة إرادة حرة، لا يعيد إليهم حريتهم الطبيعية قهراً، هؤلاء الذين باعوا أنفسهم بخطية الشهوة الشرهة. لأن مصدر العقل والتقوى يمقت كل ما هو مخالف للصالح والعدل، فلا يقبل أن يسلب الإنسان حريته حتى لا يخطئ في حقه. لكن الله حافظ على خلاص الإنسان ناظراً إلى المستقبل إلى ملء الزمان المعين، ويعدل ترك ذرية آدم تبقى وقتاً طويلاً تذوق مرارة العبودية إلى أن يشتريهم بدمه وتعتقهم مراحم الله من القيود الأصلية ويطلق سراحهم إلى الحرية الأولى...

هل تريد أن تعرف لماذا أنت مبيع للخطية؟ اسمع ما يقوله فاديك جهراً على لسان إشعياء النبي "أين كتاب طلاق أمكم التي طلقتموها؟ أو مَنْ هو من غرمائي الذي بعته إياكم؟ هوذا من أجل آثامكم قد بُعتم ومن أجل ذنوبكم طُلقتم أمكم" (إش ٥٠: ١).

هل تعرف لماذا لم يرد الله أن يعتقك من نير العبودية قسراً؟ اسمعه يقول "هل قصرت يدي عن الفداء؟ وهل ليس فيّ قدره للإنقاذ؟" (إش ٥٠: ٢). ويكشف النبي ما يقف حائلاً أمام طريق حنان الله الأعظم قائلاً: "ها إن يد الرب لم تقصر عن أن تخلص ولم تتقل أذنه عن أن تسمع. بل آثامكم صارت فاصلة بينكم وبين إلهكم، وخطاياكم سترت وجهه عنكم حتى لا يسمع" (إش ٥٩: ٢).

١٣ - "فإني اعلم انه ليس ساكن في أي جسد شيء صالح"

إن لعنة الله الأصلية جعلتنا جسدانيين، وحكم علينا بالأشواك والحسك، وقد باعنا أبونا بذلك التعاقد التعيس حتى صرنا عاجزين عن فعل الصلاح الذي نريده، إذ صرنا ننقطع أحياناً عن تذكر الله العظيم السمو مضطرين إلى الانشغال بما يخص الضعف البشري. وبينما نشتهي الطهارة ننزعج غالباً بغير إرادتنا بالشهوات الطبيعية التي لا نريد حتى أن نعرفها. لهذا نحن نعلم أنه ليس ساكن في أجسادنا شيء صالح (رو ٧: ١٨)، أي ليس ساكن فيها السلام الأبدي الدائم الذي لهذا التأمل المذكور.

لقد حدث في قضيتنا ذلك الطلاق البائس التعيس، حتى أننا عندما نريد بالذهن أن نخدم ناموس الله إذ لا نريد أن نحول نظرنا قط عن البهاء الإلهي، نجد أنفسنا محاصرين بالثقل الجسدي، فيجبرنا ناموس الخطية إلى الحرمان من الصلاح الذي ندركه ونسقط عن ذلك السمو الذهني المرتفع، منحدرين إلى الاهتمامات والأفكار الأرضية، الذي حكم به علينا في شخص المذنب الأول ليس بغير سبب... ومع أن الرسول المبارك يعلن جهراً بأنه وجميع القديسين مقيدون بقيود هذه الخطية، لكنه يؤكد بجرأة أنه لا يُدان أحد بسبب هذا قائلاً: "إذاً لا شيء من الدينونة الآن على الذين هم في المسيح يسوع... لأن ناموس روح الحياة في المسيح يسوع قد أعتقني من ناموس الخطية والموت" (رو ٨: ١)، بمعنى أن نعمة السيد المسيح تحرر جميع القديسين يوماً فيوماً من ناموس الخطية والموت، هذا الذي يخضعون له قسراً بالرغم من توسلهم الدائم إلى أن يصفح عن تعدياتهم.

إنك ترى إذن أنه لا يتكلم على لسان الخطاة (غير التائبين)، بل على لسان الذين هم في الحقيقة قديسين وكاملين، حتى نجده يقول هكذا: "لأنني لست أفعل الصالح الذي أريده بل الشر الذي لست أريده فأياه

أفعل.. ولكني أرى ناموسًا آخر في أعضائي يحارب ناموس ذهني ويسببني إلى ناموس الخطية الكائن في أعضائي" (رو ٧: ١٩).

١٤ - اعتراض

جرمانئوس: إننا نقول بأن هذا القول لا ينطبق على الذين انغمسوا في آثام جسيمة، وفي نفس الوقت لا ينطبق على الرسول ومن هم بلغوا قامته، إنما نعتقد أنه يتناسب مع الذين بعدما قبلوا نعمة الله ومعرفة الحق يهتمون أن يحفظوا ذاتهم من الخطايا الجسدية، لكنهم بسبب عاداتهم القديمة التي هي كناموس طبيعي يسيطر بعنف في أعضائهم، يسقطون في شهوة انفعالاتهم القديمة المتأصلة. فالعادة أو تكرار الخطية هي بمثابة ناموس طبيعي مغروس في أعضاء الإنسان الضعيفة تقود مشاعر النفس التي لم تتهذب بعد بمطالب الفضيلة. وبهذا فإنهم، إن أمكنني أن أقول، أنهم في نقاوة غير مهذبة بل عليلة هم أسرى للخطية، خاضعين للموت بناموس قديم، يسقطهم تحت نير الخطية المسيطرة عليهم، فلا ينالون صلاح الطهارة التي يحبونها بل بالأحرى يجبرون على فعل الشر الذي يكرهونه.

١٥ - ثيونس

رأيكم هذا يعني عدم إدراك الأمر تمامًا، لكنكم قد بدأت الآن تؤيدوا بأن هذه العبارات لا تحتل أنها تخص الخطاة البعيدين، إنما تتناسب مع الذين يحاولون حفظ نفوسهم أنقياء من الخطايا الجسدية. وإذا أبعدتم هذه الأقوال عن الخطاة (غير التائبين) فيلزمكم أن تقبلوا أنها تخص من هم في درجات المؤمنين والمقدسين، لأنه ما هي أنواع الخطايا التي تقولون بأن أولئك يرتكبونها بعدما نالوا نعمة العماد ويمكنهم أن ينالوا المغفرة عنها يوميًا بمراحم المسيح؟ أو ماذا يعني الرسول بـ "جسد الموت" في قوله "مَنْ ينفذني من جسد هذا الموت؟ أشكر الله بيسوع المسيح ربنا" (رو ٧: ٢٤)؟ أليس من الواضح أن الحق يجبركم أن تقبلوا أن تلك العبارات لم تكن تتكلم عن يرتكب الجرائم العظمى التي تدفع للموت الأبدي، أي القتل والزنا والفسق والسكر والنهب والسرقة، إنما تتكلم عن الجسد السابق ذكره (جسد الموت) الذي تعينه نعمة المسيح اليومية؟ لأن من يسقط في ذلك الموت بعد العماد ومعرفته الله يلزمه ألا يظن أنه ينال التطهير برحمة الله اليومية بالتوسل إليه (في الصلاة الربانية)، إنما يلزمه الندامة في توبة صادقة ويخضع للتأديب... إذ يعلن الرسول هكذا: "لا تضلوا لا زناة ولا عبدة أوثان ولا فاسقون ولا مأبونون ولا مضاجعو ذكور ولا سارقون ولا طمّاعون ولا سكيرون ولا شتامون ولا خاطفون يرثون ملكوت الله" (١ كو ٦: ٩). إذن ما هو ذلك الناموس الكائن في أعضائنا الذي يحارب ناموس ذهننا ويأسرنا لناموس الخطية والموت إذ نخدمه بالجسد، ومع ذلك يسمح لنا أن نخدم بذهننا ناموس الله؟ بلا شك أنه لا يقصد تلك الجرائم السابق ذكرها، لأنها تحرم الذهن من خدمة ناموس الله.

إنني أسأل أي ناموس هذا المنغرس في أعضائنا والذي يسحبنا عن ناموس الله ويأسرنا تحت ناموس الخطية... دون أن ندفع إلى العقاب الأبدي لكننا نبقى في تهد من أجل أفراح السعادة المتواصلة ونبحث عن المعين صارخين مع الرسول: "ويحي أنا الإنسان الشقي، مَنْ ينفذني من جسد هذا الموت؟" إننا نعلم بالحقيقة أن أشياء كثيرة في هذا العالم صالحة وهامة كالاتضاع والعفة والزناة والوداعة والعدالة والرحمة والاعتدال والشفقة... لكن هذه كلها لا تقارن بالنسبة للصلاح الرئيسي (التأمل في الله)، ويمكن أن ينفذه ليس فقط الرسل بل والعلمانيون العاديون، ومن لا يتممها يسقط تحت عقاب أبدي ما لم يتوبوا مثابرين... فما يقوله الرسول ينطبق على حال القديسين الذين يومًا فيومًا يسقطون تحت هذا الناموس، ليس ناموس الجرائم ولا التورط في أعمال

شريرة لكن كما سبق أن كررت كثيرًا هو الانجذاب بعيدًا عن التأمل في الله إلى الانشغال بالأمر الجسدية (الهامة)، وبهذا يحرمون من بركة السعادة الحقيقية...

مهما يكن من قلق الرسول من جهة ناموس الخطية الذي يولد أشواك الأفكار والاهتمامات الجسدية وحسكها الناشئة في أعماق صدر الرسول، إلا أنه في الحال يختطفه ناموس النعمة فيقول: "لأن ناموس روح الحياة في المسيح يسوع قد أعتقني من ناموس الخطية والموت" (رو ٨: ٢).

١٦ - مفهوم "جسد الخطية"

إذن هذا هو "جسد الموت" الذي لا نستطيع أن نهرب منه، الذي أسر فيه الكاملون الذين ذاقوا: "ما أطيب الرب" (مز ٣٤: ٨)، يشعرون يوميًا مع النبي "كيف هو شر ومر للإنسان الذي ينفصل عن الرب إلهه".^٢ هذا هو جسد الموت الذي يحجزنا عن الرؤية السماوية، يجذبنا إلى الخلف للأشياء الأرضية، الذي يسبب للناس أثناء ترتيبهم بالمزامير وركوعهم للصلاة أن تمتلئ أفكارهم بالمناظر البشرية، أو يتذكرون محادثات أو أعمال ضرورية تافهة.

هذا هو جسد الموت الذي ينظر إليه أولئك الذين يبارون قداسة الملائكة ويشتاقون إلى الاتصال بالله على الدوام، ومع ذلك يعجزون عن الوصول إلى كمال هذا الصلاح، لأن "جسد الموت" يقف في طريقهم، فيفعلون الشر الذي لا يريدونه، أي يجذبون إلى أسفل بأذهانهم حتى إلى الأشياء التي ليست لها صلة بتقدمهم وكمالهم في الفضيلة.

أخيرًا فإن الرسول الطوباوي يعبر بوضوح انه قال هذا عن الناس المقدسين والكاملين ومن على شاكلته، فيشير بإصبعه إلى نفسه ويتدرج في الحال: "إِذَا أَنَا نَفْسِي"، أي أنا الذي أقول هذا أقدم أسراري الخاصة مكتشفة وليست سريرة شخص آخر. هذا الأسلوب اعتاد الرسول أن يستعمله بغير كلفة كلما أراد أن يشير بالأخص إلى نفسه.^٣ إِذَا "أَنَا نَفْسِي" تحمل بالتأكيد، أي أنا الذي تعرفونه بأنه رسول المسيح الذي تبجلونه بأعظم احترام، والذي تعتقدون بأنه من أسمى الشخصيات وأبرعها كشخص يتكلم فيه المسيح، مع أنني أخدم ناموس الله بالذهن ومع ذلك أعترف بأنني بالجسد أخدم ناموس الخطية، بمعنى أن طبيعتي البشرية تجذبني أحيانًا من الأشياء السماوية إلى الأشياء الأرضية، وينحدر سمو ذهني إلى الاهتمام بأمور تافهة. وبناموس الخطية هذا أجد أنني في كل لحظة أؤخذ هكذا مأسورًا رغم مثابرتي باشتياق راسخ نحو ناموس الله، لكنني لا أتمكن بأية وسيلة أن أنجو من سلطان هذا الأسر ما لم أتطلع دائمًا إلى رحمة المخلص.

١٧ - اعتراف القديسين جميعهم أنهم خطاة

لذلك يحزن جميع القديسين بتعهدات يومية من أجل ضعف طبيعتهم هذا. وبينما هم يستقصون أفكارهم المتنقلة ومكونات ضمائرهم وخلواتهم العميقة يصرخون متضرعين: "لا تدخل في المحاكمة مع عبدك، فإنه لن يتبرّر قدامك حي" (مز ١٤٣: ٢)، "من يقول إنني زكيت قلبي، تطهرت من خطيئتي" (أم ٩: ٢٠). وأيضًا: "لأنه لا إنسان صديق في الأرض يعمل صلاحًا ولا يخطئ" (جا ٧: ٢٠). وهذا أيضًا: "السهوات من يشعر بها؟" (مز ١٢: ١٩). وهكذا أدركوا أن بر الإنسان عليل وغير كامل ويحتاج دائمًا إلى رحمة الله، حتى أن أحدهم بعد

^٢ نص الكتاب المقدس "إن تركك الرب إلهك شرّ ومَرَّ" إر ٢: ١٩.

^٣ راجع ٢كو ١: ١٠، ١٦، ١٣، ١٢، ١٣، ٥، ٢، ٩: ٢.

رؤيته السيرافيم في الأعالي وكشفه المكنونات السمائية قال: "ويل لي.. لأني إنسان نجس الشفتين، وأنا ساكن بين شعب نجس الشفتين" (إش ٥:٦). أظن أنه ما كان يشعر بنجس شفتيه ما لم يكن قد مُنح له أن يدرك نقاوة الكمال الحقيقي التام برؤية الله، الذي فجأة صار عالمًا بنجاسته التي كان جاهلاً بها من قبل ونجاسة من حوله... شاملاً في توسله العام ليس فقط جماعة الأشرار بل وجماعة الصالحين أيضاً قائلاً: "ها أنت سخطت إذ أخطأنا. هي إلى الأبد فنخلص، وقد صرنا كلنا كنجسٍ وكنوبٍ عدّة" (إش ٥:٦٤، ٦).

إنني أسأل أي شيء يمكن أن يكون أوضح من هذا القول الذي لا يتكلم فيه النبي عن عمل واحد بل عن كل تقوانا، متأملاً جميع الأشياء أنها دنسة وكريهة. ولأنه لم يستطع أن يجد شيئاً في حياة الناس أكثر تلوثاً ونجاسة اختار بأن يقارنها بثوب عدّة، ومع أنه يقول هنا بأن القديسين قد أخطأوا بل ومكثوا دائماً في خطاياهم، إلا أنه لم ييأس من الخلاص بل يضيف "هي إلى الأبد فنخلص". هذا القول: "ها أنت سخطت إذ أخطأنا" يقابل قول الرسول: "ويحي أنا الإنسان الشقي، مَنْ ينقذني من جسد هذا الموت؟" وما يلحقه النبي: "هي إلى الأبد فنخلص" تقابل كلمات الرسول: "أشكر الله بيسوع المسيح ربنا".

بنفس الطريقة أيضاً هذه العبارة: "ويل لي لأني إنسان نجس الشفتين وأنا ساكن بين شعب نجس الشفتين" تظهر بأنها تتفق مع الكلمات: "ويحي أنا الإنسان الشقي من ينقذني من جسد هذا الموت؟" وما ذكره النبي بعد ذلك: "قطار إلى واحد من السيرافيم وبيده جمره قد أخذها بملقطٍ من على المذبح ومسّ بها فمي، وقال: "إن هذه قد مسّت شفتيك فانتزع إثمك وكُفّر عن خطيتك" (إش ٦:٦، ٧) يشبه تماماً ما قد نطق به بولس: "أشكر الله بيسوع المسيح ربنا".

ها أنت ترى إذن كيف يعترف جميع القديسين بصدق أن جميع الناس كما هم خطاة مع ذلك لا ييأسون أبداً من خلاصهم، بل يبحثون عن تطهير كامل بنعمة الله ورحمته...

١٨ - ليس أحد بلا خطية

لا يوجد أحد بلا خطية مهما كان مقدساً في الحياة. وقد أخبرنا أيضاً تعليم المخلص الذي منح تلاميذه نموذج الصلاة الكاملة... إذ نقول: "واغفر لنا ذنوبنا كما تغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا" (مت ١٢: ٦). إذ قدم هذه كصلاة حقيقية يمارسها قديسون، كما يجب أن نعتقد دون أدنى شك، فمن يمكنه أن يبقى عنيداً ووقحاً ومنتقحاً بكبرياء بحق الشيطان فيظن أنه بلا خطية، متهمًا المخلص نفسه بالجهل والحقاقة، كأن الرب لم يدرك أن بعض الناس أمكنهم التحرر من الخطية، أو كمن كان يعلم بتهاون أولئك الذين عرف أنهم سيستمرون في هذا العلاج طالبين الغفران وهم ليسوا في حاجة إليه؟

١٩ - عجزنا عن تجنب الخطية حتى في أثناء الصلاة

يجدر بمن ينسب البراءة للطبيعة البشرية ألا يناضل بكلمات تافهة لكن لتكن شهادته وبرهانه ضميره أنه هو بلا خطية عندما يجد أنه لم ينحرف قط بعيداً عن هذا الصلاح الأسمى. كلاً بل بالأحرى كل من يتأمل في ضميره هو، ولا أقول غيره، ويجد أنه قد قام بخدمة واحدة فقط بدون أن يشرّد ذهنه ولو بكلمة واحدة أو فعل أو فكرة، عندئذ يمكنه أن يقول أنه بلا خطية. علاوة على ذلك إذ نسلم بأن طيش الذهن لا يستطيع أن يتخلص من هذه الأشياء التافهة غير المفيدة، نعترف بصدق بأننا لسنا بلا خطية. لأنه مهما بلغ حرص الإنسان في حفظ قلبه لا يستطيع أبداً، نظراً إلى مقاومة طبيعة الجسد، أن يحفظه بحسب رغبة روحه. لأنه كلما تقدم الذهن البشري وارتقي نحو نقاوة أسمى في التأمل يرى ذاته بدرجة أعظم أنه غير طاهر، كما لو كان ينظر في مرآة

نقاوته. لأن بينما ترتفع الروح إلى رؤيا أسمى وبينما تنتظر إلى الأمام، تتشوق إلى أشياء أعظم مما قد بلغته، فتحترق الأشياء التي تختلط بها وتراها أنها دنيئة ولا قيمة لها، حيث أن النظر الأقوى يلاحظ أكثر والحياة الطاهرة توجد حزنًا أعظم عندما تجد فيها خطأ، وإصلاح الحياة والنضال المنصب وراء الصلاح يُكثر الأتئين والتعهدات، لأنه لا يستطيع أحد أن يستريح مقتنعًا بالدرجة التي ارتقى إليها.

على أي الأحوال كلما تنقى ذهن الإنسان بدرجة أعظم يرى بالأكثر جدًا نفسه دنسًا، ويجد بواضحات الاتضاع أكثر من الكبرياء. ومهما يكن صعوده إلى درجات أسمى فهكذا بالأكثر جدًا يرى فوقه إلى أي موضع يتوجه. أخيرًا نطق الرسول المختار الذي "كان يسوع حُبَّة" والذي كان متكئًا في حضنه بهذا القول كأنه من قلب الله: "إن قلنا إنه ليس لنا خطية نُضِلُّ أنفسنا وليس الحقُّ فينا" (١ يوحنا ٨: ٨).

٢٠- أخيرًا إذا كنت تريد أن تبحث بأكثر إتقان عما إذا كان ممكنًا للطبيعة البشرية أن تصل إلى البراءة فممن يمكننا أن نتعلم هذا بوضوح أكثر من أولئك الذين "قد صلبوا الجسد مع الأهواء والشهوات" (غل ٥: ٢٤)، والذين قد صلبوا العالَ فعلاً (غل ٦: ١٤)؟ الذين بالرغم من أنهم استأصلوا جميع الأخطاء من قلوبهم بل ويحاولون نزع كل فكر وتذكُّر الخطية، ومع ذلك مازالوا يومًا فيومًا يتمسكون بأنهم لا يستطيعون حتى لساعة واحدة أن يتحرروا من قدر الخطية.

٢١- هل نمتنع عن تناول لأننا لسنا بلا خطية؟

بالرغم من هذا يجب ألا نبطل العشاء الرباني لأننا نعترف بأننا خطاة، لكن يجب أن نسرع إليه بأكثر حماس لشفاء روحنا وتنقية أنفسنا، ونبحث بالأولى عن علاج لجروحنا باتضاع الذهن وإيمان، معتبرين أنفسنا غير مستحقين أن ننال نعمة عظيمة كهذه، وإلا فإنه لا يمكننا أن ننال العشاء الرباني باستحقاق حتى مرة كل سنة كما يفعل بعض الذين يعيشون في الأديرة، وهكذا يتأملون في هيبة وقداثة وعظمة القرايين المقدسة السماوية، كما يعتقدون ليس أحد سوى القديسين والأنقياء يجب أن يتجرأوا بتناولها، وليست هي التي بالأحرى تجعلنا أنقياء. هؤلاء يسقطون في غرور أعظم وغطرسة أكثر مما يظهر لأنفسهم بأنهم يتجنبونه، لأنهم في الوقت الذي يتناولونه يعتبرون ذواتهم أنهم مستحقون لتناوله. لكن من الأفضل بكثير أن نتناوله كل يوم أحد لشفاء أسقامنا، فنتناوله باتضاع قلبي، إذ نعتقد ونعترف بأننا لا نستطيع أبدًا أن نلمس الأسرار المقدسة باستحقاق. وهذا خير من أن ننتفخ بإغراء القلب الأحق، ونعتقد بأننا في نهاية السنة نكون مستحقين أن نتناوله.

إذ يمكننا إدراك هذا ونتمسك به دعنا باجتهاد أعظم نتضرع إلى رحمة الله لكي يعضدنا لنكمل هذا الذي نتعلمه، ليس كالفنون البشرية الأخرى بواسطة تفسير شفهي سابق، لكن بالأحرى بالخبرة والعمل نعرف الطريق. وأيضًا إذا لم ننظر فيه على الدوام ونجدد المسعى في مجمع روحانيين ونفحصه باهتمام بخبرة يومية يصير غير معمول به عن طريق الإهمال، أو يتلاشى بالنسيان الباطل.

مناظرات يوحنا كاسيان مع مشاهير آباء البرية

٢٤

الإماتة

للأب إبراهيم

١ - مقدمة (الاشتياق نحو العودة إلى مدينتنا)

هذه المناظرة الرابعة والعشرون التي للأب إبراهيم، حصلنا عليها بنعمة المسيح، وقد شملت تقاليد وآراء الآباء الشيوخ. وبانتهاء هذه المناظرة بصلواتكم نكون قد انتهينا من الرقم الرمزي (٢٤) الوارد في سفر الرؤيا عن الأربعة وعشرين قسيساً الذين يقدمون أكاليهم للحمل (رؤ ٤: ٤). وإنني بهذا أكون، كما أظن، قد أوفيت بوعودي لكم. وعندما يتوهج هؤلاء الآباء (الذين لهم المناظرات) بالمجد بسبب تعاليمهم، فإنهم يحنون رؤوسهم للحمل المذبوح من أجل خلاص العالم. فهو وحده الذي من أجل اسمه قد وهبت لهم تلك المشاعر السامية، وأعطوا تلك الكلمات التي نحتاج نحن إليها لتتعرف على الأفكار العالية العميقة...

يجدر بنا أن ننسب استحقاقات العطية لواهب كل صلاح، وإذ نحن مدينون له بها يلزمنا أن نردها إليه (بتنفيذ ما جاء في عطيته، أي كلماته التي وهبنا إياها على ألسنتهم، ومن جانب آخر نحدث الآخرين بها من أجل اسمه).

أخبرنا الأب إبراهيم بما في داخل فكرنا، معترفين له أننا في كل يوم نجد فينا باعثاً يحثنا على العودة إلى مدينتنا والرجوع إلى أقبائنا... وأننا على الدوام نفكر في أن نربح صلاحاً أكثر خلال غيرتهم، إذ يخدموننا بسرور في كل ما نحتاج إليه مما يجعلنا لا ننتشغل بإعداد الطعام أو أية اهتمامات جسدية. بجانب هذا كنا نطعم أرواحنا على رجاء الفرح، إذ حسبنا أننا سنربح صلاحاً أعظم بحديثنا مع كثيرين (عند العودة إليهم)، فيعودون إلى طريق الخلاص خلال اقتدائهم بنا وإنصاتهم لتعاليمنا.

هذا بجانب أننا هناك نكون في نفس المنطقة التي كان يقطنها أجدادنا السابقون، فيرتسم أمام أعيننا الفرح المبهج الذي لأقربائنا حينما انسحبوا إلى البرية بسرور ولباقة وتوغلوا في أعماق الغابات...

إذ شرحنا ذلك للشيخ السابق ذكره بطريقة مستقيمة حسب إيمان ضمائنا، وأظهرنا بدموع غزيرة عدم قدرتنا على مقاومة هذا الدافع ما لم نتدخل نعمة الله لإتقاننا، عندئذ صمت الأب وقتاً طويلاً، وأخيراً تنهد تنهداً عميقاً وقال...

٢- زهد الراهب في المشاعر الجسدية

إن ضعف أفكاركما يُظهر أنكما إلى الآن لم تزهدا الرغبات العالمية، ولا مارستما إماتة شهواتكما السابقة. لأن رغباتكما الهائمة تكشف عن كسل قلبيكما، مع احتمالكما من جهة الجسد فقط. فيلزم دفن كل هذه الأمور ونزعها من قلبيكما تمامًا، إن كنتما قد أمسكتما بالزهد الحقيقي وبالسبب الرئيسي للوحدة التي نحيها.

هكذا أراكما ساقطين تحت هذا الضعف من الكسل الذي يصفه سفر الأمثال: "نفس الكسلان تشتهي ولا شيء لها"، وأيضًا "شهوة الكسلان ثقلة" (أم ١٣: ٤؛ ٢٥: ٢١). لأنه لا يليق بنا أن نستريح من جهة احتياجاتنا الزمنية مادامت هذه الاحتياجات ضرورية ومتناسبة مع دعوتنا. فإذا ظننا أننا نستطيع أن نقف لنا ربحًا عظيمًا من تلك المباحج التي تتبع عن المشاعر الجسدية فلا ننزع عنا سلوان أقاربنا، أما يصدنا قول مخلصنا الذي يستبعدنا عن كل ما ينسب إلى حاجات الجسد قائلًا: "إن كان أحد يأتي إليّ ولا يبغض (يترك) أباه وأمه وامراته وأولاده وإخوته وأخواته.. فلا يقدر أن يكون لي تلميذًا" (لو ١٤: ٢٦)؟

إن كنا قد تخلصنا من حماية والدينا، فإنه يلزمنا أيضًا ألا نحتاج إلى خدمات الرؤساء^١ الذين بكل شكر يبتهجون بتقديمهم احتياجاتنا مجانًا. فإننا إذ نقات بغناهم نتحرر من الاهتمام بإعداد الطعام، لكن ترعبنا لعنة النبي القائل: "ملعون الرجل الذي يتكل على الإنسان" (إر ١٧: ٥) و"لا تتكلموا على الرؤساء" (مز ١٤٦: ٣).

على أي الأحوال لو أننا أقمنا قلائنا على ضفاف النيل لكي ما نحمل المياه إلى أبوابها (بغير تعب)، فلا نحملها على أكتافنا بأنفسنا مسافة أربعة أميال، أما يوبخنا قول الرسول الذي يطلب منا الاحتمال بغير كل بل بفرح، قائلًا: "ولكن كل واحدٍ سيأخذ أجرته بحسب تعبهِ" (كو ٣: ٨)؟

لعلنا نهمل أنه حتى في مدينتنا توجد مخازن مملوءة بما لذ وطاب، وثمار وفيرة وحدائق غناء وأرض خصبة تمدنا بما نحتاج إليه من طعام بأقل مجهود جسدي، لكننا نخشى لئلا نوبخ بما وُجه إلى الغني المذكور في الإنجيل: "أذكر أنك استوفيت خيراتك في حياتك" (لو ١٦: ٢٥). لكننا إذ نحتقر كل هذه الأمور ونزدري بها تمامًا مع كل مباحج الحياة، نبتهج بالصحراء القاحلة البعيدة أكثر من كل الملذات إذ لا نطلب نفعًا زمنيًا للجسد، إنما مكافأة أبدية للروح...

لأنه قليل على الراهب أن يقوم بالزهد مرة واحدة فقط، محتقرًا العالم الحاضر في أيامه الأولى وحدها (عند خروجه للدير)، إنما يلزم أن يستمر في زهده كل يوم... لهذا يقول الرب في الإنجيل: "إن أراد أحد أن يأتي فليترك نفسه ويحمل صليبه كل يوم ويتبعني" (لو ٩: ٢٣).

٣- نوع الأماكن التي تناسب النساك

من اختبر الاهتمام المقلق لنقاوة إنسانه الداخلي، لا يطلب الأماكن الخصبة الكثيرة الثمر، حتى لا تستميل ذهنه بفلاحتها، ولا تجذبه عن البقاء في قلايته صامدًا ثابتًا، إنما يلزمه أن يقوم ببعض الأعمال في الهواء الطلق، وهكذا فإن أفكاره تنسكب كما بغير ضابط لتنتشر في الهواء وتفقد تركيز ذهنه وصفاء رؤيته لهدفه.

هذا الأمر لا يمكن أن يتطلع إليه إنسان أو يراعيه إلا من يحفظ جسده ونفسه محبوسين على الدوام بين حوائط القلاية، فيكون كصياد سمك ماهر يطلب طعامه بالفن الرسولي، فإنه بشغف يبقى بغير حركة لكي يصطاد حشود الأفكار السابحة في الأعماق كما من على صخر عال. بهذا يستطيع أن يقرر بحذاقة وفطنة ما يلزمه أن يصطاده لنفسه بواسطة صنارته المنقذة، وما يليق به أن يهمله من أفكار ويتركه بكونه سمكًا رديئًا.

^١ أي الذين هم في مناصب كبيرة ويودوا أن يقدموا للربان خدمات لأجل راحتهم... فإنه لا يليق بالرهبان أن يتكلموا عليهم في كسل.

٤ - الأعمال التي تناسب المتوحدين

كل من يثابر على الدوام ساهراً ينفذ ما أوضحه حبقوق النبي قائلاً: "على مرصدي أفف وعلى الحصن أنصب، وأراقب لأرى ماذا يقول لي؟ وماذا أجيب عن شكواي؟" (حب ٢: ١). ويظهر بوضوح كيف أن هذا صعب ومضني وذلك من خبرة الذين يقطنون صحراء^٢ Clamus أو Porphyrion. فمع كونهم منفصلين عن كل المدن ومساكن البشر بمسافة بعيدة في الصحراء أكثر مما لوحشية منطقة الإسقيط حيث يحتاج الوصول إليهم إلى السير سبعة أو ثمانية أيام في وسط برية قاحلة... لكنهم لما انشغلوا بالزراعة في حدود غير ضيقة... صارت الأفكار المعلقة تتشوش أذهانهم، حتى صاروا كأناس مبتدئين في الرهينة، أو كمن ليس لهم خبرة في الوحدة، ولم يعودوا يحتملون السكون والبقاء في القلالي والسلام الذي فيها، إنما أجبروا على تركها كمن هم تحت التمرين بلا خبرة، لأنهم لم يتعلموا كيف يوقفوا حركات الإنسان الداخلي، ويخدموا عواصف أفكارهم بالعناية اللازمة والجهد بمثابرة. إنما كانوا يقضون يومهم في الهواء الطلق في تعب منطلقين في العراء، ليس من جهة جسدهم بل وقلبيهم أيضاً، إذ كانوا يتحدثون بأفكارهم علانية أينما ذهبوا. بهذا لم يراعوا غباوة ذهنهم من جهة اشتياقاتهم لأمر كثيرة، ولم يتمكنوا من ضبط تفكيرهم الهائم. وإذا لم يكونوا قادرين على احتمال حزن الروح كانوا يحسبون أن السكون الدائم أمر لا يُطاق، وأن من لا ينشغل بأعمال مجهدة... يكون مضروباً بالصمت ومنهك القوى بسبب طول فترة راحته.

٥ - عدم الخروج من القلاية كعلاج للقلق

ليس بالأمر العجيب أن من يعيش في قلاية يجمع أفكاره كما في محبس ضيق، فإذا خرج من قلايته تضايقه تشوش كثيرة من الأمور المعلقة، فتجعله يجول هنا وهناك كحصان جامح... لكن إذ يعود بسرعة إلى قلايته فإن الأفكار تعود إلى مكانها المناسب لها. أما من يسمح لها بالجولان بطريقة دائمة، فإنهم يصيرون إلى حالة أشد. فإن العاجزين عن معرفة كيفية الصراع ضد استفزازات خيالاتهم، إذ يتراخون في القانون الصارم، ويسمحوا لأنفسهم بالخروج من قلايتهم، يصيرون بما يحسبونه علاجاً في حالة أكثر مرضاً... هؤلاء يشبهون أناساً يتخيلون أنهم قادرون على قمع الحمى الداخلية بشربهم ماءً مثلجاً، وهم لا يدرون أنهم بهذا يلهبون نيرانها بدلاً من إخمادها...

٦ - كيف يضبط الراهب أفكاره؟

يجدر بالراهب أن يوجه كل اهتمامه إلى جانب واحد، وأن يضبط كل أفكاره التي تنور فيه وتدور في ذهنه، موجهاً إياها إلى هذا الاتجاه، أي إلى تذكر الله. وذلك كما الإنجيلي لوقا كان إنساناً يرغب في بناء قبو عالٍ على شكل قوس دائري يلزمه أن يرسم بدقة خطاً دائرياً حول المركز... لأنه الإنجيلي لوقا حاول أن يُنفذ هذا العمل من غير أن يحدد مركز الدائرة فإنه مهما بلغت دقته ومهارته في فنه يستحيل عليه أن يحفظ محيط الدائرة بغير أن يخطئ أدنى خطأ... هكذا أيضاً أذهاننا إن لم يدُر العمل فيها حول حب الرب وحده كمركز ثابت لها غير متحرك، فإن أعمالنا وتقاليدها - بسبب الظروف - تنحرف عن بالاستتارة السامية... هذا الحب، الذي بدونه لن يقوم التركيب الخاص بالبناء الروحي الذي مهندس بولس مهما كانت المهارة ممتازة، ولا تستطيع أن تمتلك المنزل الجميل الذي اشتاق إليه الطوباوي داود في قلبه لكي يقيمه للرب قائلاً: "يا ربُّ أحببتُ محلَّ بيتك وموضع مسكن مجدك" (مز ٢٦: ٨).

بدون الحب يقيم الإنسان في قلبه، بغير بصيرة، منزلاً غير جميل لا يليق بالروح القدس، ولا يكون له شرف استقبال القدوس الذي يقطن (في القلب) إنما يسقط في الحال، وينهدم البناء في بؤس.

^٢ المؤسسات ٢٤: ١٠.

٧- سؤال بخصوص ابتعاد الرهبان عن أقربائهم

جرمانئوس: حقاً إنه قانون نافع وضروري تقدمه بخصوص نوع الأعمال الواجب القيام بها في القلاي... لكن الأمر الغامض بالنسبة لنا هو: لماذا يلزمنا تجنب أقربائنا تجنباً تاماً، إذ ترفض ذهابنا إليهم رفضاً باتاً، مع أننا نراكم هنا وأنتم بلا عيب تسلكون في كل طرق الكمال، ليس فقط ساكنون في بلدكم بل منكم من لم يخرج خارج قريته، فلماذا هذا الأمر لم يضركم؟

٨ - إبراهيم

أحياناً نرى أموراً رديئة تُؤخذ من أمور صالحة، لأنه متى تمثل إنسان بآخر فقام بنفس فعله ولكن ليس بنفس الفكر ولا ذات الغاية أو بنفس السلاح يسقط للحال في شباك الخداع والموت، خلال نفس الأمور التي بها يريح الآخرون ثمار الحياة الأبدية. ذلك مثل الصبي الذي حارب مع رجل الحرب الجبار (جليات)، فإذ لبس حلة شاول الحربية الثقيلة وجدها تتناسب مع الرجال وحدهم بينما تضر الشاب الغض. أليس بتمييز مملوء حكمة اختار الشاب السلاح المناسب مع صبوته، مسلحاً نفسه ضد عدوه الغبي لا بترس ولا درع كالآخرين، بل بالسلاح الذي يمكنه هو أن يستخدمه؟ لذلك يجدر بكل إنسان منا أن يأخذ في اعتباره قياس طاقاته حسب حدوده، حتى يختار النظام الذي يسره. لأنه وإن كانت كل الطرق صالحة، لكنها ليست كلها تناسب الجميع.

فإن كانت حياة النساك حسنة، فهذا لا يعنى أنها تناسب الكل. فإن كثيرين شعروا أنها غير نافعة لهم، بل ومضرة. ليس لأننا محقون في اختيارنا نظام الشركة... أن نعتبر أنه يلزم على كل أحد أن يسلك نفس الطريق. هكذا أيضاً الاهتمام بإضافة الغرياء أمر نافع جداً، لكنه ليس لائقاً بالجميع... لهذا يجدر بنا أن ننظم هذه المنطقة ونقارن كل نظام بالآخر، ونقدّر قوة الناس من صنعهم للفضيلة أو الرذيلة بصورة دائمة... لأن ما هو صعب بالنسبة لإنسان من أمة معينة قد يكون بالنسبة لأمة أخرى عادة ألزمتهم بها الطبيعة.

مثال ذلك نجد بين الأمم اختلاف في الطقس، مما يجعل البعض يقدر على احتمال البرد القارس والحر اللافت دون أي غطاء يأوون تحته أجسادهم، بينما لا يحتمل غيرهم هذا الجو قط مهما كانت قوتهم... هكذا فإننا لو كنا نراكم متساويين في الفضيلة والمثابرة (مع الرهبان الساكنين في قراهم هنا) فإنه لا حاجة لنا أن نطلب منكم الانعزال عن اخوتكم وأقاربكم.

٩- ولكي ما تستطيع أن تقيس قوتكم باختبار دقيق سأشير عليك بما حدث مع ذلك الشيخ، أي الأب أبولوس، حتى إذا ما فحصتما قلوبكما سرّياً وتقرر أنكما لستم أقل منه في هدفه وصلاحه، عندئذ يمكنكم أن تتجاسران وتبقيان في مدينتكما، وتعيشان بجوار أقربائكما من غير أن ينحرف هدفكما أو يصيبكما ضرر من هذا السلوك...

لقد جاء أخوه يوماً مترجياً إياه أن يأتي معه بالقرب من ديرهِ جداً لكي يساعده في إنقاذ ثوره إذ سقط في بركة عميقة ولا يقدر أن ينتشله بمفرده. عندئذ أجابه الأب أبولوس بحزم قائلاً: "لماذا لم تسأل أخاك الأصغر الذي هو أقرب إليك مني؟ وإذ ظن الأخ أن الأب نسي موت أخيه الذي انتقل منذ زمن بعيد، ظاناً أنه بسبب كثرة زهده ونسكه الدائم ضعفت ذاكرته أجابه: "كيف أطلب ذلك من إنسان مات منذ خمسة عشر عاماً؟" سأله الأب أبولوس: "أما تعلم إنني أنا أيضاً قد مُت عن العالم منذ عشرين عاماً، ولا أقدر أن أخرج من مقبرتي التي في قلايتي لكي أساعدك في أمور تخص شؤون الحياة الحاضرة؟! إن المسيح لا يسمح لي، ولو إلى قليل، أن أتراخي في هدفي في الإماتة التي دخلت فيها، بأن أذهب لأخرج ثورك، هذا الذي لم يسمح لدن والد ذاك الذي دُعي، ودفن الأب أليق من إخراج الثور!"

هكذا هل تبحثان أسرار صدريكما وتتأملان باهتمام إن كنتما تتأبران على الدوام بهذه الدقة من جهة ارتباطكما

بأقربائكم؟ فإن رأيتم أنكم تشبهانه في الإماتة، عندئذ يكون جواركم لأقربائكم وأخوتكم غير مضرّ لكم. أقصد أنه عندما تتمسكان بهذا فإنكم وإن اقتربتما منهم جدًّا، تموتان عنهم بطريقة لا تسمحان فيها أن تساعدهم (في الشؤون الزمنية) ولا أن تعطلا عملكم بسببهم.

١٠ - هل يقبل الراهب معونة أقربائه؟

جرمانئوس: ... كيف يصيب نظامنا ضرر إن تحررنا من كل اهتمام خاص بهذه الحياة تاركين لأقربائنا أن يهيئوا لنا الطعام وننتفرغ نحن للقراءة والصلاة، حتى إذ نزيل عنا العمل الذي يشغلنا الآن نُكرس بأكثر غيرة للاهتمامات الروحية وحدها؟

١١ - إبراهيم:

إنني لا أقدم لك رأيي الخاص، إنما أذكر رأي الطوباوي أنطونيوس الذي أخزى به كسل راهب معين غلبه اللامبالاة... لأنه إذ جاءه إنسان وقال إن نظام النسك هذا غير كامل، معلناً أنه يطلب للإنسان فضيلة أعظم، ممارساً ما يخص الحياة الكاملة وحدها بطريقة أكثر مما يليق بالنسبة لسكان البرية، عندئذ سأله أنطونيوس المبارك عن مكان سكناه، وعندما قال له أنه ساكن مع أقربائه، مفتخرًا بمساعدتهم له متحرراً من كل اهتمام وعمل يومي، مكرساً حياته للقراءة والصلاة بغير انقطاع من غير تشتيت روح، للحال قال له الطوباوي أنطونيوس: أخبرني يا صديقي العزيز، هل تحزن لأحزانهم ومصائبهم، وتفرح لأفراحهم؟ اعترف الرجل بأنه يساهم معهم في ذلك، عندئذ قال له الشيخ: "يلزمك أن تعرف أنك ستدّان في العالم الآتي عن الجماعة التي تعيش معها هكذا مشتركاً معهم في ربحهم وخسارتهم، فرحهم وحزنهم" .. وإذ لم يقتنع بهذا أردف الطوباوي أنطونيوس قائلاً: هذا النوع من الحياة وهذه اللامبالاة ليس فقط تدفع بك إلى الخسارة السابق ذكرها (ولو أنك لا تشعر بها الآن، كما جاء في سفر الأمثال: "ضربوني ولم أتوجع. لقد لكأوني ولم أعرف" (أم ٢٣: ٣٥)، وجاء في النبي: "أكل الغرياء ثروته وهو لا يعرف، وقد رُشَّ عليه الشيب وهو لا يعرف" (هو ٩: ٧)، وإنما أيضاً يسحبون ذهنك بغير انقطاع نحو الأمور الزمنية، ويغيرونه حسب الظروف. كذلك إذ يقدمون ثمار أيديهم لك ويمدونك بالمتونة، بهذا يحرمونك من تنفيذ وصية الرسول المبارك لأنه عندما قدم آخر وصية لرؤساء كنيسة أفسس أكد لهم أنه بالرغم من مشغوليته بواجباته المقدسة الخاصة بالكرازة بالإنجيل إلا أنه كان يعمل من أجل احتياجات واحتياجات الذين يعملون معه في الخدمة قائلاً: "أنتم تعلمون أن حاجاتي وحاجات الذين معي خدّمتها هاتان اليَدان" (أع ٢٠: ٣٤). ولكي ترى كيف أنه فعل هذا كمثال لنا يقول في موضع آخر: "إذ أنتم تعرفون كيف يجب أن يُتمثل بنا لأننا لم نسلك بلا ترتيب بينكم... ليس أن لا سلطان لنا بل لكي نعطيكم أنفسنا قدوة حتى تتمثلوا بنا" (٢ تس ٣: ٧).

١٢ - أهمية العمل في حياة الراهب

بفضل الزهد في كل غنى نختار الحصول على قوتنا اليومي بعمل أيدينا دون أن نعتمد على غنى أقربائنا، لنلنا نميل إلى التأمل في الكتاب المقدس مع كسل، فتصير قراءتنا عقيمة. لكن الأفضل أن يكون لنا الفقر العامل. حقا لو أن الرسل علمونا هذا بمثلهم أو رأينا هذا في قوانين آبائنا لكان هذا مبهجاً لنا.

هذا ويجدر بك أن تعلم أن هناك خطر آخر لا يقل عن السابق، وهو أنك تقتات بمعونة الغير وأنت سليم الجسد قوى البنية، وهذا لا يليق إلا بالضعفاء... لذا يلزم بالكل أن يعيشوا بالعمل اليومي الذي من أيديهم، ويجدر بنا أن نعود إلى وصية المحبة التي أوصانا بها الرسول الذي يمنع مساعدة الأغنياء للكسالى قائلاً: "فإننا أيضاً حين كُنّا عندكم أوصيناكم بهذا أنه إن كان أحد لا يريد أن يشتغل فلا يأكل أيضاً" (٢ تس ٣: ١٠).

هذه هي كلمات الطوباوي أنطونيوس التي نطق بها مع هذا الإنسان، وقد علمنا الطوباوي هذا بمثاله...

١٣- سبب آخر لعدم عودة الراهب إلى أهله

لكنك إذ تترجى أن تخلص آخرين أيضًا، وأنت شغوف بالعودة إلى مدينتك لنوال ربح أعظم، اسمع القصة التي رواها الأب مقاريوس...

كان في مدينة ما حلاق ماهر جدًا، اعتاد أن يحلق للفرد مقابل ٣ فلسات، وفي آخر النهار يشتري حاجياته الضرورية، ويدخر الباقي. لكنه سمع أن أجرة الحلاق في بلد آخر أعلى بكثير فذهب هناك وكسب كثيرًا جدًا. لكن في آخر اليوم ذهب إلى الجزار دفع هناك كل ما كسبه لشراء اللحم من غير أن يتبقى له شيء... فقال في نفسه إنني أعود إلى مدينتي واكتفي بالمكسب المعتدل الذي يكفي حاجاتي، وأدخر الباقي لشيخوختي، لأنه وإن بدى قليلاً وزهيداً لكنه بتجمعه معاً لا يصير مبلغاً هيناً... هكذا من الأفضل لنا أن نثابر على الدوام نحو هدفنا، مقتنين ربحاً معتدلاً في البرية حيث لا يوجد فيها اهتمامات عالية وارتباطات تشتت الفكر ولا كبرياء ولا مجد باطل وتكون الاهتمامات بالضرورات اليومية أقل... هذا خير من أن نطلب ربحاً عظيماً خلال التحدث مع الآخرين حديثاً قيماً للغاية، لكننا ننهمك في مطالب الحياة العلمانية المملوءة بالارتباطات اليومية. لأنه يقول سليمان: "حفنة راحة خير من حفنني تعب وقبض الريح" (جا:٤:٦).

في هذه الحبات يسقط الضعفاء... إذ بينما هم غير مبالين بخلاصهم، وفيما هم محتاجون لتعليم الآخرين وإرشادهم، يندفعون بحيل الشيطان تحت ستار إرشاد وحث الآخرين على التوبة. هكذا إذا ما حصلوا على ربح من حديثهم مع الآخرين يفقدون صبرهم في الأمور اللازم اقتنائها. وهكذا يصير لهم ما قاله حجي النبي: "زرعتم كثيراً ودخلتم قليلاً. تأكلون وليس إلى الشبع، تشربون ولا تروون، تكتسون ولا تدفأون. والآخذ أجره يأخذ أجره لكيس مثقوب" (حج:١:٦). لأنه بالحقيقة الإنسان الذي يضع أجرته في كيس مثقوب يخسر كل ما بدا أنه قد ربحه من حديثه مع الآخرين، بسبب فقدانه لضبطه نفسه، ولارتبائه الذهني كل يوم. وتكون النتيجة أنه بينما يظن أنه يقدر أن يقتني ربحاً عظيماً بتعليمه للغير، إذ به في الحقيقة يحرم نفسه من النمو، لأنه "يوجد من يتغاضى ولا شيء عنده ومن يتفاقر وعنده غنى جزيل"، "الحقير وله عبد خير من المتمجد ويعوزه الخبز" (أم:١٣:٧، ٩:١٢).

١٤-١٧ أمراض النفس

سأل جرمانتيوس عن حيل الشيطان في حربه معنا، فأجابه الأب إبراهيم أن المرض ولو أنه يصيب أجزاء مختلفة من جسمنا ويسمى بأسماء متغيرة إلا إنه هو مرض في كل الأحوال، هكذا يصوب الشيطان سهامه بطرق مختلفة إلى أجزاء متباينة من النفس (٣ أجزاء)، وذلك حسبما يجد مكان ضعفنا... وقد هاجم العدو الرب يسوع في الجوانب الثلاثة كسائر البشر لكنه فشل. بهذه الروح توقع الشيطان أن يغلب الرب يسوع، مجرباً إياه في الثلاث نواحي الوجدانية التي للنفس، حيث يعلم أنه في هذا قد أسرت البشرية كلها، لكن العدو لم يفلح بشباك مكره في شيء. فقد اقترب إلى الذهن من الجانب الذي يخضع للرغبات عندما قال له: "قل أن تصير هذه الحجارة خبزاً" (مت:٤:٣). واقترب إلى الجانب الخاص بالغضب عندما حاول أن يثيره ليطلب عظمة الحياة الزمنية وممالك هذا العالم (لأن محبتنا للعالم هي التي تثير الغضب). وأيضاً اقترب إلى الجانب الخاص بالإدراك عندما قال له: "إن كنت ابن الله فاطرح نفسك إلى أسفل، لأنه مكتوب أنه يوصي ملائكته بك، فعلى أياديهم يحملونك لكي لا تصدم بحجر رجلك" (مت:٤:٦).

في هذا لم تأتِ خداعاته بشيء، لأنه لم يجد فيه شيئاً فاسداً كما كان يظن... لذلك لم يخضع أي جانب من الجوانب التي في نفسه للعدو عندما جربه، إذ قال: "لأن رئيس هذا العالم يأتي وليس له شيء" (يو:١٤:٣٠).

٢٢- استفسار عن القول: "حملي خفيف ونيري هين"

جرمانئوس: إنك إذ تهبنا بنعمة الله علاجًا لكل الأوهام (الأضاليل) وحيل الشيطان التي تتركنا، شارحًا لنا ذلك بتعليمك، فإننا نسألك أن تشرح لنا هذه العبارة الواردة في الإنجيل: "لأن نيري هين وحملي خفيف" (مت ١١: ٣٠)، لأنه يبدو حملي ثقيلًا ومضادًا لقول الرسول: "وجميع الذين يريدون أن يعيشوا بالتقوى في المسيح يسوع يُضطهدون" (٢٢: ٣). كيف يكون خفيفًا وهو مفعم بالاضطهادات التي لا يمكن أن تكون سهلة وخفيفة؟!...

٢٣- إبراهيم:

يمكننا من خبراتنا أن نؤكد بسهولة أن قول مخلصنا حقيقي تمامًا، وذلك إذا ما اقتربنا من طريق الكمال كما يليق حسب إرادة المسيح، وبإماتة كل رغباتنا، ونزع كل الشهوات المضرة، دون أن نسمح لشيء ما من أمور هذا العالم أن يبقى فينا... وأن نعرف أننا لسنا سادة لأنفسنا بل بالحقيقة ننطق بكلمات الرسول القائل: "فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا في" (غلا ٢: ٢٠).

لأنه أي شيء يكون ثقيلًا وصعبًا على من احتضن بكل قلبه نير المسيح، متأسسًا على الاتضاع الحقيقي، مثبتًا أنظاره على آلام الرب على الدوام، فرحًا بكل ما يصيبه قائلًا: "لذلك أسرُّ بالضعفات والشتائم والضرورات والاضطهادات والضيقات لأجل المسيح، لأنني حينما أنا ضعيف فحينئذٍ أنا قوى" (٢ كو ١٢: ١٠).

إنني أسأل: أية خسارة يمكن أن تصيب ذاك الذي يسر بالزهد الكامل محتقرًا بإرادته، من أجل المسيح، كل مباحج هذا العالم، ناظرًا إلى كل ملذات هذا العالم كنفاية من أجل ربحه المسيح، متأملًا على الدوام في وصايا المسيح... "لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟! أو ماذا يُعطي الإنسان فداءً عن نفسه؟! مت ١٦: ٢٦؟! أية خسارة يمكن أن تضايق ذاك الذي يعرف أن كل ما يأخذه من الغير لا يمكن أن يبقى في ملكيته، معلنًا بجسارة لا تنهزم: "لأننا لم ندخل العالم بشيء وواضح أننا لا نقدر أن نخرج منه بشيء" (١ تي ٦: ٧)؟! أية احتياجات يمكن أن تهزم شجاعة ذاك الذي يعرف أنه يعمل من غير أن يقتنى "ذهبًا ولا فضةً ولا نحاسًا في مناطقكم. ولا مِرودًا للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا" (مت ١٠: ٩)؟

كيف يمكن لأي جهاد أو أية وصية صعبة للآباء أن تقلق سلام ذاك الذي ليست له إرادة ذاتية، إنما بصبر، بل بفرح يقبل ما يأمر به، ويتمثل بمخلصه الذي يطلب إرادة الآب لا إرادته قائلًا: "ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت" (مت ٢٦: ٣٩)؟

أية مضايقات أو اضطهادات يمكن أن ترعب أو تنزع فرح ذاك الذي على الدوام يفرح مع الرسل عندما جلدوهم، مشتاقًا أن يُحسب أهلاً لأن يحتمل العار من أجل المسيح؟

٢٤- ولكن الحقيقة أنه بالنسبة لنا يبدو كأن نير المسيح ليس هينًا ولا خفيفًا كقول غير المؤمنين، محاربين إيانا باعتراض غبي ضد وصية أو نصيحة القائل: "إن أردت أن تكون كاملاً فاهرب وبع كل (تخلي عن) أملكك... وتعال اتبعني" (مت ١٩: ٢١)، وهذا لأننا نحتفظ بمقتنيات هذا العالم.

إذن كيف تصير حلاوة نير المسيح العجيبة مرة إلا بسبب مرارة شرنا؟ كيف يصير الحمل الإلهي الخفيف للغاية ثقيلًا، إلا لأننا في وقاحتنا العنيدة نستهيئ بالرب الذي به نحمل حملة، خاصة وأن الكتاب المقدس بنفسه يشهد بذلك بوضوح قائلًا: "الشرير تأخذه آثامه وبحبال خطيته يُمسك" (أم ٥: ٢٢، حك ١١: ١٦)؟

أقول إنه من الواضح أننا نحن الذين نجعل من طرق الرب السهلة السليمة طرقًا متعبة، وذلك بسبب حجارة

شهواتنا الرديئة الثقيلة، إذ بغاوة نجعل الطريق الملوكي محجراً، ونترك الطريق الذي وطأته أقدام كل القديسين، بل وسار فيه الرب نفسه، باحثين عن طريق ليس فيه آثار لمن سبقونا، طالبيين أماكن مملوءة أشواكاً، فتعمينا اغراءات المباهج الحاضرة، ويتمزق ثوب العرس بالأشواك في الظلام... وقد تغطى الطريق بقضبان الخطايا، حتى أننا ليس فقط نتمزق بأشواك العوسج الحادة، وإنما ننطرح بلدغات الحيات المميتة والأفاعي المتوارية هناك، لأنه: "شوك وفخاخ في طريق الملتوي" (أم ٥:٢٢).

يقول الرب في موضع آخر بالنبى: "لأن شعبي قد نسيني... وقد أعثروهم في طرقهم في السبل القديمة ليسلكوا في شعبٍ في طريق غير مسهل" (إر ١٨:١٥). ويقول سليمان: "طريق الكسلان كسياج من شوك" (أم ١٩:١٥). هكذا إذ يضلون الطريق السماوي الملكي، يعجزون عن الوصول إلى المدينة التي وجهت إليها نظرتنا. وقد عبر عنها سفر الجامعة بصورة رمزية قائلاً عنها أنها أورشليم... (جا ١٥:١٠). بمعنى أنها "أورشليم العليا التي هي أمنا (جميعاً) فهي حرّة" (غل ٤:٢٦).

أما الذي يترك هذا العالم بحق ويحمل نير المسيح ويتعلم منه، ويتدرب يومياً على احتمال التعب، لأن الرب "وديع ومتواضع القلب" (مت ٢٩:١١)، فإنه يبقى على الدوام بغير اضطراب من كل التجارب، وبالنسبة له "كل الأشياء تعمل معاً للخير" (رو ٨:٢٨). فكما يقول النبى (مياخا) أن كلمات الله صالحة نحو مَنْ يَسْلُكُ بِالْإِسْتِقَامَةِ (مي ٢: ٧).

٢٥ - فائدة التجارب

في وسط التجربة ننال بواسطة الصراع نعمة المخلص المترفة التي تهبنا مكافآت عظيمة... لأن علامة الفضيلة السهلة العظيمة هي أن تبقى غير مزعزعة عندما تحقق بها المضايقات والمحن، فتبقى في إيمان وشجاعة محتمية في حصون الله. وفي الهجوم تتسلح كما لو كانت مع جيوش الفضيلة التي لا تقهر، فتنتصر على عدم الصبر، وتنال قوة أعظم لأن: "القوة في الضعف تكمل". ويقول الرب: "هأنذا قد جعلتك اليوم مدينة حصينة وعمود حديد وأسوار نحاس على كل الأرض... فيحاربونك ولا يقدرُونَ عليك لأنى أنا معك يقول الرب لأنقذك" (إر ١٩:١٨).

بحسب تعليم الروح الواضح نجد أن الطريق السماوي الملوكي سهل وبسيط حتى لو شعروا به صعباً وعنيفاً، وذلك لأن الذي يخدمونه بتقوى وإيمان يحملون نير الرب ويتعلمون منه، ذلك الذي هو وديع ومتواضع القلب، وللحال يلقون عنهم طرق الشهوات الأرضية الصعبة، ولا يجدون تعباً بل راحة لنفوسهم بواسطة عطية الرب. ويشهد الرب بنفسه على لسان ارميا النبى قائلاً: "قفوا على الطرق وانظروا واسألوا عن السبل القديمة أين هو الطريق الصالح وسيروا فيه فتجدوا راحة لنفوسكم" (إر ١٦:٦). لأنه بالنسبة لهم "كل وطأ يرتفع وكل جبل وأكمة ينخفض وبصير المعوج مستقيماً والعراقيب سهلاً" (إش ٤٠:٤) وبالتالي "ليس عوز لخائفه (لمتقيهِ)" (مز ٩:٣٤).

عندما يسمعون المسيح يعلن في الإنجيل: "تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم"، للحال يلقون عنهم ثقل خطاياهم، ويتحققون ما قد جاء بعد ذلك: "لأن نيري هين وحملتي خفيف" (مت ١١:٣٠، ٢٨).

إذن طريق الرب مريح لمن يحفظ وصيته. لكننا إذا كنا ببعض السهو المتعب نجلب لأنفسنا أحزاناً وأتعباً فإننا نبذل جهداً عظيماً تابعين طريقاً معوجاً لحفظ وصايا العالم، وفي هذا الطريق نجعل نير المسيح ثقيلًا وحمله صعباً، وذلك كقول العبارة: "حماقة الرجل تعوّج طريقه وعلى الرب يحق قلبه" (أم ٣:١٩). وإذ يقال "ليست طريق الرب مستوية" يجيب "أطريقي هي غير مستوية أليست طرقكم غير مستوية؟!" (حز ٢٥:١٨).

في الحقيقة تستطيع أن تتبين كيف أن نير المسيح أسهل وحمله أخف جدًا إذا ما قارنت زهرة البتولية الحلوة العطرة الرائحة ونقاوة الطهارة بالنسبة لحماة الشهوة الدنسة الكريهة الرائحة، وقارنت هدوء الرهبان وسكونهم وابتعادهم عن المخاطر والخسائر التي تشغل أذهان الناس في العالم باهتمامات الغنى واضطرابات القارضة المملوءة قلقًا...

٢٦ - هل يتحقق وعد الرب بالمائة ضعف في هذا العالم؟

بالأحرى إن جزء المكافأة التي وعد بها الرب هو مائة ضعف في العالم بالنسبة للذين زهدهم كامل، إذ يقول: "وكل من ترك بيوتًا أو إخوة أو أخوات أو أبًا أو أمًا أو امرأة أو أولادًا أو حقولًا من أجل اسمي يأخذ مائة ضعف ويرث الحياة الأبدية" (مت ١٩: ٢٩). يتحقق هذا بحق وصدق، ولا يضطرب إيماننا لأن كثيرين استغلوا هذا النص كفرصة لبلبله مفاهيم البعض قائلين بأن هذه الأمور (المائة ضعف) تتحقق جسديًا في الألف سنة^٣... لكن الأمر المعقول جدًا والواضح وضوحًا تامًا أن من يتبع المسيح تخف عنه الآلام العالمية والملذات الأرضية، متقبلًا إخوة وشركاء له في الحياة يرتبط بهم ارتباطًا روحيًا. فيقتني حتى في هذه الحياة حب أفضل مائة مرة عن (الحب الناتج عن الرباط الدموي). فبين الآباء والأبناء والإخوة والزوجات والأقارب يقوم الرباط على مجرد علاقات القرى، لذا فهو قصير الأمد وينحل بسهولة. أما الرهبان فيحتفظون بوحدة باقية في ألفة، ويملكون كل شيء في شركة عامة بينهم، فيرى كل إنسان أن ما لاختوته هو له، وما له هو لاختوته. فإذا ما قارنا نعمة الحب التي لنا هكذا بالنسبة للحب الذي يقوم على مجرد الرباطات الجسدية، بالتأكيد نجده أعذب وألذ مائة ضعف.

هكذا أيضًا نقتني من العفة الزيجية (حيث ترتبط النفس بالرب يسوع كعريس لها) سعادة تسمو مئات المرات عن السعادة التي تتم خلال وحدة الجنس.

وعوض الفرح الذي يختبره الإنسان بملكيته حقل أو منزل، يتمتع بهجة الغنى مئات المرات بكونه ابن لله يملك كل ما يخص الأب الأبدي واضعًا في قلبه وروحه مثال الابن الحقيقي القائل: "كل ما للآب هو لي" (يو ١٦: ١٥). إنه يريح لنفسه كل شيء، منصتًا كل يوم لإعلان الرسول: "كل مالي هو لكم" (١ كو ٣: ٢٢).

هكذا يتحقق لنا المائة ضعف عن طريق تقبلنا لأمر من نوع أعظم في القيمة... فلو أعطينا عوض وزن معين من النحاس أو الحديد أو أي معدن شائع وزنه ذهبًا، بهذا يكون قد رد لنا ما هو أكثر من مائة ضعف. وهكذا عوض المباهج المزدرية والعواطف الأرضية يُوهب لك فرح روحي وسعادة الحب الثمين للغاية، ولو بنفس الكمية، لكنه أفضل منها مائة ضعف وأكثر.

لكي ما أوضح هذا بمثال أقول: قد كان لي زوجة من أجل إشباع عاطفة شهوانية، والآن صارت لي في تقديس مبارك وحب المسيح الحقيقي. فالمرأة كما هي واحدة، لكن محبتي لها قد تضاعفت مائة مرة من حيث النوع. وإذا ما استبدلت الغضب المثير والحنق بالوداعة الدائمة والصبر، وعوض الإجهاد المقلق والتعب أخذت السلام والتحرر من الاهتمام، وعوض الاضطراب الأرضي العقيم نلت ثمار الحزن المبارك، وعوض بطلان الفرح الزمني أخذت غنى المباهج الروحية، أما ترى أنك بذلك تكون قد كوفئت عن المشاعر التي تتركها بمائة ضعف؟!... وإذا ما استبدلنا لذة الخطية الوقتية الزائلة ببركات الفضائل المضادة، فإننا نكون قد نلنا مباحج أفضل مائة ضعف... الآن لنترك التأمل في طبيعة الأمور التي يعوضنا بها المسيح في هذا العالم مقابل احتقارنا الريح الزمني،

^٣ للأسف يفسر البعض الألف سنة، على أن السيد المسيح سيملك ألف سنة مع المؤمنين على الأرض، وهذا يخالف روح المسيح، لكن المسيح حاليًا يملك على قلوبنا ملكًا روحيًا.

خصوصاً ما ورد في إنجيل مرقس القائل: "الحق أقول لكم ليس أحد ترك بيتاً أو إخوة أو أخوات أو أباً أو أمّاً أو امرأة أو أولاداً أو حقولاً لأجلي ولأجل الإنجيل إلا ويأخذ مائة ضعف الآن في هذا الزمان بيوثاً وإخوة وأخوات وأمهات وأولاداً وحقولاً مع اضطهادات وفي الدهر الآتي الحياة الأبدية" (مر ١٠: ٢٩). لأن ذلك الذي من أجل اسم المسيح يزدري بمحبة أب أو أم أو طفل ويسلم نفسه للحب النقي لكل الذين يخدمون المسيح، فإنه ينال مائة ضعف من الإخوة الأقرباء، ويصير له آباء كثيرون، ويرتبط برباط إخوة أشد حرارة في حب عجيب. ويغتني بأمالك كثيرة فتصير كأن كل الأديرة له، أينما ذهب في العالم يجد له مكاناً... في نفس الوقت لا يختطف ملكوت السموات من كان كسلاً أو مهملاً أو مترقفاً أو مدلاً إنما يختطفه الغاصبون. ومن هم الغاصبون؟ هم بالتأكيد الذين لا يقسون على الآخرين بل على أنفسهم، نازعين عنهم مباح الحياة الحاضرة بقوة ممدوحة، معلنين بنعمة الرب أنهم غاصبون ممتازون، وبهذا يسرقون ملكوت السموات بقوة، إذ يقول الرب: "ملكوت السموات يُغصب، والغاصبون يختطفونه" (مت ١١: ١٢).

هؤلاء بالتأكيد يستحقون المديح كغاصبين يغتصبون العنف لهلاك ذواتهم... أو بالتأكيد "هلاك تنفيذ شهواتهم ورغباتهم". وذلك لما كان الإنسان يسحب هذه الشهوات والرغبات ويميتها، فإنه يبت عنفه لأجل هلاكه، أي هلاك لذاته ورغباته التي تنتهرها الكلمة الإلهية بالنبي قائلة: "ها إنكم في يوم صومكم تُوجدون مسرةً وبكل أشغالكم تسخرون... إن رددت عن السبت رجلك عن عمل مسرتك" (إش ٥٨: ١٣). وقد أضاف النبي التطويب الموعود به لمن يترك مسرته ويمسك بمسرة الرب قائلاً: "فإنك حينئذ تتلذذ بالرب وأركبك على مرتفعات الأرض وأطعمك ميراث يعقوب أبيك لأن فم الرب تكلم" (إش ٥٨: ١٤).

يعطينا ربنا ومخلصنا نفسه مثلاً لنزاع إرادتنا قائلاً: "لأنني قد نزلت... ليس لأعمل مشيئة بل مشيئة الذي أرسلني" (يو ٦: ٣٨). يظهر هذا النوع الجيد من ترك الإرادة في حياة السالكين في نظام الشركة تحت قيادة الآباء، حيث لا يصنعون شيئاً بغير مشورة الأب...

بمثل هذه العبارات ناقش الأب إبراهيم أصل الخداعات المملوءة مكرًا التي يقترحها الشيطان علينا، ملهباً فينا الشوق نحو الإماتة الحقيقية، حيث نرجو أن نرى كثيرين أيضاً يلتهبون بهذا، ولو أننا كتبنا هذه الأمور في صورة مختصرة...



ملخص المبادئ

- ✠ ينبغي على الراهب أن يموت عن علاقات القرابة البشرية ليحب البشرية كلها في الرب يسوع.
- ✠ يجدر بالراهب ألا ينشغل بالأعمال الكثيرة، وفي نفس الوقت لا يعتمد على أقربائه أو غيرهم في المونة الضرورية له، لأن من لا يعمل لا يأكل.
- ✠ لا يجوز علاج القلق وغيره من الأمراض الروحية بطرق خارجية كالهروب من القلاية والانشغال بالعمل المادي.
- ✠ حمل المسيح الخفيف ونيره هين بالنسبة لمن تأسس على حياة الاتضاع الحقيقي، مثبتاً أنظاره على آلام الرب على الدوام.
- ✠ خطايانا هي التي جعلت حمل المسيح بالنسبة لنا ثقيلًا لا يُحتمل.

✠ الله يرد لنا كل ما نتركه مائة ضعف في العالم وحياة أبدية في الدهر الآتي.
✠ ✠ ✠

مؤسسات نظام الشركة

للقدیس یوحنا کاسیان

المؤسسات لنظام الشركة

ينقسم هذا العمل إلى جزئين:

١. الجزء الأول يحوي أربعة كتب:

الكتاب الأول عن ملابس الراهب.

الكتاب الثاني عن الخدمة الليلية حسب الطقس المصري.

الكتاب الثالث عن الخدمة النهارية حسب طقس فلسطين وما بين النهرين.

الكتاب الرابع عن جاحدي العالم أو الحياة العامة للذين نبذوا العالم من أجل الله، والفضائل اللائقة بهم.

وقد قدمت موجزًا لما ورد في هذه الكتب الأربعة مع اقتباسات هامة تكشف عن مفاهيم الكنيسة الأولى

للحياة الرهبانية، خاصة لنظام الشركة، ونظرتها للفضائل المسيحية. وإني اكتفي حاليًا بهذا الموجز^١.

ب. الجزء الثاني يحوي ثمانية كتب عن الثمانية خطايا الرئيسية.

الكتاب الخامس: عن روح النهم أو الشره.

الكتاب السادس: عن روح الزنا.

الكتاب السابع: عن روح الطمع.

الكتاب الثامن: عن روح الغضب.

الكتاب التاسع: عن روح الاكتئاب.

الكتاب العاشر: عن روح الضجر.

الكتاب الحادي عشر: عن روح المجد الباطل.

الكتاب الثاني عشر: عن روح الكبرياء.

منذ أكثر من ١٥ عامًا أرسل الراهب باسيليوس السرياني (السابق) ترجمة لخمس كتب، وقد قامت

كنيسة مارجرس بإسبورتج بنشرها بعد تبسيط اللغة حتى يمكن للشباب الانتفاع بها. كما قام اجتماع الشباب بتعريب كتابين.

^١ راجع القمص تادرس يعقوب ملطي: القديس يوحنا كاسيان، ١٩٧٧.

مؤسسات نظام الشركة للقدّيس يوحنا كاسيان

٥

في روح النهم^٢

خطية النهم لا الأكل!

خلق الله الإنسان لكي يعمل في الجنة (تك ١٥: ٢)، لا لينحني بكل كيانه الجسدي والنفسي تحت ثقل شهوة الأكل والشرب، فالطعام والشراب هما عطية وبركة من قبل الرب لكي يستطيع الإنسان أن يحيا ويعمل، منتشبهًا بالله الذي يعمل دومًا بلا انقطاع (يو ١٧: ٥).

القدرة على الأكل والشرب بركة من قبل الله الذي خلق النباتات بثمارها الشهية لكي يأكل الإنسان، لا ليُسْتَعْبَد لشهوة الطعام.

شهوة الطعام المبالغ فيها أو خطية النهم، سواء بالرغبة في امتلاء البطن بلا شبع، أو الرغبة في الأكل في غير مواعيد الطعام، أو التلذذ بأنواع معينة، تكشف عن فراغ داخلي. فالنهم هو ترمومتر غالبًا ما يشير إلى مرض لحق بالنفس، أفقدها فرحها وسلامها وشبعها، فأفسحت المجال للجسد لعلّه بكثرة الطعام بغير ضابط يمكن أن ينشغل الإنسان. لهذا فعلاج النهم ليس هو مجرد الامتناع عن الأطعمة، وإنما إشباع الأعماق الداخلية بالخبز النازل من السماء.

لقد أوضح القدّيس يوحنا كاسيان المبادئ التالية:

١. الصوم الروحي الحقيقي هو بداية طريق جهادنا.

"هذه هي بداية صراعنا، أول اختبار لنا في الألعاب الأولمبية (الروحية) أن نخمد شهوة الحلق والبطن بالاشتياق إلى الكمال".

"لا يستطيع أحد أن يجاهد قانونيًا إلا إذا قهر جسده أولاً. ومن المؤكد أن من لا يجاهد قانونيًا لا يكون له نصيب في النضال، ولا أن يفوز بإكليل المجد ونعمة الغلبة".

٢. لا يخضع كل الرهبان لقانون صوم واحد، إنما حسب صحة الراهب وسنه ظروفه.

"يجب على كل شخص أن يفرض على نفسه قانونًا غذائيًا حسب ما تتطلبه الحرب ضد جهاده الجسدي".

٣. ما يشغل ذهننا ليس مجرد الصوم عن الطعام، بل نقاوة القلب الداخلية، وإن كان الصوم عاملاً

^٢ تعريب الدكتورة نورا العجمي ونانسي مجدى جرجس بكنيسة الشهيد مار جرجس باسبورتج

رئيسيًا في ذلك.

"ضبط النفس في الطعام لا يكفي وحده ما لم تتحد بقية الفضائل بالذهن".

"من لا يستطيع ضبط شهوة بطنه لن يمكنه إطفاء نار الشهوات الجسدية. فغفة الإنسان الداخلي تُقَتني بكمال هذه الفضيلة. ولا يمكن التأكد من التغلب على الحروب القوية إذا انهزم الشخص في الحروب الصغيرة".

"هكذا يحتقر الإنسان الأمور الزمنية بكونها وقتية حين يركز نظره على الأمور الثابتة الأبدية، ويتأمل في قلبه في بركة الأمور الذاتية رغم أنه مازال في الجسد".

٤. ضرورة الالتزام بفترة انقطاع عن الطعام تمامًا.

"لابد من تنفيذ طقس قانون الأصوام القيم، ولكن إن لم يليه فترات انقطاع عن الطعام لن يصل الشخص إلى هدف الكمال".

٥. يمكن لضعيف البنية أن يبلغ إلى كمال الفضيلة على مستوى الشخص القوي البنية، مادام الإنسان يضبط شهوة النهم وفي نفس الوقت يعطي الجسد احتياجاته. بالقانون الأول لا يقوده إشباع الجسد إلى فخاخ الشهوات، وبالقانون الثاني لا يقوده حرمان الجسد من احتياجاته إلى إنهاك قوته وعجزه عن القيام بواجباته.

٦. شهوة الجسد الناتجة عن الأصوام الطويلة والذي يليها ثورات الجسد تتسبب في الإرهاق لمدة من الزمن بدلاً من أن ينتج عنها النقاوة والعفة.

٧. يعتمد كمال الذهن كليًا على ضبط شهوات المعدة، فالذي لا يضبط نفسه دائمًا بنظام غذائي معين لا تدوم له النقاوة والعفة.

٨. الصوم مهما بلغ من درجة النسك إن تلاه فترات من الاسترخاء والراحة يصير بلا فائدة، وبالتالي يقود إلى خطية النهم، فتناول الطعام اليومي بكمية معتدلة أفضل من أصوام نسكية كثيرة متقطعة، وقد عُرف أن الصوم الزائد عن حدوده يُفقد الذهن سلامه وأيضًا يُضعف من قوة الصلوات نتيجة لتعب الجسد.

في الفصل ٢٣ يقول إن طبيعة النهم ثلاثية:

أولاً: يوجد من يعجل بموعد الطعام قبل الوقت المناسب.

ثانيًا: من يُسر بامتلاء البطن والتهام كل أنواع الطعام.

ثالثًا: من يجد متعة في تناول أفضل أنواع الأطعمة وأفخر المآدب.

ومقابل هذا على الراهب أن يلاحظ ثلاثة أمور في طعامه:

أولاً: عليه أن ينتظر الوقت المناسب لكسر الصوم.

ثانيًا: ألا يعطي مكانًا لتخمة البطن.

ثالثًا: عليه أن يرضى بأبسط أنواع الطعام، لأن تناول أي طعام غير المعتاد للجميع يحسبه تقليد الآباء على أنه دنس، مثل خطية البطالة، والافتخار أو التباهي.

القمص تادرس يعقوب ملطي

الفصل الأول

الانتقال من المبادئ الرهبانية إلى الجهاد ضد الأخطاء الرئيسية الثمانية

هذا هو الكتاب الخامس الذي بمعونة الرب القدير يظهر قريباً، فبعد أن انتهينا من إعداد الكتب الأربعة الأولى الخاصة بالعادات الرهبانية نقدم الآن بنعمة الله المعطاة لنا بفضل صلواتكم من أجلنا مفهوم الجهاد ضد الخطايا الثمانية الرئيسية أي:

أولاً: النهم أو لذة الطعام. ثانياً: الزنى.

ثالثاً: حب التملك وتعريفه الحقيقي هو محبة المال.

رابعاً: الغضب. خامساً: الاكتئاب.

سادساً: الضجر، أي تواني القلب. سابعاً: المجد الباطل.

ثامناً: الكبرياء.

نحتاج في بدء هذا العمل إلى صلوات قداسة البابا (الأسقف) كاستور كي ما نستحق أولاً أن ندرس بدقة أصل كل خطية وطبيعتها، مهما كانت صغيرة أو خفية أو غامضة، ثم نشرح بوضوح كامل مسببات كل خطية، وأخيراً نعرض سبل الشفاء والخلص منها.

الفصل الثاني

انتشار هذه الخطايا بين الكثيرين، لكنهم يتجاهلونها.

والحاجة إلى معونة الرب لكي يكشفها لنا

يكتشف الجميع هذه الأهواء حينما نتحدث عنها تعاليم الآباء بوضوح. لكن قبل أن ندركها نسقط فيها، وهي كائنة في داخلنا، لكن لا يدرك أحد ذلك.

لنا ثقة أنه إلى حد ما يمكننا شرحها حتى ينطبق علينا بفضل صلواتكم قول إشعياء النبي: "أنا أسير قدامك والهضاب أمهد، أكسر مصرعي النحاس ومغاليق الحديد أقصف، وأعطيك ذخائر الظلمة وكنوز المخابئ" (إش ٤٥: ٢، ٣). وذلك كي ما تسير كلمة الرب أمامنا وتمهد أولاً أرضنا من كل الهضاب، أي من الأهواء الشريرة التي نشاق إلى الانتصار عليها، والتي تدّعي سيادتها وسلطانها الخفي في جسدنا المائت، فتستسلم بفضل البحث والشرح، وبالتالي تكسر متاريس جهلنا، وتُقصّ مغاليق شرورنا التي تحجبنا عن معرفة الحق، وتقودنا إلى كنوز المخابئ، وتكشف لنا وللذين نالوا الاستنارة حسب كلمة الرسول: "سينير خفايا الظلام ويظهر آراء القلوب" (١ كو ٤: ٥). بالتالي تُمحّص عيون الذهن النقية التي تُعاني من ظلمة الشرور، فنتمكن من محاصرة الذهن وجذبه بالقوة نحو النور.

نتمكن أيضاً من شرح إمكانية السقوط فيها بالنسبة لكل من المتحررين منها والذين لا زالوا تحت قيودها. وكقول داود النبي (مز ١٣٧: ١٢) نجتاز في أتون الخطايا التي تلهب عقولنا كي ما نتمكن من اجتياز ينابيع الفضائل التي تطفئ نيرانها، ونتمتع بندى الشفاء الروحي فنصل إلى نقاوة القلب ثم كمال التعزيات.

الفصل الثالث

كيف يكون الجهاد الأول ضد روح النهم، أي لذة الطعام

أول صراع نجتاز فيه هو ضد النهم الذي عرفناه بلذة الطعام.

نتحدث أولاً عن نظام الصوم ونوعية الطعام، ويليق بنا في هذا الشأن أن نرجع إلى تقليد الآباء

المصريين وعاداتهم، هؤلاء المعروف عنهم تقدمهم في تهذيب النفس وضبطها وأسلوبهم الكامل في التمييز .

الفصل الرابع

شهادة القديس أنطونيوس بأنه يجب السعي وراء الفضيلة

من الشخص الذي يقتنيها

من أقدم أقوال القديس أنطونيوس أنه حينما يحاول الراهب وضع خطة حياته الرهبانية للوصول إلى مستويات قريبة من الكمال، وقد تعلّم التمييز، ويستطيع أن يحكم علي نفسه، ويقترّب من قمة الحياة النسكية، يلتزم ألا يسعى وراء كل أنواع الفضائل من شخصٍ واحدٍ مهما بلغ من كمال.

يوجد شخص يتحلّى بالمعرفة، وآخر بضبط النفس، وآخر مكسو بنعمة البساطة. هذا يمتاز بالشهامة، وذاك بالشفقة، وآخر بالسهر، وآخر بالصمت، وآخر بحب العمل. بالتالي الراهب المشتاق إلى جمع العسل الروحي يسعى كالنحلة الحريصة دائماً على امتصاص رحيق كل فضيلة من الذي يمتلكها ويخترنها بحرصٍ شديدٍ في وعاء قلبه.

يجب علي الراهب ألا يفحص ما ينقص الآخرين، بل إلى كل فضيلة يجدها فيهم ويجمعها، لأننا لو أردنا أن نفتني كل الفضائل من شخصٍ واحدٍ، ربما لا نجد الأمثلة المناسبة لنا للاقتداء بها.

إننا لا نري أن المسيح نفسه صنع بعد الكل في الكل (١ كو ١٥: ٢٨) كما يقول بولس الرسول حتى نكتشف المسيح شيئاً فشيئاً في الكل، لأنه قيل عنه: "ومنه أنتم بالمسيح يسوع الذي صار لنا حكمة من الله وبراً وقداسةً وفداءً" (١ كو ١: ٣٠). بالتالي نجد فيه الحكمة، ومرة أخرى البر، وأخرى القداسة، ومرة أخرى الحنان، وأخرى الوداعة، وأخرى التواضع أو طول الأناة. فالمسيح (المعلن في قديسيه) في وقتنا الحاضر مُقسّم عضواً بعضو بين الآباء القديسين، لكن حينما تجد الجميع في وحدة الإيمان والفضيلة يكون "إنساناً كاملاً" (أف ٤: ١٣)، مكملاً جسده الواحد بأوصال واختصاصات كل أعضائه. وسيأتي الوقت حينما يكون الله هو "الكل في الكل"، لأن الله الآن "في الكل" - كما سبق أن ذكرنا - بواسطة الفضائل، لكنه ليس الكل في الكل لأنهم ليسوا في ملء كمالهم.

بالرغم من أن ديانتنا لها هدف واحدة ونهاية واحدة، لكن توجد طرق متعددة للوصول إلى الله كما نشرح بالتفصيل في مناظرات الآباء. لذلك لا بد أن نسعى وراء مثال للتمييز وضبط النفس خاصة من هؤلاء الذين تتناسب فضائلهم بوفرة بواسطة عمل الروح القدس، لأنه لا يمكن لأي شخص واحد أن يحصل علي تلك الفضائل المقسمة بين كثيرين، لكن من أجل تلك الفضائل التي يمكننا اقتنائها نستطيع أن نتقدم للاقتداء بهؤلاء الذين اقتنوها.

الفصل الخامس

لا يلتزم الجميع بقانون صوم واحد

لا يمكن تحديد قانون موحد لأسلوب الصوم بسهولة، لأن قوة الجميع ليست واحدة، ولا هو كبقية الفضائل التي تُفتني بتقويم ذهن فقط، بالتالي لا تعتمد فقط علي استقامة الذهن بل ترتبط بإمكانيات الجسد.

لقد حصلنا علي هذا التفسير الخاص بالصوم كما استلمناه، فهناك اختلاف من جهة الوقت والأسلوب ونوعية الطعام تتناسب مع اختلاف حالة الجسد والسن والجنس، لكن يوجد قانون واحد هو ضبط النفس يُطبق

علي الجميع، خاص بضبط الذهن وفضائل الروح.

من المستحيل أن يمتد صوم كل شخص لمدة أسبوع أو أن يقف عند وجبة خفيفة كل يومين أو ثلاثة أيام، لأن كثيرين من كبار السن أو الذين أعياهم المرض لا يمكنهم تحمل الصوم حتى غروب الشمس بدون تعب وألم. طعام البقول المبللة بالماء لا توافق الجميع، ولا الطعام الخفيف من الخضار يناسب الكل، وأيضًا لا توافق الوجبة الشحيحة من الخبز الجاف الجميع علي السواء. يوجد شخص لا يكفيه رطلين من الطعام، وآخر يعتبر الوجبة من رطل واحد أكثر مما يحتاجه. لكن يوجد أمر واحد مشترك وهو ألا يكتر الشخص فوق احتياجات طعامه إلى حد الشرهه، لأنه لا يهم نوعية الطعام بقدر أهمية الكمية التي تكسر شرهه الذهن، لكن حينما تفرط النفس والجسد في الطعام فإنهما يضرمان نيران الشهوة نحو الخطية.

الفصل السادس

لا تسكر النفس بالخمير وحده

حينما تمتلئ المعدة بكل أنواع الطعام تتولد بذور الشهوة، ولا يستطيع الذهن عندما يتناقل بالطعام أن يحافظ علي ضبط أفكاره. فالذهن لا يسكر فقط بالخمير، لكن أيضًا بكثرة أنواع الأطعمة التي تضعفه وتسلبه من كل قوته وإمكانياته في التأمل النقي الطاهر.

السبب الرئيسي لشهوة الجسد في سدوم ليس السكر بالخمير، لكن الشبع الزائد بالطعام. لنسمع صوت الرب في توبيخه لأورشليم: "هذا كان إثم أختك سدوم... الشبع من الخبز..." (حز ١٦: ٤٩). بسبب الشبع من الطعام احترقوا بنار شهوة الجسد التي لم يمكنهم ضبطها، واحترقوا بسببها بدينونة الله لهم بنار وكبريت من السماء. إن كان الإفراط في الطعام قادهم إلى هذا الحد من السقوط في الخطية بواسطة شهوة الطعام، فماذا يكون حال الذين لهم جسد قوي البنيان ويأكلون اللحم ويشربون الخمر بلا حساب، غير مكتفين باحتياجات جسدهم، بل يتبعون ما تمليه عليهم شرهه شهوة ذهنهم؟!!

الفصل السابع

لا يتعارض الضعف الجسدي مع نقاوة القلب

لا يعوق الضعف الجسدي نقاوة القلب إذا ما أعطينا الجسد احتياجه اللازم فقط، وليس ما يتلذذ به أو يشتهيه.

من الأسهل أن نجد أشخاصًا يمتنعون نهائيًا عن الأطعمة الشهية عن أن نجد من يستخدمون الطعام بنسبة معقولة لاحتياجات الجسد. يوجد من يحرمون أنفسهم من كل شيء من أجل حبهم لضبط النفس، بينما يحتفظ آخرون بسبب ضعف الجسد بالكمية المناسبة لاحتياجه.

فالضعف الجسدي مجده ضبط النفس، لأنه بالرغم من السماح بالأكل للجسد الضعيف، إلا أن الإنسان قد يمنع نفسه عن الوجبات الخفيفة بالرغم من احتياجه إليها. إنه يتناول الطعام اللازم بحسب ما يسمح له القانون الصارم للاعتدال لسد احتياجات الحياة، وليس حسب ما تشتهيه النفس وتطلبه.

يؤخذ الطعام الشهوي الذي يساعد علي صحة الجسد باعتدال حتى لا يؤثر علي نقاوة العفة. فالقوة المكتسبة من تناول الطعام تُستهلك في التعب مع الاحتراس، لذلك لا يوجد أي نوع من الحياة بدون فضيلة النسك، وبالتالي لا يُحرم أحد من إكليل الكمال.

الفصل الثامن

ارتباط تناول الطعام بضبط الشهوة

من أفضل أقوال الآباء وأكثرها حقيقة هو ارتباط الأسلوب الصحيح للصوم والنسك بالاعتدال والعفة الجسدية. هذا هو هدف كل الفضائل الأخرى علي السواء. فبالرغم من أننا لا نزال نشتهيها إلا أنه يجب علينا تدريب أنفسنا على ضبط الطعام الذي نتناوله لسد احتياجات الجسد حسب الضرورة. فالشخص الضعيف جسدياً يمكنه الوصول إلى كمال الفضيلة علي نفس مستوي الشخص القوي البنية والصحة، وذلك بالاحتراس الدائم من الشهوات التي تنتج عن ضعف الجسد. يقول بولس الرسول: "ولا تصنعوا تدبيراً للجسد لأجل الشهوات" (رو ١٣: ١٤). إنه لا يلغي الاهتمام به من كل النواحي، لكن يجب أن لا يكون التدبير حسب أهواء وشهوات الجسد.

إنه يمنع عن الجسد رغبته في الرفاهية، لكنه لا يحرمه من ضروريات الحياة. يلتزم بالأولى لئلا يقود إشباع الجسد إلى فخاخ الشهوات، كما يلتزم بالقانون الثاني لئلا يُصاب الجسد بسبب خطأنا، فيفشل في القيام بواجباته الروحية والتزاماته الضرورية.

الفصل التاسع

الاعتدال في التأديب وقانون الصوم

لا تُقتنى فضيلة ضبط الشهوة بحسابات الوقت فقط (أي تحديد فترات الصوم الانقطاع) أو بنوعية الطعام، بل بالإضافة إلى ذلك تُقتنى بحكم الضمير. يجب على كل شخص أن يفرض علي نفسه قانوناً غذائياً حسب ما تتطلبه الحرب ضد جهاده الجسدي. لا بد من تنفيذ طقس قانون الأصوام القيم، لكن إن لم تكن هناك فترات انقطاع عن الطعام لن يصل الشخص إلى هدف الكمال.

شهوة الجسد الناتجة عن الأصوام الطويلة والذي يليها ثورات الجسد تتسبب في الإرهاق لمدة من الزمن بدلاً من أن ينتج عنها النقاوة والعفة.

يعتمد كمال الذهن كلياً على ضبط شهوات المعدة، فمن لا يضبط نفسه دائماً بنظامٍ غذائيٍّ معينٍ لا تدوم له النقاوة والعفة. والصوم مهما بلغ من درجة النسك إن تلاه فترات من الاسترخاء والراحة يصير بلا فائدة، وبالتالي يقود إلى خطية النهم، فتناول الطعام اليومي بكمية معتدلة أفضل من أصوام نسكية كثيرة متقطعة، وقد عُرف أن الصوم الزائد عن حدوده يُفقد الذهن سلامه وأيضاً يضعف من قوة الصلوات نتيجة لتعب الجسد.

الفصل العاشر

لا يكفي ضبط شهوة الطعام في حفظ نقاوة الجسد والذهن

من أجل حفظ الجسد والذهن في حالة كاملة، لا يكفي ضبط النفس في الطعام وحده ما لم تتحد ببقيّة الفضائل بالذهن.

لا بد من اقتناء الاتضاع من خلال الطاعة والعمل الشاق والجهد الجسدي.

ويجب ليس فقط عدم اقتناء المال بل واقتلاع جذور شهوة حب المال. لأن شهوة محبة المال تهاجم الكثيرين في صورة الشعور بالاحتياج أو الضرورة، لذلك يجب التمسك بعدم الرغبة في اقتنائه.

ولابد من السيطرة علي مشاعر الغضب والتغلب علي روح الاكتئاب واحتقار المجد الباطل وسحق الكبرياء تحت الأقدام وكبح الأفكار الشاردة المراوغة للذهن بالتأمل الدائم في الله. ويجب إعادة شرود أهواء القلب إلى التأمل في الله كلما حاول عدونا الماروغ أسر عقلا بعيداً عن هذا الهدف والتسلل إلى أعماق القلب الداخلية.

الفصل الحادي عشر

لا تنطفئ الشهوات الجسدية إلا باقتلاع جذور الخطيئة

من المستحيل إطفاء الشهوات الجسدية قبل اقتلاع جذور الشرور الأخرى الرئيسية، والتي سنتحدث عنها بمعونة الله في كتب أخرى لاحقة. والآن سنعالج قضية النهم أي شهوة الطعام والتي هي أول حروبنا.

من لا يستطيع ضبط شهوة بطنه لن يمكنه إطفاء نار الشهوات الجسدية. فعفة الإنسان الداخلي تُقنّتي بكمال هذه الفضيلة. لا يمكن التأكد من النصر في الحروب القوية إذا انهزم الشخص في الحروب الصغيرة. فطبيعة أو جوهر الفضيلة هو واحد بالرغم من أنها تبدو منقسمة إلى أنواع بأسماء مختلفة، فمادة الذهب مثلاً تنفرع إلى أنواع مختلفة من المجوهرات والحلي حسب مهارة الصانع.

من يكسر فضيلة معينة أو حتى جزءاً منها لن يمكنه اقتناء أية فضيلة أخرى كاملة، فكيف نصدق أن إنساناً أطفأ نار الشهوة التي لا تضرع بتحريض الجسد فقط بل والذهن أيضاً وهو لم يستطع التحكم في حدة الغضب النابع من أهواء القلب وحده؟ وكيف نصدق أن إنساناً يستطيع ضبط شهوات الجسد والنفس دون أن ينتصر علي خطيئة الكبرياء؟ وكيف نؤمن بأن إنساناً سقط تحت أقدام الشهوة المتأصلة في الجسد ولم يستطع التجرد من حب المال الذي هو خارج تكويننا؟ وكيف ينتصر الإنسان في الحرب ضد الجسد والنفس وهو لم يُشفَ بعد من مرض الاكتئاب؟

مهما تحصنت مدينة بأسوار عالية حصينة وبأبواب مغلقة قوية، ما المنفعة من ذلك لو استسلم باب واحد مهما كان صغيراً في أهميته؟ إذ ما الفرق لو اخترق العدو الخطير طريقه من خلال الأسوار العالية أو البوابات الواسعة أو عن طريق ممرات جانبية ضيقة؟!

الفصل الثاني عشر

لا بد من أن نعطي مثلاً من الحروب الجسدية في جهادنا الروحي

"إن كان أحد يجاهد لا يكلل إن لم يجاهد قانونياً" (٢ تي ٢: ٥). الإنسان المشتاق إلي إطفاء الرغبات الجسدية للطبيعة لابد أن يسرع وينتصر علي الشرور الخارجية عن طبيعته. وإذا أردنا اختبار قوة قول بولس الرسول لابد أولاً أن نتعلم قوانين الجهاد في العالم وقواعده حتى نستطيع من خلال تلك القواعد التعرف علي ما قاله الرسول بولس عن الفائز بإكليلٍ يفني (١ كو ٩: ٢٥)، فعلي المتسابق أن يعد نفسه لإكليل المجد الزمني القابل للفناء.

لابد للمشتاق إلى الدخول إلي نهائيات السباق في دورة الألعاب الأولمبية أولاً أن يقدم دليلاً علي إمكانياته كمتسابقٍ شاب قوي. لابد من اجتياز اختبار لكل المتسابقين لمعرفة مدي أهليتهم للمشاركة في السباق، وذلك من خلال حكم رئيس الدورة والجمهور.

بعد اجتياز الاختبار الدقيق وإثبات أهليته وخلوه من أية إساءة لسمعته، يتأكدون من خلال القضاء أنه لم يسقط تحت نير العبودية لئلا يمنعه هذا السبب من مشاركة الآخرين في هذا السباق والتمرن عليه لعدم

أهليته.

ثالثًا يعطي دليلًا كافيًا علي إمكانياته وبراعته، وذلك من خلال التسابق مع بقية الشباب الآخرين والمتنافسين الذين لديهم نفس مهارته وقوة الشباب. بعد الفحص الدقيق بواسطة رئيس الدورة ينتقل من منافسة الصبيان ويختلط بالرجال الناضجين الذين لهم خبرة، ويثبت ليس فقط مساواته لهم في القوة بالتسابق معهم، بل أيضًا لابد من فوزه عدة مرات بالجائزة وإثبات تفوقه عليهم. أخيرًا يصل إلي أهم سباق في الألعاب الذي لا يُسمح بها إلا لمن سبق له الفوز والحصول علي جوائز عديدة ونصرات سابقة.

إذا فهمنا هنا المثل من جهة السباق الجسدي يلزمنا معرفة نظم الجهاد الروحي وأساليبه بواسطة المقارنة بالمثل.

الفصل الثالث عشر

لن يمكننا الدخول في محاربة إنساننا الداخلي ما لم نتحرر من خطية النهم
لابد أن نُعطي دليلًا علي تحررنا من عبوية الجسد، "لأن ما انقلب منه أحد فهو له مستعبد أيضًا"
(٢بط ١٩:٢).

بعد الفحص الدقيق من رئيس السباق واكتشافه أننا أنقياء من الشهوات المشينة، وبعد إصدار حكمه أننا متحررون من عبودية الجسد، ومؤهلون ومستحقون للسباق الأولمبي ضد أهوائنا، وبالتالي نستطيع الدخول في المنافسة ضد المساوين لنا، أي شهوات الجسد وتحركات النفس واضطراباتنا. لأنه من المستحيل على المعدة الممتلئة أن تسيطر على صراع الإنسان الداخلي، ومن لا يستطيع الانتصار في الصراعات الأقل فهو غير أهل للدخول في الحروب القوية.

الفصل الرابع عشر

كيف نتغلب علي شهوة النهم؟

أولاً علينا أن نطأ تحت أقدامنا شهوة النهم، ولكي نبلغ هذا علينا أن نحول فكرنا عنها بالصوم والسهو والقراءة، وأيضًا بوخزات الضمير المتلاحقة، تارة بتذكر الخطية التي خدعنا وغلبتنا، فننتهد علي هذه الخطية المروعة، وتارة أخرى بأن ننفض تنهداتنا الملتهبة اشتياقًا نحو الكمال والقداسة. هكذا يتشبع الفكر تمامًا بمثل هذه الاهتمامات والتأملات ويتطلع إلي الطعام ليس كأنه مصدر متعة، فيصير ثقلاً عليه، بل بالحرى يعتبره ضرورة للجسد، وليس شهوة للنفس.

خلال ضبط الفكر هذا والندم المستمر علي الخطية نصير محفوظين، فنغلب شهوات الجسد (التي تنقد وتثار بالطعام) وتحريضها الخطير، فننجح في إخماد لهيبها بدموع التوبة الغزيرة من أعماق قلوبنا. هذه الشهوات التي يوقدها الملك البابلي، الذي يمدنا دائماً بأسباب الخطية والشرور التي تلهبها بأكثر ضراوة من اللهب بالنفط والزفت حتى تخدم شهواتنا الجسدية وتموت تمامًا خلال نعم الله التي تقطر كالندي داخل قلوبنا بروحه القدوس.

هذه هي بداية صراعنا، أول اختبار لنا في الألعاب الأولمبية (الروحية) أن نخمد شهوة الحلق والبطن بالاشتياق إلى الكمال. ذلك ليس بأن نطأ تحت أقدامنا كل شهوة غير ضرورية للطعام بالتأمل في الفضائل فحسب، بل ونتناول ما هو ضروري منها من أجل الطبيعة بهناء قلب، وكأنها ليست ضد نقاوتنا. أخيرًا نستمر في مسيرة حياتنا بحيث لا نشعر في وقت ما أننا قد سُحبنا من دراستنا الروحية إلا بالقدر الضروري لإيفاء

احتياجات ضعفنا الجسدي. وحين نتعرض لهذه الضرورة - ألا وهي إيفاء احتياجات الحياة وليس الشهوات - علينا أن نسرع بالانسحاب من هذا الاهتمام بأسرع ما يمكن، كأنها قد عاقتنا عن دراستنا الروحية الصحيحة لنا. فلا يمكننا ازدياد البهجة بالطعام المقدم لنا إلا عندما يكون الفكر مُركّزاً علي التأمل في الأمور المقدسة، ومنحصراً في حب الفضيلة والسرور بالأمور السماوية. هكذا يحتقر الإنسان الأمور الزمنية بكونها وقتية حين يركز نظره علي الأمور الثابتة الأبدية، ويتأمل في قلبه في بركة الأمور الذاتية رغم أنه مازال في الجسد.

الفصل الخامس عشر

كيف يكون الراهب دائم الحرص علي حفظ نقاوة قلبه؟

هكذا يكون الحال مثل شخصٍ يسعى نحو هدف ثمين لينال جائزة عظيمة. هذا الهدف موضوع علي مكان مرتفع وعليه أن يحققه بسهم ضئيل. يصوب السهم بدقة شديدة علي الهدف، واضعاً في اعتباره أن حصوله علي جائزة عظيمة ومجدٍ يعتمد علي إصابته للهدف. لذلك لا يعير اهتماماً لأية اعتبارات أخرى موجهةً بصره إلي حيث موضع الجائزة، متيقناً أنه سيفقد مكافأة مهارته وجائزة بسالته إذا خاب بصره ولو قليلاً عن إصابة الهدف بدقة.

الفصل السادس عشر

لا يجوز للراهب أن يتقدم لأية صراعات روحية ما لم يغلب أولاً في الحروب الجسدية
(علي نمط الألعاب الأولمبية)

هكذا إذا ما تغلبنا علي شهوة البطن والخلق بأخذ هذه الأمور في اعتبارنا، وأعلن كما هو الحال في المسابقات الأولمبية بأننا لسنا عبيداً للجسد وليس لنا سمة الخطيئة المشينة، حينئذ نُحسب أهلاً للتقدم لصراعات علي مستوي أعلى، تاركين وراء ظهورنا مثل هذا النوع من الدروس الأولية. ونُحسب قادرين علي الدخول في قائمة المناضلين ضد قوات الشر الروحية التي لا يُحسب مستحقاً للخوض ضدها في صراع إلا من يسمح لهم من الباسلين المنتصرين. لأن هذا هو أقوى أساس صلب لخوض جميع الصراعات إن جاز القول، بمعنى أن أول ما في الأمر لابد من قتل دوافع الشهوات الجسدية. ذلك أنه لا يستطيع أحد أن يجاهد قانونياً إلا إذا قهر جسده أولاً. ومن المؤكد أن من لا يجاهد قانونياً لا يكون له نصيب في النضال، ولا أن يفوز بإكليل المجد ونعمة الغلبة.

إن غلبتنا الشهوات الجسدية وصرنا عبيداً لها في هذه المعركة لا نكون حاملين لعلامة الحرية، ولا لعلامة القوة، ونُستبعد من النضال ضد القوات الروحية كغير أهلٍ وكعبيدٍ بكل ما يسببه ذلك من ارتباك. لأن "كل من يفعل الخطيئة هو عبد للخطيئة" (يو ٨: ٣٤). هكذا يصفنا الرسول بمثل هذه التسمية "زناة". "لم تصبحم تجربة إلا بشرية". (١كو ١٠: ١٣). لأننا إن لم نهدف لإدراك قوة الفكر لن نكون أهلاً للدخول في صراع أشد ضد الشر علي مستوي أعلى، إن كنا لم ننجح في إخضاع جسدنا الضعيف الذي يقاوم الروح.

يوجد من لم يتفهم شهادة الرسول هذه، فبدلاً من الصيغة الشرطية توضع الصيغة الدلالية: بمعنى "لا تدع التجربة تغلبك إلا التجربة الجسدية". ولكن من الواضح أن الرسول قالها بمعنى التوبيخ أو إعلان حقيقة الأمر ولم تأتِ بمعنى التمني.

الفصل السابع عشر

يجب أن يُقام أساس المعركة الروحية على الصراع ضد النهم

هل تود أن تسمع ما يقوله مناضل حقيقي للمسيح يجاهد حسب قواعد المعركة وقوانينها؟ "إذا أنا أركض هكذا، كأنه ليس عن غير يقين. هكذا أضارب كأني لا أضرب الهواء، بل أقمع جسدي واستعبده حتى بعد ما كرزت للآخرين لا أصير أنا نفسي مرفوضاً" (١كو ٩: ٢٦، ٢٧).

أترى كيف جعل الجزء الأساسي من النضال معتمدًا عليه، أي علي جسده، كما علي أكثر الأسس تأكيدًا، وجعل نتيجة المعركة مترتبة علي طهارة الجسد وقمع جسده.

"إذا أنا أركض هكذا كمن ليس عن غير يقين". إنه لا يركض عن غير يقين، لأنه فيما هو متطلع إلى أورشليم السماوية يجد علامة موضوعة أمامه يركض إليها قلبه بلا انحراف.

إنه لا يركض عن غير يقين، لأنه "ينسى ما هو وراء ويمتد إلي ما هو قدام، ساعيًا نحو الغرض لأجل جعلالة دعوة الله العليا في المسيح يسوع" (في ٣: ١٤). وقد أعلن بثقة، مثبًا نظره نحو الغرض، ومسرعًا لإدراكه بكل سرعة، قائلاً: "قد جاهدت الجهاد الحسن، أكملت السعي، حفظت الإيمان" (٢تي ٤: ٧).

ولأنه يعلم أنه سعى نحو رائحة دهن المسيح باستقامة قلب ولم يكل، وانتصر في المعركة الروحية بطهارة الجسد، ختم حديثه بجسارة قائلاً: "وأخيرًا قد وُضع لي إكليل البر الذي يهبه لي في ذلك اليوم الديان العادل". ولكي يفتح أمامنا باب الرجاء أيضًا لاقتناء مثل هذه المكافأة إذا ما رغبتنا أن نحكيه في مسيرة جهاده أضاف: "وليس لي فقط بل لجميع الذين يحبون ظهوره أيضًا" (٢تي ٤: ٨)، معلنًا أننا سنكون شركاءه في الإكليل يوم الدينونة إذا كنا نحب ظهوره أيضًا. ليس أنه يظهر لنا بغير إرادتنا، بل يظهر لنا يوميًا في النفوس المقدسة، إن كنا ننال النصر في المعركة بطهارة الجسد. عن هذا الظهور يقول السيد في الإنجيل: "ويحبه أبي وإليه نأتي وعنده نصنع منزلًا" (يو ١٤: ٢٣). وأيضًا: "هأنذا واقف على الباب وأقرع، إن سمع أحد صوتي وفتح الباب أدخل إليه وأتعشى معه وهو معي" (رؤ ٣: ٢٠).

الفصل الثامن عشر

كم كان عدد المعارك والانتصارات التي اجتازها الرسول

لكي يستحق أن يرتفع لنوال إكليل المعركة العظمى

لا يعني الرسول أنه انتهى تَوًّا من الصراع في السباق حين قال: "إذا أنا أركض هكذا كأنه ليس عن غير يقين". هذه العبارة تخص بالأكثر تفكيره وحرارة روحه اللذين بهما تبع المسيح بكل حماس، فصار يجري مع العروس، قائلاً: "الرائحة أدهانك الطيبة... اجذبني وراءك فنجري" (نش ٣: ١، ٤). وأيضًا "تشتاق بل تتوق نفسي إليك" (مز ٦٢: ٩). لكنه أيضًا يشهد أنه قد انتصر في نوع آخر من المعارك قائلاً: "هكذا أضارب كأني لا أضرب الهواء، بل أقمع جسدي واستعبده". هذا يخص آلام النقشف والصوم الجسدي وآلام الجسد، إذ يعني بذلك أنه عامل جسده بحزم وليس برخاوة. لقد كبج شهواته الجسدية وغلب في معركة النصر بإماتة جسده. لأنه حين يتنظر كبج شهواته ويتنهد بالصوم يضمن لروحه الغالبة الإكليل الذي لا يفنى والمكافأة التي لا تفسد.

تأمل الأسلوب الأرثوذكسي في المعركة وقدر إنجازات المعارك الروحية، كيف أن المناضل المسيحي وقد انتصر على جسده الثائر ووضعه تحت وطأة قدميه يُحمل إلى الأمام كمنتصر في الأعالي. ولذلك فإنه لا يركض كأنه عن غير يقين، لأنه يثق بدخوله تَوًّا إلى المدينة المقدسة، أورشليم السماوية.

هكذا يحارب بالأصوام وإذلال الجسد ليس كمن "يضارب الهواء"، أي يضرب في الفضاء بكلمات كبج الشهوات التي بها لا يضرب الهواء، بل يضرب الأرواح التي تسكن هناك بطهارة جسده. لأن الذي يقول "ليس كمن يضارب الهواء" يعني أنه "لا يضرب الهواء والفضاء"، بل يضرب كائنات معينة في الهواء.

ولأنه انتصر في هذا النوع من المعارك وسار وقد اغتني بمكافآته من أكاليل هذا عددها، ليس عن غير استحقاق، دخل في قائمة الأبطال في النضال ضد أعداء أكثر ضراوة بعد أن انتصر على أعدائه السالفين. هكذا يعني بقوله: "فإن مصارعنا ليست مع دم ولحم، بل مع الرؤساء مع السلاطين مع ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر، مع أبناء الشر الروحية في السماويات" (أف ٦: ١٢).

الفصل التاسع عشر

المناضل في المسيح لا ينفذ يده قط من القتال ما دام في الجسد

ما دام جندي المسيح في الجسد لا يغفل عن تحقيق انتصارات في المعارك، إذ كلما نمت في انتصاراته الظافرة جابه معارك أكثر عنفاً. لأنه كلما أخضع الجسد وقهر ثارت في وجهه حشود من العدو وقوات من المقاومين لتقاتل جندي المسيح المنتصر!

نخشى أن يتراخى جندي المسيح في جهاده في رحب السلام، ويبدأ في نسيان صراعاته المجيدة في معاركه، ويصير خاملاً بسبب البطالة التي تلحق به بسبب زوال الخطر ويخدع بأمجاده وإنجازاته السابقة التي حصل عليها في انتصاراته. إن كنا نريد أن نرتفع باستمرار إلى هذه الدرجات من الانتصار علينا أن نحرص أن نكون في قائمة المناضلين في مختلف المعارك، ونستهل بالقول جنباً إلى جنب مع الرسول: "هكذا أضراب كأني لا أضرب الهواء بل أقمع جسدي وأستعبده" (١كو ٩: ٢٦، ٢٧). حتى إذا ما انتهت هذه المعركة نستطيع أن نقول مرة أخرى: "فإن مصارعنا ليست مع دم ولحم، بل مع الرؤساء مع السلاطين مع ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر مع أجناد الشر الروحية في السماويات" (أف ٦: ١٢).

لا يجوز أن يكون لنا نصيب في معارك كهذه، ولا نستحق أن ندخل في مصارعات روحية، إن كنا نتعثر في المعركة ضد شهوات الجسد أو نسقط في المعركة مع البطن، إذ نستحق عندئذ أن نسمع ما قاله الرسول بلغة اللوم: "لم تصبكم تجربة إلا بشرية" (١كو ١٠: ١٣).

الفصل العشرون

إن أراد الراهب التقدم في صراع المعارك الداخلية،

يليق به ألا يتعدى على الأوقات الموضوعة لتناول الطعام

يليق بالراهب أن يحذر ذلك أول ذي بدء إن أراد أن يتقدم في الصراع في المعارك الداخلية، فلا يسمح لنفسه بأي حال من الأحوال أن يضعف أمام مشتبهات الطعام، أو يتناول أي طعام أو شراب قبل الوقت المحدد لصومه والمناسب، فلا يتناول أي طعام خارج أوقات الوجبات الرئيسية. وأيضاً بعد انتهاء فترة الوجبة المحددة لا يجوز له أن يتناول أي طعام مهما كان بقدر ضئيل. وبالمثل يلزمه أن يراعي أوقات النوم القانونية وفترة النوم المحددة.

لابد من قطع الملذات، ألا وهي إطلاق العنان للأهواء والشهوات والرغبات، وذلك لكي ننزع جذور خطية الدنس. لأنه إن لم يستطع الإنسان كبح رغبات شهوة الطعام غير الضرورية، كيف يستطيع أن يطفئ نيران الشهوة الجسدية؟! وإن لم يستطع أن يضبط رغباته الجسدية الظاهرة والمباشرة والضعيفة، كيف يستطيع أن يقاتل بتمييز واعتدال سهام العدو السرية التي تثيره وهو لا يعلم من أين هاجمته؟! هكذا يختبر المرء مدى

صموده في المعارك التي تنثار ضده، فإن كان يقهر أمام الرغبات الضعيفة والمباشرة الواضحة كيف يستطيع إذاً أن يجابه الرغبات القوية الجامحة والخفية؟! فليكن ضمير كل إنسان حازماً مع نفسه.

الفصل الحادي والعشرون

عن السلام الداخلي للراهب والزهد الروحي

لا نخشى عدواً خارجياً، فخصمنا مختفٍ داخلنا! توجد حرب داخلية تتور داخلنا يومياً، إن قهرناها تضعف أماننا كل الأمور الخارجية، ويخضع ويستسلم كل شيء لجندي المسيح!

إذا ما خضع كل ما بداخلنا للروح لا يكون لنا عدو نخشاه. وعلينا ألا نفكر أن هذا الصوم الخارجي عن الطعام المرئي وحده يكفي لإدراك كمال القلب وطهارة الجسد إن لم يرافقه ويتحد به صوم النفس.

للنفس أيضاً طعامها الضار الذي يسبب تخمة، وإن كان ليس بسبب كثرة اللحم، تؤدي إلى السقوط في الشهوات.

تشويه السمعة (أي القذف) هو إحدى أنواع طعام النفس المحببة جداً.

الانفجار في الغضب أيضاً طعام لها، حتى وإن كان بسيطاً، فهو يدها بالطعام الكريه لساعة ويحطمها أيضاً بمذاقه المميت.

الحسد طعام للعقل يفسده بشرايه المسموم، ولا يكف عن جعله بائساً وحزيناً عند نجاح الآخرين وازدهارهم.

المجد الباطل هو طعام النفس الذي يبهجها إلى حين بوجبة شهية، لكنه يجردها فيما بعد ويسلبها كل فضيلة، ويتركها عاقراً، وخالية من أي ثمر روحي، فيجعلها لا تفقد مكافأة أعمالها العظيمة فحسب، بل تجلب على نفسها عقاباً أشد.

كل شهوة وضلال مخادع للقلب هو نوع من الطعام للنفس، تقوتها كأنه لحم ضار، لكنه يتركها فيما بعد محرومة من نصيبها من الخبز السماوي والطعام القوي بالحقيقة.

إذا لو جمعنا كل ما فينا من قوة، وامتنعنا عن كل هذا بصوم مقدس تام، عندئذ تكون مواظبتنا على صوم الجسد مفيدة ومربحة لنا أيضاً.

تعب الجسد حين يصاحبه ندم الروح على الخطية يكون بمثابة ذبيحة مقبولة مرضية أمام الله، ويصير موضعاً يليق بالقداسة، أي يحمل القلب الطاهر النقي. ولكن إن صاحب صوم الجسد انغماس في رذيلة النفس الخطيرة لن ننتفع من إذلال الجسد أيّاً كان.

حين يكون الجزء النفيس فينا (النفس) مدنساً، نخطف بذلك إلى الموضع الذي يسكنه الروح القدس بالفضيلة. لأن القلب النقي هو موضع سكنى الله وهيكل الروح القدس وليس الجسد الفاسد.

إذاً علينا عند صوم الإنسان الخارجي أن نمنع الإنسان الداخلي من الطعام الضار به. هذا الإنسان الداخلي بالذات هو الذي يحثه الرسول الطوباوي فوق كل شيء ليقدم قلباً طاهراً أمام الله، حتى يوجد مستحقاً لاستقبال المسيح للسكنى في داخله، قائلاً: "ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم" (أف ٣: ١٦، ١٧).

الفصل الثاني والعشرون

يلزمنا أن نمارس الزهد الجسدي لعلنا نبلغ إلى الصوم الروحي

هكذا نعلم أنه علينا أن نهتم بالزهد الجسدي الذي به نبلغ إلى نقاوة القلب، وإلا نكون قد تعبنا باطلاً. إن اجتهدنا بلا كلل لبلوغ الزهد الجسدي وحده يكون قد فانتنا الذي لأجله تحملنا كل هذا العناء. فالأجدر بنا أن نمتنع عن طعام الروح المحرم، وليس أن نصوم بالجسد عن أشياء غير ضارة ولا تهم في كثير أو قليل.

لأنه في الحالة الأخيرة لا يوجد خطأ أو ضرر لإنسان الله إذا استعملها بالطريقة البسيطة المعتدلة، أما في الحالة الأولى فهناك خطر، ألا وهو القابلية لاغتيال الإخوة. هذا الذي قيل عنه: "لا تحب اغتيال قريبك لئلا تنزع جذورك" (أم ٢٠: ١٣ الترجمة السبعينية). أما بخصوص الغضب والغيرة فيقول الطوباوي أيوب: "لأن الغيظ يقتل الغبي، والغيرة تُميت الأحمق" (أي ٢: ٥). نلاحظ أن الأول دُعي بالغبي، والثاني بالأحمق (كطفل). هذه التسمية للأول ليست عن غير استحقاق لأنه يُعد هكذا غيبياً، لأنه يجلب على نفسه الموت بإرادته الخاصة، إذ يُنخس بوخزات الغضب، أما الأخير فبحسده للآخرين يثبت حمقه كطفل ضئيل، لأنه في حسده للآخرين يغتاط لتفوقهم فيظن أنه أقل من الآخرين مع أنه في الواقع هو متفوق عليهم.

الفصل الثالث والعشرون

ما هي نوعية طعام الراهب؟

يلزمنا أن نختار لطعامنا ليس ما يهدئ لهيب الشهوات المتقدمة ويمنع اشتعالها فحسب، بل ما يسهل تحضيره، ويكون رخيصاً، ومناسباً لحياة الإخوة لاستعمالهم العادي. لأن طبيعة النهم ثلاثية:

أولاً: يوجد من يتعجل موعد الطعام قبل الوقت المناسب.

ثانياً: من يُسرّ بامتلاء البطن والتهام كل أنواع الطعام.

ثالثاً: من يجد متعة في تناول أفضل أنواع الأطعمة وأفخر المآدب.

مقابل هذا يليق بالراهب أن يلاحظ ثلاثة أمور في طعامه:

أولاً: أن ينتظر الوقت المناسب لكسر الصيام.

ثانياً: ألا يُعطي مكاناً لتخمة البطن.

ثالثاً: أن يرضى بأبسط أنواع الطعام، لأن تناول أي طعام غير المعتاد للجميع يعتبره تقليد الآباء دنساً، مثل خطية البطالة، والافتخار أو التباهي.

لم نر من بين هؤلاء المستحقين أن يُعتبروا قَمَمًا في الدراسة والتفكير، أو الذين ميزتهم نعمة المسيح ليُضيئوا كأنوار يُحتذى بهم، من يمتنع عن أكل الخبز الذي يُعد طعاماً رخيصاً وسهل الحصول عليه. ولم نر أحداً نبذ هذه القاعدة وامتنع عن أكل الخبز وتبع نظاماً غذائياً غير أكل البقول أو الخضروات أو الفاكهة ونال مقاماً رفيعاً وتقديراً، أو حتى اكتسب فضيلة المعرفة والتمييز.

لا يعني هذا أن الراهب يطلب طعاماً غير عادي يختلف عن طعام الآخرين، لئلا ينكشف أسلوب حياته أمام العامة، فيشعر بالتفاهة، ويدمره هذا المرض. لهذا يُصر (الآباء) على ألا يُسمح بسهولة بإعلان قانون الصوم التأديبي لأي شخص بل يظل في طي الكتمان، وعلى قدر الإمكان يبقى سراً.

عند حضور إخوة زائرين لابد أن يُراعى قانون الكرم والمحبة بدلاً من اتباع نظام التقشف القاسي الذي يُمارس يومياً بصرامة. علينا أيضاً ألا نلنقت إلى رغباتنا الخاصة ونفعلنا الشخصي أو ما تملبه علينا رغبتنا الملهبة، بل نراعي أن نُقدم الوجبات الملائمة للزائرين بسرور، وما يطلبه ضعفهم فنعد لهم الطعام^١.

الفصل الرابع والعشرون

رأينا كيف كان يُكسر قانون الصوم اليومي بلا تردد في مصر عند حضورنا

عندما أتينا من إقليم سوريا وتوجهنا إلى إقليم مصر بهدف التلمذة على قانون الآباء وإرشاداتهم تعجبنا لبهجة القلب والترحاب الذي لاقيناه هناك، حتى أنهم لم يحفظوا أي قانون يمنع تناول (المرطبات، والوجبات الخفيفة) في أي وقت بخلاف الأوقات القانونية لانتهااء الصوم، كما هو الحال بالنسبة لنا في أديرة فلسطين. فقد كانوا يكسرون قانون الصوم اليومي عند حضورنا في أي يوم ما عدا أيام الصوم التقليدية، أو الأربعاء والجمعة من كل أسبوع. وعندما تساءلنا عن سبب تجاهل قانون الصوم اليومي هكذا بلا تردد عند حضورنا، أجاب أحد الآباء:

[فرصة الصوم متاحة لي باستمرار، لكن فرصة وجودك معي اليوم وأنا أقودك في رحلتك هي إلى حين.

ورغم فائدة الصوم... لكن الوصية تتطلب إتمام عمل المحبة.

فاستقبال شخص المسيح فيك يتطلب أن أوفيه واجب الضيافة.

لكن عندما أستودعك طريقك، حينئذٍ أستطيع أن أوازن بين الضيافة المقدّمة من أجل المسيح وقانون صوم أكثر صرامة لحسابي. "لأن بنو العرس لا يستطيعوا أن ينوحوا ما دام العريس معهم، ولكن ستأتي أيام حين يُرفع العريس عنهم فحينئذٍ يصومون" (مت ٩: ١٥).

الفصل الخامس والعشرون

عن ضرورة زهد أحد الشيوخ

الذي تناول شبه وجبات خفيفة دون أن يشبع

حاول أحد الشيوخ أن يحثني على تناول المزيد من الطعام، وعندما أجبتّه بأنني لا أستطيع تناول المزيد، أجابني: "لقد أعددت مائدتي ست مرات حتى الآن لعدد من الإخوة الذين وصلوا إلى الدير، ولكي أحثهم على تناول الطعام شاركهم في كل مرة، ومازلت أشعر بالجوع، فهل يُعقل أنك لا تستطيع أن تزيد من طعامك بينما هذه هي المرة الأولى التي تتناول فيها وجبة خفيفة؟"

الفصل السادس والعشرون

عن شيخ آخر لم يتناول طعاماً في قلايته قط منفرداً

رأينا شيخاً آخر عاش منفرداً في قلايته، وأعلن أنه لم يستمتع قط بتناول الطعام وحده في قلايته. فكان أحياناً يطوي خمسة أيام متصلة بلا طعام إذا لم يجيء إليه أحد الإخوة لزيارته في قلايته. وكان ينتظر أن يذهب

^١ هنا يشير إلى الأصوام الاختيارية للرهبان. حيث كان معظمهم يتناولون الطعام مرة واحدة في اليوم. كان غالبية مشاهير الرهبان يتناولون الطعام في المساء. وينص قانون ١٥٣ للأب بندكت Benedict أن يجلس رئيس الدير على رأس المائدة عند حضور الزائرين ويكسر صومه، على ألا يكون صوم عام لا يمكن كسره. ويلتزم الإخوة بفظ الأصوام القانونية.

إلى الكنيسة في أيام السيوت والآحاد للخدمة، فيدعو من وجده من الإخوة إلى قلايته ليشاركه الطعام، ليس لاحتياج جسده بل من أجل المحبة وإكرام الضيف، أي لحساب الأخ الزائر فحسب.

هكذا كانت العادة في البرية إذ حضر ضيوف إخوة في الدير، فكان الآباء الرهبان يكسرون قانون الصوم بلا تردد، ويقدمون وجبة خفيفة يشتركون فيها معهم. وعند انصراف الغرباء كانوا يواصلون أصوامهم بقانون أكثر صرامة وجدية يعوضون به هذه الاستضافة ولو كانت وجبة خفيفة. وكانوا يتجاوزون مثل هذا النظام الصارم، فلم يزدوا من التقشف في أكل الخبز فحسب، بل أيضاً قاموا بتقليل ساعات نومهم المعتادة.

الفصل السابع والعشرون

ماذا قال الأبوان يوحنا وباسيوس Passius عن ثمرة ممارستهما

جاء الشيخ المُسن يوحنا، الذي كان أباً لدير عظيم ومسئولاً عن عدد من الإخوة، ذات يوم لزيارة شيخ آخر وهو باسيوس الذي كان يعيش في البرية الممتدة الأطراف.

سأل الأول أخاه عما فعله طوال الأربعين سنة التي مضت على فراقهما والتي عاشها في وحدة تامة لا يزعجه أحد فيها إلا في القليل النادر. فأجاب الثاني: "لم ترني الشمس قط آكلًا"، فرد الثاني: "وأنا لم ترني قط جائعًا".

الفصل الثامن والعشرون

الدرس والمثل اللذان تركهما الأب يوحنا لتلاميذه عند موته.

عندما جاءت ساعته رقد على فراش الموت في أنفاسه الأخيرة ووقف حوله الإخوة يناشدون ويتضرعون من أجل آلام فراقه لهم. قدم لهم وصيته كنوع من الإرشاد الخاص حتى يبلغوا قمة عالية في الكمال. تنهد وأطلق هذه الكلمات في إيجاز، مقدماً وصيته في عبارة بسيطة قائلاً: "لم أعمل بحسب إرادتي قط، ولا علمت أحدًا شيئاً لم أفعله أنا أولاً بنفسي".

الفصل التاسع والعشرون

عن الأب ماخيتس Machetes الذي لم ينس قط أثناء الجلسات الروحية،

لكنه كان ينس دائماً أثناء الحديث في الأمور العالمية

نعرف شيخاً ما اسمه ماخيتس Machetes كان يعيش بعيداً عن مجموعات الإخوة، وقد أعطاه الرب نعمة كثرة لصلواته اليومية. فكان إذا ما حضر أية جلسة روحية مع الإخوة سواء نهائياً أو ليلاً لا يغلبه النوم قط. أما إذا ما حاول أحد أن يبيت إليه بكلمات تحط من سمعة الآخرين أو ينطق بحديث تافه، كان يقع في سبات من النوم فوراً. كان سموم القذف لم تكن قادرة أبداً على تلويث آذانه.

الفصل الثلاثون

الأب ماخيتس: عدم إدانة أي إنسان

كان يعلمنا أن لا ندين الآخرين، وأشار إلى أنه كان يوبخ الإخوة ويقدم لهم اللوم في ثلاثة أمور:

- من يستأصل مهارة الحلق^٢ (اللوز)،
- أو يحتفظ بعباءة في قلايته،
- أو يحتفظ بزيت بركة ليعطيه لمن يسأل منه من الساكنين في العالم.

ويقول أنه هو ذاته قد فعل مثل هذه الأمور.

إنني تألمت كثيرًا من مرض مهارة الحلق لمدة طويلة، وكان عليّ أن أستأصلها لضعفها، وقد نصحتني الإخوة بذلك أيضًا، وحثوني على هذا العمل. وقد كنت مجبرًا بسبب هذا المرض أن أحتفظ أيضًا بعباءة. ومكرها أيضًا أن أبارك زيت، وأعطيه لمن التمسوه مني، الأمر الذي كنت أستكره بشدة، إذ اعتبرته ناتجًا عن جسارة قلب. لكن فجأة أحاط بي كثيرون من أهل العالم حتى لم أستطع الفكك منهم بأي حال من الأحوال. وقد انتزعوه مني بعنف ليس بقليل، وتوسلوا إليّ أن أضع يدي على إناء قدموه لي لأرشمه بعلامة الصليب. وحين اطمأنوا بأنهم حصلوا على زيت البركة مني أخلوا سبيلي في النهاية. هكذا أدركت بوضوح أن الراهب الذي فعل مثل هذا الخطأ وتورط فيه قد وُضع في مثل هذا الموقف الذي تجاسر وأدان الآخرين عليه. لذلك على كل إنسان أن يحكم على نفسه وأن يلاحظ نفسه بحرص في كل الأمور لئلا يحكم على إنسان في أسلوب حياته وسلوكه وفقًا لقول الرسول موبخًا إيانا: "من أنت الذي تدين عبد غيرك؟ هو لمولاه يثبت أو يسقط" (رو ١٤: ١٠)، وأيضًا: "لا تدينوا لكي لا تدانوا، لأنكم بالدينونة التي بها تدينون تدانون" (مت ٧: ٢). بجانب السبب الذي لأجله نهينا عن الإدانة إذ من الخطر أن ندين الآخرين، لأن هذه الأمور التي نستكرها لا نعلم يقينًا مدى الضرورة التي يسقط تحتها الشخص الذي ندينه أو السبب لاقترافها، ولا نعلم إن كان هذا التصرف صائبًا في عيني الله أو إلى أي مدى قد قدّم توبة وندم. فإننا نحكم على الآخرين جزافًا وبدون روية. هذه ليست بالخطية الهينة، لأننا بهذا ننظر لإخوتنا بخلاف ما كان يجب أن يكون.

الفصل الحادي والثلاثون

الشيخ القديس ماخيتس يويخ الإخوة

عندما رأهم قد خلدوا للنوم أثناء الاجتماعات الروحية،

واستيقظوا في الأوقات التي روى عليهم قصصًا تافهة

أوضح الشيخ ذاته بهذا الدليل أن الشيطان هو المحرض على القصص التافهة، ويظهر نفسه دائمًا كعدو للاجتماعات الروحية. لأنه حين كان يحاور بعض الإخوة في أمور هامة ومواضيع روحية رأى أنهم تنقلوا بالنوم وتنقلوا في نعاسٍ عميق، لم يستطع أن ينبههم ويبعد النعاس عن أجفانهم. فغيّر الحديث فجأة من الروحيات إلى قصص تافهة. وحينما رأهم قد استيقظوا في الحال وابتهجوا بها واستمعوا إليها بأذان صاغية، انتهرهم قائلاً: "حتى هذه الساعة كنا نتكلم عن أمور سماوية وقد غلبكم النوم جميعًا وثقلت أجفانكم، ولكن حين تحول الحديث إلى قصص تافهة استيقظنا جميعًا، ونفضنا عنا ثقل النوم الذي غلب علينا. من هنا نعرف من هو عدو الاجتماعات الروحية، ومن هو الذي يقترح علينا الانخراط في الأحاديث غير المفيدة والجسدية. لأنه من الجلي أنه هو الذي يفرح بالإثم، وهو المشجع للأخيرة والمضاد للأولى".

الفصل الثاني والثلاثون

^٢ ربما عني المعنى الرمزي وهو ترك الحلق بلا مهارة، أي يكل بلا حدود، أو يترك حنجرته مفتوحة تنطق بلا ضابط.

الرسائل التي أحرقت قبل أن تُقرأ

أظن أن القصة التالية لا تقل أهمية عن القصة السابقة، وهي تخص تصرفاً قام به أحد الإخوة عزم على الحفاظ على نقاوة قلبه. كان هذا الأخ شغوفاً جداً بالتأمل في الأمور المقدسة. بعد مرور خمسة عشر عاماً على تركه العالم وصل إليه كم ضخمة من خطابات أبيه وأمه وأصدقائه في إقليم بنطس. استلم هذه الخطابات وراجع الأمر في ذهنه لبعض الوقت:

"آية أفكار ستأتيني بها قراءة هذه الخطابات؟

ستثير فيّ إما بهجة جوفاء، أو حزن غير نافع!

ستصرف ذهني عن التأملات الروحية التي تشغلني لأيام طويلة بتذكري هؤلاء الذين كتبوها!

كم من الوقت سأحتاج لأستعيد هدوء ذهني بعد الاضطراب الذي تحدثه فيّ؟

وأي جهد سيكلفني استعادة سلامي الداخلي الأول؟

إذ أن ذهني سيتشوش بالحنين بسبب هذه الخطابات، ويتذكر كلمات وملامح الذين كتبوها، وقد غابت عن الذهن لمدة طويلة. فما هي ذكراهم تسترجعها الروح ويتعلق بها الفكر من جديد، فتقطن هناك وتستقر ثانية في الوجدان.

أي نفع إذاً في الابتعاد عنهم بالجسد إن كنت أبدأ مرة أخرى أراهم بقلبي، وتحيا ذكراهم فيّ، بعد أن ماتت فيّ هذه الذكرى يوم أن نبذت هذا العالم؟"

إذ دارت كل هذه الأمور في ذهني صممت ألا أقرأ أية رسالة من هذه الرسائل، بل بالأكثر لا أتطلع إلى مجرد أسماء الراسلين حتى لا أتذكر ملامحهم. وهكذا ألقيت بها في النار لتحترق، وصرخت قائلاً: "ابتعدي عني يا ذكريات حياتي الأولى ولا تحاولي أن تعيدي إلى ذاكرتي ما عزمت أن أهرب منه".

الفصل الثالث والثلاثون

عن إيجاد حل لمسألة

نعرف أيضًا الأب ثيودور (تادرس) رجل موهوب بالمعرفة الكاملة، ووصل إلى قمة القداسة. وتمتد معرفته من خبرة الحياة العملية إلى فهم الكتب المقدسة التي لم يكتسبها بالدراسة وكثرة القراءة أو التعليم الدنيوي، بل بنقاوة القلب وحدها. حيث أنه بالكاد يستطيع أن يفهم ويتكلم ما لا يتجاوز بضعة كلمات قليلة من اللغة اليونانية. هذا الرجل حين كان يبحث عن تفسير لمسألة ما لها أهميتها، استمر في الصلاة بلا انقطاع لمدة سبعة أيام وسبعة ليال، حتى كشف له الرب برؤيا في الليل عن حل المسألة المُقدمة.

الفصل الرابع والثلاثون

قول للقديس ثيودور عن مقدار الجهد

الذي يتطلبه الراهب لكي يكتسب معرفة الكتب المقدسة

عندما أبدى أحد الإخوة تعجبه من نور معرفة هذا القديس العظيم، تقدم ليسأله عن بعض المعاني في الكتب المقدسة. أفصح القديس بقوله إن الراهب الذي يبتغي اكتساب المعرفة في الكتب المقدسة عليه ألا يركز جهده لدراسة أعمال المفسرين وتعليقاتهم، بل عليه أن يركز كل جهوده ويركز ذهنه ونواياه القلبية لتنقية نفسه من الشهوات الجسدية. لأنه حين يطرد هذه الشرور من حياته تنفتح عيون القلب حتى تبصر أسرار الكتب المقدسة بطريقة تتفق مع طبيعتها الأولى. لأن هذه الأسرار لم تُعلن لنا بالروح القدس حتى تبقى غير

معروفة وغامضة، لكنها صارت محتجبة عنا بسبب خطيتنا، إذ أن حجاب خطايانا يغطي عيون قلوبنا. وعندما تعود هذه إلى حالتها الصحية الطبيعية الأولى، حينئذٍ تصير القراءة المجردة للأسفار المقدسة وحدها كافية تمامًا لإدراك المعرفة الحقة.

إنها لا تحتاج إلى معونة المعلقين، تمامًا مثل عيون الجسد التي لا تحتاج إلى إنسان يعلمها كيف تصبر، طالما تكون غير مصابة بالعمى أو ظلمة العمى. لذلك ظهرت مفارقات وأخطاء كثيرة بين المعلقين، لأن معظمهم إذ لم يلتفتوا إلى تطهير ذهنهم، اقتحموا عمل تفسير الكتب المقدسة. وبمقدار ثقل عدم طهارة قلوبهم جاءوا بأراء متنوعة ومتضاربة مع بعضهما البعض ومع الإيمان، لذلك لم يستطيعوا أن ينعموا بنور الحق.

الفصل الخامس والثلاثون

توبيخ الشيخ ثيودور لي عندما حضر إلى قلايتي في منتصف الليل

فاجأني الشيخ ثيودور ذاته بزيارة لقلايتي في جوف الليل ليفتقدني بأبوتته، ويرى ماذا أفعل وحدي في ذلك الحين، باعتباري راهبًا مبتدئًا. وجدني هناك بالفعل إذ كنت قد انتهيت من خدمة عشية، وبدأت أعطي جسدي المتعب راحة بالرقاد على الأريكة. تنهد الشيخ من أعماقه ودعاني باسمي قائلاً: "كم عدد الذين يتصلون بالله في هذا الوقت بصلوات وتسابيح يا ابني يوحنا ويتمتعون بأحضانهم، ويقطن في داخلهم، بينما أنت محروم من نور عظيم كهذا وتستسلم هكذا لنوم الكسل؟!"

حسنا جمال فضائل الآباء والنعمة المُعطاة لهم أن نلقت إلى القصة التالية. وإني أظن أنه يجدر بي في هذا الجزء من الكتاب أن أسجل عمل محبة يستحق التقدير والثناء رأيناه في هذا القديس العظيم أرخبوبوس Archebius، وقد اخترنا فيه الصلاح. تعلمنا أن عمل المحبة إذا ما طُعِم بالطهارة والعفة يصير أكثر إشراقًا، إذ يتجمل بنوعية محبة من الفضائل. لأن الصوم المقبول أمام الله يصير كاملاً خلال ثمار المحبة.

الفصل السادس والثلاثون

وصف لبرية ديولكوس Diolcos حيث يقطن الرهبان

جننا من أديرة فلسطين كمبتدئين إلى مدينة بمصر تسمى Diolcos لكي ندرس حياة مجموعة كبيرة من الرهبان يتبعون نظام الشركة. هؤلاء تتلمذوا على هذا النظام الممتاز، الذي هو أيضًا من النظم الأولية. كنا مشتاقين أيضًا أن نرى بكل حكمة قلبية، وندرس نظامًا آخر يُعد الأفضل، ألا وهو نظام التوحد، إذ حثني على هذا الاهتمام به ما سمعناه من مديح بخصوصه من كل إنسان.

عاش هؤلاء الرجال أولاً ولمدة طويلة في حياة الشركة، وقد اجتهدوا أن يتعلموا قواعد الصبر والتميز، واكتسبوا فضيلتي التواضع وإنكار الذات، وأيضًا تغلبوا على جميع أخطائهم حتى دخلوا في صراعات مخيفة مع الشياطين، واخترقوا عمق أعماق الصحراء. وقد وجدنا أن أمثال هؤلاء الرجال كانوا يعيشون على ضفاف النيل محاطين بالنهر في جانب وامتداد البحر في الجانب الآخر، كأنهم في شبه جزيرة، في مكان لا يقطنه سوى رهبان ينشدون مثل هذه الأعماق، حيث أن التربة الجافة والمُملحة هناك تجعلها غير صالحة للزراعة، فكنا نتلف لروية مثل هؤلاء الرجال.

تعجبنا جدًا لأتاعبهم التي يتحملونها للتلمذة على الفضائل وحبهم للوحدة. إن القحط الذي يعيشون فيه حتى بالنسبة لاحتياجهم من الماء كان قاسيًا، حتى أن حرصهم الشديد في استعماله كان يفوق ما يفعله أي بخيل في حفظ وتخزين أثمن أنواع النبيذ. فقد كانوا يحملون الماء لمسافة ثلاثة أميال أو ربما أكثر من منبع النهر المذكور أعلاه ليستعملوه في كل الأغراض، رغم طول المسافة مع وجود جبال رملية يمرّون عليها في الطريق مما جعل صعوبة المهمة قاسية مضاعفة.

الفصل السابع والثلاثون

عن القلاي التي تنازل لنا عنها الأب أرخبوس Archbius بكل الأثاث الذي فيها

إذ رأينا هذا اشتعلنا بالرغبة في محاكاتهم. أما عن الأب المذكور أعلاه أرخبوس Archbius فكان أكثرهم شهرة باقتناء نعمة الكرم. فقد استدرجنا إلى قلايته، وإذ اكتشف رغبتنا تظاهر بأنه يريد ترك المكان وأن يهبنا قلايته، وكأنه سوف يرحل، زاعمًا أنه كان ينوي تركها حتى لو لم نحضر نحن إليه. أما نحن وقد تملكنا الرغبة في البقاء، وقد تيقنا بتأكيدات رغبة مثل هذا الرجل العظيم، وافقنا تمامًا على ذلك، وأخذنا قلايته بكل ما فيها من أثاث ومتعلقات. هكذا إذ نجح في حيلته الجديرة بالشاء ترك المكان لبضعة أيام حتى يدبر الأمر لبناء قلاية أخرى. وعاد بعدها وبنى لنفسه قلاية أخرى بكل اجتهد. وبعد مرور بعض الوقت جاء إخوة آخرون وقد التهبوا بذات الرغبة أن يملكوا هناك فخدعهم بحيلة مملوءة محبة كالأولى، وتنازل عن تلك القلاية أيضًا بكل ما فيها. أما هو فبكل مثابرة وبلا كلل من عمل المحبة بنى لنفسه قلاية للمرة الثالثة ليقطن بها.

الفصل الثامن والثلاثون

الأب أرخبوس Archbius يدفع دين والدته بتعب عمل يديه

أظن أنه من الجدير بالذكر أن أقص عمل محبة آخر لذات الأب حتى يتعلم الرهبان المقيمين على أرضنا من رجل واحد ليس كيف يكبحون شهواتهم الجسدية بصرامة فحسب، بل أيضًا كيف تكون المحبة الصادقة. فقد نشأ في أسرة ليست بوضيعة، ومنذ طفولته رفض محبة العالم وأترابه وهرب إلى الدير الذي يبعد أربعة أميال عن المدينة سالفة الذكر، حيث قضى كل حياته. فلم يخرج من الدير لزيارة قريته التي نشأ فيها طوال الخمسين عام من رهبنته، ولم ينظر إلى وجه امرأة خلال هذه المدة حتى وجه أمه.

حدث أن أباه توفي وترك وراءه دين يوازي مائة صلدوس (عملة ذهبية رومانية قديمة). ورغم أنه لم يرتبك بآرث أبيه. فقد شعر أن أمه مضطربة من هذا الدين. وبحكم الواجب أسرع ليرفع ثقل هذا الدين عن أمه رغم أنه طوال المدة السالفة لم يشعر أن له أبًا أو أمًا، بل كان صارمًا بحسب ما جاء في الإنجيل أن ليس له والدان على الأرض. ولم يتخل عن صرامته وبقي داخل أسوار الدير، لكنه طلب أن يعمل ثلاث أضعاف عمله وتعبه، فرفع عن أمه كل اضطراب وقلق، وخلصها من ثقل هذا الدين بحيث لا يعاني من كسر حدة صرامته التي وضعها على نفسه بحجة الواجب الإلزامي.

لم يستكر أن يطيب قلب أمه بقيامه بالواجب من نحوها مع حفاظه على صرامته المطلوبة، وكأنما أهمل أمه قبلًا من أجل المسيح، والآن اعترف بها من أجل اعتبارات الواجب.

الفصل التاسع والثلاثون

حيلة أحد الشيوخ لإيجاد عمل للأب سمعان Simeon

عندما لم يكن لديه ما يعمل

جاعنا أحد الإخوة الأعزاء واسمه سمعان من منطقة إيطاليا، وكان يجهل اللغة اليونانية تمامًا. اقترح عليه أحد الشيوخ بكونه غريبًا أن يقدم عمل محبة يكون مفيدًا للطرفين. سألته عن سبب جلوسه في قلايته بلا عمل، متوقعًا أنه لن يستطيع الصمود طويلاً على هذه الحال، لأن الأفكار التي تنشئها البطالة تحوم حول العقل، وأيضًا يحتاج إلى عمل لسد احتياجات الحياة، عالمًا بأنه لن يستطيع أحد أن يحتفل هجمات العدو في حياة الوحدة إلا من يكافح ليدبر الطعام لنفسه بعمل يديه. وحين أجاب الآخر بأنه لا يستطيع أن يقوم بأي عمل من الأعمال التي يؤديها عادة الإخوة هناك إلا الكتابة بخط حسن إذا ما أراد أحد في مصر كتابة باللاتينية لاستعماله الشخصي، اقتنع الشيخ الفرصة ليقويه بعمل محبة طالما تاق إليه تحت ستار أنه للمنفعة المزدوجة، فقال: "هذه الفرصة من عند الرب، لأنني كنت أبحث تَوًّا عن أحد يكتب لي رسائل بولس الرسول باللغة اللاتينية. فلدي أخ مجند في الخدمة العسكرية وهو دارس لاتيني جيد، وأود أن أرسل له جزء من الكتب المقدسة ليقراها من أجل بنيان نفسه".

وعندما اعتبر سمعان هذه فرصة تسلمها من الله بَشكر، انتهز الشيخ هذه الذريعة حتى يستطيع أن يعمل عمل المحبة الذي عزم عليه بحرية. ولم يكتفِ بأن يأتيه بكل احتياجاته لمدة عام على أنه أمر يخص المعلم، بل أمدّه بالورق وكل ما يحتاجه للكتابة. ثم تسلم منه المخطوط الذي لم يكن له أي نفع لديه (إذ أن سكان هذه المنطقة كانوا يجهلون تمامًا هذه اللغة). كان هدفه كله أن يكسب هذا الشخص عيشه وقوت يومه بدون تشويش أو مذلة، وفي نفس الوقت يذخر لنفسه مكافأة لمحبتة وسخائه فيبدو كمن عليه دين، ليس ليوفر لأخيه القوت الضروري فحسب، بل أيضًا أدوات الكتابة وفرصة للعمل.

الفصل الأربعون

عن الصبية الذين إذ أعطوا إنسانًا مريضًا بعض التين

ماتوا من الجوع في البرية دون أن يذوقوه

قدمنا في هذا الجزء من الكتاب للحديث عن صرامة الصوم والامتناع عن الطعام، واختلط الحديث بسرد بعض أعمال المحبة الحانية. نعود لنسجل عمل محبة على نمط منهجنا، وهو عمل يستحق الإشارة إليه عن مجموعة من الصبية صغار في العمر لكنهم ليسوا كذلك في المشاعر.

جاء أحدهم ببعض التين للأب يوحنا المدبر في برية الإسقيط، وقد أثار هذا التين دهشة عظيمة، إذ جاء من ليبيا مريوط^٣ Libya Mareotis، ولم يره أحد قط في هذه المناطق. وكان الأب يوحنا هو المدبر في الكنيسة في أيام القديس الأنبا بفنوتيوس^٤ وقد عهد إليه بهذه المهمة. بادر على الفور بإرسال التين على يد غلامين لشيخ مسن كان يرقد على فراش المرض على بُعد ثمانية عشرة ميلًا من الكنيسة بعيدًا في الصحراء. وإذا تسلما الفاكهة شرعا في اتخاذ الطريق إلى قلاية الشيخ المذكور، لكنهما فقدتا طريقهما تمامًا، الأمر الذي كان يحدث كثيرًا ببساطة حتى بالنسبة للشيوخ، بسبب ظهور ضباب كثيف مفاجئ. وحين هاما على وجهيهما طوال النهار والليل في متاهة الصحراء الممتدة الأطراف، ولم يستدلا مطلقًا على قلاية الشيخ المريض، أنهكا أخيرًا من

^٣ مريوط هي المنطقة المحيطة بترعة مريوط، وهي بركة في جنوب الدلتا على حدود صحراء ليبيا (حديثًا تسمى بركة مريوط). موازية

للبحر المتوسط حيث يفصلهما جسر طويل ضيق من الرمال.

^٤ للمزيد من المعلومات عن بفنوتيوس راجع مناظرة ١:٣.

إرهاق الرحلة من جانب ومن الجوع والعطش من الجانب الآخر، فسقطا على ركبهما وسلمما الروح إلى الله في وضع الصلاة تمامًا.

فيما بعد جرى البحث عنهما طويلاً، فنتبعوا لآثار أقدامهما التي كانت تتطبع على الرمال كأنها على الثلوج وعند هبوب أخف رياح تمحي الآثار بطبقة رقيقة من الرمال تغطيها. وجدوا أخيراً أن التين الذي كانا يحملانه لم تمتد إليه أيديهما، فهو بالتمام كما تسلماه. لقد اختارا أن يبذلا حياتهما مع إخلاصهما في مهمتهما، وأن يفقدا حياتهما الأرضية، فضلاً عن انتهاكهما وصايا رئيسهما.

الفصل الحادي والأربعون

قول للأب مقاريوس عن سلوك الراهب

كمن سيعيش لمدة طويلة

وأيضاً كمن هو على وشك الموت كل يوم

توجد مسألة أخرى لها وزنها أننا من القديس الطوباوي مقاريوس، فنختم كتابنا هذا عن الصوم والامتناع عن الطعام بهذا القول المأثور لقديسنا العظيم.

قال إنه على الراهب أن يعير أصوامه اهتماماً كما ولو كان سيبقى في الجسد مائة عام، وأن يكبح عواطفه الداخلية ويتجاهل جراحاته، ويترك الحزن ويحتقر الأسى والخسائر المادية، وكأنه في كل يوم يشعر باقتراب منيته.

فالتعقل في الحالة الأولى مفيد ومناسب، لأنه يدفع الراهب دائماً للسلوك بحرص واعتدال ولا يعرضه للضعف الجسدي والسقوط من فوق أكثر الارتفاعات الجارفة خطورة. والحالة الثانية من سمو المبادئ لها قيمتها، إذ تمكن الإنسان ليس من احتقار الغنى المنظور في هذه الحياة الزمنية فحسب، بل لا يسحق بالأحزان والعداوة، بل يحتقرها كأنها شئ ضئيل أو تافه، لأن نظره مثبت هناك حيث ينتظر يومياً المثل بين يدي الله.

المؤسسات لنظام الشركة للقدّيس يوحنا كاسيان

٧

في روح الطمع^١

في منهجه العملي تحدّث القدّيس يوحنا كاسيان عن خطية الطمع بعد حديثه عن النهم أو الشره ثم الشهوات. فإن لم يُغلب الإنسان من بطنه أو شهوات جسده يقدم له عدو الخير إلهاً خطيراً هو **محبة المال**.

سبق لنا أثناء حديثنا عن كتابات القدّيس يوحنا كاسيان أن تحدّثنا عن هذا الكتاب، ورأينا أنه يقدم لنا ثلاثة أمثلة خطيرة للطمع هم **جيحزى** تلميذ إليشع النبي، و**حنانيا** وسفيرة اللذين كذبا على الروح القدس بسبب الطمع، و**يهوذا** الذي خان سيده من أجل ثلاثين من الفضة.

في هذا المقال يوضح المبادئ التالية:

١. بالرغم من خطورة خطية الطمع، فقد استعبدت كثيرين، إلا أنه يسهل علاجها، لأنها ليست كالنهم والشهوات تصدر من داخلنا خلال صرخات البطن وحركات الجسد، بل هي من الخارج خلال الإغراءات. هي أصل كل الشرور، لكنها تحارب من خارج النفس حتى يفتح الإنسان لها قلبه فتملك وتستعبد.

٢. يبقى العلاج من الطمع سهلاً للغاية ما دامت الخطية تحاربنا من الخارج، لكن إن ملكت بإرادتنا يصعب الخلاص منها.

٣. تبدأ الحرب بالقلق والخوف على المستقبل، فيفقد الإنسان ثقته في الله مدبر أموره ليحتل المال مركز الصدارة.

٤. إذ يتسلل الطمع إلى القلب يحطم الكثير من الفضائل مثل الاتضاع والمحبة والطاعة والشكر، فيصير جاحداً متدمراً، جامداً، أنانياً، كما يفقد النفس استقرارها الداخلي.

٥. بالنسبة للراهب يدفعه الطمع إلى أخطاء كثيرة.

أ. الارتباط بصدّاقة مع الجنس الآخر، ربما للحفاظ على ما يجمعه.

ب. الادخار.

ج. حب الامتلاك حتى للأمور التي سبق أن تخلّى عنها.

د. فنور الذهن لارتبائه بالماديات، وفقدانه إيمانه بالله المهم به.

هـ. الانشغال بخدمات اجتماعية كثيرة تحت ستار "مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ"، فيفقد الراهب

^١ ترجمة: الراهب باسيليوس السرياني (السابق).

تأملاته الإلهية.

٦. يليق بنا الاقتداء بالرسل الذين كانوا يعملون بأيديهم ليعيشوا ولا يجمعوا شيئاً، كما كان الشعب يقدم كل ما لديه ليعيش الكل بروح الشركة، لا يجمع أحد لنفسه شيئاً.

٧. يحذرنا القديس يوحنا كاسيان من نبذ العالم وكل ما فيه من الخارج مع بقاء القلب ملتهباً بشهوة الامتلاك، فخطية الطمع هي رغبة داخلية وأنانية وحب امتلاك.

٨. إن كان جيجزى تلميذ إيشع قد أُصيب بالبرص بسبب طمعه، فإن من يصاب قلبه بهذا المرض يعاني من برص داخلي، وتصير نفسه دنسة.

هكذا يكشف المقال إلى حاجة النفس إلى الاتضاع لكي يشفيها المخلص من برص الطمع، واهباً إياها روح الحب الحقيقي البازل.

القمص تادرس يعقوب ملطي

الفصل الأول

كيف أن قتالنا مع الطمع أمر غريب علينا، وأن هذه
السقطة ليست فطرية في الإنسان، كغيرها من السقطات

أن ثالث معركة لنا هي التي نشنها ضد الطمع، الذي نستطيع أن نصفه على أنه "محبة المال"، وهي معركة غريبة عنا، وخارجة عن نطاق طبيعتنا. وهي بالنسبة لأي راهب لا تتولد إلا عن عقل فاسد متبلد، ومحاولة مزيفة لنبذ العالم، ومحبة لله فاترة من أساسها، وذلك لأن باقي مغريات الخطية المغروسة في الفطرة البشرية تبدو كما لو كانت بدايتها كائنة منذ ولادتنا، وجذورها عميقة في جسدنا، وتكاد أن تكون معاصرة لمولدنا. إنها تدرك مسبقاً مدى قدراتنا على التمييز بين الخير والشر، وعلى الرغم من أنها تهاجم المرء مبكراً جداً، فهو يصارعها بعد جهاد طويل.

الفصل الثاني

مدى خطورة مرض الطمع

لا يصيبنا هذا المرض إلا في مرحلة متأخرة، ويفد على النفس البشرية من الخارج، ولذلك يسهل على المرء أن يأخذ منه حذره ويقاومه. أما إن أهمل وسُح له بالولوج داخل القلب، يصير أشد خطراً ويتعذر انتزاعه جداً، إذ يصبح "أصلاً لكل الشرور" (١ تي ١٠: ٦)، ومن ثم يعمل على الإكثار من مغريات الخطيئة.

الفصل الثالث

ما هو جدوى تلك الرذائل الفطرية لنا

ألنا نشاهد مثلاً أن نوازع الجسد الطبيعية ليست فقط في الأولاد الذين تساعدنا بساطتهم على التمييز بين الخير والشر، بل حتى في الأطفال الصغار والرضع البعيدين تماماً عن شهوة الجنس، ولكن نوازع الجسد موجودة فيهم وعرضة للإثارة الفطرية؟

ألا نرى أيضاً أن وخزات الغضب المميّنة موجودة بكامل عنفوانها في الأطفال الصغار؟ وقبل أن يتعلموا فضيلة الصبر والاحتمال، نجد أن المظالم تثيرهم، ويشعرون بالمهانة ولو كانت على سبيل الدعابة، وقد يعمدون إلى الانتقام، على الرغم من ضعفهم، حين يستبد بهم الغضب؟!

لست أسوق هذا كي أوجه اللوم إلى حالتهم الفطرية، إنما لكي يظهر أن بعضاً من هذه النزعات التي تصدر عنا مغروسة فينا لقصد مفيد، بينما البعض الآخر قد أقحم من الخارج، بسبب الإهمال أو التراخي، وشهوة الإرادة الشريرة. لأن هذه النزعات الجسدية التي تكلمنا عنها آنفاً، غرسها الخالق بعنايته الإلهية في جوفنا لغرض نافع، مثل بقاء النوع وتنشئة الأطفال، وليس لارتكاب ضروب الزنى والخلاعة، التي تقع تحت طائلة كل من الناموس والقانون. كذلك أعطيت لنا وخزات الغضب بحكمة بالغة، حتى إذا ما غضبنا على خطايانا وأخطائنا يتيسر لنا أن نمارس الفضائل والرياضات الروحية، مظهرين كل حب الله ومترفقين بإخوتنا.

كذلك نعلم أن للحزن فائدة عظيمة، ومع ذلك فهو يُعد من الرذائل إذا استخدمناه بطريقة مضادة. فهو من ناحية، إذا جاء وفقاً لمخافة الرب، أصبحنا في مسيس الحاجة إليه، ومن ناحية أخرى، إذا جاء وفقاً لأباطيل العالم، أسفر عن شر مستطير، كما علمنا الرسول حين قال إن "الحزن الذي بحسب مشيئة الله ينشئ توبة لخلاص بلا ندامة، وأما حزن العالم فينشئ موتاً" (٢كو ٧: ١٠).

الفصل الرابع

في أنه باستطاعتنا أن نقول أن فينا بعض عيوب
فطرية دون الإساءة إلى الخالق

إن قلنا إذاً أن هذه النزعات قد غرسها الخالق فينا، فلا يعني هذا أن نوجه إليه اللوم، مادامنا قد أسأنا الاختيار بإساءة استخدامها، وانحرفنا بها لأغراض ضارة، ورجبنا بأحزان قايين المتمردة المهلكة وليس بالحزن الذي يقوم اعوجاجنا وينشئ توبة لخلاص بلا ندامة.

في حالات قليلة عندما نغضب لا نوجه الغضب لأنفسنا (استهدافاً للفائدة) بل لاختوتنا، مخالفين بذلك وصية الله. وما أشبهنا في ذلك باستخدامنا للحديد الذي أحرزناه للخير وللأغراض النافعة. فقد استخدمه شخص منحرف في قتل الأبرياء، وهذا لا يدعونا أن نلوم صانع المعدن لأن شخصاً ما استخدم للإضرار بالآخرين ما أُعد للخير ولأغراض نافعة ولعيش سعيد.

الفصل الخامس

في العيوب التي تقحم نفسها في داخلنا دون نزعات فطرية

لكننا نؤكد أن بعض العيوب تنمو بدون أن تنتهي أية فرصة طبيعية لمولدها، إنما ببساطة تتم عن طريق الاختيار الحر لإرادة فاسدة شريرة، كالحسد، وبالذات خطية الطمع هذه. هاتان الخطيتان تفدان إلى القلب من الخارج، لعدم وجود أصل لهما في الغرائز الفطرية. ويتيسر للمرء أن يأخذ حذره منهما وأن يتجنبهما نسيباً. إنهما يفسدان العقل الذي يتسلطان عليه ويستبدان به، ومن ثم يتعذر تهيئة الأدوية لشفائهما...

الفصل السادس

في تعذر استئصال آفة الطمع ما دامت دخلت القلب

لماذا لا تجعل هذه الآفة تصير كما لو كانت بلا وزن، أو تصير قليلة الأهمية، بالنسبة لأي إنسان؟ ذلك لأنه ما دام من السهل تحاشيها، فإنها بمجرد تسلطها عليه قلما تسمح له بتهيئة الأدوية لشفائه منها. فهي وكر دائم للخطايا، وهي "أصل لكل الشرور"، وهي بالغة الإلحاح في إغوائها على الشر، كقول الرسول عن "الطمع"... أو بتعبير آخر محبة المال... "أصل لكل الشرور" (١٠:٦).

الفصل السابع

في المصدر الذي ينبعث منه الطمع،
والشرور التي تتولد منه

عندما تستولي هذه الرذيلة على نفس فاترة خاملة لأحد الرهبان، تبدأ تجربته في مبلغ صغير من المال، مقدمة له أعماراً رائعة يكاد العقل أن يقبلها، لتبرير احتفاظه لنفسه ببعض المال. فيشكو بأن ما يمد به الدير غير كافٍ، وبالكاد يمكن أن يسد حاجيات جسم سليم قوي... ماذا يفعل إذا اعتلت صحته، وليس لديه مدخرات خاصة لإعالتة في حالة ضعفه؟... ويقول إن مرتبه من الدير ضئيل طفيف وأن المرضى بالدير لا يُعتنى بهم على الإطلاق، وأنه ما لم يقنن لنفسه شيئاً، حتى يتيسر له الاهتمام بجسده، فهو هالك لا محالة! والثوب الذي يُصرف له لا يكفي، اللهم إلا إذا كان قد أحرز شيئاً يحصل به على ثوب آخر... وأخيراً يقول إنه من المحتمل ألا يستطيع البقاء طويلاً في نفس المكان أو الدير، وأنه ما لم يكن قد ادخر المال لرحلته وتكاليف انتقاله عبر البحر، فإنه لن يستطيع الانتقال حيث يشاء. وما دامت ستعطله الحاجة القاهرة عن هذا الانتقال، فستخيم على

حياته التعاسة والملل، ويعجز عن إحراز أدنى تقدم، لشعوره بأنه لن يستطيع، دون إهدار لكرامته، أن يستمد العون من الآخرين، كما لو كان متسولاً أو من المعوزين. وهكذا بعد أن يخدع نفسه بمثل هذه الأفكار، يُجهد ذهنه كي يهتدي إلى وسيلة يستطيع بها أن يحصل ولو على قرش واحد، ثم يبحث في تلهف عن أي عملٍ مريحٍ يقوم به دون أن يعلم رئيس الدير، ويبيع سراً ما ينتجه. بذلك يحصل على قطعة النقد التي اشتهاها، والتي بعد حصوله عليها لا يفتأ يُعذب نفسه، ويبالغ في تعذيبها، في سبيل مضاعفة مدخراته، وفي التفكير في المكان الذي يودعها فيه أو الشخص الذي يأتمنه عليها. بعد ذلك تَوَرَّق مشاغل أثقل تتعلق بما يحسن أن يشتريه بمدخراته، أو بالطريقة التي يستثمرها بها حتى يضاعفها، فإذا ما تحقق كل شيء وفق ما يهوى ازدادت لهفته لاكتناز الذهب. وكلما زاد رصيده منه، ازدادت لهفته وانفعالاته، إذ أنه بزيادة الثروة يتفاقم جنون الطمع وحب المال، بعد ذلك تساوره أفكار مزعجة يتوقع معها أن يطول عمره، ويضعف بدنه كلما تقدم به السن، وتحل به الأمراض بكافة صنوفها، وبطول عهده بها حتى يعجز عن تحملها في شيخوخته ما لم يكن قد استعد لذلك بادخاره لمبلغ كبير في شبابه. وهكذا تتزعزع هذه النفس الشقية، ويلتف حولها تتين الطمع، فلا تستطيع فكاًكاً، بينما تحاول جاهدة لمضاعفة كومة المال التي أحرزتها بطرق غير مشروعة واهتمام مقوت، تصحبه كوارث لا تخفف من حدة طمع هذه النفس بل تزيد اشتعالاً، ويعميها عن كل شيء سوى الجري وراء الكسب والحصول على المال، والفرار من الإذعان لأنظمة الدير بأسرع وقت ممكن، والتجرد من الإيمان، كلما وجد بصيصاً من الأمل في إحراز المال. ولهذا فهو لن يتورع عن أن يرتكب جريمة الكذب، أو شهادة الزور، أو السرقة، أو كسر الوعد، أو الاسترسال مع نوبات الهياج الجارحة. أيضاً إذا فقد الأمل في الحصول على الكسب، فإنه لن يتورع عن أن يتجاوز حدود اللياقة والتواضع، وفي كل هذا يصبح الذهب ومحبة الربح القبيح إلهاً له، شأنه في ذلك شأن الذين يعبدون بطونهم، ولهذا فإن الرسول المطوب، إذ نظر إلى سم هذه الآفة المميت لم يقل فقط أنه أصل لكل الشرور، ولكن سمهاً أيضاً "عبادة الأوثان"، قائلاً: "والطمع الذي هو عبادة الأوثان" (كو ٣: ٥). فأنت ترى إذن قدر السقوط الذي يقود إليه هذا الجنون خطوة فخطوة، حتى أن الرسول يطلق الصيحة مدوية بأنه عبادة للأوثان المزيفة، ذلك لأنه بتخطيه صورة الله ومثاله (وهما اللذان يجب أن يحتفظ بهما كل من يعبد الله بالروح والحق في أعماق نفسه دون تزييف) قد أثر أن يحب ويتعلق بالصور المنقوشة على الذهب بدلاً من الله.

الفصل الثامن

كيف أن الطمع يعرقل جميع الفضائل

بمثل هذه الخطوات الكبيرة، منحدرًا إلى أسفل، ينساق من سيء إلى أسوأ، وأخيرًا لا يهتم بأن يحتفظ لنفسه، لا بفضائل التواضع والمحبة والطاعة بل ولا بظلمها، إلى جانب أنه يصبح غير راضٍ عن أي شيء، ويتذمر ويشكو من كل عمل. عندئذٍ وقد ضرب بكل خشوع عرض الحائط فإنه، كحصان جامح، يندفع متهورًا مطلق العنان، متأففًا من طعامه اليومي ولباسه المعتاد، معلناً أنه قد ضاق بهما ذرعًا، وأن الله ليس في الدير فقط، وأن خلاصه غير قاصر على ذلك المكان الذي لا بدّ من تركه سريعًا جدًّا، وإلا حلّ الوقت الذي ينوح فيه على نفسه لأنها هالكة لا محالة.

الفصل التاسع

كيف أن الراهب الذي يحرز المال لا يستطيع البقاء في الدير

هكذا حين يقتني المال الذي يهيئ له التجوال، متوهمًا أنه قد نبتت له أجنة تساعد على التحليق، يصبح على تمام الأهبة للانتقال، ومن ثم يجيب على جميع الأوامر بطريقة جافة بعيدة عن الموضوع، ويسلك

كما لو كان غريباً أو زائراً، ويتصرف إزاء كل ما يجده في حاجة إلى الإصلاح باستصغار واحتقار. وعلى الرغم من وجود مدخراته التي يحتفظ بها سرّاً في مكان خفي، فإنه يشكو حاجته إلى حذاء وثياب، ويغضب لأنها تعطى له بعد عناء ووقت طويل. وإذا حدث أن أعطيت، بأمر من الرئيس، بعض هذه الحاجات لمن هو في مسيس الحاجة إليها قبله، اشتعلت فيه نيران الغضب، معتقداً أنه قد عومل باحتقار كأنه غريب. كما أنه لا يرضى أن يمد يده لأي عمل، بل يتلمس الأخطاء في كل شيء تستدعي الضرورة أن يتم إنجازها في الدير. وأيضاً يتلمس، بناء على هدف مقصود، فرصاً للغضب على أنه أهين، لئلا يبدو أنه قد خرج على نظام الدير لسبب تافه، وإذا لا يقتنع بمفارقة الدير وحيداً، حتى لا يُظن أنه قد خرج لخطأ ارتكبه، فإنه لا يكف عن تحريض وإفساد أكبر عدد ممكن من زملائه بمداومات في الخفاء... أما إذا عطلت رداءة الطقس رحلته وأسفاره، فإنه يظل طوال الوقت قلقاً مشغول البال، ولا يتوقف لحظة عن بذر الشقاق وإثارة التبرم والتذمر، متوهماً أنه لن يجد السلوان عن عدم رحيله، والعذر عن تقبله، ألا بأن يسند للدير النقص وسوء التدبير.

الفصل العاشر

في الأوجاع والتجارب التي يتعرض لها ناكث عهد الدير بسبب الطمع،
مع أنه اعتاد من قبل على التذمر لأتفه الأسباب

هكذا ينساق الراهب ويزداد تعلقه الجامح بالمال، الذي لن يدعه قط، بعد اقتنائه، راضياً بالبقاء في الدير أو بالمعيشة في ظل أي نظام أو تحت سلطان. وحين يُفصل كحيوان وحشي، عن باقي القطيع يتحول، لحاجته إلى أصحابه إلى حيوان عرضة للاقتراض، بل وبسهولة. ولحرمانه من زملاء مقيمين، يضطر، وهو الذي كان يترفع عن القيام بأخف مهام الدير، للكدح ليلاً ونهاراً دون توقف سعياً وراء الكسب. هذا من شأنه أن يجعله عاجزاً عن الحفاظ على طقوس العبادة، أو نظام الصوم، أو قواعد السهر، بل ويباعد بينه وبين قواعد الشفاعة اللائقة مادام في استطاعته تلبية نداء جنون الجشع، وسد حاجاته اليومية. هذا يزيد نار الطمع اشتعالاً، في حين أنه يتوهم أنه يخدمها عن طريق الاقتناء.

الفصل الحادي عشر

في الزعم بأنه للمحافظة على المال وتدبيره
لابد من البحث عن النساء للإقامة معهن

ينساق كثيرون إلى الموت عن طريق منحدر وعر بسقطة لا قيامة منها. وإذا لا يكتفون بأن يمتلكوا المال الذي لم يسبق لهم قط أن حصلوا عليه، أو أنهم يحتجزوه ببداية رديئة، لكنهم يبحثون عن النساء ليقمن معهم، للمحافظة على ما جمعوه أو احتجزوه عن طريق غير مشروع، ويورطون أنفسهم في كثير من الأمور الخطرة الضارة، الأمر الذي يهوي بهم إلى أعماق الجحيم، بينما هم يرفضون الامتثال لقول الرسول: "إن كان لهم قوت وكسوة فليكتفوا بهما"، وهما ما كان يمدهم بهما الدير في حدود طاقته، ولكن لرغبتهم أن يكونوا أغنياء، يسقطون في تجربة وفخ وشهوات كثيرة غبية ومضرة تغرق الناس في العطب والهلاك، لأن محبة المال - بتعبير آخر "الطمع" - أصل لكل الشرور "الذي إذا ابتغاه قوم ضلوا عن الإيمان وطعنوا أنفسهم بأوجاع كثيرة" (١٠-٦:٨).

الفصل الثاني عشر

مثال لراهب فاتر سقط في شباك الطمع

أعرف شخصًا يظن في نفسه أنه راهب، والأسوأ من ذلك أنه يطري نفسه بالكمال، كان قد قُبل في دير. وحين وعظه رئيس الدير كي لا يعود بأفكاره صوب تلك الأشياء التي تخلي عنها وينبذها، بل يحرر نفسه من الطمع، أو محبة المال، التي هي أصل لكل الشرور، ومن الشراك الأرضية، وأنه إذا أراد أن يتطهر من نزعاته السالفة، التي وجد أنها كانت ترهقه وتكد نفسه من حين إلى آخر، فعليه أن يكف عن الاهتمام بتلك الأشياء، التي لم تكن ملكًا له حتى من قبل، ولكنه إذ كان ما يزال مقيدًا بالأغلال التي لم يستطع قطعًا تحطيمها لعجزه عن أن يحرز أي نجاح لتطهير نفسه من سقطاته، لم يتردد عن الرد وهو ساخط قائلاً: "إذا كنت أنت قد اقتنيت ما تستطيع أن تعمل به الآخرون، فلماذا تحرم عليّ أن أقتنيه مثلك؟"

الفصل الثالث عشر

ماذا يروي الشيوخ للأحداث عن موضوع الخطايا العادية

لكن لا تدع هذا يبدو أمرًا سطحيًا أو موضع اعتراض لدى شخص آخر. ذلك لأنه ما لم تُكشف أولاً مختلف أنواع الخطايا، وتستقصي أصول وأسباب الأمراض، فإنه لا يتيسر وصف الأدوية الشافية الصحيحة للمرضى، ولا يتيسر أيضًا للأصحاء أن يحافظوا على كمال سلامتهم. لأن كلا هذين الأمرين، وأمر أخرى كثيرة تقدم بوجه عام لإرشاد الاخوة الأحداث من الشيوخ في اجتماعاتهم، لما أحرزوه من خبرة في سقطات لا حصر لها، وفيما أصاب جميع صفوف الناس من دمار.

غالبًا ما كنا نفطن إلى الكثير من هذه الأمور في أنفسنا، هذه التي يظهرها الشيوخ ويوضحونها لنا، كرجال عانوا هم أنفسهم من نفس النزعات. كنا نعالج ونبرأ دون خجل أو ارتباك من جانبنا، ذلك لأننا دون أن نصرّح بأي شيء كنا نتعلم ضروب العلاج، ونقف على أسباب الخطايا التي كانت ترهقنا، والتي أغفلناها ولم نقل عنها شيئًا، لا خوفًا من الاخوة، إنما خشية أن يقع هذا الكتاب في أيدي بعض ممن يعوزهم الإرشاد في هذا السبيل من الحياة. وقد يصرّحون لغير المختبرين أنه ينبغي ألا يعلمه سوى أولئك الذين يجاهدون ويسعون للوصول إلى أعلى مراتب الكمال.

الفصل الرابع عشر

أمثلة تبين أن مرض الطمع مثلث المعالم

هذا المرض أو الحالة غير الصحية مثلثة المعالم، وقد نعتة جميع الآباء بقدر مساوٍ من اللعنة والمقت. لقد وصفنا فيما سبق الصورة الفاسدة لأحد هذه المعالم، وهي التي تخدع القطيع البائس وتعرضهم على الادخار، على الرغم من أنهم كانوا لا يمتلكون شيئًا حين كانوا في العالم. والأخرى هي أن تدفعهم إلى اشتهاً وامتلاك تلك الأشياء التي تخلوا عنها في الأيام الأولى من تنسكهم وتركهم للعالم.

والصورة الثالثة تتم مع بداية ضارة خاطئة. اتسم أصحابها بفتور الذهن وتذبذب الرأي، ولذلك لم يستطيعوا أن ينبذوا جميع ممتلكاتهم الأرضية، خوفًا من الفقر ولعدم إيمانهم، وهؤلاء الذين يحتجزون الأموال والأموال، التي كان ينبغي أن يتخلوا عنها ويهجروها، لا يمكن أن يبلغوا قط كمال الإنجيل.

وأننا لنجد في الأسفار المقدسة أمثلة لهذه الكوارث الثلاث، التي تقع عليها عقوبة غير هينة، فعندما أراد جيحزي - خادم الإشع النبي - أن يقتني ما لم يمتلك مثله قط من قبل، لم يفشل فقط في الحصول على

عطية النبوة، التي كان من حقه أن يتسلمها من معلمه بالخلافة الوراثية، لكنه على العكس أصابته لعنة اليشع النبي ببرصٍ دائم.

أما يهوذا فإذا أراد أن يسترد امتلاكه للثروة التي سبق أن ألقى بها حين تبع المسيح، لم يسقط فقط في جريمة خيانة سيده، ويفقد رتبته الرسولية، لكنه أيضًا لم يتح له أن يختتم حياته بصورة عادية، بل أنهاها بميتة عنيفة.

أما حنانيا وسفيرة إذ احتجزا جزء مما كان ملكهما من قبل، عوقبا بالموت وفقًا لكلمة الرسول.

الفصل الخامس عشر

في الفرق بين إنسان ينبذ العالم بطريقة رديئة
وآخر لا ينبذه على الإطلاق

إن ثمة اتهامًا موجهاً بطريقة خفية، في سفر التثنية، إلى أولئك الذين يقولون انهم قد نبذوا هذا العالم، وبعد ذلك يهنمون بنقص الإيمان، إذ يخشون ضياع ممتلكاتهم الأرضية، ونصه كما يلي: "من هو الرجل الخائف والضعيف القلب، ليذهب ويرجع إلى بيته، لئلا تذوب قلوب اخوته مثل قلبه" (تث ٢٠: ٨)... أية شهادة يحتاج إليها المرء أكثر وضوحًا من هذه؟... أليس من الواضح أن الكتاب المقدس يؤثر ألا يقدموا على هذا العهد، حتى في أول مراحل، أو أن يحملوا اسمه، لئلا يصبحوا قدوة سيئة تغري غيرهم على الانحراف عن كمال الإنجيل المقدس، ويضعفهم بفزعهم الذي يعوزه الإيمان.

لهذا فالأمر موجه إليهم في صراحة بالانسحاب من القتال والعودة إلى منازلهم، لأنه ما من أحد يستطيع أن يشترك في معركة الرب وله رأيان، ذلك لأن "رجل ذو رأيين هو متقلقل في جميع طرقه" (يع ١: ٨). يلزم التفكير في المثل الذي ورد في الإنجيل (لو ١٤: ٣٠، ٣١). عن ذاك الذي يذهب بعشرة آلاف رجل ضد ملك يأتي بعشرين ألفًا، قد لا يستطيع مقاتلته، عليه - مادام ذلك بعيدًا أن يسأل ما هو للصالح. بمعنى انه من الأفضل لهم ألا يأخذوا حتى الخطوة الأولى في طريق ترك العالم، أفضل من أن يورطوا أنفسهم في أخطار أشد، بعد خروجهم إلى هذا الطريق مترخين غير متحمسين، لأنه "لا تتذر خير من أن تتذر ولا تقي" (جا ٥: ٤). أدق نص هو الذي يصف من يأتي بعشرة آلاف لملاقاة آخر بعشرين ألفًا، لأن عدد الخطايا التي تهاجمنا أكثر من الفضائل التي نقاقل عنا. والواقع انه "لا يستطيع إنسان أن يخدم الله والمال" (مت ٦: ٢٤)، وكذلك "ليس أحد يضع يده على المحراث وينظر إلى الوراء يصلح لملكوت الله" (لو ٩: ٦٢).

الفصل السادس عشر

في السلطة التي تحمي تحتها أولئك الذين يعترضون على التخلي عن ممتلكاتهم

هؤلاء إذن يحاولون أن يفتعلوا قضية لجشعهم الأصيل، مستخدمين بعض نصوص الكتاب المقدس، التي يفسرونها ببراعة خبيثة. ولتحقيق رغباتهم الخاصة أن يطوّعوا ويحرّفوا قولاً للرسول أو آخر للرب نفسه، ولا يشكلون حياتهم وفهمهم للكتاب المقدس بل يجعلون معنى الكتاب يتشكل حسب رغبات شهواتهم، وموافقاً لوجهة نظرهم. يقولون بأنه مكتوب: "مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ" (أع ٢٠: ٣٥)، ويتفسير بالغ الخطأ لهذا النص يظنون أن في مقدورهم أن يضعفوا من قوة قول الرب: "إن أردت أن تكون كاملاً فاهرب وبع أملكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني" (مت ١٩: ٢٠). يظنون أنهم تحت هذا الظل لا يحتاجون أن يحرّموا أنفسهم من غناهم، مصرحين بأنهم سيكونوا أكثر غبطة دون شك، إذ يعطون من فضلاتهم، مما هو

أصلاً ملك لهم، متعالين على أن يقتتوا عملاً يدويًا، وأن يتناولوا طعام الدير المتواضع. مثل هؤلاء يجب أن يعلموا أنهم يخدمون أنفسهم. إنهم لم يبنوا العالم حقًا، ماداموا لا يزالون متعلقين بغناهم. أما إذا كانوا يريدون حقًا وصدقًا أن يقوموا بممارسة الحياة الرهبانية، فعليهم أن يتخلوا ويهجروا جميع هذه الأشياء ولا يحتجزوا لأنفسهم أي شيء مما نبذوه فيتمجدون مع الرسول "في جوع وعطش وفي برد وعري" (٢ كو ١١: ٢٧).

الفصل السابع عشر

في ترك الرسل والكنيسة الأولى لأباطيل العالم

يبدو ذلك (الذي بتأكيده أنه حاصل على امتيازات مواطن روماني منذ مولده، يشهد بأنه لم يكن شخصًا وضيعًا وفقًا لأوضاع هذا العالم) أنه لم يكن قادرًا على أن يتزود من الأملاك التي كانت له من قبل!... وكان أولئك الذين كانوا مَلَكَاً لأراضٍ وبيوت في أورشليم وباعوا كل شيء دون أن يستبقوا لأنفسهم شيئًا على الإطلاق، واحضروا الثمن ووضعوه عند أقدام الرسل لم يكن بمقدورهم أن يسدوا مطالب أجسادهم من أملاكهم!...

لكن الواقع أن الرسل اعتبروا أن هذه الخطة المثلى للحياة، وآثروها على كل شيء عداها، وقد تخلوا عن جميع ممتلكاتهم في الحال، وآثروا أن يعولوا أنفسهم من ثمار عملهم، ومن إعانات الأميين، الذين تكلم الرسول القديس عن جمعهم لها، في رسالته إلى أهل رومية، مفصلاً لهم عن موقفه من هذا الأمر. فقد حثهم على القيام بهذا الجمع، قائلاً: "ولكن الآن أنا ذاهب إلى أورشليم لأخدم القديسين، لأن أهل مقدونية وإخائية استحسنوا أن يصنعوا توزيعاً لفقراء القديسين الذين في أورشليم، استحسنوا ذلك وأنهم مدينون لهم لأنه إن كان الأمم قد اشتركو (مع مؤمني أورشليم) في روحياتهم، فيجب عليهم أن يخدموهم في الجسديات" (رو ١٥: ٢٥-٢٧).

وهو يبدي نفس الاهتمام مع أهل كورنثوس، ويحثهم بأكثر اجتهاد كي يعدوا قبل وصوله ما يجمعونه وهو ما كان ينوئ إرساله لسد حاجاتهم قائلاً: "أما من جهة الجمع لأجل القديسين فكما أوصيت كنائس غلاطية هكذا افعلوا أنتم أيضاً، في كل أول أسبوع ليضع كل واحد منكم عنده خازناً ما تيسر حتى إذا جئت لا يكون جمع حينئذ، ومتى حضرت فالذين تستحسنونهم أرسلهم برسائل ليحملوا إحسانكم إلى أورشليم" (١ كو ١٦: ١-٤). ولكي يشجعهم على زيادة الجمع يضيف قائلاً: "وإن كان يستحق أن أذهب أنا أيضاً فسيذهبون معي"، يقصد القول بأنه مستعد للاشتراك في حمل تقديمهم والسفر بها مع الوفد المرافق إذا كانت من الوفرة بحيث تستدعي ذلك.

وكذلك يشهد للغلاطيين بأنه عندما راح يقتسم خدمة الكرازة مع الرسل، رتب الأمر مع يعقوب وبطرس ويوحنا على أن يقوم بالكرازة بين الأمم، ولكن ينبغي ألا يغفل العناية بالفقراء بأورشليم وتبدير أمورهم، أولئك الذين تخلوا عن جميع ممتلكاتهم واختاروا الفقر الاختياري من أجل المسيح. وقد قال في رسالته إلى أهل غلاطية بهذا الصدد: "إذ علم بالنعمة المعطاة لي يعقوب وصفا ويوحنا المعتبرون أنهم أعمدة أعطوني وبرنابا يمين الشركة لنكون نحن للأمم، وأما هم فللختان، غير أن نذكر الفقراء، وهذا أيضاً كنت اعتنيت أن أفعله" (غل ٢: ٩-١٠)...

من هم إذن أكثر استحقاقاً للنعمة، أولئك الذين لم يجمعوا من بين الوثنيين إلا متأخراً ولعجزهم عن الارتقاء إلى مراتب كمال الإنجيل، فتشبثوا بممتلكاتهم واكتفي الرسول بنهيهم عن عبادة الأوثان والامتناع عن الزنى والدم والمخنوق (أع ١٥: ٢٠). واعتنقوا الإيمان بالمسيح مع احتفاظهم بكافة ممتلكاتهم، أم أولئك الذين يعيشون وفقاً لوصايا الإنجيل، ويحملون صليب الرب كل يوم، ولا يريدون أن يستبقوا أيضاً شيء من ممتلكاتهم لنفعمهم الخاص؟...

إذا كان الرسول الطوباوي مقيداً بالسلاسل والأصفاد، أو عاقته مشاق السفر، ولهذه الأسباب لم يتيسر له أن يعول نفسه بيديه، كما كان يصنع دائماً، فصّرَحَ أنه تسلم ما يسد احتياجاته من الاخوة الذين قدموا من مقدونية. قائلاً: "لأن احتياجي سدّه الاخوة الذين قدّموا من مقدونية" (٢كو ١١: ٩). كما يقول لأهل فيلبي: "وأنتم أيضاً تعلمون أيها الفيلبيون أنه في بداءة الإنجيل لما خرجت من مقدونية لم تشاركني كنيسة واحدة في حساب العطاء والأخذ إلا أنتم وحدكم، فإنكم في تسالونيكي أيضاً أرسلتم إليّ مرة ومرتين لحاجتي" (في ٤: ١٥-١٦). (وما دام الأمر كذلك) فإنّ وفقاً لفكرة هؤلاء الرجال، التي كوّنها في برودة قلوبهم، يصبح أولئك القوم أكثر استحقاقاً للنعمة من الرسول العظيم، لأنه قد اتضح أنهم خدموه بمالهم! ما من أحد يتجاسر على هذا القول ولو كان مفرطاً في حماقته!

الفصل الثامن عشر

في أننا لو رغبتنا في أن نحكي الرسل

ينبغي علينا ألا نحيا وفقاً لمواهبنا الخاصة بل نحذو حذوهم

لو أردنا أن نطيع وصايا الإنجيل، وأن نظهر أنفسنا كأتباع للرسول والكنيسة الأولى بأكملها، أو للآباء الذين في أيامنا قد وصلوا إلى فضائلهم وكمالهم، علينا ألا نستسلم لتصوراتنا، واعدن أنفسنا بالكمال من هذه الحالة الفاترة الشقية التي لنا، بل إذ نفتقي آثارهم، ينبغي علينا ألا نستهدف الاهتمام بفكرنا بأية حال من الأحوال، إنما نتمسك بأنظمة الدير وأوامره، كي يتيسر لنا حقاً نبذ أباطيل هذا العالم، غير محتفظين بأي شيء من تلك الأشياء التي احتقرناها، غير مستسلمين في ذلك لتجربة نقص الإيمان، بل نسعى في الحصول على طعمنا اليومي، لا من مالنا المكتنز، بل من كد أيدينا.

الفصل التاسع عشر

قول القديس الأسقف باسيليوس موجه ضد سنكليتوس

يوجد قول مأثور ورد على لسان القديس باسيليوس أسقف قيصرية ضد شخص يدعى سنكليتوس، كان آخذاً في عدم المبالاة مع ضرب من الفتور، الذي تكلمنا عنه. على الرغم من تأكيده أنه نبذ أباطيل هذا العالم فقد استبقى لنفسه بعض ممتلكاته، غير راغب في أن يعول نفسه من عمل يديه، وأن يحوز التواضع الحقيقي بتجرده وجهاده الشاق وخضوعه للدير. ومن ثم قال له القديس: "لقد فسدت يا سنكليتوس، ولم تصبح راهباً.

الفصل العشرون

مدى حقارة من يغلبه الطمع

لو أردنا أن نجاهد بطريقة قانونية في صراعنا الروحي، علينا أن نطرد أيضاً هذا العدو الخطر من قلوبنا، ذلك لأن انتصارنا عليه ليس فيه من الفضيلة قدر ما في انتصاره علينا من عار ومهانة. لأنه إذا انتصر عليك شخص قوي فإنه على الرغم مما يسفر عن الهزيمة من أسي، وما يسببه ضياع النصر من ألم، فثمة بعض عزاء قد تجده في شعورك بأن من غلبك قوي. أما إذا كان العدو هزياً، والصراع تافهاً ضئيلاً، فبجانب الأسى الذي تخلقه الهزيمة، فهناك خزي أشد مهانة، وعار أسوأ من الخسارة.

الفصل الحادي والعشرون

كيف يمكن قهر الطمع

تتم أعظم نصرة وأخلد ظفر إذا لم يتدنس ضمير الراهب، كما يقال، بامتلاك أصغر قطعة نقد. ذلك لأن من تقهره أقل ملكية يسمح لجذور شهوة شريرة أن تخترق قلبه. ويستحيل على مثل هذا الشخص ألا يشتعل بعد ذلك بنيران شهوة أشد. فجندي المسيح ينتصر وينعم بالأمن والطمأنينة، والتحرر من كل هجمات الاشتها، ما دامت هذه الروح الممعة في الشر لا تغرس في قلبه بذرة هذه الشهوة. هكذا بينما نحن مطالبون عادة في كل الخطايا، أن نراقب رأس التين (تك ١٥: ٣)، فكل ما يلزمنا فعله إزاء هذه الخطية هو أن نكون أكثر حذرًا وأشد حيلة، لأننا إذا قبلناها نمت إذ تغذي نفسها، وتوقد لذاتها نارًا أشد خطرًا. من ثمة ينبغي علينا ليس فقط أن نأخذ حذرنا من حيازة المال، بل ننتزع أيضًا من نفوسنا تلهفنا عليه، إذ من واجبنا، لا أن نتحاشى نتائج الطمع، إنما بالأكثر أن نستأصل جذور كل نزوع إليه، إذ أن عدم امتلاكنا للمال لا يفيدنا ما دامت فينا شهوة الحصول عليه.

الفصل الثاني والعشرون

في أنه قد يوصم بالطمع من لا مال عنده

من المحتمل أن إنسانًا لا يملك شيئًا يكون مستعبدًا لعلّة الطمع، ولا تنفعه نعمة الفقر المدقع، لأنه لم يستطع أن يستأصل من نفسه جذور خطية الشراهة، متقبلًا مزايا الفقر لا لحسن فضائله، وراضيًا بثقل الحاجة إنما في فتور القلب. ذلك لأنه كما أن كلمة الإنجيل تعلن أن الذين لا يتدنسون بالجسد قد يزنون في القلب، وأن من المحتمل أن أولئك الذين لا يتحمل كاهلهم عبء المال تلحقهم لعنة نزعة الطمع وقصده لأن ما كان يعوزهم هي "فرصة" الامتلاك وليست "إرادته"، لأن الثانية هي التي يتوجهها الله دون الجبر، لهذا يلزمنا أن نستخدم كل حصانة، لئلا تتبدد ثمار جهادنا في غير ما يجدي. لأنه من المحزن أن يتحمل المرء آثار الفقر أو العوز، ولكنه يفقد ثماره، بسبب سقوط الإرادة المزعزعة.

الفصل الثالث والعشرون

مثل مأخوذ من حالة يهوذا

أتريد أن تعلم مدى خطورة هذه الغواية وأضرارها، ما لم تُقتلع بحذر، على صاحبها والدمار الذي تلحقه به، وما يتشعب منها من فروع شتى الخطايا؟ انظر إلى يهوذا، المعداد من بين التلاميذ، وتأمل كيف بسبب إقدامه على سحق رأس هذا التين القاتل، قُضي عليه بسُوءه، وكيف أنه لما وقع في شباك هذه الشهوة أُلقت به في الخطية وفي سقطة عاجلة، حتى أنها أغوته على بيع فادي الأثام، ومنشئ خلاص الإنسان بثلاثين من الفضة، وأنه لم يكن من المستطاع دفعه إلى هذه الخطية المنكرة، خطية خيانة سيده، ما لم يكن قد لطحته خطية الطمع. كذلك ما كان لينساق إلى الإجرام في حق سيده بهذه الصورة البشعة، ما لم يكن قد عود نفسه على السرقة من الكيس المودع لديه.

الفصل الرابع والعشرون

في أنه لا يمكن قهر الطمع إلا إذا جرد المرء نفسه من كل شيء

هذا مثل واضح فطيع لهذا الطغيان الذي إذا وقع العقل في أسره خرج عن كل قواعد الأمانة، ولا يقنع بأي مزيد من الأرباح. ذلك لأنه لزام علينا أن نحسم هذا الجنون، ليس بالثراء إنما بتجريد أنفسنا منه. أخيرًا فإن يهوذا عندما تسلم الكيس المخصص للتوزيع على الفقراء، والمودع في ذمته لهذا الغرض، كي يتيسر له على الأقل أن يرضي نفسه بالمال الكثير، ويضع حدًا لجشعه، دفعه هذا الكثير الذي تحت يده إلى مزيد من الطمع

والجشع، حتى أنه لم يعد يقتصر على السرقة سرًا من الكيس، بل باع سيده بالفعل، لأن جنون هذا الجشع لا يقنع بأي قدر من الثراء.

الفصل الخامس والعشرون

في الميتات التي حلت بحنانيا وسفيرة ويهوذا بسبب شهوة الطمع

وأخيرًا فإن العظيم في الرسل، إذ تعلم من هذه الأمثلة، ولعلمه أن المصاب بأي قدر من الطمع لا يستطيع كبح جماحه، وأنه غير ميسور وضع حد له بمبلغ من المال كبيرًا كان أو صغيرًا، إنما بفضيلة نبذ كل شيء، عاقب حنانيا وسفيرة بالموت، لأنهما استبقيا جزءًا من ثمنه لملكهما، حتى أن الموت الذي لاقاه يهوذا طائعًا لارتكابه خطية خيانة سيده، لا بد أن يلحقهما لوقوعهما في خطية الكذب بسبب طمعهما، فما أقوى الصلة القائمة بين الخطية والعقوبة في كل من الحالتين! وهكذا كانت نتيجة الطمع في الحالة الأولى هي الخيانة، وفي الحالة الثانية الكذب؛ في الحالة الأولى أهدر الحق وتمت خيانة، وفي الحالة الثانية ارتكبت خطية الكذب، فمع أن نتائج أعمالهما قد تبدو مختلفة، إلا أنهما يتفقان في وحدة الهدف وتماثله. فواحد إذ أراد الفرار من الفقر رغب في أن يسترد ما سبق أن تخلص منه، بينما الآخران إذ خشيا أن يصبحا فقيرين حاولا استبقاء جزء من ثمن ملكهما الذي باعاه، والذي كان من واجبهما إما أن يسلماه للرسول في إيمان ثابت ونية صافية، أو أن يهباه للاخوة بأكمله. هكذا في كل من الحالتين جاءت عقوبة الموت في الأعقاب، لأن كل خطية منهما نبتت من جذور الطمع. وإذا كانت مثل هذه العقوبة الشديدة قد وقعت على أولئك الذين لم يطمعوا في ممتلكات الآخرين إنما الذين حاولوا فقط الحرص على ما يملكون، والذين لم يستهدفوا الحيازة والاقتناء بل مجرد الاحتجاز والاستبقاء، فماذا نظن في مصير أولئك الذين يرغبون في جمع الثروة واكتنازها، دون أن يكون لهم فيها درهم أو دينار، والذين يتظاهرون بالفقر أمام الناس، ولكنهم أمام الله مدانون بالغنى الزائف بسبب شهوة الطمع؟

الفصل السادس والعشرون

في أن الطمع يصيب النفس ببرصٍ روحي

والذين يتراءون مجزومين في الروح والقلب، مثل جيحزي الذي إذ اشتهى غنى هذا العالم غير اليقيني، دهمه مرض البرص البغيض، وبهذا ترك لنا مثالًا واضحًا في أن كل نفس مدنسة بوصمة الشراهة يصيبها برص الخطية الروحي وتعتبر أمام الله مدنسة بصفة دائمة.

الفصل السابع والعشرون

إن كنت بدافع من رغبتك في الكمال قد هجرت جميع الأشياء وتبعت المسيح الذي يقول لك: "اذهب وبع أملاكك أعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني" (مت ١٩: ٢١)... لماذا بعد أن وضعت يدك على المحراث تنتظر إلى الوراء، حتى يعلن الرب نفسه عنك أنك غير صالح لملكوت السموات؟ (لو ٩: ٦٢)... ولماذا بعد أن كنت آمنًا على قمة سقف الإنجيل، نزلت إلى البيت لتحمل بعض ما فيه من تلك الأشياء التي سبق أن احتقرتها؟... ولماذا بعد أن خرجت إلى الحقل ورحلت تشغل بالفضائل عُدت مسرعًا وحاولت أن تلبس ثانية ثياب هذا العالم التي خلعتها عنك حين نبذتها؟ (لو ١٧: ٣١)... ولكن إذ قد عاقبك الفقر عن امتلاك شيء تتخلي عنه، فبالأحرى ينبغي ألا تكتنز ما لم يكن لك قط من قبل، لأنك بنعمة الرب كنت معدًا لهذا الغرض كي ما تُسارع إليه وأنت أكثر استعدادًا مادامت لا تعوقك شباك الغنى. لئله لا يغتم إنسان ويفشل لأنه يعوزه شيء

يتخلى عنه، لأنه ما من أحد إلا ولديه شيء يتخلى عنه.

لقد نبذ جميع مقتنيات هذا العالم، أي إنسان استأصل تمامًا من قلبه الرغبة في حيازتها وامتلاكها.

الفصل الثامن والعشرون

في أن الانتصار على الطمع لا يمكن تحقيقه إلا إذا جرد الإنسان نفسه من كل شيء

هذا إذن هو الانتصار التام على الطمع، لا نسمح لومضة من أصغر فضلاته أن تبقى في قلوبنا، إذ نعلم أنه لن يكون لدينا أية قدرة على إخماده إن احتفظنا في أعماقنا بأصغر شرارة منه.

الفصل التاسع والعشرون

كيف يستطيع راهب أن يحتفظ بفقره

نستطيع أن نحافظ على هذه الفضيلة دون مساس إذا مكثنا مقيمين في دير، وكما يقول الرسول: "فإن كان لنا قوت وكسوة فلنكتف بهما" (١ تي ٦: ٨).

الفصل الثلاثون

طرق الوقاية من مرض الطمع

إذ نذكر دائماً مصير حنانيا وسفيرة، لابد أن نجزع ونتحاشى استبقاء أي شيء مما تخلينا عنه ونذرنا أن نهجره. فلنتعظ من مثال جيحزي السيئ، فبسبب خطية الطمع عوقب بالبرص الدائم جزاءً وفاً. لهذا فلنحترس من اقتناء ثروة لم نمتلكها قط من قبل. أضف إلى هذا علينا أن نرهب سقطة يهوذا وموته، ومن ثمة نتجنب بكل قوانا استرداد أي جزء من تلك الثروة التي سيق أن نخلصنا منها، وفوق كل هذا، علينا ونحن نرقب طبيعتنا الضعيفة المتغيرة فنتحرر لئلا يأتي يوم الرب علينا كلص في الليل (١ تس ٥: ٤). ويجد ضميرنا مدنساً ولو بقرش واحد، لأن ذلك يحرمننا من كل ثمار نبذنا للعالم، ويوجه إلينا كلمات الرب للغني، التي جاءت في الإنجيل: "يا غبي هذه الليلة تطلب نفسك منك، فهذه التي أعددتها لمن تكون؟! (لو ١٢: ٢٠) وإذ لا نهتم بالغد علينا ألا نسمح قط لأنفسنا بإغوائنا عن قواعد التجرد والنسك.

الفصل الحادي والثلاثون

في أنه ما من أحد يستطيع أن يغلب الطمع

إلا إذا أقام في خلوة الدير، وكيف يستطيع الإقامة هناك

لكن من المؤكد أنه لن يُسمح لنا بهذا، أو حتى بالبقاء تحت سلطة نظام، إلا إذا تأسست فينا أولاً وتدعمت فضيلة الصبر والاحتمال، التي لا يمكن انبعاثها إلا من التواضع كمصدر لها، لأن الواحدة تعلمنا ألا نزجج أي شخص آخر، والأخرى تعلمنا أن نحتمل في سماحة واتساع صدر إهانات الآخرين لنا.

مؤسسات نظام الشركة للقدّيس يوحنا كاسيان

٨

في روح الغضب^١

يفتتح القدّيس يوحنا كاسيان كتابه "في روح الغضب" بالكشف عن خطورة الغضب، إذ يصيب البصيرة الداخلية، فيفقدنا قدرتنا على رؤية الأمور كما ينبغي:

- لا نستطيع أن نحرز الحكمة، ولا يكون لنا الحكم السليم على الأمور، لأن "الغضب مستقر في حزن الجاهل" (جا ١٠:٧).
- لن نستطيع أن نكون شركاء في الحياة، أو داعين للبرّ، أو حتى يكون لنا قدرة على تلقي نور الروح الحقيقي، لأن أعيننا يربكها ظلام الغضب.
- لا نستطيع إدراك الحياة الأبدية، لأن "الغضب يهلك ذوي الحصافة" (أم ٢:١٥).
- لن يتيسر لنا إحراز قوة البرّ، حتى إن كنا كاملين وطاهرين في نظر الجميع، لأن "غضب الإنسان لا يصنع برّ الله" (يع ٢٠:١).
- لن نستطيع أن ننال التقدير والإجلال اللذين كثيرًا ما نشاهدهما حتى في أبناء العالم، ولو كنا بمولدنا من طبقة الأشراف والنبلاء، لأن "الإنسان الغاضب مُحْتَقَر" (أم ٢٣:١١).
- لن نستطيع إحراز الفكر الناضج حتى إن توهم الناس أننا ذوو أهمية بالغة، لأن "السريع الغضب يعمل بالحمق" (أم ٢٧:٤).
- لا نستطيع التخلص من القلاقل الخطرة أو ننجو من الخطية حتى ولو لم تحل بنا أية قلاقل من الآخرين، لأن الرجل الغضوب يهيج الخصام والرجل السخوط كثير المعاصي" (أم ٢٩:٢٢).

يبرر البعض غضبهم بما ورد في الكتاب المقدس أن الله نفسه "يغضب"، وهم يخطئون إذ يفسرون مثل تلك العبارات حرفيًا، بينما لا يحمل الله انفعالات بشرية، إذ هو "حب"!

هل يجوز علاج أخطاء الغير بالغضب؟

يقول القدّيس يوحنا كاسيان: [ينبغي على من يريد أن يشفي جرح شخص ما أن يكون سليماً معافى لا يشكو من أي ضعف، لئلا توجه إليه عبارة الإنجيل: "أيها الطبيب اشف نفسك" (لو ٦: ٢٣)، ولئلا وهو يرى القذى في عين أخيه لا يرى الخشبة التي في عينه. إذ كيف سيرى حتى يخرج القذى من عين أخيه، ذاك الذي في عينه خشبة الغضب؟ (مت ٧: ٣-٥).]

^١ ترجمة: الراهب باسيليوس السرياني (السابق).

تقديم القربان والغضب

[إذ كنا كثيرًا ما نمتن أخوتنا الذين نؤذيهم ونحزنهم ونستصغر شأنهم، ونقول إننا لم نضرهم بأي خطأ من جانبنا، فإن شافي النفوس، المطلع على جميع أسرارنا، لرغبته الكاملة في أن يبدد من قلوبنا كل أثر للغضب، لا يوصينا فقط بأن نغفر لمن يسيئون إلينا، ونصالح أخوتنا، وألا نحفظ في ذاكرتنا بأية إساءة أو تعديات ارتكبوها ضدنا، إنما يكلفنا أيضًا بأننا إذا شعرنا بأن لهم أي شيء ضدنا، سواء كانوا على حق أو على غير حق، أن نترك قرباننا. بمعنى أن نرجئ صلواتنا ونسارع أولاً لاسترضائهم ومصالحتهم، وعندما يتم علاج هذا الأخ نستطيع عندئذ أن نقدم قربان صلواتنا دون عيب، لأن الرب إله الجميع لا يعنيه كثيرًا قرباننا قدر ما يعنيه فقده شخص ما، بسبب تركنا للسخط يتحكم فينا. لأن خسارة أي إنسان يصيب الله، إذ هو يريد ويبحث عن خلاص جميع خدامه بخط واحد لا يتغير.]

اعتزال الناس ليس علاجًا للغضب

في معالجته للخطايا يوجه القديس يوحنا كاسيان أنظارنا، لا إلى التصرفات الظاهرة، بل إلى جذور الخطية الكامنة في أعماق القلب، حتى نهتم بملء الفراغ الداخلي خلال الحب الإلهي. يقول:

[مادامنا نحمل الآخرين وزر خطانا، لن نستطيع قط أن نبلغ بغيتنا في الكمال والقدرة على الاحتمال.]

[هكذا في حالة الذين يبتغون الكمال، لا يكفي ألا يغضبوا من الناس، فإننا نذكر أننا حين كنا نعيش في عزلة، كان يتسلل إلى نفوسنا شعور الغضب ضد القلم الذي نستعمله لزيادة طوله أو زيادة قصره، أو ضد المطواة لعدم حدثها، أو ضد حجر القداحة إذا طارت منه شراره تعطلنا عن المطالعة. فلا نتخلص من اضطراب ذهننا بسبب مادة جامدة أو الشيطان. وهكذا باطلاً نظن بلوغ الكمال لعدم وجود من يثيرون غضبنا. فمادام لم يتم نوال الصبر فإن مشاعر السخط التي مازالت كامنة في قلوبنا يمكن إطلاق العنان لها ضد جماد أو شيء تافه، ولا نتيج لنا بلوغ حالة دائمة من السلام، أو التخلص من رواسب سقطاتنا، اللهم إلا إذا اعتقدنا أننا قد نحرز بعض النفع، ونحقق لونا من الشفاء من انفعالاتنا، إزاء الواقع من أن الأشياء العديمة النطق والحياة لا تستطيع الرد على سبنا لها وسخطنا عليها أو أن تدفع نوبات غضبنا المطلقة العنان لأن تتفجر في ثورة عارمة مخبولة أسوأ وأنكى.]

يقول القديس أوغريسي:

[عندما يثار الجزء القابل للإثارة في النفس، لسبب أو آخر، تقدم لنا الشياطين "التوحد" كنصيحة نافعة، لكي به ننزع عنا أسباب الضيق، لكننا لا نكون قد تحررنا (داخليًا) من دافع الغضب. وبالعكس عندما تلتهب الشهوة فينا، تحركنا الشياطين نحو حب الناس (حب الاختلاط بهم)، وتصوّر لنا الانعزال عنهم بريرية وقسوة، وذلك لكي نلتقي بأجساد أخرى فنشتهيها. فليتنا لا نصدق الشياطين في شيء، مجاهدين بكل طاقتنا ضد ما تمليه علينا.]

الغضب المقدس والغضب الشرير

يقول القديس يوحنا كاسيان:

[لابد من التسليم بأنه ثمة فائدة للغضب قد غرست ببراعة فينا، وهي وحدها التي تستطيع أن توفر

^٢ القديس أوغريسي: توجيهات إلى أنالوتيس عن الحياة العاملة، ١٣.

لنا النفع والإفادة، ذلك مثلاً عندما نغضب ونسخط على نجاسات قلوبنا، وعندما نتضايق جداً لأن الأشياء التي نخجل من فعلها أو ذكرها أمام الناس قد أخذت لها من حنايا قلوبنا بؤرة ووكراً، إذ نرتعد عند حضور الملائكة وفي حضرة الله نفسه، الذي يخترق أستار كل شيء في كل مكان، ويشدد فزعه لعلمه أن أسرار قلوبنا لا يمكن أن تُخفى عليه.]

[”لا تغرب الشمس على غيظكم ولا تُعطوا إبليس مكاناً“ (أف:٤:٢٦). فإن كان من الخطر أن تغرب شمس البر على غيظنا، وإذا كنا حينما نغضب نُعطى مكاناً لإبليس في قلوبنا، فكيف إذن يطلب إلينا أن نغضب قائلاً: ”اغضبوا ولا تخطئوا“؟ أليس من الواضح أنه يعني ”اغضبوا على سقطاتكم وحدّة طباعكم“؟ لنلا إذا استسلمتم لها يشرع المسيح شمس البر في الغروب عن عقولكم المظلمة، وحين ينصرف عنكم تصبح قلوبكم مرتعاً لإبليس؟]

ويقول القديس أوغريسي:

[عمل الغضب الطبيعي هو شن الحرب ضد الشياطين والصراع ضد كل نوع من أنواع اللذة الشريرة. فالملائكة تحثنا نحو اللذة الروحية، وتجعلنا نتذوق بركاتها، وتوجه غضبنا ضد الشياطين. وأما الشياطين فتجذبنا نحو الشهوات الأرضية، حتى تجعلنا نستخدم الغضب ضد الناس، الأمر الذي يخالف الطبيعة، وهكذا إذ تختل الطبيعة يظلم (القلب) ويصير مستهيناً خائناً للفضائل.^٣]

[الغضب أسرع كل أنواع الشهوات. فإن الإنسان يثور ويلتهب ضد من أساء إليه أو من يبدو كمن قد أساء إليه.

(أ) الغضب يقسي النفس شيئاً فشيئاً.

(ب) والغضب يأسر العقل أثناء الصلاة ويورد حالاً للذاكرة صورة المعتدى.

(ج) وفي بعض الأحيان يتباطأ الغضب في النفس فينشأ عنه عداوة في القلب.

(د) والغضب يسبب الأحلام (المقلقة)، فيصور له العذابات الجسيمة ومخاوف الموت وهجمات الحيات

السامة والوحوش.

هذه المظاهر الأربعة تصاحب ميلاد العدا، وتجلب أفكاراً كثيرة كما يلاحظ كل إنسان واعٍ لنفسه.^٤

القمص تادرس يعقوب ملطي

^٣ القديس أوغريسي: توجيهات إلى أنالوتيس عن الحياة العاملة، ١٥.

^٤ القديس أوغريسي: إلى أنالوتيس عن الأفكار الثمانية، ١٥.

الفصل الأول

كيف أن رابع صراع لنا موجه ضد خطية الغضب،

وكيف أنها تلد شروا كثيرة

في رابع قتال لنا لا بد من استئصال سم الغضب القاتل من أعماق نفوسنا. فإنه مادام له وجود في قلوبنا، طامسًا بظلامه المؤذي عيون نفوسنا، لا نستطيع أن نحرز الحكمة، ولا يكون لنا الحكم السليم على الأمور. ولا ننال البصيرة النفاذة التي تنبعث من التفرس الأمين أو المشورة الصالحة المختبرة.

كما أننا لن نستطيع أن نكون شركاء في الحياة، أو داعين للبر، أو حتى يكون لنا قدرة على تلقي نور الروح الحقيقي، لأن أعيننا، على حد قول أحد الناس، يربكها ظلام الغضب.

كذلك لن نستطيع أن نكون شركاء في الحكمة، حتى إن أجمع الناس على اعتبارنا حكماء، لأن "الغضب مستقر في حزن الجاهل" (جا : ١٠:٧).

ولا نستطيع إدراك الحياة الخالدة على الرغم من اشتهاينا بالحصافة بين الناس، لأن "الغضب يهلك ذوي الحصافة" (أم ٢:١٥).

أيضًا لن يتيسر لنا بعدالة القلب الصافية إحراز قوة البر الضابطة حتى ولو كنا كاملين طاهرين في نظر الجميع، لأن "غضب الإنسان لا يصنع بر الله" (يع ١: ٢٠).

كذلك لن نستطيع على أي وجه أن ننال التقدير والإجلال اللذين نشاهدهما كثيرًا حتى في أبناء العالم، إن كنا بمولدنا من طبقة الأشراف والنبلاء، لأن "الإنسان الغاضب محتقر" (أم ٢٣: ١١).

أيضًا لن نستطيع إحراز الفكر الناضج حتى لو توهم الناس أننا ذوو أهمية بالغة، لأن "السريع الغضب يعمل بالحمق" (أم ٢٧: ٤). كما لا نستطيع التخلص من القلاقل الخطرة أو ننجو من الخطية حتى إن لم تحل بنا أية قلاقل من الآخرين، لأن الرجل الغضوب يهيج الخصام والرجل السخوط كثير المعاصي" (أم ٢٩: ٢٢).

الفصل الثاني

فيمن يقولون أن الغضب غير مؤذٍ إذا غضبنا على المخطئين،
مادام الغضب قد ينسب إلى الله ذاته

لقد سمعنا البعض يحاولون تبرير هذا المرض البالغ الضرر الذي يلحق بالنفس، ملتجئين إلى طريقة منقّرة في تفسير الكتاب المقدس لهذا التبرير، كقولهم بأنه ليس من الضرر في شيء أن نغضب على إخواننا الذين يخطئون، مادام الله ذاته، على حد قولهم، قد ذكر عنه أنه يسخط ويغضب على أولئك الذين لم يعرفوه أو عرفوه ثم رفضوه، وفقاً للنص: "فحمي غضب الرب على شعبه، وكره ميراثه"، أو وفقاً لكلمات النبي وهو يصلي قائلاً: "يا رب لا توبخني بغضبك، ولا تؤدبني بغيبك" (مز ٦: ١)، غير مدركين أنهم إذ يريدون تلمس الأعداء لارتكاب خطية بالغة الأذية، ينسبون إلى العزة الإلهية ومصدر كل نقاء إحدى وصمات الانفعال البشري.

الفصل الثالث

في تلك الأشياء التي نسبت إلى الله كتشبيهه بالإنسان

لأن هذه الأشياء التي تُقال عن الله إذا فُسرت حرفياً بصورة مادية يمكننا القول أيضاً أنه ينাম وفقاً للنص: "استيقظ يارب لماذا تتغافى" (مز ٤٤: ٢٣)، مع أنه قيل عنه في مكان آخر: "إنه لا ينعس ولا ينام حافظ إسرائيل" (مز ١٢١: ٤). وأنه يقف ويجلس إذ يقول: "السماوات كرسي والأرض موطئ قدمي" (إش ٦٦: ١)، مع أنه "كال بكفه المياه وقاس السماوات بالشير". وهو "معيط من الخمر" حسب قوله "واستيقظ الرب كنائم، كجبار معيط من الخمر" (مز ٧٨: ٦٥)، في حين أنه هو "الذي وحده له عدم الموت، ساكناً في نور لا يُدنى منه" (١ تي ١٦: ٦). ولا داعي لذكر "الجهل" و"النسيان" اللذين كثيراً ما يرد ذكرهما في الكتاب المقدس. وأخيراً وصف أعضاء الجسد التي تُسبت إليه كما لو كان إنساناً، كالشعر والرأس والأنف والعينين والوجه واليدين والذراعين والأصابع والبطن والقدمين. إذا عمدنا إلى أخذها جميعاً وفق معناها الحرفي العادي، فيلزمنا أن نفكر في الله بما يتفق مع صورة الأعضاء وشكل الجسم، وهذا أمر بشع حقاً حتى مجرد الكلام عنه، ويتحتم أن نستبعد تماماً عن أفكارنا.

الفصل الرابع

بأي معنى ينبغي أن ندرك العواطف والأعضاء البشرية
المسندة إلى الله غير المتجسد ولا متغير

لا يمكن - دون تجديد - تفسير هذه الأشياء حرفياً عنه، وهو الذي أعلن، بنص الكتاب المقدس، أنه غير مرئي، لا يُعبر عنه، غير مدرك، غير مفحوص، بسيط، غير مركب. إذن لا يمكن إسناد نزعة الغضب والسخط إلى تلك الطبيعة غير المتغيرة دون تجديد فطيع، إذ علينا أن ندرك أن الأعضاء تعني قدرات الله وأعماله غير المحدودة، التي لا يمكن تمثيلها لنا إلا بالوصف المعتاد للأعضاء. فينبغي أن ندرك أن الفم معناه منطوقاته التي، من رحمته علينا، تتسكب دائماً في حواس النفس الخفية، أو التي تكلم بها بفم الآباء والأنبياء. وأن العينين يعنيان الطبيعة غير المحدودة لبصره الذي يرى ويخترق به أستار كل شيء، ولهذا لا يُخفي عليه شيء صنعناه أو يمكن أن نصنعه أو حتى ما يُساورنا من أفكار. وأن اليدين ترمزان لعنايته وعمله اللذين بهما خلق جميع الأشياء وأبدعها. وأن الذراعين يرمزان لقدرته وسلطته، بهما يرفع ويحكم ويضبط جميع الأشياء. ناهيك بأشياء أخرى، كشعر رأسه الأشيب مثلاً، الذي لا يعني سوى خلود الله ودوامه، فهو أزلي لا بداية لوجوده، إذ هو قبل كل الأزمان، وهو يعلو جميع المخلوقات.

حين نقرأ عن غضب الرب وسخطه، ينبغي ألا نفهم اللفظ وفق معنى العاطفة البشرية غير الكريمة. إنما بمعنى يليق بالله، المنزه عن كل انفعال أو شائبة. ومن ثم ينبغي أن ندرك من هذا أنه الديان والمنتقم عن كل الأشياء الظالمة التي ترتكب في هذا العالم. وبمنطق هذه المصطلحات ومعناها ينبغي أن نخشاه بكونه المجازي المخوف عن أعمالنا، وإن نخشى عمل أي شيء ضد إرادته. لأن الطبيعة البشرية قد ألفت أن تخشى أولئك الذين تعرف أنهم ساخطون، وتفزع من الإساءة إليهم، كما هو الحال مع بعض القضاة البالغين ذروة العدالة.

فالغضب المنتقم يخشاه عادة أولئك الذين يعذبهم اتهام ضمائرهم لهم. بالطبع ليس لوجود هذه النزعة في عقول هؤلاء الذين سيلتزمون تمام الإنصاف في أحكامهم، ولكن بينما هم في غمرة من هذا الخوف، فإن ميول القاضي نحوهم تتسم بالعدالة وعدم التحيز واحترام القانون الذي ينفذه. وهذا مهما سلك بالرفق واللفظ، موصوم بأقصى نعوت السخط والغضب الشديد من أولئك الذين عوقبوا بحق وإنصاف.

سيكون مبعثاً للملل وخارجاً عن نطاق عملنا الحاضر، لو أننا شرحنا جميع الأشياء التي قيلت مجازاً عن الله في الكتاب المقدس بصورة بشرية، لهذا نكتفي لتحقيق غرضنا الحاضر الموجّه ضد خطية الغضب بما قلناه من أنه ما من أحدٍ، بسبب الجهل، ينتزع لنفسه سبباً لهذا الشر والموت الأبدي من تلك الأسفار المقدسة، التي ينبغي أن يُبحث فيها عن القداسة والخلود كأدوية شافية لنوال الحياة والخلص.

الفصل الخامس

كيف ينبغي أن يكون الراهب هادئاً

يجب على كل راهب ينشد الكمال ويرغب في أن يجاهد قانونياً في قتاله الروحي، أن يتخلص من خطية الغضب والسخط بأكملها، وأن ينصت للتحذير الذي يُوجهه إليه "الإتاء المختار"، قائلاً: "ليرفع من بينكم كل مرارة وسخط وغضب وصياح وتجديف مع كل خبث" (أف ٤: ٣١). وحين يقول: "ليرفع من بينكم كل غضب" لا يستثني أحداً مهما كان، لما تقتضيه الضرورة أو لما هو نافع لنا، وإذا احتاج الأمر، فينبغي فوراً أن يُعالج أي أخ مخطئ بطريقة لا يكون من شأنها أن تجعله شبيهاً بشخصٍ راح يعالج مريضاً بحمى خفيفة فورط نفسه بغضبه وسخطه فيما أدى به إلى فقد بصره وبصيرته. ذلك لأنه ينبغي على من يريد أن يشفي جرح شخصٍ ما أن يكون سليماً معافى لا يشكو من أي ضعف، لئلا توجه إليه عبارة الإنجيل: "أيها الطبيب اشف نفسك" (لو ٢٣: ٦)، ولئلا وهو يرى القذى في عين أخيه لا يرى الخشبة التي في عينه. إذ كيف سيرى حتى يخرج القذى من عين أخيه، ذاك الذي في عينه خشبة الغضب؟ (مت ٧: ٣-٥).

الفصل السادس

في نزعتي الغضب البارة والأثيمة

تنبعث عاطفة الغضب هائجة من كل سبب تقريباً، فتطمس عيني النفس، وإذا تصيب بصرنا بخشبة مميتة لمرض أشد سوءاً، تمنعنا من رؤية شمس البر. ليس ثمة فارق في أن يكون لوح من رصاص أو ذهب أو أي معدن تشاء هو الموضوع فوق جفوننا، لأن قيمة المعدن لا تختلف في تأثيرها على ما يصيبنا من عمى.

الفصل السابع

في الحالة الوحيدة التي يكون فيها الغضب نافعا لنا

لابد من التسليم بأنه ثمة فائدة للغضب قد غرست ببراعة فينا، وهي وحدها التي تستطيع أن توفر لنا النفع والإفادة، ذلك مثلاً عندما نغضب ونسخط على نجاسات قلوبنا، وعندما نتضايق جداً لأن الأشياء التي نخجل من فعلها أو ذكرها أمام الناس قد أخذت لها من حنايا قلوبنا بؤرة ووكراً، إذ ترتد عند حضور الملائكة وفي حضرة الله نفسه، الذي يخترق أستار كل شئ في كل مكان، ويشد فزعه لعلمه أن أسرار قلوبنا لا يمكن أن تُخفى عليه.

الفصل الثامن

أمثلة من حياة داود الطوباوي كان فيها شعور الغضب مبرراً

على أي وجه (هذا هو الحال) حين ننفع ضد هذا الغضب ذاته، لأنه تسلل إلينا ضد أحد إخوتنا، وحين ننترع ضروب إثارته المميّنة ونحن ساخطون، ولا نسمح له أن يتخذ من حنايا قلوبنا وكراً له. يعلمنا ذلك النبي أن يكون غضبنا على هذا النمط، ولذلك أبعد تماًماً عن قلبه، ومن ثم لم يرد أن يثار من أعدائه الذين أوقعهم الرب في يده، حيث يقول: "اغضبوا ولا تخطئوا" (مز ٥: ٤). لأنه حين اشتاق إلى الماء من بئر بيت لحم، واستحضره له رجاله الأشداء والذين أتوا به مخترقين ربوات جيش العدو، سكب فوراً على الأرض، وهكذا في غضبه أحمّد شعور شهوته للذة، وأراقها من أجل الرب، دون أن يشبع لهفته، التي كان قد أفصح عنها قائلاً: "حاشا لي يا رب أن أفعل ذلك، هذا دم الرجال الذين خاطروا بأنفسهم" (٢صم ٢٣: ١٧)...

وحين رشق شمعي بالحجارة داود، وسبّه على مسمع منه أمام الجميع. وأراد أبيشاي بن صروية قائد الجيش أن يقطع رأسه ويثار عن سبّه للملك، ثار داود الطوباوي في سخط ورع ضد هذا الاقتراح البشع، وفي تواضع جم وصبرٍ حازم قال وهو هادئ رابط الجأش: "مالي ولكم يا بني صروية، دعوه يسب، لأن الرب قال له سب داود، ومن يقول لا تفعل هكذا؟! هوذا ابني الذي خرج من أحشائي يطلب نفسي فكم بالحري بنياميني؟ دعوه يسب لأن الرب قال له. لعل الرب ينظر إلى مذلتني ويكافئني الرب خيراً عوض سبته بهذا اليوم" (٢صم ١٦: ١٠-١٢).

الفصل التاسع

في الغضب الذي ينبغي أن يوجه ضد أنفسنا

الوصية موجهة للبعض بأن "يغضبوا" على نمط سليم، بمعنى أن يوجهوا الغضب إلى أنفسهم وإلى أفكارهم الشريرة التي تبرز، "وَأَلَّا يَخْطِئُوا"، بأن يوجهوها مثلاً وجهة رديئة. وأخيراً فالآية التالية تفسر هذا المعنى بكل وضوح "الذي تقولونه في قلوبكم اندموا عليه في مضاجعكم" (مز ٥: ٤)، أي أن كل ما تفكرون فيه بقلوبكم، عندما تداهمكم الانفعالات المتوترة المفاجئة أصلحوها بالحنن النافع، ثم ارقدوا على فراش الراحة، وطاردوا بتأثير المشورة الصالحة كل صخب السخط وعجيجيه. وأخيراً فإن الرسول المبارك حين استشهد بهذه الآية قائلاً: "اغضبوا ولا تخطئوا" أضاف إليها: "لا تغرب الشمس على غيظكم ولا تُعطوا إبليس مكاناً" (أف ٤: ٢٦). فإن كان من الخطر أن تغرب شمس البر على غيظنا، وإذا كنا حينما نغضب نُعطى مكاناً لإبليس في قلوبنا، فكيف إذن يطلب إلينا أن نغضب قائلاً: "اغضبوا ولا تخطئوا"؟ أليس من الواضح أنه يعني "اغضبوا على سقطاتكم وحدة طباعكم"؟ لئلا إذا استسلمتم لها يشرع المسيح شمس البر في الغروب عن عقولكم المظلمة، وحين ينصرف عنكم تصبح قلوبكم مرتعاً لإبليس؟

الفصل العاشر

في الشمس التي قيل أنه ينبغي ألا تغرب على غيظكم

عن هذه الشمس نطق الوحي الإلهي على لسان النبي قائلاً: "ولكن أيها المتقون اسمي، تشرق شمس البر والشفاء في أجنتها" (مل ٢: ٤). أيضاً يُقال أنها "تضرب" في منتصف النهار على الخطاة والأنبياء الكذبة وأولئك الذين يغضبون حين يقول النبي: "إني أغيب شمسهم في الظهر" (عا ٩: ٨). على أية حال فإن العقل أو القوة العاقلة، التي تسمى بحق الشمس، لأنها تشرق على جميع الأفكار وإشراقات القلب، يجب عدم إطفائها بخطية الغضب، لئلا عند "غروبها" تتسلل ظلال الانزعاج في صحبة إبليس منشئها، إلى قلوبنا وتملاً حناياها، وإذا تظلمت ظلال الغضب كأنها ظلام الليل الحالك لا نعلم ماذا ينبغي أن نفعل. هذا المعنى هو الذي دعانا أن نقدم هذه الفقرة من أقوال الرسول، التي تسلمناها من تعاليم الآباء، لأن الحاجة كانت تدعو، ولو بالتعرض لبحث مطول، لبيان مدى شعورهم فيما يتعلق بالغضب، لأنهم لا يصرحون، ولو إلى لحظة واحدة أن نجعله يلج إلى قلوبنا، ملتزمين بعناية بالغة قول الإنجيل المقدس: "كل من يغضب على أخيه يكون مستوجب الحكم" (مت ٥: ٢٢). أما إذا كان الغضب حتى الغروب مباحاً، فإن فيض سخطنا وانتقام غضبنا سيتمكنان من إطلاق عنان انفعال عارٍ خطر قبل أن تميل تلك الشمس نحو الغروب.

الفصل الحادي عشر

فيمن لا يضع غروب الشمس ذاته حدًا لسخطهم

ماذا أقول عن الذين لا يضع غروب الشمس ذاته حدًا لحقدهم، بل يطيلونه بضعة أيام، ويغذون شعور الغل والكراهية في أنفسهم ضد الذين أثاروهم، وعلى الرغم من ذلك يقولون أنهم غير غاضبين، لكنهم في الواقع وبالفعل مضطربون إلى حد الإسراف؟ (لا أستطيع ذكر ذلك دون أن أشعر بالعار من جانبي)... لأنهم لا يتكلمون معهم بلطف ولا يلتزمون بأبسط قواعد المجاملة عند مخاطبتهم لهم، ويظنون أنهم لا يخطئون بهذا التصرف. لأنهم لا ينشدون الأخذ بالتأثر عن مضايقتهم. إن كانوا لا يتجاسرون على ذلك، أو على أي وجه لا يقدرون على الإفصاح عن غضبهم، وإطلاقه من محبسه، فإنهم يمتصون سم الغضب ويرعونه سرًا داخل قلوبهم، مسيئين إلى أنفسهم أبلغ إساءة، دون محاولة لتتقية عقولهم من هذه النزعة العابسة المتبرمة، لكنهم بمرور الأيام يهضمونها في أحشائهم، وبعد حين تتلطف حدتها نوعاً ما.

الفصل الثاني عشر

كيف أن خاتمة المطاف فيما يتعلق بنوبات الغضب

هي أن تستبد بالمرء فيطلق لها العنان

يبدو أن هذا ليس هو خاتمة المطاف لكل إنسان، لكن البعض يستطيعون فقط إشباع سخطهم واستيائهم إذا هم أفصحوا عن ثورة الغضب ما استطاعوا. وهذه كما نعلم هي حالة الذين يكتبون مشاعرهم، لا بغية تهدئتها، إنما لعدم سنوح فرصة الانتقام، ذلك لأنهم غير قادرين أن يفعلوا شيئاً للساخطين عليهم سوي إغفال قواعد المجاملة المعتادة عندما يخاطبونهم، أو يبدو أن الغضب لا يتييسر تلطيفه إلا بالفعل فحسب، دون استئصاله من مكمنه الخفي في صدورنا. هكذا في قتام ظلاله السوداء نعجز ليس فقط عن تقبل النصيحة الرشيدة والمعرفة الصحيحة، بل نخفق أيضاً عن أن نكون هيكلًا للروح القدس، مادام روح الغضب ساكنًا فينا، ولكن السخط الذي

يتربّع ويتغذى داخل القلب، مع أنه قد لا يؤذي الواقفين عن كذب، فإنه يطمس بهاء تألق الروح القدس، كالسخط الذي يطلق له العنان سواء بسواء.

الفصل الثالث عشر

في أنه من واجبا ألا نستقي غضبنا حتى ولو لحظة واحدة

كيف يمكننا الاعتقاد أن الرب قد يسمح باستبقائه ولو إلى لحظة واحدة، في حين أنه لا يأذن لنا أن نقدم قرابين صلواتنا الروحية إذا تذكرنا أن ثمة أحدًا يشعر بمرارة من نحننا قائلاً: "إن قدمت قربانك إلى المذبح، وهناك تذكرت أن لأخيك شيئاً عليك، فاترك هناك قربانك قدام المذبح، واذهب أولاً: اصطاح مع أخيك، وحينئذ تعال وقدم قربانك" (مت ٥: ٢٣). كيف إذن نظل مخلصين أحياناً لنا؟ لن أقول لبضعة أيام، بل حتى إلى غروب الشمس، مادام غير مصرح لنا برفع صلواتنا إلى الله بينما يوجد من له شيء علينا؟ ومع ذلك فالرسول يوصينا قائلاً: "صلوا بلا انقطاع" (١ تس ٥: ١٧). وأيضاً: "في كل مكان رافعين أيادي طاهرة بدون غضب ولا جدال" (١ تي ٢: ٨). إذن إما أننا لا نصلي على الإطلاق، محتفظين بهذا السم في قلوبنا، ونصبح مذنبين فيما يتعلق بهذه الوصية الرسولية أو الإنجيلية التي أمرنا بها أن نصلي في كل مكان ودون انقطاع، وإلا إن تجاسرنا على تقديم صلواتنا، خادعين أنفسنا، وغير آبهين بوصيته، فلزاماً علينا إدراك أننا لا نقدم أية صلوات لله، إنما نقدم سلوكاً عنيداً بروح متمرده.

الفصل الرابع عشر

في مصالحة إخوتنا

إذ كنا كثيراً ما نمتن إخوتنا الذين نؤذيهم ونحزنهم ونستصغر شأنهم، ونقول إننا لم نضرهم بأي خطأ من جانبنا، فإن شافي النفوس، المطلع على جميع أسرارنا، لرغبته الكاملة في أن يبدد من قلوبنا كل أثر للغضب، لا يوصينا فقط بأن نغفر لمن يسيئون إلينا، ونصالح إخوتنا، وألا نحتفظ في ذاكرتنا بأية إساءة أو تعديت ارتكبوها ضدنا، إنما يكلفنا أيضاً بأننا إذا شعرنا بأن لهم أي شيء ضدنا، سواء كانوا على حق أو على غير حق، أن نترك قرباننا. بمعنى أن نرجئ صلواتنا ونسارع أولاً لاسترضائهم ومصالحتهم، وعندما يتم علاج هذا الأخ نستطيع عندئذ أن نقدم قربان صلواتنا دون عيب، لأن الرب إله الجميع لا يعنيه كثيراً قرابيننا قدر ما يعنيه فقده شخص ما، بسبب تركنا للسخط يتحكم فينا. لأن خسارة أي إنسان يصيب الله، إذ هو يريد ويبحث عن خلاص جميع خدامه بخط واحد لا يتغير. ومن ثم فإن صلاتنا ستفقد أثرها إذا كان لأخينا أي شيء علينا. بالضبط كما لو رحنا نغذي مشاعر المرارة ضده بروح ساخطة متعالية.

الفصل الخامس عشر

تنص الشريعة القديمة على استئصال الغضب

ليس من الأفعال فقط بل ومن الأفكار أيضاً

لماذا نصرف مزيداً من الوقت في الاستشهاد بالوصايا الرسولية والإنجيلية، في حين أن الناموس القديم الذي يُظن أنه متساهل بعض الشيء يحذر من نفس الشيء، حين يقول: "لا تبغض أخاك في قلبك"، وأيضاً: "لا تحتد على أبناء شعبك" (لا ١٧: ، ١٨ ١٩). وكذلك يقول: "طرق الذين يحدثون تؤدي إلى الموت" (أم ٢٨: ١٢). هكذا ترى أن الشر منهى عنه ليس بالفعل فقط، بل ومن خفايا الفكر أيضاً، وفقاً للوصية التي تنص

على استئصال الشر من القلب، لا الانتقام عن الإساءة إلينا فحسب، بل ومجرد التفكير فيها.

الفصل السادس عشر

لا جدوى من خلوة أولئك الذين لا يتخلون عن سلوكهم الرديء

في بعض الأحيان عندما نقع فريسة للكبرياء ونفاد الصبر، ونريد إصلاح سلوكنا الجاف البغيض، نشكو بأننا في حاجة إلى العزلة، كما لو كنا سنجد فضيلة الصبر والاحتمال هناك حيث لا يثيرنا أحد. ونعتذر عن إهمالنا قائلين أن علة اضطرابنا لا تصدر من نفاذ صبرنا ولكن من خطأ اخوتنا. مادمنّا نحمل الآخرين وزر خطائنا، لن نستطيع قط أن نبلغ بغيتنا في الكمال والقدرة على الاحتمال.

الفصل السابع عشر

لا يعتمد سلام قلوبنا على إرادة الآخرين، بل في ضبطنا لعواطفنا

لزامًا علينا ألا نغلق الجزء الأكبر من إصلاح تفكيرنا وهدهو أنفسنا على إرادة أي شخص آخر، الأمر الذي لا يمكن بحال أن يكون خاضعًا لسلطاننا. إذ هو يكمن بالأحرى في ضبطنا لعواطفنا. وهكذا ينبغي ألا يكون عدم غضبنا نتيجة لكمال الآخرين، بل بسبب فضيلتنا الخاصة التي نحرزها لا عن طريق احتمال أي إنسان آخر لنا، ولكن لطول أناتنا وقدرتنا على الاحتمال.

الفصل الثامن عشر

في الحماسة التي ينبغي أن ننشد بها

الصحراء والأشياء التي نحرز فيها تقدمنا هناك

إن الكاملين والمتطهرين من جميع الأخطاء هم الذين ينبغي أن ينشدوا الصحراء. عندما يستأصلون تمامًا كل هفواتهم وهم وسط اخوتهم، عليهم أن يدخلوها ليس بدافع من الفرار والجبن، إنما بغية التأمل المقدس. ورغبة في إحراز بصيرة أكثر عمقًا للتغلغل بها في الأمور الإلهية، التي لا يتيسر إلا للكاملين أن يحصلوا عليها في العزلة والانفراد بأنفسهم. ذلك لأن أية سقطات تأتي بها إلى الصحراء قبل شفائنا منها نجد أنها باقية خفية فينا وليس بوسعنا التخلص منها. فعندما تصلح طباعنا، عندئذ فقط تفتح لنا العزلة أبوابًا أنقى لضروب التأمل على مصراعيها، وتلهم معرفة الأسرار الروحية لدى النظرة الصافية. العزلة لا تستبقى فقط، بل وتقوي أخطاء أولئك الذين لم يصلحوا أنفسهم من قبل. فالواقع أن المرء يبدو لنفسه صبورًا متواضعًا مادام بعيدًا عن الاحتكاك بأي شخص آخر، لكن سرعان ما يرتد إلى طبيعته الأولى كلما وقع ما يستدعي الإثارة من أي نوع، أعني أن تلك الأخطاء تطفو إلى السطح فورًا بعد أن ظلت مختفية. وكخيل مطلقة العنان، معنيّ بإطعامها خلال فترة طويلة جدًا من البطالة، تنطلق متخطية الحواجز بمزيد من اللهفة والشراسة لتطحم سائق المركبة التي تجرها.

عندما تزول فرصة ممارسة أخطائنا بين الناس، تتزايد في أعماقنا أكثر فأكثر، ما لم نكن قد تطهرنا منها قبل ذلك. إن مجرد ظلال الصبر الذي يبدو حين نختلط باخوتنا كأننا نمتلكه، في القليل بدافع من الاحترام لهم وحسن السمعة، نفقده بالكمال بسبب الكسل والإهمال اللذين كانا علة ترك العالم.

الفصل التاسع عشر

مثال يساعد على تكوين فكرة عن

الذين يصيرون فقط إذا لم يُثَرَّم أحد

هذا يشبه كل أنواع الأفاعي السامة والوحوش الضارية التي لا تؤذي مادامت وحيدة داخل أوجرتها. ذلك لأنه لا يمكن في الواقع الزعم بأنها غير مؤذية لأنها لا تؤذي بالفعل أحدًا. لأن هذا ناتج لا عن أي شعور بالخير، إنما بسبب ما تفرضه العزلة. وحين تنهيا لها الفرصة لإيقاع الضرر بأي أحد، سرعان ما تنفث السم المختزن فيها، وتكشف عن شراسة طبعها.

هكذا في حالة الذين يبتغون الكمال، لا يكفي ألا يغضبوا من الناس، فإننا نذكر أننا حين كنا نعيش في عزلة، كان يتسلل إلى نفوسنا شعور الغضب ضد القلم الذي نستعمله لزيادة طوله أو زيادة قصره، أو ضد المطواة لعدم حدثتها، أو ضد حجر القداحة إذا طارت منه شراره تعطلنا عن المطالعة. فلا نتخلص من اضطراب ذهننا بسبب مادة جامدة أو الشيطان. وهكذا باطلاً نظن بلوغ الكمال لعدم وجود من يثيرون غضبنا. فمادام لم يتم نوال الصبر فإن مشاعر السخط التي مازالت كامنة في قلوبنا يمكن إطلاق العنان لها ضد جماد أو شيء تافه، ولا نتيح لنا بلوغ حالة دائمة من السلام، أو التخلص من رواسب سقطاتنا، اللهم إلا إذا اعتقدنا أننا قد نحرز بعض النفع، ونحقق لونا من الشفاء من انفعالاتنا، إزاء الواقع من أن الأشياء العديمة النطق والحياة لا تستطيع الرد على سبنا لها وسخطنا عليها أو أن تدفع نوبات غضبنا المطلقة العنان لأن تنفجر في ثورة عارمة مخبولة أسوأ وأنكى.

الفصل العشرون

الطريقة التي ينبغي أن نستبعد بها الغضب وفقاً للكتاب المقدس

لو رغبتنا في إحراز جوهر الجائزة الإلهية التي قيل بصدها: "طوبى للأتقياء القلب لأنهم يعاينون الله" (مت ٥: ٨)، علينا ليس فقط أن نستبعد الغضب عن أفعالنا، بل وأن نقتلعه تماماً من أعماق نفوسنا. ذلك لأنه لن يجدي فتيلاً أن نكتب الغضب في ألفاظنا ولا نظهره في أفعالنا، مادام الله الذي لا تخفى عنه أسرار القلوب يرى أنه مازال باقياً في خفايا صدورنا. إذ أن كلمة الإنجيل تأمرنا أن نستأصل جذور سقطاتنا وليس ثمارها. لأن هذه عند إزالة جميع الجذور لن تنبت من جديد دون شك. ومن ثم فإن العقل يستطيع الاستمرار في الصبر والقداسة عند إزالة هذا الغضب، ليس من سطح الأفعال والأعمال، إنما من أعماق الأفكار. فلتجنب ارتكاب جريمة القتل يُنزع الغضب والكراهية اللذين بدونهما لا يمكن أن تُرتكب جريمة القتل، لأن "من يغضب على أخيه يكون مستوجب الحكم، وكل من يبغض أخاه فهو قاتل نفس" (١ يوح ٣: ١٥). لأنه في قلبه يود أن يقتل ذاك الذي نعلم تماماً أنه لم يسفك دمه بين الناس ببيده أو بسلاح ما. ومع ذلك فبحكم انفجار غضبه يعلن الله أنه قاتل. فالله يحاسب كل إنسان، ليس فقط وفق نتيجة أعماله، ولكن وفق قصده ورغباته وأمنيته، إما ثواباً أو عقاباً. حسب قوله على لسان النبي: "أنا أجازي أعمالهم وأفكارهم" (إش ٦٦: ١٨). وأيضاً قوله: "وأفكارهم فيما بينها مشنكية أو محتجة، في اليوم الذي فيه يدين الله سرائر الناس" (رو ٢: ١٥)...

الفصل الثاني والعشرون

ضروب العلاج التي نستطيع أن نستأصل بها الغضب من قلوبنا

ينبغي على المجاهد من أجل المسيح قانونياً أن يستأصل شعور السخط. والعلاج الناجح لهذا المرض هو أن نعتمد بالدرجة الأولى على ألا نغضب إطلاقاً، لا باطلاً ولا على غير باطل، لعلنا أننا سرعان ما نفقد

نور البصيرة وحسن التمييز، وأمن المشورة الحكيمة، مع استقامة الرأي، وسلامة التقدير عندما تحجب ظلال الغضب وهج الضوء الأساسي في قلوبنا. وثانيًا لأن نقاء نفوسنا سرعان ما يتبدد ويختفي، ومن ثم لا نستطيع هذه النفوس أن تظل هيكلًا للروح القدس، مادام روح الغضب كامنة فيها. وأخيرًا فإننا نشعر أنه لا ينبغي أن نصلي قط، ولا أن نسكب ابتهالاتنا أمام الله مادمنًا غاضبين. وفوق كل هذا، إذ أمام أنظارنا حالة الجنس البشري المتقلبة. ينبغي ألا نغفل أننا في أي يوم لابد سنفارق الجسد سريعًا، وأن عافنا وكبح شهواتنا، وتخلينا عن جميع أملكنا واحتقارنا للثروة، وجهودنا في الأصوام والأسهار، لن نفعنا بشيء على الإطلاق، مادام قاضي الأثام سيجازينا بالعقاب الأبدي جزاء وفاقًا على ما يستبد بنفوسنا من سخط وحق.

مؤسسات نظام الشركة للقدّيس يوحنا كاسيان

٩

في روح الاكتتاب^١

حياة متهللة سماوية!

مع صغر الكتاب الذي سجله لنا القدّيس يوحنا كاسيان في مقاومته لخطية الكآبة، إلا أن تخصيص كتابٍ رهبانيٍّ يُهاجم الكآبة كأحد الخطايا الرئيسية، إن صح التعبير، له معناه الخاص في الفكر المسيحي الأول. في حديثنا عن هذا الكتاب في الفصل الخاص بكتابات القدّيس يوحنا كاسيان رأينا أن المسيحية هي دعوة للتمتع بالفرح السمائي لا للكآبة القاتلة. وقد حذرنا القدّيس يوحنا كاسيان من هذه الخطية المرة، مؤكّداً أن علتها ليس أخطاء من هم حولنا، بل فراغ القلب الداخلي. فقد جاء مسيحنًا يطلب منا دموع التوبة، الحزن البناء، المملوء رجاءً، يفتح عيني النفس على أبواب السماء لتفرح ويفرح معها السمائيون.

لعله من أخطر الخطايا التي يسقط فيها كثيرون في العصر الحديث هو اليأس وصغر النفس وفقدان الهدف مما يدفع النفس إلى حالة من الكآبة تهدم كيان الإنسان الداخلي، وتُحطم رجاءه في الرب.

بُهر القدّيس كاسيان وغيره من رجال الغرب الذين جاءوا إلى مصر ورأوا البراري قد تحولت إلى فراديس مملوءة فرحاً. عبّر عن ذلك بقوله إنه إذ عبّر من الإسكندرية حتى أقصى جنوب مصر، كان يسمع صوت التهليل يصدر عن الأديرة والقلالي والمغائر حتى تساءل: تُرى هل هؤلاء ملائكة نزلوا على الأرض أم أناس ارتفعوا إلى السماء؟!^٢

إذ انجذب القدّيس يوحنا الذهبي الفم إلى روح الفرح الذي عمّ الرهبنة، قال في إحدى عظاته على إنجيل القدّيس متى: ["هلموا إلى برية مصر لتروها أفضل من كل فردوس! ريوات الطغمت الملائكية في شكل بشري... لقد تهدم طغيان الشيطان وأشرق ملكوت المسيح ببهائه!... السماء بكل خوارسها ليست في بهاء برية مصر الممتلئة من قلالي النساك!"]^٣

تحتاج مفاهيمنا إلى مراجعة، فالحديث المستمر عن الخطية يُحطم الرجاء، لكن الكنيسة الأولى مع دعوتها المستمرة للتوبة ركزت أنظارها على الصليب، لتردد مع داود التائب: "رَدّ لي بهجة خلاصك!"

في هذا الكتاب يسجل لنا القدّيس كاسيان.

^١ ترجمة: الراهب باسيليوس السرياني (السابق).

^٢ In Matt. Hom ٨:٦, PG ٥٨:٨٧.

١. الكآبة هي عدو النفس، كالعث المفسد للثياب، والسوس الذي يفسد الخشب (فصل ٣).
٢. كثيرًا ما نسقط في هذه الخطية كثمرة لشعورنا بالفشل والإهمال، وعجزنا عن النمو الروحي (فصول ٦، ٤، ٨).
٣. وراء الكآبة فراغ النفس لا أخطاء الآخرين التي نحاول أن نتعلل بها (فصل ٥).
٤. يليق بنا التمييز بين الحزن المفرط المفترس للنفس والحزن الروحي الذي يملأ النفس سلامًا داخليًا (فصول ١٠-١٢).
٥. التأمل في المجد الأبدي المُعد لنا والبهجة الإلهية المرتقبة هما دواء النفس للشفاء من الكآبة (فصل ١٣).

القمص تادرس يعقوب ملطي

الفصل الأول

خامس صراع لنا موجه ضد روح الاكتئاب

وما يصيب به النفس من أضرار

في خامس صراع لنا، علينا أن نقاوم نوبات الاكتئاب المهلكة: ذلك لأنه لو أُتيحت لهذه النوبات، عن طريق هجمات متفرقة طائشة، وتغيرات عشوائية غير متوقعة، فرصة التسلط على تفكيرنا، لإعاقتنا باستمرار، عن كل استرسال حكيم في التأمل الإلهي، ولدمرت تمامًا وأحبطت العقل الذي ينحدر من حالة نقائه الكامل. ومن ثمَّ يتعذر عليه أن يمارس صلواته كما اعتاد ببهجة قلب، أو أن ينتفع بما تُضيفه مطالعة الأسفار المقدسة من تعزية، أو أن يعامل الإخوة بالهدوء والرفق، بل تجعله عنيفًا، ضيق الصدر في إتمام جميع الواجبات المتعلقة بالعمل والعبادة، وما دامت كل مشورة صالحة قد صارت هباءً، وسلامة القلب تبددت، فإن المشاعر قد تنهار حتى تصل إلى حافة الخبل والسفه، ويستبد بها القنوط جزاءً لها.

الفصل الثاني

في العناية اللازمة لشفاء مرض الاكتئاب

لماذا ينبغي علينا، إن كنا جادين في إتمام الجهاد القانوني بمعركة قتالنا الروحي، أن نسعى لعلاج هذا المرض أيضًا، بعناية ليست بقليلة؛... ذلك لأنه كما أن "العث يفسد الثياب، والسوس يفسد الخشب، هكذا فإن الاكتئاب يفسد قلب الإنسان" (أم ٢٥: ١٠ "الترجمة السبعينية")... وهكذا في وفرة من وضوح تام ودقة المعنى عبّر الروح القدس عن عنف هذه السقطة الخطرة الممعة في الضرر.

الفصل الثالث

بماذا تُقارن النفس التي تقع فريسة لنوبات الاكتئاب

كما أن الثوب الذي يفسده العث لا يعود ذا قيمة تجارية أو ذا نفع على الإطلاق، وكذلك الحال مع الخشب الذي يفسده السوس لا يعود صالحًا للاستعمال حتى في بناء عادي، بل يلزم أن يصبح طعامًا للنار، كذلك أيضًا النفس التي تقع فريسة لنوبات الاكتئاب الملحة المهلكة، تصبح غير أهل لذلك الثوب الكهنوتي الذي هو وفقًا لنبوذا داود البار، طيب الروح القدس النازل من السماء، أولاً على لحية هارون، ثم على هُذب ثوبه، كما جاء بالمزمور: "مثل الطيب على الرأس النازل على اللحية، لحية هارون النازل إلى طرف ثوبه" (مزمور ١٣٣: ٢).

كذلك لا يمكن أن يكون لنا نصيب في تشييد أو تجميل ذلك الهيكل الروحي الذي وضع القديس بولس أساساته، كبناء حكيم قائلاً: "أنتم هيكل الله وروح الله يسكن فيكم" (١ كو ٣: ١٦، ١ كو ٦: ١٩). وما هي الألواح الخشبية التي لهذا إلا كما تقول العروس في نشيد الأنشيد: "جوائز بيتنا أرز وروافدنا سرو" (نشيد ١: ١٦)، وهكذا فإن هذه الأنواع المنتقاة من الخشب لهيكل الله ذات رائحة ذكية وغير معرضة لأن تتآكل أو تبلى من طول الزمن أو نخر السوس.

الفصل الرابع

من أين يبرز الاكتئاب؟ وعلى أي وجه؟

أحياناً يتضح أنه ناتج عن سقطة غضب سابق، أو عن رغبة في بعض الكسب الذي لم يتحقق، حين يجد إنسان ما أنه عجز عن تحقيق أمله في نوال تلك الأشياء التي استهدفها وخطط لها.

وأحياناً أخرى، دون أي سبب ظاهر في استدراجنا للوقوع في هذه المحنة تحل علينا فجأة بغواية العدو الخبيث كآبة بالغة لا نستطيع معها أن نستقبل، في أدب لائق، زيارات أقرب الناس وأعزهم إلينا، حتى لنعتبر أن أي موضوع للحديث يطرقونه جاء سقطاً وفي غير موضعه! كذلك نعجز عن الرد المهذب بسبب المرارة التي تستولي على كل ركن من أركان قلوبنا.

الفصل الخامس

تقع علينا الاضطرابات ليست بسبب أخطاء الآخرين بل بسبب أخطائنا

حيث ثبت في وضوح أن أوجاع الاضطرابات لا تحدث فينا دائماً عن طريق أخطاء الآخرين، إنما عن طريق أخطائنا، لأننا اخترنا في أنفسنا بواعث التعدي، وبذور السقطات، التي ما يكاد رذاذ من التجربة يبلل نفوسنا، حتى تبرز فوراً في نبت وثمر.

الفصل السادس

ليس ثمة أحد يقع في الحزن بسبب سقطة مفاجئة،

لكنه يتحطم لسقوطه في سلسلة طويلة من ضروب الإهمال

ما من أحد ينساق إلى الخطية مُثَارّاً بخطأ شخص آخر ما لم يكن لديه وقود الشر مختزناً في قلبه، كذلك ينبغي ألا نتوهم أن رجلاً تتم غوايته فجأة حين يتطلع إلى امرأة فيقع في هوة الشهوة المشينة، إذ الواقع أن فرصة رؤيته لها جذبت إلى السطح أعراض المرض التي كانت مخفية ومخبأة في أعماق نفسه.

الفصل السابع

ينبغي ألا نتخلى عن التعامل مع إخوتنا سعياً وراء الكمال،

لكن يحسن أن نزرع على الدوام فضيلة الصبر والاحتمال

هكذا فإن الله، خالق جميع الأشياء لاهتمامه فوق كل شيء بكمال وحسن صنعه، ولأن جذور سقطاتنا وأسبابها لا علاقة لها بالآخرين إذ هي داخل نفوسنا، تعطى لنا الوصية بالألا نتخلى عن الاتصال باخوتنا، وألا نتجنب أولئك الذين نطن أننا أسأنا إليهم، أو هم أسأوا إلينا، بل يلزمنا مصالحتهم وتهديده نفوسهم، عالمين أن كمال القلب لا يحزره الإنسان بالابتعاد عن الناس واعتزالهم قدر ما يحزره عن طريق فضيلة الاحتمال والصبر، التي إذا تمسكنا بها حقاً وفرت لنا أسباب السلام حتى مع أولئك الذين يبغضون السلام. لذلك إن لم نحرزها، نصبح على الدوام غير نظراء للكاملين ومن هم أفضل منا، ذلك لأن الرغبة في الابتعاد عن من تربطنا بهم أوأصر الوداد لا تدوم طويلاً ما دمنا نعيش بين الناس، لذلك لن نحظى بكامل الفرار والنجاة إنما يلزم أن نغير بواعث الاكتئاب التي من أجلها افترقنا عن أصدقائنا الأولين.

الفصل الثامن

إن أحسنا سلوكنا تيسر لنا التفاهم مع جميع الناس

لزم علينا أن نسعى جاهدين لإصلاح أخطائنا ومعالجة سلوكنا، فإذا ما وُفِّقنا في ذلك توفرت لنا أسباب السلام دون أدنى شك، ليس مع البشر فحسب، بل وحتى مع الحيوانات والوحوش، مصدقين ما جاء في سفر أيوب المطوّب: "لأن وحوش البرية تسالمك" (أى: ٥-٢٣). لأننا لن نخشى أية ضروب للإثارة تأتي إلينا من الخارج، ولا أية فرصة للسقوط تزعجنا، مادامت لا تلج أو تغرس داخل نفوسنا: لأن "سلامة جزيلة

لمحبي شريعتك وليس لهم معثرة" (مز ١١٩: ١٦٥).

الفصل التاسع

نوع آخر من الاكتئاب يؤدي إلى القنوط من الخلاص

يوجد أيضًا نوع بغيض من الاكتئاب، الذي لا يولد في النفس المذنبة عزمًا على تطهير الحياة من الشر أو إصلاح الأخطاء، إنما يغذيها باليأس المؤدى للهلاك، كما حدث مع قايين الذي لم يندم ويتب بعد قتله لأخيه، ومع يهوذا الاسخريوطي، بعد خيانتته، فإن يأسه لم يدفعه لترك الشر بل أدى به إلى شنق نفسه.

الفصل العاشر

الشيء الوحيد الذي ينفنا به الحزن

علينا أن نعلم أن الحزن يفيدنا في حالة واحدة فقط، حين ندعن له إما في الندم علي الخطيئة، أو يدفعنا للتعطش نحو الرغبة في الكمال، أو التأمل في متعة العطف الإلهي، وعن هذا يقول الرسول المطوب: "لأن الحزن الذي بحسب مشيئة الله ينشئ لخلاص بلا ندامة، وأما حزن العالم فينشئ موتًا" (٢كو ٧: ١٠).

الفصل الحادي عشر

كيف نميز بيت الحزن النافع الذي هو حسب مشيئة الله،

والحزن المهلك الذي يوحى به إبليس؟

الاكتئاب أو الحزن الذي "ينشئ توبة لخلاص بلا ندامة" يجعل الإنسان مطيعًا، مهذبًا، متواضعًا، عطوفًا، لطيفًا، طويل الأناة، ذلك لأنه نابع من محبة الله. وهو ينبعث دون ملل أو كلل، من رغبة في الكمال، ممتدًا إلى كل أسى جسدي أو حزن روحي، بطريقة أو بأخرى، إذ يبتهج ويتغذى على رجاء لنفعه الخاص، يحتفظ بلطف معاملته وطول أناته، ذلك لأن في ذاتها كل ثمار الروح القدس، التي قدم الرسول نفسه قائمة بها: "وأما ثمر الروح فهو محبة، فرح، سلام، طول أناة، لطف، صلاح، إيمان، وداعة، تعفف" (غل ٥: ٢٢-٢٣).

أما النوع الآخر من الحزن فهو عنيف، ضيق الصدر، قاس، مفعم بالحقد، والأسى الذي بلا نفع، واليأس القاتل، لهذا فهو يحطم الشخص الذي يتعلق به، ويُعوِّقه عن الحزن السليم الصحي، لأنه غير معقول، ويُفقد طاقته. فهو لا يعطل الثمار المرجوة من صلاته فحسب، لكنه إلى جانب ذلك يهلك فعلاً كل ثمار الروح القدس التي عدناها، والتي يعرف النوع الأول من الحزن كيف ينتجها.

الفصل الثاني عشر

فيما عدا ذلك الحزن السليم الصحي الذي يبرز في ثلاثة طرق،

ينبغي مقاومة كل حزن أو اكتئاب يسفر عنه ضرر

أجل، فإنه فيما عدا الحزن الذي يُقبل لأجل توبة الخلاص، سعيًا وراء الكمال، أو إثارة للحياة القادمة، لا مناص من مقاومة كل حزن واكتئاب يتعلق بهذا العالم، ومادام كذلك "مؤديًا إلى الموت" فلا بد من استئصاله من قلوبنا كروح الزنى والطمع والغضب.

الفصل الثالث عشر

الوسائل التي بها نستطيع أن نقتلع جذور الاكتئاب من قلوبنا

ينبغي علينا إذن أن نكون قادرين على أن ننزع من قلوبنا هذه النزعة المفرطة في الضرر، كي نستطيع بالتأملات الروحية أن نجعل عقولنا مشغولة دائماً بالرجاء في المستقبل وتدبر وعود البهجة الإلهية المرتقبة. فهذه الوسيلة يتيسر لنا الإفادة من كل أنواع هذا الاكتئاب، سواء في ذلك ما نشعر به بسبب العجز عن الكسب، أو ضياع شيء ما أو الإساءة إلينا، أو لإثارة طائشة تستبد بالعقل.

أولاً، ذلك النوع الذي يملأنا قنوطاً مميئاً ومن ثم نبتهج بالتغلغل روحياً إلى أعماق الأمور الخالدة والمستقبلية، والاستمرار في الكف عن عدم الاستقرار، فلا نكتئب لما يصيبنا في الحاضر من كوارث، أو نسرف في الابتهاج بالنجاح والازدهار، إنما نرنو بأبصارنا إلى كل حالة منها باعتبار أنها غير ثابتة ومن المحتمل زوالها سريعاً.



المؤسسات لنظام الشركة

للقدّيس يوحنا كاسيان

١٠

في روح الضجر أو الملل^١

مقاومة الضجر بالعمل لا بالهروب!

يقدم لنا القدّيس يوحنا كاسيان عرضاً عملياً عن مشكلة "الضجر" الذي يُصيب الراهب في الظهيرة، ويدعوه "شيطان الظهيرة".

علامات الضجر هي:

- شعور الراهب أنه ليس في الموضع اللائق به، فإنه كان يمكنه أن يلتحق بدير آخر ينتفع منه، وينفع هو كثيرين.
- يصارع مع أفكار النقد اللاذعة ضد الدير ورؤاسته وروحانيته، ويسيطر عليه روح الملل.
- يشعر بإرهاقٍ جسديٍّ شديدٍ مع جوع.
- يظن أنه لن يتخلص من الضجر إلا بزيارة أحد الإخوة إليه، إذ يشعر أنه لا يوجد من يهتم به ويُقدّره؛ أو باللجوء إلى النوم؛ أو الخروج لتقديم خدمة، خاصة للجنس الآخر.

أما علاج الضجر فيكمن في تدريبين هامين:

التدريب الأول: هو العمل الدائم لإشباع احتياجاته واحتياجات الآخرين، فلا يكون عالة على الغير. وإن كان الدير غير محتاج فإنه يعمل لأجل بنيانه الروحي. وإن كان في عزلة بعيدة جداً ولا يوجد نفع مادي من العمل... يعمل ويحرق ما قد أنتجه.

التدريب الثاني: عدم الخروج من القلاية، حتى للذهاب إلى أب الاعتراف، فإن شيطان الضجر يذل الإنسان الهارب من موضعه ويستعبده. ليصمد الراهب في قلايته كما في معركة روحية، ولا يلقي بسلاحه ويهرب!

يقدم لنا القدّيس يوحنا كاسيان في شيء من الإطالة اهتمام الرسول بولس بالعمل اليدوي، إذ يقدم نفسه قدوة، كما يوصي بروح الأبوة الحانية مع الحزم الصارم بخصوص التزام المؤمن بالعمل والهروب من التراخي والكسل.

^١ ترجمة: الراهب باسيليوس السرياني (السابق).

ويحدثنا القديس أوغريس عن الضجر، قائلاً:

[في وقت التجربة لا تغادر قلايتك، منتحلاً لنفسك أعاراً تبدو لك أنها صحيحة، خاصة إن هاجمك شيطان الضجر، الذي هو بالحقيقة أشر جميع الشياطين، لكنه الوحيد من بينهم الذي يقدم للنفس خبرة. إذا ما هربت أو تحاشيت المعركة، يظل عقلك عديم الخبرة، جباناً، يهرب بسهولة^٢.]

ويتحدث عن شيطان الظهيرة، قائلاً:

[تقف الشياطين التي تثير النفس بالحاح وتزعجها حتى الموت، أما الشياطين التي تثير حركة شهوة الجسد فتتقهقر بأكثر سهولة من الأولى.

أضف إلى هذا أن بعض الشياطين تشبه الشمس المشرقة أو التي تغرب، تلمس جانباً واحداً من النفس أو آخر، أما "شيطان الظهيرة" فقد اعتاد أن يُغلف النفس كلها ويُغرق الذهن^٣.]

أخيراً فإن هذه الحرب ليست خاصة بالرهبان وحدهم بل هي قائمة ضد كل نفس تود أن تنقدس للرب وأن تفعم بالتأمل في أسرارهِ والتمتع بشركة الطبيعة الإلهية.

الرب قادر أن يهبنا روح الجهاد الحيّ.

القمص تادرس يعقوب ملطي

^٢ توجيهات إلى أناتوليس عن الحياة العاملة ١٩.

^٣ توجيهات إلى أناتوليس عن الحياة العاملة ٢٥.

الفصل الأول

كيف أن سادس صراع لنا موجه ضد روح الضجر، وما هي صفته

أما سادس صراع لنا فهو موجه ضد ما يسميه اليونانيون بالضجر، أو ما يصح لنا ان ندعوه بالملل أو تعب القلب، وهو وثيق الصلة بالاكنتاب. يلاحق النساك بوجه خاص، وهو عدو خطر كثير التردد على سكان الصحراء. لا يزجج الراهب عادة إلا في الساعة السادسة، مثل الحمى التي يقع المرء فريسة لنوباتها، وما تسببه من ارتفاع شديد في حرارة المريض، خلال ساعات معينة منتظمة. وأخيرًا فتمة شيوخ يُعلنون أن هذه الروح هي "شيطان الظهيرة" الذي ورد ذكره في المزمور التسعين.

الفصل الثاني

وصف الضجر، والطريقة التي يتسلل بها إلى قلب الراهب،

والضرر الذي يلحق بالنفس

حين يستولي هذا على نفس تعيسة يسفر عنه كراهية للمكان، واشمئزاز من القلاية، واستصغار واحتقار للإخوة الذين يعيشون معه أو بالقرب منه، كما لو كانوا متهاونين أو غير حارين بالروح.

الضجر يجعل الإنسان أيضًا كسولًا مترخيًا في كل ضروب العمل الذي يلزم إنجازه حيث يقطن وينام، فلا يحتمل البقاء في قلايته، ولا يهتم بالمطالعة.

كما يجعله يُكثر من الشكوى، فيظن أنه لا يستطيع أن يعمل حسنًا مادام مقيمًا هناك، فيتنهّد ويتأوه لأنه لا يستطيع الإثمار مادام منضمًا إلى هذه الجماعة. ويتبرم من المكان الذي فيه، متحسرًا أنه لا يجتني منه أي نفع روحي، ويُظن أنه في استطاعته أن يقود الآخرين ويسدي النفع إلى عدد كبير من الناس، لأجل تنقيفهم أو إفادتهم بتعاليمه وإرشاداته.

يبالغ في إطرائه على الأديرة المختلفة والبعيدة، ويصف مثل هذه الأماكن بأنها أكثر نفعا، وأشد ملائمة للخلاص. إلى جانب ذلك يمتدح العلاقة بين الإخوة هناك وينعتها بالعذوبة وحرارة الروح. ومن ناحية أخرى يزعم أن كل شيء حوله جاف، وأنه ليس ثمة ما يعمل على تنقيف الإخوة المقيمين معه، بل أن طعام البدن ذاته لا يمكن الحصول عليه إلا بكل مشقة.

أخيرًا يتصور أن أحواله لن تتحسن أبدًا مادام مقيمًا في ذلك المكان، إلا إذا ترك قلايته وابتعد عنها بأسرع ما استطاع (إذ يعتقد أنه إذا بقي فيها يصير ميتًا لا محالة).

بعد ذلك في الساعة الخامسة أو السادسة يحل به تعب جسماني مع اشتياق للطعام، فيتخيل أنه مرهق كمن جاء من رحلة طويلة أو من قام بعملٍ شاقٍ مضنٍ، أو كمن مارس صومًا انقطاعيًا لمدة يومين أو ثلاثة.

إلى جانب هذا يتطلع حواليه هنا وهناك، ويتحسر أنه ليس أحد من إخوته من يأتي لرؤيته. ولا يكف عن دخول قلايته والخروج منها، متطلعًا إلى الشمس بين الفينة والفينة، كما لو كانت متباطئة جدًا في الغروب. ومن ثم فإن ضريًا من الارتباك الذي لا مبرر له يستبد بعقله، كفتامٍ دامسٍ يشله تمامًا عن كل الإنجازات الروحية، الأمر الذي يجعله يتخيل أنه لا نجاة له من هذه النوبة العارمة إلا بزيارة أحد الإخوة أو اللجوء إلى النوم وحده.

ثم يوحى إليه هذا المرض أن من واجبه أن يكون مجاملاً ودوداً نحو الإخوة، وأن يزور المرضى البعيدين عنه والذين عن قرب.

أيضاً يتحدث عن بعض المسئوليات تبدو له أنها واجبات دينية يلتزم بها، كأن يستفسر عن أحوال أقربائه بالجسد، وأن يذهب لزيارتهم من حين إلى آخر. ويرى أن من أعمال البر حقاً أن يكثر من زيارة تلك المرأة النقية التي كرّست حياتها لخدمة الرب، والمحرومة من كل عون أو قريب. وأنه من أروع الأعمال أن يسد احتياجات مثل هذه المرأة التي أهملها أهلها واستصغروا شأنها. وأن من واجباته الدينية أن يكرّس وقته لهذه الأمور بدلاً من أن يظل مقيماً في قلايته دون نفع أو إفادة.

الفصل الثالث

الطرق المختلفة التي يقهر بها الضجر راهباً

حين ترتبك النفس التلسة بمثل هذه الحيل من العدو، يستبد بها الانزعاج، حتى إذا ما أنهكها الضجر كهدفٍ أطلق عليه قذيفة، فتشعر أنها إما أن تتعلم أن تستغرق في النوم، أو أن تتعود أن تخرج من حبس القلاية، على أن تنشد السلوى ضد هذه الهجمات بزيارة أحد الإخوة، الأمر الذي يزيد من ضعفها بهذا العلاج الوقتي. ذلك لأن العدو يضاعف هجماته ويشند ضد من لاذ بالفرار من القتال، دون أن ينشد السلامة في الصمود والانتصار. وشيئاً فشيئاً يبتعد الإنسان تماماً عن قلايته، ويبدأ في نسيان هدف نذره، وهو أن يقصر تفكيره وتأملاته على ذلك النقاء الإلهي الذي يفوق جميع الأشياء، والذي لا يمكن إحرازه إلا بالصمت والبقاء الدائم في القلاية والتأمل. هكذا يصبح جندي المسيح هارباً من خدمة سيده ومن ميدان جهاده، ويشغل نفسه بالأمور الدنيوية دون إرضاء الرب الذي سبق أن كرس له نفسه.

الفصل الرابع

يعطل الضجر العقل عن كل تفكير في الفضائل

عبر داود عن جميع متاعب هذا المرض أجمل تعبير في آية واحدة، حيث يقول: "نعست نفسي من التعب"، يقصد بذلك الضجر. وهو على حق إذ يقول أن نفسه لا بدنه، هي التي نعست، إذ الواقع أن النفس التي تصيبها حربة الضجر لابد أن تنام وتغفو عن كل تأمل واستغراق في الحواس الروحية.

الفصل الخامس

نوبة الضجر ثنائية

ينبغي على المجاهد المسيحي الأمين الذي يبغى أن يجاهد قانونياً في قوائم الكمال أن يسارع إلى طرد هذا المرض من خفايا نفسه، وأن يُقاتل روح الضجر هذه، الممعة في الشر، في كلا الاتجاهين، لكي لا يقع صريعاً بحرية النوم، أو يُستبعد من حياة النسك بالدير، حتى إن كان بعذرٍ أو بذريعةٍ من التقوى، فيرحل كالآبق الهارب.

الفصل السادس

مدى ما يسفر عن الضجر من أضرار

حين يبدأ الضجر في هزيمة أي شخص بأي قسط، وعلى أي نحو، إما أن يدفعه للبقاء في قلايته عاطلاً كسولاً، دون تحقيق أي نجاح روحي، أو يبعده عنها، ويجعله قلقاً شاردًا، ليس له استقرار، متراخيًا في كل ضروب العمل، ودوارًا لا يكف عن الذهاب إلى قلايات اخوته، والتردد على مختلف الأديرة.

يصير غير مهتم إلا بأن يتلمس الأعذار لكي ينتعش بطعام أو شراب، ذلك لأن الكسلان العاطل لا يستطيع التفكير في أي شيء سوى الطعام والملذات.

إنه يحاول أن يحظى بصحبة رجل أو امرأة يكون أو تكون مثله في التبلد وعدم المبالاة، فيضيع وقته في شئونه ومشاغله. ومن ثم شيئًا فشيئًا يقع في حبال التزامات خطيرة لا يستطيع الفكك منها، وكأن ثعبانًا قد التقف حوله، وشل حركته، فلم يعد في مقدوره العودة إلى كمال نذره السابق.

الفصل السابع

أحاديث للرسول تتعلق بروح الضجر

إن الرسول المبارك، كطبيب حقيقي للروح، إما عن طريق رؤيته لهذا المرض الذي انبعث من روح الضجر، وتسلسل فعلاً (في أيامه)، أو عن طريق إدراكه مسبقاً بواسطة إلهام الروح القدس أن هذا المرض سيظهر بين الرهبان، أظهر بوضوح ما وصفه من أدوية شافية في إرشاداته.

ففي رسالته إلى أهل تسالونيكي، في مبدأ الأمر كطبيبٍ بارع قدم لمرضاه دواء كلماته الرقيقة الملطفة، مبتدئًا بالمحبة وممتدحًا إياها في تلك النقطة. فإن هذا الجرح المमित إذا عولج بدواء لطيف مقبول يتخلص الإنسان من حدة قروحه، ويسهل أن يحتمل علاجًا أشد وأقسى. يقول: "وأما المحبة الأخوية فلا حاجة لكم أن أكتب إليكم عنه، لأنكم أنفسكم متعلمون من الله أن يحب بعضكم بعضًا، فإنكم تفعلون ذلك أيضًا لجميع الإخوة الذين في مكدونية كلها" (١ تس ١٠: ٩).

ابتدأ أولاً باستخدام الثناء الملطف، وجعل آذانهم خاضعة ومستعدة لعلاج الكلمات الشافية. ثم استطرد قائلاً: "إنما أطلب إليكم أيها الإخوة أن تزدادوا أكثر" وهكذا يبالغ في الترفق بهم بعبارات لطيفة طيبة، خشية أن يجدهم غير مستعدين لتقبل علاجهم التام.

ما الداعي أيها الرسول أن تطلب منهم أن يزدادوا في المحبة، التي تكلمت عنها آنفًا: "وأما المحبة الأخوية فلا حاجة لكم أن أكتب إليكم عنها؟" ... وما الذي يُلزمك أن تقول لهم: "إنما أطلب إليكم أن تزدادوا أكثر" ما داموا ليسوا في حاجة للكتابة إليهم عن هذا الموضوع على الإطلاق؟ بخاصة أنك تضيف علة عدم حاجتهم قائلاً: "لأنكم أنفسكم متعلمون من الله أن يحب بعضكم بعضًا"، ثم تضيف شيئًا ثالثًا أكثر أهمية وهو أنهم ليسوا متعلمين من الله فقط، بل إنهم أيضًا ينفذون بالفعل ما قد تعلموه... "لأنكم تفعلون هذا". يقول لا لواحد أو اثنين بل "جميع الإخوة"... "في مكدونية كلها"... حبذا لو أخبرتنا إذن لماذا تعمدت هذا الاستهلال؟ مرة أخرى يستطرد قائلاً: "وإنما أطلب إليكم أيها الإخوة أن تزدادوا أكثر".

أخيرًا يُصرح في تردد وتثاقل بما كان يرمي إليه من قبل قائلاً: "وأن تحرصوا على أن تكونوا هادئين"، هكذا كشف عن الغرض الأول.

ثم يضيف غرضًا آخر قائلاً: "وتُمارسوا أموركم الخاصة".

ثم يضيف غرضًا ثالثًا: "وتشتغلوا بأيديكم أنتم كما أوصيناكم"،

وغرضاً رابعاً: "وتسلخوا بلياقة عند الذين هم من خارج"،
وغرضاً خامساً: "ولا تكون لكم حاجة إلى أحد".

الواقع أنه في استطاعتنا أن نقدم عذراً لعرض هذه المقدمات وإرجاء التقوه بما كان يملأ ذهنه: "وإن
تحرصوا على أن تكونوا هادئين"، بمعنى أن تقيموا في قلاياتكم ولا تتزعجوا بالإشاعات التي تتبعث عادة من
رغبات وثرثرة الكسالى، وهكذا تتسببون أنتم أنفسكم في إزعاج الآخرين...

كي "تمارسوا أموركم الخاصة"؛ ينبغي ألا تكونوا فضوليين تستطلعون شئون العالم، وتدسّون أنوفكم في
شئون الآخرين وحياتهم، فتبددون قواكم لا في اصلاح أنفسكم ونشد الفضيلة، إنما في انتقاص قدر اخوتكم.

"وتشتغلوا بأيديكم أنتم كما أوصيناكم"، ليضمن بذلك ألا يفعلوا ما سبق أن حذرهم منه، بمعنى أن من
واجبهم ألا يكونوا قلقين ولا فضوليين يدسون أنوفهم في شئون غيرهم من الناس، أو أن يسلكوا بغير لياقة عند
الذين هم من خارج، أو أن تكون لهم حاجة إلى أحد.

الآن يضيف قائلاً: "وتشتغلوا بأيديكم أنتم كما أوصيناكم"، ذلك لأنه أوضح في جلاء أن وقت الفراغ
هو علة حدوث تلك الأشياء التي وجّه اللوم بخصوصها آنفاً. فما من أحد يمكن أن يكون قلقاً أو فضولياً إلا
إذا كان غير راغب في العكوف على عمله الخاص.

يضيف أيضاً عاقبة وخيمة رابعة تتبعث هي الأخرى من هذا الفراغ، إذ ينبغي ألا يسلكوا بغير لياقة،
حين يقول: "وتسلخوا بلياقة عند الذين هم من الخارج". الواقع إنه لا يستطيع أن يسلك بلياقة، حتى بين الذين
من هذا العالم، من لا يرضى أن يتمسك بالعزلة في قلايته، ويعمل يديه. إذ ما من شك أنه سيسلك بغير لياقة
حين يبحث عما يحتاجه من الطعام، ويلجأ إلى النفاق، والجري وراء التعرف على الأخبار، وإثارة الإشاعات،
وتلمس الفرص للثرثرة، ورواية القصص التي قد تهئ له دخول منازل الآخرين والترحيب به فيها.

"ولا تكون لكم حاجة إلى أحد"... إنه متأكد أن من لا يهتم بأن يوفر لنفسه قوت يومه عاملاً بيديه في
هدوء وشعور بواجبه... ينظر إلى مواهب الآخرين وخبراتهم بعين الحسد... ها أنت ترى أية ملابس تتجم عن
مرض البطالة والفراغ ومدى خطورتها ومهانتها معاً.

أخيراً فإن هؤلاء الذين استخدم معهم في رسالته الأولى أرق العبارات عمد في رسالته الثانية إلى
علاجهم بوسائل أشد صرامة وقسوة، إذ لم ينتفعوا من علاجه اللطيف المترفق. بدلاً من أن يستخدم عبارة رقيقة
مثل: "أطلب إليكم أيها الإخوة" قال: "ثم نوصيكم أيها الإخوة باسم ربنا يسوع المسيح أن تتجنبوا كل أخ يسلك بلا
ترتيب" (٢تس ٣: ٦). هناك يطلب، وهنا يوصي ويستحلف. هناك نجد ترفقاً إذ يحث، وهنا نجد صرامة إذ يعترض
ويهدد.

"نوصيكم أيها الإخوة"، لأننا عندما "طلبنا منكم" في بداية الأمر سخرتم بنا ولم تتصتوا، فالآن لا أقل
من أن تطيعوا تهديدنا. إنه يلقي نوعاً من الرعب على هذه الوصية الأمرة مع استخدام اسم ربنا يسوع المسيح،
مُحذراً من غضبه، خشية أن يسخروا من كلامه مرة أخرى ظانين أنه مجرد قول بشري، ويتوهمون أنه قليل
الأهمية. ومن ثم فكتبيب مختبر ماهر يحاول العلاج بإجراء جراحة بسلاح روجي قائلاً: "أن تتجنبوا كل أخ
يسلك بلا ترتيب وليس حسب التعليم الذي أخذه منا" (٢تس ٣: ٦). هكذا يأمرهم أن يتجنبوا أولئك الذين لا
يُكرسون وقتاً للعمل، ويترهم كأعضاء من البدن شوّهتها قروح البطالة والفراغ، خشية أن ينتقل مرض التراخي

والكسل تدريجيًا إلى الأجزاء السليمة من الجسم، مثل بعض الأمراض المعدية المميتة.

حين يتكلم الرسول عن أولئك الذين لا يعملون بأيديهم، ويأكلون خبزهم في هدوء، يحثنا على تجنبهم. استمع إلى ما يدفعهم به من ضروب الملامة والتوبيخ عند استهلاله. فهو أولاً: يدعوهم "بلا ترتيب"، وأيضًا: "لا يسلكون حسب التعليم". وبعبارة أخرى يصفهم بالعناد لأنهم لا يسلكون وفق توجيهه، ويعدم اللياقة لأنهم لا يلتزمون بالآوقات اللائقة المضبوطة في خروجهم وزياراتهم وأحاديثهم. لأن الشخص غير المرتب يتعرض بالتأكيد لكل هذه الأخطاء.

"وليس حسب التعليم الذي أخذوه منا"، بهذا يوبخهم على أنهم على نحوٍ ما متمرّدون، ومستهزئون، قد استخفوا بالتعليم الذي أخذوه منه ولم يحرصوا عليه، ولم يتبعوا ما تذكروا أنه قد علمهم به لا باللفظ فحسب بل ومارسه بالفعل أيضًا... "إذ أنتم تعرفون كيف يجب أن يُتمثّل بنا" (٢تس ٣:٧).

يحشد الرسول كومة هائلة من التقرّيع واللوم حين يؤكد أنهم لم يراعوا ما لا يزال عالقًا بذاكرتهم. والذين تعلموه ليس فقط بالإرشاد الشفوي، بل تسلموه أيضًا في شخصه كقدوة في العمل لابد أن نُحتذى.

الفصل الثامن

الإنسان الذي لا يشتغل بيديه لابد أن يصبح قلقًا

"لأننا لم نكن قلقين بينكم"، أراد الرسول التدليل بأنه بممارسته العمل لم يكن قلقًا بينهم، مظهرًا تمامًا أن الذين لا يشتغلون يكونون دائمًا قلقين بسبب رذيلة الكسل...

"ولا أكلنا خبرًا مجانيًا من أحد"... هكذا يتقدم رسول الأمم في كل مرة خطوة جديدة في التوبيخ. فكارز الإنجيل يقول إنه لم يأكل خبرًا مجانيًا من أحد، مع أنه يعلم أن الرب أوصى "أن الذين ينادون بالإنجيل، من الإنجيل يعيشون" (١كو ٩: ١٤)، وأيضًا "الفاعل مستحق أجرته" (مت ١٠: ١١٠).

مادام كارز الإنجيل وهو يقوم بعملٍ على هذا القدر من السمو والروحانية لم يرد أن يشتغل وصية الرب بأن يأكل خبزه مجانيًا، كم بالأحرى يعوزنا بالحق ليس فقط أن نكرز بالكلمة بل وإلى جانب هذا لا نداوي أية نفوس سوى نفوسنا (بالاهتمام بالعمل بغير كسل).

كيف تجرّو أن تأكل خبزك مجانيًا في حين أن "الإثناء المختار"، وهو مقيد باهتمامه بالإنجيل وعمله في الكرازة، لم يجسر أن يأكل خبزه دون أن يشتغل بيديه...، فيقول: "بل كنا نشغل بتعب وكدّ ليلًا ونهارًا لكي لا ننقل على أحد منكم" (٢تس ٣: ٨)؟!

هكذا فإنه حتى هذه النقطة يتمنع عن التوبيخ ولا يُكثر منه، لأنه لم يقتصر على أن يقول: "ولو أكلنا خبزنا مجانيًا من أحد منكم"، ذلك لأنه كان من المحتمل أن يظن البعض أنه كان يتزود من دخلٍ خاص به ومن مالٍ ادخره، أو عن طريق أشخاص آخرين، دون الاستعانة بعطاياهم أو بما يجمعون. فهو يقول: "لكن كنا نشغل بتعب وكدّ ليلًا ونهارًا". يعني أنه كان يتزود من شغل يديه. ويستطرد الرسول قائلاً: إنه لم يفعل ذلك بدافعٍ من الرغبة في الاستمتاع بضرب من الرياضة البدنية، بل تحت ضغط من الحاجة إلى التزود بالطعام. وأن هذا كان يكلفه الكثير من الكد والتعب، ذلك لأنه ليس طوال النهار بأكمله، بل وأيضًا أثناء الليل، وهو الوقت المكرس لراحة البدن، يواصل العمل بيديه ليوفر لنفسه الطعام.

الفصل التاسع

ليس الرسول وحده بل والاثنان

الذان معه كانوا جميعهم يشتغلون بأيديهم

يشهد أنه ليس وحده الذي عاش على هذا النمط بينهم ، لئلا يظن الناس إذا اقتصر هذا النمط من العيش على الرسول وحده، أنه أمر غير هام أو ليس عامًا. ومن ثم فهو يعلن أن جميع الذين عُينوا لخدمة الإنجيل مثل سلوانس وتيموثاوس، الذين شاركوا في كتابة هذه، كانوا يعيشون مثله تمامًا. إذ يقول "لكي لا أثقل على أحد منكم" يلحق بهم قدرًا كبيرًا من الخزي والعار، ذلك لأنه إذا كان ذلك الذي كرز بالإنجيل ورفع عاليًا بأقواله وأعماله العظيمة، لم يجسر أن يأكل خبزه مجانًا، لئلا يتقل على أحد، فكيف يستطيع أولئك الذين يتناولونه كل يوم في الكسل والبطالة ألا يشعروا أنهم عبء ثقيل على الآخرين.

الفصل العاشر

اشتغل الرسول بيديه كي يضع لنا قدوة في العمل

يبسط الرسول بطريقة غير مخفية السبب الذي من أجله أسند إلى نفسه هذا العمل قائلاً: "ليس أن لا سلطان لنا بل لكي نعطيكم أنفسنا قدرة حتى تتمثلوا بنا". فإذا نسيتم دون قصد كلماتنا التي طالما وقعت على مسامعكم، لا تنسوا قدوة معيشتي بينكم التي كانت مكشوفة أمام بصائرهم. هنا يوبخهم بقدر غير قليل، حيث مارس عمله في كدّ وتعب خلال النهار والليل، لا لسبب إلا لكي يقدم لهم قدوة حسنة، على الرغم من أنه لم يكن مُلزمًا بذلك. ثم يستطرد قائلاً بأنه ما من شك أنه على الرغم من أن لدينا السلطان لكنني أخشى أن يتحول ما أفعله أنا شرعًا وحقًا إلى مثال سيئ في البطالة الوخيمة العواقب عند الآخرين. لهذا آثرت عند كراستي بالإنجيل أن أقوت نفسي بعمل يدي، كي أقدم طريق الكمال أمامكم أنتم الذين تريدون السير في طريق الفضيلة ولكي أضع بعلمي قدوة للحياة الطيبة.

الفصل الحادي عشر

وعظ الناس وعلمهم أن يشتغلوا

ليس بالاعتداء فحسب بل وبالكلام أيضًا

لكن خشية أن يتبادر إلى الذهن أنه حين كان يعمل في صمت ويحاول تعليمهم عن طريق الاقتداء لم يحذرهم ويرشدهم إلى قواعد السلوك المستقيم، استطرد قائلاً: "فإننا أيضًا حين كنا عندكم أوصيناكم بهذا أنه إن كان أحد لا يريد أن يشتغل فلا يأكل أيضًا".

مع ذلك فهو يبرز كسلهم للعيان أكثر وضوحًا، لأنهم وهم يعلمون أنه كمعلم صالح كان يشتغل بيديه من أجل تعليمهم لكي يحسن إرشادهم وتهذيبهم، فإنهم كانوا يخلطون من الاقتداء به. وهو أيضًا يثبتنا في الكد والاهتمام بقوله إنه لم يعطهم هذا كمثال يقتدون به، حال وجوده فحسب، بل ونادى به على الدوام بالألفاظ قائلاً: أنه إن كان أحد لا يريد أن يشتغل فلا يأكل أيضًا.

الفصل الثاني عشر

"إن كان أحد لا يريد أن يشتغل فلا يأكل أيضاً"

الآن لا يقدم إليهم نصيحة معلم أو طبيب، بل يوجه حكمًا قضائيًا صارمًا. ضدهم كمستهزئين، مستعبدًا سلطته الرسولية التي صرح بها حين كتب إلى أهل كورنثوس منذرًا إياهم، أن الرب قد منحها له، حين أوصى أولئك الذين سقطوا في الخطية، أن يسارعوا إلى إصلاح حياتهم قبل مجيئه قائلًا: "ولكن أطلب أن لا أتجاسر وأنا حاضر بالسلطة التي مُنحت لي عليكم" وأيضًا: "إني وإن افتخرت شيئًا أكثر بسلطاننا الذي أعطانا إياه الرب لبنيانكم لا لهدمكم لا أخجل" (٢كو ١٠، ٨). وهو إذ يعاقبهم لا بسيف دنيوي بل بسلطان الروح القدس، مُحرمًا عليهم مشتهيات هذا العالم، حتى إذا لم يفكروا إلا قليلًا في عقاب الموت القادم، وظلوا سائرين في عنادهم إيثارًا للحياة الناعمة، فإنهم في آخر المطاف، تحت ضغط مطالب الطبيعة والفرع من الموت المفاجئ، يضطرون لإطاعة هذه الوصية النافعة.

الفصل الثالث عشر

"لقد سمعنا أن بعضًا منكم يسلكون بغير ترتيب"

بعد كل هذه الصرامة البادية في نص الإنجيل، يوضح الرسول السبب في غير جفاء السبب الذي من أجله بسط كل هذه الأمور قائلًا: "لأننا نسمع أن قومًا يسلكون بينكم بلا ترتيب، لا يشتغلون شيئًا بل هم فضوليون"... وهو لا يفتن بأن يقول عن أولئك الذين لا يقبلون العمل بكل قلوبهم أنهم ضحايا آفة واحدة، إنما يصفهم بأنهم "يسلكون بغير ترتيب" وأنهم "لا يسلكون حسب التعاليم التي تسلموها منه"، ويؤكد إلى جانب ذلك أنهم "قلقون" وأنهم "يأكلون خبزهم مجانًا". ثم يقول هنا: "لأننا نسمع أن قومًا يسلكون بينكم بلا ترتيب" وفي الحال يشفع هذا بسقطة أخرى، هي أصل هذا القلق فيقول: "لا يشتغلون شيئًا قط" ثم يضيف آفة ثالثة تبرز من هذه الأخيرة كأنها البرعم: "بل هم فضوليون".

الفصل الرابع عشر

العمل اليدوي بقي المرء من سقطات كثيرة

هكذا لا يضيع الرسول وقتاً إذ سرعان ما يستخدم علاجاً ناجحاً لهذه السقطات الكثيرة، متغاضياً عن سلطانه الرسولي الذي استخدمه قبل ذلك بقليل ليتصرف مرة أخرى في رفق الوالد الطيب أو الطبيب العطوف، كما لو كانوا أبناءه أو مرضاه. يستخدم معهم أدوية نصائحه الشافية في علاجهم قائلاً: "فمثل هؤلاء نوصيهم ونعظمهم بربنا يسوع المسيح أن يشتغلوا بهدوء ويأكلوا خبز أنفسهم". إنه يعالج علّة جميع هذه البلايا التي تصدر عن البطالة والكسل كطبيب موفور الخبرة بوصية نافعة فريدة للعمل، لعلمه أن جميع الأعراض المرضية الرديئة الأخرى تنبعث كما من منبعٍ واحدٍ لا بد ستختفي سريعاً حالما يزول سبب المرض الأصلي.

الفصل الخامس عشر

ينبغي ألا يُحرم حتى الكسالى والمهملون من العطف

على الرغم من هذا، فهو كطبيب يقظ بعيد النظر لا يهتم فقط بشفاء جراحات المرضى، لكنه أيضاً يمد الأصحاء بإرشادات نافعة للمحافظة دائماً على صحتهم فيقول: "ولكن لا تكفوا عن عمل ما هو حسن". أنتم الذين تقتنون بنا في عملنا وسلوكنا، لا تجارونهم في خمولهم وتكاسلهم "لا تكفوا عن عمل ما هو حسن"، بمعنى أن تعاملوهم بالرفق إذا حدث أن قصّروا في مراعاة ما قلناه. وإذا كان قد عامل أولئك الضعفاء بصرامة، فإنه يخشى لنلا إذا أوهنهم الكسل يسيطر عليهم القلق والفضول، ينصح الأصحاء ألا يحرموهم من العطف الذي أوصى الرب أن نصفيه على الأخيار والأشرار. حتى إن انحرف بعض الناس الأرياء عن التعاليم القديمة، ألا يكفوا عن فعل الخير لهم ونصحهم بعبارات التشجيع والتفريع، إلى جانب ما ألفه الناس من رفق ولطف.

الفصل السادس عشر

ينبغي أن نوجه اللوم لمن يخطئون

بدافع من الحب لا البغض

يعود مرة أخرى، بعدما شجع هذا السلوك الرقيق خشي لئلا يلجأ البعض إلى الاستهزاء بوصاياهم وعدم إطاعتها، عاد إلى الاعتصام بالصرامة فيقول: "ولكن إن كان أحد لا يطيع كلامنا بالرسالة فسيموا هذا ولا تخالطوه لكي يخجل" وفي إنذاره لهم بما ينبغي عليهم أن يراعوه بدافع من اهتمامهم به ولصالح الجميع، والاهتمام الواجب أن يحرصوا على إبدائه نحو الوصايا الرسولية.

سرعان ما يمزج الإنذار بشفقة الوالد الممعن في السماحة والتسامح، ويعلمهم كما لو كانوا أبناء له ما ينبغي أن يغرسوه نحو الآنف ذكرهم من ميل أخوي، بدافع من المحبة. فيقول: "ولكن لا تحسبوه كعدو بل أنذروه كأخ". هكذا يمزج صرامة القاضي بعطف الوالد. ويخفف وطأة الحكم الرسولي الشديد بقدر كبير من اللطف والرفق. ذلك لأنه يأمرهم أن يلاحظوا ذلك مع الذي يستخف بوصاياهم ولا يطيعها فيطلب منهم ألا يخالطوه، لكنه يطلب إليهم ألا يفعلوا ذلك بدافع من شعور الكراهية غير القويم، بل بحافز من العطف الأخوي، والتفكير في إصلاحه، فيقول: "لا تخالطوه لكي يخجل". ومن ثم فإنه حتى وإن لم ينصح بتوجيهاتي الرقيقة، ينصح أخيراً بأن يخجل بفصله علانية منكم جميعاً. بذلك يحتمل أن يعود يوماً ما إلى طريق الخلاص.

الفصل السابع عشر

فقرات شتى يُعلن فيها الرسول أنه يجب علينا أن نعمل،

أو يُظهر فيها أنه هو بنفسه كان يقوم بالعمل

هكذا يوصي أيضًا في رسالته إلى أهل أفسس، بموضوع هذا العمل فيقول: "لا يسرق السارق فيما بعد، بل بالحري يتعب عاملاً الصالح ببيده، ليكون له أن يعطي ما له احتياج" (أف ٤: ٢٨). وفي سفر أعمال الرسل أيضًا نجد أنه لم يعلم هذا فحسب لكنه مارسه بنفسه. لأنه حين قدم إلى كورنثوس لم يسمح لنفسه بالإقامة في أي مكان سوى مع أكبلا وبريسكلا، لأنهما كانا يمارسان ذات الحرفة التي اعتاد هو بنفسه على ممارستها. إذ نقرأ ما يلي: "وبعد هذا مضى بولس من أثينا وجاء إلى كورنثوس، فوجد يهوديًا اسمه أكبلا بنطي الجنس. كان قد جاء حديثًا من إيطاليا وبريسكلا امرأته. فجاء إليهما، وبكونه من صناعتهما أقام عندهما. وكان يعمل لأنهما كانا في صناعتهما خيامين" (أع ١٨: ١-٣).

الفصل الثامن عشر

كان الرسول يشغل بالفقر الذي

يكفيه ويكفي الذين كانوا معه

بعد ذلك ذهب إلى ميليتس، ومن هناك أرسل إلى أفسس، واستدعى إليه قسوس كنيسة أفسس، وأوضح لهم كيف ينبغي أن يدبروا كنيسة الله في غيابه قائلاً: "فضة أو ذهب أو لباس أحد لم أشتته، أنتم تعلمون أن حاجاتي وحاجات الذين معي خدمتها هاتان اليدان، في كل شيء أريتمكم أنه هكذا ينبغي أنكم تتعبون وتعضدون الضعفاء، متذكّرين كلمات الرب يسوع أنه قال مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ".

ترك لنا قدوة عظيمة في منهج حياته، إذ يشهد بأنه لم يكتفِ بأن يشغل كي يسد احتياجاته فحسب، لكن أيضًا ما يكفي لسد احتياجات الذين كانوا معه: أعني أولئك الذين طغت عليهم الواجبات الضرورية، فلم تتح لهم الفرصة لأن يوفروا لأنفسهم خبزهم بعمل أيديهم.

وكما ذكر أهل تسالونيكي أنه سبق أن اشتغل ليقدم لهم مثالاً يقتدون به، هكذا يستخدم هنا أيضًا شيئاً من ذات النوع حين يقول: "في كل شيء أريتمكم أنه هكذا ينبغي أنكم تتعبون وتعضدون الضعفاء"، أي سواء الضعف في العقل أو البدن، إذ ينبغي أن نجتهد لسد حاجياتهم، لا من فيض ما نخترن، أو مما ندخره من مال، أو ما يقدمه شخص آخر مما يمتلكه، إنما مما نحصل عليه نحن من عملنا الخاص وكّد أيدينا.

الفصل التاسع عشر

كيف ينبغي أن نفهم الكلمات:

"مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ"

يذكر أن هذه هي وصية من الرب قائلاً: "متذكّرين كلمات الرب يسوع أنه قال مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ" (أع ٢٠: ٣٣-٣٥)، بمعنى أن المعطي في سخائه أكثر غبطة من الآخذ احتياجاته، حيث تكون العطية غير مستمدة من المال الذي احتفظ به عن طريق عدم الإيمان، أو من المكتنز عن طريق البخل والجشع، إنما تأتي ثمرًا لكدنا وعملنا الأمين. هكذا "مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ، لأنه بينما يُشارك المعطي

فقر الآخذ، فإنه يكد بإعالتة باهتمام مفعم بالتقوى، مشتغلاً بيديه لا كي يسد حاجته فحسب بل وأيضاً كي يعطي غيره من المحتاجين. من ثم يحظى بنعمة مزدوجة، إذ بتخليه عن كل ما لديه يحرز بذلك علي كمال التجرد وإنكار الذات اللذين للمسيح، لكنه بعمله وفكره يبرز سخاء الأغنياء. هكذا يكرم الله بعمله الأمين، ويقتطف لنفسه ثمار بره، بينما ثمة شخص آخر قد أوهنه التراخي والكسل المتبذل، يدلل لنفسه قول الرسول أنه لا يستحق الطعام، كأنه بالتكاسل يتحدى الوصية، وبذلك لا ينجو من وزر الخطية والعناد.

الفصل العشرون

أخ كسول حاول أن يغري آخرين بترك الدير

نعرف أحياناً، لو كان في ذكر اسمه ما يفيد لذكرناه، على الرغم من بقائه في الدير والتزامه بتسليم وكيل الدير يومياً قدرًا معيناً من الإنتاج، فإنه خشية أن يُساق إلى مزيد من هذا الإنتاج، أو أن يلحقه العار من مقارنته بأخ آخر يتفوق عليه في عمله وغيرته، كان لدى رؤيته أي شخص انضم للدير حديثاً، وراح يتقانى في العمل بدافع من حرارة إيمانه ليزيد القدر المبيع من إنتاجه، يغريه في الخفاء بالإقلال من إنتاجه. فإذا فشل في مقصده، عمد على إغوائه بالنصيحة الفاسدة والهمسات المشبوهة كي يهجر الدير. ولكي يسهل عليه التخلص منه يزعم أنه هو أيضاً سيترك الدير بغير رجعة بسبب ما لاقاه فيه من تعسف وعنت، وأنه لم يعطه عن ذلك سوى حاجته إلى أخ مثله يرافقه في رحلته. وحالما ينال موافقته بتملقه إياه وطعنه الخفي في الدير وإدارته يقوم بترتيب وتحديد وقت معين لهجر الدير، وكذلك المكان الذي لا بد أن يسبقه إليه وينتظره فيه، ثم يتركه هناك وحيداً، حيث ينكشف أمره، ويلحقه العار لإقدامه على هذا القرار، فلا يجسر على العودة إلى الدير الذي هرب منه، والذي تخلف عنه من كان علة بليته.

يكفي أن أسوق هذا المثال الوحيد لهذا الطراز من الرجال لكي يأخذ المبتدئون حذرهم، ولتوضيح ما يسفر عن الكسل من شرور في عقل أي راهب، وكيف "أن المعاشرات الردية تفسد الأخلاق الجيدة" (١كو١٥:٢٩).

الفصل الحادي والعشرون

من كتابات سليمان ضد الضجر

يشير سليمان، أحكم الرجال، إلى هذه الرذيلة في كثير من كتاباته إذ يقول: "تابع البطالين يشبع فقراً" (أم ١٩:٢٨)، إما عياناً أو خفية، حيث لا مناص من أن يتورط المتراخي ومن تلاحقه النقائص، فلا يفتن قط للتأملات الإلهية أو الكنوز الروحية، التي يشير إليها الرسول المبارك بقوله: "إنكم في كل شيء استغنيتم فيه في كل كلمة وكل علم" (١ كو ٥:١).

أما فيما يتعلق بهذا الفقر الذي يلحق المتكاسل أي الضجر، أيضاً يكتب: "الكسلان يكتسي بالخرق" (أم ٢٣:٢١)، فمن المؤكد لا يستحق أن يتزين بتلك الحلة التي لن يعترها البلى أو الفساد [والتي يقول الرسول عنها: "البسوا الرب يسوع المسيح" (رو ١٤:١٣) وأيضاً: "لابسين درع الإيمان والمحبة" (١ تس ٥:٨) والتي تكلم الرب ذاته عنها إلى أورشليم بلسان النبي قائلاً: "استيقظي، استيقظي، البسي عزك يا صهيون" (إش ٥٢:١).

أي شخص يستبد به نوم التراخي أو الضجر يفضل أن يكتسي لا بعمله وكده، بل بخرق التكاسل

مقتبسين عبارات من الكتاب المقدس الراسخ (ويسيثون استخدامها)، دون أن يكسو تكاسله بحلة مجد وفخار، بل برداء العار وتلمس الأعذار، أولئك هم الذين يؤثرون هذا الكسل ولا يودون إعالة أنفسهم بكديهم، كما كان الرسول يفعل دائماً ويكلفنا أن نفعل، قائلين انه مكتوب "اعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقي للحياة الأبدية" (يو ٦: ٢٧) وأيضاً: "طعامي أن أعمل مشيئة أبي" (يو ٤: ٣٤). ولكن هذه الأدلة هي خرق منتزعة من حلة الإنجيل المكين الراسخ، أقتبست لهذا الغرض، أعني تغطية فضيحة تكاسلنا وعارنا، بدلاً من أن توفر لنا الدفاء، وأن نترزين بحلة الفضيلة الفخمة الكثيرة الثمن، إذ قيل إن المرأة التي ورد ذكرها في سفر الأمثال والتي كانت ملتحفة بالعز وبالبهاء، كانت تصنع ثياباً إما لنفسها أو لزوجها، حتى يُقال عنها في كل حين: "العز والبهاء لباسها وتضحك على الزمن الآتي" (أم ٣١: ٢٥).

يعود سليمان مرة أخرى إلى ذكر آفة التكاسل فيقول: "طرق الكسلان مفروشة بالأشواك" (أم ١٥: ٢٩)، أي مفروشة بهذه وغيرها من النقائص المماثلة التي سبق أن ذكر الرسول أنها تنبعث من البطالة. كذلك يقول: "نفس الكسلان تشتهي ولا شيء لها" (أم ١٣: ٤)، ويشير الرسول إلى هذا الاشتهااء حين يقول: "ولا تكون لكم حاجة إلى أحد" (١ تس ٤: ١٢). أخيراً عدد الرسول تلك الآفات التي ذكر سليمان الحكيم أنها غرس البطالة والملل، في الفقرة الآتية الذكر بقوله: "لا يشتغلون شيئاً بل هم فضوليون" (١ تس ٤: ١١). ويضيف إلى هذه الآفة أخرى إذ يقول: "وأن تحرصوا على أن تكونوا هادئين" ثم "أن تمارسوا أموركم الخاصة، وتشتغلوا بأيديكم وتسلخوا بلياقة عند الذين هم من خارج، ولا تكون لكم حاجة إلى أحد" (١ تس ٤: ١١).

أما أولئك الذين يسلكون بلا ترتيب ولا يطيعون الوصايا، فالرسول يوصي أبناء الطاعة الجادين أن يعتزلوهم فيقول: "تجنبوا كل أخ يسلك بلا ترتيب، وليس حسب التعليم الذي أخذناه منا" (٢ تس ٣: ٦).

الفصل الثاني والعشرون

يشتغل الإخوة في مصر بأيديهم لا ليسدوا حاجاتهم فقط

بل ويخدموا الذين في السجون

الآباء في مصر، على هدى من هذه الأمثلة، لا يسمحون قط للرهبان، وبخاصة صغار السن منهم، أن يكونوا عاطلين لا يشتغلون^٤، معتبرين اشتهاؤ قلوبهم ونموهم في الصبر والتواضع يكون بمقدار اجتهدهم في العمل. ولا يقتصرون على عدم السماح لهم بقبول أي شيء من شخص آخر يسد احتياجاتهم، بل يهتمون أيضاً بأن يكرموا وفادة الحجاج والإخوة الذين يحضرون لزيارتهم من شغل أيديهم، وكذلك يجمعون قدرًا هائلًا من المؤونة والطعام، ويقومون بتوزيعه في أنحاء ليبيا حيث يعانون من الجوع والجذب، وفي المدن أيضًا لأولئك الذين يرزحون في قذارة السجون، لا اعتقادهم أنهم بتقديمهم هذه العطية من ثمار أيديهم، يهبون للرب تقدمة صادقة مقبولة.

الفصل الثالث والعشرون

في أن البطالة هو العلة في عدم

وجود أديرة للرهبان مزدحمة في الغرب

لهذا حيث تُوجد هذه الأفكار (الخاصة بالبطالة) لا تجد أديرة مأهولة بمثل هذه الأعداد من الإخوة، لأنهم لا يعتمدون في تحصيل قوتهم على ما تنتجه أيديهم، على نحو يستطيعون معه البقاء بها على الدوام، وإذا وجدت بصورة أو بأخرى، عن طريق سخاء شخص ما، مؤونة تكفي لإعالتهم، فإن حبهم للراحة وما يشعرون به من عدم الاستقرار لا يسمحان لهم بالبقاء طويلاً في المكان. من هنا جاء القول المأثور عن الآباء القدامى في مصر، بأن الراهب الذي يعمل يهاجمه شيطان واحد أما العاطل فتضربه أرواح شريرة لا حصر لها.

الفصل الرابع والعشرون

عن الأب الرئيس بولس الذي اعتاد كل عام

أن يحرق بالنار جميع ما أنتجته يداه

أخيراً فإن الأب الرئيس بولس، وهو من أعظم الآباء، عندما كان مقيمًا بصحراء كلاموس الشاسعة، كان خالي البال، إذ كان يعيش على الوفير من بلح النخيل ونتاج حديقة صغيرة، ولما كان محل إقامته بمنأى عن المدن والأماكن المأهولة مسيرة سبعة أيام كاملة لم يكن في استطاعته أن يعتمد في معيشته على ما تنتجه يداه، لصعوبة نقله الذي سيكلفه أكثر من ثمنه. فكان يجمع الخوص، ويشتغل فيه بانتظام، على أن ينتج منه قدرًا

^٤ اشتهر رهبان مصر بما كانوا يؤدونه من أشغال، ويمكن توضيح ما قاله القديس يوحنا كاسيان بأمثلة مقتبسة من كثير من أقوال الآباء. فمثلاً أبيفيانوس، في كتابه الثالث ضد الهرطقات، يُشبه الرهبان، وبخاصة الذين في مصر، بالنحل، بسبب كدهم واجتهدهم. وهكذا يقول جيروم في خطاب منه إلى رستكوس، بأنه ما من أحد يلتحق بدير في مصر إلا ويؤدي عملاً، وأن هذه القاعدة موضوعة لبنيان النفس لا للترود بالطعام. كذلك قيل عن القديس سيراينوس وأتباعه: "إنهم كانوا يعولون أنفسهم ويساعدون الفقراء من عمل أيديهم، ففي موسم الحصاد كانوا يقومون بجمع المحاصيل: فيضعون جانباً ما يكفي من القمح لحاجتهم، ويمدون غيرهم من الرهبان بالحبوب دون مقابل". ويشدد القديس باسيليوس، في قوانينه النسكية، على قيمة العمل أما قانون بندكت فهو يأمر "بأنه ما دامت البطالة هي عدو للنفس، لابد من انشغال الإخوة تارة في الأعمال اليدوية، وأخرى في المطالعات الدينية".

معينًا كل يوم، كما لو كان سيعتمد عليه في إعالته. وعندما كانت تمتلئ المغارة التي يعيش فيها بإنتاج عام كامل كان يحرق بالنار كل عام ما أتم عمله بجِدٍ واجتهادٍ. بهذا كان يقدم الدليل على أنه بدون عمل يدوي ما كان في استطاعة أي راهب أن يستقر في مكان أو أن يسمو إلى مراتب الكمال، ومن ثمَّ فعلى الرغم من أن الحاجة إلى الطعام لم تكن تستلزم هذا التصرف، فقد كان يفعل ذلك مستهدفًا تطهير قلبه، وتقوية أفكاره، والاستقرار في قلايته، وإحراز النصر على الضجر والملل.

الفصل الخامس والعشرون

كلمات الأب موسى التي قالها لي عن علاج الضجر

عند ابتداء إقامتي في الصحراء، استبدت بي يومًا ما نوبة عنيفة من الضجر، فذكرت ذلك للأب موسى رئيس جميع القديسين. واستطردت قائلاً إنني لم أتخلص من هذه النوبة، إلا بالهروب فوراً إليه. عندئذ قال لي: "إنك لم تُخلص نفسك منها، بل بالأحرى استسلمت لها كعبدٍ وتابعٍ. ذلك لأن العدو من الآن فصاعداً سيلاحقك بهجمات أشد ضراوة وأكثر عنفاً، كهاربٍ من الميدان أو كمن قد لذ بالفرار، ما دام قد رأى أنك قد عجلت بالهروب حالما هُزمت في المعركة. عليك أن تعقد العزم، إذا ما التحمت مع العدو في معركة أخرى، ألا تتجنب عنف هجماته مؤقتاً بالفرار من قلايتك، أو بالاستغراق المتخاذل في النوم، بل بالأحرى تتعلم أن تهزمه بمقابلته والصمود أمامه... وهكذا ثَبَّت أن نوبة الضجر لا يمكن التغلب عليها إلا بصدها ومقاومتها، لا بعدم ملاقاتها والفرار منها.

المؤسسات لنظام الشركة للقدّيس يوحنا كاسيان

١١

في روح المجد الباطل^١

في عرض خطير يقدم لنا القدّيس يوحنا كاسيان خطورة خطية المجد الباطل. فكل الخطايا الأخرى، مهما استخدمت من وسائل الخبث والخداع، فإنه إذ يجاهد الإنسان ضدها تضعف أمامه. أما خطية المجد الباطل ففريدة، إذ تقاتل المؤمن بذات أسلحته، أي بنصرته. فكلما انتصر على أية خطية حتى على خطية المجد الباطل ذاتها، تجد الخطية مجالاً أقوى لتحاربه بذات نصراته.

خطية المجد الباطل تحارب المؤمن جسدياً وروحياً، إن ارتدى ثياباً فاخرة ونال كرامات وتمتع بالنجاح حاربه بذات هذه الأمور، وإن ارتدى ثياباً رثه واتضع هارباً من الكرامة تحاربه في أعماقه كمن هو افضل من غيره.

محاربة خطية "المجد الباطل" تحتاج إلى نعمة خاصة من قبل الله مع الجدية والحذر الدائم.

يقول القدّيس يوحنا كاسيان:

[لأنه حين لا يستطيع إبليس أن يصطنع المجد الباطل في إنسانٍ عن طريق حسن هندامه وأناقته لباسه، يحاول اصطناعه عن طريق زيّ أشعث ولباس قذر مهمل. إذا لم يستطع أن يسقط إنساناً بالفخر يسقطه بالاتضاع. وإذا لم يستطع أن يدفعه للتعالي بنعمة المعرفة والفصاحة يسحبه إلى أسفل تحت ثقل الصمت. وإذا صام إنسان علانية هاجمه كبرياء الزهو والغرور، وإذا أخفاه احتقاراً لما يسفر عنه من فخر وقع فريسة لخطية الكبرياء ذاتها.

وكي لا تدفعه وصمة المجد الباطل فإنه يتجنب إطالة الصلوات على مرأى من الإخوة، لكن لأنه يمارسها سرّاً، دون أن يشعر به أحد لا ينجو من كبرياء الزهو.] (فصل ٤)

يقول القدّيس أوغريس:

[فكر "المجد الباطل" هو أخبث أنواع الأفكار.

يأتي هذا الفكر للسالكين في حياة البر، وبيئدئ الإنسان يمجد جهاده ويجمع لنفسه مديح الآخرين له. فيتصور فزع الشياطين منه، شفاء للنساء، ازدحام الجماهير حوله يلمسون هذب ثوبه، وأخيراً يتنبأ له بتكريسه للكهنة. وأن الناس يفدون إليه ليجعلوه كاهناً، وعندما يرفض الكهنوت يقيدونه ويقودوه

^١ ترجمة: الراهب باسيليوس السرياني (السابق).

رغمًا عنه.

بعدما يشعل الشيطان فيه هذه الآمال الكاذبة، ينسحب تاركًا المجال لمحاربات أخرى يقدمها شيطان الكبرياء أو شيطان التذمر، الذي يأتي حالاً ويعرض عليه أفكارًا مضادة لهذه الآمال، حتى أنه في بعض الأوقات يستسلم لأفكار شيطان الزنا، هذا الذي منذ لحظات كان يرى في نفسه أنه قديس وكاهن وقور!^٢

القمص تادرس يعقوب ملطي

^٢ إلى أناتوليس عن الأفكار الثمانية، ٨.

الفصل الأول

سابع صراع لنا موجه ضد المجد الباطل، وما هي طبيعته

سابع صراع لنا موجه ضد روح الخيلاء، التي يصح أن نسميها روح المجد الباطل أو العاقل. وهي روح تأخذ أشكالاً كثيرة، كما أنها متقلبة مأكرة. لذلك يتعذر، لا أقول الاحتراس منها، بل رؤية أغوارها واكتشافها، حتى على أشد العيون حدة.

الفصل الثاني

لا يكتفي المجد الباطل بأن يهاجم الراهب من الناحية الجسدية بل والروحية

لأن هذا لا يكتفي، كبقية السقطات، بأن يهاجم الراهب من الناحية الجسدية بل والروحية أيضاً، متسللاً داخل العقل بالحيلة والخداع. حتى أن أولئك الذين لا يمكن التغرير بهم عن طريق الرذائل الجسدية، يُصابون بجرح غائر في صميم قدراتهم الروحية، والقتال ضده أكثر صعوبة، والاحتراس منه أيضاً أكثر صعوبة.

هجوم كل الرذائل الأخرى صريح ليس فيه التواء، وفي حالة كل منها عندما يقابل من يثيرها بالرفض البات ينصرف وهو أكثر ضعفاً. وحين يهاجم العدو المنهزم فريسته مرة أخرى يكون أقل قوة. أما هذه الآفة، فحين تهاجم العقل عن طريق الكبرياء الجسدية ويصدها برد حاسم وورع تبقى ثابتة مثل بعض الشرور التي تأخذ أشكالاً عدة، فتغير تنكرها الأول وطبعها، وتحاول تحت مظهر الفضيلة أن تسدد لقاها ضربة قاصمة تحطمه ونقضي عليه.

الفصل الثالث

كيف يأخذ المجد الباطل لنفسه أشكالاً وهيئات عدة

يمكن القول أن جميع السقطات والنزوات أكثر بساطة وذات شكل واحد فقط، أما المجد الباطل فيأخذ أشكالاً وهيئات كثيرة، ويتنقل ويهاجم الإنسان من كل جهة. ينقض على قاهره من جميع الجوانب، لأنه يحاول أن يؤذي جندي المسيح في لباسه وسلوكه وسيره وصوته وعمله وأسهاره وأصوامه وصلواته وحين ينسحب وحين يُطالع وفي معرفته وفي صمته وفي طاعته وفي تواضعه وفي صبره كصخرة بالغة الخطورة تخفيها الأمواج الصاخبة. فإنها تكون سبباً في دمار غير مرتقب للذين يبحرون مع نسيم وريح هادي، ماداموا غير متيقظين أو محترسين منها.

الفصل الرابع

كيف يهاجم المجد الباطل الراهب من اليمين ومن الشمال

من يصبو أن يسير قدماً في الطريق الملكي "بسلام البر لليمين ولليسار"، ينبغي وفق تعليم الرسول أن يمر "بمجد وهوان، وبصيت رديء وصيت حسن" (١كو٦: ٨، ٧)، وبعناية لتوجيه مجراه المستقيم وسط أمواج التجارب المتلاطمة. ويحذر نمسك بالدفة، ويهب روح الرب وينشر عبيره من حولنا، مادامنا نعلم أننا إذا انحرفنا قليلاً نحو اليمين أو اليسار سرعان ما تتحطم سفينة حياتنا فوق الصخور الوعرة.

لذلك حذرنا سليمان الحكيم قائلاً: "لا تمل يمنة ولا يسرة" (أم٤: ٢٧). بمعنى لا تمتدح فضائلك أمام

نفسك. أو تزهو بإنجازاتك الروحية من اليمين، ولا تتحول إلى طريق الرذائل نحو الشمال، وتختار من هذه الرذائل لنفسك، وباستخدام كلمات الرسول: "فخرًا في خزيك" (في ١٩:٣).

لأنه حين لا يستطيع إبليس أن يصطنع المجد الباطل في إنسانٍ عن طريق حسن هندامه وأناقته لباسه، يحاول اصطناعه عن طريق زيّ أشعث ولباس قذر مهمل. إذا لم يستطع أن يسقط إنسانًا بالفخر يسقطه بالاتضاع. وإذا لم يستطع أن يدفعه للتعالي بنعمة المعرفة والفصاحة يسحبه إلى أسفل تحت ثقل الصمت. وإذا صام إنسان علانية هاجمه كبرياء الزهو والغرور، وإذا أخفاه احتقارًا لما يسفر عنه من فخر وقع فريسة لخفية الكبرياء ذاتها. وكما لا تدفعه وصمة المجد الباطل فإنه يتجنب إطالة الصلوات على مرأى من الإخوة، لكن لأنه يمارسها سرًا، دون أن يشعر به أحد لا ينجو من كبرياء الزهو.

الفصل الخامس

مقارنة تبين طبيعة المجد الباطل

يصف شيوخوا في براعة طبيعة هذا الداء أنها كالبصلة، كلما نزع المرء إحدى طبقاتها وجدها مغلفة بطبقة أخرى، وعلى قدر تعريتها نجدها مُحصنة.

الفصل السادس

لا يمكن التخلص من خطية المجد الباطل بميزات الوحدة

في الوحدة أيضًا لا تكف عن ملاحقة ذاك الذي هرب من الاتصال بجميع الناس التماسًا للفخر. وكلما زاد أي إنسان في رفضه التام للعالم ازدادت ملاحقتها الملحة له. وهي تحاول أن ترفع بالكبرياء شخصًا ما بسبب شدة احتماله للعمل والمشقة، وآخر بسبب استعداده التام للطاعة، وثالث لأنه يسمو عن الآخرين بتواضعه.

قد يُجرب إنسان بسعة إطلاعه، وآخر بكثرة مطالعته، وثالث بطول أسهاره. وهكذا لا تحاول هذه الآفة أن تصيب إنسانًا إلا عن طريق فضائله، مقجمة عراقيل تؤدي إلى الموت بوسطة تلك الأشياء ذاتها التي تنتشد فيها زاد الحياة. ذلك لأن الناس حين يتطلعون للسير في طريق القداسة والكمال، لا يضع الأعداء شباكهم في أي مكان ليخدعهم بل في الطريق الذي يسرون فيه، مصداقًا لقول داود الطوباوي: "مدوا لي شبكة بجانب الطريق، وضعوا لي أشراكًا" (مز ٥:١٤). حتى أننا في ذات طريق الفضيلة الذي نسير فيه، مجدين في طلب "جعلالة دعوتنا العليا" (في ١٤:٣) قد نتعالى بما نحرزه من النجاح ومن ثمة نسقط، وتطبق شباك الزهو على أقدام أرواحنا. لهذا فإن الذين من بيننا لا يتيسر قهرهم في المعركة ضد العدو ينهزمون بعظمة النصرة ذاتها. أو من ناحية أخرى (وهي نوع آخر من الخداع) باستنفاد أقصى ما لدينا من طاقة ضبط النفس نعجز عن المثابرة في سيرنا بسبب الضعف البدني.

الفصل السابع

يرفع المجد الباطل رأسه عند هزيمته وهو أكثر حماسًا للقتال عن ذي قبل

كل الرذائل تضعف عند هزيمتها، وعند قهرها تتخاذل يومًا فيومًا. وفي علاقتها بكل من المكان والزمان تتضاءل وتتزوي، أو على أية حال فلعدم تشابهها بالفضائل المضادة، يسهل رفضها وتحاشيها. لكن هذه الرذيلة،

حين نُقهر، نقوم من سقطتها لمعاودة القتال أشد ضراوة. وحين نتوهم أنه قد فُضي عليها تسترد الحياة ثانية. وهي أشد قوة بسبب موتها!

عادةً لا تهاجم الأنواع الأخرى من الرذائل سوى أولئك الذين هزمتهم في القتال. أما هذه فهي تلاحق المنتصرين عليها وهي أكثر حدة، وكلما زادت مقاومة المرء لها زادت مهاجمتها له لتعالیه بالانتصار عليها؛ هنا يكمن دهاء عدونا المخادع. أعني في الواقع حيث لا يستطيع قهر جندي المسيح بأسلحة العدو، عندئذ يخضعه بذات حرايه.

الفصل الثامن

لا تخف وطأت المجد الباطل في الصحراء ولا مع تقدم السن

كما قلنا إن بعض الرذائل أحيانًا تخف وطأتها بما يهيئها لها الموقف من تيسيرات، وكذلك عند زوال مادة الخطية والفرصة المتاحة لها، فإن هذه الرذائل تخزي. لكن هذه الخطية تخترق الصحاري مع الإنسان الهارب منها، كذلك لا يمكن حبسها عن أي مكان، أو أن يبدو عليها العجز عند إزالة أية مادة خارجية من طريقها. لأنها تجد ما يشجعها في مآثر فضائل الإنسان الذي تهاجمه. لأن جميع الرذائل الأخرى، كما قلنا آنفًا تتضاءل أحيانًا مع مرور الزمن وتختفي، أما مع هذه فطول الحياة، إن لم يدعمه جد بارع وتعتل حصيف، لا يعوقها بل يمدّها فعلاً بوقود جديد للغرور.

الفصل التاسع

يصبح المجد الباطل أشد خطورة لدى اختلاطه بالفضائل

أخيرًا فالنزعات الأخرى التي تختلف تمامًا عن الفضائل التي تتاقضها، والتي تهاجمنا في صراحة كما لو كانت في وضوح النهار، يسهل هزيمتها والاحتباس منها، أما هذه فإذا هي متداخلة في نسيج فضائلنا، متورطة في المعصية، فإن القتال كما لو كان تحت ستار من ظلام الليل يخدع بشكلٍ خطر أولئك الذين تعوزهم الحيطة والحذر.

الفصل العاشر

مثال يظهر كيف أن الملك حزقيا أسقطه رمح المجد الباطل

نقرأ عن حزقيا ملك يهوذا أنه كان رجلاً بارًا كاملاً في كل شيء، ومشهودًا له من الأسفار المقدسة، سقط بسهمٍ واحدٍ من المجد الباطل، بعد أن تعددت فضائله. وهكذا قهر التفاخر والغرور ذاك الذي استطاع بصلاة واحدة أن يقضي على مائة وخمسة وثمانين ألف جنديًا من جيش الأشوريين، بواسطة الملاك في ليلة واحدة. سأل عن ذكر قائمة فضائل هذا الملك الطويلة، مكتفياً بواحدة منها فقط. فبعد أن حدد الرب ختام حياته ويوم وفاته، وفقً بصلاة واحدة أن يمدّها خمسة عشر عامًا. ورجعت الشمس إلى وراء عشرة درجات، كانت قد تقدمتها صوب الغروب، وبعودتها بددت خطوط الظل التي تبعت مسارها. وبهذه المعجزة الخارقة لنواميس الطبيعة امتد النهار الواحد نهارين للعالم كله. ومن ثمَّ اطمأن حزقيا الملك إلى أن الرب سيهبه الشفاء وطول العمر. لكن بعد علامات عظيمة بهذا القدر لا يكاد يصدقها العقل، وبعد مثل هذه الأدلة على طيبته،

اسمع ماذا يقول الكتاب المقدس عن ضروب هذا النجاح بالذات الذي قضى عليه: "في تلك الأيام مرض حزقيا إلى حد الموت، وصلى إلى الرب، فكلّمه وأعطاه علامة" (٢مل٢٠). ... تلك التي قرأنا عنها في السفر الرابع من الملوك، التي ذكرها إشعياء النبي بصدد رجوع الشمس إلى الوراء... لكن يقول الكتاب المقدس "لم يرد حزقيا حسبما أنعم عليه، لأن قلبه ارتفع فكان غضب عليه وعلى يهوذا وأورشليم، ثم تواضع حزقيا بسبب ارتفاع قلبه هو وسكان أورشليم، فلم يأت عليهم غضب الرب في أيام حزقيا" (٢أي٢٦، ٣٢: ٢٤).

يا لخطورة آفة الخيلاء وشناعتها! عمل واحد أساسه الكبرياء يقضي على هذا القدر الكبير من التقوى وعديد من الفضائل والإيمان وصدق العبادة! هكذا فإن أفعاله الخيرة كان سيطويها النسيان كأن لم تكن، فيبوء بغضب الرب، لولا أنه استرضاه باسترداد تواضعه. ومن ثمّ فالذي سقط من ذروة الفضيلة يستطيع الارتقاء إلى ذات الذروة التي انحدر منها بالتواضع في الخطوات ذاتها. أتريد أن ترى نموذجًا آخر لسقطة مماثلة؟

الفصل الحادي عشر

مثال الملك عُزّيَا الذي قضت عليه وصمة الآفة ذاتها

أما عُزّيَا سلف هذا الملك الذي كنا نتحدث عنه، فهو الآخر ممن شهد لهم الكتاب المقدس بكثير من المناقب. لكنه بعد أن تذكى بفضائله والانتصارات الكثيرة التي أنجزها بفضل صدق عبادته وإيمانه، سقط فريسة للكبرياء والمجد باطل. يقول عنه الكتاب المقدس: "واشتهر اسم عُزّيَا لأن الرب ساعده وشده، ولكنه لما تشدد ارتفع قلبه إلى الهلاك وخان الرب إلهه" (٢أي١٦، ٢٦: ١٥). ها أنت ترى مثالاً آخر لسقطة بالغة الشناعة.

هكذا فإن رجلين على هذا القدر من الاستقامة والفضيلة قضت عليهما ضروب نصرتهما وغلبتهما. من هذين النموذجين نرى مدى خطورة تعدد ألوان النجاح والازدهار. الذين لا تستطيع الشدائد أن تؤذيهم، قد يدمرهم الرجاء ورغد العيش، ما لم يأخذوا حذرهم. وأولئك الذين نجوا من السقوط صرعى أثناء القتال، يسقطون أمام غنائمهم وانتصاراتهم.

الفصل الثاني عشر

شهادات متعددة ضد المجد الباطل

يحدّثنا الرسول قائلاً: "لا نكن مُعجبين" (غل٥: ٢٦). ويوبخ الرب الفريسيين قائلاً: "كيف تقدرون أن تؤمنوا وأنتم تقبلون مجداً بعضكم من بعض، والمجد الذي من الإله الواحد لستم تطلبونه؟!" (يو٤: ٤٤) وعن هؤلاء أيضاً يتكلم داود المبارك مهدياً: "بدد الرب عظام من يمالقون الناس" (مز٥٣: ٥).

الفصل الثالث عشر

في الأساليب التي يهاجم بها المجد الباطل أحد الرهبان

أيضاً في حالة المبتدئين والذين لم يتقدموا إلا قليلاً إما في قدرات العقل أو في المعرفة، هؤلاء ينتفخون في أفكارهم، إما بسبب حلاوة أصواتهم وحسن ترانيلهم، أو بسبب نحول أجسادهم أو حسن منظرهم، أو غنى أسرهم وعراقة مولدهم، أو لأنهم رفضوا حياة الجندية وانصرفوا عن رتبها ونياشينها. وأحياناً قد يدفع المجد الباطل شخصاً ما إلى الاقتناع بأنه لو لم يهجر العالم لأثرى في يسر وارتقى في مراتب الكرامة، الأمر الذي قد يكون

بالنسبة له بعيداً عن الإنجاز والتحقيق، فيتعالى وينتفخ بأملٍ باطل في أشياء غير مؤكدة. وفي حالة تلك الأمور التي لم يحققها قط يملأه الكبرياء والغرور كما لو كانت قد دانت له فعلاً فانصرف عنها واحتقرها.

الفصل الرابع عشر

كيف يدفع المجد الباطل إنساناً ما أن ينشد الدرجات الكهنوتية

قد يخلق الزهو رغبة في الحصول على الدرجات الكهنوتية كأن يصبح المرء كاهناً أو شماساً. وقد يوهمه أنه إذا شغل هذا المنصب، فإنه سينجز عمله في ورعٍ ودقةٍ، يجعلان منه مثلاً في القداسة يحتذي به الكهنة الآخرون. وأنه سينجي الكثيرين، ليس فقط بنمط حياته، بل أيضاً بوعظه وتعليمه. كذلك من شأنه أن يجعل الإنسان حتى وهو بمفرده جالساً في صومعته يجول بفكره وخياله في الصوامع والأديرة الأخرى، ويقوم بهداية الكثيرين وهو في غمرة من الابتهاج الوهمي.

الفصل الخامس عشر

كيف يسمم المجد الباطل العقل

تتأثر النفس التسعة بمثل هذا الغرور، كما لو كانت في غمرة من نوم عميق، حتى أنها كثيراً ما تنساق في نشوة من مثل هذه الأفكار، وتمتلئ من هذه التخيلات، إلى حد لا يستطيع معه مجرد النظر إلى أشياء موجودة، أو إلى الإخوة، ما دامت تستمتع بالاستغراق في هذه الأشياء، التي تهيب لها مع أفكارها الهائلة، كما لو كانت حقيقة لا مجرد أوهام.

الفصل السادس عشر

في شخص أقبل عليه الرئيس فوجده فريسة للمجد الباطل

أذكر وأنا في صحراء الإسقيط، ذهب شيخ إلى قلاية أخ آخر لزيارته، وحين وصل إلى الباب سمعه يتمتم في الداخل. فوقف دون حراك فترة قصيرة، مستطلعاً ما كان يقرأه من الكتاب المقدس، أو يردده من ذاكرته عن ظهر قلب (كما هي العادة) في أثناء العمل. وحين استرق السمع بأذنيه الحادثتين، وهو متعجب! وجد أنه كان يلقي على الناس موعظة أخاذة تستهوي الألباب. وحين سمعه الأخ الطاعن في السن وهو واقف دون حراك، ينهي خطابه، ويعود إلى مكانه ويصرف جموع المهتدين إلى الدين المسيحي، كما يفعل الشماس، حينئذٍ طرق الباب، فخرج إليه هذا الأخ واستقبله بما ألفه من تجله واحترام وأدخله معه (ولعلمه بما سببته له أفكاره من قلق) سأله عن موعد وصوله لئلا يكون قد تضرر من انتظاره بالباب مدة طويلة. فأجابه الشيخ متفكراً: "وصلت هنا بالضبط وأنت تصرف جمع المتنصرين".

الفصل السابع عشر

لا يتيسر علاج السقطات إلا إذا تم اكتشاف جذورها وعللها

رأيت أنه من المستحسن أن أدخل هذه الأشياء في هذا المؤلف الصغير كي نتعلم، ليس بالشرح فقط إنما بالأمثلة أيضاً عن شدة التجارب وسلطان الخطايا التي تؤذي نفساً بائسة. ومن ثم يلزم أن نكون أشد حذراً

في تجنب شباك العدو وضروب خداعه المتنوعة. لأن الآباء المصريين عرضوا هذه الأشياء، حتى أنهم بروايتهم لها، كمن لا يزلوا يعانون منها يكشفون عن المعارك ويبسطونها عارية، مع كل الرذائل التي يعانون منها فعلاً، والتي لا بد أن سيعاني منها من هم أصغر سنًا. ومن ثمّ فهم حين يوضحون الأوهام التي تسفر عن جميع النزعات يصبح المبتدئون والمتحمسون بالروح على دراية بسرّ حروبهم، إذ يرونها كما لو كانت في كوبٍ من زجاجٍ، يتطلعون على أسباب الخطايا التي تزعجهم، وضروب علاجها. ومادام يتم إرشادهم مسبقًا فيما يتعلق بطريقة فهم الحروب القادمة، يتعلمون كيف ينبغي الاحتراس منها أو ملاقاتها ومقاتلتها.

وكما أن مهرة الأطباء قد اعتادوا ليس فقط علاج الأمراض الموجودة فعلاً، بل ومحاولة تفادي الأمراض المتوقعة، ومنعها بوصفاتهم الطبية وجراعاتهم الشافية. كذلك فإن أطباء النفس الحقيقيين بوساطة المداولات الروحية، مثل ترياق سماوي، يقضون مسبقًا على تلك الأمراض الروحية التي قد تبرز، ولا يسمحون لها بالرسوخ في عقول من هم أصغر سنًا، إذ يكشفون لهم أسباب الآفات التي تهددهم، وأنواع العلاج التي تشفيهم.

الفصل الثامن عشر

كيف ينبغي أن يتجنب الراهب النساء والأساقفة

توجد حكمة قديمة ما زال الآباء يتداولونها، على الرغم من أنني لا أصرح بها دون أن أشعر بالعار من جانبي، إذ لم استطع تجنب لقاء شقيقتي، أو الفرار من بين يدي الأسقف، أعني أنه ينبغي على الراهب الفرار بكل الطرق من النساء والأساقفة. ذلك لأنه ما من أحد من الطرفين سيسمح لمن توطدت علاقته به أن يواصل الحرص على هدوء قلايته، أو أن يثابر بعينين طاهرتين على التأمل الإلهي عن طريق التغلغل إلى أعماق الأشياء المقدسة.

الفصل التاسع عشر

ضروب العلاج التي نستطيع أن نقهر بها المجد الباطل

جندي المسيح الذي يرغب في أن يجاهد قانونيًا في هذه المعركة الروحية الحقيقية، ينبغي أن يجاهد بكافة الطرق لقهر هذا الكائن غير سوي المتقلب المتعدد الأشكال، هذا الذي حين يهاجمنا من كل جانب مثل شتى الشرور المتنوعة، نستطيع أن ننجو منه بعلاج كهذا:

التفكير في قول داود: "بدد الرب عظام من يمالنون الناس" (مز ٥٣: ٥). في البداية يجب علينا ألا نسمح لأنفسنا أن نعمل أي شيء بدافع من الغرور أو لإحراز أي مجد باطل. كذلك حين نكون قد بدأنا في شيء على نحو حسن، علينا أن نجاهد لتدعيمه بذات القدر من العناية، خشية أن يتسلل إلينا مرض المجد الباطل، ويلاشي كل ثمار أتعابنا.

أيضًا ينبغي تجنب أي شيء تافه النفع أو القيمة في حياة الإخوة العادية، كي لا يكون مدخلًا للمجد الباطل.

كما ينبغي أن ننأى عن كل شيء يميزنا عن الآخرين ويجعلنا أهلاً للتكريم بينهم، كما لو كنا نحن فقط القادرين على إنجازه.

بهذه العلامات نثبت أن وصمة المجد الباطل عالقّة بنا، الأمر الذي كان يسهل علينا جدًا أن ننجو منه

إذا حسبنا أننا لا نفقد فقط ثمار تلك الأعمال التي أنجزناها بدافع من الخيلاء، بل ونرتكب خطيئة عظمى. وكما أن غير الأتقياء من الناس سيقاسون العذاب الأبدي، إذ نسيء إلى الله بما نفعله في سبيل استرضاء الناس ما كان ينبغي أن نفعله في سبيله هو، هكذا يديننا المطلع على خفايا قلوبنا، إذ آثرنا الناس على الله، ومديح العالم على مديح الرب.

المؤسسات لنظام الشركة للقدّيس يوحنا كاسيان

١٢

في روح الكبرياء^١

الكبرياء أصل كل الشرور

مقال القدّيس يوحنا كاسيان "عن روح الكبرياء" له أهميته الخاصة، ليس للرهبان والمتوحدين فحسب، بل ولكل مؤمنٍ. فمع معالجته العملية لهذه الخطيئة أوضح جانبًا هامًا يمس حياة الكثيرين. فنحن نعلم أن كثيرين خاصة من الشباب يئنون بسبب سيطرة الشهوات الجسدية على أفكارهم، وأحيانًا على أحلامهم. وبالرغم من اهتمامهم الشديد بممارسة وسائل الخلاص من تقديم توبة واعتراف، وتأمل في الكتاب المقدس، وأصوام ومطانيات واشتراك في ليتورجيات كنسية، مع امتناعهم عن الجوانب السلبية المعثرة، إلا أن سلطان الشهوات يحني كياناتهم الداخلي. غالبًا ما يكون "روح الكبرياء" هو علة هذه العبودية المرة، خاصة في التعامل مع القريبين جدًا من الإنسان، مثل الوالدين أو الزوجة أو الزوج أو الأبناء... هكذا يقدم لنا القدّيس كاسيان مفتاحًا خطيرًا يسند المؤمن على الطهارة الداخلية (راجع فصول ٢١-٢٣).

إن كان القدّيس يوحنا كاسيان قد وضع الكبرياء في آخر قائمة الخطايا الرئيسية، لكنه يؤكد أنها أول الخطايا وأخطرها.

يميز القدّيس كاسيان بين نوعين من الكبرياء: نوع يهاجم القدّيسين والكاملين روحياً، حيث يبث فيهم روح البرّ الذاتي، والآخر يهاجم المبتدئين الجسدانيين.

أما خطورة الكبرياء فتظهر في النقاط التالية:

- أهدرت الكبرياء كوكب الصبح (إبليس) إلى جهنم، وهي أول خطيئة واجهت الإنسان الأول في الجنة.
- كل خطيئة تحاول أن تحطم فضيلة أو أكثر في حياة الإنسان، أما الكبرياء فيشبه وحشًا مفترسًا يود أن يقضي على النفس كلها ويجردها من كل فضيلة.
- الله نفسه يعلن أنه يقاوم المستكبرين، الأمر الذي لم نسمع عنه بخصوص أية خطيئة أخرى، لأن الكبرياء موجه ضد الله نفسه.
- جاء السيد المسيح ليقاوم الكبرياء ويشفي المستكبرين باتضاعه... فما نطق به إبليس نطق ضده المخلص بروح متضع. هكذا نتعلم من سقوط إبليس كما من عمل المخلص ضرورة الهروب من الكبرياء

^١ تعريب: اجتماع الشباب الجامعي، كنيسة الشهيد مار جرجس باسبورتج.

والالتجاء إلى الاتضاع.

- يدفع الكبرياء النفس إلى التجديف، ويسلم الإنسان إلى الشيطان، خاصة شيطان الدنس والنجاسة. لهذا يلقي بمن يُحارب بالشهوات الجسدية أن يتأمل أعماقه لئلا يكون وراءها كبرياء خفي.

يقدم لنا القديس يوحنا كاسيان التداريب التالية:

١. الرجوع إلى خبرة آباء الكنيسة المتواضعين، لنقتدي بهم.
٢. الصراخ لله كي يحمي النفس وينميها في الفضيلة.
٣. عدم مقارنة الإنسان نفسه بالفاترين، فيظن أنه أفضل منهم، بل بالملتهبين بالروح، فيتمتع بالتطلع نحو السماويات ولا ينحرف عن هدفه.
٤. مقاومة الكبرياء لا يعني التراخي في الجهاد، بل بالعكس نجاهد واثقين في غنى نعمة الله.
٥. الشكر الدائم على عطايا الله الطبيعية والفائقة، مثل خلقتنا كبشرٍ عاقلين وتقدير الخلاص لنا، وقبولنا أبناء له بالمعمودية، هذا بجانب رعايته الدائمة وعنايته الإلهية اليومية، سواء في الأمور التي نتلمسها أو المستترة عنا.

يقول القديس أوغريس عن الكبرياء:

[أما "شيطان الكبرياء" فهو سبب سقوط النفس المحزن للغاية. إنه يشير على النفس ألا تنتظر إلى الله كمعين لها، بل تنسب إلى ذاتها كل ما هو صالح، فتبتدئ تنتفخ أمام الإخوة، وتحسبهم جهلاء، لأنهم لا يعرفون منزلتها السامية.

الكبرياء يتبعه الغضب والتذمر. والشر الأخير يتبعه خروج الإنسان عن وعيه والغيب ورؤية

شياطين كثيرة في الهواء.]

القمص تادرس يعقوب ملطي

الفصل الأول

المعركة الثامنة عن الكبرياء، وسماتها

معركتنا الثامنة والأخيرة هي ضد روح الكبرياء الشريرة، وبالرغم من أنها الأخيرة في قتالنا ضد أخطائنا، وتحتل المكان الأخير في القائمة، إلا إنها تأتي بحسب الترتيب الزمني في المقدمة. وهي أكثر الخطايا السابقة افتراساً وقسوة وتدميرًا. وبصورة رئيسية تهاجم الكاملين، وتخصص لدعاتها المميّنة لأولئك الذين بلغوا حياة الفضيلة.

الفصل الثاني

نوعان من الكبرياء

بالنسبة للكبرياء **يوجد نوعان**، الأول يزعم الفضلاء والروحانيين، والآخر يهاجم المبتدئين الجسدانيين. ومع أن كلا من النوعين يثير نشوة خطيرة تجاه الله والإنسان، إلا أن النوع الأول يثيرها بالأكثر تجاه الله (أو علاقة الإنسان بالله)، والثاني تجاه الإنسان. بخصوص علة هذا الجانب الأخير والعلاج منه فسنحاول بمعونة الله أن نعالجه قدر الإمكان في الجزء الأخير من هذا الكتاب.

الآن نقترح أن نتحدث قليلاً عن النوع السالف الذكر الذي كما ذكرت قبلاً أنه يُحارب به الكاملون على وجه الخصوص.

الفصل الثالث

الكبرياء محطم كل الفضائل

لا يوجد خطأ ما يحطم كل الفضائل ويسلبها، ويعري الإنسان من كل برّ وقداسة، مثل شر الكبرياء، الذي يشبه وباءً خطيراً يهاجم الإنسان بكليته، ولا يقتنع بإتلاف جزء منه أو عضو واحد، إنما يتلف الجسم كله بتأثيره المميت. يجتهد الكبرياء أن يطرح الإنسان بسقوط مهلك، ويحطم في الحال الذين وصلوا إلى قمة الفضائل.

بالنسبة لأي خطأ آخر يكتفي أن يسبب في الداخل جرحاً في حدودٍ معينة، فإن كان يقاوم بعض الفضائل، لكنه يتجه أساساً ضد فضيلة واحدة فقط ويهاجمها بصفة خاصة.

لكي أوضح قصدي فإن الشراهة وشهوات البطن والأطباق الشهية (الذيذة) تحطم فضيلة العفة (ضبط النفس). والجشع والطمع يشينا أو يعيبا الطهارة أو النقاوة. والغضب يقضي على الصبر. لذلك فالإنسان الذي يكون مستعداً لإحدى هذه الخطايا تنقصه بعض الفضائل... فالشخص ببساطة يُحرم من واحدة من الفضائل عندما يذعن أو يخضع للرذيلة (أو الإثم) التي تقاومه بإغراءاتها، لكنه يستطيع الحفاظ على فضائله الأخرى. لكن عندما تملك هذه الرذيلة مرة على نفسٍ بائسة، فإنها تشبه بعض الوحوش المفترسة (الكاسرة) التي تهدم القلعة السامية للفضيلة، وتحطم المدينة بالكلية وتهدمها، فنقوم الرذائل على هدم حصون القداسة وإرباكها معاً.

إن نير العبودية للكبرياء قاسٍ ومؤلم، وبواسطة قساوته الممزقة يجرد النفس ويقهر كل قوة للفضيلة.

الفصل الرابع

بسبب الكبرياء انقلب كوكب الصبح من رئيس ملائكة إلى إبليس
بهذا تقدر أن تفهم قوته الشنيعة الطاغية

لكي ندرك قوة ذاك الطاغية المرعب لننظر كيف أن ذاك الملاك الذي لأجل عظمة جلاله وبهائه دُعي لوسيفر قد أُلقي خارج السماء بسبب هذه الخطية وحدها. وبسبب طعنه بشوكة الكبرياء طُرح من مركزه العظيم الفخم إلى أسفل كملاك لجهنم. كان كبرياء القلب بمفرده كافياً لأن يطرحه من السماء إلى الأرض. عظمة سقوطه توضح لنا بأي اهتمام ينبغي أن نشعر بالضعف البشري لكي نكون في يقظة من الكبرياء؟

لكن كيف نستطيع أن نتفادى هذا الشر المميت؟ إذا تعقبنا إثر أسباب السقوط الرئيسية نُدرك أنه لا يمكن لهذا لضعف أن يُشفى، كما لا يُجدي العلاج بالنسبة للحالات الصحية السيئة ما لم تُستأصل الأسباب الرئيسية بحكمة وهُدوء. بمعنى أن (لوسيفر) وُهب سموًا إلهيًا ونال حكمة، فظن أن هذا السمو وهذه الحكمة وهذا الجمال، الأمور التي حصل عليها كهبات من الخالق، يتمتع بها بقوة الشخصية وليس من نعم هذا الكريم. بهذا انتفخ كما لو كان في غير حاجة لأية معونة إلهية لكي يستمر في هذه الحالة من النقاوة. وفكر في نفسه أن يكون مثل الله، لا يحتاج إلى أي أحدٍ، واثقًا في قوة إرادته الذاتية، متخيلًا إنه من خلالها يستطيع أن يمد نفسه بغنى بكل شيءٍ ضروري في التدريب على الفضيلة أو حفظ بركتها الكاملة. هذا الفكر بمفرده كان سبب سقطته الأولى، وإذ يبحث الله عنه ظن (الشيطان) إنه غير محتاج إليه. أصبح فجأة مزعزعًا وغير ثابتٍ، وظهر ضعف طبيعته، وفقد التطويب الذي تمتع به كهبة إلهية، لأنه "أحب كلمات الدمار" التي بها تكلم، قائلًا: "أصعد إلى السماء".

بسبب اللسان الخادع الذي به قال لنفسه: "أنا أصير شبيهًا بالعلي"، كآدم وحواء اللذين أرادا أن يصيرا شبيهين بالله، حطمه الله إلى الأبد، كما طرده وحرمه من محل سكناه، فأخذ طريقه إلى الأرض. حينئذٍ إذ يرى البشر الخراب الذي لحق به يخافون منه ويضحكون عليه، ويقولون: هكذا يكون الذين يظنون أنهم في إمكانهم الحصول على السمو الإلهي بدون الحماية أو المعونة الإلهية. هكذا يكون الإنسان الذي لا يكون الله عونته، ويثق في كثرة غناه ويملأه غروره.

الفصل الخامس

الكبرياء منبع كل الخطايا

هذا هو سبب السقطة الأولى، ونقطة البدء في الخطية الأصلية، التي أقحمت نفسها مرة ثانية على الرجل الأول (آدم) الذي دمرته، وأثمرت فيه الضعف وأدوات جميع الأخطاء. لأنه حينما اعتقد إنه بحرية إرادته، وبمجهوداته الذاتية يمكنه أن يكون في عظمة الله، فقد في الحقيقة ذاك المجد الذي كان يتمتع به كعطية الخالق المجانية.

الفصل السادس

خطية الكبرياء هي الأخيرة في ترتيب القتال

لكنها الأولى وأصل الخطايا

يظهر بثبات واضح بالأمثلة والشهادات من الكتاب المقدس إن خطية الكبرياء، بالرغم من تأخر ترتيبها (بين الخطايا) هي أولى الخطايا والأخطاء، وهي لا تموت بالفضيلة المضادة لها (التواضع)، وفي نفس الوقت محطمة لكل الفضائل، ولا تُغري فقط الناس العاديين والبسطاء، لكن بالأكثر الذين يقفون على قمة الشجاعة.

لهذا يتكلم الرسول عن هذه الروح... وكذلك داود الطوباوي، بالرغم من أنه كان شديد الحرص على مخازن قلبه لدرجة أنه تجرأ أن يخاطب الله الذي لا يُخفي عنه أسرار ضمائره (أسراره الداخلية) كما في مز ١٣٠

(١٣١): ١،٢؛ مز ١٠٠ (١٠١): ١،٢. مع هذا لكونه عرف صعوبة السهر حتى بالنسبة للكاملين لم يعتمد على مجهوداته الخاصة، بل صلى إلى الله وطلب معونته، حتى يمكنه أن يخرج منتصرًا من ضربات عدوه قائلاً: "خاصم يا رب مخاصمي، امسك مجنًا وترسًا وانهض إلى معونتي" (مز ١٠٣: ١، ٢). ولأنه خاف وارتعب أن يسقط فيما قيل عن الكبرياء لذلك يقول: "يقاوم الله المستكبرين، وأما المتواضعين فيعطيهم نعمة" (يع ٤: ٦)، "مكرهة الرب كل متشامخ القلب، يداً ليد لا يتبرأ" (أم ١٦: ٥).

الفصل السابع

خطية الكبرياء خطيرة، الله نفسه هو عدوها

يا لخطورة خطية الكبرياء، فإنه لا يوجد أي ملاك ولا طغمة تقف أمام الكبرياء، لكن الله نفسه هو عدوها. يجب أن نأخذ في الاعتبار أنه لم يُقل قط عن هؤلاء الذين سقطوا في خطايا أخرى أن الله يقاومهم، أقصد إنه لم يُذكر أن الله مقاوم للنهمين والزناة والطماعين أو الشرهين، لكن فقط للمتكبرين، لأن في هذه الخطايا يتعامل الذين يرتكبونها أو من يبدو أنهم يرتكبونها ضد أناس آخرين، أما هذه الخطية فتتعامل ضد الله نفسه، لذلك استحققت بجدارة أن يقاومها الله (يع ٤: ٦).

الفصل الثامن

حطم الله كبرياء الشيطان بفضيلة التواضع

هكذا الله الخالق وشافي الكل، الذي يعرف أن الكبرياء هي السبب والمصدر الرئيسي لكل الشرور، أعطى اهتمامًا أن يشفي الضد بال ضد، هذه الأمور التي تتحطم بواسطة الكبرياء يجب أن تُشفى بواسطة التواضع (إش ١٤: ١٣).

مقابل ذلك الذي قال: "أصعد إلى السماوات"، قال الآخر: "تفسي منحنية إلى التراب" (مز ٢٥: ٤٤).
مقابل الذي قال: "أصير شبيهاً بالعلي"، قيل عن الآخر: "إذ كان في صورة الله لم يُحسب خلصة أن يكون معادلاً لله، لكنه أخلى نفسه آخذاً صورة عبد، صائراً في شبه الناس، وإذا وُجد في الهيئة كإنسان وضع نفسه، وأطاع حتى الموت موت الصليب" (في ٢: ٦-٨).

مقابل الذي قال: "أرفع كرسيّ فوق كواكب الله"، قال الآخر: "تعلموا مني لأني وديع ومتواضع القلب" (مت ٢٩: ١١).

مقابل الذي قال: "من هو الرب حتى أسمع لقوله فأطلق إسرائيل" (خر ٥: ٢٠)، قال الآخر: "وإن قلت إنني لست أعرفه أكون مثلكم كاذباً، لكنني أعرفه وأسمع قوله" (يو ٨: ٥٥).

مقابل الذي قال: "تهري لي وأنا عملته لنفسي" (حز ٢٩: ٣)، قال الآخر: "أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً... لكن الآب الحال فيّ هو يعمل الأعمال" (يو ٥: ٣٠، يو ١٤: ١٠).

مقابل الذي قال: "جميع ممالك المسكونة ومجدهن هي لي وأعطيها لمن أريد" (لو ٦: ٤)، قيل عن الآخر: "وهو غني افتقر لكي نغتنى نحن بفقره" (٢ كو ٨: ٩).

لأجل الذي قال: "وكما يُجمع بيض مهجور جمعت أنا كل الأرض، ولم يكن مرفرف جناح، ولا فاتح فم، ولا مصفص" (إش ١٠: ١٤)، قال الآخر: "صرت مثل بومة الخرب، شهدت وصرت كعصفور منفرد على السطح" (مز ١٠٢: ٧، ٨).

من أجل الذي قال: "أنشف ببطن قدمي خلجان مصر"، قال الآخر: "ألا أستطيع الآن أن اطلب إلى

أبي فيقدم لي أكثر من اثني عشر جيشًا من الملائكة" (مت ٢٦: ٥٣).

إذا تأملنا في سبب سقطتنا الأولى وأسس خلاصنا وتأملنا بواسطة من وبأي طريقة وُضع أساس الخلاص، وكيف بدأ السقوط، نتعلم سواء من سقطة الشيطان أو من مثال المسيح كيف نتجنب موت الكبرياء المرعب.

الفصل التاسع

كيف نتغلب على الكبرياء

يمكننا أن نهرب من فخ هذا الرمح الأكثر شرًا، إذا كنا عندما نشعر بأننا أحرزنا نجاحًا أو تقدمًا في أية فضيلة نقول كلمات بولس الرسول: "لست أنا بل نعمة الله التي معي" "ولكن بنعمة الله أنا ما أنا" (١ كو ١٥: ١٠)، و"أن الله هو العامل فينا أن نريد وأن نعمل من أجل مسرته" (في ٢: ١٣). يقول ينبوع خلاصنا نفسه: "الذي يثبت فيّ وأنا فيه هذا يأتي بثمر كثير لأنكم بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئًا" (يو ١٥: ٥)، "وإن لم يبين الرب البيت فباطلاً تعبُ البناءون، وإن لم يحرس الرب المدينة، فباطلاً يسهر الحارس، وباطل هو لكم أن تذكروا إلى القيام" (مز ١٢٧: ١، ٢)، "إذن ليس لمن يشاء ولا لمن يسعى بل الله الذي يرحم" (رو ٩: ١٦).

الفصل العاشر

لا يمكن لأحد أن يصل إلى كمال الفضيلة

ويأخذ وعد البركة بقوته الذاتية بمفردها

لا يمكن بإرادة أي إنسان أو رغبته مهما كانت غيرته واشتياقه للفضيلة أن يصل إلى مكافأة الكمال وشرف الطهارة المستقيمة، وإن تكون هذه الإرادة كافية، طالما هو مُحاط بالجسد الذي يحارب الروح، ما لم تسنده مراحم الله.

ولكي يدرك رغبته العظيمة التي يسعى إليها عليه أن يدرك "أن كل عطية صالحة وكل موهبة تامة هي من فوق نازلة من عند أبي الأنوار" (يع ١: ١٧)، "لأنه من يميزك وأي شئ لك لم تأخذه، وإن كنت قد أخذت، فلماذا تفتخر كأنك لم تأخذ؟!" (١ كو ٤: ٧)

الفصل الحادي عشر

توضيح نعمة الله في حالة اللص

وحالة داود وفي دعوتنا نحن

إذا تذكرنا أن اللص الذي بواسطة اعترافٍ وحيدٍ دخل إلى الفردوس (لو ٢٣: ٤٠)، نشعر أنه لم ينل مثل هذه البركة بواسطة استحقاقات حياته، بل حصل عليها بعطية رافة الله. وإذا وضعنا نصب أعيننا خطيتنا الملك داود الفظيعة الشنيعة اللتين مُحيتا بكلمة انسحاق واحدة (٢ صم ١٢: ١٣)، نرى أنه لم تكن استحقاقات أعمالهما كافية لحصولهما على غفران خطاياهما العظيمة، لكن نعمة الله ازدادت عندما أظهر الانسحاق الحقيقي وانتقل ثقل الخطية الكامل خلال اعترافهما الكامل في عبارة واحدة.

إذا وضعنا في الاعتبار أيضًا بداية دعوة البشرية وخلصها كما يقول الرسول نرى أننا لم نخلص بواسطة أنفسنا ولا بأعمالنا، بل بواسطة عطية الله ودعوته، ونستطيع أن نرى بوضوح كيف أن إتمام الكمال ليس "لمن يشاء ولا لمن يسعى بل لله الذي يرحم"، الذي يجعلنا منتصرين على أخطائنا بدون أي استحقاق لأعمالنا أو

حياتنا التي نعطيها أهمية أكثر مما يجب من جانبنا، أو أي مجهود لإرادتنا يساعد في التغلب على صعوبات الفضيلة الشديدة أو في قمع الجسد الذي نستخدمه.

ليست أتعاب الجسد ولا ندامة القلب في ذاتها كافيتين للحصول على طهارة الإنسان الداخلي حتى يمكننا أن نحصل على فضيلة النقاوة العظيمة (الموجودة فطرياً في الملائكة سكان السماء، لا بواسطة المجهود البشري وحده بدون معونة الله). لأن إتمام كل شيء حسناً يفيض من نعمته. من منا بكثرة فضله يخول مثل هذه البركة الأخيرة وهذا المجد العظيم بإرادتنا الضعيفة وسبيل حياتنا القصيرة الزهيدة؟!

الفصل الثاني عشر

أي عناء نحتمله لا يُقابل بوعد البركة

عناء كل السنين الطويلة لهذه الحياة الحاضرة يختفي عندما ننظر إلى أبدية المجد العتيد، وكل أحزاننا ستتلاشى بالتفكير في البركة العظيمة، وتصير كالبخار الذي يضمحل وكأنها لم تكن؛ تشبه البرق الذي حالما يختفي.

الفصل الثالث عشر

تعليم الآباء في طريقه اكتساب الطهارة

إنه وقت لإبراز الكلمات المُحققة التي اختبرها الآباء، هؤلاء الذين لم يتركوا طريق الكمال. يلزمنا الطاعة لوصيتهم بكلماتهم المسموعة، التي بنوع ما اقتنوها فعلاً، وتمتعوا بالفضيلة التي لأرواحهم التي مروا بها بتجاربهم الخاصة وأمثلتهم المؤكدة، لذلك قالوا: لا يستطيع أحد أن يكون نقيًا بالجملة من الخطايا الجسدية ما لم يفهم أن كل عمله ومجهوداته غير كافية لأجل نهاية عظمة الفضيلة.

الفصل الرابع عشر

تُعطي معونة الله للذين يجاهدون

لا أقول هذا لكي نقلل من شأن المجهود البشري، أو نحبط سعي أي إنسان للوصول إلى غرضه وبذل مجهوده، ولكن لنوضح بأكثر اجتهاد، ونبسط دون إبداء رأيي الخاص بل رأي الآباء أن الكمال ليس من الممكن الوصول إليه بسهولة بغير إرادتهم، ولكن بواسطتها وحدها لا يستطيع أحد الوصول إليه.

عندما نقول أن المجهود البشري لا يستطيع بمفرده أن يحمينا بدون مساعدة الله، نُصر على أن مراحم الله ونعمته هي التي تخول هؤلاء الذين يجاهدون ويكافحون استعمال تعبير الرسول لهم "نريد ونسعى..."

إذن نقول هذا بالنظر إلى كلمات مخلصنا التي تعطي الذين يسألون، وتفتح للذين يطرقون، وتوجد للذين يسألون (مت ٧: ٧). لكن السؤال والطلب والقرع من جانبنا لا يكفي ما لم تعطنا رحمة الله ما ينبغي أن نسأله، وتفتح الباب الذي نقرعه، وتؤهلنا أن نأخذ ما نطلبه. من جانبه يمنح كل الأشياء فقط إذا أُعطيت له الفرصة برغبتنا الخاصة، لأنه يرغب ويبحث عن كمالنا وخلصنا أكثر وأبعد مما نريد نحن أنفسنا.

يعرف الطوباوي داود جيداً أنه بمجهوده الخاص لا يستطيع أن يسند نموه في العمل والجهد، إذ يترجى باستمرار بصلواته لكي يستطيع الحصول على إرشادات من الرب...

الفصل الخامس عشر

ممن نقدر أن نتعلم طريق الكمال

إذا كنا نرغب حقاً وبصورة جدية في الوصول إلى قمة الفضائل يجب أن نستمع إلى هؤلاء المعلمين والمرشدين الذين لم يكونوا واهمين ومفتخرين بممارستهم، لكنهم علموا بالفعل والخبرة، لكي يعلموننا جيداً ومباشرة بالقدوة، ويوضحوا لنا الطريق الذي بواسطته نستطيع أن نصل إليه بطريقة مؤكدة، وأظهروا أنهم هم أنفسهم وصلوا إليه بالإيمان أكثر منه باستحقاق جهودهم.

بالإضافة إلى ذلك، فإن طهارة القلب التي اكتسبوها تعلمهم هذا فوق كل شيء. كمثال لكي نتعرف على هذا أكثر فأكثر علينا أن ندرك أنهم شعروا بثقل الخطية حتى يمارسوا التائب على خطاياهم المتزايدة يوماً بعد يوم، وما يصيب تقدمهم في طهارة نفوسهم، وتتهدهم باستمرار من أعماق قلوبهم، لأنهم رأوا أنه من غير الممكن تجنب وصمات وشوائب هذه الأخطاء التي تلطخوا بها خلال أفكارهم الحقيرة التي لا تُحصى. هكذا أعلنوا أنهم ينتظرون مكافأة الحياة الأبدية لا عن استحقاقات أعمالهم، ولكن من قبل مراحم الله.

إنهم لا يمجدون أنفسهم على حساب الظروف المحيطة بهم، مقارنين أنفسهم بالآخرين، إذ لا

ينسبون ذلك إلى اجتهداهم الذاتي بل إلى النعمة الإلهية، دون مدح أنفسهم على حساب تهاون من هم باردون وأردأ منهم. لكنهم بالأحرى يركزون أنظارهم على من يهدفون إلى الاستمرار في التواضع، بتنشيت نظرهم على الذين هم بالحق أحرار من الخطية ويتمتعون فعلاً بالبركة ويتجنبون السقوط في الكبرياء وفي نفس الوقت يتطلعون دومًا نحو ما يهدفون إليه وما يجب أن يحزنوا عليه، إذ يعرفون أنهم لا يستطيعون أن ينالوا نقاوة القلب التي يبتغونها وهم مازالوا منحنيين تحت ثقل الجسد.

الفصل السادس عشر

لا نستطيع أن نبذل مجهودنا لكي نحصل على
الكمال بدون رحمة الله

يجب علينا توافقًا مع تعليم الآباء وثقافتهم أن نجتهد في الأصوام والصلوات والسهرة وانسحاق القلب والجسد، خوفًا من أن نقلل من أهمية كل هذه الأشياء، وأن نفقد فائدتها عن طريق هجوم هذا المرض. لذلك يجب علينا أن نؤمن أننا ليس فقط لا نستطيع حماية الكمال العملي بواسطة مجهوداتنا الذاتية والتنفيذ العملي، لكننا أيضًا لا نستطيع أن ننجز هذه الأشياء التي نمارسها من أجل ذاتها، فلا نمارس جهادنا وعملنا ورغباتنا بغير معونة الحماية الإلهية ونعمة عمله فينا وتأديباته ونصائحه، هذه التي يظل بها عادة في قلوبنا، سواء عن طريق آخرين أو بشخصه حين يفقدنا.

الفصل السابع عشر

نصوص مختلفة توضح أننا لا نستطيع عمل أي شيء
يختص بخلاصنا بدون معونة الله

أخيرًا فإن مصدر خلاصنا يعلمنا ليس فقط ما ينبغي علينا أن نفكر فيه لكن أيضًا أن نعرف في كل شيء ما ينبغي أن نعمله. إنه يقول: "لا أستطيع من ذاتي أن أعمل شيئًا ولكن أبي الحال فيّ هو يعمل الأعمال" (يو ٣٠: ٥؛ يو ١٤: ١٠). يقول بحسب الطبيعة البشرية التي أخذها أنه لا يستطيع عمل أي شيء من نفسه، بينما نحن التراب والرماد نظن أننا لسنا في حاجة إلى معونة الله في ما يتعلق بخلاصنا. هكذا نتعلم في كل شيء أن نشعر بضعفنا الطبيعي، وفي نفس الوقت ندرك معونته، فنقول مع القديسين: "دحرتني دحورًا لأسقط، أما الرب فعضدني. قوتي وتسبحتي الرب، وقد صار لي خلاصًا" (مز ١١٨: ١٣، ١٤)، "لولا أن الرب معيني لسكنت نفسي سريعًا أرض السكوت، إذ قلت قد زلت قدماي فرحمتك يا رب تعضدني" (مز ١٧: ٩٤-١٩). ناظرين أيضًا أن قلوبنا نتقوى في مخافة الرب وفي الصبر، فنقول: "وكان الرب سندي، أخرجني إلى الرحب" (مز ١٨: ١٨)، "وإذ نعلم أن المعرفة تنمو بالتقدم في العمل، نقول: "لأنك تضيء مصباحي أيها الرب، يا إلهي أنر ظلمتي، لأنه بك أخلص من التجربة وبك أتحصن". حينئذ نشعر نحن أنفسنا بالانتماء إلى الشجاعة والصبر ونسير في طريق الفضيلة مباشرة وبسهولة عظيمة وبغير جهد، فنقول: "إنه الله الذي يمنطقني بالقوة ويجعل طريقي كاملة، الذي يجعل قدمي كقدمي الأيل، ويجلسني في الأعالي، ويعلم يدي الحرب".

نملك أيضًا روح التمييز، فننقوى بذاك الذي به نستطيع أن نقهر أعداءنا، ونصرخ إلى الله: "تأديبك جاء عليّ إلي النهاية، وسوف يعلمني تأديبك، توسع خطواتي تحتني فلم تتقلقل عقباي، ولأني أنا هكذا أتقوى بمعونتك وقوتك". بجسارة أقول هذه الكلمات: "أتبع أعدائي فأدركهم، ولا أرجع حتى أفنيهم. أسحقهم فلا يستطيعون القيام، يسقطون تحت رجلي" (مز ٣٧: ١٨، ٣٨).

مرة ثانية نراعي ضعفنا الخاص ونذكر هذه الحقيقة أنه بينما نظل مثقلين بالضعف الجسدي لا نستطيع بدون معونته أن نغلب مثل هؤلاء الأعداء (خطايانا)، فنقول: "بك سوف نشنت أعدائنا"، "باسمك ندوس القائمين علينا، لأنني علي قوسي لا أتكلم، وسيفي لا يخلصني، لأنك أنت خلصتنا من مضايقتنا، أخزيت مبغضينا" (مز ٤٤: ٦-٨)، لكن فضلاً عن ذلك "تمنطقي بقوة للقتال، تصرع تحتي القائمين عليّ، وتعطني أفضية أعدائي ومبغضي أفيهم" (مز ١٨: ٣٩-٤٠).

إذ نتأمل أننا بأسلحتنا الخاصة لا نستطيع أن نغلب، نقول:

"امسك مجنًا وترسًا وانهض إلى معونتي، وأشرع رمحًا وصد تلقاء مطاردي. قل لنفسك: خلاصك أنا" (مز ٣٥: ٣، ٢).

"وتجعل يدي كسهم من نحاس، وتجعل لي ترس خلاصك ويمينك تعضدني" (مز ٣٥: ١٨).

"آبائنا ليس بسيفهم امتلكوا الأرض، ولا ذراعهم خلصتهم، لكن يمينك وذراعك ونور وجهك، لأنك رضيت عنهم" (مز ٤٤: ٥).

أخيرًا بعقل مملوء غير نتأمل في كل بركاته بالشكر، فنصرخ إليه بمشاعر قلبية عميقة لأجل كل هذه الأمور، لأننا قاتلنا وأخذنا منه نور المعرفة وضبط النفس والتمييز (الفطنة)، ولأنه زودنا بأسلحته الخاصة، ومنطقنا بالفضيلة وجعل أعداءنا يهربون من أمامنا، وأعطانا القوة أن نحطمهم ونجعلهم كالرماد أمام الريح. "أحبك يا رب يا قوتي، الرب صخرتي ومنقذي، إلهي صخرتي به أحتمي، ترسي وقرن خلاصي وملجأ، أدعو الرب الحميد فأتخلص من أعدائي" (مز ١٨: ٢-٤).

الفصل الثامن عشر

كيف أصبحنا في حماية بواسطة نعمة الله،

ليس فقط بعطاياه الطبيعية، لكن أيضًا بعنايته الإلهية اليومية

إننا ليس فقط نسعى إليه شاكرين لأنه أوجدنا مخلوقات عاقلة، ومنحنا قوة حرية الإرادة، وأنعم علينا ببركة نعمة المعمودية، ووهبنا المعرفة والناموس، بل وأيضًا لأجل كل ما يمنحنا إياه بحمايته اليومية، إذ ينجينا من دهاء أعدائنا، ويعمل معنا فينفذنا من خطايا الجسد، وبدون معرفتنا لها يعطينا درع حمايته لنا من المخاطر، ويحمينا من السقوط في الخطية، ويساعدنا وينيرنا. بهذا نستطيع أن نفهم ونتعرف علي مساعدته اليومية التي يعطينا إياها (والتي بعضًا منها معروف بواسطة الناموس)، وأيضًا خلال سلطانه السري ننعيم بتأنيب ضميرنا لارتكابنا الخطايا والإهمال. إنه يفقدنا باهتمامه بنا وتأديبنا من أجل سلامة نفوسنا حتى أننا أحيانًا بغير إرادتنا نجد أنفسنا مرارًا منجذبين بواسطته نحو خلاصنا.

أخيرًا فإن إرادتنا الحرة هذه التي تنحرف إلى الخطية كثيرًا ما تتحول بواسطته إلى غرض نبيل، وبواسطة تأهبه واقتراحه، يجعلنا نميل في اتجاه طريق الفضيلة.

الفصل التاسع عشر

تسلمنا الإيمان المرتبط بنعمة الله من قبل آباءنا القدماء

هذا هو التواضع أمام الله. هذا هو الإيمان الحقيقي لآبائنا القدماء الذي ظل مستمرًا مع خلفائهم.

من أجل هذا الإيمان، فإن الفضائل الرسولية، التي كثيرًا ما كانت تظهر، تحمل شهادة غير مشكوك فيها، ليس فقط وسطنا نحن، لكن أيضًا وسط الكافرين وغير المؤمنين، لكي يحفظوا في بساطة قلوبهم الإيمان البسيط الذي للصيادين.

لم يتسلموه بروح العالم خلال المنطق أو فصاحة شيشرون، لكن تعلموه بخبرة السيرة نقية، والسلوك بلا دنس ويتصحح أخطائهم و(نقول بالحقيقة بالأكثر أنه) بالبراهين الملموسة، ألا وهي سمة الكمال العملي للإيمان، والذي بدونه لا وجود للتقوى أو الطاعة نحو الله، ولا أي تطهير لخطايانا، ولا تقويم للحياة، ولا كمال للفضيلة المؤكدة.

الفصل العشرون

شخص غلبه روح شرير بسبب التجديف

أعرف شخصًا من بين الإخوة الذي كنت بكل قلبي أرغب أن لا أعرفه مطلقًا، سمح لنفسه أن يصير مرهقًا بمسئوليات (الكهنوت)، اعترف لأعظم شيخ أنه حُورب بخطية جسدية مرعبة. لقد اشتعل برذيلة الشهوة غير المحتملة، برغبة غير طبيعية للهوى... لكن الآخر كطبيبٍ روحي حقيقي في الحال أدرك السبب (الداخلي) وأصل هذا الشر، تنهد بعمق قائلاً: "ما كان الله يسمح لك البتة أن تنهزم بهذه الروح الشريرة لو لم تجدف عليه".

عندما كشف هذا في الحال سقط عند قدميه علي الأرض، وصُنع في دهشة عظيمة كما لو كان الشيخ قد رأى أسرار قلبه عارية بعمل الله. اعترف أنه جدف بأفكار شريرة ضد ابن الله. فإنه من الواضح أنه إذا سكن أحد روح الكبرياء أو ارتكب تجديفًا ضد الله كإنسان يخطئ في حق من كان يجب أن يُنتظر منه هبة الطهارة، مثل هذا الشخص يُحرم من القيام والكمال ولا يستحق نعمة الطهارة المقدسة.

الفصل الحادي والعشرون

مثال يواش ملك يهوذا يوضح لنا ثمار الكبرياء

نقرأ عن أمر كهذا في سفر الأخبار عن يواش ملك يهوذا. عندما كان في السابعة من عمره استدعاه يهوياح الكاهن ليصير ملكًا، وبشهادة الكتاب المقدس مُدح من أجل كل أعماله أثناء حياة الكاهن سالف الذكر، لكننا نسمع عنه بعد موت يهوياح كيف انتفخ بالكبرياء وسُلم إلى حالة أكثر خزيًا. "وبعد موت يهوياح جاء رؤساء يهوذا وسجدوا للملك، حينئذ سمع الملك لهم، وتركوا بيت الرب إله آبائهم، وعبدوا السواري والأصنام، فكان غضب علي يهوذا وأورشليم لأجل إثمهم هذا" (٢أى ١٨، ٢٤: ١٧). قيل بعد قليل: "وفي مدار السنة صعد عليه جيش أرام، وأتوا إلى يهوذا وأورشليم وأهلكوا كل رؤساء الشعب من الشعب وجميع غنيمتهم أرسلوها إلى ملك دمشق، لأن جيش أرام جاء بشرذمة قليلة، ودفع الرب ليدهم جيشًا كبيرًا جدًا، لأنهم تركوا الرب إله آبائهم. فأجروا قضاءً علي يواش، وعند ذهابهم عنه، لأنهم تركوه بأمراض كثيرة" (٢أى ٢٤: ٢٣-٢٥).

ها أنت ترى كيف أن شهوة الكبرياء سلمته لشهوات دنس مخجلة من أجل أنه انتفخ بالكبرياء وسمح لنفسه أن يُعبد كإله، كما يقول الرسول: "لذلك أسلمهم الله إلى أهواء الهوان وإلى ذهن مرفوض ليفعلوا ما لا يليق" (رو ١: ٢٦، ٢٨)، ولأن الكتاب المقدس يقول: "مكرهة الرب كل متشامخ القلب" (أم ١٦: ٥). ذاك الذي انتفخ بكبرياء القلب المتزايد يسلم لعارٍ وخزي عظيمين ليُغوي بها.

هكذا عندما يتواضع يجب أن يعرف أنه اتسخ بدنس الجسد ومعرفة الشهوات الدنسة، الشيء الذي رفض أن يعرفه عندما كان في كبرياء قلبه. أيضاً هذا الفساد المخزي الذي للجسد يمكن أن يفضح دنس القلب المختفي الذي ارتبط به من خلال خطية الكبرياء، وكأن فساد جسده الواضح يمكنه أن يبرهن علي تلوثه الذي لم يكن يراه فيما مضى، فيعرف أنه أصبح دنساً من خلال كبرياء روحه.

الفصل الثاني والعشرون

سقوط كل نفس متكبرة تحت خداع روح شريرة

ظاهر بوضوح أن كل نفس يبتلعها الكبرياء المتزايد تُسلم إلى روح آرامية^٢، أي إلى روح شريرة، وهذا يوقعها في شباك شهوات الجسد. أخيراً تصبح النفس مذلولة بأخطاء أرضية ونجاسات دنسة، فتعرف فذارتها. ورغمًا من أنها تقف منتصبة، لكن في برودة قلبها لا تستطيع أن تفهم أنه خلال الكبرياء قلبها صارت دنسة في نظر الله، بهذا تصير ذليلة.

يجب على الإنسان أن يتخلص من فتوره السابق، ويصير منسحق النفس، ويعترف بخزي شهواته الجسدية حتى يستطيع من ذلك الوقت فصاعداً ويسرعة أن يصير أكثر غيرة على حرارة روحه.

الفصل الثالث والعشرون

لا يُمكن الحصول على الكمال إلا من خلال فضيلة التواضع

يظهر بوضوح أنه لا يستطيع أحد الوصول إلى حد الكمال والطهارة إلا بواسطة الاتضاع الحقيقي الذي ظهر في المثال الأول للإخوة، ويعلن الله بعمق قلب الاعتقاد أنه بدون حمايته ومساعدته العظيمة له في كل لحظة لا يستطيع بسهولة أن يصل إلى الكمال الذي يريده ويبادر إليه بحماسٍ كثيرٍ.

الفصل الرابع والعشرون

من الذي يُهاجم بالكبرياء الروحي ومن الذي يُهاجم بالكبرياء الجسداني

يكفينا ما تحدثنا به قدر طاقتنا بمعونة الله عن الكبرياء الروحي؛ نقول إنه يهاجم المسيحيين المتقدمين. هذا النوع من الكبرياء غير مألوف ولم يختبره معظم الناس، لأن الأغلبية لا يهدفون إلي الحصول علي نقاوة القلب الكاملة لكي يصلوا إلى مرحلة الصراعات، ولا بلغوا أية نقاوة من الأخطاء السابقة التي تم شرح سماتها والعلاج منها في كتب منفصلة. إنها بصفة عامة تهاجم الذين هزموا الأخطاء السابقة وبلغوا فعلاً إلى قمة شجرة الفضائل. ولأن عدونا المحتال الماكر لم يكن قادراً علي تحطيمهم بالأخطاء الجسدية يسعى أن يطرحهم ويقهرهم بكارثة روحية، محاولاً بهذا أن يسلبهم جعالة مكافأتهم القديمة المضمونة عندما كانوا يجاهدون بعملٍ عظيمٍ.

أما بالنسبة لنا نحن الذين مازلنا ساقطين في شباك شهوات أرضية، فإن الشيطان لا يخطط لكي يجربنا بهذه الطريقة، لكنه يقهرنا بواسطة الكبرياء الجسداني. لذلك أظن أنه حسن بي أن أقول القليل عن هذا النوع من الكبرياء كما وعدت، هذا الذي عادة نتأثر به نحن ومن علي شاكلتنا، خاصة الشبان والمبتدئين المعرضين للخطر.

^٢ يقصد أنها تسقط مثل يواش بواسطة جيش آرام.

الفصل الخامس والعشرون

وصف للكبرياء الجسداني،

والشُرور التي تنشأ عنه في نفس الراهب.

يجد هذا الكبرياء الجسداني الذي تحدثنا عنه له مدخلاً إلى قلب الراهب المُصاب بفتورٍ روحيٍّ والذي لم ينبذ العالم كما يجب منذ البداية. هذا النوع من الكبرياء لا يُلزمه على التخلي عن حالته الأولي من التكبر العالمي إلى التواضع الحقيقي في المسيح.

فأول ذي بدء يجعله عنيداً وجافاً، ثم يحرمه من أن يكون لطيفاً ورؤوفاً، ولا يسمح له أيضاً أن يكون مشابهاً اخوته أو مثلهم يتجرد من ممتلكاته الأرضية كما أوصانا إلهنا ومخلصنا.

زهد العالم ما هو إلا علامة الإماتة والصلب. لا يمكن للراهب أن يبدأ بأية نقطة أخرى غير هذه، فهذا هو الأساس الوحيد الذي يقوم عليه. يجب عليه أن يدرك أنه لا يموت روحياً عن أعمال هذا العالم فحسب، بل ومن واجبه أن يموت بالجسد كل يوم. هذا يجعله لا يتمنى أن تطول حياته، وإن كان أمامه صراع طويل مع ضعفاته ونقائصه عليه أن يخوضه، إذ أن هذا الثقل يجعله يُصاب بالشعور بالعار والارتباك.

فعندما يتجرد (الراهب الساقط تحت الكبرياء الجسداني) من كل شيء يبدأ يحتاج إلى مساندة من أموال الآخرين وليس من عندياته، مع أنه كان خير له أن يعتمد على عمل يديه ليقفاته خبزه ويجد كسوته دون الالتجاء إلى الآخرين، كما جاء في النص الذي ذكرناه سابقاً، وهو أن الذين أصيبوا بالغباء بسبب هذه البلادة وبرودة القلب لا يستطيعوا أن يفهموا الكلمات: "مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ" (أع ٢٠: ٢٥).

الفصل السادس والعشرون

الرجل الذي يبني على أساس سيئ ينحدر يومياً من سيئ إلى أسوأ

يوجد من يملك عليهم مثل هذا الارتياح الذهني ويستميلهم الشيطان بعيداً عن شرارة الإيمان التي كانت مشتعلة بداخلهم حين آمنوا في الأيام الأولي، فيتحول مثل هؤلاء إلى محبة المال بشغفٍ شديد، وقد كانوا قبلاً متجردين منه. بل ويكنزونه بجشعٍ عظيمٍ كأناس لا يعرفون كيف يسترجعون ما قد دفعوه عنهم سابقاً.

يبقي نوع ثالث أيضاً يثير الاشمئزاز بالأكثر ألا وهو أن يجمع الإنسان ما لم يكن قط ملكاً له.

أصحاب هذه النوعية الأخيرة يُتهمون بأنهم لم يجنوا من ترك العالم أكثر من لقب الرهينة وشكلها. بهذه البداية إذاً وعلى هذا الأساس السيئ للغاية والفاقد يكون البناء المشيد فوقه من الطبيعي مجموعة من الأخطاء. ومن المؤكد أن كل ما يشيد على هذا الأساس الخسيس سوف يحدّر الروح البائسة إلى الحضيض في انهيار ميئوس منه.

الفصل السابع والعشرون

وصف الأخطاء التي تنشأ في خطية الكبرياء

الذهن الذي يتحجر بهذه المشاعر ويحمل في مستهل حياته مثل هذه البرودة البائسة لابد أن ينحدر يومياً من سيئ إلى أسوأ وتكون نهاية حياته شنعاء. وبينما يجد لذة في شهواته الأولي، ويُغلب كما من جشع شرير، إذ يقول الرسول عنها: "الطمع الذي هو عبادة الأوثان" (كو ٣: ٥) ويقول ثانية: "محبة المال هي أصل

لكل الشرور" (١٠:٦)، لا يستطيع أن يقتنى قلبياً الاتضاع الصادق والحق الذي للمسيح. هكذا نجد مثل هذا الشخص يفخر بثبل مولده، أو ينتفخ بمركزه السامي في العالم (الذي هجره بالجسد لكنه مازال يملك على ذهنه)، أو يفخر بثرائه الذي يحتفظ به لتدميره. نتيجة هذا لا يروق له بعد أن يحمل نير الدير أو يتلقى إرشادات وتعاليم من أي أب من الآباء. وليس فقط يعترض على تنفيذ أي قانون في خضوعٍ وطاعة، بل ويرفض الإنصات لأي تعاليم عن الكمال.

ينمو مثل هذا النفور داخل قلبه حتى إن أثير مثل هذا الحديث لا يستطيع أن يركز نظره على نقطة واحدة، بل يجول بعينه هنا وهناك بلا تعبير، وهذه هي عادة مثل هؤلاء. وأيضاً نجده يفتعل السعال، ويفرق أصابعه، ويبعث بهم ويخريش مثل إنسان يكتب، ويتململ في جلسته، ويحرك ساقيه بحركات عصبية، فتظنه في جلوسه وسط هذا المجال في الأحاديث الروحية وكأنه جالس على أشواك، بل وعلى أشواك حادة جداً، أو وسط كمٍ من الديدان.

وإذا أدير الحديث ببساطة عن شيء ما ذي نفع للسامعين يتوهم أن هذا قد جاء ذكره في الحديث عمداً من أجل نصحه هو وإرشاده. وكلما استرسل الحديث من أجل اختبار الحياة الروحية يظل مأخوذاً بأفكار الشك والريبة ولا يهتم بأن ينتفع بالحديث لبنائه الروحي. وللأسف كل ما يهيمه هو البحث عن السبب وراء ما قيل، أو يدور في ذهنه كيف يثير اعتراضات على ما يقال، فلا يخرج بشيء من كل ما يُقال للمنفعة. فتكون النتيجة عكسية، إذ يصيبه الضرر عوضاً عن النفع، وتصير له فرصة لخطية أعظم.

وبينما يُنخس ضميره ويتوهم أنه هو المُستهدف في كل ما قيل يزداد بالأكثر عناد قلبه، وتشتد استجابته لوخزات الغضب، فيعلو صياحه، ويصير حديثه خشناً، وإجاباته مرة ومزعجة، ويمشي بخيلاء وبحسب هواه. وتصير الكلمات حاضرة على لسانه ويتقدم في الحديث، إذ لا يكون الصمت صديقه إلا عندما يري في قلبه شيئاً من المرارة تجاه أخٍ ما. وهذا الصمت حينئذ لا يُنبئ بالندم أو الاتضاع، بل بالكبرياء والغضب. فمن الصعب أن تحكم أي الأمرين فيه هو الكريه بالأكثر، هل هو القصف الصاخب بلا ضابط، أم رزائنه المميّنة المرعبة. ففي الأولى نرى ثرثرة في غير محلها وضحكاً عابثاً وداعراً ومرحاً غير منضبط وبلا نظام، وفي الأخيرة نجد صمتاً مملوء غضباً ومُرعباً، ناشئاً ببساطة عن الرغبة في الاستمرار في مشاعر الحقد إلى أطوال أمد. هذه المشاعر التي تترعرع في صمت ضد بعض الإخوة وليس عن رغبة في اقتناء فضيلة الاتضاع والصبر.

الإنسان الذي يصير فريسة للغضب الشديد يثير في نفوس الآخرين البؤس والقنوط. إنه ليس فقط يستحي أن يعتذر لأخيه الذي أساء إليه، بل وحين يتقدم الآخر للاعتذار له يرفض ذلك وينتهره. فإن مبادرة الإخوة لا تليّن قلبه ولا تمسه، بل بالأحرى تثير غضبه بالأكثر، إذ يسبقه أخوه ويفوقه في فضيلة التواضع. وفي العادة يصير هذا التواضع الكامل للغير والاعتذار الذي يُقدم لكي يضع حداً للتجربة الشيطانية بالنسبة له فرصة لانفجار الغضب.

الفصل الثامن والعشرون

عن كبرياء أحد الإخوة، إذ أطاع إلى وقت ما

سمعت عن أمرٍ ما أثناء إقامتي في هذه المنطقة روعني، أخجل من تذكره. انتهر أحد الآباء راهباً

مبتدئًا بدت عليه علامات نبذ فضيلة التواضع، وقد جاز حرب الكبرياء لمدة محدودة أثناء الفترة الأولى لتركه العالم وصارع فيها ضد الشياطين. فجاءت إجابته وقحة للغاية إذ قال: "هل أدللت نفسي لوقتٍ ما عن قصد حتى أصير في خضوع مستمر؟! "ذهل الآب من هذا الجواب الجائر والكريه، وإذا كان مندهشًا فلم ينطق بكلمة، كأنما قد تلقى هذه الإجابة من لوسيفر القديم نفسه وليس من إنسانٍ. ولم يسعه أن يرد بكلمة عن هذه الوقاحة إلا بتهدات قلبه وأناته وقد دار في ذهنه بصمت ما قيل عن مخلصنا: "وإذا وُجد في الهيئة كإنسان، وضع نفسه وأطاع"، ليس كما قال الرجل الذي كان في قبضة روح شيطانية "لوقتٍ ما"، بل "حتى الموت" (في ١١: ٦، ٨).

الفصل التاسع والعشرون

العلامات التي بها تُدرك أن الكبرياء الجسداني متمكن في الروح

دعنا نجمع معًا وباختصار ما قيل عن هذا النوع من الكبرياء، فنجمع على قدر الإمكان بعض علاماته حتى يمكننا أن نقدم إلى العطشى نحو الإرشاد في طريق الكمال فكرة عن خصائصه مستقاة من حركات الإنسان الخارجي.

أظن أنه من الأفضل أن نكشف عنه في كلمات قليلة حتى يسهل لنا أن نميز العلامات التي بها نتبينه. لأنه إذ تتعزى جذور هذا الألم، وتطفو على السطح، وتصير ظاهرة للعين، حينئذٍ يسهل اقتلاعها ويمكن تجنبها. بهذه الطريقة وحدها يهرب هذا الشر الأكثر خطورة. فإذا قمنا بمقاومة هذا اللهب الخطر بسطوته الهدامة قبل أن يتمكن منا وقبل أن يكون الوقت قد تأخر، أي ندرك أعراضه مبكرًا، حينئذٍ نحتاط منه بترؤٍ وحكمة. وكما قلنا أن طريقة سير الإنسان الخارجية تنبئ عن حالته الداخلية. هكذا وبهذه العلامات نرى ما هو على الساقط تحت هذا الكبرياء الجسداني الذي تحدثنا عنه قبلاً.

في البداية نجده في أحاديثه يصيح وتعلو نبرات صوته، وفي صمته تُوجد مرارة.
في مرحه يكون مزعجًا ومبالغًا في ضحكاته، وفي جديته يكون مَكمَد الوجه بلا داعي.
تأتي إجاباته مفعمة بروح الحقد، ولسانه طليق بلا ضابط، وكلماته تتدفق كيفما اتفق بلا وزن.
يفتقر تمامًا لطول الأناة، بلا رحمة.
يقذف الآخرين بشتائم وقحة يجبن أن يحتملها هو نفسه.
مثير للمتاعب عندما تُطلب منه الطاعة، إلا إذا جاء ما يُطلب منه متفقًا مع رغباته ويحلو له.
لا يسمح لأحدٍ أن ينصحه، ولا يستطيع أن يتخلى عن تنفيذ رغباته.
شديد العناد لا يلين للآخرين، ويحاول أن يضع خططًا للآخرين بنفسه، ولا يرضخ هو للغير.
يفضل رأيه الخاص عن أخذ مشورة الشيوخ حتى وإن كان غير قادرٍ على تقديم نصيحة صائبة.

الفصل الثلاثون

رغبة المصاب بحالة فتور بسبب الكبرياء في أن يقود الآخرين

عندما يتمكن الكبرياء من شخص ما ينحدر هكذا كما ذكرنا على مراحل. إنه يرتعد من تدريب مجموعة الرهبان، وكأنما صحبة الإخوة هي التي أعاقته في طريق الكمال، وأن خطايا الآخرين شوشت على تقدمه في

الصبر والاتضاع. يتوق مثل هذا الشخص إلى التوحد في قلايته، أو يكون شغوفاً نحو بناء دير يجمع فيه آخرين ليرشدهم ويعلمهم، وكأنما سيكون ذا نفع لمجموعة أكبر من الناس. بذلك يجعل من نفسه قائداً أكثر سوءاً بدلاً من كونه تلميذاً سيئاً.

عندما يسقط الإنسان في هذا الفتور الشديد الخطورة والضرار بسبب كبرياء القلب لا يستطيع أن يبقى راهباً حقيقياً أو إنساناً عادياً في العالم، والأسوأ من ذلك أنه يُمني نفسه بإدراك الكمال وهو في هذه الحالة البائسة وأسلوب حياته هذا.

الفصل الحادي والثلاثون

كيف نتغلب على الكبرياء، ونبلغ إلى الكمال؟

إذا ما رغبتنا أن يعلو بناؤنا ليكون كاملاً حتى القمة ومُرضياً أمام الله علينا أن نسعى لنضع أساساً ليس بحسب رغباتنا وإرضاء لشهواتنا بل تبعاً للقوانين الإنجيلية بتدقيق. هذه ما هي إلا مخافة الرب والاتضاع النابع عن بساطة القلب ولطفه، لكن لا يمكن اكتساب فضيلة الاتضاع إن لم نتخلَّ عن كل شيء. وطالما الإنسان غريب عن هذه النية لا يستطيع أن يدرك فضيلة الطاعة مطلقاً ولا قوة الصبر ولا صفاء اللطف ولا كمال الحب. وإن افتقرنا إلى كل هذا لا يمكن للقلب أن يكون مسكناً للروح القدس. كما يقول السيد بالنبي: "وإلى هذا انظر، إلى المسكين والمنسحق الروح والمرتعِد من كلامي"، وبحسب الترجمات الأكثر دقة في التعبير عن العبري: "من أحابي ومن الذي يلتصق بي إلا الفقير والمزدري ومنسحق الروح والمرتعِد من كلامي؟" (إش ٦٦: ٢).

الفصل الثاني والثلاثون

الكبرياء المحطم لكل الفضائل يتحطم بالتواضع الحقيقي

المناضل المسيحي الذي يجاهد قانونياً في الحرب الروحية ويريد أن يكلله الرب، عليه أن يسعى بكل جهده لتحطيم هذا الوحش الشديد الضراوة والمحطم لكل الفضائل، علماً بأنه طالما هذا الوحش مستقر في الصدر ليس فقط لن يتحرر الإنسان من كل أنواع الشرور، بل حتى وإن بدى ذو خصال حميدة فسيقفدها بسطوته الخبيثة.

لا يمكن أن يشيّد بناء الفضيلة (إن جاز القول) في أرواحنا إلا عندما يوضع في قلوبنا أولاً أساس الاتضاع الحقيقي. إن استقر هذا بداخلنا يمكن أن يركز عليه الحب والكمال بكل ثقلهما، وكما قلنا إن هذا يحدث عندما نُظهر من نحو اخوتنا تواضعاً حقيقياً من أعماق قلوبنا، ولا نقبل أبداً أن نحزنهم أو نضرهم بشيء. هذا لا بد أن يسبقه غرس إنكار الذات الحقيقي داخل نفوسنا من قبل محبة المسيح، ثم نقبل حمل نير الطاعة والخضوع في بساطة قلب بغير رياء، فلا نرعى بداخلنا أية إرادة ذاتية، بل نعيش في طاعة لأبينا. هذا لا نأمن حدوثه إلا في حالة من يعتبر نفسه ليس فقط أنه قد مات عن العالم، بل وأنه جاهل أحرق ينفذ بلا جدال ما يسند إليه رؤساؤه، مؤمناً أن أمراً مقدساً قد صدر إليه من السماء.

الفصل الثالث والثلاثون

علاج خطية الكبرياء

عندما يستمر الإنسان في اتباع ذلك يثبت في هذه الحالة، يتبعها بلاشك حالة من الهدوء والأمان.

فحين نعتبر أنفسنا أقل من أي إنسان آخر نحتمل ما يأتي علينا، حتى وإن جلب علينا أذى أو حزنًا أو خسارة، بكل صبر كما لو كان قد صدر من القائمين علينا. ولا نشعر إننا نتحمل هذه الأمور بمشقةٍ كبيرةٍ، بل نعتبرها أمرًا تافهًا وكلا شيء إذ لازمنا تذكر آلام السيد وقديسيه. فنحسب الأضرار التي تلحق بنا في تجاربنا أقل بكثير منهم، لأننا لم نبلغ مرتبتهم أو استحقاقاتهم. وعلينا أن نتذكر أيضًا أن رحيلنا عن هذا العالم ليس ببعيد وسوف نشاركهم نصيبهم بنهاية حياتنا سريعًا.

بأخذ مثل هذه الأمور في اعتبارنا نقضي على الكبرياء بداخلنا، ليس الكبرياء فقط هو الذي ينتهي بل كل أنواع الخطايا. من ثمَّ علينا أن نتمسك جيدًا بهذا الاتضاع نحو الله، فننتيقن أننا لا نستطيع أن نتقدم في طريق اكتساب الفضائل الكاملة إلا بمساندة المسيح ونعمته، وفوق ذلك نؤمن بالحقيقة إن هذا الواقع عينه أي فهمنا لهذه الأمور هو عطية من الله.

المحتويات

حياته

نشأته، حياته الرهبانية. ٧

كتابات

أولاً: المؤسسات لنظام الشركة ١١

الجزء الأول ١-٤: ١١

الكتاب الأول : ملابس الراهب. ١١

١. غطاء الرأس. ٢. ثوب الراهب. ٣. قميص. *Tunic*. ٤. اسكيم. ٥. ثوب من جلد الماعز. ٦. العصا. ٧. لا يلبسون النعال. ٨. المنطقة الروحية.

الكتاب الثاني: الخدمة الليلية حسب الطقس المصري. ١٤

الكتاب الثالث: الخدمة النهارية حسب طقس فلسطين وما بين النهرين. ١٨

الكتاب الرابع: عن جاحدي العالم (الحياة العامة والفضائل اللائقة بها) ٢٠

الجزء الثاني ٥-١٢ ٣٢

الكتاب الخامس: النهم. ٣٢

الكتاب السادس: الشهوات (الزنا). ٣٤

الكتاب السابع: الطمع. ٣٥

الكتاب الثامن: الغضب. ٣٦

الكتاب التاسع: الاكتئاب (الإحباط). ٣٧

الكتاب العاشر: الضجر *Acedia* (أو شيطان الظهيرة). ٣٩

الكتاب الحادي عشر: المجد الباطل. ٤٠

الكتاب الثاني عشر: الكبرياء. ٤٢

ثانياً: المناظرات (*Collationes Patrum (Conferences)*) ٤٣

الجزء الأول: المناظرات ١-١٠. الجزء الثاني: المناظرات ١١-١٧. الجزء الثالث: المناظرات ١٨-٢٤. ملاحظات حول المناظرات.

ثالثاً: التجسد الإلهي ضد نسطور *De incarnatione Domini contra Nestorius libri VII*

٤٥

لاهوتياته

القديس يوحنا كاسيان وبدعة تشبيهه الله بالإنسان *Anthropomorphism*، القديس يوحنا كاسيان وشبهه

منهجه وأفكاره

٥٤

مصادر فكره.

٥٤

منهجه الروحي.

الحاجة إلى النمو الروحي، الإنسان الداخلي، قدسية الحياة اليومية، الكتاب المقدس والصلاة النارية، الحرب الروحية، الخطايا الثمانية، النهم، الكبرياء، الحياة الفاضلة، حياة التأمل، الموت.

٦٠

الكمال الرهباني.

الرهبنة حياة مسيحية مثلى، نظاما الشركة والتوحد، الحاجة إلى مرشد مختبر.

مناظرات يوحنا كاسيان

مع مشاهير آباء البرية

٦٦

مقدمة الطبعة الأولى

الجزء الأول

مناظرات ١ - ١٠

٧٠

مقدمة

٧٣

١. نقاوة القلب طريق الملكوت، للأب موسى

١- إقامتنا بالإسقيط. ٢- سؤال عن هدف المؤمن وغايته. الفكرة. ٥- هدفنا الحالي: نقاوة القلب. ٦- زهد بغير نقاوة قلب. ٧- أعمال صالحة بغير نقاوة قلب. ٨- مثال من الكتاب المقدس. ٩- سؤال: كيف تزول الأعمال الصالحة؟ ١١- خلود المحبة أو نقاوة القلب. ١٢- أسئلة حول التأمل الدائم في الله. ١٤- أبناء الملكوت أحياء يتأملون ويسبحون الله حتى وإن ماتوا. ١٥- كيف نتأمل في الله؟ ١٦- سؤال: هل يمكن للإنسان أن يمنع الأفكار التي تشوش نقاء ذهنه، لينعم بالتأملات الإلهية؟ ١٨- تشبيه العقل بطاحونة الهواء. ١٩- مصادر الفكر. ٢٠- تمييز الأفكار. ٢١- مثال: انخداع الأب يوحنا. ٢٣- طرد الأفكار المزيفة. ٢٣- وعده بأن يحدثنا عن "التمييز". ملخص المبادئ.

٩٤

٢. التمييز أو الإفراز، للأب موسى

١- مقدمة. التمييز نعمة إلهية. ٢- أهميته. ٣- أمثلة من الكتاب المقدس. ٤- التمييز كما جاء في الكتاب المقدس. ٥- أمثلة: (١) موت الشيخ هيرون. Heron. ٦- (ب) هلاك أخوين. ٧- (ج) سقوط آخر. ٨- (د) سقوط راهب من دير الميصبة. Mesopotamia. ٩- سؤال: كيف نقتني التمييز؟ ١٠- التمييز الحقيقي لا يأتي إلا بالاتضاع الحقيقي. ١١- مثال. ١٢- سؤال: أما يحقر أب الاعتراف من يكشف له خطاياه؟ ١٤- مثال (أ) صموئيل. ١٥- (ب) بولس الرسول. ١٦- أهمية التمييز في اقتناء الفضائل. ١٧- التمييز والاعتدال. ٢٥- سؤال: أما نكسر قانون الطعام بسبب مجيء زائر؟ ملخص المبادئ.

٣. مراحل الزهد الثلاث،

١- سيرة الأبنا بفنوتئوس. ٢- حديثنا معه. ٣- أنواع التكريس. ٤- أنواع الدعوة. ٥- أهمية التطلع إلى الدرجة العالية من الزهد. ٦- دعوة إبراهيم وأنواع الزهد. ٧- خطورة التوقف عند الدرجة الأولى. ٨- ضرورة ممارسة الدرجة الثانية من الزهد. ٩- أنواع الممتلكات والغنى. ١٠- حاجتنا لله كمعين في الترك. ١١- سؤال عن حرية الإرادة. ١٣- الله هو المعين في حياة الفضيلة. ١٤- الله هو المعين في معرفة الناموس. ١٥- الله هو المعين في فهم الناموس. ١٦- الله هو المعين في نوال الإيمان. ١٧- الله هو المعين في احتمال التجارب. ١٨- الله هو المعين في نوال المخافة الإلهية. ١٩- الله هو المعين في الإرادة الصالحة. ٢٠- الله هو الذي يريد أو يسمح بالأمور أن تحدث. ملخص المبادئ.

١- مقدمة. ٢- سؤال عن سبب الفتور الروحي. ٣- ثلاثة أسباب للفتور الروحي. ٤- الفتور بسماع من الله. ٥- فضل النعمة علينا. ٦- داود يختبر حالة الفتور كفرصة للجهاد. ٧- النزاع بين الجسد والروح لخبرنا. ١٠- مفهوم كلمة "الجسد". ١٢- فائدة وجود النزاع بين الرغبات الروحية والجسدية. ١٤- فائدة النضال مع شهوة الجسد. ١٦- الكبرياء مع العفة أشر من شهوات الجسد. ٢١- أناس يتركون الكثير لكن القلب منشغل بالتفاهات. ملخص المبادئ.

١- مقدمة. ٢- أهم الخطايا. ٣- أصنافها وأشكالها. ٤- الخطايا الجسدية والخطايا الروحية. ٥، ٦- آدم الثاني واهب النصر. ١٠- محاربة الخطايا الست الأولى. ١٣- اختلاف الهجوم من إنسان لآخر. ١٤- صراعنا ضد الخطايا. ١٥- حاجتنا إلى العناية الإلهية في الجهاد ضد الخطية. ملخص المبادئ.

١- مقدمة. ٣- الأمور الصالحة والأمور الشريرة. ٤- هل يُفرض الشر على أحد؟ ٥- كيف يُقال أن الله يخلق الشر؟ ٧- لماذا يعتبر مجرمًا من يقتل إنسانًا ينتفع بالموت؟ ١٠- تشبيه الإنسان الكامل بالأشول. ١١- لماذا يسمح الله بالتجربة؟ ١٢- ثبات الإنسان المستقيم. ١٦- القوات السمائية يمكن أن تتغير. ١٧- لا يحدث السقوط فجأة. ملخص المبادئ.

١- مقدمة. ٢- عفة سيرينوس. ٣- سؤال بخصوص ضبط الفكر. ٤- لا نلزم الطبع البشري في ذاته. ٥- سلطاننا على الفكر. ٦- لنتأبر مقتربين من الله ومجاهدين. ٧- سؤال بخصوص شدة هجوم الأفكار الشريرة. ٩- سؤال بخصوص اتحاد النفس مع الأرواح الشريرة. ١٣- لا نتحد روحنا إلا بالله وحده. ١٥- عدم قدرة الأرواح الشريرة على معرفة أفكار البشر. ١٦- مثال. ١٧- ليس لكل شيطان سلطان في اقتراح أي أهواء. ١٨- هل للشياطين نظام يتبعونه في هجومهم؟ ٢٠- كل إنسان يُهاجم قدر طاقته. ٢١- لا تخف من محاربات الشيطان. ٢٢- هل للشيطان سلطان عليك؟ ٢٤- كيف تملك الشياطين على أجساد البعض؟ ٢٥- لماذا يسمح الله بخضوع أجسادنا لهم؟ ٢٦- أمثلة. ٢٨- لا تحتقر من أسلم لروح الشرير. ٣١- بؤس الذين لا يُؤدبون هنا.

٣٢- شهوات قوات الهواء. ٣٣- هل يوجد بين الأرواح الشريرة درجات؟ ملخص المبادئ.

١٨٨

٨. الرئاسة، للأب سيرينوس

١- كرم الأب سيرينوس. ٢- سأل جرمانوس عن أصل القوات المتنوعة جدًا المقاومة للإنسان. ٣- ما ورد في هذا الشأن في الكتاب المقدس هو سرّ مخفي. ٦- الله لم يخلق شيئاً شريراً. ٧- الله خلق السمائيين قبل خلقه العالم. ٨- سقوط الشيطان وملأته. ٩- هل الحسد هو علة سقوط الشيطان وبدء سقوطه؟ ١٠- بدء سقوط الشيطان ودماره كان قبل هذا الخداع. ١١- إن كان المخادع إبليس يسقط تحت العقوبة والدينونة التي يستحقها. ١٢- جماهير الشياطين وما تثيره من اضطرابات في جو حياتنا. ١٣- صراع الشياطين ليس فقط ضد الإنسان، وإنما حتى ضد بعضهم البعض. ١٤- كيف نالت قوات الشر الروحية ألقاب القوات والرئاسات؟ ١٥- ليس بدون سبب حملت القوات المقدسة السمائية ألقاب الملائكة ورؤساء الملائكة. ١٦- خضوع الشياطين. ١٨- درجات الشر الموجودة في الأرواح المعادية كما ظهرت في حالة فيلسوفين. ١٩- لن تستطيع الشياطين أن تغلب البشر إلا إن امتلكوا أولاً أذهانهم. ٢٠- ما ورد في سفر التكوين عن الملائكة الساقطين إن كانوا قد مارسوا علاقات جسدية مع بنات الناس (تك ٦: ٢). ٢٢- اعترض جرمانوس على اعتبار الزواج بين أولاد الله من نسل شيث وبنات الناس من نسل قابين خطية حيث لم تكن هناك شريعة تمنع ذلك. ٢٣- الناموس الطبيعي من البداية يمنع ذلك، لهذا تعرضوا للعقوبة. ٢٤- بعدل سقط أولاد الله الذين تزوجوا بنات الناس في العقوبة. ٢٥- الشيطان كذاب وأبو الكذابين (يو ٨: ٤٤).

٢٠١

٩. الصلاة، للأب إسحق

١- مقدمة. ٢- العلاقة بين الصلاة والفضائل. ٣- كيف نقتنى الصلاة النقية؟ إمكانيتنا للصلاة. ٥- ما الذي يثقل النفس؟ ٧- أنواع الصلاة. ٩- الأربعة أنواع من الصلاة. ١١- الطلبات. ١٢- الصلوات. ١٣- الابتهالات. ١٤- الت شكرات. ١٥- لزوم الأنواع الأربعة لكافة البشر. ١٦- نوع الصلاة التي نوجه إليها أنفسنا. ١٧- الرب يضع أساس الأنواع الأربعة من الصلاة. ١٨- الصلاة الربانية. ١٩- ليأت ملكوتك. ٢٠- لنكن مشيئتك. ٢١- الخبز اليومي. ٢٢- اغفر لنا ما علينا. ٢٣- لا تدخلنا في تجربة. ٢٤- لنصل بما ورد في الصلاة الربانية. ٢٥- بركات الصلاة الربانية. ٢٦- العوامل التي تساعد على الصلوات المنسكبة. ٢٧- أنواع الندامة المختلفة. ٢٨- سؤال بخصوص الدموع. ٣٠- لا تسكب الدموع قسراً. ٣٢- الثقة في استجابة الصلاة. ٣٣- اعترض بخصوص استجابة الصلاة. ٣٥- الصلاة السرية.

٢٢١

١٠. الصلاة: عظة ثانية، للأب إسحق

مقدمة. ٦- أهمية الخلوة الروحية. ٧- تذوقنا عربون السعادة الأبدية. ٨- سؤال بخصوص الصلاة الدائمة. ٩- يُشير هذا السؤال الدقيق إلى النقاوة التي يقترب منها جداً. ١٠- الصلاة الدائمة. ١١- يجدر بالذهن أن يلتصق بالصلاة الدائمة العبارة وقوة صلاة المزامير. أهم المبادئ (مناظرة ٩، ١٠).

الجزء الثاني

١١-١٧

٢٣٢

مقدمة.

٢٣٣

١١. الكمال: الإيمان والرجاء والمحبة، للأب شيريمون

١- وصف لمدينة Thennesus. ٢- بخصوص الأسقف أرشيبيوس Archebius. ٣- وصف الصحراء التي يقطنها شيريمون Chaeremon. ٤- بخصوص الأب Chaeremon. ٦- الإيمان والرجاء والمحبة. ٧- ارتباط الإيمان والرجاء والمحبة بالعبودية والأجراء والبنوة. ٨- يا لعظمة المحبة! ٩- بالمحبة نصير على صورة الله ومثاله. ١٠- الصلاة من أجل الأعداء هو كمال المحبة. ١١- كيف نقول أن المحبة كاملة، والخوف من الله والرجاء في الجزاء المقبل غير كاملين؟ ١٣- الخوف الكامل. ملخص المبادئ.

٢٤٧

١٢. الطهارة، للأب شيريمون

٤- الطهارة هبة من الله. ٧- درجات الطهارة. درجات الطهارة الست.

٢٥٠

١٣. حماية الله، للأب شيريمون Abbot Chearemon

ملاحظة هامة. ١- مقدمة. ٢- لماذا لا ننسب الطهارة إلى جهاد الإنسان؟ ٦- لا يمكننا الجهاد بغير نعمة الله. ٧- غاية الله منا وعنايته بنا. عناية الله في عدم استجابة بعض طلباتنا. ٨- الله المحب والإنسان قاسي القلب! ٩- بين إرادتنا الصالحة ونعمة الله. ١٠- بين حرية الإرادة وضعفها. ١١- تلازم النعمة مع الإرادة البشرية. ١٢- لا نتطلع إلى الله أنه خلق الإنسان بلا إرادة، أو أنه عاجز عن الصلاح. ١٣- الجهاد لا يفقد النعمة مجانيته. ١٣- كيف يختبر الله قوة إرادة الإنسان عن طريق التجربة؟ مثال توضيحي. ١٥- أنواع دعوة النعمة للبشرية. ١٦- النعمة الإلهية تسمو بالحدود الضيقة التي للإيمان البشري. ملخص المبادئ.

٢٧٢

١٤- المعرفة الروحية، للأب نسطور Abbot Nesteros

١- مقدمة. ٢- بلوغ المعرفة الروحية. ٣- الكمال العملي يعتمد على نظام مزدوج. ٤- أنواع طرق المعرفة العملية. ٥- المثابرة فيما اختاره الإنسان. ٦- مضار التشتت في طريق الحياة الروحية. ٧- في بعض الأمور التي يصنعها البعض بحق يكون من الخطأ أن يقلدها الآخرون. ٨- عن المعرفة الروحية. ٩- كيف نقنتي المعرفة الروحية العملية؟ ١١- فهم الكتاب المقدس بصور متعددة. ١٢- كيف يمكننا الحصول على "عدم الاهتمام بهذا العالم"؟ ١٤- عجز النفس الدنسة عن تقبلها المعرفة الروحية. ١٥- اعتراض. ١٧- لا تحدث المستهترين بأسرار الكتاب. ١٨- أسباب عقم التعليم الروحي. ملخص المبادئ.

٢٩٢

١٥. المواهب الإلهية، للأب نسطور Abbot Nesteros

١- مقدمة. ٢- لا تكرم الإنسان من أجل صنعه المعجزات، إنما من أجل محبته. ٣- مثال لصنع المعجزة من أجل البسطاء. ٤- معجزة بدافع الحنان والشفقة. ٥- معجزة من أجل تمجيد اسم الرب يسوع. ٦- لا تحكم على استحقاق إنسان بمعجزاته. ٧- عظمة المواهب تكمن لا في المعجزات، بل في الاتضاع. ٨- إخراج الخطأ من حياة الإنسان أعظم من إخراج الشياطين من الآخرين. ٩- كيف تكون الحياة المستقيمة أفضل من صنع المعجزات؟

٢٩٩

١٦. الصداقة للأب يوسف

١- مقدمة. ٢- أنواع الصداقات. ٣- كيف يمكن للصداقة أن تبقى على الدوام؟ ٦- الوسائل التي تحفظ الاتحاد. ٧- عظمة الحب وخطورة الغضب. ٨- كيف ينشأ النزاع بين الروحانيين؟ ٩- كيف نتخلص من أسباب النزاع بين الروحانيين؟ ١٠- اختبار عملي. ١١- من يعتمد على رأيه الشخصي لا يسلم من خداع الشيطان. ١٢- لا تحتقر الأصاغر أثناء المناقشات. ١٣- الحب ليس فقط صفة لله إنما هو الله. ١٤- درجات الحب.

١٥- عدم تهدئه الضمير بالابتعاد عن يغضبون عليهم. ١٦- لا تتجاهل تكدر أخيك تجاهك. ١٧- احتمل أخاك كما تحتل أهل العالم. ١٨- لا تنثر أخاك بالصمت. ١٩- لا تضرب عن الطعام بغضب. ٢٠- لا تقدم الخد الآخر بخد مزيف. ٢٣- قوة الإنسان وشهامته تكمن في خضوعه لإرادة غيره. ٢٤- عجز الضعيف عن احتمال غيره. ٢٧- كيف يمكن قمع الغضب؟ ٢٨- خاتمة. ملخص المبادئ.

١٧. التعهد بوعود، للأب يوسف Abbot Joseph ٣١٨

١- مقدمة. ٢- قلق جرمانوس بسبب تذكره وعدنا في الدير بالعودة إليهم. ٣- إجابتي عليه. ٤- استفساره عن سبب قلقنا. ٨- استحسانه عدم التعهد بوعود. ٩- أمثلة من الكتاب المقدس. ١٠- سؤال بخصوص الوعد الذي تعهده في الدير بسوريا. ١٥- أما يستغل الضعفاء هذا كفرصة لإباحة الكذب؟

الجزء الثالث

١٨ - ٢٤

مقدمة.

١٨. أنواع الرهبان الثلاثة، للأب بيامون ٣٢٩

١- مقدمة. ٢- ضرورة استرشاد المبتدئين في الرهبة بالأباء الشيوخ. ٤- الأنظمة الثلاثة للرهبنة. ٥- بخصوص مؤسسي نظام الشركة. ٦- النساك أو المتوحدون وأصلهم. ٧- أصل السرايين وطريقة حياتهم. ٨- النوع الرابع من الرهبان. ١١- الاتضاع الحقيقي والاتضاع المزيف. ١٢- كيف نقتني الصبر؟ ١٤- مثال الصبر تقدمه امرأة تقيّة. ١٥- مثال الأب بفنوتيوس. ملخص المبادئ.

١٩. هدف راهب الشركة والمتوحد، للأب يوحنا ٣٤٧

١- الأب بولس وصبر أحد الإخوة. ٢- اتضاع الأب يوحنا. ٣- سبب تركه الصحراء. ٤- عظمة نظام التوحد. ٥- مميزات الصحراء (الوحدة). ٦- مميزات حياة الشركة. ٧- سؤال بخصوص ثمار حياة الشركة وثمار البرية. ٩- عن الكمال الحقيقي. ١٠- عن الذين يتوغلون في الصحراء دون أن يبلغوا الكمال. ١١- سؤال عن معالجة الذين تركوا شركة المجمع.

٢٠. ثمار التوبة وعلامات الصفح، للأب بينوفوس ٣٥٦

١- مقدمة. ٢- مجيئنا إليه. ٣- سؤال بخصوص غاية التوبة وعلامات الصفح. ٦- كيف تطالبنا بعدم تذكر خطايانا؟ ٧- إلى أي مدى نحتفظ بتذكر الخطايا؟ ٨- ثمار التوبة. ٩- فائدة نسيان الخطية للكاملين (نسبيًا). ١٠- كيف نتجنب تذكر الخطايا؟ ١١- طرق التوبة الحقيقية ومغفرة الخطية. ١٢- هل صرت معصومًا من الخطأ؟ ملخص المبادئ.

٢١. الراحة أثناء الخماسين، للأب ثيوداس ٣٦٩

١- مقدمة. ٢- نصيحة الأب يوحنا لثيوداس وغيره. ٣- بخصوص العشور والبكور. ٤- بعض رجال العهد القديم أوفوا أكثر مما يطلب الناموس. ٥- كيف يلتزم من يعيشون في عهد النعمة أن يفوقوا مطالب الناموس؟ ٦- نعمة الإنجيل تعضد الضعفاء. ٧- سلطاننا أن نختار البقاء تحت نعمة الإنجيل أو تحت خوف الناموس. ٨- تحريضه زوجته لنبد العالم. ١٠- لماذا لا نصوم أو نصنع مطانيات في الخماسين؟ ١٣- نوع صلاح

الصوم. ١٤- ليس الصوم صالحًا في ذاته. ١٥- الصوم وسيلة لا غاية. ١٦- علامات الأمر الصالح بطبعه. ١٨- كيف لا يكون الصوم مناسبًا في كل الأوقات؟ ٩- لماذا لا نصوم خلال الخماسين؟ ٢١- أما يضر الامتناع عن الصوم طهارة الجسد؟ ٢٣- وقت الراحة وقدرها. ٢٤- بخصوص عدد أيام الصوم الكبير. ٢٦- بخصوص البكور. ٢٩- عدم توقف الكاملين من الرهبان عند حدود الصوم المفروض. ٣٠- أصل الصوم الكبير ويدايتته. ٣١- شرائع الإنجيل أخف من شرائع الناموس. ٣٢- كيف يظهر الإنسان أنه تحت النعمة؟ ملخص المبادئ.

٢٣. الكمال الذي نبغيه، للأب ثيونا Abbot Theonas ٣٨٩

١- "لست أفعل الصالح الذي أريده". ٢- تم الرسول أعمالًا صالحة كثيرة. ٣- الصلاح الكثير الثمين الذي ينبغي الرسول أن يكمله. ٤- صلاح الله وصلاح الإنسان. ٥- عجز الكل عن التمتع الدائم بالصلاح الأسمى. ٦- الذين يحسبون أنفسهم بلا خطية. ٧- إذ تُضرب بالعمى لا نقدر أن نرى في ذواتنا سوى الذنوب الكبيرة. ٨- اشتياق الروحانيين إلى البقاء في التأمل في الإلهيات. ٩- حرص القديسين على تذكر الله على الدوام. ١٠- شعورهم الدائم بالحاجة إلى مرآح الله. ١١- تفسير: "إني أسر بناموس الله بحسب الإنسان الباطن". ١٢- تفسير: "فإننا نعلم أن الناموس روعي" (رو ٧: ١٤). ١٣- "إني أعلم أنه ليس ساكن في أي في جسدي شيء صالح". ١٦- مفهوم "جسد الخطية". ١٧- اعتراف القديسين جميعهم أنهم خطاة. ١٨- ليس أحد بلا خطية. ١٩- عجزنا عن تجنب الخطية حتى في أثناء الصلاة. ٢١- هل نمتنع عن تناول لأننا لسنا بلا خطية؟

٢٤. الإماتة، للأب إبراهيم ٤٠٧

١- مقدمة (الاشتياق نحو العودة إلى مدينتنا). ٢- زهد الراهب في المشاعر الجسدية. ٣- نوع الأماكن التي تناسب النساء. ٤- الأعمال التي تناسب المتوحدين. ٥- عدم الخروج من القلاية كعلاج للقلق. ٦- كيف يضبط الراهب أفكاره؟ ٧- سؤال بخصوص ابتعاد الرهبان عن أقرائهم. ١٠- هل يقبل الراهب معونة أقرائه؟ ١٢- أهمية العمل في حياة الراهب. ١٣- عدم عودة الراهب إلى أهله. ١٤- ١٧ أمراض النفس. ٢٢- استفسار عن القول: "حملي خفيف ونيري هيئ". ٢٥- فائدة التجارب. ٢٦- هل يتحقق وعد الرب بالمائة ضعف في هذا العالم؟ ملخص المبادئ.

المؤسسات لنظام الشركة

للقديس يوحنا كاسيان

المؤسسات لنظام الشركة.

٤٢٧ المؤسسات لنظام الشركة ٥. في روح النهم

خطية النهم لا الأكل!

١- الانتقال من المبادئ الرهبانية إلى الجهاد ضد الأخطاء الرئيسية الثمانية. ٢- انتشار هذه الخطايا بين الكثيرين، لكنهم يتجاهلون الحاجة إلى معونة الرب لكي يكشفها لنا. ٣- كيف يكون الجهاد الأول ضد روح النهم، أي لذة الطعام. ٤- شهادة القديس أنطونيوس بأنه يجب السعي وراء الفضيلة من الشخص الذي يقتنيها. ٥- لا يلتزم الجميع بقانون صوم واحد ٦- لا تسكر النفس بالخمير وحده. ٧- لا يتعارض الضعف الجسدي مع نقاوة القلب. ٨- ارتباط تناول الطعام بضبط الشهوة. ٩- الاعتدال في التأديب وقانون الصوم. ١٠- لا يكفي

ضبط شهوة الطعام في حفظ نقاوة الجسد والذهن. ١١- لا تتطفئ الشهوات الجسدية إلا باقتلاع جذور الخطية. ١٢- لابد من أن نعطي مثلاً من الحروب الجسدية في جهادنا الروحي. ١٣- لن يمكننا الدخول في محاربة إنساننا الداخلي ما لم نتحرر من خطية النهم. ١٤. كيف نتغلب على شهوة النهم؟ ٥- كيف يكون الراهب دائم الحرص على حفظ نقاوة قلبه؟ ١٦- لا يجوز للراهب أن يتقدم لأية صراعات روحية ما لم يغلب أولاً في الحروب الجسدية (على نمط الألعاب الأولمبية). ١٧- يجب أن يُقام أساس المعركة الروحية على الصراع ضد النهم. ١٨- كم كان عدد المعارك والانتصارات التي اجتازها الرسول، لكي يستحق أن يرتفع لنوال إكليل المعركة العظمى؟ ١٩- المناضل في المسيح لا ينفذ يده من القتال مادام في الجسد. ٢٠- لا يليق بالراهب المتقدم في المعارك الروحية أن يتعدى الأوقات الموضوعة لتناول الطعام. ٢١- السلام الداخلي للراهب والزهد الروحي. ٢٢- الزهد الجسدي لبلوغ الصوم الروحي. ٢٣- ما هي نوعية طعام الراهب؟ ٢٤- كسر قانون الصوم اليومي من أجل الضيافة. ٢٥- زهد شيخ مع تناوله وجبلت خفيفة. ٢٦- شيخ لم يتناول قط طعاماً منفرداً. ٢٧- ثمرة صوم الأبوين يوحنا وباسيوس. ٢٨- الدرس الذي تركه باسيوس عند موته. ٢٩- الأب ماخيتس لا ينعس أثناء الجلسات الروحية. ٣٠- الأب ماخيتس: عدم إدانة أي إنسان. ٣١- الأب ماخيتس يوبخ الإخوة لأنهم ينامون في الجلسات الروحية. ٣٢- الرسائل التي أحرقت قبل أن تُقرأ. ٣٤- القديس ثيودور ومعرفة الكتب المقدسة. ٣٦- برية ديولكوس. ٣٧- الأب أرخبوس وتنازله عن قلاليه. ٣٨- الأب أرخبوس يدفع دين والدته. ٣٩- شيخ يوجد عملاً للأب سمعان. ٤٠- صبيان يموتان من الجوع دون أن يمسا التين الذي يحملانه. ٤١- قول الأب مقاريوس عن سلوك الراهب كمن يعيش لمدة طويلة وأيضاً كمن هو على وشك الموت كل يوم.

المؤسسات لنظام الشركة ٧- في روح الطمع ٤٦٠

١- كيف أن قتلنا مع الطمع أمر غريب علينا، وأن هذه، السقطة ليست فطرية في الإنسان، كغيرها من السقطات. ٢- مدى خطورة مرض الطمع. ٣- ما هو جدوى تلك الرذائل الفطرية لنا. ٤- باستطاعتنا أن نقول أن فينا بعض عيوب فطرية دون الإساءة إلى الخالق. ٥- في العيوب التي تُفحم نفسها في داخلنا دون نزعات فطرية. ٦- في تعذر استئصال آفة الطمع مادامت دخلت القلب. ٧- المصدر الذي ينبعث منه الطمع، والشرور التي تتولد منه. ٨- كيف أن الطمع يعرقل جميع الفضائل. ٩- كيف أن الراهب الذي يحرز المال لا يستطيع البقاء في الدير. ١٠- الأوجاع والتجارب التي يتعرض لها ناكث عهد الدير بسبب الطمع. ١١- في الزعم بأنه للمحافظة على المال وتديبره لابد من البحث عن النساء للإقامة معهن. ١٢- مثال لراهبٍ فاتر سقط في شباك الطمع. ١٣- ماذا يروي الشيوخ للأحداث عن موضوع الخطايا العادية. ١٤- أمثلة تبين أن مرض الطمع مثلث المعالم. ١٥- في الفرق بين إنسان ينبذ العالم بطريقه رديئة، وآخر لا ينبذه على الإطلاق. ١٦- السلطة التي تحمي تحتها أولئك الذين يعترضون على التخلي عن ممتلكاتهم. ١٧- ترك الرسل والكنيسة الأولى لأباطيل العالم. ١٨- إن رغبتنا في أن نحكي الرسل ينبغي علينا ألا نحيا وفقاً لمواهبنا الخاصة بل نحذو حذوهم. ١٩- قول القديس الأسقف باسيليوس موجه ضد سنكليستوس. ٢٠- مدى حقارة من يغلبه الطمع. ٢١- كيف يمكن قهر الطمع. ٢٢- قد يوصم بالطمع من لا مال عنده. ٢٣- مثل مأخوذ من حالة يهوذا. ٢٤- لا يمكن قهر الطمع إلا إذا جرد المرء نفسه من كل شيء. ٢٥- الميئات التي حلت بحنانيا وسفيرة ويهوذا بسبب شهوة الطمع. ٢٦- يصيب الطمع النفس ببرصٍ روحي. ٢٨- الانتصار على الطمع لا يمكن تحقيقه إلا إذا جرد الإنسان نفسه من كل شيء. ٢٩- كيف يستطيع راهب أن يحتفظ بفقره؟ ٣٠- طرق الوقاية من مرض الطمع. ٣١- ما من أحد يستطيع أن يغلب الطمع إلا إذا أقام في خلوة الدير، وكيف يستطيع الإقامة هناك؟

هل يجوز علاج أخطاء الغير بالغضب؟ تقديم القرابين والغضب. اعتزال الناس ليس علاجًا للغضب. الغضب المقدس والغضب الشرير.

١- كيف أن رابع صراع لنا موجه ضد خطية الغضب، وكيف أنها تلد شرورًا كثيرة. ٢- فيمن يقولون أن الغضب غير مؤذٍ إذا غضبنا على المخطئين، مادام الغضب قد ينسب إلى الله ذاته. ٣- الأشياء التي نسبت إلى الله كتشبيهه بالإنسان. ٤- بأي معنى ينبغي أن ندرك العواطف والأعضاء البشرية المسندة إلى الله غير المتجسد ولا متغير. ٥- كيف ينبغي أن يكون الراهب هادئًا. ٦- في نزعتي الغضب البارة والأثيمة. ٧- في الحالة الوحيدة التي يكون فيها الغضب نافعا لنا. ٨- أمثلة من حياة داود الطوباوي كان فيها شعور الغضب مبررًا. ٩- في الغضب الذي ينبغي أن يوجه ضد أنفسنا. ١٠- في الشمس التي قيل أنه ينبغي ألا تغرب على غيظكم. ١١- فيمن لا يضع غروب الشمس ذاته حدًا لسخطهم. ١٢- كيف أن خاتمة المطاف فيما يتعلق بنويات الغضب هي أن تستبد بالمرء فيطلق لها العنان. ١٣- من واجبنا ألا نستبقي غضبنا حتى ولو لحظة واحدة. ١٤- مصالحة إخوتنا. ١٥- تنص الشريعة القديمة على استئصال الغضب، ليس من الأفعال فقط بل ومن الأفكار أيضًا. ١٦- لا جدوى من خلوة أولئك الذي لا يتخلون عن سلوكهم الرديء. ١٧- لا يعتمد سلام قلوبنا على إرادة الآخرين، بل في ضبطنا لعواطفنا. ١٨- في الحماس الذي ينبغي أن ننشد به الصحراء والأشياء التي نحرز فيها تقدمنا هناك. ١٩- مثال يساعد على تكوين فكرة عن الذين يصبرون فقط إذا لم يُثرم أحد. ٢٠- الطريقة التي ينبغي أن نستبعد بها الغضب وفقًا للكتاب المقدس. ٢١- ضروب العلاج التي نستطيع أن نستأصل بها الغضب من قلوبنا.

حياة متهللة سماوية!

١- خامس صراع لنا موجه ضد روح الاكتئاب، وما يصيب به النفس من أضرار. ٢- في العناية اللازمة لشفاء مرض الاكتئاب. ٣- بماذا تُقارن النفس التي تقع فريسة لنوبات الاكتئاب؟ ٤- من أين يبرز الاكتئاب؟ وعلى أي وجه؟ ٥- تسقط علينا الاضطرابات ليست بسبب أخطاء الآخرين بل بسبب أخطائنا. ٦- ليس ثمة أحد يقع في الحزن بسبب سقطة مفاجئة، لكنه يتحطم لسقوطه في سلسلة طويلة من ضروب الإهمال. ٧- ينبغي ألا نتخلى عن التعامل مع إخوتنا سعيًا وراء الكمال، لكن يحسن أن نزرع على الدوام فضيلة الصبر والاحتمال. ٨- إن أحسننا سلوكنا تيسر لنا التفاهم مع جميع الناس. ٩- نوع آخر من الاكتئاب يؤدي إلى القنوط من الخلاص. ١٠- الشيء الوحيد الذي ينفعنا به الحزن. ١١- كيف نميز بين الحزن النافع الذي هو حسب مشيئة الله، والحزن المهلك الذي يوحى به إبليس؟ ١٢- فيما عدا الحزن السليم الصحي الذي يبرز في ثلاثة طرق، ينبغي مقاومة كل حزن أو اكتئاب يسفر عنه ضرر. ١٣- الوسائل التي بها نستطيع أن نفتلح جذور الاكتئاب من قلوبنا.

مقاومة الضجر بالعمل لا بالهروب! علامات الضجر.

١- كيف أن سادس صراع لنا موجه ضد روح الضجر، وما هي صفته. ٢- وصف الضجر، والطريقة التي يتسلل بها إلى قلب الراهب، والضرر الذي يلحق بالنفس. ٣- الطرق المختلفة التي يقهر بها الضجر راهبًا.

٤- يعطل الضجر العقل عن كل تفكير في الفضائل. ٥- نوبة الضجر ثنائية. ٦- مدى ما يسفر عن الضجر من أضرار. ٧- أحاديث للرسول التي تتعلق بروح الضجر. ٨- من لا يشتغل بيديه لابد أن يصبح قلقاً. ٩- ليس الرسول وحده بل والاثنان اللذان معه كانوا جميعهم يشتغلون بأيديهم. ١٠- اشتغل الرسول بيديه كي يضع لنا قدوة في العمل. ١١- وعظ الناس وعلمهم أن يشتغلوا، ليس بالافتداء فحسب، بل وبالكلام أيضاً. ١٢- "إن كان أحد لا يريد أن يشتغل فلا يأكل أيضاً". ١٣- "لقد سمعنا أن بعضاً منكم يسلكون بغير ترتيب". ١٤- العمل اليدوي بقي المرء من سقطات كثيرة. ١٥- ينبغي ألا يُحرم حتى الكسالى والمهملون من العطف. ١٦- ينبغي أن نوجه اللوم لمن يخطئون بدافع من الحب لا البغض. ١٧- فقرات شتى يُعلن فيها الرسول أنه يجب علينا أن نعمل، أو يُظهر فيها أنه هو بنفسه كان يقوم بالعمل. ١٨- كان الرسول يشتغل بالقدر الذي يكفي ويكفي الذين كانوا معه. ١٩- كيف ينبغي أن نفهم الكلمات: "مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ". ٢٠- أخ كسول حاول أن يغري آخرين بترك الدير. ٢١- من كتابات سليمان ضد الضجر. ٢٢- يشتغل الإخوة في مصر بأيديهم لا ليسدوا حاجاتهم فقط بل ويخدموا الذين في السجون. ٢٣- البطالة هو العلة في عدم وجود أديرة للرهبان مزدحمة في الغرب. ٢٤- عن الأب الرئيس بولس الذي اعتاد كل عام، أن يحرق بالنار جميع ما أنتجته يداه. ٢٥- كلمات الأب موسى التي قالها لي عن علاج الضجر.

٥٢٩

المؤسسات لنظام الشركة ١١- في روح المجد الباطل

١- سابع صراع لنا موجه ضد المجد الباطل، وما هي طبيعته. ٢- لا يكتفي المجد الباطل بأن يهاجم الراهب من الناحية الجسدية، بل والروحية. ٣- كيف يأخذ المجد الباطل لنفسه أشكالاً وهيئات عدة. ٤- كيف يهاجم المجد الباطل الراهب من اليمين ومن الشمال. ٥- مقارنة تبين طبيعة المجد الباطل. ٦- لا يمكن التخلص من خطية المجد الباطل بميزات الوحدة. ٧- يرفع المجد الباطل رأسه عند هزيمته وهو أكثر حماساً للقتال عن ذي قبل. ٨- لا تخف وطأة المجد الباطل في الصحراء ولا مع تقدم السن. ٩- يصبح المجد الباطل أشد خطورة لدى اختلاطه بالفضائل. ١٠- مثال يظهر كيف أن الملك حزقيا أسقطه رمح المجد الباطل. ١١- مثال الملك عزيا الذي قضت عليه وصمة الآفة ذاتها. ١٢- شهادات متعددة ضد المجد الباطل. ١٣- في الأساليب التي يهاجم بها المجد الباطل أحد الرهبان. ١٤- كيف يدفع المجد الباطل إنساناً ما أن ينشد الدرجات الكهنوتية. ١٥- كيف يسم المجد الباطل العقل. ١٦- في شخص أقبل عليه الرئيس فوجده فريسة للمجد الباطل. ١٧- لا يتيسر علاج السقطات إلا إذا تم اكتشاف جذورها وعللها. ١٨- كيف ينبغي أن يتجنب الراهب النساء والأساقفة. ١٩- ضروب العلاج التي نستطيع أن نقهر بها المجد الباطل.

٥٤١

المؤسسات لنظام الشركة ١٢- في روح الكبرياء

الكبرياء أصل كل الشرور. خطورة الكبرياء

١- المعركة الثامنة عن الكبرياء، وسماتها. ٢- نوعان من الكبرياء. ٣- الكبرياء محطم كل الفضائل. ٤- بسبب الكبرياء انقلب كوكب الصبح من رئيس ملائكة إلى إبليس بهذا تقدر أن تفهم قوته الشنيعة الطاغية. ٥- الكبرياء منبع كل الخطايا. ٦- خطية الكبرياء هي الأخيرة في ترتيب القتال لكنها الأولى وأصل الخطايا. ٧- خطية الكبرياء خطيرة، الله نفسه هو عدوها! ٨- حطم الله كبرياء الشيطان بفضيلة التواضع. ٩- كيف نتغلب على الكبرياء؟ ١٠- لا يمكن لأحد أن يصل إلى كمال الفضيلة ويأخذ وعد البركة بقوته الذاتية بمفردها. ١١- توضيح نعمة الله في حالة اللص، وحالة داود، وفي دعوتنا نحن. ١٢- أي عناء نحتمله لا يُقابل بوعد البركة. ١٣- تعليم الآباء في طريقه اكتساب الطهارة. ١٤- تُعطى معونة الله للذين يجاهدون. ١٥- ممن نقدر أن نتعلم

طريق الكمال؟ ١٦- لا نستطيع أن نبذل مجهودنا لكي نحصل على الكمال بدون رحمة الله. ١٧- نصوص مختلفة توضح أننا لا نستطيع عمل أي شيء، يختص بخلاصنا بدون معونة الله. ١٨- كيف أصبحنا في حماية بواسطة نعمة الله، ليس فقط بعطاياه الطبيعية، لكن أيضاً بعنايته الإلهية اليومية. ١٩- تسلمنا الإيمان المرتبط بنعمة الله من قبل آبائنا القدماء. ٢٠- شخص غلبه روح شرير بسبب التجديف. ٢١- مثال يواش ملك يهوذا يوضح لنا ثمار الكبرياء. ٢٢- سقوط كل نفس متكبرة تحت خداع روح شريرة. ٢٣- لا يُمكن الحصول على الكمال إلا من خلال فضيلة التواضع. ٢٤- من الذي يُهاجم بالكبرياء الروحي ومن الذي يهاجم بالكبرياء الجسداني. ٢٥- وصف للكبرياء الجسداني، والشرور التي تنشأ عنه في نفس الراهب. ٢٦- الرجل الذي يبني على أساس سيئ ينحدر يومياً من سيئ إلى أسوأ. ٢٧- وصف الأخطاء التي تنشأ في خطية الكبرياء. ٢٨- عن كبرياء أحد الإخوة، إذ أطاع إلى وقتٍ ما. ٢٩- العلامات التي بها تدرك أن الكبرياء الجسداني متمكن في الروح. ٣٠- رغبة المُصاب بحالة فتور بسبب الكبرياء في أن يفقد آخرين. ٣١- كيف نتغلب على الكبرياء، ونبلغ إلى الكمال؟ ٣٢- الكبرياء المحطم لكل الفضائل يتحطم بالتواضع الحقيقي. ٣٣- علاج خطية الكبرياء.